# تاريخ المغرب في العصر الإسلامي

Bibliotheca Alexandrina
0198554

تأليف
يسري سالم
أستاذ ... الحضارة الإسلامية
كلية الآداب - جامعة الإسكندرية

الناشر
مؤسسة شباب الجامعة
للطباعة والنشر والتوزيع
ت ٤٨٢٩٤٧٤ الإسكندرية

إهداءات ١٩٩٩

أ.د/ السيد عبد العزيز سالم

أستاذ التاريخ الإسلامي

جامعة الإسكندرية

# تاريخ المغرب في العصر الإسلامي

تأليف
الدكتور السيد عبد العزيز سالم
أستاذ التاريخ الإسلامي والحضارة المغربية
كلية الآداب - جامعة الإسكندرية

الناشر
مؤسسة شباب الجامعة
للطباعة والنشر والتوزيع
ت ٨٢٧٩٤٢ - الإسكندرية

بسم الله الرحمن الرحيم

# مقدمة

كان المغرب العربي في العصر الاسلامي يرتبط حضاريا بالأقطار الاسلامية الشرقية ارتباطا وثيقا ، على الرغم من انفصاله سياسيا عن المشرق الاسلامي، منذ أن تعرضت أطراف الغرب الشرقية للغزوة الهلالية في سنة ٤٤٤ هـ . ولم تنقطع الصلات الحضارية بين شقي العالم العربي بصفة نهائية إلا بعد أن نجحت الدولة العثمانية في القضاء على دولة المماليك في مصر والسيطرة على البلاد التابعة لدولة المماليك . ولم يلبث المغرب العربي كله ، باستثناء المغرب الأقصى أن نكب بدوره بالسيطرة العثمانية ، ودعم الاستعمار الأوروبي للعالم العربي منذ النصف الأول من القرن التاسع عشر هذا الانفصال السياسي والحضاري. ولم يفق العرب من الصدمة الاستعمارية الجديدة إلا بعد أن مضى ما يقرب من قرن ونصف من الزمان ، فوالت ثوراتهم التحررية ، وحطموا تدريجيا القيود والأصفاد التي كبلهم بها المستعمرون .

وعلى هـــذا النحو كانت معرفة عرب المشرق بتاريخ المغرب العربي وحضارته في العصر الاسلامي حتى عهد قريب محدودة ، تعتمد أساسا على بحوث المستشرقين من الفرنسيين بوجه خاص ودراساتهم عن المغرب ، فقد كان الاستعمار الفرنسي يقيم ستارا حديديا حول هذه الأقطار المغربية بقصد عزلها تماما عن الأقطار المشرقية ، فلا تصل إليها أصداء المعارك التي كان يخوضها العرب في مصر والشام والعراق في سبيل التحرر والاستقلال ، ولا تصل إليها شرارات من نيران الثورات المحتدمة في قلب العالم العربي . وظلت أبواب المغرب العربي موصدة أمام عرب المشرق ، لم يدخلها منهم إلا

نفر قليل ، وعلى هذا النحو احتكر علماء الدول المستعمرة للمغرب وعلى رأسها فرنسا ميدان الدراسات المغربية لأنفسهم ، وهذا يفسر تخلف مؤرخي المغرب في مجال هذه الدراسات .

وعلى الرغم من أن كثيرا من المستشرقين المشتغلين بتاريخ وحضارة المغرب في العصر الاسلامي قد جانبوا الناحية العلمية ، فعمدوا إلى التحريف والتضليل في أبحاثهم لتعمية الرأي عن أمجادهم التاريخية ، أو أبرزوا الأخطاء التي وقع فيها العرب إبان حكمهم للمغرب ، وعجدوا الثورات التي قام بها أهل البلاد ضد العرب ، وبالغوا في تصوير مقاومة البربر وهم سكان البلاد للعرب الحاكمين ، رغبة في التفريق بين عنصري السكان ، فانه لاينبغي أن نجد فضل الأبحاث القيمة التي قام بها جمهور كبير من المستشرقين من الفرنسيين والاسبان والايطاليين والمشتغلين في تاريخ المغرب العربي وحضارته نخص بالذكر منهم الأساتذة ليفي بروفنسال ، وإميل لامبير ، وجورج مارسيه ، ووليم مارسيه ، وهنري تراس ، وتوريس بلباس ، وخواكين فالنثيا ، وخواكين جنتالث ، وبوريس ماسلو ، وهنري باسيه وغيرهم ، فقد انسمت بحوث هؤلاء العلماء بالنزاهة العلمية والصدق والدقة في تحري الحقائق ، والاعتماد على المصادر العربية التي بذلوا في نشرها وتحقيقها جهودا مضنية . كما لاينبغي أن ننسى الدراسات والبحوث الأصيلة في حضارة المغرب وتاريخه في العصر الاسلامي التي قام بها المستشرق الفرنسي الكبير الأستاذ ليفي بروفنسال الذي قضى حياته في خدمة التراث الاسلامي في أرض المغرب والأندلس .

وبينما كان المستشرقون وحدهم يستأثرون بالبحث في تراث المغرب

الفني والفكري ، كان هناك فريق من العلماء العرب يعملون من جانبهم على تحقيق بعض المخطوطات المغربية ودراسة بعض مظاهر حضارة الإسلام في المغرب . هؤلاء العلماء هم الطليعة العربية في الدراسات المغربية منذ النصف الأول من القرن العشرين ، نذكر منهم من المغاربة الأساتذة حسن حسني عبد الوهاب ، والسيد علال الفاسي ، وأحمد توفيق المدني ، وعبد الله كنون ، وعبان لكحاك ، ومحمد بن تاويت الطنجي ، وعبد الهادي التازي . ونذكر من المصريين الأساتذة الدكتور أحمد فكري أول باحث عربي في مصر يقوم بدراسات أثرية علمية عن مساجد البلاد التونسية وآثارها ، والدكتور حسين مؤنس الذي قام بأبحاث مغربية موفقة ، والمرحوم الأستاذ عبد الحميد العبادي الذي تعمق في دراسة تاريخ المغرب العربي في العصر الإسلامي وكان يدرسه في الجامعات المصرية . وبدأت الدراسات المغربية تتقدم تقدما ملحوظا منذ أن تحررت أقطار المغرب العربي من الاستعمار الأوربي ، وتحطم الحاجز الوهمي الذي وضعه الاستعمار بين عرب المشرق والمغرب ، وفتح المغرب أبوابه الموصدة للباحثين من أبناء العروبة ، وأخذ هؤلاء يساهمون في البحث والتنقيب عن تاريخ المغرب وآثاره في العصر الإسلامي ومن هؤلاء الباحثين الأساتذة : الدكتور سعد زغلول عبد الحميد الذي قام بأبحاث أصيلة عن المغرب الإسلامي وحضارته ، والدكتور أحمد مختار العبادي الذي ساهم بنصيب وافر في نشر مصنفات لسان الدين بن الخطيب ورسائله ، والدكتور حسن محمود الذي اهتم بتاريخ المغرب في عصر دولة الرابطين بوجه خاص ، والأستاذ محمد عبد الله عنان الذي بذل جهودا موفقة في دراسة تاريخ المغرب والأندلس في العصور الإسلامية ، والدكتور عبان عثمان إسماعيل الذي ساهم في التنقيب عن آثار شالة الإسلامية وجعلها موضوع رسالته التي حصل بها على درجة الدكتوراه من جامعة الإسكندرية.

وعلى الرغم من هذه الجهود التي بذلها الباحثون من المستشرقين والعرب، فإن الدراسات المغربية الإسلامية تعتبر أحدث بكثير من الدراسات الشرقية، ومازال تاريخ المغرب وحضارته في العصر الإسلامي يحتاج إلى المزيد من هذه الجهود.

* * *

وهذا الكتاب الذي أقدمه لقراء العربية، وهو عرض سريع لتاريخ المغرب العربي في العصر الإسلامي، وخلاصة دراسات قمت بها في بلاد المغرب والأندلس، يؤلف الجزء الثاني من تاريخ كامل للمغرب العربي منذ أقدم العصور اشتركت في تأليفه زميلان عزيزان هما الأستاذ الدكتور رشيد الناضوري عن المغرب في العصر القديم حتى نهاية العصر الروماني، واشتركت فيه بهذا الجزء الثاني عن المغرب في العصر الإسلامي، وقبلت كتابة فصلين في بداية الكتاب عن تاريخ المغرب في عهد الوندال والبيزنطيين، تكملة للقسم الذي وضعه الدكتور الناضوري وبسبب العلاقة الوثيقة لهذه الفترة بالعصرين القديم والإسلامي، بحيث تعتبر تمهيداً لابد منه للعصر الإسلامي. وأخيراً اشترك الأستاذ الدكتور جلال يحيى بالجزء الثالث عن تاريخ المغرب في العصر الحديث.

وقد قسمت العصر الإسلامي إلى أربعة أبواب، كل منها يتضمن عدداً من الفصول وتوقفت في حديثي إلى نهاية دولة الموحدين، واختصت موضوع القسم الإسلامي بدراسة موجزة عن الدول التي ورثت دولة الموحدين في المغرب. ولقد حرصت على تسجيل الفترات الذهبية للحضارة المغربية في العصر الإسلامي، فخصصت فصولاً لدراسة آثار كل أسرة من الأسرات الحاكمة

المغرب ، ولم أغفل الناحية العمرانية ، وهي جانب هام للحضارة المغربية ، فضمنت الكتاب تاريخ المدن المغربية التي أنشئت في العصر الإسلامي .

أرجو أن أكون قد حققت للقارىء العربي رغبته في الإلمام بتاريخ المغرب العربي في العصر الإسلامي جملة واحدة ، والله أسأله التوفيق .

السيد عبد العزيز سالم

بسم الله الرحمن الرحيم

## مقدمة الطبعة الثانية ( المصورة )

حقق صدور الجزء الثاني من موسوعة المغرب الكبير ، ويتعلق بتاريخ المغرب في العصر الاسلامي ، نشر الدار القومية للطباعة والنشر بالاسكندرية سنة ١٩٦٦ ، الهدف الذي كنا نسعى اليه ، بقدر اعداد الباحثون والدارسون في تاريخ المغرب الاسلامي من مادته العلمية ، اذ فتح لهم ابوابا جديدة للبحث العلمي ، ويسر عليهم التكامل في عرض حوادث المغرب الاسلامي منذ المحاولات الاولى لفتح العرب للمغرب حتى نهاية عصر دولة الموحدين ، والشمولية والترابط الواضحين في المادة التاريخية ، مما يعين التعرف على حضارة المغرب في العصر الاسلامي . ووضع اليد على النقاط التي يمكن ان يفيد منها الباحث في استنباط الافكار الجديدة . والحق ان كتاب المغرب الاسلامي اسدى خدمات جليلة لطلاب العلم والباحثين في مختلف انحاء الوطن العربي لا يمكن انكارها ، وليس ادل على ذلك من تزايد الاقبال على اقتناء هذا الكتاب بحيث نفذ خلال سنوات قليلة من ظهوره ، وترتب على ذلك ازدياد الطلب على اقتنائه الامر الذي دعاني الى التفكير في اعادة طباعته وتعديل موضوعاته ، وهو امر قد يطول امام الضغوط الشديدة على المطابع نتيجة انصراف هذه المطابع لطباعة الكتب الجامعية . وقد وافقت اخيرا امام الالحاح المتواصل على اصدار طبعة مصورة من هذا الكتاب بعد حذف الفصلين الاولين ويتناولان تاريخ المغرب في ظل الوندال والبيزنطيين ، والاقتصار على العصر الاسلامي ، بحيث يصدر هذا الجزء كتابا مستقلا عن الموسوعة التي كان يؤلف الجزء الثاني منها وذلك تيسيرا على الباحثين في الافادة من مادته . ومع ذلك نتمنى بصدد اعداد طبعة جديدة معدلة ومنقحة من هذا الكتاب بمسترشدا بما صدر حديثا من مخطوطات محققة وابحاث علمية عن بلاد المغرب .

والله ولي التوفيق ...

السيد عبد العزيز سالم

يونيو ١٩٨٣

# المغرب فى العصر الاسلامى

# تمهيد

## دراسة لأهم مصادر تاريخ المغرب في العصر الإسلامي

**أولا ـ الآثار الإسلامية في المغرب :**

تعتبر الآثار الباقية ، سواء الثابتة منها كالعمائر ، أو المنقولة كالتحف والعملات ، من أهم المصادر التي يعتمد عليها المؤرخون في كتاباتهم عن المغرب الإسلامي ، ذلك لأن الوثائق التاريخية لا تكفي وحدها لهذا الغرض ، إما لندرتها ، أو لتناقض ما جاء فيها ، أو لاختلاط الحقائق التاريخية فيها بالقصص والأساطير . ثم إن الآثار تعتبر سجلا تاريخيا حيا للأعمال التي قام بها الولاة والأمراء في العصور الإسلامية المختلفة ، وشاهدا ماديا ماثلا لحضارة الإسلام في المغرب ، فمن هذه الآثار استطعنا أن نقف على مدى ما وصل إليه رجال الفن والصناعات من تقدم في المجال الحضاري ، ومن نقوشها استطعنا أن نصحح كثيرا من الأخطاء التاريخية التي وقع فيها بعض المؤرخين ، ونميط اللثام عن حقائق تاريخية جديدة ، فالنقوش الكتابية التي تدور بقباب المحراب والقبو بجامعي القيروان وتونس ، والكتابات التي تطالعنا فيما تبقى من آثار المغرب في العصر الإسلامي من أبواب أثرية وأسوار وقلاع وحمامات وفنادق وقصور وقناطر وجسور تتضمن تواريخ دقيقة لهذه المنشآت ، كما تتضمن في كثير من الأحيان أسماء منشئيها من الأمراء والسلاطين ، وفي بعض الأحيان أسماء الحرفاء والمهندسين الذين أشرفوا على إنشائها ، وهي أمور غفلت الوثائق التاريخية عن ذكرها على هذا النحو من الدقة . وهكذا تبدو لنا الآثار المغربية بنقوشها الكتابية ، وأساليبها الفنية المختلفة وكأنها أحياء تنطق بلغة

يفهمها الناس جميعا . كذلك تحدد لنا العملات تواريخ هامة قد ترد خطأ في المصادر المكتوبة أو المنقولة ، ثم هي تشتمل على ألقاب السلاطين والأمراء وتتضمن أيضا أسماء المدن التي سكت فيها . ودراسة العملات تفيدنا في دراسة الأحوال الاقتصادية للمغرب في العصر الاسلامي .

والآثار الاسلامية في المغرب تصور لنا جانبا هاما من جوانب الحضارة العربية الاسلامية في هذا الجزء من الوطن العربي الكبير ، وهي خير ما يطلق بما كانت عليه هذه الحضارة من تقدم وازدهار ، والوثائق الحقيقية الصادقة التي نستند عليها في كتابة تاريخنا عن المغرب العربي ، فالنفوذ الأندلسي على على المغرب الأقصى في العصر الأموي يتجلى بصورة واضحة في آثار فاس ( مسجد القرويين والأندلسيين ) ، وسيطرة المرابطين والموحدين على الأندلس يعبر عنها الأسلوب الفني المشترك السائد في كل من المغرب والأندلس في هذين العصرين ، وغلبة الطابع القرناطي على آثار المغرب كله منذ أوائل القرن الرابع عشر يعبر عن أثر العلاقات السياسية بين بني مرين وبني الأحمر في الفنون المعمارية ، كما يعبر أيضا عن حقيقة تاريخية ثابتة ، هي هجرة الفن الأندلسي القرناطي إلى المغرب بعد انتهاء دولة الاسلام في الأندلس .

فدراسة الآثار الاسلامية ببلاد المغرب تعتبر ضرورة لازمة لدراسة تاريخ المغرب في العصر الاسلامي ، كما أنها تعتبر كذلك ضرورة لازمة لدراسة تاريخ العمران الاسلامي في إفريقية : فمدينة القيروان أسست عند الفتح العربي لتكون قاعدة ارتكاز للجيوش العربية في أرض المغرب ، كما أن تونس أسست أيضا لتكون دار صناعة وحرسا للساحل التونسي في ولاية حسان ابن النعمان ، ومدينة فاس أقيمت في سنة ١٩١ هـ لتكون مركزا لدولة الأدارسة

الشيعية ، أما مراكش فقد أقامها المرابطون في أيام أبي بكر عمر اللمتوني ، والرباط أسسها الموحدون في عهد المنصور لتكون رباطاً للمثاغرين من أهل المغرب ينتقلون منه للجهاد في أرض الأندلس . وما زالت آثار تونس ، والقيروان ، ووهران ، وتلمسان ، وفاس ، والرباط ، ومراكش ، وغيرها من مدن المغرب تعبر عن الدور الكبير الذي قام به الأمراء والخلفاء والسلاطين في العمران المغربي ، ولا يخفى أهمية ذلك بالنسبة للحضارة المغربية ، لاتصاله الوثيق بالنواحي الاقتصادية والاجتماعية : فالمدن تتضمن مؤسسات اقتصادية واجتماعية من أسواق ، ومصانع ، وحمامات ، وفنادق ، ودور للصناعة ، لعبت دورا هاما في الاقتصاد المغربي في العصر الوسيط .

وبلاد المغرب تزخر بالآثار الإسلامية التي يمتد تاريخها من الفتح العربي سنة ٥٠ هـ إلى سقوط غرناطة ، آخر معقل للمسلمين في الأندلس ، سنة ٨٩٧ هـ . ويهمنا من دراسة الآثار المغربية ، الآثار المعمارية بالذات ، لأنها آثار مادية ثابتة . وتنقسم المنشآت الأثرية إلى ثلاثة أنواع :

١ ـ المنشآت الدينية ، وهي أكثر المآثر القائمة في أرض المغرب ، وتشتمل على المساجد ، والزوايا ، والأضرحة . وتعتبر أهم أنواع الآثار المعمارية لما تتضمنه من نقوش زخرفية وكتابية تعد ذخيرة تاريخية طيبة ، ولما تضمه بين جدرانها من أساليب فنية ذات مستويات مختلفة . تعكس روح العصر الذي أقيمت فيه ، وتعبر عن طبيعة الحياة السياسية والاجتماعية في هذا العصر .

٢ ـ المنشآت الحربية ، ونعني بها أعمال التحصينات من قلاع ، وقصاب ، وأسوار تتحصن بها المدن ، وترد هجمات الغازين والمعتدين . ونلاحظ أن

معظم مدن المغرب مازال يحتفظ بهـــذه الأسوار والقلاع ، كما أن أبوابها مازالت تحمل أسماءها القديمة ، وهو أمر يساعد على دراسة طبوغرافية المدن المغربية في العصر الإسلامي .

٣ ـ المنشآت المدنية ، وتشتمل على عناصر المنافع العامة من خزانات وجسور وقناطر ومواجل ، كما تشتمل على العناصر الخاصة بالحياة الاجتماعية والاقتصادية من حمامات ودور وقصور ومصانع وفنادق .

ونرجو أن يتسع المجال لدراسة بعض أمثلة من هـذه المنشآت بأنواعها الثلاثة في بلاد المغرب في العصور الإسلامية المختلفة .

**ثانيا ـ أهم المصادر العربية :**

تعني بالمصادر العربية التواليف والمصنفات المطبوعة ، والمدونات المخطوطة التي صنفها مؤرخو العرب وجغرافيوهم القدامى في تاريخ الفتح العربي للمغرب ، أو في تاريخ الدول الإسلامية التي قامت في المغرب ، أو في دراسة مدنه ووصف المغرب . وسنستعرض أهم هذه المصادر .

**١ ـ مصادر تاريخ الفتح العربي للمغرب :**

١ ـ عبد الرحمن بن عبد الحكم (ت ٢٥٧هـ (٨٧١م)) : كتاب فتوح مصر والمغرب والأندلس :

هو أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم القرشي المصري ، ولد بمصر فيما يغلب من سنة ١٨٧ هـ ، وتوفي بالفسطاط في عام ٢٥٧ هـ ، ودفن إلى جوار قبر الإمام الشافعي تلميذ القبلة . وكان ابن عبد الحكم

من أسرة اشتهرت بمعرفة علوم الحديث والفقه ، وكان أبوه عبد الله بن عبد الحكم[1] من كبار المحدثين فى مصر ، وله مصنفات كثيرة فى الفقه والحديث . وورث ابنه عبد الرحمن عنه هذا العلم ، فكان من أهل الحديث ، عالما بالتواريخ . وقد انعكست دراسات ابن عبد الحكم القائمة على الحديث فى كتابه فتوح مصر والمغرب والأندلس ، فقد اعتمد فى رواياته التاريخية على الأسانيد الكاملة ، فأعاد الرواية فى أشكالها التى حفظت بها فى ذاكرة الناس[2] . ويتضح هذا المنهج فى كثرة عدد الروايات غير الموثوق بها ، عرضها ابن عبد الحكم على هذه الأشكال المختلفة من الرواية ، حرصا على بيان رواتها ، وأمانة فى النقل ، دون أن يعنى بنقدها ، فهو يذكر مثلا عند تعرضه لغزوة عمرو فى الخيل إلى برقة : « ... حدثنا عثمان بن صالح ، حدثنا ابن لهيعة أن انطابلس فتحت بعهد من عمرو بن العاص . حدثنا عبد الملك ابن مسلمة ، حدثنا ابن لهيعة عن يزيد بن عبد الله الحضرمى ، أن ابن دياس حين ولى أنطابلس أتاه بكتاب عهدهم . حدثنا عبد الملك بن مسلمة ، حدثنا ابن لهيعة ، عن يزيد بن عبد الله الحضرمى ، عن أبى قتان أيوب بن أبى العالية الحضرمى ، عن أبيه قال : سمعت عمرو بن العاص على المنبر يقول لأهل أنطابلس عهد يوفى لهم به »[3] . ونفهم من هذا النص أن ابن عبد الحكم

---

(١) ولد عبد الله بن عبد الحكم بالاسكندرية فى سنة ١٨٥ ، وتوفى بالفسطاط فى سنة ٢١٤ هـ .

(٢) مقدمة كتاب فتوح مصر والمغرب ، تحقيق الأستاذ عبد المنعم عامر ، القاهرة ١٩٦١ مقدمة ك .

(٣) Ibn 'Abd el - Hakam, Conquête de l'Afrique du Nord et de l'Espagne, texte et trad. par Albert Gateau. Alger, 1947, p. 36.

اعتمد على روايات شفوية تناقلها الرواة ، ومعلومات مكتوبة نقلها عن طريق المشايخ الذين رأوا السجلات الرسمية الخاصة بفتح مصر والمغرب ، أو نسخوها قبل احتراق ديوان القسطاطية(١) . هذه المعلومات المكتوبة التي نقلها ابن عبد الحكم تتمثل فيما كتبه الواقدي ( المتوفى سنة ٢٠٧ ) ، وابن لهيعة ( المتوفى سنة ١٧٤ هـ ) . وكان ابن لهيعة حجة في الحديث ، ومصدرا هاما في التاريخ المصري ، ونستنتج أيضا من النص السابق ، ومن غيره من النصوص أن ابن عبد الحكم اعتمد كثيرا في تأريخه للحوادث على عثمان بن صالح المتوفى سنة ٢١٩ هـ . ، وهو مصدر مصري هام كان له فضل كبير في التأريخ العربي لفتح العرب للمغرب والأندلس . فرواية ابن عبد الحكم إذن تمثل الرواية الشرقية لقصة فتح العرب للمغرب(٢) .

والملاحظ أن ابن عبد الحكم يقل من ذكر الإسناد كلما توسع في تأريخ حوادث الفتح ، لقلة الحقائق التي يجمعها أو لقلة الأحاديث ، وإن كان يعتمد من رواية عثمان بن صالح قاعدة أساسية لتأريخه ومن بين من ذكرهم ابن عبد الحكم من المحدثين ، في فتوح المغرب ، بخلاف ابن لهيعة ، عبد الملك ابن مسلمة ، ويذكره ابن عبد الحكم دائما في نهاية الإسناد ، والليث بن سعد ( المتوفى سنة ١٧٥ ) أعظم راوية للتاريخ ، ومنهم يزيد بن أبي حبيب ، أستاذ ابن لهيعة والليث ، وكان مصدرا أخباريا دقيقا من أقدم مصادر الرواية التاريخية . ولا يخفى أن مصر كانت مركزا يمر عليه علماء المغرب وطلاب العلم ، يأخذون فيها عن علمائها ، وقد ذكر ابن عبد الحكم بعض

---

(١) سعد زغلول عبد الحميد ، فتح العرب للمغرب بين العناية التاريخية والأسطورة الشعبية ، ص ٨ . (٢) نفس المرجع .

أسماء هؤلاء منهم هلال بن ثروان اللواتي الذي اشترك في حملة حسان ابن النعمان .

ويعتبر كتاب فتوح المغرب أقدم المصادر العربية في تاريخ الفتح العربي للمغرب ، وقد كتبه ابن عبد الحكم كمقدمة لفتح مصر . ويبدأ تاريخ فتح المغرب بالمحاولات الأولى للفتح ، وذلك منذ قيام عمرو بن العاص بغزو برقة وطرابلس ، ومعاودة عبد الله بن سعد ، ومعاوية بن حديج السكوني على إفريقية . ثم يستمر في سياق الروايات عن الفتح على أيدي عقبة بن نافع ، وأبي المهاجر دينار ، وزهير بن قيس ، وحسان بن النعمان ، ويستكمل روايته ولاية موسى بن نصير على إفريقية . وقد اهتم المؤرخون بنشر فصول من هذا الكتاب منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، ففي الترجمة الفرنسية لكتاب العبر لابن خلدون التي نشرها دي سلان بعنوان : Histoire des Berbères ، نشر قطعة من فتوح المغرب لابن عبد الحكم تنتهي حتى إنشاء القيروان . كذلك نشر جون هاريس جونز سنة ١٨٩٦ ترجمة من فتوح الأندلس لابن عبد الحكم ، وقد استعان المستشرق الأسباني بهذه الترجمة الفرنسية وترجم منها عدة صفحات إلى الأسبانية في مقدمته لكتاب « أخبار مجموعة في تاريخ الأندلس » ، وفي سنة ١٩١٤ نشر هنري ماسيه الجزء الخاص بفتوح مصر . وفي سنة ١٩٢٢ صدر النص الكامل لكتاب فتوح مصر وإفريقية نشره تشارلز تورى بعنوان Kitab Futuh Misr. ومنذ نحو ١٧ سنة تقريبا قام المستشرق الفرنسي الأستاذ البيرجاتو بنشر القسم الخاص بفتوح المغرب والأندلس مع الترجمة الفرنسية ومقدمة نقدية وافية ، بعنوان :

Conquête de l' Afrique du Nord et de l' Espagne, dans : Bibliothèque Arabo - Française, No II, Alger, 1947.

وأخيرا نشر الأستاذ عبد المنعم عامر النص التاريخي كله منفصلا فتوح مصر والمغرب والأندلس بالقاهرة فى ١٩٦١ ، عن نسخة من كتاب فتوح مصر والمغرب محفوظة بمكتبة فاتح بالآستانة .

**٢ ـ البلاذرى ( ت ٢٧٩ ) كتاب فتوح البلدان :**

هو أحمد بن يحيى بن جابر بن داود المعروف بالبلاذرى ، غير معروف الأصل . وإن كان الأستاذ سوفاجيه يميل إلى إرجاع أصله إلى الفرس . ولد البلاذرى فى بغداد فى أواخر القرن الثانى الهجرة ، ونشأ فى فترة من أزهى عصور الحضارة العباسية فى القرن الثالث الهجرى ، وأخذ عن علماء بغداد أمثـــال الحسين بن على الأسود ، والقاسم بن سلام ، والمدائنى ، ومحمد بن سعد ، ثم رحل إلى الشام فى صباه رغبة فى التحصيل ، واكتساب ثقافات جديدة ، وتنقل بين مدن الشام آخذا على علمائها ، ففى دمشق سمع على هشام بن عمار وأبى حفص الدمشقى ، وفى حمص سمع على محمد بن مصفى . وعلى هذا النحو استطاع للبلاذرى أن يجمع بين علم أهل العراق وعلم أهل الشام ، وكان لأساتذته وثقافته ورحلاته وتردده على قصور الخلفاء أثر كبير فى إنتاجه التاريخى(١) . وقد لازم البلاذرى الخليفة المتوكل ، وارتفعت مكانته عنده ، فكان يجالسه ويؤانسه . وعاش البلاذرى فترة من عصر الفتوح

---

(١) مقدمة كتاب فتوح البلدان ، تحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد ، القاهرة ١٩٥٦ ص ١٣ ، ١٤ .

التركي الأول ، وشهد مقتل المتوكل سنة ٢٤٨ هـ ، والمنتصر سنة ٢٤٨ هـ أيضاً ثم اتصل بالمستعين ، وعاش في كنفه ، ولكن المستعين لم يطل به العمر في الخلافة ، إذ قتل بعد أربع سنوات من خلافته ، وتولى المعتز سنة ٢٥٢ ، وعهد إلى البلاذري بتأديب ابنه ، وكان مصير المعتز أيضاً نفس مصير أسلافه من خلفاء بني العباس ، ومنذ مقتل المعتز أخذ البلاذري يتوارى عن حياة البلاط الخلافي ، وقاسى شظف العيش في خلافة المعتمد ، وتوفي أخيراً في آخر خلافة المعتمد سنة ٢٧٩ هـ .

ويبدو أن البلاذري تأثر بما دونه الواقدي والمدائني وابن الحكم وغيرهم في الفتوح ، فألف كتابه « فتوح البلدان » على غرار كتب الفتوح التي صنفها المدائني والواقدي وأبو حذيفة وابن المثنى ، واستقى معظم أخباره عن الواقدي ، والقاسم بن سلام ، والمدائني ، والعباس بن هشام ، كما أخذ بعض أخباره عن أشخاص من أجناس مختلفة ذكر أسماء بعضهم أحياناً ، وأغفلها أحياناً أخرى .

ويهمنا من كتابه ، القسم الخاص بفتح إفريقية ، وهو قسم موجز ، اعتمد فيه أكثر ما اعتمد على ما سرده به محمد بن سعد عن الواقدي . وتتميز أخباره بملاحظاته الشخصية التي يرجح فيها رواية على رواية ، غير أنه أخطأ في بعض أخباره التي رواها ، ولعل سبب وقوعه في هذه الأخطاء يرجع إلى اعتماده على مصادر شرقية لا تتضمن أخباراً صحيحة عن إفريقية .

وقد نشر « فتوح البلدان » عدة مرات ، وأهم هذه النشرات ، نشرة دي غوية ، الذي نشره كاملاً في ثلاثة أقسام من سنة ١٨٦٢ إلى سنة

١٨٦٦ ، ومنها نشرة الدكتور صلاح الدين المنجد ، فى ثلاثة أجزاء سنة ١٩٥٦ .

٣ ـ ابن الأثير ( ت ٦٣٠ هـ ) ، الكامل فى التاريخ :

يتناول تاريخ العالم عامة والعالم الإسلامى بوجه خاص ، وقد رتب ابن الأثير هذا التاريخ حسب السنين ، وضمن المؤرخ حولياته أحداث المغرب حتى سنة ٦٢٨ هـ وهى السنة التى توفى فيها . وقد جرد المستشرق Fagnan من هذا الكتاب الكبير كل ما يتصل بأحداث المغرب ، ونشره بعنوان : Annales du Maghreb et de l' Espagne du Tarikh d' Ibn el - Athir, Alger, 1901. وتعتبر الأخبار الخاصة بفتح العرب للمغرب ، والواردة فى الكامل من أهم المصادر العربية ، وأكثرها دقة ، فقد اعتمد المؤرخ فيها على مصادر أندلسية مغربية ، وكانت هذه المصادر متوفرة فى عصر ابن الأثير .

٤ ـ أبو بكر عبد الله بن أبى عبد الله المالكى ( ت . بعد سنة ٤٥٣ ) كتاب رياض النفوس :

من أهم مصادر تاريخ الفتح العربى للمغرب ، إذ يتضمن فصلا يستعرض فيه المؤلف حوادث الفتح العربى كاملة وافية ، منذ المحاولات الأولى التى قام بها عمرو بن العاص سنة ٢١ هـ حتى استكمال حسان بن النعمان الفتح فى سنة ٨٥ هـ . وقد اعتمد المالكى فى هذا القسم التاريخى على مصادر شرقية كالواقدى وابن اسحق [١] ، بالاضافة إلى روايات اقتبسها من مصنفات

(١) أبو بكر عبد الله المالكى ، كتاب رياض النفوس ، تحقيق الدكتور حسين مؤنس ، القاهرة ١٩٥١ ، ص ٢١ مقدمة .

مغربية قديمة ضاعت ولم تصل إلينا . وبقية الكتاب تراجم لعلماء إفريقية وفقهائها ، طبقة بعد طبقة حتى سنة ٣٥٦ . وقد نشر الأستاذ الدكتور حسين مؤنس الجزء الأول من هذا الكتاب ، ويشمل الفترة الواقعة ما بين الفتح العربي إلى آخر سنة ٣٠٠ هـ . وقد صدر الكتاب في القاهرة في سنة ١٩٥١ .

٥ - النويري ( ت ٧٣٢ هـ ) ، نهاية الأرب في فنون الأدب :

هو شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب بن عبد الكريم البكري المعروف بالنويري ، ولد سنة ٦٧٧ بمدينة قوص ، وتلقى العلوم الدينية في بلدته بالصعيد ، فسمع الحديث على عدد من كبار المحدثين . ونبغ في الإنشاء حتى أنه تولى كتابة الإنشاء في عصر الناصر محمد بن قلاوون ، ثم تدرج في سلك الدواوين ، وجمع كتابه الكبير « نهاية الأرب في فنون الأدب » في ثلاثين مجلدا (١) . وقد قسم النويري هذه الموسوعة إلى خمسة أقسام : الأول في الجغرافيا ( في السماء والآثار العلوية والأرض والعالم السفلية ) ، والثاني في الانسان وما يتعلق به ، والثالث في الحيوان الصامت ، والرابع في النبات ، والخامس في التاريخ (٢) . ويتضمن هذا القسم الأخير جزئين هما الخامس والسادس ، أفردهما لتاريخ إفريقية والأندلس . وفي هذين الجزئين يعتمد في أخباره اعتمادا كبيرا على مؤرخ أندلسي اسمه الزهري ، لعله المسور بن مخرمة بن نوفل الزهري ، ويتشابه ما كتبه النويري عن المغرب مع ما كتبه المالكي ، مما يؤكد اعتماد المؤرخين على مصدر واحد . ويعتقد الأستاذ

---

(١) نقولا زيادة ، الجغرافية والرحلات عند العرب ، بيروت ، ١٩٦٢ ص ٩٥ .

(٢) النويري ، نهاية الأرب في فنون الأدب ، القاهرة ، مطبوعات دار الكتب المصرية ، ١٩٢٣ ، ج ١ ص ٢ .

حسن حسني عبد الوهاب أن هذا المصدر هو كتاب بعنوان مغازي إفريقية لمؤلف مجهول ، مات في حدود القرن الثاني للهجرة [١] ، ولعله نفس كتاب المغازي الذي ينسب إلى الواقدي .

وكتابة النويري عن الفتح العربي للمغرب تتضمن أخبارا تختلط فيها الأقاصيص بالحقيقة . وقد نشر ماريانو جسبار ريميرو هذين الجزئين مع الترجمة الاسبانية في عامي ١٩١٧ ، ١٩١٨ (٢) .

ب . أهم المصادر العربية في تاريخ المغرب في العصر الاسلامي :

١ — ابن عذاري المراكشي ( ت . في أواخر القرن السابع الهجري ) : البيان المغرب في أخبار المغرب :

هو مؤرخ مغربي عاش في عصر الموحدين ، ولا يعتبر كتابه المذكور من أهم مصادر الفتح العربي للمغرب فحسب ، بل أهم مصادر تاريخ بلاد المغرب والأندلس في العصر الاسلامي على الإطلاق ، إذ يتميز بتضمنه لأخبار عن تاريخ الفتح أكثر دقة من الأخبار التي أوردها ابن عبد الحكم والبلاذري . ويتناول ابن عذاري في كتابه « البيان المغرب » تاريخ المغرب والأندلس منذ الفتح حتى أواخر القرن السادس الهجري . وقد اعتمد ابن عذاري فيه على مصادر مغربية أندلسية ، ترجع إلى القرنين الخامس والسادس الهجري ، فرواياته عن الفتح تمثل الروايتين الأندلسية المغربية

---

(١) حسن مؤنس ، فتح العرب للمغرب ، ص ٣١٠ .

(٢) آنخل بالنثيا ، تاريخ الفكر الأندلسي ، ترجمة الدكتور حسين مؤنس ، القاهرة ١٩٥٥ ، ص ٢٥١ .

والافريقية (١) . ويذكر ابن عذارى نفسه أنه نقل من عدد من المصادر منها تاريخ الطبرى والبكرى والرقيق والغضاعى ، وابن شرف ومن كتاب الانوار الجلية فى الدولة المرابطية ، ومن نظم الجمان ومن كتابي الأشيرى واليذق، وكتاب يوسف الكاتب .. إلى آخره . وقد اعتمد ابن عذارى فى تاريخ المغرب خاصة على كتاب صفة المغرب للبكرى الذى نقل عن أحمد الوراق ، وكتاب البر لابن أبي القياض وهو أندلسى من مدينة استجة ، وكتاب نظم الجمان لابن القطان وهو مؤرخ مغربى ، وكتاب الاستيعاب لابن عبد البر ، وهو قرطبى .

ويقسم ابن عذارى « البيان المغرب » إلى ثلاثة أجزاء : الأول يشتمل على أخبار إفريقية منذ الفتح الأول فى خلافة عثمان ، وذكر أمراء المغرب فى عصر الدولة الأموية ، والدولة العباسية حتى انتقال الفاطميين إلى مصر واستخلافهم صنهاجة على إفريقية ، ويعالج أيضا فتنة العرب وأسبابها وأخبار أمراء بنى زيرى وبنى حماد حتى ظهور المرابطين . والجزء الثانى : خصصه لتاريخ الأندلس منذ الفتح الإسلامى حتى دخول الملثمين ( المرابطين ) الأندلس فى سنة ٤٧٨ . أما الجزء الثالث فيضم تاريخ دولتى المرابطين والموحدين حتى انقراض دولة الموحدين وقيام الدول الوارثة للموحدين فى المغرب .

وقد نشر المستشرق الهولندى دوزى قسما من كتاب البيان المغرب فيما

---

(١) ليفى بروفنسال ، نص جديد عن فتح العرب للمغرب ، صحيفة المعهد المصرى للدراسات الاسلامية فى مدريد ، المجلد الثانى ، عدد ١ ، ٢ ، مدريد ١٩٥٤ ص ١٩٨ .

(٢) ابن عذارى ، البيان المغرب تحقيق ليفى بروفنسال ج ١ ، ١٩٤٨ ، ص ٢١٢ .

بين عامي ١٨٤٧ ، ١٨٥١ ، بليدن ، عن مخطوطة رقم ٦٧ بمكتبة ليدن ، وتتكون من ١٦٠ صفحة مكتوبة بخط مغربي ، ولكن المخطوطة التي اعتمد عليها دوزي مبتورة في بدايتها ونهايتها ، كما أن صفحاتها الأولى تآكلت بفعل الرطوبة ، وتنتهي أخبارها إلى نهاية القرن الرابع الهجري ، ويشتمل هذا القسم المنشور من البيان على الجزء الأول من الكتاب وقسم من الجزء الثاني ، نشرها دوزي في جزئين الأول : يتعلق بتاريخ المغرب منذ الفتح العربي حتى ظهور المرابطين مرتبة حوادثه حسب الدول والعهود ، أما الجزء الثاني فينتهي بوفاة المنصور محمد بن أبي عامر ، وقد أعيد طبع هذا الكتاب ببيروت ( دار صادر ـ بيروت ) في عام ١٩٥٠ . ولكن هذه النشرة الجديدة هي صورة مشوهة من طبعة ليدن ، إذ تكثر فيها الأخطاء والمآخذ ، ثم أعاد المستشرقان ليفي بروفنسال و كولان طبع القسم الذي نشره دوزي من البيان ، وراعيا في هذه الطبعة الجديدة أن يصححا الأخطاء التي وردت في طبعة دوزي ، من واقع مخطوطة جديدة عثر عليها الأستاذ ليفي بالمغرب . وكان هذا المستشرق الكبير قد نشر في سنة ١٩٣٠ بباريس القسم الخاص بملوك الطوائف في الأندلس أي من وفاة ابن أبي عامر إلى سنة ٤٦٠ هـ . وقد اعتقد ليفي بروفنسال أن هذا القسم الذي نشره هو الجزء الثالث من البيان ، ولكن اتضح فيما بعد أنه تتمة للجزء الثاني من هذا الكتاب .

ثم اهتم المستشرق الاسباني المعروف إميليو غرسيه غوميز بالجزء الثالث من البيان ، وكان قد نشر هذا الجزء في سنة ١٩١٧ ظنا منه أنه لمؤرخ مجهول ، وذلك من مخطوطة تعرف بمجهول مدريد و كوبنهاجن ، وقد تبين فيما بعد

أن هذا القسم هو نسخة مختصرة بعض الشيء من الجزء الثالث من البيان المغرب [١] .

وأخيرا قام هذا المستشرق نفسه فيما بين عامي ١٩٦٠ ، ١٩٦٣ بتحقيق هذا الجزء الثالث كاملا ، مستعينا في هذا بالأستاذين محمد بن تاويت ، ومحمد ابراهيم الكتاني ، ونشرته جامعة الرباط . وقد اعتمد المحققون في نشر هذا الجزء على عدة مخطوطات . وفي سنة ١٩٦٩ ، نشر السنيور امبروسيو إويق ميراندا قطعة من البيان تتعلق بتاريخ المرابطين في مجلة Hesperis [٢] .

٢ — عبد الرحمن بن خلدون ، كتاب العبر :

ينتسب عبد الرحمن بن محمد بن خلدون إلى بني خلدون من عرب اليمن الذين استقروا عند فتح الأندلس بمدينة إشبيلية ، وكانت لهم الرئاسة إبان عصر الاضمحلال الأول . وظل بنو خلدون يقيمون بهذه المدينة إلى أن كانت ثورة ابن الأحمر بحصن أرجونه ، وقيام فتنته التي انتهت بسقوط قرطبة في أيدي النصارى سنة ٦٣٦ هـ ، فارتحلوا إلى العدوة ، ونزلوا سبتة . وكان محمد بن الحسن بن خلدون جد المؤرخ ، يعمل في خدمة بني حفص بافريقية ، فنشأ ابنه أبو بكر محمد في بلاط السلطان بتونس ، وكان أبو بكر هذا على حد قول ابنه عبد الرحمن المؤرخ « مقدما في صناعة العربية ، وله بصر بالشعر وفنونه » (٣) .

---

(١) آنخل جنثالث بالنثيا ، ص ٢٥٠ .

(٢) لسان الدين بن الخطيب ، كتاب أعمال الأعلام ، القسم الثالث ، تحقيق الدكتور أحمد مختار العبادي ، والأستاذ محمد ابراهيم الكتاني ، الدار البيضاء ١٩٦٤ ص ٢٨٥ .

(٣) عبد الرحمن بن خلدون ، التعريف بابن خلدون ، ورحلته شرقا وغربا ، تحقيق محمد بن تاويت الطنجي ، القاهرة ١٩٥١ ص ١٤ .

ونشأ عبد الرحمن بن خلدون بتونس في بيئة علمية ، وقد عكف منذ نشأته على تحصيل العلم ، فقرأ على كبار أساتذة الأندلس والمغرب ، ودرس النحو وعلوم اللغة على يدي والده وأساتذة آخرين أمثال الشيخ أبو عبد الله محمد بن العربي ، وأبو عبد الله محمد بن الشواش الزرزالي والشيخ أحمد بن القصار ، ومحمد بن بحر ، كما لازم كبار المحدثين والفقهاء بتونس وفي مقدمتهم شمس الدين أبي عبد الله محمد بن جابر الوادي آشي ، ثم اتصل بالسلطان المريني أبي عنان ، فاستخدمه في كتابته سنة ٧٥٥ ، ومنذ هذا التاريخ بدأ نجم ابن خلدون يلمع في سماء السياسة ، وكانت لتجاربه الطويلة وخبرته الفائقة في ميدان السياسة في المغرب والأندلس أثر كبير في تعرفه لطبيعة الظواهر الاجتماعية والسياسية ، وتطور التاريخ والمجتمع وقيام الأسر وسقوطها[1] ، كما كانت لدراساته الطويلة على علماء عصره فضل كبير في تكوينه العلمي . ويعتبر كتابه « العبر » أعظم ما صنفه في تاريخ العرب والعجم والبربر ، ولا غنى لمن يبحث في تاريخ المغرب عن دراسة هذا المصنف العظيم الذي يعتبر أساسا لهذا التاريخ ، فهو موسوعة عظمى تتضمن خلاصة تجارب المؤلف . وقد قام بتأليفه في المغرب فيما بين عامي ٧٧٦ هـ ، ٧٨٠ هـ ، ورفع أجزاء منه إلى السلطان أبي العباس بتونس سنة ٧٨١ هـ ، أي في السنة التي رحل فيها إلى مصر ، ولكن يبدو أنه أضاف وعدل في هذا الكتاب أثناء مقامه في مصر ، بعد أن اتسع عليه الكثرة ما قرأه وبحث فيه ، ولكثرة ملاحظاته في رحلاته وأسفاره . ويهمنا من هذا الكتاب

---

(١) ولفرج ، فضل ، نقاط ابن خلدون في مصر المملوكية ، مقال في كتاب دراسات إسلامية ، ترجمة الأستاذ أنيس فريحة وآخرين ، بيروت ، ١٩٦٠ ، ص ١٢٨ .

الجزء الثالث ( طبعة بولاق سنة ١٢٨٤ هـ ) إذ يضم ثلاثة فصول هامة : الأول فى ذكر مواطن البربر فى المغرب ، والثانى فى ذكر فضائلهم ، والثالث فى ذكر أخبارهم منذ الفتح العربى وقد نشر البارون دى سلان الجزء الخاص بالبربر فى مجلدين ، وذلك فيما بين عامى ١٨٤٨ ، ١٨٥١ ، بعنوان : Histoire des Berbères, extraite du kitab el - Iber ، وترجم النص العربى إلى الفرنسية فيما بين عامى ١٨٥٢ ، ١٨٥٦ فى ثلاثة أجزاء . كذلك تولى دى فريجير نشر الجزء التاريخى الخاص بتاريخ المغرب منذ الفتح حتى بداية دولة بنى الأغلب ، وذلك فى سنة ١٨٤١ .

٣ ـ لسان الدين بن الخطيب ( ت ٧٧٦ ) ، كتاب أعمال الأعلام ، القسم الثالث الخاص بالمغرب :

هو لسان الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن سعيد المعروف بابن الخطيب السلمانى ، وأصل بيتهم من قرطبة(١) ، ولد فى لوشة من مدن مملكة غرناطة سنة ٧١٣ هـ ، ونشأ بغرناطة فى بيئة يسودها العلم والأدب ، وشغف منذ صباه بدراسة علوم الطب والفلسفة ، فأخذ عن الطبيب المشهور يحيى بن هذيل ، كما برع فى نظم الشعر والكتابة ، ولم يلبث أن دخل فى خدمة سلطان غرناطة أبى الحجاج يوسف بن محمد الخامس ( ٧٣٣ ـ ٧٥٥ ) ، واختير وزيرا له بعد وفاة الوزير ابن الحباب فى وباء سنة ٧٤٩(٢) ، ومنذ ذلك الحين

(١) ابن الخطيب ، الاحاطة فى أخبار غرناطة ، المجلد الأول ، تحرير الأستاذ محمد عبد الله عنان ، القاهرة ١٩٠٠ ، المقدمة ص ٣١ .

(٢) أنظر بشأنه بالتفصيل ص ٢٥٢ . ـ F. Pons Boigues, Ensayo bio - bibliografico sobre los historiadores y Geografos arabigo espanoles, Madrid, 1898, p. 335.

ظهرت براعته في الكتابة والنظم ، وتألق نجمه في الأدب والتاريخ والطب والفلسفة تألقا يشهد به وصوله إلى منصب الوزارة ، وإيفاده إلى المغرب سفيرا من سلطان غرناطة محمد الغني بالله سنة ٧٥٥ هـ إلى سلطانها أبي عنان المريني ، ليستنصره ، ويطلب معونته على ملك قشتالة . ونجح ابن الخطيب في مهمته ، ونال حظوة كبيرة عند السلطان الغرناطي . ثم لقي في سنة ٧٦٠ مع سلطانه محمد الخامس إلى المغرب على أثر الانقلاب الذي قام به أنصار اسماعيل ابن يوسف . وأقام ابن الخطيب في فاس زهاء ثلاث سنوات ، استأثر فيها بزعامة الفكر والكتابة ، وعكف خلالها على القراءة والتأليف والرحلة ، وقد كتب في فترة نفيه عدة كتب ، منها كتاب « اللمحة البدرية في الدولة النصرية » (١) ، وقد طبع هذا الكتاب في القاهرة سنة ١٣٤٧ هـ ، وكتاب « نفاضة الجراب في علالة الاغتراب » ، سجل فيه مشاهداته في المغرب ، وضمنه ما وقع له من أحداث سياسية في تلك الفترة(٢) ، وكتاب « معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار » ، وهي رسالة كتبها ابن الخطيب في وصف بعض مدن المغرب والأندلس ، نشرها الأستاذ الدكتور مختار العبادي مع مجموعة من رسائل ابن الخطيب(٣) .

ثم انتهت فترة النفي باسترجاع الغني بالله ملكه سنة ٧٦٣ ، فعاد إلى غرناطة وظل يقوم بوظيفته كوزير للسلطان حتى إذا ما أحس بتغير السلطان عليه

---

(١) أحمد مختار العبادي ، مؤلفات لسان الدين بن الخطيب في المغرب ، مقال في مجلة Hesperis سنة ١٩٥٩ العدد ٣ ، ٤ ، ص ٢٥٢ .

(٢) أحمد مختار العبادي ، مقدمة الكتاب أعمال الأعلام ص ٠ ح .

(٣) أحمد مختار العبادي ، مشاهدات لسان الدين بن الخطيب ، مجموعة رسائله ، الاسكندرية ١٩٥٨ ، ص ٦٩ .

بتأثير وشايات الواشين ، وعلى رأسهم تلميذه ابن زمرك الشاعر ، رحل إلى المغرب ، ولاذ بالسلطان أبي فارس عبد العزيز بن أبي الحسن المريني في تلمسان ، الذي أحسن وفادته ، وأبى أن يسلمه إلى حكومة غرناطة . وظل ابن الخطيب مقيما في المغرب . ولم يترك أعداؤه ينعم بإقامته في المغرب ، فقد عملوا على تدميره في منفاه ، فاتهموه بالزندقة ، وأحرقوا كتبه في غرناطة ، وما زالوا به ينادون بإعدامه ، حتى نكبه السلطان أبو العباس أحمد ابن أبي سالم المريني ، فاعتقله ، ودس عليه الوزير سليمان من قتله في السجن خنقا ، ثم حملت جثته وأحرقت .

ويعتبر كتابه « أعمال الأعلام » من الكتب الكبرى التي تناولت تاريخ الدول الاسلامية(١) ، وقد قسمه ابن الخطيب إلى ثلاثة أقسام كبرى : الأول ، وما يزال مخطوطا ، أفرده لتاريخ المشرق الاسلامي ، والثاني خصصه لتاريخ الأندلس منذ الفتح الاسلامي حتى عصر السلطان محمد بن يوسف بن اسماعيل ، وقد نشره الأستاذ ليفي بروفنسال في سنة ١٩٣٤ بالرباط ، وأعيد نشره في بيروت سنة ١٩٥٦ . والثالث أهم الأقسام الثلاثة بالنسبة لتاريخ المغرب ، إذ تناول فيه تاريخ المغرب منذ قيام دولة الأغالبة حتى قيام دولة الموحدين . ويبدو أن ابن الخطيب كان ينوي استكمال هذا القسم حتى عصره ، إذ نص على ذلك في فهرسه ، ولكن لم يتح له أن

---

(١) يعتبر كتاب أعمال الأعلام آخر انتاج علمي له قام بتأليفه قبيل مقتله سنة ٧٧٦، وقد منعته ظروف حياته التجأ اليها بمناسبة توليه أبي زيان محمد السعيد بن عبد العزيز سلطنة المغرب أي في الفترة ما بين عامي ٧٧٤ ، ٧٧٦ هـ ، وذلك رغبة في خطب ود السلطان الجديد .

يتمه بعد نكبته . وكان هذا القسم مايزال مخطوطا حتى عهد قريب ، فتولى نشره الأستاذان : الدكتور أحمد مختار العبادى ، ومحمد ابراهيم الكتانى ، بالدار البيضاء سنة ١٩٦٤ .

٤ ـ محيى الدين عبد الواحد بن على المراكشى ، (ت . النصف الثانى من القرن السابع ) : كتاب المعجب فى تلخيص أخبار المغرب :

ولد عبد الواحد المراكشى فى مراكش فى سنة ٥٨١ هـ فى عهد خليفة الموحدين أبى يوسف يعقوب المنصور ، وتلقى العلوم الدينية فى مراكش وفاس ، على أيدى كبار علماء هذا العصر أمثال أبى بكر بن عطية ، ثم رحل فى سن الثانية والعشرين إلى الأندلس حيث تلقى العلم على شيوخ الأندلس ، ففى قرطبة أخذ على أستاذه أبى جعفر الحيرى ، وفى إشبيلية اتصل بالسيد ابراهيم بن أبى يعقوب يوسف ، فأحبه وقربه إليه . ثم عاد إلى مراكش بعد ذلك فى سنة ٦٠٠ هـ . وفى سنة ٦١٣ غادر المغرب الإسلامى إلى المشرق ، وطاف فى أقطاره من مصر إلى الحجاز إلى الشام إلى العراق . وفى أثناء طوافه فى هذه البلاد صنف كتابه المعجب ، استجابة لرغبة أحد الوزراء العباسيين ، وتم الفراغ من هذا الكتاب فى سنة ٦٢١ .

وقد عنى المراكشى فى كتابه « المعجب » ، بتلخيص تاريخ الأندلس والمغرب منذ الفتح العربى حتى عصر الخليفة أبى محمد عبد العزيز بن أبى يعقوب يوسف ، واهتم بوجه خاص بعصر الموحدين ، ثم أضاف إلى كتابه فصلا عن سير العاملة ، وأخبارهم ، وأحوالهم ، وفصلا آخر عن جغرافية

المغرب . ويعتبر هذا الكتاب من أهم مصادر التاريخ الإسلامي في المغرب في عصر الموحدين ، فقد عاصر المؤلف كثيرا من الأحداث التي وقعت في هذا العصر ، واعتمد في الأجزاء السابقة على أخبار الصيدي لم نصل إلينا.

وقد نشر العلامة دوزي هـــذا الكتاب للمرة الأولى سنة ١٨٤٧ عن المخطوطة الوحيدة المحفوظة في مكتبة ليدن ، بعنوان The history of the Almohades ، وأعاد طبعه مرة ثانية في سنة ١٨٨١ ، ثم ترجمه المستشرق الفرنسي فانيان Fagnan إلى الفرنسية ، بالجزائر في سنة ١٨٩٣[1] وفي مصر نشر مرتين بالقاهرة ، بعنوان تاريخ الأندلس ، عن طبعة دوزي الأولى ، دون أن يقوم الناشر بتحقيق النص . ثم أعاد الأستاذ محمد القاسي المراكشي طبعه بفاس سنة ١٩٣٨ ، وأخيرا نشره الأستاذان محمد سعيد العريان ، ومحمد العربي العلمي بالقاهرة في سنة ١٩٥٠[2] .

٦ ـ الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية لمؤلف مجهول :

ذكر صاحب الحلل أنه فرغ من تأليف هذا الكتاب في ١٢ ربيع الأول سنة ٧٨٣ ، أي في عصر محمـــد الغني بالله سلطان غرناطة ، وأبي زيد بن عبد الرحمن بن أبي الحسن المريني سلطان المغرب[3] .

---

(١) Reinhart Dozy, op. cit. p. 413.

(٢) عبد الواحد المراكشي ، المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، تحقيق الأستاذان محمد سعيد العريان ، ومحمد العربي العلمي ، القاهرة ، ١٩٤٩ ، أنظر المقدمة .

(٣) أحمد مختار العبادي ، دراسة حول كتاب الحلل الموشية في ذكر الأخبـــار المراكشية ، وأهميته في تاريخ المرابطين والموحدين ، مجلة تطوان ، العدد الخامس ، ١٩٦٠ ، ص ١٣٩ .

ويتناول صاحب الكتاب تاريخ المغرب والأندلس فى عصر المرابطين والموحدين فى شىء من التفصيل ، وقد اعتمد فى تصنيف كتابه على مصادر معاصرة ، ذكر أسماء أصحابها ، منهم ابن الصيرفى ( المتوفى سنة ٥٧٠ ) وكان كاتبا للأمير تاشفين بن على بن يوسف ، ألف كتابا بعنوان الأنوار الجلية فى أخبار الدولة المرابطية ، ومنهم ابن القطان صاحب كتاب نظم الجمان فى أخبار الزمان ، ومنهم البغدادى عبيد الله البكرى . كما اعتمد فى عصر الموحدين على أبى بكر الصنهاجى الملقب بالبيذق ، صاحب كتاب أخبار المهدى بن تومرت ، وعلى ابن صاحب الصلاة . وكتاب « الحلل الموشية » من الكتب الهامة التى لا يمكن الاستغناء عنها ، فى تاريخ دولتى المرابطين والموحدين ، ويمتاز بدقة أخباره التاريخية وصحتها ، خاصة فيما يختص بقيام دولة المرابطين . كما يمتاز أيضا بمعالجته للنظام الحربى وأساليب القتال ، وذكره لأنواع الأسلحة المستخدمة فى عصرى المرابطين والموحدين . وقد طبع هذا الكتاب لأول مرة فى تونس سنة ١٩٧٠ ، وأعيد طبعه للمرة الثانية بالرباط فى سنة ١٩٧٦ ، ولكن هاتين الطبعتين مليئتان بالأخطاء والتحريف . وفى سنة ١٩٥٢ نشر المستشرق الأسبانى اميروسيو إوشى ميراندا الترجمة الإسبانية لهذا الكتاب بمدينة تطوان من بين منشورات معهد الجزال فرانسكو (١) .

---

(١) A.Huici Miranda, " Al - Hulal al - Mawsiyya", Cronica arabe de los dinastias Almoravida, Almohade y Benimerin, Tetuan, 1952

ج ـ بعض المصادر العربية فى وصف مدن المغرب :

١ ـ البكرى [ عبيد الله ( تونس سنة ٤٨٧ هـ ) ] ، المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب :

هو أبو عبيد الله عبد الله بن عبد العزيز بن محمد البكرى ، من أعالى قرطبة ، ولد بها فى سنة ٤٣٢ هـ وفيها توفى سنة ٤٨٧ هـ . وكان البكرى من بيت معروف بالعلم مشهور بالشرف ، فنشأ البكرى نشأة علمية فى عصر ارتفعت فيه مكانة العلماء والأدباء ، على الرغم من التفتت السياسى الذى مُنيت به بلاد الأندلس بعد سقوط الخلافة . أقام البكرى فى قرطبة ، فى ظل بنى جهور ، أصحاب هذه المدينة ، وهناك اتصل بالمؤرخ القرطبى الكبير ابن حيان ، وقد كان لهذا الاتصال أثره فى تكوينه التاريخى . ثم رحل البكرى بعد وفاة ابن حيان فى سنة ٤٥٦ إلى المرية ، ثم غادر المرية إلى إشبيلية ، واستقر فيها فى كنف المعتمد بن عباد .

لم يغادر البكرى فى حياته أرض الأندلس ، ولذلك فإن كتبه الجغرافية لا تعدو أن تكون جمعا منظما لجهود من سبقه من المؤرخين والجغرافيين(١) . كذلك أفاد البكرى من تواليف لاتينية معربة كـكتاب : Etimologie لايزيدور الاشبيلى(٢) . ويعتبر كتابه المسالك والممالك أعظم ما صنفه من تواليف جغرافية ، إلا أنه للأسف لم يصل إلينا منه سوى الجزء الخاص بوصف المغرب . ويتضمن البكرى دراسته للمسالك المؤدية إلى المدن نقطا

(١) Pons Boigues, op. cit. p. 162

(٢) Ibid — أنظر بشأنه بالنص ، ص ٢١٦ .

تاريخية وأخبارا هامة ، استقى قسما كبيرا منها من محمد بن يوسف الوراق ، وهو مؤرخ مغربي كان قد هاجر من القيروان واستقر بقرطبة .

وقد بدأ كاترمير بترجمة هـــذا القسم المغربي في الجزء الثاني عشر من كتابه :

"Notices et extraits des manuscrits de la bibliothèque du Roi"

ثم نشر دي سلان النص العربي لهـــذا الجزء في الجزائر سنة ١٨٥٧ بعنوان :

" Description de l' Afrique Septentrionale "

ثم أعاد نشره للمرة الثانيـة في سنة ١٩٠١ ، ونشر الترجمة الفرنسية له في سنة ١٩١٣ .

٢ ـ الشريف الإدريسي ( ت ٥٦٤ ) ، وصف المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس، مأخوذة من كتاب «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق»:

هو أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس ، ينتسب إلى بيت الأشراف الأدارسة الحوديين ، ويؤكد العلامة غزيري أن الإدريسي ولد بسبتة في سنة ٤٩٣ ، ولكن دوزي لا يوافقه على ذلك[1] . وتلقى الإدريسي علومه الأولى في المغرب ، ثم انتقل إلى الأندلس ، حيث أقام فترة من الوقت في قرطبة ، أتم فيها دراساته ، ثم رحل إلى الأندلس والمغرب ومصر وآسيا الصغرى ، وزار صقلية ، واتصل بملكها رجار ( Roger II ) ، فقربه هـــذا

(١) Dozy Histoires, p. 233.

إليه ، وكان رجار مولعا بعلوم الفلك والجغرافيا ، ووجد في علم الإدريسي واتساع أفقه الجغرافي ، ما جعله يتمسك به بعد إرغام الإدريسي الإقامة في الجزيرة في كنف هذا الملك ، وعندئذ عهد إليه رجار بتصنيف كتاب في صفة الأرض من واقع مشاهداته ، فعكف الإدريسي على تصنيفه حتى أتمه في سنة ٥٤٨ هـ . وأضاف إليه قسما سماه : نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ، ويعرف في كتب الجغرافيا الغربية باسم الكتاب الرجاري Libro Ruggeriano . وللكتاب زخر بالمعلومات القيمة عن بلاد المغرب والأندلس ، ومعظمها معلومات شخصية استقاها من مشاهداته في رحلاته وأسفاره ، ومن مصادر أخرى .

وقد نشر دوزي ودي غويه الجزء الخاص بافريقية والأندلس من نزهة المشتاق ، في ليدن سنة ١٨٦٦ بعنوان : Description de l' Afrique et de l' Espagne.

وقد أعاد سافدرا نشر هذا الكتاب مصححا ، في مدريد سنة ١٨٨١ .

٣ — كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار ، لكاتب مراكشي من كتاب القرن السادس الهجري :

تدل المعلومات الوافية ، والتفصيلات الغزيرة التي وصف بها صاحب هذا الكتاب بلاد المغرب على أنه مغربي الأصل ، وأنه كان يعمل في ديوان الخليفة أبي يوسف يعقوب المنصور ، والكتاب يشتمل على معلومات تاريخية وجغرافية وأثرية وعمرانية دقيقة ، تبعده عن التواليف الجغرافية الخالصة . ويقسم الكتاب إلى ثلاثة أقسام مختلفة : الأول منها يتضمن وصفا المدن المقدسة بالحجاز ، والثاني يخصص لوصف مصر ، والثالث ، وهو أهم

هذه الأقسام وأكثرها دقة ، إذ ضمنه المؤلف مشاهداته وملاحظاته في المغرب ، باعتباره مراكشيا أكثر إحاطة بمواضع بلاده من مدن المشرق التي طاف بها ، ولا تقل أهمية هذا القسم المغربي إلى هذا الحد ، فقد اهتم أيضا بثروات بلاده الزراعية والمعدنية والمائية في كل مدينة من مدنه ، وقد نشر المستشرق فون كرامر هذا الجزء الخاص بالمغرب في فيينا في سنة ١٨٥٢ بعنوان : Description de l' Afrique, par un géographe arabe ancoyens du VI e siècle de l' Hégire .

وقام فانيان بترجمته إلى الفرنسية في سنة ١٩٠٠ بعنوان : L' Afrique Septentrionale au XII e siècle de notre ère; extrait du Recueil des notices et mémoires de la Société Archéologique de Constantine .

وأخيرا قام الأستاذ الدكتور سعد زغلول عبد الحميد سنة ١٩٥٨ ، بتحقيق الكتاب كله ، معتمدا في ذلك على ثلاثة مخطوطات[1] .

٥ — ابن أبي زرع ( ت . في منتصف القرن الثالث الهجري ) : الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس :

هو علي بن محمد بن أحمد بن عمر بن أبي زرع الفاسي ، وكان كاتبا لأبي سعيد عثمان المريني ( ٧١٩ — ٧٣١ ) ، وكتابه « روض القرطاس » من أهم مصادر تاريخ المغرب الإسلامي كله ، إذ ضمنه المؤلف معلومات هامة لتاريخ هذه البلاد منذ قيام دولة الأدارسة وتأسيس فاس حتى عصره.

---

(١) كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار . الكتاب مراكشي من كتاب القرن السادس الهجري ، نشره وعلق عليه الدكتور سعد زغلول عبد الحميد ، الإسكندرية ، ١٩٥٨ .

ولكن هذه المعلومات يشوبها الخطأ في كثير من الأحيان ، ومن أمثلة ذلك ، أنه ينسب بناء مدينة مراكش خطأ إلى يوسف بن تاشفين ، في حين يتفق ابن عذاري وصاحب الحلل الموشية على أن مراكش من بناء أبي بكر عمر المتوفى سنة ٤٦٢(١) .

وقد نشر تورنبرج هذا الكتاب في أبسالة سنة ١٨٤٣ ، فصدر في جزءين مع ترجمة لاتينية ، ثم ترجمه الأستاذ بوميه إلى الفرنسية في سنة ١٨٦٠ ، بينما تولى الأستاذ أمبروسيو إنبثي ميراندا نقله إلى الإسبانية في سنة ١٩١٨(٢). وطبع هذا الكتاب طبعة حديثة في الرباط سنة ١٩٣٦ ، ولكنها للأسف طبعة غير كاملة .

---

(١) أحمد مختار العبادي ، دراسة حول كتاب الحلل الموشية ، ملاحظة رقم ٢١ ، ص ١٤٢ ، ١٤٣ .

(٢) أنخل جنثالث بالنثيا ، ص ٢٥٩ .

# الباب الأول

## فتح العرب لبلاد المغرب

# الفصل الأول

## المرحلة الأولى من فتح المغرب

( ١ ) صعوبة البحث في تاريخ الفتح العربي للمغرب .

( ٢ ) جغرافية بلاد المغرب الطبيعية والسكانية .

( ٣ ) مرحلة الغارات ( ٢١ ـ ٤٩ هـ / ٦٤٢ ـ ٦٦٩ م ) .

ا ـ المحاولات الأولى في زمن عمرو بن العاص : غزو برقة .

ب ـ حملة عبد الله بن سعد : غزوة سبيطلة .

ج ـ حملة معاوية بن حديج على إفريقية ( ٤٥هـ ـ ٦٦٦م ) .

# الفصل الأول

## المرحلة الأولى من فتح المغرب

### (١)

### صعوبة البحث فى تاريخ الفتح العربى للمغرب

يعانى الباحثون فى تاريخ الفتح العربى للمغرب صعوبات كبيرة فى كتابة هذا التاريخ ، إذ أن معظم ما ورد فى المصادر العربية من أخبار على قلتها، يعوزها الدقة ، وينقصها الترابط ، ويكتنفها الغموض ، بسبب ما يحيط بها من روايات خرافية ذات طابع أسطورى منقولة من مصادر مختلفة من حيث الزمان والمكان ، وأقدمها يرجع إلى عصر متأخر كثيرا عن حوادث الفتح . ولهذا فان الباحث فى تاريخ الفتح العربى يواجه مشكلة كبيرة للتوفيق بين هذه المعلومات المتناقضة فيما بينها ، فى معظم الأحيان، من حيث الترتيب الزمنى، وتضبيط الحقائق التاريخية واستخلاصها من بين ما يحيط بها من قصص خرافية وأساطير. صحيح أن ما لدينا من معلومات يوضح لنا بصورة إجمالية المراحل التى تم بها فتح العرب للمغرب ، ولكن الباحث فى تفصيلات هذا الفتح ، لابد له أن يخوض وسط خليط متباين من الأخبار التى يغلب عليها الطابع الخرافى ، حتى يتيسر له تصفية هذه الأخبار مما يشوبها من عوامل المغرافة والتباين ، ومثل هذه المهمة الصعبة تتطلب من الباحث صبرا وجلدا فى مقارنة الروايات بعضها ببعض ، وتمييز الغث من الثمين ، والأصيل من الزائف .

ويرجع هذا الارتباك والغموض فى أخبار الفتح إلى عدة عوامل : منها أن هذه الأخبار كانت تنقل شفاها قبل أن يتم تدوينها ، مما يجعلها عرضة للتحوير والتبديل أثناء تنقلها بين الرواة ، كما يتمثل فيما ورد فى « فتوح إفريقية » للواقدى ، إذ أشار إلى فتح سبيبة ، وجعل منها قصة من قصص البطولة ، فى حين أن فتح سبيبة لم يرد فى سياق الحديث عن الفتوح المغربية فى المصادر الموثوق بها ، وإنما ورد ذكرها كوقعة كبرى بين العرب الهلالية ، وبين بنى حماد الصنهاجيين ، وذلك سنة ٤٥٦ هـ ، مما يدل على وجود خلط واضح بين هذه الرواية وبين هجرة قبائل بنى هلال إلى المغرب [١] . ومنها أن معظم هذه الأخبار ، على حد قول الأستاذ ليفى بروفنسال ، « تشوبه شوائب التحيز القاهر » [٢] ، نتيجة لخضوعها للعامل القبلى الناتج من طبيعة تنظيم العرب القبلى ، حسبما يراه الأستاذ الدكتور سعد زغلول عبد الحميد ، فكل جماعة « تأخذ بالرواية التى ترضى نزعتها أو نعرتها القبلية ، بل وتغير فيها حتى تلائم مزعمها هذا » [٣] ، ومن أمثلة هذا التحيز القبلى ، أن الواقدى نسب فى كتابه فتوح إفريقية فخر فتح المغرب إلى قبائل اليمن ، وإلى قبيلة حمير بالذات[٤] . ومنها أن روايات الفتح كانت تخضع أيضا للميول السياسية

---

(١) سعد زغلول عبد الحميد ، فتح العرب للمغرب بين الحقيقة التاريخية ، والأسطورة الشعبية ، مقال بمجلة كلية الآداب ، جامعة الاسكندرية ، العدد ١٦ ، سنة ١٩٦٢، ١٩٦٣ ص ٤٠ .

(٢) ليفى بروفنسال ، نص جديد عن فتح العرب للمغرب ، صحيفة معهد الدراسات الاسلامية فى مدريد ، المجلد الثانى ، ١٩٥٤ ص ١٦٣ .

(٣) سعد زغلول عبد الحميد ، المرجع السابق ص ١ .

(٤) نفس المرجع ص ٢٦ .

والأهواء الحزبية ، فكل فريق يسعى جاهدا إلى تحطيم خصومه عن طريق الطعن ، والغمز ، وتشويه الواقع التاريخي ، فهناك من مؤرخي الفتح من يمجد بني الزبير كأبطال للفتح العربي لمصر والمغرب ، ومعظم هؤلاء المؤرخين استقى أخباره عن طريق ابن لهيعة الذي أخذ عن عروة بن الزبير ، وهشام ابن عروة ، أو من نافع مولى آل الزبير الذي نقل عنه الواقدي . وهناك من تغنى بأمجاد العلويين ، فخلطوا المهدية التي أسسها الفاطميون بالقيروان التي أسسها عقبة بن نافع ، ونسبوا بطولة الفتح إلى أبطال علويين بدلا من أبطاله الحقيقيين[1] . ومنها إطلاق العرب العنان لمكائنهم الحسية والخيالية الخصبة في تصويرهم للحوادث التاريخية .

ومع هذه الصعوبات التي تعترض سبيل الباحثين في تاريخ الفتح العربي للمغرب ، توصل بعض المؤرخين المحدثين إلى معالجة تاريخ هذا الفتح بطريقة علمية منظمة ، فقابلوا بين النصوص ، واستخلصوا الحقائق الثابتة من سياق الروايات الأسطورية ، فظهرت أبحاث نقدية قيمة نذكر منها على سبيل المثال كتاب :

Georges Marçais, La Berberie musulmane et l' Orient au Moyen âge, Paris, 1946, pp. 19 - 40.

وبحث الأستاذ برنشفيج عن ابن عبد الحكم وفتح العرب للمغرب :

Brunschvig, Ibn Abd alhakam et la conquête de l' Afrique du Nord, par les Arabes, étude critique, dans A. I. E. O. VI, 1945 - 1947.

والدراسة النقدية لخطوط « فتوح مدينة إفريقية » للواقدي ، وهي دراسة قيمة قام بها الأستاذ الدكتور سعد زغلول عبد الحميد ، بعنوان

---

(١) سعد زغلول عبد الحميد ، المرجع السابق ، ص ٣٠ .

« فتح العرب للمغرب بين الحقيقة التاريخية والأسطورة الشعبية » ، بمجلة كلية الآداب ، جامعة الاسكندرية ، العدد ١٦ سنة ٦٢ ـ ١٩٦٣[1]، والبحث الكبير الذى قام به الأستاذ الدكتور حسين مؤنس عن فتح العرب للمغرب ، وهى دراسة متكاملة لكل جوانب الفتح منذ المحاولات الأولى حتى دور الاستقرار والتعريب ، قابل فيها المؤلف بين النصوص المختلفة ، والروايات المتعارضة ، واستخلص منها مادة علمية كبيرة ، تعتبر من المصادر الرئيسية فى هذا الموضوع .

ومع ذلك فما زالت بعض جوانب من تاريخ الفتح العربى للمغرب يكتنفها الغموض ، ويحتاج الأمر إلى معلومات تاريخية جديدة تلقى ضوءا على هذا الغموض ، فيبدده ، وتسد الفجوات التى تتخلل معلوماتنا عن هذا الفتح .

---

(١) الدكتور سعد زغلول كتاب حديث مايزال تحت الطبع خصصه لتاريخ الفتح العربى للمغرب ، ونعتقد أن هذا الكتاب سيوضح مواضع الغموض فى هذا التاريخ .

## ( ٢ )

## جغرافية بلاد المغرب الطبيعية والسكانية

### ١ ـ حدود افريقية والمغرب :

عرفت بلاد المغرب منـــذ أقدم العصور بأسماء مختلفة ، فكان الإغريق يسمون القسم الشمالي منها الذي كان يسكنه العنصر الأبيض باسم ليبو أو ليبيا ، بينما كانوا يطلقون على الصحراء اسم بلاد الأحباش السود[١] . أما لفظ إفريقية Africa ، فقد أطلقه الرومان على الإقليم الذي يقابل اليوم الجزء الشمالي الشرقي من الجمهورية التونسية ، ويشتمل على قرطاجنة وما حولها حتى ثوميديا غربا ، وكان يعرف باسم ولاية إفريقية القنصلية Africa Proconsularis [٢] ، وهو الإسم الذي عرب فيما بعد إلى إفريقية ، وأطلقه العرب بادئ ذي بدء على كل ما يلي إقليم طرابلس غربا[٣] . ثم تحدد مدلول إفريقية ، فاقتصر على ما يلي إقليم طرابلس غربا حتى بجاية ، فافريقية في معظم المصادر العربية تعني الاقليم الذي تتوسطه القيروان ، ويمتد من إطرابلس حتى بجاية .

---

(1) André Julien, Histoire de l'Afrique du Nord, Paris 1931, p.9

(٢) ـــ بن مؤنس ، فتح العرب للمغرب ، ص ٢ .

(٣) ذكر ابن عبد الحكم أن عمرو كتب إلى الخليفة عمر يستأذنه في غزو افريقية فقال : « ان الله قد فتح علينـــا طرابلس وليس بينها وبين افريقية الا تسعة أيام » (ص ٠ ، ط ٠ البوجاتي) ٠ ونفهم من هذا أن المقصود بافريقية الاقليم الذي يلي طرابلس من جهة الشرق ٠

أما المغرب فيشمل كل ما بقي مصر غربا حتى المحيط الاطلسي (١) ، وتتوسطه إفريقية . (٢) وعلى هذا النحو يمكننا أن نقسم بلاد المغرب إلى أربعة أقسام هي :

١ ـ برقة وإطرابلس، وهما أول كور المغرب من جهة الشرق، وبعض المؤرخين يدمج هذه الكورة إلى إفريقية ، وبعضهم يفصلها عن المغرب (٣) . ولكن الغالب أن برقة وطرابلس كانا جزءا لا يتجزأ من المغرب الإسلامي .

٢ ـ إفريقية ، وهي الولاية الشرقية من مجموع بلاد أطلس وهي البلاد

---

(١) ذكر ابن حوقل أن المغرب « من مصر وبرقة الى افريقية وقابس حتى الى سبتة وطنجة » (أنظر كتاب صورة الأرض ، طبعة بيروت ١٩٦٢ ص ٦٤ ) والمقدسي يجعل حدود المغرب من مصر الى البحر الأعلى وجزيرة صقلية والأندلس ، وأول كورة من ناحية مصر برقة ( أنظر المقدسي ، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، طبعة ليدن سنة ١٩٠٦ ، ص ١١٦ ) . كذلك يدخل اليعقوبي بلاد برقة من جملة أقاليم المغرب ( كتاب البلدان طبعة ليدن ، ١٨٩١ ، ص ٣٠٢ ـ ٣١٣ ) .

(٢) ياقوت ، معجم البلدان ، مادة افريقية ، المجلد الأول ، طبعة بيروت ، ١٩٥٥ ص ٢٢٨ . ويذكر ياقوت أن « افريقية اسم لبلاد واسعة ومملكة كبيرة تحاذي جزيرة صقلية ، ويضيف آخرها الى تحاذي جزيرة الأندلس » ، ويذكر في موضع آخر « وحد افريقية من طرابلس الغرب من جهة برقة والاسكندرية الى بجاية » ، وينقل عن اليعقوبي أنها حيث افريقية لأنها فرقت بين مصر والمغرب ، ويحدد عبد الواحد المراكشي افريقية من أنطابلس ( برقة ) شرقا الى قسطنطينة غربا ويشمل طرابلس في حدود الصحراء ( المراكشي ، المعجب ، ص ٣٤٩ ) . أما المغرب ، فما بعد قسطنطينة الى المحيط (ص ٣٥٧)

(٣) أبو العباس أحمد بن خالد الناصري البلاوي ، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ، ج ١ ، الدار البيضاء ، ١٩٥٤ ص ٢١ .

التي تمتد من خليج سرت الكبير شرقا إلى المحيط الأطلسي غربا ، وسماها العرب لذلك بالمغرب الأدنى لأنها أقرب إلى بلاد المغرب ودار الخلافة بالحجاز والشام . وتمتد من إطرابلس شرقا حتى بجاية أو تاهرت غربا ، وقاعدة إفريقية هي مدينة القيروان .

ـ المغرب الأوسط ، وتمتد من تاهرت حتى وادي ملوية وجبال تازة غربا ، وقاعدته تلمسان وجزائر بني مزغنة .

ـ المغرب الأقصى ، وسمي كذلك لأنه أبعد أقسام المغرب عن دار الخلافة ، وتمتد من وادي ملوية شرقا حتى مدينة آسفي على المحيط الأطلسي غربا ، وجبال درن جنوبا(١) .

ولفظ إفريقية مشتق من كلمة أفري Afri التي أطلقها الفينيقيون على سكان أوتيكا Utica وقرطاجنة ، ثم عممه اليونان بعد ذلك ، فأطلقوه على سكان المغرب من حدود مصر الغربية إلى المحيط الأطلسي(٢) .

ب ـ جغرافية بلاد المغرب الطبيعية والسكانية :

واجه العرب عند فتحهم لبلاد المغرب صعوبات كثيرة ، فاستغرق نحو سبعين سنة ، بينما استغرق فتحهم لمصر والشام والعراق وفارس أقل من عشر سنوات ، ويرجع سبب ذلك إلى ثلاثة عوامل : عامل جغرافي ناشئ من طبيعة بلاد المغرب الجبلية ، وعورة مسالكها ، وعامل اجتماعي ، وهو كثرة

---

(١) نفس المرجع ـ حسن حمود : قيام دولة المرابطين ، القاهرة ١٩٨٢ ص ١٣

(٢) حسين مؤنس : فتح العرب للمغرب ، ص ٢٠

القبلية ، وعامل ثقافي نتج عن ذلك من تكتل وتضامن بين قبائل البربر ضد الفاتحين .

تؤلف بلاد المغرب ، ابتداء من خليج سرت الكبير حتى المحيط الأطلسي ، أي باستثناء بلاد برقة وطرابلس ، بأقسامها السياسية الثلاثة ، تونس والجزائر ومراكش ، وحدة جغرافية وانثروبولوجية مستقلة عن بقية أجزاء القارة ، حتى أنها عرفت في القرن التاسع عشر لدى الجغرافيين باسم أفريقيا الصغرى ، تمييزا لها عن بقية القارة الإفريقية ، أو بلاد أطلس ، توكيدا لسطحها الجبلي [١] ، ولارتباطها منذ أقدم العصور بروابط طبيعية وسياسية وثيقة . أما إقليم برقة وطرابلس الذي يعرف اليوم بالمملكة الليبية فكان امتدادا لمصر من الناحية الجغرافية ، ولذلك فاننا نجد المغرب بأقسامه الثلاثة المذكورة يتسم خلال عصور التاريخ بطابع خاص يميزه عن غيره [٢] ، وقد أثر ذلك على حضارته التي ظلت منعزلة ، منطوية على نفسها ، محافظة على أصولها عبر التاريخ . فهو مغلق من الناحية الحضارية أمام أي تأثيرات خارجية ، بينما نجد القطر الليبي مفتوحا للتأثيرات الحضارية الشرقية التي كانت تتدفق عليه من مصر والشام .

ويعتبر المغرب الأقصى أكثر أقطار المغرب عزلة ، ولا يربطه بقية المغرب إلا طريقان فقط ، ولذلك كان المغرب الأقصى أقل أجزاء المغرب تأثرا بالأحداث السياسية الكبرى التي تمر عليه ، كما أنه كان أقل أجزاء المغرب

---

(١) A. Julien, p. 9

(٢) لاحظ ابن خلدون ذلك ، اذ يذكر أن « المغرب قطر واحد متميز بين الأقطار » ( أنظر كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر ط . بولاق ١٢٨٤ هـ ، ج ٦ ص ٩٨ ) .

تأثرا بالأحداث السياسية الكبرى التي تمر عليه ، كما أنه كان أقل أجزاء المغرب تعرضا للغزوات القادمة من الشرق ، إذ لم تكن تصل إليه إلا بعد أن تكون قد استنفدت كل قواها . ودليل ذلك أن بني هلال الذين غزوا برقة وطرابلس وإفريقية والمغرب الأوسط في القرن الخامس الهجري ، وأتوا على معالم حضارة هذه الأقاليم ، لم يتمكنوا من النفاذ إلى المغرب الأقصى ، في الوقت الذي احتلوا فيه طرابلس وتونس والجزائر .

وارتباط بلاد المغرب جغرافيا وإثنولوجيا يرجع قبل كل شيء إلى امتداد جبال أطلس من المجموعة الألبية في قلب المغرب من أقصاه الغربي إلى أقصاه الشرقي ( أنظر خريطة رقم ٣ ) ، في سلسلتين :

إحداهما شمالية ، وتتفرع إلى فرعين ، فرع يمتد من الشمال الغربي ابتداء من طنجة إلى الشرق بمحاذاة ساحل المدونة حتى مليلة ، ويعرف بجبال الريف ، وهي جبال متوسطة الارتفاع ، تتخذ شكل قوس يحتضن الساحل الشمالي من سبتة إلى مليلة ، تاركا سهلا ساحليا ضيقا في هـذه المنطقة (١) . والفرع الأساسي من هذه السلسلة يمتد من المحيط الأطلسي ، شمالي وادي سوس نحو الشمال الشرقي ، ويعرف باسم أطلس التل . وتمتاز هذه الجبال بارتفاعها واتصالها الشديد نحو السواحل الشمالية ونحو الأحواض الجنوبية المنعزلة بين أطلس التل وأطلس الصحراوي ، وعلى الأخص في القسم الغربي من

---

(١) محمد عبد المنعم الشرقاوي ، وعبد محمود السيناء ، ملامح المغرب العربي ، الاسكندرية ، ١٩٥٩ ، ص ١٣ .

المغرب الأوسط(١) والجزء الشرقي من هذه الجبال أقل ارتفاعا ، وأكثر تقطعا ، وتنتهي هذه الجبال شرقا بجبل عمر في تونس .

أما السلسلة الجنوبية من جبال أطلس فتمتد في جنوب الصحراء من جنوبي وادي سوس حيث تحمل اسم جبال أطلس الكبرى ، وإلى جنوب هذه السلسلة سلسلة أخرى صغيرة يسميها ابن خلدون بجبال درن (٢) . وتمتد جبال هذه السلسلة المسماة بأطلس الكبرى في موازاة جبال أطلس التل ، وتنتهي جنوبي تونس بجبال زغوان . وجبال أطلس الكبرى أكثر جبال أطلس ارتفاعا ، ولا توجد بها ممرات تيسر الاتصال بين المغرب الأقصى والمغربين الأوسط والأدنى ، ولذلك كان لهذه الجبال أثر كبير في العزلة التي فرضت على المغرب الأقصى . وتشتمل هذه السلسلة من الجبال على جبال القصور ، وجبال الصور ، وجبال أولاد نايل ، وجبال الزاب ، وجبال أوراس ، ومعظم هذه الجبال تكسوه الغابات وتتوجه الثلوج .

وتنحصر بين هاتين السلسلتين الجبليتين هضاب يشتغل سكانها برعي الماشية ، وأغلبها يقع ما بين جبال أطلس التل وأطلس الكبرى في المغرب الأوسط(٣) ، وتعرف الهضاب في المغرب الأوسط باسم هضبة الشطوط ، أما هضاب الجنوب الغربي منها فأكثر ارتفاعا ، وتبلغ حدودها الجنوبية الغربية واحة المعاش حيث تشرف على سهل تادلا ، وكذلك حدودها

---

(١) نفس المرجع — Julien, p. 18

(٢) ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ، ص ٩٠٠ .

(٣) المثري ، تاريخ افريقية الشمالية ، ص ١٣ — Julien, pp. 18, 19.

الشرقية حيث يجرى وادى ملوية ، وفى الشمال حيث يقع ممر تازة ، المدخل الوحيد إلى المغرب الأقصى . أما الحدود الجنوبية فيصعب تميزها نظرا لاقترابها من جبال أطلس الصحراوى لدرجة الالتصاق .

وسهول المغرب تقع غالبا على ساحل المحيط الأطلسى وساحل العدوة والبحر المتوسط ، وأشهرها سهل شاوية ودكالة وعبدة بالمغرب الأقصى . أما السهول الساحلية بالمغرب الأدنى فتكاد لا تذكر لضيقها ، وذلك بسبب اقتراب الجبال من الساحل التونسى . وهناك سهول تكونت حول وديان صغيرة تجرى فيها الأنهار ، منها سهل ماكنة ، وسهل زيتى بوعران ، وسهل وادى شليف فى المغرب الأوسط ، وسهل وادى عجرد فى المغرب الأدنى ، وسهلا فاس ومكناس فى المغرب الأقصى . كما أن هناك مجموعتان من السهول الداخلية : الأولى تمتد من مصب نهر تفنسيفت إلى وادى ملوية ، وتشتمل على السهل المطل على المحيط ، وسهول سبو ، وممر تازة ، وسهول ملوية الدنيا التى تؤلف الطريق الطبيعى مابين جبال أطلس والمغرب الأوسط ، والأخرى تشتمل على سهل الحوز الذى يخترقه نهر تنسيفت[1] ثم ينخفض تدريجيا . أما المغرب الأدنى فيشتمل على سهول داخلية تقع حول الواحات نذكر منها قفصة وتوزر وقمودة ، وتسمى جميعا بلاد قسطيلية . أما الواحات فتوجد جنوبى إقليم طرابلس فى منطقتى غدامس ووادان [2].

وهكذا كان لطبيعة بلاد المغرب أثر حاسم فى مصائرها التاريخية ، فإن انقسامها إلى ولايات مستقلة ، قضى على وحدتها السياسية خلال العصور

---

(١) Julien p. 18

(٢) ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ، ص ١٠١ .

المختلفة ، وأتاح تكوين جماعات بشرية محافظة على تقاليدها وتراثها الاجتماعي والأدبي ، قاومت حتى وقتنا الحاضر أحداث التاريخ . ثم إن الاتجاه العام لسلاسل الجبال في صفوف موازية للساحل قد يسر سبل الاتصال بين شرق البلاد وغربهـــا حتى بداية المغرب الأقصى ، في الوقت الذي أقام فيه الحواجز المنيعة بين الساحل وجوف البلاد ، مما جعل بلاد المغرب بلادا مغلقة أمام التأثيرات الأوربية بوجه خاص . وتقتصر هذه التأثيرات على المناطق الساحلية ، إذ تقف أمامها جبال أطلس الحل أما التأثيرات الإفريقية فحظها أعظم ، فهي تنفذ من جبال درن وتخترق الهضبة الواقعة بين سلسلتي جبال أطلس حتى تصل إلى داخل المغرب . وكما أثرت هذه الطبيعة الجبلية الوعرة على حضارة المغرب ، فانها أثرت أيضا على سكان المغرب ، فقد كان لقلة المطابع الجبلي وبعد المسافات بين المراكز العمرانية المختلفة ، وصعوبة الاتصال فيما بينها أثر عميق في حياة السكان . فقد طبعتهم بطابع الخشونة والشجاعة والجلد وحب القتال والاكتفاء بالغذاء الضروري ، وأثرت في أبدانهم ، فأكسبتها النحول والقصور مع القدرة على الاحتمال والسير مسافات طويلة دون كلل أو تعب ، كذلك أكسبتهم هذه البيئة الوعرة حدة الخلق والعناد والمقاومة ، وهذا يفسر قيام السكان في العصور المختلفة بمقاومة الغازين والفاتحين ، وساعدتهم الطبيعة على المقاومة ، فهم يتحصنون في قمم الجبال ، وفي مناطق يصعب على الفاتحين الوصول إليها ، ثم ينحدرون من مضاربهم في الجبال والهضاب في موجات عاتية ، ويدفعون على الغزاة ، ويقطعون عليهم خط الرجعة ، ويمزقون صفوفهم ، ثم يغيرون على الحواضر ، ويدمرون العمران . ولذلك تأخر فتح العرب للمغرب سنين طويلة ، فبينما أتم العرب فتح مصر والشام والعراق وفارس في فترة لا تزيد على عشر سنوات ، استغرق فتحهم للمغرب

ما يقرب من ستين سنة ، ولم يتم ذلك بعد محاولات طويلة مضنية ، تعرضوا فيها لمقاومة لم يشهد العرب لها نظيرا في فتوحاتهم . ولم يكد العرب يستقرون في بلاد المغرب ويعربونها حتى انتعشت نيران الثورة عليهم في المغرب الأقصى ، ولم ينجح خلفاء بني مروان في القضاء على هذه الثورة إلا بعد أن هيأ واليها الجيوش على نحو ما سنفصله فيما بعد .

أما العامل الاجتماعي فأساسه سكان المغرب أنفسهم ، وكانوا يتألفون من ثلاث طوائف :

١ ـ الروم ، وهم البيزنطيون . ٢ ـ الأفارق أو الأفارقة ، وهم بقايا شعب قرطاجنة وأخلاط من المستعمرين اللاتين ، والوطنيين الذين تأثروا بالحضارة الرومانية والبيزنطية ، وكانوا يدينون بالطاعة والولاء لساداتهم البيزنطيين ، ويشتغلون لهم بالزراعة والصناعة (١) .

٣ ـ البربر وهم سواد سكان المغرب .

والبربر من Barbari ، وهو اسم أطلقه الرومان على سكان المغرب ، لأنهم كانوا يخبرونهم أعاجم على حضارتهم ، فسموهم بربرة ، وعربت إلى بربر وبرابر (٢) . والبربر هم سكان المغرب الأصليون ، وقد اختلف المؤرخون في إثبات وطنهم الأصلي ، فمنهم من يزعم أنهم وفدوا من أوربا ، ومنهم

---

(١) يقول ابن عبد الحكم عن الأفارق « وأقام الأفارق وكانوا خدما الروم على صلح يؤدونه الى من غلب على بلادهم » ( أنظر فتوح افريقيا والأندلس ، ص ٣٤ ) . وقد يكون الأفارق من كلمة أفرى وهو الاسم الذي أطلقه البيزنطيون على سكان البلاد .

(٢) Julien, p. 10

من يزعم أنهم قدموا من آسيا فى عصر ما قبل التاريخ (١). ويعتقد بعض علماء الأنثروبولوجيا ( علم دراسة الإنسان ) أمثال سيرجى وسليجمان فى وجود ثمة قرابة جنسية بين البربر والساميين ، معتمدين فى ذلك على تقارب لغة البربر الخارجة مع اللغات السامية (٢) ، وعلى وجود بعض التشابه فى الصفات الجثمانية ، ويعتقد هؤلاء أيضا أن تنقل الساميين فى بلاد المغرب لم يتم إلا فى العصر النيوليتى، لأن البربر ظهروا فى التاريخ منذ ثلاثة آلاف سنة ، تحت اسم ليبو ، وكان هؤلاء الليبو يتميزون بشقرة لون الشعر وزرقة العينين وبياض الوجه ، وهى صفات ما تزال تنطبق على بعض سكان المغرب فى الريف وجبال جرجرة ( قبيلى ) بالمغرب الأوسط . على أنه لم تلبث أن تداخلت مع هؤلاء السكان عناصر جديدة قدمت فى موجات متتابعة منذ أقدم العصور ، بعضها يهودية ، وبعضها سامية، وبعضها هندو أوربية ، كاللاتين والوندال والافريق ، وبعضها زنجية . ولعل هذا يفسر انقسام البربر من حيث الصفات البدنية إلى نوعين مختلفين : الأول ويشمل أغلبية سكان البلاد ، ويتميز بلونه الأسمر ، وشعره الأسود ، ورأسه المستدير ، وخديه البارزين وأنفه القصير ، وجبهته المقوسة . ويشبه هذا النوع من البربر سكان جنوبى إسبانيا وإيطاليا : والثانى يتميز بشقرة لون الشعر ، وزرقة العينين (٣) .

---

(١) Pellegrin, p. 31 — المرقى ، ص ٢٠ .

(٢) هناك تشابه كذلك بين اللغة البربرية الخارجة وبين اللغة المصرية القديمة والقبطية وبعض اللغات الزنجية .

(٣) Terrasse, Histoire du Maroc, t. 1, Casablanca. 1949, p. 17

وينقسم البربر من الوجهة الاجتماعية إلى مجموعتين مختلفتين : البربر الحضر ، ويسكنون السهول الخصبة والمدن أو الهضاب المزروعة، ويتصلون بالحضارة القرطاجنية واللاتينية ، ويعيشون على الزراعة والصناعة ؛ والبربر الرحل ، ويعيشون على الرعى ، ويميلون للاغارة على السهول وما يجاورهم من عمران (١) . فلما فتح العرب بلاد المغرب وخطوا إلى التشابه الكبير بينهم وبين البربر فى انقسامهم إلى قبائل ويطون وفى صفاتهم (الشجاعة، والخشونة، وحب القتال ، وحدة الخلق ) قسموا البربر إلى جذمين عظيمين : برنس ومادغيس الأبتر ، على نحو انقسامهم هم إلى قحطانيين وعدنانيين . وينتسب البتر إلى مادغيس بن بر الملقب بالأبتر ، فسموا لذلك بترا ، وينتسب البرانس إلى برنس بن بر فسموا لذلك برانسا (٢) . ويعتقد ابن خلدون أن البتر والبرانس من ولد مازيغ بن كنعان الذى يرتفع نسبه إلى حام بن نوح (٣) . وهناك من المؤرخين من يفسر تسمية البرانس والبتر على أساس اجتماعى ، فيقسمون البربر إلى قسمين : قسم يسكن المدن ، ويحضر بالحضارة اللاتينية ويسمون بالبرانس ، وقسم متبدى يسكن البادية ويسمون بالبتر . ويبدو أن أصحاب هذا الرأى يعتمدون على مصادر عربية ، منها ما ذكره اليعقوبى فى البلدان عند تعرضه لقبائل البربر البرانس فيقول : « ثم مدن بعد ذلك سكانها صنهاجة وزواوة يعرفون بالبرانس ، وهم أصحاب عمارة وزرع وضرع » (٤) .

---

(١) حسين مؤنس ، فتح العرب للمغرب ، ص ٦ وما يليها .

(٢) ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ص ٨٩ ـ السلاوى ، ج ١ ص ٦١ ، ٦٢ .

(٣) ابن خلدون ، ج ٦ ، ص ٨٩ .

(٤) اليعقوبى ، كتاب البلدان ، ص ٣٥٢ .

وهذا التقسيم لا يمكن الأخذ به لأن قبيلة زناتة البترية الأصل كانت على حد قول ابن خلدون أكثر قبائل البربر حضارة وعمرانا (١) ، ولذلك يجعلها فرعا مستقلا عن سائر البربر ثم إن المتبدين من البربر كانوا يؤلفون السواد الأعظم من سكان المغرب ، ولا يعقل أن ينقسم شعب البربر هذا التقسيم غير المتكافىء من ناحية النسبة العددية . وأما تفسير البتر بأنهم سموا كذلك لتجردهم من زي معين يعرف بالبرنس بعكس البرانس الذين يتدثرون به (٢) ، فهو تفسير لغوي لا يقوم على أساس علمي متين ، فليس لزاما على البتري أن يلبس البرنس ، وليس شرطا على البرانسي أن يرتديه . وقد أشار الدكتور حسن حمود إلى وجود خلاف عميق الجذور بين طائفتي البتر والبرانس يجعل كل طائفة منها تقف للأخرى بالمرصاد ، وتتربص بها الدوائر لتنتقم منها ، وهو لذلك لا يستبعد أن يكون « القسمان يمثلان موجتين بشريتين مختلفتين ، واحدة تمثل أهل البلاد الأصليين ، والأخرى تمثل الوافدين الجدد الذين اغتصبوا من أهل البلاد بلادهم ، وخصوصا إذا لاحظنا أن أغلب المؤرخين يقولون أن صنهاجة البرنسية ، تنسب إلى العرب ، إلى حمير (٣) » . ويفسر صاحب الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية اسم البتر نسبة إلى مادغيس بن بر الذي كان يلقب بالأبتر ، ولذلك سموا بالبتر ، « وهو أبو البتر من

---

(١) ابن خلدون ، ج ٦ ص ٨٩ ـ حسن حمود ، قيام دولة المرابطين ، ص ٣٠ .

(٢) René Basset, Hist. de l' Islam ـ عبد الحميد العبادي ، الجمل في تاريخ الأندلس ، المجلد الأول من سلسلة المكتبة التاريخية ، القاهرة ١٩٥٨ ، ص ٣٢ .

(٣) حسن حمود ، قيام دولة المرابطين ، ص ٣٩ .

البربر وإليه يرفعون أنسابهم (١) » .

وينقسم بربر البرانس إلى سبع قبائل كبرى هي: أوربة، ومصمودة، وكتامة، وأوريغة، وأزداجة، وقبيل عشرة، وهي السبعة السابقة، يضاف إليها لمطة، ومسكورة وجزولة (٢) . وتعتبر قبيلة صنهاجة أكبر قبائل البربر حتى لقد زعموا أنهم يؤلفون ثلث شعب البربر، وكان منهم بنو زيري بن مناد أصحاب إفريقية بعد استقرار الفاطميين في مصر، والملثمون (٣) . وقد غلب على صنهاجة طابع البدو، فتفرقت في كثير من أنحاء المغرب، وكانت أكثر بطون صنهاجة قبيلة زناجة، وتعيش على جبال أطلس جنوبي تازة، كما احتلت بعض قبائل صنهاجية جزءا هاما من إقليم الريف، واختصت قبائل أخرى بمنطقة آزمور (٤) .

وكتامة من القبائل البرانسية الكبرى التي لعبت دورا هاما في تاريخ المغرب، فعلى أكتافها قامت دولة الفاطميين بالمغرب ومصر. وتعتبر مصمودة من أهم قبائل بربر البرانس حتى أن بعض المؤرخين يجعلها فرعا قائما بذاته. ومن المصامدة غمارة التي تحتل منطقة العدوة من الريف، وبرغواطة أهل تامسنا، وأهل جبل درن الذين قاموا بدعوة المهدي ابن تومرت، وكانوا يعيشون فيما بين بورجرج وأم الربيع، ومن المصامدة المستقرين في السهول

---

(١) الدفعة القيمة في تاريخ القوة الزيانية، تحقيق محمد بن أبي شنب، الجزائر، ١٩٢٠ ص ١٣ .

(٢) ابن خلدون، ج ٦، ص ٩٠ — الاستقصا، ج ١، ص ٦٥ .

(٣) الاستقصا، ج ١، ص ٦٥ .

(٤) Terrasse, op. cit. p. 23

دكالة جنوبي وادي أم الربيع ، ورجراجة ، على وادي تانسيفت . وجميع المصامدة متحضرون قد ألفوا حياة الاستقرار في المدن [١] . ويزعم بعض نسابة العرب أن كتامة وصنهاجة من حمير ، وأن إفريقش الحميري تركهم بافريقية ، فتناسلوا بها واستحال لسانهم إلى البربرية[٢] . ولكن المحققين من نساب البربر ينكرون ذلك ، ويؤكدون أنهما قبيلتان بربريتان في البربر[٣] . وليس من المستبعد أن يكون انتساب صنهاجة لحمير نتيجة خضوعها لتأثيرات فينيقية قديمة ، جعلت النسابة يربطون بينها وبين حمير ، وهو رأي يؤيده جوتيه وفورنل ودي لاشابل (٤) .

وتنتشر قبائل البرانس في كل بلاد المغرب ، ولكن بعض قبائلهم توغل في قلب قارة أفريقيا حتى تصل إلى منحنى نهر النيجر ، ومصب السنغال ، ومعظمها ينزل في مواضع زراعية متحضرة .

أما بربر البتر فينقسمون إلى أربع قبـــائل هي : ضريسة ، وتقوسة ، وأداسة ، وبنولواي أو لواتة ، (٥) وتنقسم ضريسة إلى فخذين : مكناسة وزناتة . ويعتبر ابن خلدون قبيلة زناتة فرعا من البربر قائما بذاته . ومن

---

(١) Ibid. p. 22

(٢) يؤكد هذا ما ذكره الإدريسي من أن قبائل العرب ( صنهاجة ) نزلت على قبائل البربر ، تعلوم الى ألسنتهم بطول المجاورة ( أنظر الإدريسي ، المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس ، ليدن ١٨٩٤ ص ٥٧ ) .

(٣) الاستبصار ، ج ١ ، ص ٦٠ .

(٤) حسن محمود ، المرجع السابق ، ص ٣٨ .

(٥) الاستبصار ، ج ١ ، ص ٦٦ .

زناتة جراوة ، ومغراوة ، وبنو يقرن ، وبنو زيان ، وبنو مرين ، ولكل قبيلة بطون وأفخاذ ، لا يمكن حصرها . وتنزل هذه القبائل في السهول المرتفعة أو المنخفضة ، وعلى الهضاب التي تمتد من طرابلس إلى تازة ، كما ينتشرون في أقاليم النخيل الممتدة من غدامس إلى السوس الأقصى ، ويؤلفون أغلبية سكان القرى الصحراوية . كذلك توجد بطون بربرية في أقاليم التل قرب طرابلس ، وفي داخل سهول أفريقية ، وعلى سفوح جبال أوراس . فقبيلة هوسة تنزل بجبل نفوسة الواقع جنوبي طرابلس ، ومطماطة تنزل في إقليم الجريد التونسي ، وزناتة تنزل في المغرب الأوسط وعلى سفوح أوراس [1] .

والعداء بين البرانس والبتر متأصل قديم ، ويتمثل هذا العداء بين قبيلة زناتة أكبر قبائل البتر ، وقبيلة صنهاجة أهم قبائل البرانس ، ويرجع سبب هذا العداء بينهما ، إلى اختلاف أحوالها الاجتماعية ، وإغارة الرحل من زناتة على مزارع صنهاجة ، واضطرار صنهاجة إلى الاستعانة بالرومان . وقد أدى ذلك إلى ظهور الفوارق بين الطائفتين بشكل واضح ، واستغل الرومان هذا الخلاف لمصالحهم الذاتية ، فوسعوا شقة الخلاف بينهما ، بأن ضربوا فريقا بفريق ، وتمكنوا بذلك من السيادة وتثبيت أقدامهم في البلاد ، وبذروا بذور الشقاق بين عنصري السكان البرانس والبتر ، وضمنوا بذلك لأنفسهم السيطرة على بلاد المغرب ، وهي نفس السياسة التي انتهجها المستعمرون الفرنسيون في العصر الحديث عندما فرقوا بين العرب والبربر . وقد ازداد العداء القائم بين البرانس والبتر في العصر الاسلامي زيادة خطيرة ، عندما

---

(١) حسن محمود ، قيام دولة المرابطين ، ص ٣٣ .

حالفت قبيلة زناتة البربرية العرب الفاتحين منذ السنين الأولى للفتح ، بينما تولى البرانس عبء المقاومة وأيدهم في ذلك الروم ، وعندما حالفت كتامة الفاطميين ، في حين حالفت زناتة الأمويين في الأندلس ، وعندما اشتد النزاع بين زناتة وصنهاجه في الأندلس عقب سقوط الدولة الأموية .

وقد يكون تحالف البتر مع العرب ناتجا من تشابههم معهم في البداوة ، في حين يختلف البرانس عن العرب في كونهم متحضرين بالحضارة اللاتينية ، ومستقرين في المدن . ويستمر تحالف البتر للعرب بعد قيام الدولة الأموية بينما تتوالى صنهاجة البرانسية العلويين ، وهم الحزب المعارض للأمويين ، فتؤيد إدريس بن عبد الله بن الحسن ، وتخدم كتامة البرانسية مصالح الفاطميين ضد الأمويين . ثم ظهر البرانس ممثلين في صنهاجة مرة ثانية بعد رحيل الفاطميين من المغرب ، وظهروا مرة ثالثة عندما تغلبت صنهاجة على المغرب كله وأسست دولة المرتونين أو المرابطين ، ثم ظهروا مرة رابعة عندما قامت دولة الموحدين على أكتاف المصامدة .

## (٣)

## مرحلة الغارات

## ( ٢١ - ٤٩ هـ / ٦٤٢ - ٦٦٩ م )

**١ ـ المحاولات الأولى فى زمن عمرو بن العاص : غزو برقة :**

كان طبيعيا أن يفكر عمرو بن العاص جديا ، بعد أن استكمل فتح مصر ، فى فتح برقة وطرابلس ، لعاملين :

الاول : أن برقة كانت تعتبر امتدادا لمصر ، وإقليما متمما لها ، إذ هى تجاور ليبيا وهراقية وهما كورتان من كور مصر الغربية[1] . وكانت برقة وطرابلس قد انفصلتا عن ولاية إفريقية منذ عهد الامبراطور البيزنطى موريس ( ٥٨٢ - ٦٠٢ ) وأصبحتا رسميا تابعين لمصر ، وإن كانتا فى حقيقة الأمر شبه مستقلتين . ولما اشتعلت نيران الثورة فى المغرب ضد الامبراطور المغتصب فوكاس ، كانت برقة وطرابلس فى مقدمة الولايات المغربية التى آزرت جريجوريوس على الإنفصال عن الامبراطورية البيزنطية[2] . ولذلك كان لابد لعمرو بن العاص بعد أن استكمل فتح مصر ، من التأهب لفتح برقة وطرابلس ، تأمينا لحدود مصر الغربية من خطر الروم .

والعامل الثانى ، هو رغبة عمرو فى تطبيق سياسة الاستمرار فى الفتح نحو الغرب ، وهو أمر يدل عليه خط سير الفتوحات العربية فى فلسطين ومصر

---

(١) ابن عبد الحكم ، فتوح افريقية والاندلس ، ط . البيجاوى ، ص ٢٥ .

(٢) سيديو ، تاريخ العرب للعرب ، ص ٥٥ .

وبرقة وإفريقية والمغرب والأندلس وجنوبي فرنسا ، ولم يمكن المغاربون العرب يزهدون في مواصلة القتال بعد انتهائهم من فتح مصر ، التماسا للمغانم التي كانت تعود عليهم من الغزو . ولم ينتظر عمرو حتى يتم تماما من فتح مصر ، ويفرغ لفتح برقة ، فراه يبادر بارسال عقبة بن نافع الفهري على رأس حملة استطلاعية إلى برقة ( أنطابلس )(١) .

ويذكر ابن عذارى أن عمرو بعد أن افتتح مصر سنة ٢٠ من الهجرة وجه عقبة بن نافع إلى زويلة وبرقة فافتتحهما(٢) . ويؤيد ابن أبي دينار القيرواني هذه الرواية في كتابه المؤنس(٣) . ويبدو أن عمرو بن العاص اطمأن إلى تقرير عقبة بن نافع عن بلاد برقة ، فعجل بتسيير جيوشه لفتحها .

سار عمرو بن العاص على رأس جيش من فرسانه غربا حتى قدم برقة ،

---

(١) ذكر ياقوت أن برقة « اسم صقع كبير يشتمل على مدن وقرى بين الاسكندرية وافريقية ، واسم مدينتها انطابلس ، وتسميه العسس مدن » ( ياقوت ، معجم البلدان ، مجلدا ص ٣٨٨ ، وانظر ما ذكره عن أنطابلس ص ٧٦٦ ) . وذكر الأستاذ الطاهر أحمد الزاوي أن برقة كانت تسمى قبل الإسلام انطابلس ، وكانت تضم خمس مدن هي طوخيرا ( بالعربية طوكرة ) وفوربن وودبرنيق ، وقد بنيت بنو غازي على أنقاضها ، وآبولونيا ، وبارخه ( وتسمى الآن المرج ) ( أنظر تاريخ الفتح العربي في ليبيا ، القاهرة ١٩٦٣ ص ٣٢ ) . وذكر اليعقوبي في البلدان أن برقة مدينة فتح في مرج واسع ، ويضيف قائلا أن لبرقة أقاليم كثيرة يسكنها بطون من بربر لواتة ، ولها من المدن برنيق ( اليعقوبي ، ص ٣٤٣ ) . كذلك يشير ابن حوقل الى أن برقة « مدينة وسطة ، ولها كور عامرة ، وهي في بقعة فسيحة » ( ابن حوقل ، صورة الأرض ص ٦٩ ) .

(٢) ابن عذارى ، البيان المغرب ، ط . ليفي بروفنسال ص ٨ .

(٣) ابن أبي دينار القيرواني ، المؤنس في تاريخ افريقية وتونس ، ط. تونس ١٢٨٦ هـ ، ص ٢٢ .

وكانت وقتئذ أشبه بولاية بربرية مستقلة عن الدولة البيزنطية، وكان يسكنها بطون من قبيلة لواتة البربرية، وهي من أكبر قبائل البربر شأنا، وأشدها بأسا، ومن هذه البطون قبيلة زواغة وقلاية، وقد رأينا مدى قوة لواتة عندما ثارت قبائلها بزعامة أنطالاس على الحكم البيزنطي، وانتهت ثورتهم بمقتل صولومون، القائد العام لجيوش بيزنطة في المغرب. وكان بربر لواتة ساخطين على البيزنطيين، كارهين لحكمهم الجائر، ونعسفهم في جبايةالضرائب، كما نقموا منهم لكثرة مظالمهم. ويبدو أيضا أنهم أرادوا التخلص من الحكم البيزنطي، وكانت قد بلغتهم الأخبار باستيلاء العرب على بلاد الشام ومصر، فتطلعوا إلى الخلاص على أيدي العرب، وهذا يفسر مبادرتهم بتقديم فروض الولاء للجيش الفاتح، واستسلامهم للعرب طائعين مختارين. فصالحهم عمرو بقبول جزية يؤدونها إليه، وهي دينار على كل حالم[1]. وذكر ابن عبد الحكم نقلا عن عثمان بن صالح أن أهل برقة كانوا يعفون من الجزية إذا جاء وقتها، وأنه لم يدخل برقة يومئذ جابي خراج[2]، مما يدل على أنهم رحبوا بالعرب، واطمأنوا إليهم.

---

(١) ابن عذارى، البيان، ج ١ ص ٨. ويذكر مؤرخو العرب أنه صالح أهلها على ثلاثة عشر ألف دينار جزية، على أن يبيعوا من أحبوا من أبنائهم في جزيتهم (ابن عبد الحكم، فتوح افريقية والأندلس ص ٢٤ ـ البلاذري، فتوح البلدان، القسم الأول تحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد، القاهرة ١٩٥٦، ص ٢٦٤ ـ أبو عبيد الله البكري، المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب، الجزائر، ١٩١١ ص ٤ ـ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ط. بولاق، ١٢٩٠هـ، ج ٣، ص ١١). ويؤيد الدكتور حسين مؤنس أن يطلب العرب منهم بيع أبنائهم في حالة عجزهم عن دفع الجزية، ويعتقد أنهم هم الذين اقترحوا على عمرو ذلك مبالغة منهم في اظهار حسن نيتهم، وقد كان بيع القراري والأبناء الوفاء بالجزية أمرا شائعا عند البربر في تلك الحين (فتح العرب للمغرب ص ٥٦).

(٢) ابن عبد الحكم، ص ٣٦.

وما إن أتم عمرو بن العاص فتح برقة ، حتى شرع فى فتح اطرابلس ، تمهيدا للدخول فى إفريقية . وكان الأمر يستلزم أن يجهز جيشين ، أحدهما يسير بمحاذاة الساحل ، بقصد الإستيلاء على طرابلس ، وما يليها من مدن ساحلية . والثانى يتجه نحو جنوب البلاد حيث الواحات الداخلية التى تؤلف مراكز للمقاومة فى قلب البلاد ، والتى لو تركت وشأنها ، لقطع عليه أهلها خط الرجعة ، وأم هذه الواحات واحة فزان . فبعث عمرو قائده عقبة بن نافع إلى فزان ، فافتتحها ، ثم واصل زحفه حتى بلغ زويلة[1] . ويبدو أن عمل عقبة اقتصر على الاستيثاق من طاعة أهل هذه الواحات أو على الأقل من وقوفهم موقفا حياديا[2] . ونجح عقبة فى مهمته ، وأصبحت المنطقة الممتدة ما بين برقة وزويلة مأمونة الجانب ، لا خوف على المسلمين من سكانها[3] . وعلى هذا النحو ضمن عمرو بن العاص إخضاع هذه الواحات الداخلية التى كانت تهدد سلطان العرب على مدن الساحل . وبينما كان عقبة يفتح فزان ، كان عمرو بن العاص يغزو إقليم اطرابلس . فبدأ بمدينة صرت[4] ،

---

(١) زويلة من مدن فزان القديمة ، وتقع على بعد ٧٢٠ كم جنوب شرق طرابلس ، وتعرف باسم زويلة السودان ، تمييزا لها عن زويلة افريقية التى بناها عبيد الله المهدى بالقرب من تونس ( الشاهر أحمد الزاوى ، ص ٣٠ ) .

(٢) حسين مؤنس ، فتح العرب للمغرب ، ص ٦٠ .

(٣) ابن عبد الحكم ، فتوح افريقية والأندلس ، ص ٢٦ — البلاذرى ، فتوح البلدان ، ص ٢٦٦ — البكرى ، المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب ص ٦٠ .

(٤) « مدينة على ساحل البحر الرومى من برقة وطرابلس الغرب ، لا يأس بها وفى سورها من ناحية الجنوب فى البر أبراج حجارية » ( ياقوت ، معجم البلدان ، مجلد ٣ ص ٣٠٦ ) وذكر ابن حوقل أنها مدينة ذات سور صالح كالقبيح من طين وطابية ، وبها قبائل من البربر ، ولهم مزارع فى نفس البر ، تقصد نواحيها ، اذا مطرت ، وتتسع مراعيها ، =

فاستولى عليها ، ثم زحف إلى لبدة [1] ، فوجدها مدينة خربة ، قليلة العمران ، ولم يبد أهلها أي مقاومة بل استسلموا لهم طائعين .

ثم واصل سيره بعد ذلك حتى أدرك اطرابلس [2] ، وكانت مدينة

---

= (ابن حوقل ، صورة الأرض ص ٧٠) ، ويضيف ابن حوقل قائلا أنها غنية بالفلات والفواكه ، منها التمر والأعناب ، ومن منتجاتها الشعير والصوف ولحوم المز ، ويشرب أهلها من مياه الموابل ( نفس المرجع ، ص ٧١ ) .

(١) مدينة بين برقة وافريقية ، تقع على بعد ١٠٠ كم شرق طرابلس ، أسسها الفينيقيون في أوائل القرن الثامن ق.م. وأطلقوا عليها اسم ليكي ، ثم عربها الإغريق إلى ليتس ، ثم عربت بعد ذلك إلى لبتس ، وأضيفت إليها لفظة ماجنا فأصبحت لبتس ماجنا أي لبدة العظيمة . وكانت في أيام الفينيقيين مدينة عامرة بالصوبة أوعتها ، واعتدال مناخها ، ولأن لها ميناء مأمونا صالحا للملاحة ، ولوقوعها على نهر وادي كعام . وقد حكمها النوميديون ثم خضعت أخيرا للرومان . وتألقت في العصر الروماني ، وخاصة في عهد سبتيموس سفروس ، ثم استولى عليها الوندال في سنة ٤٤٩م. ومنذ ذلك الحين أخذت في الاضمحلال إلى أن استولى البيزنطيون في سنة ٥٣٢ ، واستعادت بعض عظمتها القديمة ، وأقام فيها البيزنطيون الآثار الكثيرة ، وجلبوا إليها مختلف أنواع الأبنية . لكنها تأثرت تأثراً بالغا بالاضطرابات العنيفة التي ساءت هذه البلاد على أثر ثورة قبائل لواتة ( انظر : الظاهر احمد الزاوي ص ٣٩ ـ ٤٣ ) وذكر ابن حوقل أنها قريبة من مدينة طرابلس الغربية مرحلتان ( ص ٧١ ) .

(٢) اطرابلس مدينة فينيقية البناء ، أسست بعد سبرت ولبدة ، وكانت تعرف باسم أويا أو أويس ( أنظر ابن خرداذبة ، المسالك والممالك . المكتبة الجغرافية العربية ، المجلد السادس ، تحقيق دي غوية ، ليدن ١٨٨٩ ص ٩١ ـ الاستبصار ، ص ٦١٠ ) واطرابلس نسبة معربة لكلمة تريبوليس Tripolis التي أطلقها الرومان عليها وتعني المدن الثلاث ، لقد أقاموا في القرن الثالث الميلادي خطا دفاعيا لوقف غارات البدو المغيرين في الصحراء جنوب أويا ، وقد سموا هذا الخط الدفاعي باسم ليمس تريبوليتانوس ، ومنذ ذلك الحين =

حصينة مسورة من سائر الجهات ماعدا الجهة الشمالية التي تطل على البحر ، وذلك لتتأكد من هذه الإمدادات ، ويذكر ابن عبد الحكم نقلا عن عثمان بن صالح أن عمرو « نزل على القبة التي عن الشرف من شرقيها »[1] ، وحاصر المدينة شهرا ، فامتنعت عليه ، ويذكر ابن عذارى ، أن أهـــل طرابلس استغاثوا بقبيلة نفوسة البربرية[2] ، وهي قبيلة بربرية من أكبر قبائل البربر وأعظمها ، وكانت مدينة سبوت ( صبراتا ) من أهم معاقلهم ، وتنسب إليهم[3] . ويبدو أن عمرو أراد أن يحول دون وصول هـذه النجدة ، فأسرع بإرسال بعث من قواته إلى سبوت قبل أن يفتح طرابلس ، ولكن جنده ألفوا أهل سبوت متحصنين في أسوارهم[4] ، وقد أيقنوا استحالة فتح المغرب لطرابلس ، فعاد الجند أدراجهم إلى طرابلس . ويتفق مؤرخو العرب على أن جماعة من جنـــد عمرو ، فاجأوا الروم من جهة ساحل طرابلس ، حيث انحسرت عنها مياه البحر ، واستولى المسلمون بذلك على

---

= أطلقوا اسم نيبولي تانوس على المنطقة الواقعة بين خليج قابس وخليج سرت ، وتضم الآن مدن لبدة ، وأويا ، وسبرت - وقد أصبحت أويا ( طرابلس ) مركزا لولاية طرابلس في عصر دقلديانوس ، واهتم الرومان بطرابلس اهتماما كبيرا ، فحرطوها بسور منيع ، وكان معظم سكانها عند الفتح العربي من الروم ( انظر الطاهر أحمد الزاوي ، ص ٤٨ ـ ٤٨ ) .

(١) ابن عبد الحكم ، ص ٢٦ ، ويرجح الأستاذ الطاهر أن هذه القبة هي قبة الشيخ عبد الله السباب المتوفى سنة ٢١٣ ( تاريخ الفتح العربي في ليبيا ص ٤٩ ) .

(٢) ابن عذارى ، البيان ، ج ١ ص ٨

(٣) ســن عمود ص ٢٢ ـ الطاهر أحمد الزاوي ، ص ٢٢ . يقع جبل نفوســة جنوبي سبوت وعليه تقوم مدينة شروس ( الادريسي ، صفة المغرب وأرض السودان ، ص ١٠٠ ) .

(٤) ابن عبد الحكم ، ص ٢٨

المدينة[1] . وفى ذلك يقول ابن عبد الحكم نقلا عن عثمان بن صالح : « . . . فخرج رجل من بنى مدلج ذات يوم من معسكر عمرو متصيدا فى سبعة نفر ، فمضوا غربى المدينة حتى أمعنوا عن العسكر ، ثم رجعوا ، فأصابهم المطر ، فأخذوا على ضفة البحر ، وكان البحر لاصقا بسور المدينة ، ولم يكن فيما بين المدينة والبحر سور ، وكانت سفن الروم شارعة فى مرساها إلى بيوتهم ، فنظر المدلجى وأصحابه ، فاذا البحر قد غاض من ناحية المدينة ، ووجدوا مسلكا إليها من الموضع الذى غاض منه البحر ، فدخلوا منه حتى أتوا من ناحية الكنيسة وكبروا ، فلم يكن للروم مفزع إلا سفنهم ، وأبصر عمرو وأصحابه البلة[2] فى جوف المدينة ، فأقبل بجيشه حتى دخل عليهم ، فلم تفلت الروم إلا بما خف لهم من مراكبهم ، وغنم عمرو ما كان فى المدينة »[3] .

ويستبعد الدكتور مؤنس قصة التكبير فى فتح طرابلس ، ويعتقد أن رواة فتح طرابلس اختلط عليهم الأمر ، فوضعوا فى هذا الفتح ماوضعوه فى فتح حصن بابليون بمصر ، الذى تشبه قصته قصة فتح طرابلس ، ويستند فى ذلك إلى أن ابن عبد الحكم كتب تاريخ هذا الفتح بعد انقضاء قرنين ونصف من هذه الحوادث ، كما يستند إلى أن كثيرا من المصادر أشارت

---

(١) نفس المرجع ص ٢٦ ـ البلاذرى ، فتوح البلدان ، قسم ١ ص ٢٦٦ ـ ابن الأثير ، الكامل ج ٣ ص ١١ ـ البلاوى ، الاستقصا ، ج ١ ص ٧٣

(٢) لطما الله أى جاءه العسكر وهو أقرب الى الصواب ، فقد كان بن اليسير على عمرو الذى عسكر بأعلى التل الواقع شرقى المدينة أن يشاهد ما يجرى بداخلها بعد أن انتبه أهل تكيرو بباله ، فأدركهم ودخل المدينة من الجهة التى رآهم دخلوا منها .

(٣) ابن عبد الحكم ، ص ٢٨

إلى أن عمرا فوتل حتى افتتح طرابلس عنوة [١] .

ولكننا لانرى رأى الدكتور مؤنس فى فتح اطرابلس ، ولا نستبعد على الاطلاق ماورده ابن عبد الحكم من قيام المسلمين بالتكبير ، فعادة التكبير من العادات المتأصلة عند المسلمين فى أوقات القتال والحرب ، والأمثلة كثيرة على ذلك ، فقد كبر المسلمون عندما ارتدوا الباب الشرقى من دمشق ودخلوها عنوة [٢] ، كذلك كبر أبو عبيدة الثقفى فى القادسية [٣] ، وكبر المسلمون فى نهاوند [٤] . وكبروا أيضا وعند فتح حصن بابليون [٥] ، وكبر المسلمون فى موقعة سبيطلة [٦] ، وكبر المسلمون كذلك عند فتح قرطبة [٧] ، ولاشك أن عمرا عندما أدرك أصحابه يداخل المدينة اشتبك مع حامية المدينة وتغلب عليهم ، فليس فى قتال عمرو تعارض مع قصة فتح طرابلس ، وفقا لرواية ابن عبد الحكم . وما إن دخل عمرو طرابلس حتى عاهد أهلها [٨] .

---

(١) حسين مؤنس : فتح العرب للمغرب ، ص ٦٢

(٢) الواقدى : فتوح الشام ، ج ١ ، ضمن ٤ القاهرة سنة ١٣٦٨ ، ص ٤٣ ، ٤٤ — عبد الوهاب النجار : الجزء الرابع والعشرون ، القاهرة ١٩٦٠ ، ص ٢٠٨

(٣) المسعودى : مروج الذهب ، تعليق الأستاذ محيى الدين عبد الحميد ، ج ٢ القاهرة ١٩٥٨ ، ص ٣١٣ .

(٤) ابن الأثير : الكامل ، ج ٣ ص ١ - ٦

(٥) البلاذرى ، ج ١ ، ص ٦٤ ، ٦٥

(٦) ابن الأثير ، ج ٣ ص ٤٤

(٧) فتح الأندلس لأشباخ تعريب ، مترجمة Joaquim Asensulza ، الجزائر ١٨٨٩ ص ٩ من المقدمة .

(٨) البلاذرى ، ج ١ ص ٢٦٦

ولما ظفر عمرو بمدينة طرابلس « جرد خيلا كثيفة من ليلته ، وأمرهم بسرعة السير ، فصبحت خيله مدينة سبرت ، وقد غفلوا ، وقد فتحوا أبوابهم لتسرح ماشيتهم ، فدخلوها ، فلم ينج منهم أحد ، واحتوى عمرو على مافيها »[1] .

وكان عمرو قد بعث ، أثناء حصاره لطرابلس ، قائدة بسر بن أرطأة إلى ودان ، فافتتحها سنة ٢٣ هـ[2] ، وأعتقد أن المسلمين افتتحوا ودان وسبرت بقصد القضاء على أى محاولة من جانب بربر قبوسة لنجدة أهل طرابلس ، وفى نفس الوقت لتأمين فتحهم للساحل ، على نحو مافعله عمرو عند افتتاحه برقة ، إذ ضمن خضوع زوبلة وفزان للمسلمين ، خشية أن ينقض أهل هذه المناطق الداخلية على جيوشه ، فيقطعون عليها خط الرجعة .

ثم فتح العرب لبرقة والقسم الشرقى من ولاية طرابلس دون أن يدخل جريجوريوس ويدافع المسلمين ، ذلك لأن إقليم طرابلس الممتد مابين سبرت ومصر لم يكن تابعا له رسميا ، وهذا يفسر موقفه السلبى من غزو العرب لهذه البلاد ، وأعتقد أن القسم الغربى من طرابلس كان تابعا له ، وكان هذا القسم المذكور يضم جزيرة جربة Meninx ومسلاتة جرجس Girgis ، وحصن جيجتى Gightis ( بوغرارة ) ، ومدينة تاكاباى Tacapae ( قابس )[3] . وكانت أخبار

---

(١) ابن عبد الحكم ص ٢٨ ـ ابن الأثير ، ج ٣ ، ص ١١

(٢) نفس المرجع ، ص ٦٠ ـ البكرى ، المغرب ص ١٢

(٣) قابس مدينة جليلة عامرة حفت من نواحيها جنات ملتفة ، وحدائق مصطفة ، وهى كعبة عامة رخيصة ، وبها من التين والزروع والصناع ما ليس بغيرها من البلاد ، وفيها زيتون وزيت وفلات ، وعليها سور منيع بحيط به من خارجه خندق ( الإدريسى ، صفة المغرب والسودان ص ١٠٦ ) .

انتصارات العرب فى برقة وطرابلس ونزان وزويلة وودان قد وصلت إليه ، فاحتاط لنفسه ، وبادر بتحصين بلاده ، وإقامة الحاوس ، والمسالح ، والطابيات ، فبابلى سبرت ، تعززا للدفاع عن إفريقيـــة ، واستعداداً للقاء العرب [1] ، يدل على ذلك أن الادريسى ذكر أن الساحل الممتد مابين قابس وسبرت كثير القصور والحصون ومنها قصر زجونة ، وقصر بنى مأمون ، وقصر الخرف ، وجزيرة جربة ، وقصر بنى خطاب ، وقصور الزارات ، وقصر بنى ذكومين ، وقصر الحرى ، وقصر جرجيس ، وقصر صالح ، وقصر كوطين ، وقصر بنى ولول ، وقصر مركيا ، وقصر عقسلات .. إلى آخره [2] .

ويستنتج الدكتور حسين مؤنس من تحالف العرب مهاجمة قابس فى حملة عبدالله ابن سعد ، واتجاههم مباشرة إلى سبيطلة ، أن جرجير رؤس حصونها بقلاع منيعة لا ترام ، فقاداها العرب بعد ذلك [3] . ويبدو أن عمرو بن العاص قد حاول فتح بعض هذه الحصون للتغرة فبابلى سبرت غربا ، ولكنها استعصت عليه لمناعتها ، فكتب إلى الخليفة عمر بن الخطاب يعلمه بفتوحاته ، ويستأذنه فى فتح إفريقية ، ويغلب على الظن أنه طلب منه مدداً لذلك الغرض ، وذكر له فى جملة ما ذكره « إن الله قد فتح علينا إطرابلس ، وليس بينها وبين إفريقية إلا تسعة أيام ، فان رأى أمير المؤمنين أن يغزوها ويفتحها الله على يديه فعل » [4] . ويضيف

---

(١) حسين مؤنس ، فتح العرب لمغرب ، ص ٦٢ — السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ المغرب وآثارهم فى الأندلس ، ص ٢٨ .

(٢) الادريسى ، ص ١٢٢ — ١٢٩ .

(٣) حسين مؤنس ، ص ٦٢ .

(٤) ابن عبد الحكم ، ص ٤٠ — البلاذرى ، ص ٢٢٦ .

ابن عذارى عبارة تؤكد رأينا في أنه حاول فتح أحد الحصون ، فاصطدم بمقاومة عنيفة . يقول ابن عذارى: «وكتب إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، يخبره بما أفاء الله عليه من الفتح والنصر ، وأن ليس أمامه إلا بلاد إفريقية ، وملوكها كثيرة ، وأهلهـــا عديدون وأكثر ركوبهم الخيل (١) . »

ونستدل من رد الخليفة عمر بن الخطاب على كتاب عمرو بن العاص أن الخليفة كان مطلعا على الأحوال السياسية في إفريقية ، وكان محيطا بثورات أهلها ونكثهم بالعهود ، وغدرهم بأصحاب السلطان ، وكان من الطبيعي أن يرفض عمر طلب عمرو بمواصلة الفتح والتغرير بالمسلمين في مغامرة لا يعلم عواقبها إلا الله ، فآثر أن يقف المسلمون إلى هذا الحد من الفتوحات وكتب إلى عمرو قائلا : « لا إنها ليست بإفريقية ، ولكنها المفـــرقة ، غادرة مغدور بها ، لا يغزوها أحـــد ما بقيت » (٢) وقد أورد البلاذري صيغة أخرى لرد عمر بن الخطاب ، تدل على معرفته بشؤون البربر ، جاء فيه : « فكتب إليه ينهاه عنها ويقول : ما هي بإفريقية ، ولكنها مفرقة ، غادرة مغدور بها ، وذلك أن أهلها كانوا يؤدون إلى ملك الروم شيئا فكانوا يغدرون به كثيرا ، وكان ملك الأندلس صالحهم ، ثم غدر بهم ، وكان خبرهم قد بلغ عمر » (٣) .

---

(١) ابن عذارى ، ج ١ طبعة بيروت ص ٤ ، وقد ورد في طبعة ليفي بروفنسال وكولان ما يلي : « وملوكها كثير ، وأهلها في عدد عظيم ، وأكثر ركوبهم الخيل » ص ٨

(٢) ابن عبد الحكم ، ص ٢٠٠

(٣) البلاذري ، ص ٢٦٦

وكان لابد لعمرو من الاستجابة لرغبة عمر فى عدم الاستمرار فى الفتح، ولذلك اضطر إلى الانصراف عن إفريقية مرغما ، فعاد إلى مصر ، بعد أن أقام قائده عقبة بن نافع على هذه البلاد الصحراوية ، ببرقة ، يدعو للإسلام، ونجح عقبة فى كسب كثير من سكان البلاد من قبائل لواتة ونفوسة وتقزاوة وهرارة وزواغة ، فدخلوا فى الإسلام .

ثم أصبحت برقة قاعدة لجيش المسلمين فى غرب مصر ، أما عمرو ، فقد عاد إلى الفسطاط مقر ولايته، وظل مقيما بها حتى استشهد الخليفة عمر بن الخطاب وخلفه عثمان بن عفان . وكان أول ما فعله عثمان أن عزل عمر بن العاص من ولاية مصر ، فقلدها لعبد الله بن سعد بن أبي سرح سنة ٢٤ هـ .

ب — ولاية عبد الله بن سعد : غزوة سبيطلة :

أحس البطريق جرجوريوس بالخطر العربي يهدد بلاده من الشرق ، وكانت عاصمته قرطاجنة تقع فى أقصى الطرف الشمالى الشرقى من ولاية إفريقية على البحر ، فرأى أن يتخذ عاصمة جديدة تقع فى جوف البلاد حتى لا تتعرض لغزو العرب من الشرق ، وغزو البيزنطيين من البحر (١) . ثم إنه كان يعمل على تخريب من البربر طمعا فى أن ينصروه على العرب ، فأراد أن يختبر بينهم ، فاختار سبيطلة لهذا الغرض ، وجعلها حاضرة لولايته فى سنة ٢٤ هـ ( ٦٤٦ م ) . وفى نفس الوقت حصن المدن الشرقية مثل قابس وسفاقس وقفصة حتى تؤلف خطا دفاعيا أماميا يعرقل جيوش العرب ويؤخر من تقدمهم.

ويبدو أن سلطان العرب فى المغرب انحسر إلى برقة ، فخرجت طرابلس

---

(١) حسين مؤنس ، فتح العرب للمغرب ص ٢٥ ، ٢٦

من طاعتهم عقب انصراف عمرو بن العاص إلى مصر ، وكان عقبة قد اتخذ سرت بوقة مركزاً لقواته ، وقاعدة لغزواته فى داخل البلاد ، فصرف همه إلى غزو الواحات الغربية من فزان وودان وزويلة والسودان [1] ، وكان يرسل تقاريره عن حالة هذه البلاد إلى عبدالله بن سعد ، ولعله أبلغه خروج طرابلس عن طاعة المسلمين ، بدليل أن عبد الله بن سعد « كان يحث المسلمين فى جرائد الخيل كما كانوا يفعلون فى أيام عمرو ، فيصيبون من أطراف إفريقية ويقفلون [2] . وكان عبد الله بن سعد يكتب إلى عثمان يخبره بما نال المسلمون من عدوهم ، وقربهم من حوز المسلمين » [3] ، ويستأذنه فى غزو إفريقية [4] . ويبدو أنه طلب من الخليفة أن يرسل إليه مدداً يعينه على افتتاح إفريقية ، ولكن عثمان ، رغم ميله إلى إجابة رغبة أخيه فى الرضاع فى فتح إفريقية ليكسبه بذلك مجداً يزيد من هيبته ، ويعزز مكانته [5] ، كان متوقفا عن غزوها [6] ، بسبب رفض عمر بن الخطاب من قبل المضى فيه ، ولكن ميله إلى إجابة رغبة عبد الله بن سعد غلب عليه فى نهاية الأمر ، فعزم على غزو إفريقية ، ولكن بعد أن يستشير الصحابة فى ذلك .

---

(١) البكرى ، المغرب ص ١٤٠

(٢) ابن عبد الحكم ، ص ٤٢ ـ البلاذرى ، ٢٦٢ ـ المالكى ، كتاب رياض النفوس تحقيق الدكتور حسين مؤنس ، ج ١ ، القاهرة ١٩٥١ ص ٨ ـ ابن عذارى ، طبعة ليدن بروفنسال وكولان ـ ١ ص ٩

(٣) المالكى ، ص ٨

(٤) ابن عبد الحكم ، ص ٤٢

(٥) السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس ص ٢٩ .

(٦) البلاذرى ، ص ٢٦٢

ومما يدل على عزمه على الفتح ما ذكره المالكي في رياض النفوس ، نقلاً عن المسور بن محرمة عن طريق الزهري ، قال المسور : خرجت من منزلي بليل طويل أريد المسجد ، فإذا عثمان رضي الله تعالى عنه في مصلى النبي صلى الله عليه وسلم يصلي ، فصليت خلفه ، ثم جلس قدعا ليـــلا طويلا ، حتى أذن المؤذنون ، ثم قام منصرفا إلى بيته ، فقمت في وجهه ، فسلمت عليه ، فقال : يا ابن محرمة ، واتكأ على يدي ، إني استخرت الله في ليلتي هـذه في بعث الجيوش إلى إفريقية ، وقد كتب إلي عبد الله بن سعـد ، يخبر بجمعه مع المشركين ، وغلبهم وقرب حوزهم من المسلمين . فقلت : خار الله لأمـــير المسلمين ، قال : فما رأيك يا ابن محرمة ؟ قلت : اغزهم . قال : أجمع اليوم الأكابر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأستشيرهم ، فما أجمعوا عليه فعلته ، أو ما أجمع عليه أكثرهم فعلته ، ولتكن أنت رسولي اليهم ، واحضر معهم [1] .»

واجتمع الخليفة عثمان بوجوه الصحابة وذوي الرأي في سنة ٢٧ هـ ( ٦٤٧ م ) ، واستشارهم في أمر الفتح ، فأجمعوا عـــلى موافقته ، باستثناء الأمير سعيد بن زيد الذي تمسك برأي عمر بن الخطاب في ألا يغزوها أحد من المسلمين [2] . وما إن أقر الصحابة رأي الخليفة في الفتح ، حتى استنفر المسلمين ، ودعيهم إلى الغزو إلى إفريقية ، وفتح مستودعات السلاح ، فتوافى الناس وانضموا إلى الجيش . وخرج جماعة من الصحابة ، منهم عبد بن العباس بن عبد المطلب ، ومروان بن الحكم بن أبي العاص ، والحارث بن

---

(١) المالكي ، رياض النفوس ، ص ٩٠ .

(٢) نفس المرجع .

الحكم أخوه ، وعبـــد الله بن الزبير ، والمسور بن مخرمة بن نوفل ، وعبد الرحمن بن زيد بن الخطاب ، وعبد الله بن عمر بن الخطاب ، وعاصم ابن عمر ، وعبيد الله بن عمر ، وعبدالرحمن بن أبي بكر ، وعبدالله بن عمرو ابن العاص ، ويسر بن أرطأة بن عويمر العامري ، وأبو ذؤيب خويلد بن خالد الهذلي [1] . ويضيف المالكي إلى هؤلاء أسماء عدد كبير من الصحابة. ورافق كل من هؤلاء جماعة من قومه ، فخرج من أسلم ثلاثمائة رجل ، وخرج من مزينة ثمانمائة ، وخرج من بني سليم أربعمائة وخمسون ، وغيرهم من قبائل شتى [2] . وأمر عليهم عثمان الحارث بن الحكم حتى يصلوا إلى عبد الله بن سعد في مصر فتكون له القيادة بعد ذلك [3] . ثم خطب فيهم ، وحثهم على الجهاد في سبيل الله ، وقال لهم : « قد استعملت عليكم الحارث ابن الحكم حتى تصلوا إلى عبد الله بن سعد ، وقد قدمت عليكم عبد الله بن سعد لما علمت من فقهه ودينه وحسن رأيه وشجاعته ، وأخذت عليه العهد والميثاق أن يحسن لمحسنكم ، ويتجاوز عن مسيئكم ، ولا يحمله غرض الدنيا على هلاك رجل واحد منكم ، وأرجو لعبد الله أن يقف عند عهدي وأمري. وأوصيكم وإياه أن لا تهولنكم كثرة العدو ، وقد علمتم ما أنزل الله عليكم حيث يقول : كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله . أما علمتم أن أول هذه الأمة ما نصروا إلا بكثرة الصبر وقوة اليقين ؟ ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم . أستودعكم الله وهو خير الحافظين » سيروا

---

(١) البلاذري ، ص ٢٦٢

(٢) المالكي ، ص ١٠

(٣) ابن عبد الحكم ، ص ٤٢

على بركة الله ، وعليه فتوكلوا ، وبه فاثقوا » (١) .

وأعان عثمان المسلمين فى هذه الغزوة بألف بعير يحمل عليها ضعفاء الناس ٢ ، ثم سار الجيش من المدينة بقيادة الحارث بن الحكم ، فلما وصل إلى مصر ، ضم إليه ابن أبى سرح جيوش مصر وفيهم بعض الأقباط (٣) ، فكمل عدد الجيش عشرين ألفا (٤) . ثم استخلف عبد الله على مصر عقبة بن عامر الجهنى ، وخرج فى مقدمة جيشه إلى إفريقية . وفى برقة استقبله عقبة ابن نافع الفهرى فيمن معه من المسلمين(٥) . ومن برقة أرسل سرية ، تقدمت الجيش إلى طرابلس ، وكان أهل هذه المدينة قد تلقنوا باستيلاء المسلمين على مدينتهم فى أيام عمرو درسا لم ينسوه ، ولذلك عملوا على تحصين أسوار المدينة منذ أن خرجوا عن طاعة المسلمين ، فلما وصلت السرية العربية إلى طرابلس ، استولت على مركب كان راسيا بالقرب منها ، وأسر المسلمون من فيه ، حتى أدركهم عبد الله بن سعد بمجموع جيشه ، فأمر بقتل الأسرى ، وكان أهل طرابلس قد تحصنوا داخل أسوارهم عندما أقبل العرب ، وحاول المسلمون اقتحام المدينة ، ولكنها استعصت عليهم ، فعدلوا عن ضرب الحصار عليها حتى لا يعطلهم هذا الحصار عن غرضهم الأساسى ، وواصلوا السير نحو

---

(١) ابن عبد الحكم ، فتوح مصر ، ص ٢٢٩ ، وانظر : نص جديد عن فتح العرب للمغرب ، نشره الأستاذ ليفى بروفنسال ، بمجلة المعهد المصرى للدراسات الاسلامية فى مدريد ، المجلد الثانى ، ١٩٥٤ ص ٢١٥ ـ ابن عذارى ، ج ١ ص ٩

(٢) ابن عذارى ، ج ١ ص ٩

(٣) المالكى ، ص ١١

(٤) المالكى ، ص ١٠ ـ ابن عذارى ، ص ٩ ـ عبد الله بن صالح ، ص ٢١٩

(٥) ابن الأثير ، ج ٣ ، ٤٣ ـ الاستبصار ، ج ١ ، ص ٢٥

إفريقية (١) . ولما وصلوا إلى قابس وجدوا الروم قـــد تحصنوا داخل أسوارهم ، فأشار المسلمون على عبد الله بن سعد ألا يبدأوا بمهاجمة الحصون قبل أن يشتبكوا مع جيوش الروم (٢) ، فعدل عبد الله عن محاصرة قابس ، وبعث السرايا فى آفاق إفريقية ، فقتلوا فى كل وجه (٣) . وعندئذ اضطر البطريق جريجوريوس ، ويسميه العرب جرجير (٤) أو جرجيس (٥) ، إلى الخروج من سبيطلة لملاقاة جيوش العرب ، فخرج فى جيش عـــدته مائة وعشرين ألف مقاتل وفقا لرواية ابن عذارى وعبيد الله بن صـالح (٦) ، ومائة ألف وفقا لرواية المالكى (٧) . والتقى الجيشان بالقرب من سبيطلة . وهنا تتعارض الروايات العربية فيما يتبعها :

---

(١) المالكى ، ص ١٠ .

(٢) عبيد الله بن صالح ، ص ٢١٦ .

(٣) ابن عذارى ج ١ ص ٩ .

(٤) يقول ابن عذارى : «وصاحبها بطريق يقال له جرجير ، وكان سلطانه من طرابلس الى طنجه » (البيان المغرب ج ١ ص ٩) . ويقول المالكى : « فخرج عبد الله بن سعد ... يريد الى البطريق بافريقية ، وكان قد غلب على المغرب » (المالكى ، ص ١٠) . ويقول ابن عبد الحكم : «وكان مستقر سلطان افريقية يومئذ بمدينة يقال لها قرطاجنة ، وكان عليها ملك يقال له جرجير كان هرقل قد استخلفه ، فخلع هرقل ، وضرب الدنانير على وجهه ، وكان سلطانه ما بين طرابلس الى طنجه » ( ابن عبد الحكم ، ص ١٢ ) . وهذا يتفق البلاذرى مع ابن عبد الحكم وابن عذارى فى تحديد سلطة جريجوريوس فى المغرب ( البلاذرى ص ٢٦٨ ) .

(٥) الادريسى ، ص ١١٠

(٦) ابن الأثير ، ج ٣ ص ٤٣ ـ عبيد الله بن صالح ، ص ٢١٦ ـ ابن عذارى ج ١ ، ص ١٠ ـ البلاذرى ، الاستقصا ج ١ ص ٧٥

(٧) المالكى ، ص ١١

يقول ابن عبد الحكم ثم رجع إلى حديث عثمان بن صالح وغيره قال: فلقيه جرجير، فقاتله فقتله الله، وكان الذي ولي قتله فيما يزعمون عبد الله ابن الزبير » (١).

ويقول البلاذري: « حدثني محمد بن سعد، عن الواقدي، عن أسامة بن أسلم، عن نافع مولى آل الزبير، عن عبد الله بن الزبير قال: أغزانا عثمان بن عفان إفريقية، وكان بها بطريق، سلطانه من أطرابلس إلى طنجة، فسار عبد الله بن سعد بن أبي سرح حتى حل بمقربة، فقاتله أياما فقتله الله، وكنت أنا الذي قتله، وهرب جيشه فمزقوا » (٢). وأورد المالكي عدة روايات (٣):

١ - منها رواية عن الواقدي عن ربيعة الديلمي قال: « ثم غادرنا إلى إفريقية، ونحرنا الإبل، وذبحنا البقر، وأخذنا العلف والسيد، وجعلنا نضرب في كل جهة، وأقمنا أياما تجري بيننا وبين جرجير ملكهم الرسل، ندعوه إلى الإسلام فكلما دعوناه إلى الإسلام تجبر، ثم استطال وقال: لا أفعل هذا أبدا. فقلنا له: فتخرج الجزية في كل عام، فقال لو سألتموني درهما لم أفعل. فتهيأ الناس للقتال، وعبأ عبد الله بن سعد ميمنة وميسرة وقلبا وسار بأصحابه، فقال له رجل من القبط ممن كان معه: إن القوم لا يصافونك، هم أرهب منك من أن يصافوك، وهم يهربون منك، فاجعل منك، فاجعل لهم كمينا، وغرهم في أماكن. ففعل ذلك عبد الله، وعدا منا على تعبئة،

---

(١) ابن عبد الحكم، ص ١٢

(٢) البلاذري ص ٢٦٢

(٣) المالكي، ص ١٠ - ١٥

وتلاقينا مع الروم قد رفعوا الصليب وعليهم من السلاح ما الله أعلم به ، ومعهم من الخيل ما لا يحصى ، فصاولنا ساعة من نهار حتى صارت الشمس قدر رمحين ، وحمل عبد الله بالناس فكانت المزيمة عليهم ، وكر المسلمون عليهم في كل مكان ، فأكثروا فيهم القتل والأسر . لقد رأيت في موضع واحـــد ألف أسير ، فلما أصابهم الأسر والقتل طلبوا الصلح ، فصالحهم عبد الله بن سعد على خرج ، قيل صالحهم على ألفي ألف دينار وخمسمائة ألف دينار » .

ب ـ ومنها رواية عن صاب العصفري قال : « غزا عبـد الله بن سعد إفريقيه مع جماعة من الصحابة فلقي جرجير في سبيطلة وهي مدينة مسورة على سبعين ميلا من القيروان فقتل جرجير وهو في مائة ألف ، وصالحه أهل المدائن والحصون على مائة ألف وطل ذهب » .

ج ـ ومنها رواية لأبي عثمان سعيد بن عفير ، قال : « لما سمعت الروم والأزرقة [1] بمخرج عبد الله ووصوله إلى إفريقية ، خرجوا إليه ومعهم جرجير في جمع كثير من الروم فلما التقوا بالمسلمين نادى جرجير بالبراز فبرز إليه عبد الله بن الزبير ومروان بن الحكم فقتله ابن الزبير ، ومنهم من قال قتلاه جميعا . ثم كانت المزيمة ، واتخذ المسلمون ذلك المنزل معسكر ، وأصابوا لهم غنائم كثيرة ، فأصاب الفارس في سهمه ثلاثـة آلاف دينار ، ثم ساروا إلى البلاد ففتحوها كل مدينة عنوة » .

د ـ ومنها رواية نقلها عن الواقدي عن عبد الله بن الزبير قال : « أغزانا

---

(١) الأزرقة خطأ ، صحيحه الأفارقة .

عفان رضى الله تعالى عنه إفريقية ، وكان بها بطريق يسمى جرجير ، سلطانه من طرابلس إلى طنجة فسار عبد الله حتى حاصره ، فقاتله أياما ، فقتله الله عز وجل ، وكنت أنا الذى قتلته ، فهرب جيشه ، وقطع ابن أبى سرح السرايا ، وفرقها فى البلاد ، فأصابوا غنائم كثيرة ».

« ومنها رواية نقلها عن أهل العلم بالسير ومغازى إفريقية نصها : « إن عبد الله بن سعد نزل بموضع يسمى قونية ، وهو موضع مدينة القيروان ( انظر خريطة رقم ٤ ) ، فسأل عن أشراف من بإفريقية من الروم ، فقيل جرجير ، وهو صاحب مدينة سبيطلة . فزحف عبد الله إلى جرجير الملك ، فلقيه فى خلق عظيم من الروم ، فقاتله عبد الله بمن معه ، والتحم القتال ، ووقع الصبر ، حتى ظن الناس أنه الفناء ، فانهزم جرجير ولزمه عبد الله بن الزبير فى عجاج الموت ، فعرفه بمن معه من أشراف قومه ، ففرق عنه أصحابه وقتله إلى جانب السور ، وابنته تنظر من السور إلى قاتله ، وسبقت خيول المسلمين الروم إلى باب الحصن ، فقالوا بينهم وبين الدخول إلى حصنهم ، فركبهم المسلمون يمينا وشمالا فى السهل والوعر ، فقتلوا أنجادهم وفرسانهم ، ونزل عبد الله بن أبى سرح باب المدينة ، وحصرها بمن معه حصارا شديدا حتى فتحها ، وأخذ ابنة جرجير فوهبها لعبد الله بن الزبير ، وهو صاحب الأفاعيل فى ذلك اليوم ، وهو المستشهد فى سبيل الله . ودخل عبد الله المدينة ، فوجد فيها سبيا كثيرا وأموالا جمة عظيمة ، ووجد أكثرها ذهبا ، وسرى على الروم فبلغت خيوله قصور قفصة ، وبلغت موضعا يقال له قرطاجنة ، فسبى فيها ما تأتى ، وذهب بعد تلك الواقعة ملك الروم بإفريقية ، ولجأوا إلى الحصون ، وأصابهم رعب عظيم ».

ويقول ابن الأثير[1] : « وسار (عبد الله بن سعد) نحو إفريقية ، وبث السرايا فى كل ناحية ، وكان ملكهم اسمه جرجير ، وملكه من طرابلس إلى طنجة ، وكان هرقل ملك الروم قد ولاه إفريقية ، فهو يحمل إليه الخراج كل سنة ، فلما بلغه خبر المسلمين تجهز وجمع العساكر وأهل البلاد ، فبلغ عسكره مائة ألف وعشرين ألف فارس ، والتقى هو والمسلمون بمكان بينه وبين مدينة سبيطلة يوم وليلة ، وهذه المدينة كانت ذلك الوقت دار الملك ، فأقاموا هناك يقتتلون كل يوم ، وراسله عبد الله بن سعد ، يدعوه إلى الإسلام أو الجزية ، فامتنع منهما ، وتكبر عن قبول أحدهما ، وانقطع خبر المسلمين عن عثمان ، فسير عبد الله بن الزبير فى جماعة إليهم ليأتيه بأخبارهم ، فسار عبدا ، ووصل إليهم ، وأقام معهم ، ولما وصل كثر الصياح والتكبير فى المسلمين ، فسأل جرجير عن الخبر ، فقيل قد أتاهم عسكر ، ففت ذلك فى عضده ، ورأى عبد الله بن الزبير قتال المسلمين كل يوم من بكرة إلى الظهر ، فإذا أذن بالظهر عاد كل فريق إلى خيامه ، وشهد القتال من الغد ، فلم ير ابن أبى سرح معهم ، فسأل عنه ، فقيل إنه سمع منادى جرجير يقول : من قتل عبد الله بن سعد فله مائة ألف دينار وأزوجه ابنتى ، وهو يخاف ، فحضر عنده ، وقال له : تأمر منادیا ينادى من أتى برأس جرجير نقتله مائة ألف وزوجه ابنته ، واستعملته على بلاده ، ففعل ذلك ، فصار يخاف أشد من عبد الله . ثم إن عبد الله بن الزبير قال لعبد الله بن سعد ، إن أمرنا يطول مع هؤلاء ، وهم فى أمداد متصلة ، وبلاد هى لهم ، ونحن منقطعون عن المسلمين وبلادهم ، وقد رأيت أن نترك غدا جماعة صالحة من أبطال المسلمين فى خيامهم

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ، ج ٣ ص ٤٢ ، ٤٤

متأهبين ، ونقاتل نحن الروم فى باقى العسكر ، إلى أن يضجروا ، ويملوا ، فاذا رجعوا إلى خيامهم ورجع المسلمون ، ركب من كان فى الخيام من المسلمين ، ولم يشهدوا القتال وهم مستريحون ، ونقصدهم على غرة ، فلعل الله ينصرنا عليهم . فأحضر جماعة من أعيان الصحابة واستشارهم فوافقوه على ذلك . فلما كان الغد فعل عبد الله ماتفقوا عليه ، وأقام جميع شجعان المسلمين فى خيامهم ، وخيولهم عندهم مسرجة ، ومضى الباقون ، فقاتلوا الروم إلى الظهر قتالا شديدا ، فلما أذن بالظهر هم الروم بالانصراف على العادة ، فلم يمكنهم ابن الزبير وألح عليهم بالقتال حتى أتعبهم ، ثم عاد عنهم هو والمسلمون ، فكل من الطائفتين ألقى سلاحه ووقع تعبا ، فعند ذلك أخذ عبد الله بن الزبير من كان مستريحا من شجعان المسلمين ، وقصد الروم ، فلم يشعروا بهم حتى خالطوهم ، وحملوا حملة رجل واحد وكبروا ، فلم يتمكن الروم من لبس سلاحهم ، حتى غشيهم المسلمون ، وقتل جرجير ، قتله ابن الزبير ، وانهزم الروم وقتل منهم مقتلة عظيمة ، وأخذت ابنة الملك جرجير سبية ، ونازل عبد الله بن سعد المدينة ، فحصرها حتى فتحها ... » .

ويقول ابن عذارى[1] : « والتقى عبد الله مع البطريق ضحى النهار فى موضع يعرف بسبيطلة ، وكان جرجير فى مائة وعشرين ألفا ، فضاق المسلمون فى أمرهم ، واختلفوا على ابن سعد فى الرأى ، فدخل فسطاطه مفكرا فى الأمر ... قال عبد الله بن الزبير : فرأيت عورة من جرجير ، والناس على مصافهم ، رأيته على برذون أشهب خلف أصحابه ، منقطعا عنهم ، معه

---

(١) ابن عذارى ج ١ ص ٥٠ ، ٥١ . وقد ورد هذا النص أيضا فى رياض النفوس للمالكى ، ص ١٤ ، ١٥

جاريتان له تظلانه من الشمس بريش للطواويس ، فأتيت قسطاط عبد الله ابن سعد ، فطلبت الإذن عليه ، فقال له حاجبه : دعه فانه يفكر في شأنكم ، ولو اتجه إليه رأي لدعا بالناس . فقلت : إني محتاج إلى مذاكرته . فقال له : أمرني أن أحبس الناس عنه حتى يدعوني . قال : فدرت حتى كنت من وراء القسطاط ، فرأى وجهي ، فأومأ إلى برأسه ، أن تعال . فدخلت عليه وهو مستلق على فراشه ، فقال : ما جاء بك يا ابن الزبير ؟ . فقلت : رأيت عورة من عدونا ، فرجوت أن تكون فرصة هيأها الله لنا ، وخشيت الفوت . فقام من فوره ، وخرج حتى رأى ما رأيت ، فقال : أيها الناس ، انتدبوا مع ابن الزبير إلى عدوكم ، فسارع إلى جماعة اخترت منهم ثلاثين فارسا ، ثم قلت : إني حامل ، فاصرفوا عن ظهري من أرادني ، فاني أكفيكم ما أمامي إن شاء الله تعالى . قال عبد الله : فحملت في الوجه الذي هو فيه ، وذب عني الذين انتدبوا معي ، وأتبعوني حتى خرقت صفوفهم إلى أرض خالية فضاء بيني وبينهم ، فوالله ما حسب إلا إني رسول إليه حتى رأى ما بي من أثر السلاح ، فقدر إني هارب إليه ، فلما أدركته طعنته فسقط ، فرميت فحمي عليه ، وألقت جاريتاه عليه أنفسهما ، فقطعت يد إحداهما ، وأجهزت عليه ، ورفعت رأسه على رمحي . ورجال أصحابه ، وحمل المسلمون في ناحيتي وكبروا ، فانهزم الروم ، وقتلهم المسلمون كيف شاءوا . وثارت السكاتن من كل جهة ومكان ، وسبقت خيول المسلمين ورجالهم إلى حصن سبيطلة ، فحموم من دخوله ، وركبهم المسلمون يمينا وشمالا في السهل والوعر ، فقتلوا أنجادهم وفرسانهم ، وأكثروا فيهم الأسارى حتى لقد كنت أرى في موضع واحد أكثر من ألف أسير » .

هذه هي معظم الروايات العربية التي تصور لنا انتصار العرب على الروم

في سيطلة ، وهي وإن كانت متباينة في التفصيلات من جهة ، ويغلب عليها الطابع القصصي من جهة ثانية إلا أن معظمها تتفق على أن عبد الله بن الزبير هو قاتل جرجوريوس. ويشك الدكتور الدكتور حسين مؤنس في الروايات القائلة بخوف عبد الله بن سعد من الظهور أمام جنده خشية أن يترصده أحد جنوده فيقتله ، واختبائه في قسطاطه حتى قدوم عبد الله بن الزبير في مدد بعثه عثمان بن عفان إليه لما أطبقت عليه أخبار المسلمين [1] . كما يشك في دور البطولة الذي أسبغته الروايات العربية المتأخرة على عبد الله بن الزبير لعاملين :

الأول : أن ابن عبد الحكم ، وهو أقدم من كتب من مؤرخي العرب في فتح المغرب ، اكتفى بقوله : « وكان الذي ولي قتله فيما يزعمون عبد الله ابن الزبير » ، أي أنه ذكر الخبر في شيء من الحذر والاحتراز مما يشكك في أصالة الرواية .

والثاني : أنه بينما تشير معظم الروايات إلى أن ابنة جرجوريوس كانت من نصيب قاتل أبيها عبد الله بن الزبير، ومن جملة هذه الروايات رواية ذكرها ابن عبد الحكم ، فإن ابن عبد الحكم نفسه أورد رواية أخرى جاء فيها : « وكانت ابنة جرجير، كما حدثنا أبو عبد الله بن عبد الحكم، وسعيد بن عفير، قد صارت لرجل من الأنصار في سهمه ، فأقبل بها منصرفا ، قد حملها على بعير له ، فجعل يرتجز .

يا ابنـــة جرجير تمشي عقبك ... إبـــن عليك بالحجاز ربك

لتحملن عن قبـــاء قربك

---

(١) حسين مؤنس ، فتح العرب للمغرب ، ص ٨٩

فسألت ما يقول هذا الكلب؟، فأخبرت بذلك ، فألقت بنفسها من البعير الذى كانت عليه ، فدقت عنقها فماتت » (١) . ويتساءل الدكتور مؤنس : كيف يتفق أن تصير ابنة جرجير لابن الزبير ، ولرجل من الأنصار فى وقت واحد ؟

ويستنتج الدكتور مؤنس من رواية ابن عبد الحكم أن قصة قتل ابن الزبير لجرجير ، وأخذه ابنته لا أصل له فى الحقيقة . ولا يعدو ذلك أن يكون من اختراع الرواة (٢). ويؤيد الدكتور سعد زغلول عبد الحميد هذا الرأى ، ويرى « أن الزبيريين هم الذين عملوا على إذاعة هذه الأخبار عن أسرتهم ، فنسبوا إلى عميد الأسرة الأول ـ الزبير بن العوام ـ فخر الانتصار فى بابليون فى مصر ، كما نسبوا إلى ابنه عبد الله ـ الذى بلغت الأسرة على أيام مطالبته بالخلافة أوج عظمتها ـ شرف الانتصار فى سبيطلة بإفريقية (٣) .

وقبل أن نبحث فى الدور الذى لعبه ابن الزبير فى موقعة سبيطلة ينبغى أن نشير إلى أمرين :

الأول : أنه إذا كان ابن الزبير من بين الصحابة الذين اشتركوا فى الحملة التى سيرها عثمان بن عفان من المدينة ، فكيف يتفق إذن قدومه بعد ذلك إلى المغرب قبل وقوع الاشتباك فى سبيطلة بين العرب والروم؟

---

(١) ابن عبد الحكم ، ص ٨٦

(٢) حسين مؤنس ، فتح العرب للمغرب ، ص ٩٢

(٣) سعد زغلول عبد الحميد ، فتح العرب للمغرب بين الحقيقة التاريخية ، والأسطورة الشعبية ، ص ٢٩

والثانى : إذا كان الدكتور حسين مؤنس يستند على نص ابن عبد الحكم الذى يشير إلى أن ابنة جرجير آلت إلى رجل من الأنصار فى سهمه ، وذلك تعزيزا لرأيه فى أن ابن الزبير لم يكن بطل سبيطلة ، فان المالكى يروى فى رياض النفوس خبرين نستنتج منهما أن عبد الله بن سعد كافأ عبد الله ابن الزبير على بطولته بأن نفله ابنة الملك . وفى الخبر الأول أيات قالها ابن الزبير فى ابنة جرجير حين بلغه أنها سألت أباها أن يتحلها العرب :

ابنة جرجير نلى غنائمك ... لقيت بالنحلة ثكلى أيمك
لتأخذن فى الطريق عقبتك ... لتسقين شر ماء قربتك
شر عجوز بالحجاز ربتك (١)

وفى الخبر الثانى أن عبد الله كان يرتجز لابنة جرجير الطريق ويقول :

يا ابنة جرجير نهتى غضبتك ... مقبصرين فى الحجاز ربتك
ما أحسن الوجه وأجمل مقلتك ... لتحملن من تدبر قربتك
لتعظمن فى الأعاء لقمتك (٢)

ويروى ابن عذارى أيضا أن عبد الله بن سعد نفل ابن الزبير ابنة الملك المقتول جرجير ، وأنه اتخذها أم ولد(٣) . كذلك يروى ابن الأثير ، أن

---

(١) المالكى ، ص ١٣
(٢) نفس المرجع ، ص ١٠
(٣) ابن عذارى ، ج ١ ، ص ١٢

عبد الله بن سعد قتل ابن الزبير ابنة جرجير ، وأرسله إلى عثمان بالبشارة بفتح إفريقية . ثم يضيف قائلا : « وقيـــل أن ابنة الملك وقعت لرجل من الأنصار(١) » .

ولا جدال في أن معظم الروايات السابقة تتضمن كثيرا من المبالغة في تصوير بطولة ابن الزبير ، ومن الطبيعي أن تمجد هذه الروايات المستقاة من آل الزبير بطولته ، فتقلل من شأن ما قام به عبد الله بن سعد . ولكن ليس معنى هـذا أن نستبعد ما أجمعت عليه الروايات من أن ابن الزبير هو الذي توصل إلى قتل جرجير ( جريجوريوس ) . فلو أن ابن عبد الحكم كان يشك بعبارته « فيما يزعمون » في قيام عبد الله بن الزبير بقتل جرجير ، فلماذا لم يشر إذن إلى رواية أخرى تتضمن اسم البطل الحقيقي؟ . ونعتقد أن عبد الله ابن الزبير كان من بين أبناء الصحابة الذين اشتركوا في حملة الحجاز ، فاسمه يرد في رواية البلاذري والمالكي وابن عذاري والنويري ، وقد تصادف اشتراك عدد من أبناء الصحابة في هذه الحملة تبدأ أسماؤهم بعبد الله ، فسميت الغزوة لذلك بغزوة العبادلة(٢) . ونعتقد أن ابن الأثير هو المؤرخ الوحيد الذي أشار إلى تسيير عثمان بن عفان لعبد الله بن الزبير في جماعة إلى إفريقية ليأتيه بأخبار المسلمين ، وعنه أخذ النويري . والنويري على هذا التحو ناقض نفسه ، فقد روى في موضع آخر أن حملة الحجاز كانت تضم بين قوادها عبد الله بن الزبير(٣) . إذن ليس هناك إجماع بين الروايات على أن ابن الزبير

---

(١) ابن الأثير ، ج ٣ ، ص ٤٤

(٢) المالكي ، ص ٦٠

(٣) النويري ، نهـــاية الأرب ، عن حسين مؤنس ، فتح العرب للمغرب ص ٨٩ ، ملاحظة رقم ٢ .

كان مبعوث الخليفة عثمان إلى عبد الله بن سعد بن أبي سرح أن اضعاف أخبار الفتح . وقد تكون رواية ابن الأثير في هذا الشأن منقولة عن مصدر زبيري لتصور إلى أي حد كان وصول ابن الزبير نجدة للمسلمين . وظاهر أن هذه الرواية من اختراع الرواة ، خاصة بعد أن اختار ابن سعد عبد الله بن الزبير ليكون رسولا منه إلى الخليفة ليبشره بما أحرزه المسلمون من انتصارات على الروم ، فقد روى ابن عبد الحكم ( عن عبد الملك بن مسلمة ، عن ابن لهيعة ) قال أن عبد الله بن سعد « بعث بالفتح عقبة بن نافع ، ويقال بل عبد الله ابن الزبير وذلك أصح ، وسار — زعموا — عبد الله بن الزبير على راحلته إلى المدينة من إفريقية عشرين ليلة » . وروى أيضا نقلا عن سعيد بن عفير ، « حدثني المنذر بن عبد الله الحزامي ، عن هشام بن عروة أن عبد الله بن سعد بعث عبد الله بن الزبير بفتح إفريقية ، فدخل على عثمان ، فجعل يخبره بلقائهم العدو ، وما كان في تلك الغزوة ، فأعجب عثمان (١) » . وقال ابن عبد الحكم أيضا نقلا عن مسلمة بن عبد الملك عن الليث بن سعد ، قال : « بعث عبد الله بن سعد عبد الله بن الزبير — وكان في الجيش — بالفتح ، فقدم على عثمان بن عفان(٢) » . ويؤيد المالكي هذه الرواية بقوله إن عبد الله بن أبي سرح لما أراد أن يوجه بشيرا إلى عثمان رضي الله عنه ، قال ( لابن الزبير ) : « أنت أولى من هنا بذلك ( وذلك لفقهه بجزيجور يوس ) . انطلق إلى أمير المؤمنين ، فأخبره بالخبر(٣) » . وقال ابن عذاري أن الأمير

---

(١) ابن عبد الحكم ، ص ٨٠ — ٨١

(٢) نفس المرجع ص ٨١

(٣) المالكي ، ص ١٠

عبد الله بن سعد دعا عبد الله بن الزبير ، فقال له « ما أحد أحق بالبشارة منك ، فامض ، فبشر أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه بالمدينة ، بما أفاء الله على المسلمين[1] » .

فوصل عبد الله إلى المدينة في شهر ، وقيل في ثمانية عشر يوما[2] ، وذكر ابن عذارى أنه وافى المدينة في أربعة وعشرين يوما ، وكانت إقامته بافريقية سنة وشهرين[3] . وأغلب الظن أن الرواة وجدوا في سفره إلى المدينة رسولا مزايا بن سعد فرصة موائية وميرا لتمجيد شخصيته، فنسجوا قصة بطولته الخارقة في أنه قدم إلى إفريقية مبعوثا من الخليفة، فوجد ابن سعد مهموما في فسطاطه ، فدبر له خطة قتل جرجير يوس ، هذه القصة فيها تعظيم لشأن عبد الله بن الزبير وتقليل من شأن عبد الله بن سعد . ولو أن عبد الله بن الزبير لم يكن قد اشترك في الحملة، وأبدى من البطولة في قتال الروم ، وقتل جرجيريوس ، لما كان جديرا باختياره رسولا إلى الخليفة يبشره بالفتح .

أما ماذكره ابن عبد الحكم من أن عبد الله بن سعد وجه مروان بن الحكم إلى عثمان من إفريقية ، فان ابن عبد الحكم نفسه لم يستطع أن يعرف إذا ما كان ذلك قد حدث قبل الفتح أم بعده ، والأقرب إلى الصواب أنه أرسله إليه قبيل موقعة سبيطلة ، عندما شاهد ضخامة جيش الروم وعتادهم ، وذلك لكي يستمد عثمان بمدد آخر . وأعتقد أن عبد الله بن سعد بادر بعد نجاح ابن الزبير في قتل جرجيريوس ودخول المسلمين سبيطلة بارساله إلى المدينة وذلك حتى

---

(١) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٢

(٢) المالكي ، ص ٩٠

(٣) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٢

يردف به مروان بن الحكم، فيصل ابن الزبير ومعـــه آخر أبناء الفتح . ولو افترضنا جدلا أن عبد الله بن سعد أرسل مروان بن الحكم إلى الخليفة قبل المعركة ليطلب مددا جديدا، فليس من المعقول أن يصل مروان ، ويأتي عبد الله بن الزبير في فترة وجيزة يحيث يسبق مجيئه نشوب المعركة ، وليس من المعقول أن يأتي عبد الله بن الزبير على رأس اثني عشر رجلا فقط على حد قول النويري[1] .

ونخرج من كل ذلك بالنتائج الآتية :

١ ـ أن عبد الله بن سعد بعد أن استعصت عليه قابس ، واصل زحفه بمحاذاة الساحل التونسي حتى وصل إلى بلدة قمونية ، وهي موضع مدينة القيروان[2] ، ولعلها ميناء Caput Vada البيزنطي أو مدينة قمودة التي أشار إليها الادريسي ، وكلتاهما قريبة من القيروان[3] . وهناك أرسل رسله إلى جريجوريوس يدعوه إلى خصال ثلاثة : الإسلام ، أو الجزية أو القتال[4]، وهي عادة اتبعها الفاتحون العرب في كل فتوحاتهم. فلما رفض جريجوريوس ما عرضه عليه عبد الله بن سعد ، بدأت الاشتباكات بين الطرفين ، وتهيأ القوم للقتال ، ووعبأ الناس عبد الله بن سعد ميسرة وميمنة وقلبا ، وسار بأصحابه[5] ، وخلف جيوش الروم، وكان جريجوريوس قد حصن سبيطلة

---

(١) حسين مؤنس ، فتح العرب للمغرب ، ص ٨٧ .

(٢) المالكي ، ص ٩٢ .

(٣) حسين مؤنس ، ص ٨٦ ، مخطوطة رقم ٢

(٤) المالكي ، ص ١٠

(٥) المالكي ، ص ٩٩ .

بسلسلة من الحصون والقلاع ، واختار جريجوريوس لخص عقوبة ، وبلغ قريبا من سيبطلة ليكون ميدانا للمعركة بينه وبين العرب .

ويبدو أن جيش الروم تضخم بمن انضم اليه من الروم والبربر الموالين لهم، من العاصمة ومن الحصون القريبة من سبيطلة(١) . وظهر جيش العرب ضئيلا بالنسبة لجيش الروم ، وخاف عبد الله بن سعد أن يلقى العرب ، وهم فئة قليلة جيوش الروم والأفارقة مجتمعة ، فعظم عليه الأمر ، ولعله أرسل فى هذه الأزمة مروان بن الحكم إلى عثمان ليستمده . وهنا تصور الروايات العربية شدة ما أصابه من غم وضيق ، واختلاف المسلمين عليه فى الرأى ، وانزواءه فى فسطاطه مفكرا .

٢ — كان جريجوريوس يخاف أن يشتبك مع العرب فى موقعة فاصلة ، فتدور عليه الدائرة(٢) ، فقد كانت آباء انتصاراتهم فى الشام ومصر والعراق وبرقة قد وصلته ، ولذلك اقتصر القتال بادىء ذى بدء على اشتباكات فاترة . وكان جيش الروم ينقسم إلى كراديس ، واختار جريجوريوس لنفسه موضعا مرتفعا نائيا عن جنوده يشرف منه على القتال . واستغرقت المناوشات أياما كان القتال يمتد أثناءها من الصباح حتى الظهر . ويبدو أن جيوش الروم كانت متفوقة على جيوش المسلمين . فدعا ابن الزبير إلى التفكير فى طريقة تكفل النصر للمسلمين ، فاتفق مع عبد الله بن سعد على أن يباغت

---

(١) يروى المالكى عن أبى عثمان سعيد بن ضبر ، أن الروم والأفارقة ، لما سمعوا بوصول عبد الله بن سعد إلى إفريقية ، خرجوا إليه وهم جرجير فى جمع كثير من الروم ( رياض النفوس ، ص ١١ )

(٢) ابن عذارى ، ج ١ ، ص ١٠

عبد الله بن الزبير الروم بالهجوم بعد انتهاء القتال اليومي، عندما يكون التعب والجهد قد أخذ منهم مأخذا عظيما(١)، وتجمعت الحملة فجأة بمكن في الحسبان، واخترق عبد الله بن الزبير وأصحابه معسكر الروم، وهم متعبون، لا يتوقعون القتال، واستطاع أن يصل في يسر إلى مخيم البطريق، وتمكن أخيرا من قتله، وانهزم الروم بمصرع ملكهم هزيمة نكراء، وسيقتهم خيول المسلمين إلى باب الحصن، فحالوا بينهم وبين دخوله، وأذرع فيهم المسلمون قتلا(٢)، واستولوا على حصن عقوبة.

٣ — زحف عبد الله بن سعد إلى سبيطلة بعد ذلك. فحاصرها حصارا محكما وتمكن من الاستيلاء عليها، وغنم فيها غنائم كثيرة. وأراد أن يستغل هذا الانتصار الكبير في الاستيلاء على قرطاجنة، فبث جيوشه في البلاد فبلغت قفصة، فسبوا وغنموا، وسير عسكرا إلى حصن الأجم(٣)، وقد احتمى به أهل البلاد فحاصره، وفتحه على الأمان(٤). فلما رأى رؤساء المدن في إفريقية ذلك طلبوا من عبد الله بن سعد أن يأخذ منهم ثلاثمائة قنطار من ذهب على أن يكف عنهم ويعود من حيث أتى، ففعل(٥)، وتأهب للعودة إلى مصر، دون أن يعقد بالمغرب قيروانا، ويستغل هذا النصر العظيم في

---

(١) ابن الأثير، الكامل، ج ٤ ص ٤٢.

(٢) المالكي، ص ٦٢.

(٣) هو حصن منيع من أعظم حصون افريقية، ويقع جنوبي مدينة القيروان، وكان يعرف في العصر البيزنطي باسم Thysdrus (حسين مؤنس، ص ٦٢ ملحوظة ٤).

(٤) ابن الأثير، ج ٣ ص ٤٤ — الاستبصار، ج ١ ص ٦٦.

(٥) البلاذري، ص ٢٦٨.

إقامة قاعدة للمسلمين في إفريقية(١) وكانت قد وصلته أنباء بقيام الروم في السواحل والحصون الثابتة بالجميع لقصده(٢) ، فخاف أن يشتبك معهم في قتال ينتهي بهزيمته ، خاصة وأنه كان قد فقد عددا كبيرا من عسكره في معركة سبيطلة ، يضاف إلى ذلك أن غيبته عن مصره مقر ولايته ، كانت قد طالت إلى ١٥ شهرا ، وكان لابد له من العودة للنظر في شؤون ولايته من جهة ، والقضاء على مظاهر الاضطراب الناشئة من سخط المسلمين على سياسة الخليفة عامة من جهة ثانية، ثم إن جيش المسلمين كان قد جمع من الغنائم الكثيرة ما جعل الجند يحرصون على العودة بها إلى مصر. هذه الدوافع حركت عبد الله بن سعد إلى التفكير في العودة إلى مصر ، فكتب إلى نائبه في مصر عقبة بن عامر الجهني ، يأمره بأن يرسل إليه طرابلس مراكب في البحر لتحمل غنائم المسلمين ، وسار هو وجيشه إلى طرابلس حيث وافته المنية بها(٣) .

ويعلق الدكتور حسين مؤنس على موقعة سبيطلة بأنها لم تفتح أمام العرب كل سهل تونس، بل جزءا محدودا منه سرعان ما انحط المتد من سبيطلة نفسها إلى سوسة من الشمال ، ثم من طلة إلى قفصة جهة الغرب ، وشريط

---

(١) وفي ذلك يقول البلاذري : « لما سار عبد الله بن سعد بطريق البرية رجع الى مصر ، ولم يزل على البرية أحداث ولم يكن لها بوشذ كيوان ولا مصر جامع » ( فتوح البلدان ، ص ٢٦٨ ) .

(٢) المالكي ، ص ١٧ — Julien, Histoire de l' Afrique du Nord, depuis la conquête arabe, Paris, 1952, p. 14.

(٣) المالكي ، ص ٩٠

ساحلي ضيق فيما بين قابس وشط الجريد في الجنوب (١) . ومع ذلك فان غزوة عبد الله بن سعد كانت تجربة مفيدة للعرب ، إذ أوقفتهم على حالة هذه البلاد ، وعلى مدى أهميتها بالنسبة لهم ، ونرى أن جهود عبد الله بن سعد ستعقبها جهود موفقة أخرى .

ج ـ حملة معاوية بن حديج على افريقية سنة ٤٥ هـ ( ٦٦٦ م ) :

ما كاد البطريق جرجير يوس يقتل في سبيطلة حتى أقام الافارقة على أنفسهم بطريقا جديدا يقوم بشؤونهم ويسميه العرب حبا حبة(٢) ، وهو الذي عقد معه عبد الله بن سعد معاهدة الصلح(٣) . ولم يعاود للعرب الاغارة على أفريقية ، ولم يبدوا اهتماما بشؤون المغرب على الإطلاق منذ سنة ٢٨ هـ التي عقد فيها الصلح بين العرب والأفارقة ، حتى سنة ٣٨ هـ ، وهي السنة التي تولى فيها عمرو بن العاص ولاية مصر من قبل معاوية بن أبي سفيان ، ذلك أنهم شغلوا بفتنة الأمصار التي أسفرت عن مقتل الخليفة عثمان ، وتشوب للنزاع بين الأمويين والعلويين ، وهو النزاع الذي انتهى بمقتل علي بن أبي طالب وقيام الدولة الأموية .

وكان عمرو بن العاص ما يزال يفتح فتح إفريقية على رأس جـــدول

---

(١) فتح العرب للمغرب ، ص ٩٦

(٢) ابن عذارى ، ج ١ ، ص ١١٦ ، ١٢٠ ، ويسميه النويري باسم حبابه ( عن مسيو مرسيه ، ص ١١٤ ، ملحوظة ٢ ) ، ويسميه اندريه جوليان جنادبوس Gennadius ( Julien, op. cit. p. 15 )

(٣) البلاذري ، ص ٢٦٨ .

أعماله ، وكانت الغنائم الكثيرة والمكاسب الوافرة التي أسفرت عنها حملة عبد الله بن سعد ، عاملا هاما في تحريك مطامع عمرو في المغرب من جديد ، ودفعه إلى غزو هذه البلاد للمرة الثانية . غير أن الصراع القائم بين علي ومعاوية ، ومشكلات التحكيم ، شغله عن إعداد حملة منظمة لهذا الغرض ، فلما استقر الأمر لمعاوية على الخلافة ، بعد تنازل الحسن له عنها في أواخر ربيع الأول سنة ٤١ هـ ، استأنف عمرو غزواته السابقة على برقة وطرابلس ، فكان يبعث إليها جندا يغنمون من أراضيها ما شاء لهم ذلك ، ويعودون من حيث أتوا ، دون أن يشتبكوا مع الروم في مواقع حاسمة . فقد ذكر ابن الأثير أن عمرو استعمل في سنة ٤١ هـ « عقبة بن نافع بن عبد قيس وهو ابن خالة عمرو ، على أفريقية ، فانتهى إلى لواتة ومزاتة فأطاعوا ثم كفروا ، فغزاهم من سنته ، وقتل وسبى ، ثم افتتح في سنة اثنتين وأربعين غدامس فقتل وسبى ، وفتح في سنة ثلاث وأربعين كورا من كور السودان ، وافتتح ودان ، وهي من برقة »[1] . ويؤيد ذلك ما ذكره ابن عذارى إذ يقول : « ( وفي سنة ٤٢ هـ ) غزا عقبة بن نافع أفريقية »[2] . قال غريب في مختصره للطبري : فيها غزا عقبة بن نافع المغرب ، وافتتح غدامس ، فقتل فيها وسبى » ويشير ابن تغري بردي كذلك إلى افتتاح عقبة بن نافع في سنة ٤٣ هـ كورا من بلاد السودان وودان من برقة[3] .

---

(١) ابن الأثير ، « الكامل » ج ٣ ، ص ٢١٢

(٢) ابن عذارى ، ص ١٠

(٣) أبو المحاسن بن تغري بردي ، « النجوم الزاهرة » ج ١ ، طبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة ١٩٢٩ ، ص ١٢٤

وكان معاوية بن أبي سفيان يرى أن اهتمام عمرو بشؤون المغرب يخفي وراءه طمعا في غنائمها ، وكان يتطلع هو إلى هذه المغانم ، فلما توفي عمرو ابن العاص سنة ٤٣هـ (٦٦٤م) فصل معاوية ولاية إفريقية عن مصر ، واعتبرها ولاية مستقلة تتبع دمشق مباشرة ، وبول هو عليها من شاء من رجاله . فأقام على مصر عقبة بن عامر الجهني ، بعد أن عزل عبد الله بن عمرو عنها ، ثم ولى معاوية بن حديج الكندي رئيس حزب العثمانية في مصر على قيادة الجيوش في إفريقية ، مكافأة له على خدماته التي أداها لبني أمية ، وتجاهل بذلك عقبة بن نافع الفهري الذي كان ما يزال يقوم بالغزو في نواحي برقة والواحات .

وكانت إفريقية في تلك الأثناء تجتاز مرحلة من الفوضى والاضطرابات ، فقد غضب الامبراطور البيزنطي كنستانز الثاني عندما بلغه أنباء الصلح بين العرب والأفارقة ، والجزية التي يدفعها هؤلاء للعرب ، فأرسل إليهم بطريقا من قبله يقال له أوليمة[1] ( ولعله أوليمبوس ) ليطالب أهل إفريقية بأن يقدموا إليه ثلاثة مائة قنطار من الذهب على نحو ما فعلوه مع عبد الله ابن سعد . فنزل أولبة قرطاجنة ، وخاطبهم في ذلك ، فأبوا عليه ، وقالوا : « إن الذي كان بأيدينا من الأموال فدينا به أنفسنا من العرب ، وأما الملك فهو سيدنا ، فيأخذ عادته منا »[2] . ونتيجة لذلك أمر البطريق الجديد أولبة بإعداد حملة من إفريقية . وتمكن بعد فترة طويلة من طرده من البلاد .

---

(١) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٢

(٢) نفس المرجع .

فسار إلى معاوية بن أبي سفيان في الشام ، فوصف له سوء حال البلاد ، وسأله أن يمده جيشا إلى المغرب[1] . ويذكر ابن الأثير أن معاوية استجاب لرجائه ، فسير معه معاوية بن حديج السكوني ، فلما وصلوا إلى الاسكندرية ، توفي حباحبة ، ومضى ابن حديج في طريقه إلى إفريقية ، فوصلها وهي تار تضطرم[2] ، فان سكان إفريقية لم يسكتوا على تصرف أوليمة وجوره ، ثاروا عليه ، وقدموا على أنفسهم رجلا يعرف باسم الاطريون[3] . ويعتقد الدكتور حسين مؤنس أن نزاعا شديدا بين البزنطيين وأهل إفريقية كان بين البلاد ، ويقسم أهلها شيعا وأحزابا ، وأن الامبراطور قسطنطين الثاني أراد أن يرغم هؤلاء السكان على أن يقدموا له قدرا من المال يماثل ما قدموه للعرب ، فقد كانت ظروف الدولة المالية في غاية السوء في هـــذه الآونة ، وأنها أرهقت صقلية وسردانية وكلابريا بالضرائب ، ويخرج الدكتور مؤنس من ذلك بأن أهل إفريقية وجدوا في العرب منقذا لهم مما كانوا يلاقونه من غير الروم[4] . وقد أدى النزاع القائم في إفريقية بين الأهالي والحكومة البزنطية إلى قيام الأثارة بطرد عامل الامبراطور فعاد إلى بلاده[5] .

خرج معاوية بن حديج في جيش كثيف عدته عشرة آلاف مقاتل ،

---

(١) ابن الأثير ، ج ٣ ص ٤٥ ــ ابن عذارى ، ج ١ ص ١٧

(٢) ابن الأثير ، ج ٣ ص ٤٥ ــ ابن عذارى ، ص ١٢

(٣) ابن عذارى ، ص ١٢

(٤) حسين مؤنس ، فتح العرب للمغرب ، ص ١١٥

(٥) نفس المرجع ، ص ١١٦

من بينهم الأمير عبد الملك بن مروان ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن الزبير ، ويحيى بن الحكم بن العاص ، والأكدر بن حمام اللخمي ، وكريب بن أبرهة ابن الصباح ، وخالد بن ثابت الفقيه ، وأشراف من جند مصر(١) . ويختلف مؤرخو العرب في تحديد تاريخ سير هذه الحملة إلى إفريقية ، فابن عبد الحكم يذكر نصا نقله عن عبد الملك بن مسلمة ، عن ابن لهيعة ، عن يزيد بن حبيب ، أن معاوية بن حديج غزا إفريقية ثلاث مرات ، الأولى سنة ٤٣هـ ، وهي غزوة لا يعرفها كثير من الناس ، والثانية سنة ٤٤هـ ، والثالثة سنة ٥٥هـ(٢). وقد جاراه في ذلك المالكي ، وإن كان قد ذكر غزوتين لمعاوية بن حديج بدلا من ثلاثة(٣) ، وأبو العرب تميم في طبقات علماء إفريقية(٤) ، وابن أبي دينار القيرواني في المؤنس(٥) ، وابن عذاري المراكشي(٦) . ولكن ابن عبد الحكم يجمع كل أعمال معاوية بن حديج في إفريقية في غزوة سنة ٤٣هـ(٧)، ويجاريه ابن خلدون في ذلك، مع إضافة أن ذلك حدث في خلافة معاوية(٨) . أما عبيد الله بن صالح فيذكر نقلا عن أبي عمر بن عبد البر في الاستيعاب ، أن عقبة بن نافع هو الذي غزا لواتة في سنة ٤٤هـ ، وفتح غدامس

---

(١) المالكي، ص١٨ ـ ابن عذاري ، ج ١ ص ١٩

(٢) ابن عبد الحكم ، ص ٦٠

(٣) المالكي ، ص ١٩

(٤) أبو العرب تميم ، طبقات علماء افريقية، طبعة ابن شنب ، الجزائر، ١٩١٥ـ١٩٢٠

(٥) ابن أبي دينار القيرواني، المؤنس، ص٣٤

(٦) ابن عذاري ، ج١ ص ١٤ ـ ١٦

(٧) ابن عبد الحكم، ص ٩٠

(٨) ابن خلدون ، كتاب العبر

فى سنة ٤٢هـ ، وافتتح كورا من كور السودان فى سنة ٤٣هـ ، واختط القيروان وأقام بها ثلاث سنين إلى أن عزله معاوية سنة ٤٥هـ[1] ، ولا يشير إلى شىء من غزوات ابن حديج . وهناك من المؤرخين من يجعل غزوات معاوية بن حديج فى سنة ٤٤هـ ( المالكى ، وابن عذارى ) ؛ أما البكرى فيجعلها فى سنة ٤٩هـ[2] ؛

وإذا بحثنا فى أى هذه التواريخ أجدر بالثقة ، وجدنا أنه لا يعقل أن يقوم ابن حديج بغزو إفريقية فى سنة ٤٣هـ ، وفتنة الأنصار التى أطاحت بخلافة عثمان على أشدها ، ولا يعقل أيضا أن يقوم ابن حديج بكل ما قام به من أعمال غزوية فى سنة واحدة ، ثم يعود إلى مصر فى سنة ٤٤هـ ، لكى يزعم حزب العثمانية فى مصر ، ويطالب بدم عثمان . ونستبعد أيضا قيام ابن حديج بغزو المغرب فى سنتى ٤٠ ، ٤١هـ ، فقد كان عمرو بن العاص مايزال عاملا على مصر ، ولم يرد قط فى المصادر العربية مايشير إلى أنه أرسل معاوية ابن حديج إلى المغرب .

وأما رواية عبيد الله بن صالح ، فقد فندها الدكتور مؤنس ؛ وعزا هذه الرواية إلى حدوث خلط فى رواية عبيد الله بن صالح ، فى سرد أعمال عقبة بن نافع من دخوله إلى إفريقية مع عمرو بن العاص إلى عزله عن الولاية الأولى ، وأنه لا يمكن بأى حال من الأحوال الأخذ برواية عبيد الله ابن صالح ، القائلة بأن عقبة اختط القيروان فى سنة ٤٣هـ ، لأن الثابت أنه

---

(١) عبيد الله بن صالح ، ص ٢١٨

(٢) البكرى ، المغرب ، ص ٣٤ ، ٣٥

بناها فى ولايته الاولى لإفريقية سنة ٤٠هـ[1]. والواقع أن عبيد الله بن صالح لم يخلط بين أعمال عقبة فى ولايته على إفريقية وأعماله وهو قائد لعمرو ابن العاص والى مصر (فى المرة الثانية) ، فان ما ذكره عبيد الله لا يتجاوز عن كونه نصا نقله عن أبى عمر بن عبد البر ، وذكر فيه أعمال عقبة فيما بين عامى ٤١ ، ٤٣ . أما عن بنائه لمدينة القيروان سنة ٤٢هـ فلم يرد إطلاقا فى النص المذكور ، وكل ما فى الأمر أنه أشار إلى بناء القيروان على يدى عقبة وبقائه فيها ثلاث سنوات حتى عزل سنة ٤٣هـ ، ومعنى ذلك أنه اختط القيروان سنة ٤٠هـ وليس فى ٤٢هـ كما يزعم الدكتور مؤنس .

ومما يؤكد هذا الرأى ما ذكره ابن الأثير فى حوادث سنة ٤١هـ ، إذ يقول : «وفى هذه السنة استعمل عمرو بن العاص عقبة بن نافع بن عبد قيس، وهو ابن خالة عمرو على إفريقية فانتهى إلى زويلة ومزاتة ، فأطاعوا ثم كفروا ، فغزاهم من سنته ، فقتل وسبى ، ثم افتتح فى سنة اثنتين وأربعين غدامس ، فقتل وسبى ، وفتح فى سنة ثلاث وأربعين كورا من كور السودان ، وافتتح ودان وهى من برقة[2] » . وكذلك أشار المقريزى فى الخطط أن « عمرو عقد لشريك بن سمى على غزو زويلة من البربر ، فغزاهم سنة أربعين ، وصالحهم ، ثم انتقضوا ، فبعث إليهم عقبة بن نافع فى سنة إحدى وأربعين ، فغزاهم حتى هزمهم ، وعقد لعقبة أيضا على غزو هوارة ، وعقد لشريك بن سمى على غزوة لبـــدة ، فغزواها فى سنة ثلاثة وأربعين

---

(١) تعليق الدكتور مؤنس على نص عبد الله ، ص ٢٢٤

(٢) ابن الأثير ، جـ ٣ ، ص ٤٦٢

فقفلا[1] » . ونقل المقريزى نقل ذلك عن الكندى الذى أورد نفس النص[2] .

ومن المعروف أن عقبة كان خبيرا عسكريا بشئون برقة وطرابلس فى ولاية عمرو الأولى على مصر ، فعمرو هو الذى أرسله لغزو فزان وزويلة سنة ٢٢ هـ ، وهو الذى تركه على برقة حتى غزوة عبد الله بن سعد ، وقد قضى عقبة هذه السنين الستة (٢٢ — ٢٨هـ) فى مغازاة الواحات الداخلية ، ثم عاد مع عبد الله بن سعد إلى مصر فى سنة ٢٨ هـ فلما تولى عمرو بن العاص ولاية مصر للمرة الثانية فى سنة ٣٨هـ ( شهر ربيع الأول) استعان بعقبة فى بعوثه وسراياه فى برقة وطرابلس على النحو الذى ذكره ابن الأثير . ثم عاد عقبـــة إلى مصر وعمرو على فراش المـوت فى أول شوال سنة ٤٣ (٣) .

أما غزوة معاوية بن حديج فى سنة ٤٥ هـ فأمر مستبعد لأن والى مصر فى هـذه السنة هو مسلمة بن مخلد الأنصارى الذى عزل عقبـة من ولاية إفريقية وقلدها لأبى المهاجر دينار . وفى تاريخ سنة ٤٥ هـ لغزوة معاوية ابن حديج لإفريقية ، وأعتقد أنه أصح التواريخ المذكورة ، فقد كان معاوية ابن حديج قائدا لجند مصر فى ولاية عقبة بن أبى سفيان لمصر سنة ٤٣ هـ وظل فى منصبه على قيادة جند مصر حتى عزله عنها مسلمة بن مخلد فى سنة ٤٧ هـ(٤).

---

(١) المقريزى ، الخطط ، الجزء الثانى ، طبعة بولاق ، ص ٩٩

(٢) الكندى ، كتاب القضاة والولاة ، ص ٣٢

(٣) المقريزى ، الخطط ، جزء ٢ ، ص ٦٩

(٤) حسين مؤنس ، فتح العرب للمغرب ، ص ٢١٨

وأعتقد أن تاريخ ٤٥ هـ يتفق مع حوادث الغزو التي استمرت ما يقرب من عامين .

خرج معاوية بن حديج من مصر في سنة خمس وأربعين على رأس جيش ضخم(١) لغزو إفريقية . وسار جيشه في نفس الاتجاه الذي سار فيه جيشا عمرو بن العاص وعبد الله بن سعد من قبل ، حتى وصل إلى جنوب قرطاجنة في موضع يعرف بقمونية(٢) أو قونية(٣) ، وتقع في نفس الموضع الذي تقوم عليه القيروان(٤) ، وهو نفس المكان الذي التقى فيـــه عبد الله بن سعد وجرجير يوس لأول مرة ، ولعلها الميناء البيزنطي المعروف باسم Count Veda أو مدينة قودة التي ورد ذكرها في صفة المغرب والسودان ومصر للادريسي(٥) .

وكان الامبراطور البيزنطي قد بعث إلى إفريقية بطريقا يقال له جفور ( لعله نقفور ) في ثلاثين ألف مقاتل(٦) ، وذلك بعد أن علم بطرد أهالي

---

(١) يذكر الدكتور حسن أن جيش معاوية بن حديج كان يتألف من عشرة آلاف مقاتل استنادا الى ما ذكره ياقوت . والواقع أن ياقوت لم يكن يقصد بهذا العدد جيش ابن حديج ولكنه كان يقصد عدد جند الجيش الذي سيره معاوية بن أبي سفيان الى عقبـــة بن نافع الفهري عندما ولاه افريقية سنة ٤٨ هـ ( ياقوت ، معجم البلدان ، مجلد ٤ ، ص ٤٢٠ ) ويؤيد ذلك ماذكره ابن الأثير اذ يقول : « فلما استعمله معاوية ( أي عقبة بن نافع ) سير عليه عشرة آلاف رجل لمنازلة افريقية » ( ابن الأثير ، جـ ٣ ص ٢٣٤ ) .

(٢) المالكي ، ص ١٨ ابن الأثير ، جـ ٣ ص ٤٠ ــ السلاوي ، جـ ١ ص ٢٢

(٣) ابن عبد الحكم ، ص ٨٠

(٤) نفس المرجع ، ص ٨٠ ــ المالكي ، ص ١٨

(٥) الادريسي ، صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس ، ص ١٠٣

(٦) ابن الأثير ، جـ ٣ ص ٤٠ ــ ابن عذاري ، جـ ١ ص ١٦

إفريقية فسامله أولئك . ونزل هؤلاء المحاربون البيزنطيون على الساحل التونسي ، وتقدموا في الداخل لمواجهة الغزو العربي . وفي قسنطينة التقى الجيشان : جيش ابن حديج ، وجيش تجفور ، فانهزم البيزنطيون عند أول اشتباك ، وانسحبوا إلى مدينة سوسة ، وتحصنوا داخل أسوارها ، فتقدمت جيوش ابن حديج شمالا ، وعسكرت في موضع مرتفع من جبل يعرف باسم القرن[1] . ومن هناك سير جيشين : أحدهما بقيادة عبد الله بن الزبير ووجهه سوسة ، والثاني بقيادة عبد الملك بن مروان ووجهه حصن جلولاء[2] . ويبدو أن معاوية بن حديج أقام في معسكره بالقرن فترة طويلة ، فقد ذكر المالكي أنه بنى بناحية القرن مساكن سماها قيروان ، واحتفر هناك الآبار المعروفة باسم آبار حديج[3] .

ونجح عبد الله بن الزبير في مهمته نجاحا تجاوز كل تقدير في الحسبان ، وتجمع المصادر العربية على أنه افتتح سوسة ، ويذكر ابن عذاري أن عبد الله ابن الزبير نزل على شرف عال ينظر منه إلى البحر ، وبعد عن سوسة بنحو ١٢ ميلا ، فلما بلغ ذلك تجفورا أقلع في البحر منهزما من غير قتال ، فأقبل ابن الزبير حتى نزل على باب سوسة ، ووقف على البحر وصفى بالمسلمين صلاة العصر ، والروم يتعجبون من جرأته ، فأخرجوا إليه خيلا ، وابن الزبير مقبل على صلاته ، لا يهوله خبرها حتى قضى الصلاة ، ثم ركب وحمل على الروم بمن معه ، فانكشفوا منهزمين » ، ورجع ابن الزبير إلى معاوية بن حديج في القرن بعد أن افتتح سوسة[4] .

---

(١) ابن عبد الحكم ص ٥٨ — المالكي ، ص ٩٨ — البلاذري ، جـ ١ ص ٢٦٦

(٢) ابن عبد الحكم ص ٥٨ — البكري ، ص ٣٢ — ابن عذاري جـ ١ ص ١٦

(٣) المالكي ، ص ١٩

(٤) ابن عذاري جـ ١ ص ١٦

أما عبد الملك بن مروان ، فقد سار إلى حصن جلولاء في جيش عدته ألفي فارس ، وقيل ألف ، فحاصره أياما ، فلم يصنع شيئا ، فانصرف راجعا ، فلم يسر إلا يسيرا حتى رأى في ساقة الناس غبارا شديداً ، فظن أن العدو قد طلبهم ، فكر جماعة من الناس لذلك ، وبقي من بقي على مصافهم ، وتسرع مروان للناس ، فاذا مدينة جلولاء قد وقع حائطها ، فدخلها المسلمون ، وغنموا ما فيها ، وانصرف عبد الملك إلى معاوية بن حديج » (١) . ومن المؤرخين من ينسب فتح حصن جلولاء إلى معاوية بن حديج نفسه (٢) .

مضى معاوية بن حديج بعد ذلك نحو الشمال ، فافتتح ثغر بَرْزَت (٣) . ويذكر البلاذري أنه غزا صقلية أيام معاوية بن أبي سفيان ، وكان أول من غزاها (٤) . وفي موضع آخر يذكر البلاذري نقلا عن الواقدي أن عبد الله بن قيس بن مخلد الدرقي سبي صقلية ، و فأصاب أصنام ذهب وفضة مكللة بالجواهر ، فبعث بها إلى معاوية ، فوجه بها معاوية إلى البصرة لتحمل إلى الهند فتباع هناك ليتمن بها » (٥) . ويروي ابن عذاري خبر هذه الغزوة نقلا عن البلاذري مع إضافة سنة ٤٦ هـ كتاريخ لها (٦) . وكذلك ينقل عن

---

(١) ابن عبد الحكم ، ص ٥٨ — البكري ، ص ٣٢ — ابن عذاري ، ص ١٢ — ياقوت ، مجلد ٢ ، ص ٦٠٦

(٢) ابن عبد الحكم ، ص ٥٨ — المالكي ، ص ١٨ — ابن عذاري ، ص ١٢

(٣) البكري ، ص ٥٨ — ياقوت ، مجلد ١ ص ٥٠٠ — البلاذري ، ص ٢٨

(٤) البلاذري ، قسم ١ ، ص ٢٢٨

(٥) نفس المرجع

(٦) ابن عذاري ، ج ١ ، ص ١٨

عرب فى مختصره، الطبرى، أن معاوية بن حديج « أغزى جيشا فى البحر إلى صقلية فى مائتى مركب، فسبوا وغنموا، وأقاموا شهرا، ثم انصرفوا إلى إفريقية بغنائم كثيرة، ورقيق وأصنام منظومة بالجواهر، فاقتسموا فيهم[1]». إلا أن الدكتور حسين مؤنس يعتقد أن البلاذرى يقصد بهذه الغزوة الحملة التى بعث فيها معاوية بن أبى سفيان معاوية بن حديج حوالى سنة ٢٧ هـ أو ٢٨ هـ، فى خلافة عثمان، لغزو رودس ثم صقلية، ويرجح أن ابن عذارى أخطأ فى النقل عن البلاذرى فذكر سنة ٤٦ هـ وصحتها ٢٦ هـ [2]. ويستند الدكتور مؤنس فى هذا الرأى على ما ذكره أمارى من قيام معاوية بن حديج بغزو رودس وصقلية فى سنة ٦٥٢ م (٣٢ هـ) فى مائتى سفينة [3]، لما دعا كنسطانز الثانى إلى نقل عاصمته إلى مدينة سرقوصة بصقلية مبيتا لأملاكه فى إفريقية وصقلية وإيطاليا من الغزو العربى [4]. ولا ندرى من أين استقى أمارى هذا الخبر، فالبلاذرى الذى يزعم أمارى أنه استقى منه لم يشر إلى تاريخ غزوة معاوية بن حديج لصقلية، كما أن ابن الأثير لم يشر

---

(١) نفس المرجع ص ١٦، ١٧

(٢) حسين مؤنس، فتح العرب للمغرب، ص ١٢٦

(٣) Amari, Storia dei Musulmani di sicilia, Catania, 1933, v. I, P. 154 — حسين مؤنس، فتح العرب للمغرب، ص ١٢٥

وانظر أيضا : Marçais, La Barbarie musulmane et l' Orient au moyen Age, Paris 1946, p. 64

وانظر كذلك : أرشيبالد لويس، القوى البحرية والتجارية فى حوض البحر المتوسط، ترجمة الأستاذ أحمد محمد عيسى، القاهرة، ١٩٦٠، ص ٩٩.

(٤) أرشيبالد لويس، ص ٩٤

أيضا إلى غزو صقلية في هذه السنة، وإنما ذكر أن أهل قبرص أعانوا الروم سنة ٣٢ هـ على الغزاة في البحر بمراكب أعطوهم إياها فغزاهم معاوية سنة ثلاث وثلاثين، ففتحها عنوة فقتل وسبى، ثم أقرهم على صلحهم وبعث إليهم اثني عشر ألفا، فبنوا المساجد، وبنى مدينة. وقيل كانت غزوته الثانية سنة خمس وثلاثين»[1]. كذلك يشير ابن الأثير إلى أن قسطنطين بن هرقل أتى إلى صقلية سنة ٣٣ هـ فقتله أهلها هناك[2]. وأعتقد أن أماري خلط بين غزو قبرص سنة ٣٣ هـ، وغزو صقلية التي تمت في سنة ٤٦ هـ. كما حدده ابن عذاري. وليس من المعقول أن يتولى المسلمون غزو صقلية سنة ٣٣ هـ بحرا في هذا التاريخ المبكر، لأن صقلية مطرفة في البحر المتوسط، ويحتاج غزوها إلى سيطرة كاملة على قسم من أراضي المغرب، يخرج منه الغزاة. وقد عرفنا أن المسلمين تركوا المغرب منذ حملة عبد الله بن سعد سنة ٢٨ هـ حتى معاودتهم غزو إفريقية من جديد في ولاية عمرو الثانية. كذلك يحتاج غزو صقلية إلى معرفة تامة بالبحر المتوسط وبثقافة بحرية واسعة، والعرب في ذلك الوقت كانوا حديثي عهد بالبحر. وإذا كان معاوية بن أبي سفيان قد غزا قبرص سنة ٢٨ هـ، فذلك لأن قبرص قريبة من ساحل الشام، ومع ذلك فقد استلزم الأمر فتحها مرة ثانية كما رأينا في سنة ٣٢ هـ أو ٣٣ هـ، ولم يتمكن المسلمون من فتح جزيرة أرواد وهي جزيرة قريبة من ساحل الشام إلا في سنة ٥٤ هـ[3].

---

(١) ابن الأثير، ج ٣ ص ٦٢

(٢) نفس المرجع، ص ٩٨

(٣) البلاذري، قسم ١، ص ٢٦٨

كذلك لم يتم فتح رودس إلا في سنة ٥٣ هـ (١) .

ونضيف إلى ما سبق ذكره أن أماري اعتمد مرة ثانية على التاريخ الذي حدده ابن عذاري لغزوة معاوية بن حديج لصقلية وهو سنة ٤٩ هـ ، فقد ذكر أن العرب أغاروا على صقلية في سنة ٦٦٩ م ( ٤٩ هـ ) (٢) .

ونخرج من ذلك كله بترجيح التاريخ الذي حدده ابن عذاري لغزوة صقلية في سنة ٤٩ هـ على يدي ابن حديج ، وخروجه منها بغنائم كثيرة ، ويؤيدنا في هذا القول أن عبيد الله بن صالح يؤكد أن معاوية بن أبي سفيان عزل ابن حديج بعد أن غزا صقلية (٣) .

واختتم ابن حديج غزواته في إفريقية بإرساله رويفع بن ثابت الأنصاري لفتح جزيرة جربة (٤) . وقد تمت هـذه الغزوة في سنة ٤٧ هـ ، وفقا لأبي المحاسن (٥) .

ولم يتح لابن حديج أن يستكمل فتح إفريقية ، إذ عزله معاوية بن أبي سفيان سنة ٤٨ هـ ( ٦٦٩ م ) ، وقيـل سنة ٥٠ هـ ( ٦٧٠ م ) ، وولى على إفريقية عقبة بن نافع الفهري ، وبتولية عقبة على إفريقية تبدأ المرحلة الثانية من فتح المغرب ، وهي مرحلة الفتح الثابت المنظم .

---

(١) نفس المرجع ، ص ٢٢٨

(٢) أرشيد الزيبي ، ص ٩٦ ـ Margais, la Berberie, p. 84

(٣) عبيد الله بن صالح ، ص ٢١٨

(٤) البكري ، ص ١٦ ـ المالكي ، ص ٥٣ ـ ياقوت ، مجلد ٢ ، ص ١١٨

(٥) أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ج ١ ص ١٣٢

# الفصل الثانى

## مرحلة الفتح المنظم

(١) الفترة الأولى ( ٥٠ ـ ٦٤ هـ )

ا ـ عقبة بن نافع قبل توليته إمارة إفريقية

ب ـ تأسيس القيروان وأثره فى تثبيت قواعد الفتح

ج ـ عزل عقبة بن نافع ، وولاية أبو المهاجر دينار ( ٥٥هـ ـ ٦٢هـ )

د ـ ولاية عقبة بن نافع الثانية ( ٦٢ ـ ٦٤هـ )

(٢) الفترة الثانية ( ٦٤ ـ ٨٩ هـ )

ا ـ انسحاب العرب من القيروان فى سنة ٦٤هـ

ب ـ حملة زهير بن قيس واسترجاع العرب للقيروان

ج ـ حملة حسان بن النعمان الأولى ، وتخريب قرطاجنة

د ـ حملة حسان بن النعمان الثانية

هـ ـ موسى بن نصير واستكمال فتح المغرب

# الفصل الثاني

## مرحلة الفتح المنظم

### (١)

### الفترة الأولى ( ٤٠ ـ ٦٤ هـ )

**١ ـ عقبة بن نافع قبل توليته امارة المغرب :**

يعتبر عقبة بن نافع الفهري من أكابر التابعين وأفاضلهم ، فقد قيل أنه ولد قبل وفاة الرسول بعام واحد (١) ، واشترك في فتح مصر ، ولكن لا يجوز ذلك منطقيا لأن فتح مصر بدأ سنة ١٨ هـ ، فيكون عمر عقبة في هذه الحالة تسع سنوات . وأغلب الظن أنه ولد على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم (٢) ، واشترك في حملة عمرو على مصر(٣) ، وكان عمرو يقدر بلاءه ، ويرفع منزلته ، ويثق في كفايته الحربية ، ولذلك عهد إليه بفتح الواحات الداخلية من إقليم برقة ، فنجح في افتتاح فزان وزويلة ، وأصبح ما بين برقة وزويلة ملكا للمسلمين . وقبل أن يعود عمرو بن العاص إلى مصر بعد أن افتتح سبرت ، ترك عقبة أميرا على برقة وطرابلس ، فظل عقبة مقيما ببرقة حتى سنة ٢٨ هـ (٤) ، عندما قابل عبد الله بن سعد عند قدومه إلى برقة في طريقه لغزو إفريقية (٥) . ولكن عقبة لم يشترك مع عبد الله بن سعد في

---

(١) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٩

(٢) ابن الأثير ، أسد الغابة في معرفة الصحابة ، ج ٣ ص ٤٢٠ ـ ياقوت ، مجلد ٤ ، ص ٤٢٠ مادة القيروان.

(٣) كان عقبة ابن خالة عمرو بن العاص ، ولذلك أشركه معه في حملته على مصر .

(٤) ذكر ابن الأثير أنه كان مقيما ببرقة منذ أن ولاه عمرو بن العاص لها (ابن الأثير ، المرجع السابق ص ٤٢٠ ـ ياقوت ، معجم البلدان ، مادة القيروان ، مجلد ٤ ، ص ٤٢٠ ) .

(٥) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج ٣ ص ٤٢

حملته على إفريقية ، وآثر البقاء فى برقة ليراقب أهالى هذه البلاد ، ويؤمن مؤخرة جيش المسلمين من أى هجوم يقوم به الروم أو الافارقة. ولاشك أن عقبة اكتسب خلال هذه السنين الست التى قضاها منذ حملته الأولى مع عمرو حتى قدوم عبد الله بن سعد ، خبرات إفريقية واسعة، نتجت عن تجاربه الكثيرة فى محاربة البربر ، واحتكاكه بسكان البلاد . وكان طبيعيا أن يحيط بنواحى البلاد، ويلم بطبيعة أهلها، كما كان طبيعيا أن تنمو مواهبه العسكرية، الكثيرة ما أحرزه من انتصارات ، وتزداد بذلك هيبته عند الأهالى . وكان لذلك أثره الكبير فى بقـــاء برقة على ولائها للعرب ، فى الفترات الطويلة التى كان ينقطع فيها غزو العرب لبلاد المغرب ( من ٢٣ هـ إلى ٢٨ هـ ، ومن ٢٩ هـ إلى ٥٠ هـ ) . وقد كسب الإسلام والعروبة بجهود عقبة مكسبا كبيرا، فقد كان عقبة قوى الإيمان بدينه ، شديد الحماس لنشره ، لا يجد فى حياته سعادة تعادل سعادة الجهاد فى سبيل الله . وفى سبيل نصرة دينه . وقد كان لذلك أعمق الأثر فى فتح برقة ، إذ لم يكن فتحا حربيا فحسب ، بل كان فتحا دينيا ، انتقل سكان هـــذا الإقليم على أثره إلى الاسلام والعروبة ، واستطاع عقبة بفضل زهده عن الدنيا ، وسعيه على الاستشهاد فى سبيل الله ، أن يكون لنفسه أسطورة دينية عاشت منذ الفتح العربى لهـــذه البلاد ، حتى العصر الحاضر .

وعندما عاد عقبة إلى مصر فى أعقاب حملة عبد الله بن سعد ، نجده يعتزل الحياة السياسية ، ولا يشترك فى معمعة الفتنة التى عصفت برءوسها العاتية بالدولة العربية الإسلامية فى خلافة عثمان بن عفان ، وانتهت أخيرا بمقتله ، ولكنه ما لبث أن يستأنف الجهاد فى صحراء برقة وطرابلس عندما

يتولى عمرو بن العاص مصر للمرة الثانية ، و فاتهى إلى لواتة وهزاتة فى سنة ٤٤هـ ، وافتتح غدامس فى سنة ٤٢ هـ ، وافتتح مواضع من بلاد السودان ودان من حيز برقة فى سنة ٤٣ هـ [1] ». ثم عاد عقبة بن نافع بعد ذلك إلى مصر ، فشهد وفاة عمرو بن العاص ، ويبدو أنه عاد إلى برقة بعد وفاة عمرو ، ولكنه لم يشترك اشتراكا فعليا فى حملة ابن حديج ، وأغلب الظن أنه أقام ببرقة التى اتخذها مركزا له ، بدليل أن ابن الاثير يذكر أن عقبة كان مقيما ببرقة وزويلة منذ فتحها أيام عمرو بن العاص [2] . ويذكر أبو الفداء أن برقة وزويلة كانتا مقر الولاة [3] . ويذهب ابن عبد الحكم والبكرى إلى أنه خرج إلى المغرب بعد معاوية بن حديج سنة ستة وأربعين ، « ومعه بسر بن أبى أرطأة ، وشريك بن سمى المرادى . فأقبل حتى نزل بمقمداش من سرت (خريطة رقم ٥) ، وكان توجه بسر إليها كما حدثنا يحيى بن عبد الله بن بكير عن الليث بن سعد سنة ست وعشرين من سرت ، فأدركه الشتاء ، وكان مضعفا ، وبلغه أن أهل ودان قد نقضوا عهدهم ، ومنعوا ما كان بسر ابن أبى أرطأة فرض عليهم ، وكان عمرو بن العاص قد بعث إليها بسرا قبل ذلك وهو محاصر لأهل إطرابلس ، ففتحها . فخلف عقبة بن نافع جيشه هنالك ، واستخلف عليهم عمرو بن على القرشى وزهير بن قيس البلوى ، ثم سار بنفسه وبمن خف معه أربع مائة فارس ، وأربعمائة بعير ، وقساتى مائة قربة حتى قدم ودان ، ففتحها ، وأخذ ملكهم فجدع أذنه ، فقال : فعلت

---

(١) ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ص ٢٠٢ — أسد الغابة ، ج ٣ ص ٤٢٠ — ابن عذارى ج ١ ص ١٠ — أبو المحاسن ، ج ١ ص ١٢٥ — الخطط ، مجلد ٢ ص ٦٦

(٢) ابن الأثير ، الكامل ، ج ٣ ص ٢٣١

(٣) أبو الفدا ، المختصر فى أخبار البشر ، طبعة بيروت ١٩٠٦ ، ج ٢ ص ١٠١

هذا بي وقد عاهدتني؟ فقال عقبة : فعلت هذا بك أدبا لك، إذا مسست أذلك ذكرته ، فلم تحارب العرب . واستخرج منهم ما كان يسر فرضه عليهم ثمانمائة وستين رأسا. ثم سألهم عقبة، هل من وراءكم أحد ، فقيل له : جرمة، وهي مدينة قزان العظمى، فسار اليها ثماني ليال من وداق، فلما دنا منها ، أرسل ، فدعاهم إلى الاسلام ، فأجابوا . فنزل منها على ستة أميال . وخرج ملكهم يريد عقبة ، وأرسل عقبة خيلا فحالت بين ملكهم وبين موكبه ، فأمشوه واحلا حتى أتى عقبة ، وقد لغب ، وكان ناعما ، فجعل يعرق الدم ، فقال له: لم فعلت هذا بي وقد أتيتك طائعا؟ فقال عقبة : أدبا لك إذا ذكرته لم تحارب العرب، وفرض عليه ثلثمائة عبد وستين عبدا . وهو اصل الورخان روايتها فيذكران أن عقبة مضى إلى قصور قزان ، فافتتحها قصرا قصرا ، ولكنه عجز عن فتح حصن خاوار [1] بعد حصار دام شهرا ، وانتهى إلى قصور كوار ، فافتتحها ، وأدب ملكها بأن قطع لها إصبعا ، وفرض عليه ٣٦٠ عبدا. ثم عاد بعد ذلك عن طريق خاوار ، فلم يتعرض للحصن، ومضى في طريقه، فظن أهل خاوار أنه لن يعود إليهم ، فأمنوا ، وفتحوا مدينتهم . أما عقبة فأقام بموضع صحراوي جدب ، فأصاب أصحابه العطش ، فدعا الله أن يتقدم ، فاستجاب الله لدعائه ، إذ تدفقت المياه من موضع كان فرسه ينقب برجليه فيه، فسمي الموضع لذلك بماء فرس ثم بلغت عقبة أهل خاوار من طريق آخر ، ودخل الحصن فاستباح ما فيه من أموال وذريات ، ثم عاد بعد ذلك إلى زويلة ، ومنها إلى معسكره بسرت ، وذلك بعد غزوة دامت خمسة أشهر. ولم يطل به المقام بسرت ، فخرج منهـــا مغازيا ، واتجه إلى قصور مزاتة ، فغزاها ، ثم اقتحم غدامس ، ووجه خيله بعد ذلك إلى قفصه فافتتحها، وافتتح

---

(١) يسميه صاحب الاستبصار قصر واجان .

قسطيلية . ووصل أخيرا إلى القيروان الذى كان معاوية بن حديج قد اختطه من قبل ، فلم يعجبه موضعه ، واختار لذلك موضع مدينة القيروان [1] .

ويعتقد الدكتور حسين مؤنس أن تاريخ هذه الغزوة دون خطأ ، فذكر المؤرخان سنة ٤٦ هـ بدلا من ٤٩ هـ . فالثابت أن القيروان أسست فى سنة ٥٠ هـ ولا يعقل أن تستغرق غزوته هذه السنين . ويرى الدكتور مؤنس أن ابن حديج عاد إلى مصر فى أوائل سنة ٤٩ هـ ، وأن عقبة شرع فى السير لغزوته الكبرى فى أوائل سنة ٤٩ هـ ، فقضى خمسة أشهر فى الجولة الصحراوية المذكورة ، ثم عاد إلى معسكره بسرت حيث قضى فترة كافية أراح فيها جنده وخيله ، وهناك ولاه معاوية بن أبي سفيان إمارة إفريقية . فسار من سرت متجها إلى إفريقية ، ويرجح الدكتور حسين مؤنس أن عقبة لم يقم بحملته فى الصحراء عقب عودة معاوية بن حديج من إفريقية ، وقبل تولية معاوية إياه ، وإرساله الإمداد إليه ، ولهذا عاد إلى مركزه الأول على مقربة من سرت (سرت) ، فلما وصله الأمر والمدد شرع فى السير إلى الغرب ، واحتل غدامس ، وربما كان هذا هو السبب فى إغفال أكثر المؤرخين ذكر هذه الغزوة الداخلية ، إذ أن معظمهم بدأ تاريخ غزوة عقبة من ساعة وصول العشرة آلاف جندى إليه فى أوائل سنة ٥٠ هـ [2] . ونحن نؤيد الدكتور مؤنس فى رأيه ، فان معظم المصادر العربية تذكر أن عقبه ولى إمارة إفريقية فى سنة ٥٠ هـ [3] ، ويعتمد ابن الأثير على مصادر مغربية فى ذكر هذا التاريخ

---

(١) ابن عبد الحكم ، ص ٦٠ ـ ٦١ ؛ البكرى ، ص ١٣ ، ١٤ ـ المالكى ، ص ٦٣ ـ الاستبصار ، ص ١٤٦

(٢) حسين مؤنس ، فتح العرب للمغرب ص ١٣٨

(٣) ابن الأثير ، الكامل ، ج ٣ ص ٢٣١ ـ أبو الفداء ، المختصر فى أخبار البشر ، ج ٢ ص ١٠١ ـ ابن عذارى ، ج ١ ص ١٩ ـ السلاوى ، ج ١ ص ٧٨

فيقول : « والذى ذكره أهل التاريخ من المغاربة أن ولاية عقبة بن نافع إفريقية كانت هذه المرة ، وبنى القيروان ، ثم بقى إلى سنة خمس وخمسين وليها مسلمة بن مخلد ، وهم أخبر ببلادهم ، وأنا أذكر ما أثبتوه فى كتبهم ، قالوا إن معاوية بن أبى سفيان عزل معاوية بن حديج عن إفريقية حسب واستعمل ، واستعمل عليها عقبة بن نافع الفهرى ، وكان مقيما ببرقة وزويلة منذ فتحها أيام عمرو بن العاص ، وله فى تلك البلاد جهاد وفتوح ، فلما استعمله معاوية سير إليه عشرة آلاف فارس ، فدخل إفريقية ، وانضاف إليه من أسلم من البربر ، فكثر جمعه ، ووضع السيف فى أهل البلاد ، لأنهم كانوا إذا دخل عليهم أمير أطاعوا ، وأظهر بعضهم الاسلام ، فاذا عاد الأمير عنهم ، نكثوا ، وارتد من أسلم . » [1] .

ويروى ابن عذارى نصا مماثلا نقله عن ابراهيم بن القاسم فيقول : « ووصل عقبة بن نافع الفهرى إلى إفريقية فى عشرة آلاف من المسلمين ، فافتتحها ، ودخلها ووضع السيف فى أهلها ، فأفنى من بها من النصارى » ، ثم قال : « إن إفريقية إذا دخلها إمام أجابوه إلى الإسلام ، فاذا خرج منها رجع من كان أجاب منهم لدين الله إلى الكفر ، فأرى لكم يامعشر المسلمين أن تتخذوا بها مدينة تكون عزا للاسلام إلى آخر الدهر » [2].

ويبدو أن استيلاء عقبة على المغرب تم مباشرة بعد غزوته الصحراوية ،

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ، ج ٣ ، ص ٢٢٤ ـ ياقوت ، معجم البلدان ، مجلد ١ ، ص ٢٠٠ .

(٢) ابن عذارى ، ص ١٩

فقد ذكر المؤرخون أنه غزا بأهل مصر الروم في البحر سنة ٤٩هـ(١) ، وليس لدينا أية تفصيلات تاريخية أخرى عن ذلك ، وأغلب الظن أن معاوية بن حديج عاد إلى مصر بعد أن ترك بسوت فرقة من جيش مصر لتدعم النفوذ العربي في أرض طرابلس وإفريقية ، وربما استخدمهم عقبة بن نافع معه في هذه الشاتية البحرية ، وقد يكون اشترك في هذه الشاتية جماعة من التابعين أمثال أبو عقيل زهرة بن معبد التيمي ، وأبو عبد الرحمن الحبلي ، وإسماعيل ابن عبيد الله ، وأبو ليلى دجين بن عامر الهجري الذي شهد حروب عقبة كلها في إفريقية والمغرب ، فان المالكي يذكر أن أبا عقيل زهرة « دخل إفريقية وأقام بها ، وغزا برها وبحرها مع إسماعيل بن عبيد الله أمير إفريقية ، وكان معه في غزو إفريقية في البحر أبو عبد الرحمن الحبلي التابعي (٢).

ب ـ تأسيس القيروان وأثره في تثبيت قواعد الفتح :

سار عقبة على رأس جيش كبير يتألف من :

١ ـ فرقته التي غزا بها فزان وكوار ، وتتألف من ٤٠٠ فارس .

٢ ـ الجيش المرابط بمدينة سرت ببرقة .

٣ ـ المدد الذي أرسله معاوية إليه ، وقوامه عشرة آلاف من الفرسان.

٤ ـ جماعة البربر الذين اعتنقوا الاسلام منذ أن فتح عمرو برقة سنة ٢٢هـ ، وحسن اسلامهم .

وقد أشرنا إلى رواية ابن عبد الحكم والبكري التي توضح لنا خط سير جيشه إلى إفريقية ، يقول ابن عبد الحكم : « فسار متوجها إلى المغرب ،

---

(١) ابن الأثير ج ٣ ص ٢٢٩ ـ ابن عذارى ص ٢٩ ـ ابن تغري بردى ، ج ١ ص ١٣٨

(٢) المالكي ، ص ٩٠

وجانب الطريق الاعظم ، واخذ إلى أرض مزاتة ، فافتتح كل قصر بها ، ثم مضى إلى صقر (١) ، فافتتح قلاعها وقصورها ، ثم بعث خيلا إلى غدامس ، فلما انصرفت إليه خيله سار إلى قفصة فافتتحها ، وافتتح قسطيلية » (٢) .

ونخرج من هذا النص بالحقيقة التالية : أن عقبة تجنب السير في الجادة الرومانية ، وهي الطريق الساحلية التي تربط سرت بقابس ، إما لكثرة الحصون والحارس في هذه المنطقة الساحلية ، وقد عددتها من قبل ، وإما لأنه أراد أن يباغت أهل إفريقية باقتحامه بلادهم قادما من داخل الصحراء ، قبل أن يكونوا قد تهيأوا بعد لدفعه ومقاومته ، إذ أن أخبار حملته عندما يسلك الطريق الصحراوية لايمكن أن تصل إلى أهل إفريقية بمثل سرعة وصولها إليهم لو سلك الطريق الساحلية . وأعتقد أن السبب الثاني هو الذي دفع عقبة إلى التزام الطريق الداخلية ، فقد ذكر المؤرخون أنه وضع السيف في أهل إفريقية ، « فأفنى من بها من النصارى » (٣) .

لاحظ عقبة أن أهل إفريقية يدخلون في طاعة للعرب ، وربما دخل منهم البعض في الإسلام ، طالما بقي العرب في بلادهم ، فاذا انصرف العرب عن البلاد ، شق أهالي إفريقية عليهم عصا الطاعة ، وارتد من دخـــل منهم في الإسلام إلى النصرانية . وكانت برقة وزويلة قاعدة للتوسع العربي للمغرب حتى ذلك الحين ، ولكنهما كانتا منطرفتين للغاية عن إفريقية مما كان يساعد

---

(١) لعلها شيرو من أرض ودان ( انظر الإدريسي ، ص ٤١ )

(٢) ابن عبد الحكم ، ص ٦٤ ــ الاستبصار ، ص ١١٧ ، تضم بلاد قسطيلية مدن توزر وقفصة وقيوس وسلامة .

(٣) ابن عذاري ، ج ١ ص ١٩

أهل إفريقية على خروجهم على العرب ، فى كل مرة ينتهى العرب من الإغارة عليها ، فرأى عقبة أنه لفتح هذه البلاد يحتم على العرب إنشاء قاعدة عربية إسلامية فى إفريقية ، « يكون بهـا عسكر المسلمين وأهلهم وأموالهم ، فيأمنوا من ثورة تكون من أهل البلاد » (١) . ويذكر ابن عذارى أن عقبة خطب فى عسكره فقال : « إن إفريقية إذا دخلها إمام أجابوه إلى الإسلام فاذا خرج منها رجيع من كان أجاب منهم لدين الله إلى الكفر ، وأرى لكم يامعشر المسلمين أن تختطوا بها مدينة تكون عزا للاسلام إلى آخر الدهر . فاتفق الناس على ذلك ، وأن يكون أهلها مرابطين » (٢) .

ولم يكن عقبة أول من فكر فى بناء قاعدة للمسلمين فى إفريقية ، فقد ذكر ابن الأثير أن معاوية بن حديج كان « قد اختط للقيروان بموضع يدعى اليوم بالقرن ، فلما رآه عقبة بن نافع لم يعجبه » (٣) . وذكر البكرى فى رياض النفوس أنه « اختط مدينة عند القرن قبل تأسيس عقبة للقيروان ، وأقام بها مدة إقامته بافريقية ، وحفر آبارا عند باب توتس فى ناحية الجبل منه منحرفة للشرق ، بالقرب من مصلى الجنائز ، تسمى للان آبار حديج ، غلب عليها اسم أبيه ، وذلك قبل تأسيس القيروان » (٤) .

ويبدو أن عدول عقبة عن اتخاذ قيروان ابن حديج قاعدة للمسلمين يرجع إلى أنها قريبة من البحر ، أو لأنها فى موضع غير مسكون ولا

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ، ج ٣ ص ٢٣١

(٢) ابن عذارى ج ١ ص ١٩

(٣) ابن عبد الحكم ، ص ٦٤ — ابن الأثير : أسد الغابة ، ج ٣ ص ٤٢٤

(٤) البكرى ، ص ٦٠

معمور [1] ، ولعل ابن حديج اختار هذا القيروان ليكون قريبا من البحر حتى يتيسر له وللمسلمين الجهاد والرباط ، وقد رأينا أنه غزا صقلية في سنة ٤٦ هـ ، أما عقبة فقد كان له رأى آخر ، فقد آثر أن تكون قاعدة المسلمين في إفريقية مدينة برية ، إذ كان يخشى أن يطرقها الروم بالأساطيل فجأة فتعرض للغزو بسهولة ، بينما يستطيع المسلمون التأهب لمدافعة الغزاة لو كانت قاعدتهم داخلية . وفي ذلك يذكر ابن عذارى أن أصحاب عقبة اقترحوا عليه أن يتخذوا مدينتهم قريبة من البحر ليتم لهم الجهاد والرباط ، فرد عليهم قائلا : « إني أخاف أن يطرقها صاحب القسطنطينية بغتة ، فيملكها ، ولكن اجعلوا بينها وبين البحر مالا يدركها صاحب البحر إلا وقد علم به ، وإذا كان بينها وبين البحر مالا يوجب فيه التقصير للصلاة فهم مرابطون »[2]. وبالإضافة إلى هذا الموقع الداخلي الذي تتميز به قيروان عقبة ، فقد كانت تقع ايضا قريبا من السبخة لتتمكن الابل والدواب من الرعي بسهولة . وتكون في مأمن من عادية البربر والنصارى [3] . وهكذا كان موقع القيروان يمتاز ببعده عن البحر ، فلا تتعرض لغزو يقوم به الروم من جهة البحر ، كما تمتاز بكثرة مراعيها ، وهما صفتان لابد من توافرهما في بناء المدن ، وفي ذلك يقول ابن خلدون في مقدمته : « إعلم أن المدن قرار تتخذه الأمم عند حصول الغاية المطلوبة من الترف ودواعيه ، فتؤثر الدعة والسكون ، وتتوجه إلى اتخاذ المنازل للقرار ، ولما كان ذلك القرار والمأوى ، وجب أن يراعى فيه دفع الضار بالحماية من طوارقها ، وجلب

---

(١) نفس المرجع ، ص ١٦

(٢) ابن عذارى ، ج ١ ، ص ١٩

(٣) ابن عذارى ، ج ١ ، ص ٢٠

للنافع وتسهيل للرافق لها : فأما الحماية من الغدار فيراعى لها أن يدار على منازلها جميعا سياج الأسوار ، وأن يكون وضع ذلك في متمنع من الأمكنة، إما على هضبة متوعرة من الجبـــل ، وإما باستدارة بحر أو نهر بها حتى لا يوصل إليها إلا بعد للعبور على جسر أو قنطرة فيصعب منالها على للعدو، ويتضاعف امتناعها وحصنها ... وأما جلب المنافع والمرافق للبلد ، فيراعى فيه أمور منها الماء بأن يكون البلد على نهر أو بإزائها عيون عذبة ترة ، فان وجود الماء قريبا من البلد يسهل على الساكن حاجة الماء وهي ضرورية ... ومما يراعى من المرافق في المدن طيب المراعي لسائمتهم إذ صاحب كل قرار لابد له من دوجن الحيوان للنتاج والضرع والركوب ولابد لها من المرعى » [1] . ويبدو أن عقبة كان متأثرا في اختياره لموقع القيروان بما تعرضت له الاسكندرية سنة ٢٥ هـ من نكبات بسبب غزو البيزنطيين لها من البحر ، وكان مايزال يتذكر الجهـــد الكبير الذي بذله عمرو بن العاص لاستردادها [2] ، ولعله أكثر ما كان يعصب البلاد المصرية لو أن الاسكندرية كانت عاصمة مصر الاسلامية كما كان يريده عمرو : وأعتقد أن الدرس الذي تلقنه عمرو بغزو الروم الاسكندرية وندمه على تركه سورها عنـد الفتح دون أن يهدمه قد أفاد عقبة بن نافع كثيرا ، ولا نستغرب أن يكون لذلك الحادث أثر عميق في اختيار عقبة لموضع القيروان ، فقـد كان عقبة أحد قواد عمرو، ثم إنه كانت تربطه به صلات من القرابة . ولكن عقبـة

---

(١) مقدمة ابن خلدون ، طبع المكتبة التجارية بمصر ، بدون تاريخ ، ص ٢٤٧ — ٢٤٩

(٢) السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ الاسكندرية وحضارتها في العصر الاسلامي ، الاسكندرية ١٩٦٩ ، ص ٤٣

فى سعيه لاختيار موضع يتوافر فيه طيب المراعى ، ويبعد فى نفس الوقت عن البحر ، أغفل أمرا هاما هو الماء والزارع ، فلم يراع إلا توافر مراعى الابل ، ولذلك تعرضت القيروان عدة مرات ، فى العصر الاسلامى للخراب ، ولولا صفة هذه المدينة الدينية ووجود مسجدها الجامع المعروف بالقيروان ، لكانت قد بادت واندثرت .

يذكر ابن عبد الحكم أن عقبة ركب ، والناس معه حتى أتى موضع القيروان اليوم ، وكان واديا كثير الشجر ، كثير اللطف ، تأوى إليه الوحوش والسباع والهوام ، ثم نادى بأعلى صوته : ياأهل الوادى ، ارتحلوا رحمكم الله ، فانا نازلون ، نادى بذلك ثلاثة أيام ، فلم يبق من السباع شىء ، ولا الوحوش والهوام إلا خرج . وأمر الناس بالعقبة والخطط ، ونقل الناس من الموضع الذى كان معاوية بن حديج نزله إلى مكان القيروان اليوم ، وركز رمحه وقال : هذا قيروانكم » . ثم يذكر رواية أخرى عن عبد الملك ابن مسلمة ، عن الليث بن سعد ، تماثل هذا النص مع اختلاف بسيط هو أنه نادى ثلاث مرات بدلا من ثلاثة أيام (١) . وقد أخذ معظم المؤرخين بهذه الرواية مع بعض التحريف (٢) ، باستثناء المالكى الذى يذكر أنه « كان فى موضع القيروان حصن لطيف للروم يسمى قونية ، وكان فيها كنيسة ، وفيها الساريتان الحمراوان اللتان هما اليوم فى المسجد الجامع ، كانت عليها حنيتان مبنيتان ، أقامها إلى أيام زيادة الله بن الأغلب ، فهدمها زيادة الله ،

---

(١) ابن عبد الحكم ، ص ٦٤ ، ٦٥

(٢) ابن الأثير ، الكامل ، جـ ٣ ص ٣٣٤ — ابن عذارى ، جـ ١ ص ٢٠ — ياقوت معجم البلدان مجلد ٤ ص ٣٢٠

وحملها إلى المسجد الجـــامع ، فجعلها في المكان الذي هما فيه اليوم »(١) .
ويعتقـد الدكتور مؤنس أن رواية المالكي هي الصواب ، فمن المعقول ـ في رأيه ـ أن يكون هـذا الحصن قد تعرض للتخريب ، وأصبح في أوائل القرن السابع الميلادي خربا مهجورا ، فسكنته بعض الذئاب والوحوش ، فاختاره عقبة لبناء القيروان ، « ففزعت الضواري من جلبة الجيش الذي عسكر إلى جوارها ، فأخذت تقترب هاربة ، فرآها العرب تفعل ذلك ، فظنوا أنها معجزة من معجزات عقبة ، فكان ذلك موضعا خصبا لخيال الرواة فأضافوا خطابه للوحوش ، وصوروا الكرم هذا التصوير البالغ فيه حتى تتم المعجزة ويصبح للقيروان ما يريدونه لها من القداسة والجلال »(٢) .
ولكننا لا نوافق الدكتور مؤنس على رأيه في أن موضع القيروان كان حصنا لطيف الكروم ، ولا في تصويره لخروج الوحوش من الشعراء ، فإن المصادر العربية تجمع على أن الموضع الذي أقيمت فيه القيروان كان « دجـــلة مشتبكة »(٣) أو واديا كثير الشجر كثير القطف تأوي إليه الوحوش والسباع والهوام(٤) ، أو شعاري وغياض لا ترام(٥) ، أو غيضة كثيرة الأشجار مأوى الوحـوش والحيات(٦) . ولم يكن موضع القيروان حصنا لطيف الكروم ، ولعل الدكتور مؤنس قرأ حصنا لطيفا فكروم

---

(١) المالكي ، ص ٢١
(٢) حسين مؤنس ، ص ١٤٢
(٣) أبو الفدا ، ج ٢ ، ص ١٠١
(٤) ابن عبد الحكم ، ص ٦٤
(٥) ابن عذاري ، ج ١ ، ص ٢٠
(٦) ابن الأثير ، الكامل ، ج ٣ ، ص ٢٣٤ ـ أسد الغابة ، ج ٣ ، ص ٤٢٩

بدلا من « حصن لطيف الروم » الواردة فى رياض النفوس ، بدليـــل أن صاحب هذا الكتاب يذكر أن موضع القيروان كان وبرا تسكنه الوحوش والحيات . وليس معنى هذا أننا ننكر وجود حصن فى الموضع الذى أقيمت عليه القيروان ، فلاشك أن موضع القيروان كان قريبا من حصن رومانى قديم كالشأن فى الفسطاط مثلا والكوفة . أما بالنسبة لخروج الوحوش والسباع بالطريقة التى شرحهـــا الدكتور مؤنس فنستبعده ، وقد أشار الدكتور سعد زغلول عبد الحميد إلى ماعكن أن تتضمنه رواية الواقدى من تعليل مقبول لخروج الوحوش من الغيضة . فقد ذكر الواقدى أن موضع القيروان كان كثير الأشجار ، فاقترح أصحاب عقبة عليه أن يحرقوه بالنار ويبنون فيه المدينة ، فقال لهم : « ياقوم ، إن الوحوش والهوام ودواب الأرض كثيرة بهذه الأرض ، وأخاف أن أحرقها بالنار فيحاسبنى الله عز وجل عليها ، ولكن إذا كان آخر النهار أنادى فى هذا الموضع بأعلى صوتى : أيتها الوحوش الساكنة فى هذا المكان ، ارحلوا منه ، فانى أريد حرق أشجاره بالنار لأن المسلمين يريدون أن يبنوا فيه بلدة لتستقر فيها رحالهم ونساؤهم ، وفى آخر النهار نادى عقبة رضى الله عنه فى الوحوش بالارتحال ، فلما أتم النداء حتى رفعت الوحوش أولادها فى أفواهها من غزلان وذئاب وغير وغيرها ، وبقى ينتظر خروجها مدة ثلاثة أيام لم يكن دأب الناس فيها إلا الفرجة واللعب ، فلما كان اليوم الرابع ، أمر بالنار فأطلقت ، فأكلت الأشجار عن آخرها »[1] . ويستنتج الدكتور سعد زغلول من تلك الرواية أن خروج الوحوش والهوام فزعة من الشعراء جاء

---

(١) الواقدى ، فتوح افريقية ، ج ١ ، طبعة تونس ، ١٣١٥هـ ، ص ٣

نتيجة للحريق ، الذي أطلق في الموضع لتنظيفه من الأشجار قبل البناء ، ويذكر الدكتور سعد زغلول أن « هذا أمر طبيعي يحدث عندما تلتهم النيران بعض الغابات ، فتفزع حيواناتها ، وقد يفر بعضها وهو مشتعل فيتسبب في زيادة الرقعة المنكوبة بالحريق ، وهذا ما نظنه تفسيرا مقبولا لأصل الأسطورة »(١) .

وعلى الرغم من أن نص الواقدي لا يشير إلى قيام المسلمين بحرق الأشجار إلا بعد رحيل الوحوش ، فاننا نؤيد الدكتور سعد فيما ذهب إليه اعتمادا على ما ذكره الواقدي بالإضافة إلى ما ذكره ابن الأثير في أسد الغابة إذ يقول : « وكان (موضع الغيران) غيضة ، كثير الأشجار ، مأوى الوحوش والسباع ، فأمر بقطع ذلك وإحراقه ، واختط المدينة »(٢) . وقد يكون عقبة قد بدأ باجتثاث الأشجار عن طريق قطعها أول الأمر ، فنفرت السباع والوحوش من الوادي ، فلما تأكد له ذلك أحرقها ، إسراعا بإزالتها ، وتوفيرا لجهود أصحابه ، ويؤيد ذلك الرأي قول ابن عذاري : « فأمرهم أن يقطعوا الشجر »(٣)

وما إن أتم المسلمون تنقية الموضع من الأشجار ، حتى شرع عقبة في اختطاط دار الامارة ، والمسجد الجامع ، ولكنه لم يقم به أي بناء ، وكان يصلي في أرضه دون أن يكون قد أقيمت فيه جدران ، ويبدو أن الناس

---

(١) سعد زغلول عبد الحميد ، صبح العرب المغرب بين الحقيقة التاريخية والأسطورة التمثيلية ، ص ٣٠

(٢) ابن الأثير ، أسد الغابة ، جـ ٣ ، ص ٤٢٩

(٣) ابن عذارى ، جـ ١ ، ص ٣٠

اختلفوا معه في تحديد الاتجاه الصحيح للقبلة باعتباره أول المساجد الجامعة في هذا القطر المفتوح ، وباعتبار قبلته الأنموذج الذي تحتذيه سائر محاريب المساجد الجامعة في بلاد إفريقية ، وقاموا أياما ينظرون إلى مطالع الشتاء والصيف من النجوم ، ومشارق الشمس فلما رأى أمرهم قد اختلف ، بات مغموما فدعا الله عز وجل أن يفرج عنه . فأتاه آت في منامه ، فقال له : إذا أصبحت فخذ اللواء في يدك ، واجعله على عنقك ، فإنك تسمع بين يديك تكبيرا لا يسمعه أحد من المسلمين غيرك ، فانظر الموضع الذي ينقطع فيه التكبير فهو قبلتك ومحرابك ، وقد رضي الله لك أمر هذا العسكر ، وهذا المسجد ، وهذه المدينة ، وسوف يعز الله به دينه ، ويذل به من كفر به . فاستيقظ من منامه وهو جزع ، فتوضأ للصلاة ، وأخذ يصلي وهو في المسجد ومعه أشراف الناس ، فلما انفجر الصبح ، وصلى ركعتي الصبح بالمسلمين ، إذا بالتكبير بين يديه . فقال لمن حوله : أتسمعون ما أسمع ؟ فقالوا : لا . فعلم أن الأمر من عند الله فأخذ اللواء فوضعه على عنقه ، وأقبل يتبع التكبير حتى وصل إلى موضع المحراب ، فانقطع التكبير ، فركز لواءه ، وقال : هذا محرابكم ، فاقتدى به سائر مساجد المدينة » (١) .

وهكذا أحيط تركيز القبلة على يدي عقبة بما يشبه القصص والأساطير . وما كاد يتم تركيز القبلة بالمسجد حتى بدأ المسلمون في بناء الجامع ، وفي تشييد دورهم ومساكنهم ومساجدهم بالقيروان . وقد وصل إلينا اسم أحد

---

(١) الدباغ ، معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان ، تونس ١٩٠٩ ، ج ١ ص ٩ ، ابن الأثير ، الكامل ، ج ٣ ، ص ٢٢٦ ، ابن عذاري ، ج ١ ، ص ٣٠ وما يليها .

من ساهم فى بناء الجامع وهو اسماعيل بن عبيد الأنصارى [١]. ويقال أيضا أن عبـــد الله بن الزبير أسس مسجد القيروان [٢]، وكان ممن اختط فى القيروان من الصحابيين أبو عبـد الله على بن رباح بن نصير اللخمى ، الذى اختط بالقيروان داراً ومسجداً ، و ومسجده عند باب نافع على يمين الخارج قبل أن يخرج » [٣] ، ومنهم أبو رشيد حنش بن عبد الله السبأى الصنعانى الذى اختط بالقيروان داراً ومسجداً ينسب إليه ، وكان يقع بالقرب من باب الربح [٤] ، ومنهم زياد بن أنعم الغيـانى ، واختط بالقيروان داراً ومسجداً بالقرب من باب نافع [٥] .

عمرت القيروان بمختلف أنواع الأبنية والمنشآت ، وشد الناس إليها الرحال وانجموها من كل مكان ، واتسعت بالأسواق والمرافق ، ودامت حركة البناء فيها نحو خمس سنوات ، فاكتملت عمارتها فى سنة ٥٥ هـ [٦] . وذكر ابن عذارى أن دورها فى ذلك الحين بلغ ١٢٦٠٠ ذراع أى ما يعادل سبعة آلاف وخمسمائة متر ، وواضح أن هذا الرقم مبالغ فيه ، وكانت مدينة القيروان فى بداية نشأتها ، قاعدة حربية ، ومركزا توجه منه الغزوات على جبال أوراس المواجهة لها [٧] . وكان عقبة أثناء عمارته لهـــا ، يغزو ، « وبعث السرايا فتغير وتنهب ، ودخل كثير من البربر فى الإسلام ، واتسعت خطة المسلمين ، وقوى جنان من هناك من الجنود بمدينة القيروان ، وآمنوا

---

(١) المالكى ، ص ٧٠ (٢) نفس المرجع ، ص ٤٢ (٣) نفس المرجع ، ص ٣٧

(٤) نفس المرجع ص ٧٩ (٥) المالكى ، ص ٨٣

(٦) ابن الأثير ، الكامل ، ج ٤ ، ص ٣٣٤

(٧) Terrasse, histoire du Maroc, t.I, p. 80 — حسن مؤنس ، فجر الأندلس ، القاهرة ١٩٥٩ ص ٣٩

واطمأنوا على المقام ، فثبت الإسلام فيها » (١). وكانت القيروان سورة بسور من اللبن والطين ، هدم زمن زيادة الله ، (٢) وأقيم عليها سور تراب بعد ذلك (٣) .

وقدر للقيروان أن تصبح حاضرة المغرب الإسلامي كله في عصر الخلافة الأموية ، إلى أن انفصل المغرب عن الدولة العباسية في أواخر القرن الثاني للهجرة ، وتكونت بذلك إمارات مستقلة فيه ، وفي هذه الفترة كانت القيروان على حد قول ابن حوقل « أعظم مدينة بالمغرب ، وأكثرها تجراً وأموالا ، وأحسنها منازل وأسواقا ، وكان فيها ديوان جميع المغرب ، وإليها تجبى أموالها ، وبها دار سلطانها » (٤) . ويصفها الإدريسي في القرن الخامس الهجري فيقول : « ومدينة القيروان أم أمصار ، وقاعدة أقطار ، وكانت أعظم مدن المغرب قطراً ، وأكثرها بشراً ، وأكثرها جباية ، وأنفقها سلعة ، وأتمها ربحا ، وأجهرهم عصبانا ، وأطغاهم أغمارا ... » (٥)

ج — عزل عقبة بن نافع وتولية أبو المهاجر دينار ( ٥٥ — ٦٢ هـ ) :

بتأسيس مدينة القيروان أخذت إفريقية تظهر كولاية هامة من ولايات الدول العربية الإسلامية ، فطلعت إليها أنظار الطامعين في ولايتها . والظاهر أن اشتغال عقبة بتأسيس القيروان طوال خمسة أعوام ، وعزوفه عن الغزو

---

(١) ابن الأثير ، ج ٣ ، ص ٢٣٠

(٢) اليعقوبي ، كتاب البلدان ، طبعة ليدن ١٨٩٢ ، ص ٣١٢

(٣) الإدريسي ، صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس ، ص ١١٠

(٤) ابن حوقل ، صورة الأرض ، طبعة بيروت ، ص ٩٤

(٥) الإدريسي ، المرجع السابق ، ص ١١٠

أثناء ذلك ، حرم الخلافة من مورد هام لها وهو الغنائم الكثيرة التي كانت ترد من هذه البلاد . وهنا أخذت السعايات ضد عقبة تلعب دوراً هاماً في بلاط الخليفة بدمشق ، وكان مسلمة بن مخلد الأنصاري والي مصر في مقدمة من سعى لعزل عقبة وضم ولاية إفريقية لمصر ، طمعاً في مواردها الوفيرة (١) ، وقد نجح في ذلك ، وأصبحت له منذ سنة ٥٣ه ولاية مصر وللغرب ، من أطراف إقليم مصر إلى إفريقية ، « وهو أول من جمعت له مصر والمغرب » (٢) . وذكر الأستاذ هنري تراس أن معاوية عزل عقبة من ولاية إفريقية خوفاً من أن يستقل بالمغرب عن الخلافة (٣) ، وليس من المستبعد أن يتجه تفكير معاوية إلى ذلك ، فقد كان يخشى أيضاً من مد نفوذ عمرو بن العاص في مصر وإفريقية ، ولذلك جعل ولاية إفريقية تتبعه مباشرة بعد وفاة عمرو ، ولعله رأى في اهتمام عقبة بإفريقية ، وتشييده في بلاد برقة وإفريقية ، وتأسيسه للقيروان ، اتجاهاً منه نحو الاستقلال بحكم هذا الإقليم الغني بخيراته ، التطرف عن أملاك الدولة الأموية ، وكان يعرف صلة القرابة التي تربط عقبة بعمرو ، فأسرع بضم ولاية إفريقية إلى مسلمة ابن مخلد الأنصاري عامله في مصر ، ولعله أشار على مسلمة بعزل عقبة عن ولاية إفريقية ، بدليل أنه لم يرد عقبة إلى ولايتها بعد أن قدم إليه شاكياً من سوء عزل أبي المهاجر له .

وذكر المالكي أن مسلمة وجه خالداً بن ثابت الفهمي الشعابي إلى

---

(١) سعيد عاشور ، فتح العرب للمغرب ، ص ١١٢

(٢) ابن عبد الحكم ، ص ٦٦ — ابن عذاري ، ص ٢١

(٣) Terrasse op. cit p. 80

إفريقية فى سنة ٥٤ هـ[١]، ولكنه لم يلبث أن عزله ، واستعمل على إفريقية مولاه دينارا ويكنى أبا المهاجر ، فقدم إلى القيروان فى سنة ٥٥ هـ ( ٦٧٤ م ) فى جيش من أهل الشام ومصر . وتجمع المصادر العربية على أن أبا المهاجر أساء عزل عقبة [٢] ، ويذكر ابن عبد الحكم أن مسلمة كان قد أوصاه بالرفق فى عزله ، وحسن معاملته . ولكنه خالفه ، وسجنه وأوقره حديداً[٣]

ويذكر المؤرخون أن خبر هذه الإساءة قد وصل إلى مسامع الخليفة معاوية فى دمشق عن طريق أنصار عقبة ، فكتب إلى أبى المهاجر مستنكرة ، يأمره بخلية سبيله ، وإطلاقه من حبسه ، وإشخاصه إليه [٤] فأطلقه أبو المهاجر وأرسله فى صحبة بعض أتباعه حتى قابس [٥] ، ومن هناك واصل عقبة السير حتى وصل إلى دمشق . ويعتقد الدكتور حسين مؤنس أن أبا المهاجر لم يتصرف من تلقاء نفسه ، وأنه أرغم على الإساءة إلى عقبة ، مدفوعا فى ذلك بتعليمات تلقاها من مسلمة بن مخلد الذى كان يحقد على عقبة لما نالد من شرف غزو إفريقية ، وقد اعتمد الدكتور حسين مؤنس فى ذلك الرأى على أدلة ثلاثة مستقاة من ابن عبد الحكم :

الأول — أن ابن عبد الحكم قال : « فلما قدم عقبة مصر ، ركب إليه مسلمة بن مخلد ، فأقسم له بالله لقد خالفه ما صنع أبو المهاجر » . ولقد

---

(١) المالكى ، ص ١٦

(٢) ابن عبد الحكم ، ص ٦٦ — المالكى ، ص ٢١ — ابن الأثير ، الكامل ، ج ٣ ص ٣٣٠ — ابن عذارى ، ج ١ ، ص ٢٢

(٣) ابن عبد الحكم ، ص ٦٦

(٤) نفس المرجع ، ص ٦٨

(٥) المالكى ، ص ٢١

أوصيته بك خاصة » (١) . ويستنتج الدكتور مؤنس من هذا النص أن « سعي مسلمة إلى عقبة ، واعتذاره له ، ونفيه التهمة عن نفسه ، لا يعلل إلا بأن مسلمة خشي أن يغضب معاوية عليه حين يقص عليه عقبة ما نزل به من مساءة على يديه ، فأسرع وألقى التهمة على أبي المهاجر خوفا من معاوية » (٢) . على أن ابن عذارى يذكر أن اعتذار مسلمة حدث في عهد يزيد عندما أعاد عقبة إلى ولاية إفريقية سنة ٦٦٢هـ ، فر عقبة على مسلمة بن مخلد في مصر ، فاعتذر له مسلمة عما فعله به أبو المهاجر ، وأقسم له أنه خالفه فيما صنع ، وأنه كان قد أوصاه بتقوى الله وحسن السيرة ، فقبل منه عقبة هذا الاعتذار ، فلما وصل إلى إفريقية « أوثق أبا المهاجر في الحديد ، وأمر بتخريب مدينته التي بناها ، ورد الناس إلى القيروان » (٣) . وأعتقد أن ما ذكره ابن عذارى أقرب إلى الصواب والمنطق ، فلو كان مسلمة قد اعتذر لعقبة عما فعله أبو المهاجر ، وثبت لعقبة بعد ذلك أن مسلمة هو المسؤول عما لحقه لكان قد عذر أبا المهاجر ، ولما كان قد انتقم منه بعد ذلك عندما أعيد إلى ولايته . ومن الطبيعي أن يتوجه مسلمة بالاعتذار لعقبة عن تصرف أبي المهاجر تجاهه بعد أن استرد عقبة كرامته وكبرياءه باسترداد إمارته على إفريقية ، وهذا يفسر تحامل عقبة على أبي المهاجر بعد ذلك . ونضيف إلى ما سبق أنه لا يعقل أن يتوجه عقبة بعد أن أطلق أبو المهاجر سراحه بأمر الخليفة إلى مصر ويقابل مسلمة ، وهو يعلم أنه هو الذي عزله . وقد ذكر المالكي أن

---

(١) ابن عبد الحكم ، ص ٦٨

(٢) حسين مؤنس ، ص ١٥١

(٣) ابن عذارى ، ص ٣٣

عقبة وصل إلى قابس ، ومن هناك رحل إلى معاوية ، وأغلب الظن أنه سافر إلى دمشق رأسا عن طريق البحر .

الثاني — أن عقبة لم يكد يبسط الخليفة ظلامته من أبي المهاجر ومسلمة بقوله « فتحت البلاد ، وبنيت المنازل ومسجد الجماعة ، ودانت لي ، ثم أرسلت عبد الأنصار فأساء عزلي ، وتحتى اعتذر له معاوية وقال : « قد عرفت مكان مسلمة بن مخلد من الإمام المظلوم ، وتقديمه إياه ، وقيامه بدمه ، وبذل مهجته ، وقد رددتك على عملك » (١) . ويرى الدكتور مؤنس في ذلك الاعتذار اعترافا من معاوية بأن مسلمة هو المسؤول عما نزل بعقبة لا أبا المهاجر ، وأن عزل عقبة كان على هوى منه ، وأن عقاب الخليفة لأبي المهاجر جزاء إساءته إلى عقبة كان بسبب مسلمة ، الذي كان يتمتع بمكانة كبيرة عند بني أمية لما قام به من جهود في سبيل المطالبة بدم عثمان (٢) .

الثالث — أن ما ذكره ابن عبد الحكم وغيره من مؤرخي المغرب من أن عقبة دعا على أبي المهاجر ، وخوف أبي المهاجر من دعاء عقبة ، لأنه كان مجاب الدعوة ، يتضمن براءة أبي المهاجر من تهمة الإساءة إلى عقبة (٣) .

وعلى هذا النحو نجد أن الأدلة التي استند عليها الدكتور مؤنس هي في الواقع دليلان : الثاني والثالث ويمكننا أن نضيف إليها دليلين آخرين هما :

١ — أنه لو لم يكن مسلمة بن مخلد هو الذي حرض أبا المهاجر على إبداء عقبة لما كان مسلمة قد ترك القضية تمر كذلك دون أن يلحق العقاب

---

(١) ابن عبد الحكم ، ص ٢٠

(٢) حسين مؤنس ، فتح العرب للمغرب ، ص ١٥٢

(٣) حسين مؤنس ، فتح العرب للمغرب ، ص ١٥٢

بأبي المهاجر جزاء مخالفته إياه ، وإساءته إلى عقبة الذي كان يعتبر شخصية من الشخصيات الإسلامية الجليلة ، والذي ساهم بنصيب وافر في الفتوح ، والذي ثبت فتح إفريقية بتأسيس القيروان ، وبانشاء مسجدها الجامع ، بل إن ماقام به أبو المهاجر من هجر قيروان عقبة وإنشاء قاعدة أخرى للفتح ، إنما يعبر عما كان يحس به مسلمة من تحاسد وتغاير لعقبة على ماظفر به من شرف بقيروانه .

٢ — لو أن مسلمة لم يكن هـــو الذي دفع أبا المهاجر على الإساءة إلى عقبة ، لما كان كتاب التخلية عن عقبة وإطلاق سراحه من سجنه ، قد ورد من الخليفة رأسا . وأغلب الظن أن معاوية كان يعلم مقدما أن تصرف أبي المهاجر لم يكن من تلقاء نفسه ، وأنه كان مرغما على ذلك التصرف ، وإلا لكان قد كتب إليه بالإفراج عن عقبة ، وإشخاصه إليه ، ولكان قد أمر بعزل أبي المهاجر وتأديبه .

* * *

كره أبو المهاجر دينار أن يستقر في قيروان عقبة ، وآثر أن يبني مدينة ينزل فيها ، ويجعلها قاعدة للمسلمين بـــدلا من القيروان ، ولعله تلقى من مسلمة تعليمات بهذا الشأن . ويذكر ابن عبد الحكم أنه خلف الموضع الذي اختطه عقبة بميلين ، « فابتنى ونزل »[1] . ويذكر المالكي : « أنه نزل بقصر تونس ، ويقال إنه نزل بسبخة ونبى بها »[2] . أما ابن عذاري فيقول : « ونزل خارجا عن المدينة » ، وكره أن ينزل المـــوضع الذي اختطه عقبة ،

---

(١) ابن عبد الحكم ، ص ٦٨

(٢) المالكي ، ص ٢٠

ومضى حتى خلفه بميلين ، عما يلى طريق تونس ، فاختطها مدينة ، وأراد أن يكون له ذكرها ، ويفسد عمل عقبة فبنى مدينة ، وأخذ فى عمرانها ، وأمر الناس أن تحرق القيروان ، ويعمروا مدينته » . (١)

وإذا عدنا فى هذه الروايات وجدنا أن أبا المهاجر لم يكن لديه الوقت الكافى لبناء مدينة جديدة بدلا من القيروان ، صحيح أننا لا ننكر كراهية أبى المهاجر لقيروان عقبة ، وعزوفه عن اتخاذها مركزا للجيوش فى إفريقية العربية ولكننا لا نقبل ما ذكره المؤرخون من أنه أسس مدينة جديدة ، فلا يمكن بأى حال من الأحوال أن يصل التغاير بين مسلمة وعقبة إلى حد تقويض الأول لأعمال الثانى التى استغرقت سنوات خمس ، وأغلب الظن أن أبا المهاجر نزل فى موضع آخر غير القيروان ، ولعله اختار مدينة أو قرية إفريقية لهذا الغرض ، ويذكر المالكى أنه « انصرف فنزل بذكوار مدينة البربر ، بالقرب من موضع القيروان » (٢) . ولعله أقام فيها قصرا للإمارة ومسجدا جامعا ، وأضاف إليها بعض المنشآت اللازمة لعسكره ، بعد أن رحل هذا العسكر عن قيروان عقبة ، ولهذا السبب اختلط الأمر على الرواة ، فنسبوا إليه بناء مدينة جديدة . ونشك أيضا فيما ذكره المؤرخون خاصا بانحراف القيروان عقبة ، ولا شك أن تدمير مدينة كالقيروان أخذ بناؤها من جهود المسلمين ما أخذه ، يعتبر عملا إجراميا لا يمكن أن يحدث بإيعاز من شخصية جليلة كشخصية مسلمة بن مخلد الأنصارى أو مولاه دينار . وأعتقد أن الأمر لم يزد على هجر القيروان وإخلائها من العسكر والإدارة

---

(١) ابن عذارى ، جـ ١ ص ٢٢

(٢) المالكى ، ص ٢٠

وقد يكون هذا التصرف ناتجا من رغبة أبي المهاجر في التقرب إلى البربر والإقامة في قرية من قراهم حتى يوهمهم أن قيروانه لا يمثل احتلالا أجنبيا لبلادهم .

وتعد المصادر العربية مصدرا سريعا على ولاية أبي المهاجر ، إما لأنها وقعت بين ولايتي عقبة الأولى والثانية ، أو بسبب استياء الرواة من تصرفات أبي المهاجر وإساءته إلى عقبة . ولكن هناك قليلة من أخبار أبي المهاجر وصلتنا في بعض المصادر . ونستخلص منها أن أبا المهاجر أحس بتكوين حلف ضد المسلمين يضم بربر أوربة البرانس والروم . ولاشك أن البيزنطيين على أيام قسطنطين الرابع تفرغوا لشؤون المغرب بعد أن شغلوا عنه طويلا بغزوات العرب لبلادهم ، وحصارهم القسطنطينية مرتين في سنة ٤٨ هـ ، وفي سنة ٥٥ هـ [1] ، واستيلائهم على جزر قبرص ورودس وأرواد وأقريش: ويبدو أن بربر أوربة الذين كانت تربطهم بالبيزنطيين روابط وثيقة بدأ وا يحسون بخطر العرب على بلادهم منذ أن أسس عقبة بن نافع مدينة القيروان ، فاتخذ زعيمهم كسيلة بن لمزم يجمع القبائل ويؤلبها على العرب، تمهيدا لطردهم من البلاد . لذلك آثر أبو المهاجر أن يبدأ بمهاجمة بربر أوربة وأحلافهم الذين كانوا يضربون في نواحي تلمسان ، حتى يقضي على ما بدا له من بوادر مقاومتهم [2] . خرج أبو المهاجر على رأس جيش من المسلمين متجها إلى مراكز أوربة وأحلافها من البرانس ، و فتح كل

---

(١) ابراهيم احمد العدوي ، الأساطيل العربية في البحر الأبيض المتوسط ، القاهرة ١٩٥٧ ، ص ٤٧ ـ ٥٥

(٢) حسين مؤنس ، فتح العرب للمغرب ، ص ١٢٢

عامر عليه حتى انتهى إلى العيون المعروفة بأبى المهاجر نحو تلمسان » (١) . ثم صالح كسيلة الأوربى وأحسن إليه بعد أن اعتنق الإسلام ، وأسلم معه كثير من بنى قومه . ونجح أبو المهاجر بفضل مؤازرة كسيلة له فى الاستيلاء على تلمسان (٢) . ويعتبر أبو المهاجر أول أمير عربى وطئت خيله أرض المغرب الأوسط ، وتدل نتائج هذه الحملة على مقدرته السياسية ، وكياسته فى كسب زعيم بربر أوربة إلى جانب المسلمين .

وما إن انتهى أبو المهاجر من القضاء على مقاومة البربر ، ومن تحطيم الحلف القائم بين أوربة والروم وذلك بانضمام كسيلة ومن وراءه بربر أوربة إلى جانب المسلمين ، حتى ولى وجهه شطر قرطاجنة ، معقل الروم فى إفريقية ، ليضرب ضربته الثانية . ويذكر أبو الحاسن أن أبا المهاجر خرج فى سنة ٦٥ هـ لغزو قرطاجنة ، « فخرج إليه أهلها ، فالتقوا ، وكثر القتل بين الفريقين حتى حجز الليل بينهم ، وانحاز المسلمون من ليلتهم ، فنزلوا جبلا فى قبلة بولس ( بقصد تونس ) ثم عاودوهم ، وصالحوهم على أن يجلوا لهم الجزرة ( جزيرة شريك ) . ثم افتتح أبو المهاجر المذكور حيلة(٣) ، وكانت إقامته بها فى هذا الغزو نحواً من سنتين » (٤) . وعاد أبو المهاجر بعد ذلك سنة ٦١ هـ إلى مدينته التى أسسها ، وأقام بها عاما واحدا حتى عزل .

---

(١) المالكى ، ص ٢١ — ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٨

(٢) البلاوى ، الاستقصا ، ج ١ ص ٨٠

(٣) مدينة حيلة تقع على أربع مراحل شرق قلعة بنى حماد ، ويصفها الإدريسى بأنها « مدينة صغيرة كثيرة الأنهار والبساتين ، ولها أسواق حسنة » ( الإدريسى ، ص ٩٩ ) . ويذكر البكرى أنها مدينة عامرة محصنة تقع على البحر ولها مراسى عديدة . ( البلدان ، ص ٣٥٩ )

(٤) أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ج ١ ص ١٥٣ — البلاوى ، ج ١ ص ٨٠

د ـ ولاية عقبة الثانية ( ٦٢ ـ ٦٤ هـ ):

توفى معاوية بن أبى سفيان فى منتصف رجب سنة ٦٠ هـ ، وأفضت الخلافة من بعده إلى ابنه يزيد ، وكان يزيد مقتنعا بفضل عقبة على الإسلام وحسن بلائه فى فتح إفريقية ، فاستقطع ولاية إفريقية من مسلمة بن مخلد والى مصر ، وعزل أبا المهاجر دينار فى سنة ٦٢ هـ ، ورد عقبة بن نافع إلى ولاية إفريقية للمرة الثانية . وبذلك استرد عقبة كرامته التى نال منها مسلمة ابن مخلد عن طريق مولاه أبى المهاجر ، وتلاشى من نفسه الاحساس بالمرارة منذ أن أهانه أبو المهاجر بالسجن ، وتخريب العمل الجليل الذى جهد فى إنشائه وهو مدينة القيروان .

ويرى الدكتور مؤنس أن عقبة رد إلى ولاية إفريقية عقب وفاة مسلمة، ويستند فى ذلك على الربط بين تاريخ مشترك هو سنة ٦٢ هـ بسجل وفاة مسلمة ، وتولية عقبة ، « فلو كان عقبة رد قبل وفاة مسلمة ، فلماذا تحدد المراجع سنة ٦٢ هـ بالذات ، أى بعد ستين من ولاية يزيد؟ ولم لم يرده يزيد من أول ولايته ؟ وفيم كان الانتظار ؟ بل لو كان مسلمة حيا حين رد عقبة إلى عمله لتولى حماية أبى المهاجر منه أولا ستفات به هذا الأخير على الأقل. فأما وقد كان عقبة مطلق اليد يفعل بأبى المهاجر مايشاء ، فان فى ذلك لدليلا على أن هذا الأخير كان قد فقد وليه ونصيره ، فهان أمره على الناس »(١) ولكننا نرى نقيض ذلك ، فليس من الضرورى أن يرد يزيد عقبة إلى ولاية إفريقية عند توليه الخلافة مباشرة ، وتذكر المصادر العربية أن يزيد واجه عند توليه الخلافة صعوبات كثيرة فى العراق والحجاز ، وكانت بداية

---

(١) حسين مؤنس : فتح العرب للمغرب ، ص ١٣٦

خلافته إيذانا بفترة طـــويلة من الصراع بين الشيعة وبني أمية ، على أثر امتناع الحسين بن علي وعبد الله بن الزبير عن مبايعته ، فأما الحسين فقد استشهد في ١٠ محرم سنة ٦١ هـ في كربلاء بعد أحداث طويلة ، وأما ابن الزبير فقد فرغ له الحجاز ، ودعا لنفسه بالخلافة بعد شهادة الحسين ، وبايعه أهل الحجاز وتهامة . ولاجدال في أن هذه الأحداث شغلته كثيرا عن قضية عقبة ومسلمة ، ولاشك في أن عقبة لم يظاهر بعرض قضيته على يزيد بعد توليته الخلافة مباشرة ، إذ كان كل هم يزيد وقتذاك منصرفا إلى السعي للحصول على مبايعة إجماعية في الحجاز والعراق . ونرجح أنه توجه إليه بعد أن أسفر الصراع القائم بين الشيعة وبني أمية عن مقتل الحسين . وهنا ننتقل إلى مناقشة السند الثاني الذي اعتمد عليه الدكتور مؤنس لإثبات رأيه وهو أنه لو كان مسلمة بن مخلد حيا عندما ودعقبة إلى ولاية إفريقية ، لكان قد تولى حماية أبي المهاجر من عقبة . ونرد على هذا الاستنتاج بنص تاريخي ورد في رياض النفوس ، جاء فيه أن عقبة توجه إلى يزيد ، « فأخبره بما صنع أبو المهاجر وما دخل عليه منه ، وقال له : لما افتتحتم إفريقية بنيت مسجد القاعة ، ثم بعتم عبد الأنصاري ، فأهانني ، وأساء عزلي ، فغضب يزيد وقال : أدركوها قبل أن يخربها . وردعقبة إليها ، وأزال مسلمة عنها ، وأقره بمصر ، وذلك سنة اثنتين وستين »[1] . ونستنتج من هذا النص أن يزيد فصل ولاية إفريقية والمغرب عن ولاية مصر ، وأنه قصر ولاية مسلمة بن مخلد على مصر ، وأنه رد عقبة إلى ولاية إفريقية والمغرب . ويؤيد ذلك أيضا ماذكره ابن عذاري بقوله : « وفي سنة ٦٢ ، ولى يزيد

---

(١) المالكي ، ص ٢٢

ابن معاوية على بلاد إفريقية والمغرب كله عقبة بن نافع الفهرى ، وهى ولايته الثانية على إفريقية » [١] . ونخرج من ذلك بحقيقة هامة ، هى أن الأمر الخلاف بتولية عقبة على إفريقية ، وفصل هذه الولاية عن مصر ، صدر قبل وفاة مسلمة فى ٢٥ رجب سنة ٦٢ هـ . ونعتقد أن مسلمة كان مايزال حيا عندما رحل عقبة من الشام مارا بمصر ، فى طريقه إلى المغرب . ويذكر ابن عذارى ، أنه لما مر على مسلمة صاحب مصر خرج إليه ، واعتذر من فعل أبي المهاجر ، وأقسم له أنه خالفه فيما صنع ، وأنه كان قد أوصاه بتقوى الله وحسن السيرة ، وأن يحسن عشرة عقبة ، فقبل منه عقبة ، ومضى حنقا على أبي المهاجر » [٢] . وهذا يفسر تعامل عقبة على أبي المهاجر ، ومبادرته بالاقتصاص منه بمجرد وصوله إلى إفريقية . ولم يكن مسلمة وقتئذ قادرا على حمايته من عقبة ، لأن ولاية إفريقية لم تعد تابعة له . وقد يكون رد عقبة إلى ولاية إفريقية قد تم قبل وفاة مسلمة ببضعة أشهر .

قدم عقبة إلى القيروان ومعه جيش من المسلمين من بينهم ٢٥ رجلا من أصحاب رسول الله [٣] ، وكان عقبة مايزال حانقا على أبي المهاجر ، ولذلك بادر بالقبض عليه وتقييده ، وصادر ماعنده من الأموال ، وجعلها مائة ألف دينار ، وجدد بناء القيروان ، ورمم ماوهى من مبانيها ، وأمر الناس بتعميرها والانتقال إليها ، فعادت إليها عظمتها [٤] . ثم أشفى غليله

---

(١) ابن عذارى ، ص ٢٢

(٢) ابن عذارى ، نفس الصفحة .

(٣) ابن عذارى نفس الصفحة

(٤) المالكى ، ص ٢٢ — ابن عذارى ص ٢٣

من أبي المهاجر ، و بخراب مدينته التي بناها »[1] . ويبدو أنه كان يسعى لنقض سياسة أبي المهاجر من أساسها ، وهي سياسة أثبتت نجاحا عظيما ، إذ انضمت بضع بربر أوربة إلى جانب المسلمين ، وبدخول عدد كبير منهم في الإسلام ، ولو أن عقبة تابع سياسة أبي المهاجر ، لتيسر له أن يستكمل فتح المغرب كله دون أن يريق كثيرا من دماء المسلمين ، ولكن اصطناعه سياسة مناقضة ، مدفوعا في ذلك بعامل السخط على أبي المهاجر ، كان السبب في حدوث الكارثة التي أسفرت عنها غزوته الكبرى إلى السوس الأقصى . وقد حاول أبو المهاجر أن يثنيه بجهوده الاستمرار في سياسة اصطناع البربر ، وقدم له كسيلة على أنه من زعمائهم ، ولكن ثم عقبة كان متصرفا إلى تحدي أبي المهاجر ، وإلى إذلاله وإذلال من لاذ به ، فاستخف بكسيلة وهو حديث عهد بالإسلام ، على الرغم مما أوصاه به أبو المهاجر . ويذكر المالكي وابن عذاري أن عقبة أتى يوما « بذود غنم للعسكر ، فذبح الذود ، فأمر عقبة كسيلة أن يسلخ مع السالخين . فقال له : أصلح الله الأمير ، هؤلاء فتياني وغلماني يكفونني . فنهره عقبة ، وقال له : قم . فقام كسيلة منغضبا . فكان كلما دخس في الشاة مسح يده بلحيته مما علق بيده من بلل ذلك . وجعل العرب يمرون عليه وهو يسلخ ، ويقولون له : يا بربري ، ماهذا الذي تصنع ؟ فيقول : هذا جيد للشعر . فر به شيخ من العرب ، فقال : كلا ، إن البربري ليتوعدكم . فقال أبو المهاجر لعقبة : أصلح الله الأمير ، ماهذا الذي صنعت ؟ كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستألف جبابرة العرب كالأقرع بن حابس التميمي ، وعيينة بن حصن ،

---

(١) ابن عذاري ص ٢٢

وأنت تجيء إلى رجل هو خيار قومه فى دار عزه ، قريب عهد بالكفر ، فتفسد قلبه ؟ توثق من الرجل فإنى أخاف فتكه ، فتهاون به عقبة . فلما انصرف ، نكث البربر ما كانوا عليه ، وأقبلت النفرة إلى عقبة ، فقال له أبو المهاجر : عاجله قبل أن يجتمع أمره ، فزحف إليه عقبة ، فتحمى من بين يديه ، فقال البربر لكسيلة : إنهزم من بين يديه ، ونحن فى خمسين ألفا ، وهو فى خمسة آلاف ! فقال : إنكم كل يوم فى زيادة وهو فى نقصان ، وعدد الرجل قد افترق عنه ، فإذا طلب إفريقية زحفت إليه »[1] .

ونستنتج من هذا النص أن عقبة أساء إلى كسيلة وأعوانه بسلخ جلود الغنم ، ففر كسيلة من معسكر عقبة ومعه جموع بربر أوربة ، وتمكن كسيلة من تكوين جيش ضخم من البربر ، لمقاتلة المسلمين ، ولكنه لم يشأ أن يشتبك معهم فى القتال إلا بعد أن يعود عقبة من غزوته ، فيكون عسكره قد نقص عدده ، وعندئذ ينقض عليه كسيلة ويفتك به وبمن معه . وأعتقد أن عقبة أهان كسيلة بعد موقعة باغاية وهو فى طريقه إلى طنجة ، وأنه فر من معسكر المسلمين إلى جبل أوراس ، حيث جمع جيشا ضخما من البربر وعزم على الترصد لعقبة وهو فى طريق عودته من غزوة السوس ، بعد أن يكون التعب قد أرهق عسكره .

وكتب عقبة فى وجوه عسكره ومن معه من الصحابة والتابعين . ويذكر ابن عذارى أنه دار بهم حول مدينة القيروان وهو يدعو لها ويقول : « يارب املأها علما وفقها ، واملأها بالمطيعين لك ، واجعلها عزا لدينك ،

---

(١) المالكى ، ص ٢٦ ـ ابن عذارى ، ص ٢٩

وذلا على من كفربك » (١) . ويذكر المالكي أنه جمع أولاده وقال لهم : « إني بعت نفسي من الله ، وما أدري ما يأتي عليّ في سفري » ، ثم قال : « وإني أوصيكم بثلاث خصال فاحفظوها ولا تضيعوها : إياكم أن تملأوا صدوركم بالشعر وتتركوا القرآن ، فإن القرآن دليل على الله عزوجل ، وخذوا من كلام العرب ما يهتدي به اللبيب ، ويدلكم على مكارم الأخلاق ، ثم انتهوا عما وراءه ، وأوصيكم أن لا تدابروا ولا تباغضوا فإن الدين ذل بالنهار وهم بالليل ، فدعوه تسلم لكم أقداركم وأعراضكم ، وتبقى لكم الحرمة في الناس ما بقيتم . ولا تقبلوا العلم من المغرورين المرخصين ، فيجهلوكم دين الله ، ويفرقوا بينكم وبين الله تعالى ، ولا تأخذوا دينكم إلا من أهل الورع والاحتياط ، فهو أسلم لكم ، ومن احتاط سلم ، ونجا فيمن نجا » ، ثم قال : « عليكم سلام الله ، وأراكم لا ترونني بعد يومكم هذا » ، ثم قال : « اللهم تقبل نفسي في رضاك ، واجعل الجهاد رحمتي وداري كرامتي عندك » (٢) .

ولما أتم حديثه مع أولاده ، وأبدى لهم النصيحة استخلف زهير بن قيس البلوي وعمر بن علي القرشي على رأس حامية من المسلمين عدتهم ستة آلاف مقاتل (٣) . ثم خرج في جيش عدته خمسة عشر ألفا (٤) ، من القيروان ،

---

(١) ابن عذاري ، ص ٢٢

(٢) المالكي ، ص ٢٢

(٣) ابن عبد الحكم ، ص ٧٢

(٤) الدباغ ، معالم الإيمان ، ج ١ ص ٤٣ ، وفي نص عبيد الله بن صالح أنه « خرج مع عسكر عظيم » ، ولكنه لم يحدد عدد هذا العسكر ( عبيد الله بن صالح ، ص ٢١٩ )

خروج من عزم على القتال للشهادة والموت فى سبيل الله . ولم يترك عقبة أبا المهاجر فى القيروان ، وإنما أعفاه منه إلى السوس ، وهو مكبل بالأغلال [١]. واشترك مع عقبة فى هذه الغزوة جموع كثيرة من مسلمى البربر يتزعمهم كسيلة البرانسى ومن معه من أوربة. وزحفت جيوش المسلمين غربا حتى وصلت إلى مدينة باغاية أو باغاى أو بغاية [٢] ، وحاصرتها (خريطة رقم ٦) وهناك اصطدمت بجيوش الروم وانتصرت عليها انتصاراً حاسما [٣] ، وظفر المسلمون بغنائم كثيرة . ثم زحف عقبة غربا متخذا طريق الزاب الصحراوى وقاتل الروم وحلفاءهم من البربر على وادى المسيلة فهزمهم [٤] . واتجه بعد ذلك إلى تاهرت ، وجعلها هدفه الرئيسى حيث تجمعت فيها جموع قبائل لواتة وهوارة وزواغة ومطماطة وزناتة ومكناسة ، مع من انضم إليهم من الروم [٥] ، واشتبك المسلمون معهم فى قتال عنيف انتهى بهزيمة البربر وحلفائهم الروم هزيمة شنعاء ، ذل لها الروم [٦] . ويذكر المالكى أنه عندما نزل تاهرت ، استغاث به الروم بالبربر ، فأجابوهم ونصروهم ، فقام عقبة فى الناس خطيبا ، فحمد الله تعالى وأثنى عليه وقال : أيها الناس ، إن أشرافكم

---

(١) ابن عبد الحكم ، ص ٢٠ — المالكى ، ص ٢٢

(٢) يذكر الإدريسى أنها مدينة كبيرة عليها سوران من حجر ويرض عليه سور ثالث وهى أول بلاد السوس ، ولها واد يجرى إليها من جهة القبلة ، وشربهم منه ومن آبار عذبة ، وعلى أميال منها جبل أوراس ( الإدريسى ص ٩٠٣ )

(٣) عبد الله بن صالح ، ص ٢١٦ — المالكى ، ص ٣٣ — ابن عذارى ، ص ٢٤

(٤) نفس المرجع ، ص ٢٤

(٥) نفس المرجع ص ٢٥ — عبد الله بن صالح ، ص ٢١٦

(٦) نفس المرجع ، ص ٢٥

وخياركم الذين رضى الله تعالى عنهم ، وأنزل فيهم كتابه ، بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بيعة الرضوان ، على من كفر بالله إلى يوم القيامة ، وهم أشرافكم ، والسابقون منكم إلى البيعة ، باعوا أنفسهم من رب العالمين بجنته بيعة رابحة ، وأنتم اليوم في دار غربة ، وإنما بايعتم رب العالمين ، وقد نظر إليكم في مكانكم هذا ، وما تبلغوا هذه البلاد إلا طلبا لرضاه ، وإعزازا لدينه ، فابشروا ، فكلما كثر العدو كان أخزى لهم وأذل إن شاء الله تعالى ، وبكم — عز وجل — يسلمكم . فالقوم بقلوب صادقة ، فإن الله — عز وجل — يصلكم بأسه الذي لا يرد بأسه عن القوم المجرمين ، فقاتلوا عدوكم على بركة الله وعونه ، والله لا يرد بأسه عن القوم المجرمين (١) » .

وهكذا قضى عقبة على كل مقاومة للبربر والروم في المغرب الأوسط ، ومضى في سيره متجها إلى طنجة ، ولكن أبا المهاجر نصحه بألا يفعل ، فإن قبيلة أوربة البرانسية قد أسلمت بإسلام كسيلة ، وليس هناك ما يدعو إلى غزوها ، ونصحه أيضا بأن يبعث مع كسيلة واليا . فأبى عقبة أن يستمع(٢) ولم يلبث أن انحرف من طريقه الداخلي نحو الساحل ، وعبر تازة . ثم أوغل تجاه طنجة . وتطايرت فلول البربر والأفارقة بعد أن توالت عليهم الهزائم ، وكثر فيهم القتل على أيدي المسلمين إلى الحصون والقلاع . ولكن عقبة كان حريصا على مواصلة الغزو ، « فكره المقام على عساكرهم ، فيفوته الغزو وقتل غيرهم من طوائف الكفار ، إذ كانت أمم المغرب من نصارى

---

(١) المالكي ، ص ٢٢

(٢) لعل ذلك كان سببا من أسباب تعامل كسيلة على عقبة ، وغدره به ، وترصده له في طريق عودته .

وبرابر لا يحصون كثرة وانتشاراً ، ولا يكاثرون بالرجل والخيل . فتلك أهل إفريقية متحصنين بحصونهم ، وأوغل في المغرب يقتل ويأسر أمة بعد أمة ، وطائفة بعد طائفة ، بأنها نفسه من مولاه ، لا تروعه كثرة ، ولا تهزه هو ومن معه سامة ولا كثرة ، حتى صار بأحواز طنجة » [1] .

وكان حاكم طنجة وسبتة روميا اسمه يليان ، وكان سياسيا محنكا ، فبادر بمهادنة عقبة ومهادنته ، وأعلن استعداده للنزول على حكمه ، وعقد معه عقبة معاهدة صلح ومسالمة ودله على مواطن البربر فيما وراء جبال الأطلس ، وأرشده إلى عوراتهم . وبفضل توجيهات يليان تمكن عقبة من الوصول إلى وليلي Volubilis ، وهناك تلقته جموع كثيفة من البربر بالقتال ، فهزمهم هزيمة نكراء ، وطاردهم حتى درعة [2] . وهناك تجمعت حشود هائلة من البربر لا تحصى أعدادها ، فقاتلهم قتالا عنيفا لم يشهد للبربر مثل عنفه وشدته . فدارت الدائرة على البربر وقتل منهم عدد كبير [3] . وذكر بعض المؤرخين أن عقبة انحدر من بلاد تامسنا بالسوس الأدنى ، وتوغل في « صنهاجة ثم إلى بلاد هسكورة ، ثم نزل أغمات وريكة ، ثم نزل منها على وادي نفيس ، وقام عقبة من وادي نفيس وسار حتى نزل إيجلي بالسوس ، وبنى فيه مسجدا... قال أبو علي : ثم سار عقبة من إيجلي حتى وصل ماسة ، فأدخل فرسه في الماء » [4] . ويصور المؤرخون نهاية مطاف عقبة عند المحيط تصويرا قصصيا

---

(١) ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٦

(٢) نفس المرجع ، نقلا عن عبد الله بن صالح ، ص ٢١٩

(٣) نفس المرجع ، ص ٢٧

(٤) نفس المرجع

أسطوريا ، توكيد أليطولانية ، فيذكر ابن عذارى نقلا عن ابن أبي الفيض « إنه لما بلغ الماء بطن فرسه رفع يديه إلى السماء وقال : يارب لولا أن البحر منعني لمضيت في البلاد إلى مسالك الغرنين مدافعا عن دينك ، مقاتلا من كفر بك » (١) .

وهكذا وصل عقبة حتى بلاد جزولة بالسوس الأقصى ( خريطة رقم ٧ ) ، فبعد أن دخل بلاد صنهاجة وهسكورة ، ومر بأغمات وافتتحها ، وافتتح مدينة نفيس وتارودانت ، نزل بوادي سوس (٢) ، واتصل بقبائل جزولة فأسلمت . ورأى عقبة أن مهمته انتهت إلى هـذا الحد ، فعزم على العودة بعساكره . فسار جنوبي مدينة مارا بايغيران يطوف (٣) ، ومضى مصعدا نحو الشمال ، فوصل إلى تارنا ، ثم وصل إلى موضع شاكر الذي سمي باسم أحد أصحابه تركه هناك ، حيث أنشأ رباطا عرف باسمه ، وما زال يسمى هذا الموضع حتى اليوم باسم سيدي تيكر (٤) . ثم رحل من هناك إلى مرتوبلاد دكالة (٥) ، فوجد فيها قوما دعاهم إلى الإسلام فامتنعوا ، فاشتبك معهم في قتال انتهى بقتل جماعة كبيرة من جنوده ، فسمي هذا الموضع باسم مقبرة الشهداء . ثم مضى من دكالة إلى بلاد هسكورة ، وقاتل سكان هذه النواحي وشتتهم ، وعبر نهر أم الربيع ، وأوغل في البلاد شرقا حتى دخل

---

(١) ابن عبد الحكم ، ص ٢٢٣ — البكري ، ص ٢٥ — ابن عذارى ، ص ٢٧

(٢) عبد الله بن صالح ، ص ٢١٦

(٣) تمسنا ، نرجع ص ٢١٦ — ابن عذارى ص ٢٧

(٤) تعليق الأستاذ ليفي بروفنسال على نص عبد الله بن صالح ، ص ٢٠٩

(٥) ابن عذارى ص ٢٨

المغرب الاوسط . وما زال يواصل سيره إلى القيروان ، حتى أوشك على دخول المغرب الأدنى ، وقبل أن يدخل هذا الإقليم وصلته أنباء مقلقة من إفريقية ، فأرسل طائفة من عسكره إلى القيروان ، وما بقى معه من جيشه سوى خمسة آلاف [1] . ويعلل ابن عذارى إرساله هذا العسكر إلى القيروان برغبتهم فى الإسراع « بالإياب إلى أحيائهم ، والبدار إلى عيالهم » [2] . وأغلب الظن أن كسيلة ، الذى انقلب على العرب ، بعد أن أهانه عقبة وحارب قبيلته ، تحالف مع الروم ، وهاجم القيروان فى حشود ضخمة حتى يدفع عقبة إلى الإسراع بإرسال كتائب من جيشه لحمايتها ، فيفرغ هو بعد ذلك لمواجهة عقبة ، فإن ابن عبد الحكم يذكر أن عقبة لما تقدم إلى السوس ، « خالفه رجل من العجم فى ثلاثين ألفا إلى عمر بن على وزهير بن قيس ، وما فى ستة آلاف فهزمه الله » [3] . وفى موضع آخر يقول : « ثم زحف ابن الكاهنة ( لعله يقصد به كسيلة ) إلى القيروان يريد عمر بن على وزهير ابن قيس ، فقاتلاه قتالا شديداً ، فهزم ابن الكاهنة ، وقتل أصحابه » [4] . ويغلب على الظن أن عقبة أذن لمعظم رجاله بالانصراف إلى القيروان عندما وصل إلى مدينة طبنة [5] من أرض الزاب ، وآثر عقبة أن يعرج على مدينتى تهوذه وباديس فى أحواز الزاب بمن بقى معه من جنوده ، للاستيلاء

---

(١) عبيد الله بن صالح ص ٢٢٠ — ابن عذارى ، ص ٢٨

(٢) ابن عذارى ، ص ٢٨

(٣) ابن عبد الحكم ، ص ٧٢

(٤) نص فلرج ، ص ٧١

(٥) المالكى ، ص ٢٥ — ابن عذارى ، ص ٢٨ — السلاوى ، ج ١ ص ٨٣

عليها وإقامة حامية دائمة من فرسانه فيها(١). وكانت عيون الروم وجواسيسهم في هذه النواحي قد بعثوا إلى كسيلة الأوربي ، وأعلموه بقلة من معه ، فجمع له جمعا كبيراً من الروم والبربر ، وزحف إليـــه ليلا حتى نزل بالقرب منه » (٢) .

وكان كسيلة قد جمع أكثر من خمسين ألف مقاتل ، فلما رأى عقبة عظم هذا الجيش ، وتطويق البربر لجيش المسلمين ، أيقن بقرب النهاية ، فأراد أن يبعث أبا المهاجر مع من يتبعه من المسلمين إلى القيروان ، حتى يعفيهم من القتل على أيدي البربر والروم ، فأبى أبو المهاجر إلا أن يغتنم الشهادة معه . فنزل المسلمون عن دوابهم ، وكسروا أغماد سيوفهم ، ودارت الواقعة عند تهوذه في نهاية سنة ٦٣ هـ(٣) . فاستشهد عقبة وأبو المهاجر وسيفاهما في أيديهما ، واستشهد معهما عدد كبير من المسلمين ، ولم يفلت من الموت إلا من وقع أسيرا في أيدي البربر أمثـــال محمد بن أوس الأنصاري ، وبزيد بن خلف العبسي ، فقدما ابن مصاد صاحب قفصة ، وبعث بهم إلى زهير بن قيس(٤).

---

(١) عبد الله بن صالح ، ص ٢٢٠ . يذكر عبيـــد الله أن عقبة قال لمعاصريه : « أريد أن أسلك على مدينة تهوذه ومدينة باغاية أعمل فيهما مايقـــوم بهما من العدة والعساكر »

(٢) المالكي ، ص ٢٥ — ابن عذاري ، ص ٢٩

(٣) يرى الدكتور حسين مؤنس أن موقعة تهوذه حدثت سنة ٦٤ هـ ، وأن زهير بن قيس قرر الانسحاب إلى برقة سنة ٦٥ هـ ( انظر تعليق الدكتور حسين مؤنس على نص عبد الله بن صالح ، ص ٢٣٦ )

(٤) المالكي ، ص ٢٧ — ابن عذاري ، ص ٢٩ — ابن خلدون ، ج ٤ ص ١٨٦ — أبو الفدا ، ج ١ ص ١٠٩ — السلاوي ، ج ١ ص ٨٤

ودوى خبر مقتل عقبة فى إفريقية والمغرب دويا هائلا ، وكان له أثر عميق فى نفوس المسلمين ، وكان كسيلة قد زحف بجيوش لا حصر لها من البربر والروم إلى القيروان ، « فانقلبت إفريقيـــة نارا ، وعظم البلاء على المسلمين » (١) .

---

(١) المالكى ، ص ٢٨ — ابن عذارى ، ص ٣١

## (٢)

### الفترة الثانية ( ٦٩ — ٩٠ هـ )

#### ١ — انسحاب العرب من القيروان فى سنة ٦٤ هـ ( ٦٨٣ م ) :

اختلف المؤرخون فى توضيح موقف زهير بن قيس، قائد جيش المسلمين فى القيروان، فبعضهم يذكر أن زهير لما بلغه خبر الكارثة التى نكب بها جيش عقبة فى تهوذة، تولاه الذعر والخوف، وأراد الانسحاب إلى مصر ؛ فأبى ابن حبيان الحضرمى ، إذ اعتبر ذلك هزيمة إلى مصر ، وكان أول من برز ، فضرب خباءه مبارزا للعدو ، فلما رأى زهير بن قيس عزمه ، قرر البقاء فى القيروان لمحاربة كسيلة. فلما أقبل كسيلة إلى القيروان ، قاتله المسلمون قتالا شديداً ، فانهزم ، وقتل عدد كبير من أصحابه وتفرقوا . أما زهير فقد أقام يسيرا فى القيروان، ثم خرج إلى مصر، فأقام بلوبية ومراقية عام ٦٥ هـ ، حتى أمده عبد الملك بن مروان بجيش استرد به إفريقية[1]. هذه الرواية تتناقض تفاصيلها ولا تتفق مع الأحداث التى تلت مقتل عقبة وأصحابه فى تهوذة ، ونتساءل لماذا ترك زهير القيروان بعد انتصاره المزعوم إلى لوبية ومراقية، ولماذا أقام هنالك حتى أمده عبد الملك بجيش لاسترداد إفريقية ؟ ونفهم منها على الرغم من ذلك أن إفريقية ضاعت على المسلمين إلى أن استردها زهير ابن قيس بعد ذلك بفترة من الوقت.

ويتفق معظم المؤرخين على أن زهيرا خطب فى الناس بعد كارثة تهوذة قائلا : « يا معشر المسلمين ، إن أصحابكم قد دخلوا الجنة ، وقد من الله

---

(١) المالكى ، ص ٢٨ ، ٢٩ — ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٩

عليهم بالشهادة ،فاسلكوا سبيلهم، ويفتح الله لكم دون ذلك ، فاعترض عليه حنش الصنعاني التابعي،وطالبه بالانسحاب مع بقية الجيش العربي إلى المشرق حتى لايتعرض المسلمون لسيوف البربر ، وقال : « يامعشر المسلمين ، من أراد منكم القفول إلى مشرقه فليتبعني». فاتبعه الناس ، ولم يبق مع زهير إلا أسرته وذويه . فاضطر إلى اللحاق بهم ، ونزل بقصره في برقة ، وأقام بها مرابطا إلى دولة عبد الملك بن مروان [1].

ولايعقل أن تؤثر حامية القيروان البقاء بها لكي تذبح على أيدي البربر، فالمعروف أنهم كانوا قلة ضئيلة بالقياس إلى حشود البربر الكثيفة التي كان يقودها كسيلة ، وواضح أن معظم الجنود العرب قد سئموا القتال في غزوة عقبة ، فآثروا العودة إلى المشرق. يضاف إلى ذلك أن فاجعة تهودة التي لم ينج منها إلا القدر اليسير من رجال عقبة الذين بقوا معه بعد رحيل معظم عسكره إلى القيروان ( عند طبنة )،أفزعت المسلمين ، وحطمت من روحهم المعنوية ، وخلت من عزائمهم، فلم يكن هناك بديل عن الانسحاب السريع ،وإلا فكيف نفسر رحيل زهير بن قيس من القيروان إلى برقة ، وانتظاره هناك لمدد يسترد به القيروان ؟. وتقدم كسيلة بعسكره بعد انتصاره في تهودة نحو القيروان ، فلما اقترب منها ، ولى من كان قد بقي فيها من العرب هاربين ، إذ لم يكن لهم طاقة بقتاله بعد انسحاب الجيش ، ولعظم ما اجتمع لديه من بربر وروم . ويذكر المالكي أنه لم يبق في القيروان بعد رحيلهم إلا الشيوخ الهرم ، والنساء ، والأطفال ، وكل مثقل بالأولاد ، فأرسلوا إلى كسيلة

---

(١) ابن عبد الحكم ، ص ٢٠ ، ٢٤ — المالكي ، ص ٢٨ — ابن عذارى ، ص ٣٦ عبيد الله بن صالح ، ص ٢٢١ — البلاذري ، ص ٨٤

يسألونه الأمان ، فأجابهم إلى ذلك ، ودخل القيروان فى المحرم سنة ٦٤ هـ وجلس فى قصر الإمارة أميرا على البربر ومن بقى فى القيروان من العرب[1].

وأسفر انسحاب الجيش العربى إلى برقة عن خروج إفريقية من أيدى العرب ، وضاعت بذلك جهود أربعين عاما قضاها المسلمون فى غزو وفتح. ولكن العرب لم يفقدوا كل شىء ، فقد تركوا بإفريقية طائفة من البربر تحولت إلى الإسلام (٢). ويستنتج الدكتور حسين مؤنس من سعى صاحب القصبة لافتداء أسرى المسلمين فى تهوذة وإرسالهم إلى زهير بن قيس بالقيروان، أن العرب نجحوا فى نقل جماعات من البربر إلى الإسلام، أو أنهم أفلحوا على الأقل فى إنشاء طوائف بربرية تميل إليهم. ولذلك يشير مؤرخو العرب إلى أن استشهاد عقبة فى القيروان أحدث اضطرابا كبيرا فى إفريقية ، فابن عذارى يقول : « واضطرمت إفريقية » (٣) ،والمالكى يقول : « فانقلبت إفريقية نارا » (٤) . ولا جدال فى أن المقصود بذلك هو قيام ثورة كبيرة شملت البلاد بأسرها بعد انسحاب جيش العرب من القيروان . ويعتقد الدكتور مؤنس أنه « كان فى إفريقية فى ذلك الحين نفر عظيم لم يرضهم سقوط القيروان فى يد كسيلة ، فثارهم ذلك ، وثارت النازعات بينهم وبين أنصاره . ومن يكون هؤلاء الذين ثاروا لتلك الثورة إلا بربرا مسلمين أو أنصارا للمسلمين؟ »[5]

---

(١) المالكى ، ص ٢٨ — ابن عذارى ، ص ٢١ — الدباغ ، ص ٨١

(٢) حسين مؤنس ، فتح العرب للمغرب ، ص ٢١١

(٣) ابن عذارى ، ص ٢٠

(٤) المالكى ، ص ٢٨

(٥) حسين مؤنس ، المرجع السابق ، ص ٢٠٢

وإذا كان كسيلة قد نجح حربيا فى احتلال القيروان ، فانه لم يستطع أن يكسب إليه المسلمين من البربر ، فلم يلبث هؤلاء أن تنازعوا معه ، فعم الاضطراب صفوفه ، واختلت أحواله ، وسنرى بعد قليل أن هؤلاء البربر سينضمون طائعين إلى جيوش المسلمين .

ب ـ حملة زهير بن قيس واسترجاع العرب للقيروان :

عاد زهير بن قيس إلى برقة ، فأقام بها فى قصره بسرت انتظارا لمدد يبعثه إليه الخليفة الأموى لاسترداد إفريقية ، أما ضعفاء المسلمين ومن خرجوا معه من القيروان من موالى إفريقية فقد تفرقوا فى إقليم إطرابلس (١) . وكان يزيد بن معاوية قد توفى فى سنة ٦٤ هـ وخلفه ابنه معاوية الثانى الذى لم يمتد عهده أكثر من أربعين يوما ثم توفى ، وظل عرش الخلافة شاغرا زهاء ستة شهور ، قام خلالها عبد الله بن الزبير بالدعوة لنفسه فى الحجاز ، وبايعه أهل الحجاز والعراق وخراسان ومصر . وفى ذى القعدة سنة ٦٤ هـ ، انعقد مؤتمر الجابية ، وفيه تمت بيعة مروان بن الحكم . وشغل مروان منذ اعتلائه دست الخلافة بمحاربة الضربة بزعامة الضحاك بن قيس ، وكان انتصار مروان وحسزبه اليمنى على الضربة فى موقعة مرج راهط ، فى المحرم سنة ٦٥ هـ ، أشبه بوقود أضرمت فيه نار ، كما كان إيذانا بهبوب ريح العصبية القبلية فى أنحاء البلاد . كذلك شغل مروان بن الحكم بمحاربة الزبيريين فى مصر والحجاز ، ونجح فى إعادة مصر إلى سلطان الخلافة الأموية ، ولكن لم يطل به العهد لقضاء على حركة الزبيرية فى الحجاز ، ومات فى رمضان سنة ٦٥ هـ قبل أن يقوم بأى عمل حاسم فى إفريقية . وخلفه ابنه عبد الملك الذى ولى

(١) ابن عبد الحكم ، ص ٢٤

الخلافة الأموية والبلاد قد مزقتها العصبيات القبلية ، والفتن قد اجتاحتها من كل مكان[1] وكان زهير بن قيس وهو مقيم ببرقة منذ انسحاب العرب من القيروان، لا يكف في أثناء ذلك من حث مروان وابنه عبد الملك من بعده على تخليص إفريقية من أيدي الروم والبربر. وعلى الرغم من كل هذه المشكلات التي صادفته منذ توليه الخلافة ، فقد عز على عبد الملك، وكان رجلا مجاهدا، قد شارك في فتوح إفريقية في حملة معاوية بن حديج ، أن يضيع المغرب على الإسلام ضياعا نهائيا بعد سنين طويلة من جهاد واستشهاد ، فجعل مشكلة استرداد إفريقية في مقدمة مشكلاته، وآثر أن ينظر في استردادها قبل أن يقضي على فتنة ابن الزبير . وكان أمر المغرب يطلب رجلا يماثل عقبة « دينا وعقلا » ، فاستشار وزراءه، فاجتمع رأيهم على تقديم زهير بن قيس البلوي، باعتباره صاحب عقبة، وأعلم الناس وأخبرهم بسيرته وتدبيره، وأولاهم بطلب دمه . ويذكر المؤرخون أنه بعث في سنة ٦٩هـ إلى زهير وهو مقيم ببرقة يأمره بالخروج على أعنة الخيل إلى إفريقية ليستنقذ من بالقيروان من المسلمين . فكتب إليه زهير يعرفه بكثرة من اجتمع على كسيلة من البربر والروم ، وقلة من معه من الرجال والأموال[2]. ولم يبخل عبد الملك على زهير بن قيس بالمال والرجال ، ويقول المالكي أن عبد الملك أرسل « إلى أشراف العرب ليحشدوا إليه الناس من الشام، وأفرغ عليهم أموال مصر، فسارع الناس إلى الجهاد . واجتمع منهم خلق عظيم ، فأمرهم أن يلحقوا

---

(١) يعتقد الدكتور مؤنس أن زهيرا أقام بعض هذه الفترة في مصر ، وبعضها الآخر في برقة ( فجر المغرب العربي ، ص ٢١٢ )

(٢) المالكي ، ص ٢٩ — ابن عذاري ، ص ٣١

بزهير »[1] . ووفدت جيوش العرب على زهير وهو مقيم ببرقة ، وتسرع الناس للسير معه إلى إفريقية[2] .

خرج زهير بن قيس من برقة فى سنة ٦٩ هـ فى عسكر ضخم متجها نحو إفريقية . وبلغ كسيلة قدوم العرب إليه ، فحشد لقائهم جيشا كثيفا من البربر والروم، بالغ المؤرخون فى تقدير عدده ، فذكروا أنه كان «أضعاف ما على زهير مضاعفة»[3] . وعلى الرغم من كثرة جيشه ، فقد أبدى تخوفا كبيرا من موقف مسلمى القيروان نحوه عند وصول جيوش العرب، وخشى أن يقع بين عدوين : عدو داخلى يتمثل فى الحزب الإسلامى الذى يتألف من مسلمى القيروان ومن يميل إليهم من البربر ، وعدو خارجى هم العرب . فدعا كسيلة أشراف البربر ، وقال لهم : « إنى رأيت أن أرحل عن هذه المدينة ، فان بها قوما من المسلمين لهم علينا عهود ، ونحن نخاف إن أخذنا القتال معهم أن يكونوا علينا ، ولكن نزل على موضع عمس ( Mamma ) وهى على الماء، فان عسكرنا خلق عظيم ، فان هزمناهم إلى طرابلس قطعنا آثارهم ، فيكون لنا المغرب إلى آخر الدهر ، وإن هزمونا كان الجبل منا قريبا ، والشعراء فيحصنون بها»[4].

ونفهم من هذا النص ، أن مدينة القيروان كانت ما تزال تضم داخل أسوارها جماعة كبيرة من المسلمين عربا وبربرا ، كما كانت تضم حزبا قويا

---

(١) المالكى ، ص ٣٠

(٢) ابن عذارى ، ص ٣١

(٣) عن المرجع ، ص ٣٢

(٤) المالكى ، ص ٣٠ — ابن الأثير ، الكامل ، ج ٤ ، ص ٥٥ — ابن عذارى ، ص ٣٢

يأمر العرب ويناهض كسيلة . وكان كسيلة يخشى بأسهم ويعمل لهم حسابا كبيرا .

خرج كسيلة من القيروان ، ونزل بقرية مس ، وهو موضع يسميه البكرى ساقية مس [١] ، ويقع جنوبى القيروان ، بين القيروان والأربس (تيسا) [٢] ، ويبدو أنه انتقل إلى هذا الموضع لحصانته ، ومناعة موقعه ، إذ تقع ساقية مس هذه على مرتفع من هضبة تتصل بجبال أوراس ، كما تقع فى ذات الوقت على ماء ، وكان كسيلة ينوى — إذا دارت عليه الدائرة — أن يتحصن بالجبال . أما قوات المسلمين ، فقد نزلت فى ظاهر القيروان ، بقرية يقال لها قرشانة [٣] ، وأقام بجيوشه هناك ثلاثة أيام لم يدخل خلالها القيروان ، حتى لا يفاجئه كسيلة بجيشه ، أو لكى يتمكن من دراسة الموضع الذى سيقوم فيه للمعركة القادمة . وفى اليوم الرابع زحف بكل جيوشه حتى أشرف على معسكر كسيلة بمس ، واشتبك الجيشان فى قتال عنيف انتهى بهزيمة كسيلة ومصرعه ، وأمعن فرسان العرب فى طلب أتباع كسيلة من البربر والروم ، وطاردوهم فى البلاد وأتبعوهم إلى مرماجنة [٤] ، ثم إلى وادى ملوية بالمغرب

---

(١) البكرى ، المغرب ص ٩٤٦

(٢) تعليق الأستاذ ليفى بروفنسال على نص عبد الله بن صالح ، ص ٢٩٦

(٣) المالكى ، ص ٣٠ . لعلها قرية قلشانة ، وهى المرحلة التى خرج من القيروان وقدم اليها ( انظر اليعقوبى ، البلدان ، ص ٣٤٢ ، أنظر أيضا ياقوت ، معجم البلدان مجلد ٤ ، ص ٢٨٩ )

(٤) مدينة صغيرة تقع بين الأربس وتاهرت بالقرب من القيروان ، وكان يسكنها بربر من هوارة . ( الإدريسى ص ٩٦٨ — ٩٦٩ ، ابن حوقل ص ٨٤ — ياقوت ، مجلد ٥ ص ١٠٩ )

الأوسط . وتمكن زهير من افتتاح شقبنارية وغيرها من القلاع [١] . وتعتبر موقعة وادي مس من الوقائع الحاسمة في تاريخ الفتح العربي للمغرب، ويعلق السلاوي عليها بقوله : « وفي هـــذه الواقعة ذل البربر ، وفنيت فرسانهم ، ورجالهم ، وخضدت شوكتهم ، واضمحل أمر الفرنجة ، فلم يعد ، وخاف البربر من زهـــير والعرب خوفا شديدا ، فلجئوا إلى القلاع والحصون ، وكسرت شوكة أوربة من يومئذ ، واستقر جمهورهم بديار المغرب الأقصى ، وملكوا مدينة وليلى » [٢] .

عاد زهير إلى القيروان ، فأرطنها حينا ، نظم فيه إدارتها ، وأقام عليها كثير من أصحابه ، ولكن لسبب ما لا يمكننا تعليله قرر زهير الذهول إلى برقة . ويفسر ابن عذارى والمالكي عودته بعد انتصاره على كسيلة ، بأنه أبى المقام في القيروان حتى لا يجرفه تيار الدنيا وفتنها لرفاهية العيش فيها ، وأنه ما قصد إلا الجهاد [٣] ، ولكن هذا التفسير لا يقوم على أساس قوي ، فان إفريقية كانت من أصلح الأقطار في العالم للجهاد والمثاغرة ، وقد كانت إفريقية حتى أيام حسان بن النعمان دار حرب وجهاد، إذن فهناك سبب آخر دفع زهيراً إلى هذا الرحيل المريع . وأعتقد أن مهمة زهير انتهت باسترداد العرب للقيروان ، والثأر من كسيلة الذي ترصد لصاحبه عقبة وقتله . وكان زهير يزهد في الإمارة . لذلك آثر العودة إلى مصر [٤] .

ويتفق المؤرخون على أن زهير بن قيس لقي مصرعه في برقة، ولكنهم

---

(١) المالكي ، ص ٣٠

(٢) الاستقصا ، ص ٩١

(٣) المالكي ، ص ٣٠ — ابن عذارى ، ص ٣٣

(٤) المالكي ، ص ٦٠

يختلفون في التفصيلات ، فإن ابن عبد الحكم يذكر أنه أقام بمصر ، واتفق أن أغار الروم على أنطابلس ( برقة ) ، واستولوا عليها ، فبلغ عبد العزيز ابن مروان ذلك ، فأرسل في طلب زهير ، وأمره بالخروج لمحاربة الروم ، غير أنه لم يجتمع لزهير من أصحابه إلا سبعون رجلا ، سار بهم إلى برقة ، فلما وصل إلى درنة من طبرق بإقليم أنطابلس ، لقي الروم وهو في سبعين رجلا ، فوقف حتى يتمكن من جمع بعض المسلمين في هذه النواحي لمحاربة الروم ، ولكن الروم لم يمهلوه ، فلقيهم ، واستشهد هو وأصحابه جميعا في سنة ٧٦ هـ ويضيف ابن عبد الحكم أن رجلا من مذحج يقال له عطية بن يربوع كان مقيما ببلدة أملس من برية انطابلس ، استغاث بجماعة من المسلمين ، فاجتمع إليه ستمائة رجل ، زحف بهم إلى الروم ، فقاتلهم ، وهزمهم ، فركبوا سفنهم وولوا هاربين [1] .

هذه الرواية ينفرد بها ابن عبد الحكم ، وتتضمن خلطا بين أعمال حسان ابن النعمان وأعمال زهير ، فتجعل إغارة الروم على انطابلس بعد عودة حسان بن النعمان إلى دمشق ، وتشير إلى أن زهير عاد مع حسان من إفريقية ، فاستقر بمصر إلى أن أمره عبد العزيز بن مروان بالنهوض إلى الروم ، ولو أن ذلك كان صحيحا ، لكان عبد العزيز قد أمده بجيش كبير لمقاتلة الروم . ولكن زهير ـ وفقا لهذه الرواية ـ لم يجمع أكثر من سبعين رجلا ، وأنه اختلف مع عبد العزيز بن مروان ، ومضى برجاله السبعين لملاقاة الروم ، وهذا لا يمكن اعتباره إلا عملا انتحاريا من جانب زهير . ثم إن تاريخ مقتل زهير وفقا لهذه الرواية ( سنة ٧٦ ) غير صحيح لأن هذا التاريخ يسجل عودة

---

(١) ابن عبد الحكم ، ص ٨٢ ـ ٨٤

حسان بن النعمان من إفريقية إلى برقة فى معظم المصادر .

وتتفق معظم المصادر العربية ؛ على أن زهير « رحل إلى المشرق فى خلق عظيم ، قبل الروم خروجه من إفريقية إلى برقة ، فأمكنهم ما يريدون ، فخرجوا إليها فى مراكب كثيرة ، وقوة عظيمة ، فأغاروا على برقة ، فأصابوا فيها سبيا كثيرا ، وقتلوا ونهبوا . ووافق ذلك قدوم عسكر زهير إلى برقة من إفريقية ، فأخبر زهير بخبرهم . فأمر عسكره بالمسير إلى الساحل طمعا أن يدرك سبى المسلمين فيستنقذهم . فأشرف على الروم ، وإذا هم فى خلق عظيم ، فلم يقدر على الرجوع ، وقد استغاث به المسلمون وصاحوا ، والروم يدخلونهم المراكب ، فنادى بأصحابه النزول ، فنزلوا ، وكانوا أشراف العابدين ، ورؤساء العرب المجاهدين ، أكثرهم من التابعين . فنزل الروم إليهم ، وتلقوهم بعدد عظيم ، والتحم القتال ، وتكاثرت عليهم الروم ، فقتل زهير — رضه — وأشراف من كان معه من العرب ، ومضى المسلمون إلى دمشق ، فدخلوا على عبد الملك بن مروان ، فأخبروه أن أميرهم وأشراف رجالهم قد استشهدوا . فعظم ذلك عليه ، لفضل زهير ودينه ، وكانت مصيبته مثل مصيبة عقبة قبله »[1].

ونعتقد أن هذه الرواية أقرب إلى الحقيقة ، فان الروم كانوا يضمرون لزهير السوء لقضائه على حليفهم كسيلة ومن معه من بربر أوربة البرانس ، الذين كانت تربطهم بهم روابط وثيقة من الحلف ، فلما علموا برحيله من القيروان ، قطعوا عليه الطريق عند برقة بحشود ضخمة ، ولم يكن مع زهير من العسكر إلا عدد قليل من أشراف العرب ، كان يزمع العودة بهم إلى مصر ، ولم يجد

---

(١) ابن عذارى ، ص ٤٣ — ورواية المالكى عربة من رواية ابن عذارى .

زهير بدا من الالتحام معهم ، فقتل ، وقتل معظم من كان معه من أشراف العرب . فقتل زهير ثم إذن بتدبير من الروم . وهكذا اختتم زهير بن قيس حياته شهيدا ، بعد أن قضى على مقاومة بربر أوربة البرانس . وكانت مهمة خلفه حسان بن النعمان أن يثأر أولا لمقتل زهير ، فيبادر بمهاجمة بركهم في قرطاجنة .

ج — حملة حسان بن النعمان الأولى ، وتخريبه قرطاجنة :

لما استشهد زهير ببرقة اضطربت بلاد المغرب من بعده ، واضطرمت فيها نار الفتن ، وافترق أمر البربر ، وتعدد سلطانهم في رؤسائهم ، وكان من أعظم زعماء البربر وقتئذ الكاهنة الزناتية الجراوية « صاحبة جبل أوراس » التي ستتحدث عنها بعد قليل . وانقضت بعد ذلك أربع سنوات توقف فيها الفتح لانشغال عبد الملك بن مروان بالقضاء على ثورة عبد الله بن الزبير في الحجاز ، فقد تصادف بمسعد مقتل زهير ، أن نزل الجراجمة الذين كانوا يسكنون فيما بين مدينتي بياس وبوقاس بجبل اللكام[1] بإيعاز من البزنطيين ،

---

(١) هي سلسلة الجبال الممتدة من أنطاكية شمالا ، وهي تعرف اليوم بجبال العلويين (منجاج نوعوض ، لغم والردة ، بيروت ١٩٦٢ ص ١٧) . والجراجمة على سعة قول الأستاذ منجاج نوعوض ، لهم بقية من المليشيين بقوا في هذه المنطقة فأبادهم بعد انتشار دولتهم ، وكانوا على النصرانية كالزردة في شرقي الأناضول ، وتربطهم بالروم روابط وثيقة . وقد نزل الجراجمة بعد فتح العرب لبلاد الشام يتجسسون ضد العرب على الروم وأعانوا البزنطيين على العرب ، فلما قدم الردة إلى الجراجمة ، ألفوا عصابات كانت تهرج على الجبال من اللكام إلى لبنان لفلسطين ، وكانوا يستغلون ثغرات الفتن في الدولة العربية فيغيرون على الشام (نوعوض الرجع ص ١٧ ، ١٨) . ويحمل الدكتور فيليب حتي من الزردة والجراجمة شيئا واحدا ، ويذكر أنهم كانوا شوكة في جانب الدولة العربية يحدون الروم من مناطقهم في جبل

على لبنان [1] فى سنة ٧٠ هـ ، فى الوقت الذى خرج فيه عبد الملك بن مروان لمحاربة زفر بن الحارث الكلابى بقرقيسياء وبلاد الرحبة بغية استرداده ، بعد أن استخلف على دمشق عمرو بن سعيد بن العاص . فاستغل عمرو فرصة غياب عبد الملك وحدا الناس إلى بيعته بدمشق وتحصن داخل أسوارها ، فاضطر عبد الملك إلى الرجوع ، وحاصر دمشق ، ودخلها ، وقتل عمرا [2]. ثم شغل عبد الملك بعد ذلك بإجلاء الخوارج من لبنان والشام ، وخرج فى سنة ٧٢ هـ لمحـــاربة مصعب بن الزبير ، واصطدم مع جيش مصعب فى دير الجاثليق فى ١٥ جمادى الأولى من تلك السنة ، وانتهت الموقعة بمقتل مصعب، وهزيمة جيشه [3] . وعهد عبد الملك وهو فى الكوفة إلى الحجاج بن يوسف الثقفى بالتوجه إلى مكة على رأس جيش كبير لمحاربة ابن الزبير، وعاد هو إلى دمشق ونجح الحجاج فى دخول مكة، وقتل ابن الزبير فى ٢٧ جمادى الآخرة سنة ٧٣ هـ .

وكان عبد الملك يعتقد أن إفريقية لا يمكن أن تفتح فتحا منظما ثابتا إلا إذا أعد لذلك جيشا ضخما مسلحا بكل أنواع الأسلحة والمعدات ، ولم يكن ذلك ميسرا له وهو يحارب فى جبهات متعددة ، فلما انتهى من القضاء على عبد الله بن الزبير ، أخذ يتفرغ لشؤون المغرب . ويذكر المالكى أنه جهز

---

= الكلام وطوروس بالرجال والنقود غير الظاهين . ويذكر أيضا أن هؤلاء الجراجمة سيبوا لدولة الأموية مناقب كثيرة ( أنظر تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ج ٢ ترجمة كمال اليازجى ، بيروت ١٩٥٩ ص ٢٥٤ ، لبنان فى التاريخ ، ترجمة الدكتور أنيس فريحه ، بيروت ١٩٥٩ ص ٢١٨–٢١٩ )

(١) البلاذرى ، فتوح البلدان ، قسم ١ ص ١٩٠

(٢) المسعودى ، مروج الذهب ، ج ٣ ص ١٦٢

(٣) نفس المرجع ، ص ١٦٢

لهذا الغرض جيشا عدته ستة آلاف مقاتل[١]، وجعل على قيادة هذا الجيش قائداً قديراً هو حسان بن النعمان الغساني. وقد اختلف المؤرخون في تحديد تاريخ سير هذه الحملة إلى إفريقية ، فابن عبد الحكم يحدد لها سنة ٧٣ هـ[٢] ، وابن الأثير يحدد لها عام ٧٤ هـ[٣]، ويؤيده في ذلك ابن خلدون[٤]. أما ابن عذارى ، فقد حدد لهذه الحملة سنة ٧٨ هـ[٥] . ويرجع سبب هذا الاختلاف، إلى أن المؤرخين للعرب يخلطون بين تاريخي حملتين قام بهما حسان ، الأولى سنة ٧٤ هـ ، والثانية سنة ٧٨ هـ .

لما اختار عبدالملك بن مروان حسان بن النعمان قائداً على جيوش إفريقية، أمره بالإقامة مع عسكره بادىء ذي بدء في مصر . فأقام بها بعض الوقت حتى انتهى عبد الملك من مشكلة ابن الزبير ، فكتب إليه يأمره بالسير إلى إفريقية ، وقال له : « إني قد أطلقت يدك في أموال مصر ، فاعط من معك ومن ورد عليك ، واعط الناس ، واخرج إلى بلاد إفريقية على بركة الله وعونه[٦] . فخرج حسان إلى إفريقية في جيش هائل لم يسبق أن دخل المسلمون قطر إفريقية بمثل هذا العدد من عسكر حسان . وفي إفريقية انضم إلى هذا الجيش الكثيف عدد آخر من المسلمين البربر يقودهم هلال بن ثروان اللواتي ، تضخم بهم جيش حسان . وكان حسان يهدف قبل كل شيء إلى

---

(١) المالكي ، ص ٢٤

(٢) ابن عبد الحكم ، ص ٢٦

(٣) ابن الأثير ، الكامل ، ج ٤ ، ص ١٧٩

(٤) ابن خلدون ، العبر ، ج ٤ ، ص ٨٢

(٥) ابن عذارى ، ج ١ ، ص ٣١

(٦) ابن عذارى ، ص ٣١

عاربة الروم في عاصمتهم قرطاجنة ، ويذكر ابن عذارى أنه لما وصل إلى القيروان سأل أهل إفريقية : « من أعظم الملوك بها قدراً ؟ فقالوا: صاحب قرطاجنة ، دار ملك إفريقية » . فسار حسان حتى نزل بالقرب منها . ويذكر المالكي أنه نزل في ترشيش على شاطئ البحر [١] ، وترشيش هو الموضع القديم لمدينة تونس ، ولما افتتحها المسلمون ، وأحدثوا البناء بها سموها تونس [٢] . وكان بقرطاجنة من الروم عدد كبير لا يحصى كثرة ، ونجح حسان في إقناع المزعة بهم ، وحاصر قرطاجنة حصاراً شديداً من البر ، ويبدو أيضاً أنه أحكم حصارها من البحر حتى يمنع عنها الإمدادات ، حتى افتتحها ، وفر معظم من كان بها من الروم في مراكبهم إلى صقلية والأندلس ، وتعرض من بقي منهم فيها لسيوف المسلمين . ولاحظ حسان أن هذه المدينة أصبحت تشكل خطراً دائماً على الفتح العربي لإفريقية ، فرأى ضرورة تهديمها ، فأمر بتخريب عمرانها ، فخربت حتى صارت كأمس الغابر ، [٣] وقطع القناة عنها [٤] .

وعلم حسان بعد ذلك أن الروم جمعوا شتاتهم ، وانضمت إليهم جماعات من الثوار الموالين لهم ، احتشدت حشودهم في بلاد صطفورة [٥] ، فزحف إليهم بكامل جيشه ، واشتبك معهم في قتال عنيف ، انتصر فيه عليهم انتصاراً

(١) المالكي ، ص ٣١

(٢) الإدريسي ، ص ١١١

(٣) ابن عذارى ، ص ٣٠

(٤) المالكي ، ص ٣٢

(٥) ذكر الإدريسي أن إقليم صطفورة يتصل بأرض قرطاجنة من جهة الشرب ، وهو إقليم جليل ، به ثلاث مدائن هي بالترتيب من الشرق إلى الغرب : انلوة وتينجة وبنزرت (الإدريسي ص ١١١)

حاسما ، وسحق قواتهم سحقا ، وأذرع فيهم فاستأصلهم ، وتم حمل عليهم أعنة خيله ، فما ترك من بلادهم موضعا إلا وطئه » ، وملأ الروم هاربين خائفين إلى مدينة باجة ، فحصنوا بها ، وهرب البربر إلى إقليم بونة [1] ، ثم عاد حسان بعد ذلك إلى القيروان .

وأقام حسان بالقيروان بعض الوقت حتى ارتث جـــراح أصحابه ، فتأهب لمواجهة المشكلة الثانية ، وهى مشكلة بربر البتر الذين اجتمعوا حول زعيمة لهم تعرف بالكاهنة . ويقال لها داهية بنت ماتية بن تيفان ملكة جبل أوراس ، وقد سأل حسان جماعة مسلمى البربر عنها فذكروا له أن جميع من بافريقية منهـا خائفون ، وجميع البربر لها مطيعون ، فان قتلتها دان لك المغرب كله ، ولم يبق لك مضاد ولا معاند »[2] . ولم يتردد حسان فى السير نحو معقل الكاهنة ، فلما علمت بذلك سيقته إلى مدينة باغاية ، فأجلت عنها الروم ، وعلمتها فلما منها أن حسان يريد الاستيلاء عليها والتحصن فيهـا ، أما حسان فنزل بوادى مسكيانة [3] المعروف بوادى للعذارى . وزحفت الكاهنة حتى دنت من معسكر المسلمين ، والتقى الجيشان على الأرجح فى سنة ٧٥ هـ فى قتال شديد أسفر عن هزيمة جيش حسان ، وأسر من أصحابه

---

(١) المالكى ، ص ٣٢ ـ ابن الأثير ، الكامل ، ج ٤ ، ص ١٨٠ ـ ابن عذارى ص ٣٥ ـ البلاوى ، ص ٩٢

(٢) المالكى ، ص ٣٢ ـ ابن عذارى ، ص ٣٥

(٣) يسميه ابن عبد الحكم بهر البلا ( ص ٢٩ ) ، ويسميه ابن الأثير تهر تى ( أسد الغابة ، ج ١ ص ١٤٤ ) ، ويسميه البيدق اغة بن مالح وادى زرقى ( نص عبد الله ص ٢٢٣ ) ، ويذكر البكرى أن قرية مسكيانة تقع على نهر قريبا من باغاية ( البكرى ص ٥٠ ) ، ويذكر الإدريسى أن مسكيانة عامرة كبيرة آهلة بها ذروع ومكاسب وحبوب ، وأنها تقع بين سبيبة وباغاية ( الإدريسى ، ص ١١٦ )

ثمانين رجلا . فتراجعت فلول جيشه فى منطقة الجـــريد ، وأتبعتها حشود الكاهنة حتى تجاوز فل المسلمين بقيادة حسان مدينة قابس منسحبا إلى برقة . وهكذا تراجع جيش حسان إلى برقة ولكن بعد أن استخلف على إفريقية رجلا يسمى أبو صالح [١] . أما الكاهنة ، فلم تتعرض للقيروان بسوء ، ولم تدخلها ، وإنما عادت إلى جبل أوراس . وعملت الكاهنة على القضاء على مظاهر العمران بإفريقية اعتقادا منها بأن العرب إنما يسعون وراء العمران حيث الذهب والفضة ، فوجهت قومها إلى كل ناحية من بلاد إفريقية والمغرب ينتسفون الزارع ويهدمون المصون ، فبعد أن كانت إفريقية ظلا واحدا من إطرابلس إلى طنجة قرى متصلة ، ومدنا منتظمة ، تلاشى ذلك كله ، وشمل الخراب سائر هذه البلاد [٢] . إلا أن ذلك للتدمير والتخريب أضر بالكاهنة ضرراً بالغا ، فقد انفض عنها معظم أنصارها من النصارى والأفارقة ، واتصل عدد كبير منهم بحسان يستنجدون به من الكاهنة . وكان البيزنطيون بعد سقوط قرطاجنة فى أيدى المسلمين ، ينتظرون فرصة مواتية يستردون بها هذه المدينة ، فانتهز الامبراطور ليونتيوس فرصة انتصار الكاهنة على العرب ، وأعد حملة بحرية بقيادة البطريق يوحنا ، أغارت على قرطاجنة فى سنة ٧٨ هـ ، وقتل البيزنطيون من بها من المسلمين ، وسلبوا ونهبوا ما وصلت إليه أيديهم [٣] .

وكانت الكاهنة قد أسرت بعد انتصارها على المسلمين فى وادى مسكيانة

---

(١) ابن عبد الحكم ، ص ٢٦

(٢) ابن عذارى ، ص ٣٦

(٣) البكرى ، ص ٣٨ — Ch. Diehl & Marcais, Histoire du moyen Age, t. III, p. 207

نحو ثمانين رجلا من أشراف العرب ، أفرجت عنهم بعد انسحاب حسان من إفريقية، واستثنت منهم رجلا واحدا هو خالد بن يزيد المهلبي، أعجبت بشجاعته وسماحته ، فرغبت في أن تتهناه ، وكان لها ولدان : أحدهما بربري والآخر يوناني ، وعمدت إلى دقيق الشعير فلته بزيت ، وجعلته على ثديها، ودعت ولديها وقالت : كلا منه على ندي ، ففعلا ، فقالت ، قد صرتم أخوة »[1] .

د . حملة حسان الثانية:

أقام حسان ببرقة منتظرا للامدادات التي وعده الخليفة عبد الملك بارسالها إليه لاسترداد إفريقية ، فأسس هناك قصورا ، كانت تعرف في أيام ابن عذارى باسم قصور حسان[2] ، وكانت انطابلس وقرية وهراقية إلى حد أجدابية من عمله[3] . وكان حسان على اتصال دائم بخالد بن يزيد، فكانت الكتب تتردد بينهما سرا، إذ كانا يحرصان على إخفائها عن الكاهنة أو رجالها، إما في شقق الخبز أو في القراطيس ، ولا شك أن حسان أفاد من الأخبار التي زوده بها خالد بن يزيد عن طريق كتبه إليه ، في معرفة أحوال الكاهنة ، وخططها في الحرب. وكان حسان أثناء إقامته ببرقة ، يلح على عبد الملك بأن يمده بجيش كبير ليستعيد به إفريقية ، ويحتفظ المسلمون بها نهائيا ، ولكن عبد الملك رأى ألا يغامر من جديد في المغرب حتى ينتهي تماما من القضاء على ثورات الزبير والأزارقة والصفرية ، وكان قد سخر لهذا الغرض كل إمكاناته ، ونجح والياه الحجاج بن يوسف في القضاء أولا على الأزارقة

---

(١) المالكي ، ص ٣٤ — ابن عذارى ، ص ٣٢

(٢) ابن عبد الحكم ، ص ٢٦ — ابن عذارى ، ص ٣٦

(٣) ابن عبد الحكم ، نفس الصفحة

سنة ٧٧ هـ ، ثم تمكن اخيراً ، وبعد معارك طاحنة ، خاضها مع الخوارج من القضاء على الصفرية فى حدود سنة ٧٨ هـ . وبذلك أخذ عبد الملك يتفرغ من جديد لشؤون المغرب . ويذكر المالكى أن حسان اقام ببرقة زهاء ثلاث سنين [١] ، إلى أن وصله الإمدادات التى بعثها إليه عبد الملك ، بينما يذكر ابن عذارى أنه أقام بها خمس سنين [٢] . وأغلب الظن أن عبد الملك أمده فى سنة ٨٠ هـ ، أى بعد مضى خمس سنوات على انسحاب الجيش العربى من إفريقية ، بجيش ضخم للغاية ، عدته أربعون ألف مقاتل [٣] ، لم تشهد إفريقية جيشا يماثله ضخامة وعدداً . وأعتقد أن المؤرخين اختلط عليهم أمر هذه الحملة ، فنسبوا هذا العدد الضخم إلى الحملة الأولى التى قادها حسان ضد الروم ، ولو افترضنا أن حملة حسان الأولى كانت تضم أربعين ألفاً ، لما كان من المعقول أن ينهزم هذا الجيش على أيدى رجال الكاهنة . ولو لم يكن جيش حسان الثانى يمثل هذا القدر العظيم لما تهيأت للكاهنة بزوال ملكها وقتلها بيد حسان مقدما [٤] . ولا شك أن ضخامة هذا الجيش كان نتيجة انضمام البربر إلى العرب فى محاربة الكاهنة ، فإن ابن عذارى يذكر ، أنه كان مع حسان جماعة من البربر استأمنوا إليه ، فلم يقبل أمانهم إلا أن يعطوه من

---

(١) المالكى ، ص ٣٣

(٢) ابن عذارى ، ص ٣٦

(٣) نص الربيع ، ص ٢٤

(٤) ذكر ابن عبد الحكم ، أنه لما أقبل حسان من برقة لغزو الكاهنة ، خرجت ناشرة شعرها ، فقالت : يا بنى أنظروا ماذا ترون فى السماء ؟ قالوا نرى شيئا من سحاب أحمر ، قالت لا ولكن ولكنها رجال قيس العرب ، ( ابن عبد الحكم ، ٢٨ — وقد ذكر المالكى ذلك أيضا ص ٢٤ )

قبائلهم اثني عشر ألفا يجاهدون مع العرب ، فأجابوه وأسلموا على يديه[1]، وذكر المالكي إنه كان مع حسان جماعة من البربر يقال لهم البتر[2] .

ما كادت الكاهنة تعلم بقرب وصول حسان بجيشه إلى إفريقية حتى رحلت من جبل أوراس بعد أن أوصت خالد بن يزيد بأن يصحب ولديها ويستأمن لهما عند حسان ، فأمنها ، أما هي فقررت أن تقاتل حتى الموت . وزحف حسان بكامل قواته لمقاتلة الكاهنة، فلما وصل قريبا من قابس ولقيته الكاهنة في جيوش عظيمة، فقاتلهم حسان ، فهزمهم الله عز وجل ، وهربت الكاهنة تريد قلعة بشر ، تحصن بها ، فأصبحت القلعة لاصقة بالأرض ، فهربت تريد جبل أوراس ، ومعها صنم عظيم من خشب كانت تعبده ، يحمل بين بغلين على جمل، فتبعها حسان حتى قرب من موضعها[3] . وما زال حسان يطاردها حتى التقى بجيشها في سنة ٨٢ هـ عند بئر الكاهنة (٤) . فهزمها هزيمة شنعاء ، وسحق جيشها ، وقتلها ، وبذلك قضى حسان على كل أثر للمقاومة في المغرب الأدنى ، واستقامت له البلاد . فاتجه إلى قرطاجنة للمرة الثانية لتطهيرها من البيزنطيين ، فاضطر هؤلاء إلى الفرار بحرا (٥) ، واستولى حسان للمدينة[6]، ولكنه كان يخشى أن يفاجأه الروم من البحر مرة أخرى،

---

(١) ابن عذارى ، ص ٣٨ ـ المالكي ، ص ٣٦

(٢) المالكي ، ص ٣٥

(٣) المالكي ، ص ٣٥

(٤) عبيد الله بن صالح ، ص ٢٢٢

(٥) ذكر البكري أن أهلها كانت عندهم بقية من ماء باب البناء فملؤوا منها أسوافهم وأولادهم وهربوا ليلا، ولم يبق فيها غير مرتاق ماؤها (البكري ، المغرب ، ص ٢٢ ـ أنظر أيضا المالكي ، ص ٣٧)

(٦) Ch. Diehl, op. cit. p. 307 ـ حسين مؤنس ، ص ٢٦٠

فرأى أن يقيم تجاه قرطاجنة مدينة عربية إسلامية ، تقع على البحر ، وتشرف على مدخل قرطاجنة، فبنى تونس على بعد نحو ١٢ ميلا شرق قرطاجنة ، وكان يصلها بها طريق رومانى قديم . وتونس هذه هى ترشيش القديمة ، ولم تكن تزيد عند بنائها عن قرية صغيرة ، فحولها حسان إلى قاعدة بحرية تقلع منها الأساطيل ، وأنشأ بها داراً لصناعة الأسطول [١] ، وأغرق إليها البحر ، وحفره إليها ، وبذلك أصبحت ميناء بحريا هاما ، وشيد فيها مسجدا جامعا [٢] وداراً للامارة وتكنات للجند للمرابطة. وقدر لهذه المدينة الصغيرة أو العرس البحرى أن تصبح أعظم ثغور إفريقية بعد ذلك بثلاثين عاما ، على يدى عبيد الله بن الحبحاب ، فقد نمت واتسع عمرانها ، وأقبل إليها الناس يستوطنونها ، وأقيم فيها مسجد جامع ، هو الجامع المعروف بالزيتونة ، وقد سمى كذلك نسبة إلى القديسة زيتونة التى عاشت فى زمن الوندال . كذلك أمر حسان بتجديد المسجد الجامع بالقيروان ، فبناه بناء حسنا، وجدده فى شهر رمضان سنة ٨٤ هـ [٣] . وذكر البكرى ، أنه هدم المسجد الذى بناه عقبة « بحائتى الحراب ، وبناه ، وحمل إليه السواريتين الحمراوين الموشاتين بصفرة ، اللتين لم ير الراءون مثلها ، من كنيسة كانت للأول فى الموضع المعروف اليوم بالقيسارية بسوق المغربه » [٤] .

---

(١) البكرى ، ص ٣٨ . أرسل عبد العزيز بن مروان الى حسان ألف قبطى بأهله وولده الى ترشيش وأمره بأن يبنى لهم دار صناعة يصنع فيها المراكب ويجاهد الروم فى البر والبحر ، وأن يشار منها على ساحل الروم فيشغلهم ذلك عن مهاجمة القيروان ( البكرى ، ص ٣٨ )

(٢) البكرى ، ص ٢٧

(٣) نفس المرجع ، ص ٣٧

(٤) البكرى ، ص ٢٢

وبعد أن فرغ حسان من استرداد إفريقية ، والقضاء على مقاومة البربر والروم ، أخذ يوجه عنايته لتنظيم البلاد إداريا على نحو ما فعله العرب فى مصر والشام والعراق وفارس ، فدون الدواوين ، ونظم الخراج ، ووكيله على عجم إفريقية ، وعلى من أقام معهم على دين النصرانية » (١) . ثم بعث عماله على سائر بلاد المغرب ، وعمل على نشر الدين الاسلامى بين البربر ، فوزع الفقهاء إلى سائر أنحاء البلاد لتعليم البربر قواعد الدين ، ونشر اللغة العربية لغة القرآن ، فأقبل البربر على الإسلام فى جامع منقطع النظير ، وحسن إسلامهم (٢) ، فجند حسان منهم أجناده حتى أصبح أكثر جيشه من البربر ، ووزع بينهم الخطط على نحو ما كان يفعله قواد الفتوحات فى مصر على الفاتحين العرب ، وكان حسان يقسم الفيء والأرض بينهم (٣) .

وهكذا نجح حسان بلاد المغرب سحريا ومعنويا فى آن واحد ، واستطاع أن يحول إفريقية قلبا وقالبا إلى ولاية عربية إسلامية ، مستقلة نوعا ما عن والى مصر . ويبدو أن نزاعا حدث بينه وبين عبد العزيز بن مروان ، والى مصر من قبل أخيه عبدالملك بن مروان ، بسبب ذلك . فأخذ عبدالعزيز يضيق عليه ، ويحد من سلطانه ، ويكف يده عن إتمام ماشرع فيه من إصلاحات ، ثم عزله عن ولاية إفريقية فى سنة ٨٥ هـ . ويرجع سبب هذا النزاع إلى رغبة عبدالعزيز فى الاستئثار بغنائم المغرب لنفسه ، وذلك باستعمال أحد أتباعه بدلا من حسان ، وقد حاول حسان أن يتجنب الاحتكاك

---

(١) ابن عذارى ، ص ٣٨

(٢) ابن عذارى ، ص ٣٨ ، السلاوى ، ص ٩١

(٣) البكرى ، ٣٦

بعبد العزيز ، فلما شرع حسان فى تأسيس مدينة تونس ، اتصل بعبد الملك ابن مروان مباشرة يطلب منه أن يزوده بجماعة من الاقباط ليستخدمهم فى تأسيس دار للصناعة ، فكتب عبد الملك إلى أخيه عبد العزيز يأمره أن يوجه إلى معسكر تونس ألف قبطى بأهلهم وولدهم ، وأن يحملهم من مصر ، ويحسن عونهم حتى يصلوا إلى ترشيش ، وهى تونس .

هـ — موسى بن نصير واستكمال فتح المغرب :

عاد حسان إلى مصر يجر وراءه ماغنمه فى فتوحاته وغزواته ، وكان قد أخفى الجوهر والذهب والفضة فى قرب الماء ، وأظهر ما سوى ذلك من أمتعة ودواب ورقيق وأموال ، فصادرها عبد العزيز بن مروان فى مصر. فلما وصل حسان إلى دمشق ، شكا للخليفة ماصنع به عبد العزيز ، وأفرغ له ما كان قد أخفاه عن عبد العزيز من جوهر ، فغضب الخليفة على عبدالعزيز وأبدى استعداداً لرد حسان إلى عمله على إفريقية ، فأبى حسان منه ذلك ، وأقسم قائلا : « لا أولى لبنى أمية أبداً [1] » .

وكان عبد العزيز بن مروان قد ولى موسى بن نصير على إفريقية بدلا من حسان ، وذلك فى أواخر سنة عمره ، وكان موسى بن نصير عاملا لعبد الملك بن مروان على العراق مع بشر بن مروان أخى الخليفة ليكون له وزيراً ومشيراً ، وكان موسى هو المأخوذ بكل خلل وتقصير فى ديوان العراق . ثم أخذ عليه عبد الملك عدة مآخذ ، وكتب إليه الحجاج من

---

(١) ابن عذارى ، ص ٣٩ . لاحظ أن ابن عذارى أخطأ فى اسم الخليفة ، فذكر الوليد بدلا من عبد الملك ، ولكن من المعروف أن عبد الملك توفى فى أول سنة ٨٦ هـ ، أى أن حسان عزل من افريقية قبل وفاة عبد الملك بما يقرب من ستة أشهر

العراق يقول : « يا أمير المؤمنين ، إنه لا قدر لما انتطعه موسى بن نصير من أموال العراق ، وليس بالعراق ما يبعث به إلى » [١] . فوجه موسى إلى بلاط الخليفة بدمشق ، وتصادف وجود عبد العزيز بن مروان ، الذي وفد إلى دمشق ومعه أموال مصر ، وكانت لموسى يد عظيمة عند عبد العزيز بن مروان ، فأدخله على عبد الملك . وذكر بعض المؤرخين أن عبد الملك أراد قتل موسى [٢] فافتداه منه عبد العزيز بن مروان بمال [٣] . وقيل أن عبد الملك أغرم موسى مائة ألف دينار ، فأعانه عبد العزيز بخمسين ألفاً ، أدى هو خمسين ألفاً في ثلاثة أشهر [٤] . وعاد موسى مع الأمير عبد العزيز إلى مصر ، فولاه منها إفريقية [٥] ، وأمده بجيش سار به إلى المغرب . ولما علم عبد الملك بولاية موسى بن نصير على المغرب ، استاء استياءً كبيراً ، وأنكر على عبد العزيز ذلك ، ولم يعزل موسى ، لسوء رأيه فيه ، ثم رأى ألا ينقض ما فعله أخوه عبد العزيز ، فأقره على ولاية إفريقية مرغماً ، وأوصى أخاه بحسان خيراً [٦] .

فلما قدم موسى بن نصير إلى إفريقية ، وشاهد جيالها ، جمع المسلمين ، وخطب فيهم خطبة جاء فيها : « أيها الناس ، إنما كان قبلي على إفريقية

---

(١) ابن عبد الحكم ، فتوح مصر والمغرب ، ص ٢١٤ — ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج ١ ، ص ٣٩ — ابن قتيبة ، المعارف ، ص ٦١٤ .

(٢) ابن عبد الحكم ، ص ٢١٤ — ابن عذارى ، ص ٣٩ — ابن قتيبة ، ص ٦١٤ .

(٣) ابن عبد الحكم ، ص ٢١٤ — ابن عذارى ، ص ٣٩ — ابن قتيبة ، ص ٦١٤ .

(٤) ابن قتيبة ، ص ٦١٤ — ابن عذارى ، ص ٤٠

(٥) ابن عبد الحكم ، ص ٢١٤ — ابن عذارى ، ص ٣٩

(٦) ابن قتيبة ، ص ٦١٤

أحد رجلين : مسالم يحب العافية ، ورضى بالدون من العطية ، ويكره أن يكلم ، ويحب أن يسلم ، أو رجل ضعيف العقيدة ، قليل المعرفة ، راض بالهوينى ، وليس أخو الحرب إلا من اكتحل السهر ، وأحسن النظر ، وخاض الغمر ، وصبت به همته ، ولم يرض بالدون من المغنم لينجو ، ويسلم دون أن يكلم ، أو يكلم ويبلغ النفس مناها فى غير حرق يرده ، ولا عنف يقاسيه ، متوكلا فى حزمه ، جازما فى عزمه ، مستزيدا فى علمه ، مستشيراً لأهل الرأى فى إحكام رأيه ، متحنكا بتجاربه ، ليس بالمتجانن إقحاما ، ولا بالمتخاذل إحجاما ، إن ظفر لم يزده الظفر إلا حـــذراً ، وإن نكب ، أظهر جلادة وصبراً ، راجيا من الله حسن العاقبة ، فذكر بهما المؤمنين ، ورجاهم إياها لقول الله تعالى « إن العاقبة للمتقين » ، أى الحذرين . وبعد : فان كل من كان قبلى كان يعمد إلى العدو الأقصى ، ويترك عدواً منه أدنى ، يغتنم منه الفرصة ، ويدال منه على العورة ، ويكون عونا عليه عند النكبة ، وايم الله لا أريم هذه القلاع ، والجبال المنيعة حتى يفتح الله أرفعها ، ويذل أمنعها ، ويفتحها على المسلمين بعضها أو جمعها ، أو يحكم الله لى وهو خير الحاكمين[1] » .

ومن هذه الخطبة ندرك السياسة الجديدة التى اصطنعها موسى بن نصير فى فتح المغرب ، وهى سياسة تتضمن عزما أكيداً على فتح المغرب بالسيف والعنف مع اصطناع الحذر ، والبدء بالعدو القريب قبل البعيد ، وعلى هذا الأساس نراه يبدأ بفتح قلعة زغوان وما يجاورها فى أواخر سنة ٨٨ هـ ، وهى منطقة جبلية تقع ما بين القيروان وتونس[2] ، وكان يسكن زغوان

---

(١) ابن عذارى ، ص ٦٦

(٢) الإدريسى ، ص ١١٩

قوم من البربر ، يزعمهم أمير يقال له ورفطان ، وكانوا يشكلون خطرا على القيروان ، إذ كانوا يغيرون على سرح المسلمين ويرصدون غرتهم ، فوجه إليهم موسى خميلة فارس بقيادة عبد الملك الحشيني ، فهزمهم وقتل أميرهم وافتتح قلعتهم ، فبلغ سبيهم يومئذ عشرة آلاف رأس ، وكان أول سبي دخل القيروان في ولاية موسى (١) .

ثم بعث ابنه عبد الرحمن . وقيل عبد الله ، إلى بعض نواحي القيروان ، فسبى مائة ألف رأس ؛ ثم وجه ابنه مروان إلى منطقة أخرى من إفريقية ، فسبى مثل ذلك ، فبلغ الخمس يومئذ ستين ألف رأس من السبي ، وبادر بالكتابة من فوره إلى عبد العزيز بن مروان يبشره بأول فتحه ، ويخبره بما وصل إليه الخمس من السبي ، فأعجب عبد العزيز بذلك ، وكتب إلى الخليفة بما ظفر به موسى ، حتى يشير رأيه فيه .

وكانت الخطوة التالية في فتوحات موسى أن بعث قائده عياش بن أخيل إلى قبائل هوارة وزناتة (٢) ، فأغار عليهم ، وقتل منهم جماعات كثيرة ، وبلغ سبيهم خمسة آلاف رأس ، وكان من بين من أسره منهم أميرهم كاموت ، فبعث به موسى إلى عبد العزيز بن مروان في وجوه الأسرى ، فقتله عبد العزيز وقد أرغمهم عياش بن أخيل على الصلح ، وقدم على موسى

---

(١) ابن عذارى ، ص ٦٧ — ابن خلدون ، ص ٤٠

(٢) زناتة قبيلة من بربر البتر كانت عشائرها تنزل في اقليم المغرب الأوسط والاقليم الصحراوي الممتد بجنوب تونس ، وعلى سفوح أوراس والضاب العليا . أما كتامة من البرانس ، فكانت تنزل في سهول الجزائر . وقبيلة مطماطة بطن من البرانس ، كان منها من يسكن في المنطقة المجاورة لطرابلس ، ومنها من ينزل في نواحي وهران .

يوجوههم رهائن عنده ، أما كتامة ، فقد صالحت موسى ، فولى عليها رجلا منهم بعد أن قدموا إليه رهائن من خيارهم (١) . وكان موسى يبث عيونه إلى القبائل ليتجسس عليها ، ويستقصي أحوالها ، ويذكر ابن قتيبة أن عيونه أبلغوه أن صنهاجة وبغرة منهم وغفلة . وأن إبلهم نتيج ولا يستطيعون براحا ، فأغار عليهم موسى بأربعة آلاف من أهل الديوان ، وألفين من المطوعة من قبائل البربر ، وخلف عياشا على أثقال المسلمين وعيالهم بطنجة في ألفي فارس ، وعلى مقدمته موسى عياض بن عقبة ، وعلى ميمنته المغيرة ابن أبي بردة ، وعلى ميسرته زرعة بن أبي مدرك ، فسار موسى حتى غشي صنهاجة ومن كان معها من قبائل البربر وهم لا يشعرون ، فقتلهم قتل الدناء ، فبلغ سبيهم يومئذ مائة ألف رأس ، ومن الإبل والبقر والغنم والخيل والحرث والثياب ما لا يحصى ، ثم انصرف قافلا إلى القيروان »(٢) .

ثم أعاد موسى الكرة مرة ثانية على صنهاجة ، فغزا سجوماة ، من المغرب الأوسط . وتفصيل هذه الغزوة أنه خرج من القيروان ، بعد أن استخلف عليها ولده عبد الله ، على رأس عشرة آلاف من المسلمين ، جعل على المقدمة عياض بن عقبة بن نافع ، وعلى الميمنة زرعة بن أبي مدرك ، وعلى الميسرة المغيرة بن أبي بردة القرشي ، وعلى ساقة الجيش خيدة بن مقسم ، فزحف موسى بكل جيشه غربا حتى وصل إلى نهر ملوية ، وهناك اصطدم مع ملكهم ، فقتله وسبى ذراريهم ، وحمل من مدينة سجوماة بنات كسيلة (٣) . ثم بعث

---

(١) ابن كثير ، ص ٢٠ ـ ابن عذارى ، ص ٤١

(٢) ابن قتيبة ، ص ٢٠

(٣) عبيد الله بن صالح ، ص ٢٢٤

موسى إلى عياض وعثمان وعبيدة بن عقبة ، وأذن لهم بالتشتت من قتلة أبيهم عقبة ، فقتل منهم عياض ستالة رجل من خيارهم ، وكان يود قتل المزيد لولا أن أمره موسى بالوقف عن ذلك [١] . ثم عاد إلى القيروان ، بعد أن دانت له بلاد المغرب الأوسط .

ثم غزا موسى في البحر في آخر سنة ٨٥ هـ ، الغزوة المعروفة بالأشراف ، وحمل فيها إلى صقلية ، وعاد بغنائم كثيرة [٢] في أوائل سنة ٨٦ هـ ، قبل وفاة عبد العزيز بن مروان في جمادى الآخرة سنة ٨٦ هـ ، ووفاة عبد الملك ابن مروان في أول سنة ٨٦ هـ ، فبعث موسى بيعته إلى الوليد ، فكتب الوليد إلى موسى بن نصير يقر له بولاية إفريقية والمغرب .

وفي سنة ٨٦ هـ ، عقد موسى لعياض بن أخيل على المراكب ، فشتا في البحر ، وأصاب سرقوسة ، كما أصاب عبد الله بن مرة سردانية ، وافتتح مدائنها في نفس السنة [٣] . وكان المغرب قد فتح معظمه ، ولم يبق منه سوى المغرب الأقصى ، فخرج موسى غازيا من إفريقية إلى طنجة ، فوجد البربر قد فروا إلى أقصى المغرب خوفا من بطش العرب بهم ، فبعثهم موسى على جيش مؤلف من وجوه العرب ومن اتصف من البربر بالقوة والجلد ، فقتل منهم بإقليم مورطانية عددا كبيرا ، وسبى منهم سبيا كثيرا [٤] . وما زال يفتح قلاع البربر ومعاقلهم حتى بلغ السوس الأدنى ، وهو بلاد درعة [٥] ، وأرسل

---

(١) ابن عذارى ، ص ٤٢

(٢) نفس المرجع ص ٧٥

(٣) نفس المرجع — ابن عذارى ، ص ٤٢

(٤) ابن عذارى ، ص ٤٢

(٥) نفس المرجع

ابنه مروان إلى السوس الأقصى فى سنه ٨٧هـ. وكان ملك البربر فى ذلك الحين رجلا يعرف باسم مزدانة الأسوارى، فاشتبك جيش مروان مع جيش البربر فى قتال عنيف أسفر عن هزيمة أهل السوس هزيمة نكراء، وبلغ سبيهم فى هذه الغزوة أربعين ألفا (١).

وأحدثت غزوات موسى هزة كبرى بين قبائل البربر، وسببت لهم الذعر والفزع، فأخذوا يستأمنون العرب على أنفسهم، ويسلمون لهم، ويتسابقون فى إعلان خضوعهم لهم، والدخول فى طاعتهم، واعتناق الإسلام. وأقام موسى طارق بن زياد على طنجة وما والاها، وترك معه ١٢ رجلا من العرب يعلمون البربر القرآن وشرائع الدين الإسلامى، فتم إسلام أهل المغرب الأقصى على يد هؤلاء (٢). وأقام موسى أبا المهاجر عبدالرحمن بن رافع التنوخى التابعى قاضيا على القيروان، فكان أول من استقضى بها من المسلمين (٣).

وهكذا نجح موسى بن نصير فى إخضاع بلاد المغرب كلها للإسلام، ولم تستعص عليه سوى مدينة سبتة لمناعتها، ووصول الإمدادات إليها من البحر، وكان يحكمها من قبل القوط يليان النصرانى.

ونلاحظ أن موسى بن نصير كان يهتم فى حروبه بما كان يجنيه من مغانم وسبايا، ولم يكن يغفل بعد ذلك عما كانت تثيره هذه الغزوات فى

---

(١) ابن عذارى، ص ٧٦.

(٢) عبد الله بن صالح، ص ٢٢٤.

(٣) المالكى، ص ٢٢.

نفوس الوطنيين من سوء الظن ، وتأصل الحقد ، بل إن هذه السياسة التي اتبعها موسى نحو البربر أدت إلى غرس عوامل الحقد والكراهية للعرب في نفوسهم ، حتى لقد أصبح من العسير انتزاع هذا الشعور من نفوسهم . وإذا كان البربر قد قبلوا ذلك صاغرين ، فلأنهم أرغموا على ذلك بقوة السلاح ، ولكن شعورهم أدى مع مرور الزمن إلى إقامة حواجز فاصلة بين العرب والبربر ، وإلى انحراف كثير من السكان إلى تقبل مذاهب ثورية انفصالية من خارجية وصفرية وشيعية [1] . وقد يكون سبب إسراف موسى في غزوه لقبائل البربر ، واصطناعه العنف معهم ، رغبته في إرضاء الخليفة عبد الملك ابن مروان عنه بعد أن أساء به الظن ، فأخذ يقاتل البربر ويفتح مدائنهم وبلادهم ، ويذرع البلاد من شرقها إلى غربها ، ويبعث بغنائمه إلى عبد العزيز ابن مروان والخليفة عبد الملك ، حتى زال ما كان يحمله الخليفة عليه في نفسه من ضغائن وأحقاد [2] .

---

(١) حسين مؤنس ، فجر الأندلس ، ص ٤٢ وما يليها — السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ المسلمين ص ٤٦ .

(٢) ابن عبد الحكم ، ص ٨٦ .

# الباب الثانى

## المغرب الاسلامى فى عصر الدولتين الأموية والعباسية

# الفصل الثالث

## المغرب فى ظل الدولة الأموية

(١) فتح المسلمين للأندلس

ا ـ مقدمات الفتح

ب ـ الدور الذى قام به بربر المغرب فى فتح الأندلس

ج ـ عودة موسى بن نصير إلى المشرق

(٢) ولاة المغرب بعد موسى بن نصير

ا ـ جهود محمد بن يزيد القرشى (٩٧ـ١٠٠هـ) و اسماعيل بن عبيد الله (٩٠ـ١٠١هـ) فى نشر الاسلام

ب ـ سياسة الاستبداد مع البربر و نتائجها

ج ـ مقدمات ثورة البربر على العرب فى المغرب

د ـ ثورة البربر فى المغرب (موقعة بقدورة على وادى سبو سنة ١٢٤هـ)

هـ ـ ثورة البربر فى الأندلس و قيام النزاع بين البلدين والشاميين

(٣) المغرب فى السنوات الخمس الأخيرة من عصر الدولة الأموية

ا ـ فشل حنظلة بن صفوان فى مواجهة الفتن فى المغرب وخروجه إلى المشرق .

ب ـ ثورات البربر فى المغرب فى ولاية عبد الرحمن بن حبيب الفهرى

# الفصل الثالث

# المغرب فى ظل الدولة الأموية

## ( ١ )

## فتح المسلمين للأندلس

### ١ ـ مقدمات الفتح :

قلد الخليفة الأموى الوليد بن عبد الملك موسى بن نصير ولاية إفريقية والمغرب سنة ٨٩ هـ بعد وفاة عبد العزيز بن مروان ، وأصبح المغرب فى هذا الوقت ولاية مستقلة عن مصر [١] . ونجح موسى بن نصير فى اكتساح المغرب كله ، ولم تستعص عليه سوى مدينة سبتة لمناعتها ، وشدة تحصنها ، واختلاف سفن القوط إليها بالميرة والإمدادات عن طريق البحر ، فلم يتمكن من التغلب عليها . وكان يحكمها من قبل القوط الغربيين [٢] حاكم اسمه جوليان ، ويسميه العرب بليان النصرانى أو وليان أو إليان [٣] .

---

(١) ابن عذارى ، البيان ، ج ١ طبعة بيروت ص ٣٥

(٢) ذكر صاحب أخبار مجموعة أن موسى بن نصير سار إلى مدينة تقع على شاطىء البحر ، فيها عامل صاحب الأندلس وعلى رأسها سبتة ( أخبار مجموعة فى فتح الأندلس ، نشره دون لاثورنتى التطرد Lafuente Alcantra ، مدريد ١٨٦٧ ، ص ٤ )

(٣) البكرى ، كتاب المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب ، الجزائر ١٩١١ ص ١٠٤ E. Saavedra, Estudio Sobre la invasion de los Arabes en Espana, Madrid, 1892, p. 48 - Lévi - Provençal, Histoire de l'Espagne Musulmane, Leiden, 1950, t. I, p. 15.

وقد اختلفت المصادر العربية فى شخصية بليان ، فبعضها يذكر أنه قوطى[١] وبعضها يزعم أنه روى[٢] ، وبعضها ينسبه إلى بربر غمارة[٣] . وأغلب الظن أن بليان كان حاكما عاما من قبل الدولة البيزنطية على ولاية موريطانية الطنجية ، وكانت تابعة لموريطانية القيصرية ، إحدى الولايات السبع الخاضعة للدولة البيزنطية ، بدليل أنه كان يحكم سبتة وطنجة عندما قام عقبة بحملته الكبرى إلى السوس الأدنى ، فلما عجزت الدولة البيزنطية عن حمايتها ، وافت سبتة وجهها شطر إسبانيا القوطية[٤] . والظاهر أن بليان المذكور تولى شئون هذا الإقليم فى سن مبكرة ، وأنه أقام طويلا بأرض المغرب حتى توثقت علاقته بمن جاوره من قبائل البربر ، واستطاع أن يكتسب صداقة البربر له ، حتى أصبح ملما بشئونهم ، وأصبح بعد نفسه واحداً منهم ، لذلك اختلط الأمر على الناس فظنوه بربريا ، ومن هنا كان مرجع الرواية التى تنسبه إلى غمارة . أما علاقته بالدولة القوطية ، فرجحه أنه كان يتوجه بطلب المعونة إلى هذه الدولة ، لبعد مدينته عن بيزنطه ، واضطراب أحوال الدولة البيزنطية فى هذه الفترة .

وحدث إبان الفتح العربى للمغرب ، فى ولاية عقبة أن اغتصب لذريق

---

(١) ابن عذارى ، البيان ، ج ٢ ، طبعة بيروت ، ص ٢ ، ٥

(٢) ابن خلدون ، كتاب العبر ، طبعة بيروت ( دار الكتاب اللبنانى ) ١٩٥٨ ، ج ٤ ، ص ٢٤٣

(٣) السلاوى ، الاستقصا ، ج ١ ص ٩٧

(٤) ابن عبد المنعم الحميرى ، صفة جزيرة الأندلس ، نشره ليفى بروفنسال ، القاهرة ١٩٣٧ ص ٧

Rodrigo ، ودق باطقة وحاكمها بقرطبة [1] ، عرش القوط باسبانيا من أبناء غيطشة Witiza ، وآثار ذلك نقمة أنصار غيطشة وأبنائه عليه ، فهبوا ضد هذا التغصب المتسور الذى انتزع الملك من البيت الشرعى لنفسه ، وبدأت حركة استقلالية فى أطراف البلاد ، ظلت مستمرة حتى دخـــول المسلمين أرض الأندلس ، واشتعلت نيران الثورات فى طليطلة وغيرها ، وتعذر على وقلة Achila أن يتوجه إلى العاصمة بعد وفاة أبيه غيطشه ، واضطرت أمه التى أرادت أن تضبط ملك أبيه ، إلى القرار هى وأخواه أرطباس Artavasdes والمند Olmundo ، وعمه أبه Oppa أسقف إشبيلية ، والتجأ الجميع إلى جليقيه [2] . وحاول وقلة أن يسترد عرشه ، فأعد جيشا بقيادة عمه ووصيه رخشندش Rachsindo ، فأسرع لذريق بالسير على رأس جيش كثيف واشتبك مع جيش رخشندش وهزمه فى موقعة كبرى قتل فيها الوصى ، وتفرق أتباعه [3]

ويغلب على الظن أن وقلة فر إلى إفريقية بعد ذلك ، وأقام عند يليان حاكم سبتة [4] ، وكان ما يزال على ولائه للملك غيطشه وأبنائه . أما لذريق فقد استبقى ولدى غيطشة الآخرين : وهما أرطباس والمند ، إلى جواره ، حتى يستوثق من إخلاصهما له ، ويقضى بذلك على الثورات الموالية لبيت غيطشة . وأمعن لذريق فى مطاردة أنصار وقلة بالأذى ، ففروا من إسبانيا ، والتمسوا

---

(١) Dozy, Histoire des Musulmans d'Espagne, ed. Lévi - Provençal, Leyde, 1932, p. 70.

(٢) Lévi - Provençal, op. cit. t. I, p. 7

(٣) البيان ، ج ٢ ص ٣ — Agundo Bleye, Manual de la historia de España, t. I, Madrid, 1947, p. 355

(٤) ابن عذارى ، ج ٢ ص ٩ — Saavedra, op. cit. p. 54

سبل النجاة إلى أقصى الشمال ، أو إلى سبتة ، ولاذوا بحماية يليان الذى كان حاميا للثغر . وبمساعدة يليان ، نجح هؤلاء اللاجئون فى الاتصال بالعرب ، وحثوهم على فتح الأندلس[1] ، أملا فى استرداد العرش لأميرهم وقتئذ ، اعتقادا منهم أن العرب الطارقين للأندلس لمساعدتهم ، لن يكونوا فى حاجة إلى استبقائه بعد افتتاحهم له ، وأن مرادهم لا يعدو ملأ أيديهم من الغنائم ، ثم يخرجوا عنها لأصحابها[2] . ويعتقد سافدرا أن يليان كان يمت بصلة القرابة والنسب إلى أسرة غيطشة[3] ، وكان من الطبيعى لذلك السبب أن ينضم إلى صفوف الخارجين على القوط ، ويفتح لهم أبواب مدينته ، ويعمل على مساعدتهم لاسترداد ملكهم المسلوب ، مستعينا فى ذلك بالعرب . ولكن يليان ، فيما يظهر ، لم يشأ أن يعلن عداءه للقوط مرة واحدة ، حتى لا ينقلب عليه ، فظاهر بولائه له حتى لا تنقطع إمدادات القوط عنه ، وكان يضمر فى قرارة نفسه الكيد له . ولكن حادثا وقع فى ذلك الوقت كان سببا فى انضمامه صراحة إلى جانب الثوار ، وإقدامه على طلب العون من العرب ، وتحريضهم على فتح الأندلس . فقد زعموا أنه كانت له ابنة على حظ كبير من الجمال تسمى فلورندا ، وكان قد بعثها منذ أيام غيطشة — شأنها فى ذلك شأن غيرها من بنات الأمراء والنبلاء — إلى بلاط الملك بطليطلة للتأدب بآداب

---

(١) أنظر تعليق على هذه القضية فى كتابى « تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس » ، ص ٦٦ ، ملحوظة ١

(٢) أخبار مجموعة ، ص ٧ — المقرى « نفح الطيب » طبعة محى الدين عبد الحميد ، ج ١ ، ص ٢٤٩

(٣) Saavedra, op. cit. p. 58

الملوك [1] ، فوقعت موقعا حسنا فى عين الملك ، ويقال أنه استكرهها على نفسها ، فاحتالت للقاء على إبلاغ أبيها سراً بما أصابها على يدى لذريق ، فتضاعف حقده عليه ، وعـــزم على الانتقام ، ورأى ألا عقوبة له إلا إذا أدخل عليه العـــرب ، فبعث إلى طارق بن زياد الذى ولاه موسى أميراً على طنجة قائلا : « إنى مدخلك الأندلس » [2] . وقد تكون هـــذه الرواية

---

(١) ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ، طبعة مصر ١٣٠٣ هـ ، ج ٤ ، ص ١٢٦

(٢) ابن عبد الحكم ، فتوح افريقية والأندلس ، ص ٩٠ . وذكر صاحب أخبار مجموعة أنه قال : « ودين المسيح لأزيلن ملكك ، ولأخرجن تحت يديه » ( راجع أخبار مجموعة ص ٤ ـ المقرى ، ج ١ ص ٣٣٦ ) . وأضاف المقرى نقلا عن كتاب الشـــزانى : أنه ركب بحر الزقاق من سبتة فى أصعب الأوقات فى مرتبر (دسمبر) قلب الشتاء ، فصار بالأندلس ، وأقبل الى الملك فى قصره بطليطلة ، فأنكر عليه قدومه فى مثل هذا الوقت ، وسأله عن سبب ذلك ، فاعتل بمرض زوجته وشدة شوقها الى رؤية ابنتها فطرقنا ، وتلهفها على لقائها قبـــل أن تموت ، فاستجاب لذريق الى رغبة يليان ، وردّ اليه ابنته بعـــد أن توثق منها بالكتمان عليه ، وأنزل العطاء على يليان ، وقيل أنه لا وعده ، قال له لذريق : « اذا قدمت علينا ، فاشتر لنـــا من الشذا كان التى لم تزل تطرقنا بها ، فانها آثر جوارحنا لدينا » . فقال له : « أيها الملك ، وحق المسيح ، لئن بقيت لأدخلن عليك شذاخـــان ما دخل عليك مثلها قط » ( المقرى ج ١ ص ٣٣٦ ) ، وكان يؤتى بذلك الى عزمه على ادخال العرب فى الأندلس .

ونلاحظ أن اسم فورتنا المذكور لم يرد فى الدوائر العربية أو المسيحية ، ولكن عليـــه حكاية la cava فى مدونة بدرو دل كورال Pedro del Corral المسماة بمدونة الملك رودريجو « Cronica del Rey don Rodrigo » ، وترجع الى منتصف القرن الخامس عشر ، وفيها يلقب المؤرخ اسم la Cava الى ابنـــة يليان ، وكان ميجل دى لونا Miguel de luna أول من ناقش الرجمة العربية لهذه الحكاية فى سنة ١٦٠٠ فى كتابه الطويل Historia verdadera del rey don Rodrigo ، وذكر فيه أن =

صحيحة ، ولكننا لانرجح صحتها ، وأغلب الظن أنها من ابتكار القصاص والأخباريين ، بدليل أن كلمة «ضد» التي بنسبونها إلى ابنة يليان تتضمن في الاسبانية معان أخرى غير المعنى الذي زعم مؤرخو إسبانيا أنه ترجمة للكلمة العربية « قحبة » ، وحتى إذا افترضنا صحة هذه التسمية ، وانطباقها على الكلمة العربية المذكورة ، فانها مع ذلك لاتصدق على ابنة يليان التي كانت ضحية للفريق .

وأيا ماكانت أسباب موجدة يليان على لذريق ، فانه مما لاشك فيه أن يليان هو الذي سعى عند العرب لفتح الأندلس ، وأنه ذلل للمسلمين جميع الصعوبات ، وهو الذي ضمن للعرب اجتياز أنهار وقلة إليهم ، وهو ماحدث بالفعل عند افتتاح الأندلس ، فقدم لآل غيطشة للعرب ، ودبروا الغدر بلذريق ، وأجمعوا على خذلانه في المعركة الحاسمة ، ويدل على ذلك أن المسلمين كافأوهم برد جزء كبير من ضياع غيطشة إليهم (١) .

---

= هذه الفتاة تلورندا ، وأطلق عليها العرب اسم «القحبانة» ، وحتى المرأة الفاجرة ، ومن ثم ورد اسم فلورندا في عدد كبير من الروايات الاسبانية المتأخرة ، كما ورد في أشعار الرومانسيرو ، وجاء في بعض هذه الأشعار أن لذريق شاهد فلورندا تستحم يوما في واد تأتيه بطليطلة ، فأطلق على هذا الحمام منذ ذلك الحين اسم Baño de la Cava ، ويبدو أن المؤرخين الاسبان كانوا يحملون في هذه القصة على ابنة يليان لاعتقادهم الراسخ في أنها السبب في دخول العرب بلاد الأندلس ، ارجع الى المصادر الآتية :

Lévi - Provençal, Histoire, t. I, p. 8 - Aguado Bleya, op cit. p. 357 - Saavedra, op. cit. p. 80 وقد وردت قصة ابنة يليان في المصادر العربية الآتية : ابن القوطية ، ص ٨ — أخبار مجموعة ، ص ٦ — الحميري ، صفة جزيرة الأندلس ، ص ٧

(١) ابن القوطية ، ص ٨

وتجمع المصادر العربية للفتح على أن يليان توجه بنفسه إلى طنجة لمقابلة طارق بن زياد ، وعرض عليه أن يساعده فى إدخاله الأندلس ، ولم يتردد طارق فى الاتصال فورا بموسى بن نصير ، وكان مقيما فى القيروان ، فأبلغه ماكان من أمر يليان ، فرحب موسى بما عرضه عليه يليان (١) ، فقد كان يطمع فى المزيد من الفتح والجهاد . وعلى الرغم من تلهفه على انتهاز هذه الفرصة ، ودخول الأندلس بمساعدة يليان وأنصاره فيطشة ، فانه لم يشأ أن يقحم المسلمين فى مغامرة لايعلم نتائجها إلا الله ، فلم يكن قد وثق بعد بيليان ، ثم إنه كان يعمل على كسب رضاء الخليفة الوليد بن عبد الملك عليه ، وكانت فتوحات موسى فى المغرب قد رفعت منزلته عند عبد الملك ، ثم الوليد ، فرأى موسى ضرورة إطلاع الخليفة على ماهو مقبل عليه ، فكتب من فوره إلى الخليفة بفتوحاته فى المغرب ، وضمن رسالته ماذكره يليان من تذليل الأمور وتهوينها على المسلمين ، ولكن الوليد تردد فى الأمر ، وخاف على المسلمين مغبة مخاطرة كهذه فى أراض مجهولة ، يفصل بينها وبين بلاد المسلمين بحر الزقاق ، فكتب إلى موسى يأمره بأن يخوضها بالسرايا حتى يختبرها ، ويأمره بألا يغرر بالمسلمين فى بحر شديد الأهوال (٢) . وعمل موسى برأى الخليفة ، واختار أحد كبار قواده اسمه طريف بن مالك المعافرى ، وقيل النخعى (٣) ، ويكنى أبا زرعة ، ويبدو أن طريف هذا كان عربى الأصل (٤) ، وأنه

---

(١) ابن عبد الحكم ، ص ٢٠٠ — ابن القوطية ، ص ٨ — أخبار مجموعة ، ص ٦ — ابن عذارى ، ج ٢ ، ص ٦ — الحميرى ، ص ٨ — المقرى ، ج ١ ، ص ٦ ، ٢٧٤ ، ٢٧٦

(٢) أخبار مجموعة ، ص ٦ . ابن الأثير ، ج ٤ ، ١٢٢ — الحميرى ، ص ٨ — المقرى ، ج ١ ص ٢٧٦

(٣) ابن خلدون ، العبر (طبعة بيروت) ج ٤ ، ص ٢٤١

(٤) يعد مؤرخو العرب طريف بن مالك هذا بربريا ، فالحميرى يقول ( ص ٨ ) عند

كان قائدا بارعا في فنون الحرب والقتال ، فجعله موسى على رأس سرية مؤلفة من خمسمائة مقاتل ، منهم أربعمائة من المشـــاة ومائة من الفرسان ، وأمدهم بإيان سفنه الأربعة لعبور الزقاق ، ونزل طريف بفرقتـه في جزيرة تعرف باسم لاس بالومس Isla de las Palomas [1] ، تقع على مقربة من مدينة طريف الحالية التي سميت باسمه لنزوله فيهـــا ، وذلك في رمضان سنة ٩١ هـ ( يوليو سنة ٧٩٠ م ) . ومن هـذا الموضع شن طريف وجاله سلسلة من الغارات على الساحل الجنوبي للأندلس ، المقابل لساحل سبتة، فيما بين طريف والجزيرة الخضراء . وعاد طريف بفرقته سالما ، يجر وراءه غنائم كثيرة ، فأنس موسى إلى بإيان ، ووثق فيه ، واطمأنت إليه نفسه ، واشتد عزمه على فتح الأندلس ، وتلهف شوقا إلى السير في هـذه المغامرة . ثم إنه استدعى مولاه طارقا ، وأمره على سبعة آلاف رجل جلهم بربر [2] .

**ب ـ الدور الذي قام به البربر للغرب في فتح الأندلس :**

اختار موسى بن نصير على الحملة التي أعدها لفتح الأندلس قائدا من

---

= بعث موسى هذا ذلك رجلا من مواليه من البربر اسمه طريف بن مالوك المغاوي ، ويكنى أبا زرعة » . كذلك ذكر المقري نقلا عن الحجاري ( ج ١ ص ٢١٤ ) ونقلا عن الكتاب الخزانى ( ج ١ ص ٢٣٧ ) . ولا شك في أن طريفا كان عربيا ، فهو ينتسب الى معافر أو فتح اليمنيين ، ثم اننا نستبعد أن يبعث موسى الطليعة الكشفية الأولى تحت قيادة بربري

(١) Santoden, op. cit. p. 64

(٢) أخبار مجموعة ، ص ٦ ـ ابن الأثير ج ٤ ص ١٢٢ ـ ابن خلدون ج ٤ ص ٢٢٤ ـ المقري ، ج ١ ص ٢١٦ ، ٢٢٨

قواده المشهورين بحسن القيادة والبلاء ، هو مولاه طارق بن زياد . وقد اختلف مؤرخو العرب فى أصله ، فيذهب بعضهم إلى أنه كان فارسيا همذانيا [١] ، وذهب فريق آخر إلى أنه كان بربريا من نفزة [٢] ، وذهب فريق ثالث إلى أنه كان عربيا من صدف [٣] . وأغلب الظن أنه كان بربريا من سبى البربر الذين ظفر بهم موسى بن نصير وقواده ، فأصبح مولى لموسى [٤] . وكان طارق طويل القامة ، ضخم الهامة ، أشقر اللون [٥] ، وهى صفات تتوفر فى البربر ، ثم إنه كان من الشغف أن يتولى قائد من أهل البلاد قيادة جيش كله من البربر ، حتى يستميل موسى إليه قلوب الجند فلا يثوروا عليه ، كما حدث فى عهد عقبة وفى أيام حسان . ويبدو أن موسى كان يثق بطارق كل الثقة ، بدليل أنه آثره فى قيادة هذه الحملة الكبرى على أعظم قواده العرب أمثال طريف بن مالك ، وعياش بن أخيل ، وزرعة بن أبى مدرك ، والمغيرة بن أبى بردة العذرى . وكان موسى قد ولاه على طنجة ، وهو منصب خطير لا يعطى إلا لذوى الثقة والكفاية . ومن الغريب أن يكون الجيش الذى أعده موسى للحملة مكونا كله من البربر ، باستثناء ثلاثمائة من العرب ، وهذه هى المرة الأولى فى تاريخ الفتوح العربية يتولى فيها جيش بأكمله من المغلوبين فتح قطر من الأقطار الكبرى كالأندلس .

---

(١) أخبار مجموعة ، ص ٦ ـ المقرى ، ج ١ ص ٣٣٨

(٢) ابن عذارى ، ج ١ ص ٧ ـ الحميرى ، ص ٨ ـ المقرى ، ج ١ ص ٣٣٨

(٣) أخبار مجموعة ، ص ٢٦ ـ الحميرى ، ص ٩ ـ المقرى ، ج ١ ص ٣٣٨

(٤) ابن عذارى ، ج ١ ص ٣٧

(٥) نص عبد الملك بن حبيب ، نشره الدكتور محمود على مكى ، مجلة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد ، سنة ١٩٥٧ ص ٢٢١

ويدل هذا دلالة واضحة على أن بربر المغرب قد أسلموا ، وحسن إسلامهم ، وأصبحوا على هذا النحو يؤلفون القوة الكبرى التي اعتمد عليها موسى في فتح الأندلس . وكان معظم أجناد هـــذه الحملة الأندلسية من رعاتن المصامدة [١] . ويمكننا تفسير اعتماد موسى على البربر في هذه الحملة بأن البربر كانوا أكثر إلماما من العرب ببلاد الأندلس ، فالمغرب والأندلس يؤلفان وحدة جغرافية وتاريخية ، وقد عبر هانيبال المجاز إلى إسبانيا مع جيوشه البربرية . ونضيف إلى هذا التفسير تفسيراً آخر هو أن موسى ربما خاف على جيشه العربي من هذه المغامرة ، فآثر أن يجعل الطليعة الأولى من البربر ، فلما استوثق من نجاح الفتح بعد انتصار طارق في وادي لكة ، واقتحامه البلاد حتى طليطلة ، عبر المجاز بدوره على رأس جيش كثيف جله هذه المرة من العرب. ولسنا نعرف الكثير عن نشأة طارق بن زياد بطل الفتح ، وكل ما نعرفه عنه قبل أن يوليه موسى القيادة على الحملة إلى الأندلس ، أنه اشترك في مقاتلة البربر في ولاية زهير بن قيس على إفريقية ، فلما قتل زهير في برقة ، نصب طارق أميرا على برقة ، غير أنه لم يلبث طويلا في هـــذا المنصب ، إذ اختاره موسى قائدا في جيشه ، فأبلى بلاء حسنا في حروبه التي خاضها مع موسى ، وظهرت لدى موسى مطاوعته الحربية ومهارته في قيادة الجيوش ، فولاه على مقدمة جيوشه في المغرب . ويذكر عبيد الله بن صالح أن موسى جمع رهائن كتامة وزناته وهوارة مع رهائن حمدان وعدتهم اثنى عشر ألف فارس [٢] ، وولى عليهم

---

(١) نص عبيد الله بن صالح ، نشره ليفي بروفنسال ، بعنوان : نص جديد عن فتح العرب للمغرب ، ترجمة الدكتور حسين مؤنس ، في صحيفة المعهد المصري للدراسات الإسلامية في مدريد ، المجلد الثاني ١٩٥٤ ، ص ٢٢٤

(٢) نفس المرجع ص ٢٢٣

طارق بن زياد ، ورجع إلى إفريقية ، وترك معهم سبعة عشر رجلا من العرب يعلمون لهم القرآن وشرائع الإسلام »[1] . ويعتبر اختيار موسى لطارق على قيادة جيوشه مأثرة من مآثره الحميدة ، إذ أثبت بذلك درايته بالعناصر الصالحة فى البربر واستخدامه لهم فى قيادة جيشه . وهكذا أتيح لطارق بن زياد أن يتولى قيادة جيوش موسى ، ويشترك معه فى فتح بقية بلاد المغرب والسيطرة على حصون المغرب الأقصى حتى المحيط الأطلسى[2] .

كان جيش طارق يتألف كما ذكرنا من سبعة آلاف مقاتل من البربر باستثناء ثلثمائة من العرب ، على رأسهم رجال سيكون لهم شأن كبير فيما بعد ، نخص بالذكر منهم عبد الملك بن أبي عامر المعافرى ، ومغيث الرومى مولى الوليد بن عبد الملك ، وعلقمة اللخمى . وأبحرت حملة طارق من ميناء طنجة فى ٥ رجب سنة ٩٢ هـ ( إبريل سنة ٧١١ م ) ، فى السفن الأربعة التى كانت ملكا ليليان ، ووضعها فى خدمة العرب[3] . ولا شك أن موسى استعان ببعض قطع من أسطوله الإسلامى الذى أنتجته دار الصناعة بتونس فى جواز رجاله ، واختلفت السفن بالرجال والخيل بين شاطئى الزقاق تنقل للعسكر إلى وجيل على شط البحر منيع »[4] ، كان يعرف باسم جبل كالبى Calpe[5] ،

---

(١) ابن عبد الله بن صالح ، ص ٢١٤

(٢) السيد عبد العزيز سالم ، طارق بن زياد ، دائرة معارف الشعب ، عدد ٦٢ ص ٢٢٧

(٣) أخبار مجموعة ، ص ٦

(٤) نفس المرجع ص ٧

(٥) Lévi - Provençal, Histoire, t. I, p. 18

وعرف منذ ذلك الحين باسم جبل طارق أو جبل الفتح . وكان نزول الحملة الإسلامية في ذلك الوقت مناسبا للغاية ، إذ كان الفريق مشغولا إذ ذاك بإخماد ثورة قام بها البشكنس في بنبلونه [١] ، كما اتفق نزول جيش طارق في الوقت الذي كان كثير من سكان الأندلس ساخطين على حكم الفريق الجائر ، فوقفوا موقفا سلبيا من الغزو الإسلامي . وما كادت تتوافى حشود المسلمين بعد أن تم نزولها بأدنى الجبل حتى بادر طارق بإنشاء قاعدة لجيشه ، ومرسى يتصل بينه وبين سبتة ، وأقام طارق حول الجبل المسمى باسمه سورا سمي بسور العرب [٢] .

ثم بعث طارق عبد الملك بن أبي عامر في فرقة سارت بمحاذاة الساحل شمالا ، فاستولت على قرية حصينة تعرف بقرطاجنة الجزيرة [٣] «Iurteya» ، وتقع جنوبي خليج جبل طارق عند مصب نهر يسمى بوادي البحر [٤] ، ثم زحف طارق غربا ، واستولى على المنطقة المحيطة بقرطاجنة ، وأقام قاعدة لقواته في موضع يقابل الجزيرة الخضراء ، أقيمت عليه هذه المدينة فيما بعد [٥] . وقد عهد طارق إلى يليان ومن معه من الجند بمهمة حراسة

---

(١) أخبار مجموعة ، ص ٢ — المقري ، ج ١ ص ٣٣٩

(٢) ابن عذاري ، ج ٢ ص ١٣ — المقري ، ج ١ ص ٢١٨

(٣) ابن القوطية ، ص ٩ — ابن عذاري ، ج ٢ ص ١٣

وذكر سامرا أن هذا الموضع هو المعروف اليوم باسم برج قرطاجنة Torre Cartagena أو برج الرؤساء Roquillo (Saavedra, op. cit, p. 66)

(٤) الحميري ، ص ١١٥ — Lévi - provençal, Histoire, t. I, p. 18

(٥) السيد عبد العزيز سالم ، طارق بن زياد ، ص ٢٢٦ — تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ، ص ٢٣ .

هذه القاعدة ، والدفاع عنها فى حالة قيام القوط بأى هجوم .

ووقع على الطريق خبر نزول المسلمين على الساحل الجنوبى للأندلس ووقوع المصاقعة ، فانزعج لذلك ، وكر راجعا إلى عاصمته طليطلة ، ومنها زحف فى جموع كثيفة تقدر بنحو مائة ألف مقاتل [١] ، وقيل سبعين ألفا [٢] ، وقيل أربعين ألفا [٣] . فلما علم طارق بذلك كتب إلى موسى يستمده ، ويخبره أنه فتح الجزيرة الخضراء ، وملك الجواز إلى الأندلس ، واستولى على بعض أعمالها حتى البحيرة ، وأن لذريق زحف إليه بما لاقبل له به ، فأرسل إليه موسى مدداً من خمسة آلاف من المسلمين ، كملت بهم عدة من معه إثنى عشر ألفا [٤] ، أقوياء على الغنائم ، حراصا على اللقاء ، ومعهم يليان ورجاله ، يدلون المسلمين على العورات ، ويجسسون الأخبار .

ثم أقبلت جيوش لذريق حتى عسكرت غربى طريف ، بالقرب من بحيرة خندة Janda ، على طرف نهر برباط الذى يخترق البحيرة ويصب فى البحر ، ويسميه العرب وادى لكة ، تحريفا للكلمة الاسبانية Lago أى البحيرة . والتقى الجيشان فى يوم الأحد ٢٨ من رمضان سنة ٩٢ هـ ( ١٩ يوليو سنة ٧١١ ) أى بعد ٨٣ يوما من نزول المسلمين جبل الفتح [٥] ، فى موضع على

---

(١) أخبار مجموعة ، ص ٧ — المقرى ، جـ ١ ص ٢١٦ ، ٢٤١

(٢) نص ابن حبيب ، ص ٢٢٢ — المقرى ، جـ ١ ، ص ٢٢٠

(٣) ابن خلدون ، جـ ٤ ص ٢٣٤ — المقرى ، جـ ١ ص ٢١٦

(٤) أخبار مجموعة ، ص ٧ — المقرى ، جـ ١ ص ٢٤١

(٥) المقرى ، جـ ١ ، ص ٢٣٣

وادى برباط أو لكة ، قرب مدينة شذونة . واستمرت المعـــركة عدة أيام وانتهت بهزيمة لذريق هزيمة ساحقة، بعد أن خذله ابنا غيطشة، ونكص عدد كبير من قواته . وأذرع المسلمون فى قتل جيشه بالقتل ، ولم يرفعـوا عنهم السيف ثلاثة أيام [١] . أما لذريق فقد غاب شخصه ، فلم يعثر له أحـد على أثر ، ويبدو أنه فر فى حلة الفارين ، ليعيد تنظيم قواته من جديد . ويبدو أن طارق لم ينتزع النصر بسهولة ، فقـد قتل من رجاله ما يقرب من ثلاثة آلاف ، استنادا على ما ذكره المقرى من أنه قسم الفىء على تسعـة آلاف من المسلمين [٢] ، وكان من بين القتلى ستمائة [٣] . وأحدث انتصار طارق فى وادى لكة دويا هائـــلا ، فى المغرب والمشرق ، الأمر الذى يعزز ما كنا نعتقده من أن حملة طارق كان ينظر إليها على أنها مغامرة حربيـة مصيرها الفشل قبل النجاح ، وإلا فما الداعى لتطاير أهل العدوة من البربر والعرب إلى الأندلس بعد انتصار المسلمين ، وإقبالهم على الفتح بقلوب مجبورة [٤]، وما السبب فى الروايات القائلة بحسد موسى بن نصير لطارق ، وإصداره الأوامر له بالتوقف عن الفتح ؟ [٥] .

---

(١) ابن عبد الحكم ، ص ٩٦ ـ ابن عذارى ، ج ٢ ص ١٠

(٢) المقرى ، ج ١ ص ٢٤٢

(٣) فتح الأندلس لمؤرخ مجهول ، نشره دون سوا كفن بمناسبات ، الجزائر ١٨٨٩ ص ٢

(٤) يقول الرازى: «وتسامع الناس من أهل بر العدوة بالفتح على طارق بالأندلس، وسعة المغانم فيها ، فأقبلوا نحوه من كل وجه ، وشرعوا البحر على كل ما قدروا عليه من مركب وقشر ، فلحقوا بطارق » المقرى ، ج ١ ص ٢٤٣

(٥) الحميدى ، جذوة المقتبس ، تحقيق محمد بن تاويت الطنجى ، القاهرة ، ١٩٦٦ ، ص ٥ ـ ابن خلدون ، ج ٤ ص ٢٥٤ ـ المقرى ، ج ١ ص ٢٥٤

واندفعت جيوش طارق فى أثر فلول القوط، تستولى على المدن، وتفتح المعاقل، وكان جيشه قد تضخم بمن وفد إليه من أهل العدوة، بغية التماس الغنائم، أو الاستقرار فى هذه البلاد الغنية، ففرق أجناده إلى بعوث جانبية ومضى هو إلى طليطلة، حيث احتشدت فلول القوط، فانتصرها فى سنة ٩٢هـ دون مقاومة تذكر، وألفاها خالية، قد فر عنها سندرد رئيس الكنيسة الاسبانية إلى روما، كما فر عنها أهلها.

ثم كانت الخطة الثانية التى قام بها موسى بن نصير نفسه، استجابة لطلب طارق فى معاونته على فتح بلاد الاندلس، وعبر موسى إلى الجزيرة الخضراء فى سنة ٩٣ هـ فى جيش ضخم عدته ثمانية عشر ألفا جلهم من العرب، وسلك موسى طريقا غير طريق طارق، واستطاع أن يفتح المدن الواقعة فى غرب الاندلس مثل شذونة، وقرمونة، وقلصانة وعراق، وإشبيلية، ولبلة، وأكشونبة، وباجة، وماردة.

وكانت مقاومة القوط بقيادة لذريق قد اشتدت فى هذه النواحى لتعوق مسير موسى، ولتقضى على قواته.

فما كادت ماردة تسقط حتى تحصن لذريق ورجاله فى شعاب جبال سيرا دى فرانثيا مما يلى وادى آنة من الشمال، وأقاموا هنالك ينتظرون الفرصة المواتية للوثوب على جيش المسلمين [1]. وتم موسى رائعة كسبه بعد أن الأعداء فى الطريق إلى طليطلة. فبعث موسى يستدعى طارقا وقواته فى منتصف الطريق ما بين ماردة وطليطلة، وتم لقاء القائدين فى موضع يقال

---

(١) Saavedra, p. 93 — حسين مؤنس، فجر الأندلس، ص ٩٧ — عبد العزيز سالم، تاريخ المسلمين، ص ٩٧

له تايد أو تايز [1] ، وخرج طارق ممتطيا له ، ونزل بين يديه . وذكر المؤرخون أن موسى ربخ طارقا على مخالفته لرأيه ، وخروجه عليه ، ثم صالحه موسى ، وأقره على قيادة الجيش ، وأمره بالتقدم أمامه في أصحابه ، بينما تبعه موسى في جيشه [2] . وسلك طارق وموسى الطريق الرومانية الممتدة من ماردة إلى شلمنقه عبر السيرا ، ثم مضى موسى من فج منسوب إليه [3] بعدئذ نهج سمي منذ ذلك الحين بولاي موسى [4] . واجتاز موسى طريقا وعرة متبعا في سيره الانحدارات الهابطة التي تنبع منها مياه نهر المويرا ، وراء القمم الشمالية من جبال سيرا دي فرانتيا [5] . فانتهز لذريق هذه الفرصة ، وانقض على جيش موسى بقواته ، تجاه إلدة سيجويلا دي لوس كورنيخوس [6] ، قريبا من بلدة تماس ، حيث قامت الوقعة الفاصلة الثانية في تاريخ الفتح الاسلامي للاندلس ، في سنة ٩٤ هـ . ونظرا لأن المكان الذي وقعت فيه الوقعة كان قريبا من بحيرات تماس ونهر برباطوس Barbatos الذي ينتهي عند السواق ، فقد اختلط عند المؤرخين بنهر برباط وبحيرة خندة .

---

(١) وردت كلمة تايد ( في آثار مجموعة ، ١٨ ) مدون نقط ، وعلوها تايز ، وهو اسم ذكره رودريجو الطليطلي لنهر Tajar في هذه المنطقة .

(٢) المقري ، جـ ١ ص ٢٥٠

(٣) ابن القوطية ، ص ١٠ ـ المقري ، جـ ١ ص ٢٤٣

(٤) Saavedra, p. 99 ـ حسين مؤنس ، فجر الأندلس ، ٩٨

(٥) Saavedra, p. 100

(٦) يقابل اسم سيجويلا في المصادر العربية كلمة السواق أو الشواني ( آثار فتح الأندلس ، المؤرخ مجهول ، ص ٨ ) . وذكر الرازي Segoyuela وهو لفظ قريب من لفظ السواق ) Lévi - Provençal, - Histoire, t. I, p. 26 - Saavedra, p. 100 ـ فجر الأندلس ، ص ٩٩ )

وفى هذه الوقعة لقى لذريق مصرعه على يد مروان بن موسى بن نصير [١] وهزم المسلمون القوط هزيمة نكراء. وعلى أثر ذلك دخل موسى وطارق مدينة طليطلة. وبعث موسى من هناك رسولين من قبله إلى الوليد ببشراه بالفتح، هما مغيث الرومى[٢]، وعلى بن رباح اللخمى [٣]

قضت الجيوش الاسلامية فصل الشتاء بطليطلة، فلما انقضى، تعاون القائدان موسى بن نصير وطارق بن زياد على افتتاح شمال شبه الجزيرة، وصحبت الفتح فى هذه المرة موجة عاتية من التدمير والتخريب، وكان لذلك أثر كبير فى بث الذعر فى نفوس السكان [٤]. وبينما كان موسى يتأهب لاقتحام بلاد جليقية، إذ أتاه مغيث الرومى رسولا من قبل الوليد بن عبد الملك يأمره بالخروج من الاندلس، والكف عن التوسع فى البلاد. فعز على موسى أن يعود المشرق قبل أن تكون قد استكمل فتح شبه الجزيرة كلها، باقتحامه جليقية [٥]. فلاطف مغيثا، وسأله أن يمهله حتى ينفذ عزمه فى الدخول إلى جليقية، ويكون شريكه فى الأجر والغنيمة [٦]، ووعده موسى بأن يهبه الموضع المعروف باسم بلاط مغيث بقرطبة بجميع أرضه من

---

(١) Saavedra, op. cit. p. 108. يستدل هذا على غير مورود فى كتابه «الامامة والسياسة» لابن قتيبة ساقه على لسان موسى: «ان ابنى أتى بملك الأندلس لوخريق» ص ١٠٦ من كتاب ابن القوطية

(٢) ابن عبد الحكم، ص ٢٠٢

(٣) ابن قتيبة، الامامة والسياسة من كتاب ابن القوطية «تاريخ افتتاح الأندلس» ص ١٢٦

(٤) الذرى، جـ ٤ ص ٢٥٥

(٥) نفس المرجع، ص ٢٥٨

(٦) نفس المرجع

أرض الخمس [1] ، نظير إسهامه له بعض الوقت ومصاحبته فى غزو جليقية . فقسم موسى جيشه إلى قسمين : قسم بقيادته ، يسلك الطريق الممتدة من سرقسطة إلى قلونية وبلنسية ، وقسم بقيادة طارق يسير بمحاذاة نهر إبره حتى هارو ، ومن هناك يتبع برغيسكانم أمايه ثم ليون واستورقة . ونجح طارق فى افتتاح أماية واستورقة ، أما موسى فقد سار بمحاذاة الضفة اليمنى من نهر إبره وافتتح حصن هارو ، واستولى على قلعة لك بأشتوريش ، ثم تابع السير فى جليقية ، فاستولى على خيخون ولك الجليقية ، وهناك أتاه رسول آخر يكنى أبا نصر بعثه الخليفة إليه لما استبطأه فى الفتوح [2] . وذكر بعض المؤرخين أن موسى بعد أن افتتح سرقسطة بث سراياه إلى قطلونية ، فاستولت على برشلونة ، واخترقت جبال البرتات ، وتوغلت فى غالة ، فاستولت على أربونة وصخرة إيتيون ، وحصن لودون على وادى رودنه (الرون) [3] . وفى أثناء قيام موسى بفتح هذه الأقاليم ، واكتساحه أراضى إفرنجة حتى ليون . والأرجح أن موسى افتتح إقليم قطلونية ، وأن بعض قواته وصلت إلى قرقشونة [4] .

ولقد لعب الوبر دوراً هاماً فى فتح بلاد الأندلس ، فقد كانت الطالعة

---

(١) الرسالة الشريفة فى الأخبار الأندلسية ، من كتاب ابن القوطية ، ص ٢٠٤

(٢) المقرى ، جـ ١ ص ٢٤٨ — تاريخ المسلمين فى الأندلس ، ص ١٠٣ ، ملحوظة ٥

(٣) المقرى ، جـ ١ ص ٢٤٦ — Codera, Límites probables de la conquista árabe en la Cordillera Pirenaica, en Estudios Críticos de la historia árabe española, VIII, Madrid, 1917, p. 107.

(٤) المقرى ، جـ ١ ص ٢٦٠ — شكيب أرسلان ، تاريخ غزوات العرب ، مصر ، ١٣٤٢ ، ص ١١ — تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس ، ص ١٠٤ ، ١٠٥

الأولى الفتح من البربر ، ومنذ سجل طارق انتصاره على لذريق في وادي لكة ، لم يكف البربر عن الجواز إلى الاندلس ، بغية اقتناص المغانم أو الاستقرار في هذه البلاد الغنية بخيراتها . وقد زودنا ابن خلدون بأسماء قبائل أربعة كان يتألف منها جيش طارق ، وهي : مطغرة ، ومديونة ، ومكناسة ، وهوارة ، وكلها متفرعة من زناتة . ويضيف ابن حزم في جمهرة أنساب العرب قائمة بقبائل أخرى وفدت إلى الأندلس وهي : مغيلة ، ومازوزه ، ونفزة ، وأوربة ، ومصموده [١].

وقد استقر هؤلاء البربر منذ الفتح في المناطق الجبلية ، إذ كان العرب قد اختصوا أنفسهم بأكثر مناطق الأندلس خصباً ، وتعني بهـــا سهول الأندلس الأوسط والجنوبي ، وسهيات شرق الاندلس . وعلى الرغم من صعوبة الحياة في المناطق الجبلية ، فقد تمكن البربر ، بمضي الزمن ، من التكيف فيها ، وأصبحوا يعتبرون هذه البلاد وطناً لهم ، فسموا أنفسهم بالبلديين ، وهم في ذلك يختلفون عن البربر الطارئين الذين دخلوا الاندلس في عصر الخلافة الأموية.

ج — عودة موسى بن نصير الى المشرق :

لم يجد موسى بن نصير بداً من الاستجابة لرغبة الخليفـــة في العودة إلى دمشق ، فتنقل بعد فتحه لبلاد جليقية عائداً إلى إفريقية ، في رفقة طارق ، ورسولي الخليفة إليه ، مارين في طريقهم بقرطبة ، حيث أخرج موسى معظم

---

(١) ابن حزم القرطبي ، جمهرة أنساب العرب ، تحقيق ليفي بروفنسال ، القاهرة ١٩٤٨ ، ص ١٦٦ ، ١٦٧

من بلاط قرطبة ، ووهبه داراً أخرى بغرب المدينة [١]. ولعل ذلك كان سببا فى تحامل مغيث الرومى عليه . ثم مضى موسى إلى إشبيلية ، وهناك استخلف ابنه عبد العزيز فى ذى الحجة سنة ٩٥ هـ ، بعد أن اختارها له عاصمة للأندلس [٢] . وعبر القائدان الزقاق إلى إفريقية يحملان معهما غنائم هائلة من الذهب والفضة والجوهر على ما يقرب من ١٩٣ عجلة [٣] . واستخلف موسى ابنه الأكبر عبد الله على إفريقية ، وكان عبد الله قد وليها عوضا عن أبيه عندما قاد حملته إلى الأندلس ، إلى أن رحل أبوه عنها متوجها إلى المشرق [٤] فى سنة ٩٦ هـ . وذكروا أنه استخلف ابنه عبد الملك على طنجة وسبتة وما إليها [٥] . ولكن ابن قتيبة يذكر أن موسى لم يترك على إفريقية وطنجه والسوس إلا ولده الأكبر عبد الله ، وأنه اصطحب معه عند عودته إلى المشرق أولاده مروان وعبد الأعلى وعبد الملك [٦] .

ثم سار هو وولداه عبد الأعلى ومروان ، وصحبهم طارق ، ورسولا الخليفة ، وبعض الأسرى من قواد القوط ، وعامة رجل من أشراف الناس من قريش والأنصار وسائر العرب ، نخص بالذكر منهم : عياش بن عقبة وأبو عبيدة وعبد الجبار بن أبى سلمة بن عبد الرحمن بن عوف ، والمغيرة بن

---

(١) أخبار مجموعة ، ص ٢١ ـ المقرى ، ج ٢ ص ١٣

(٢) ابن القوطية ، ص ١٠ ـ أخبار مجموعة ، ص ١٩ ـ ابن عذارى ، ج ٢ ص ٣٠

(٣) ابن عذارى ، ج ٢ طبعة بيروت ص ٣٦

(٤) المرجع السابق ، ص ٣٨

(٥) ابن الأثير ، ج ٤ ص ١٢٤ ـ ابن عذارى ، ج ٢ ص ٣٩

(٦) ابن قتيبة ، الامامة والسياسة (من تاريخ فتح الأندلس ص ١٤٣)

أبي مرثد، وزرعه بن أبي مدرك، وسليمان بن يحر، ومن البربر مائة رجل[1] منهم: بنو كسيلة بن لزم، وبنو يسدد ومزدانة ملك طلسوس، وملك ميورقة ومنورقة، ومن أولاد الكاهنة، ومائة من وجوه ملوك الروم الاندلسيين وعشرون ملكا من ملوك المدائن التي افتتحها بافريقية، وخرجوا معه بأصناف ما كان في كل بلد من طرفها، واستخلف بطرابلس رجلا اسمه بكر بن عيسى القيسي، حتى انتهى إلى مصر، فلم يبق بها فقيه ولا شريف إلا وصله وأعطاه. ثم خرج من مصر متوجها إلى فلسطين، فتلقاه آل روح بن زنباع، ونحروا له خمسين بعيراً. ثم خرج وترك عندهم بعض أهله، وصغار ولده، وأعطى آل روح بن زنباع عطاء جزلا[2].

وذكر بعض المؤرخين أن الوليد بن عبد الملك كان مريضا، وأنه كتب إلى موسى يأمره بالاسراع إليه ليدركه وهو على قيد الحياة، وفي نفس الوقت كتب سليمان ولي عهد الخليفة إلى موسى يأمره بالتأني في سيره، ورجاء أن يصل بعد وفاة الوليد، فتكون كل غنائم المغرب والاندلس له، ولكن موسى استجاب لرغبة الخليفة، وجد في سيره حتى قدم إلى دمشق، والوليد ما يزال حيا، فسلم له الأعلاق والمغانم والتحف والذخائر، ولم يطل العهد بالوليد، فلم يمكث إلا ثلاثة أيام بعد قدوم موسى إليه، ثم توفي. وأفضت الخلافة إلى سليمان، وكان يحقد على موسى لمخالفته له، فصب عليه جام غضبه[3]. وقيل أن موسى وصل دمشق بعد وفاة الوليد، فقدم على

---

(١) ارجع الى تاريخ المسلمين وآثارهم في الاندلس، ص ١٠٦

(٢) ابن عذارى، ج ١ ص ٤٠

(٣) ابن عذارى، ج ١ ص ٤١ ـ المقرى، ج ١ ص ٢٦٢

سليمان حين استخلف . وكان منحرفا عليه ، إذ كان طارق ومغيث قد سبقاه إليه ، ورميا بالتهم عند سليمان ، فعزله سليمان عن عمله ، وأقصاه ، وحبسه ، وأغرمه غرما عظيما [1] . وذكر ابن عذارى أن سليمان أمر به ، فأوقف في يوم شديد الحر في الشمس ، وكان موسى بادنا ، فلم يحتمل حرارة الشمس فسقط مغشيا عليه ، وأن سليمان أغرمه ثلاثة آلف دينار ، وأمر بتعذيبه ، وعزم على قتله ، فاستجار بزيد بن المهلب ، وكانت له حظوة عند سليمان ، فاستوهبه منه [2] . ويضيف ابن الأثير أن موسى احتاج أن يسأل العرب في معونته [3] . ونستبعد صحة هذه الروايات ، فليس من اليسير أن يقوم سليمان بتعذيب تابعي جليل مثل موسى بن نصير ، أسس ملكا من عدم ، ووقف حياته مجاهداً في سبيل الله لمجرد قالة ثالثة ، أو وشاية في حقه من خصومه . ولو أنا صدقنا هذه الروايات ، لكان أولى بسليمان أن يعاقب موسى بعزل ولديه عبد العزيز من ولاية الأندلس ، وعبد الله من ولاية إفريقية والمغرب ، ولكن شيئا من ذلك لم يحدث ، بل ظل عبد العزيز يقوم بولاية الأندلس حتى مصرعه في سنة ٩٨ هـ ( ٧١٥م ) بتدبير بعض رؤساء الجيش من العرب أمثال أيوب بن حبيب اللخمي ، وحبيب بن أبي عبيدة ، وزياد ابن عذرة البلوي ، وزياد بن نابغة التميمي . وأما ما ذكره المؤرخون من تغريم سليمان له ، فلا شك أنهم خلطوا بين سليمان بن عبد الملك وبين أبيه عبد الملك ابن مروان ، الذي أغرمه حسبما ذكرنا سابقا . وحقيقة أن عبد العزيز بن موسى لم يمصر به بالشبيلية على أيدي كبار الجند ، وحقيقة أن عبد الله عزل على يدي

---

(١) أخبار مجموعة ، ص ٢٠ — المقري ، جـ ١ ص ٢٦٢

(٢) ابن عذارى ، جـ ٢ ص ٤٦ ، ٤٧

(٣) ابن الأثير ، جـ ٤ ص ١٢٤

محمد بن يزيد ، ثم قتل على يدى خالد بن حبيب الفهرى فى أواخر عام ٩٧ هـ أو أوائل عام ٩٨ هـ [١] ، ولكن لم يكن لسليمان بن عبد الملك يد فى مقتلها ، على الرغم مما زعمه المؤرخون أنه دس عليها من قتلها [٢] ، وأنه أمر بطرح رأسيها أمام موسى بن نصير [٣] ، فلو أن سليمان كان هو المدبر لجريمة قتل عبد العزيز ، لكان قد بادر بتنصيب والٍ مكانه ، ولما مكث أهل الأندلس شهوراً لا يجمعهم وال حتى اجتمعوا على أيوب بن حبيب اللخمى [٤] ، ولما شك على الخليفة نبأ مقتله ، فأمر والى إفريقية عبد الله بن يزيد بالتحقيق فى مقتله ، والقبض على قتلته ، وإرسالهم إليه [٥] ، ولما أسف على قتله بعد أن ثبت له براءة عبد العزيز مما اتهم به [٦] من الانتزاء بالأندلس .

ويعتقد الأستاذ محمد على دبوز ، أن سليمان أنكر على موسى سلوكه فى المغرب ، وأنه كان حانقاً عليه لمبالغته فى السبى ، وعـــدم عدله فى تقريره ،

---

(١) ابن عذارى ، ج ١ ص ٤٠

(٢) ابن القوطية ، ص ١١ — ابن قتيبة ، ص ١٧٠ (من كتاب ابن القوطية) — ابن عذارى ، ج ٢ ص ٢٢ — الرى ، ج ١ ص ٢٦٣

(٣) ابن قتيبة ، ص ١٧٩ (من كتاب ابن القوطية) — ابن عذارى ، ج ١ ص ٤٠

(٤) ابن عذارى ، ج ٢ ص ٢٢ ، ٢٣

(٥) يقول صاحب أخبار مجموعة : « ولما بلغ سليمان مقتل عبـد العزيز بن موسى شق ذلك عليه ، وولى افريقية عبد الله بن يزيد الفهرى ... ، وولى والى افريقية كان أمر الأندلس وطنجة ، وكل ما وراء افريقية ، وأمره سليمان أيضا قتله حبيب بن أبى عبيدة ، وزياد بن النابغة من قتل عبد العزيز بأن يقتصد فى ذلك ، وأن يقتلهما إليه ، ومن شركهما فى قتله من وجوه الناس . ثم مات سليمان ، فسرح عبـــد الله بن يزيد والى افريقية على الأندلس المغيرة بن عبد الله الفهرى وأمره بالنظر فى شأن قتل عبد العزيز » (أخبار مجموعة ، ص ٢٣)

(٦) ابن قتيبة (من كتاب ابن القوطية) ص ١٧٦

واحتجانه للأموال وتفريقها فى الأولياء والأنصار [1] . ونعتقد أن سليمان أخذ على موسى بعض الهفوات ، وأنه كان حاقدا عليه إما لأن مغيث الرومى وطارق قد شكياه إليه ، أو لأنه قد بلغه سعى موسى لفصل المغرب والأندلس عن الخلافة بعد أن ولى ولديه عبد العزيز وعبـــد الله عليها ، وضرب العملات باسمه ، وفرق قسما من غنائم المغرب والأندلس على صنائعه فى مصر . وأيا ما كانت أسباب حنقه عليه ، فلم يكن ذلك مبررا لتنكيله به على النحو الذى ذكره المؤرخون ، وأغلب الظن أن سليمان عفا عنه بفضل وساطة عمر بن عبد العزيز فاستبقاه سليمان إلى جواره رعاية لشيخوخته ، إذ كان قد قارب الثمانين من عمره ، بدليل أنه كان يخرج معه فى نزهاته [2] ، وأنه حج معه إلى مكة فى سنة ٩٧ هـ ( ٧١٥م ) حيث توفى موسى هناك [3] .

ونعتقد أيضا أن عبد العزيز بن موسى لقى مصرعه على أيدى كبار جنده لأسباب منها : أن زوجته أيلة ، وهى أرملة لذريق ، كانت تحرضه على الإستقلال بالاندلس ، وتأسيس دولة يكون ملكا عليها ، ونجحت فى التأثير عليه ، ولعل ذلك كان أساسا لرواية القائلة بأنها أقنعته بوضع التاج على رأسه تشبها بالملوك . ومن أسباب مصرعه أيضا أنه أظهر امتعاضا عما عرف الخليفة سليمان نحو أبيه ، بعـــد كل ما قام به موسى من خدمات للدولة الأموية ، فاخطر عبد العزيز إلى للتنفيس عن نفسه « بكلام خفيف » [4] ،

---

(١) محمد على دبوز ، تاريخ المغرب الكبير ، ج ٢ ، القاهرة ١٩٦٣ ، ص ١٦٥

(٢) ابن قتيبة ، ص ١٧٨ — نص عبد الملك بن حبيب ، ص ٢٢٩

(٣) ابن قتيبة ، ص ١٨١ — ابن عذارى ، ج ٢ ص ٤٥

(٤) نفس المرجع ، ص ١٧٠

أساء إلى الخليفة ، فتناول الناس هذا الكلام عرفا مشوها ، فوصـــل إلى رؤساء الجند ، وعلى رأسهم حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة ، الذي كان موسى قد أقامه وزيراً لابنه ، وأيوب بن حبيب اللخمي ، ابن أخت موسى بن نصير وغيرهما ، فأجمعوا على قتله ، غيرة على الخلافة الأموية ، ثم أبلغوا الخليفة بقتله بسبب خروجه عليه ، وخلعه دعوة بني مروان ، واستبداده بأمره ، « لا بلغه ما نزل بأبيه وأخيه وأهل بيته »(١). وقد يكونوا قد قتلوه بدافع من الغيرة والحسد لما صار إليه بنو موسى من علو الذكر ، فقتلوه ، واختلقوا هذه التهم كذبا . وقد حقق سليمان في قضية عبد العزيز ، فاتضح له أنه بريء مما نسبوه إليه ، « وألقى ذلك باطلا ، وأن عبد العزيز لم يزل صحيح الطاعة مستقيم الطريقة »(٢).

---

(١) ابن عذاري ، ج ٢ ص ٤٤

(٢) ابن قتيبة ، ص ١٧٦

## ( ٢ )

## ولاة المغرب بعد موسى بن نصير

### ١ ـ جهود عبد بن يزيد (٩٧ ـ ١٠٠) واسماعيل بن عبيد الله (١٠٠ ـ ١٠١) في نشر الاسلام :

لم يكن سليمان بن عبد الملك راضيا عن تصرف موسى بن نصير في استبداده بحكم المغرب والأندلس ، ولعل ذلك كان من الأسباب التي أدت إلى استغنائه عن خدماته ، فقد رأى سليمان في استئثار موسى بحكم المغرب والأندلس بواسطة ولديه عبد العزيز وعبد الله ميلا إلى الخروج عن الخلافة ، وجنوحا إلى الانشقاق عن الدولة . وعلى الرغم من ذلك فقد استبقى الخليفة سليمان عبد العزيز بن موسى على ولاية الأندلس لآثره الحميدة ، وجهوده المضنية في استكمال فتح البلاد ، وتنظيم الدولة الأندلسية . أما بالنسبة لعبد الله بن موسى ، فقد كان يستهجن سياسته القائمة على العنف والتسلط في معاملة البربر . فاستشار وزيره رجاء بن حيوه فيمن يصلح لولاية المغرب ، وقال له : « وأريد رجلا له فضل في نفسه ، أوليه إفريقية » ، فاستمهله ابن حيوة أياما ليفكر ويبحث عن شخص تتوفر فيه هذه الصفة ، ثم قدم عليه وقال له : « قد وجدت رجلا له فضل . قال : من هو ؟ . قال : محمد بن يزيد مولى قريش . فقال : ادخله علي ، فأدخله عليه ، فقال سليمان : يا محمد بن يزيد ، اتق الله وحده لا شريك له ، وقم فينا وليتك بالحق والعدل ، وقد وليتك إفريقية والمغرب كله » (١) .

---

(١) ابن عذارى ، ج ٤ ص ١١

ويذكر ابن عذارى أن عدياً بن يزيد استقر بافريقية بأحسن سيرة وأعدلها ، وكان سليمان قد أمره بالقبض على عبد الله بن موسى وتعذيبه ومصادرة أمواله وأموال بني موسى حتى يؤدوا ثلاثمائة ألف دينار (١) . ولكن هذا الخبر يتناقض مع ماذكره ابن عذارى قبل ذلك ، من أن موسى افتدى من سليمان بألف ألف دينار (٢) . وقد استبعدنا من قبل قيام سليمان بتعذيب آل موسى بن نصير . وأغلب الظن أن ذلك تم فى عهد يزيد بن عبد الملك ، عندما اتهم عبد الله بن موسى بقتل يزيد بن أبي مسلم مولى الحجاج وكاتبه ، وتولى بشر بن صفوان مهمة قتله ، ومصادرة أموال ذويه (٣) .

وساد السلم والأمن بلاد المغرب فى ولاية محمد بن يزيد ، وفى خلال هذه الفترة السلمية القصيرة ، التى نعم فيها البربر بالاطمئنان والعدل ، قام محمد بن يزيد بفتح المناطق الداخلية من المغرب الأقصى ، كما بعث السرايا إلى ثغور إفريقية والجزر المجاورة لها (٤) . وكان محمد بن يزيد يقسم مايصيبه من غنائم على جنوده دون أن يحتجز لنفسه شيئاً منها ، فكان مثلا طيبا للوالى العادل المزيه . وقد كان لهذه السياسة الحكيمة أثرها العميق فى كسب أفواج جديدة من البربر إلى الإسلام . فلما توفى سليمان بن عبد الملك سنة ٩٩ هـ ، استعمل الخليفة الجديد عمر بن عبد العزيز تابعيا جليلا وإماما زاهدا هو اسماعيل بن عبد الله بن أبي المهاجر دينار على إفريقية فى

---

(١) ابن عذارى ، ج ١ ص ٤٤

(٢) نفس المرجع ج ١ ص ٤٢ — نص عبد الملك بن حبيب ص ١٣٣

(٣) تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس ، ص ١٠٣

(٤) ابن عذارى ، ج ١ ، ص ٤٥

محرم سنة ١٠٠ هـ ، وكان اسماعيل هذا مصلحا من أعظم ولاة بني أمية على المغرب ، فقد ورث عن جده صفات الحزم والحكمة وحسن التدبير ، وكان يجمع إلى جانب كياسته وحكمته ورعا وتقوى ، ولذلك نراه يفانى فى نشر الإسلام بين قبائل البربر ، ويعمل جهده على تعليم البربر وتثقيفهم بالتعليم والثقافة الإسلامية (١) . ويذكر المؤرخون أن الخليفة عمر بن عبد العزيز بعث معه عشرة من التابعين أهل علم وفضل ، وأمرهم بأن يبذلوا جهدهم لتفقيه البربر فى علوم الدين حتى يقوم إسلامهم على أساس متين ، وهؤلاء التابعون هم : أبو عبد الرحمن عبد الله بن يزيد المعافرى الحبلى ( المتوفى سنة ١٠٠ هـ) ، وأبو مسعود سعيد بن مسعود التجيبى ، واسماعيل بن عبيد الأنصارى المعروف بجابر الله ( ت . سنة ١٠٧ هـ ) ، وأبو الجهم عبد الرحمن بن رافع التنوخى ( ت . سنة ١١٣ هـ ) ، وأبو سعيد جعثل بن طعان بن عمير الرعينى الغسانى ( ت . فيما يقرب من سنة ١١٥ هـ ) ، وحيان بن أبى جبلة الفهرى ( ت . سنة ١٢٥ ) ، وموهب بن جنى المعافرى ، وخالد بن حابان الفارسى ، وبكر بن سوادة الجذامى (ت. سنة ١٢٨) ، واسماعيل بن عبيد الله الأصور (٢) ( ت . سنة ١٣٢ ) . وقد تولى اسماعيل بن أبى المهاجر توزيع هؤلاء التابعين فى أنحاء المغرب ، وتحول البربر بفضل هؤلاء وبفضل الفقهاء الذين كانت قد وزعهم حسان بن النعمان وموسى بن نصير من قبل فى بلاد البربر إلى أمة إسلامية ، ولم يبق على غير الإسلام فى المغرب سوى جماعة من الروم ، وطائفة من اليهود . ويجمع المؤرخون على أن بربر إفريقية أسلموا جميعهم فى أيام

---

(١) ابن عذارى ، ج ١ ، ص ٤٥

(٢) المالكى ، رياض النفوس ، أنظر الفصل الخاص بتراجم هؤلاء التابعين ص ٦٤ — ٧٦

اسماعيل بن أبي المهاجر [1] . ويعلق الأستاذ جورج مارسيه على انتقال البربر إلى الإسلام بمثل هذه السرعة بقوله : « ففي أقل من قرن واحد اعتنق العدد الأعظم من أبناء أولئك المسيحيين [2] الإسلام في حماس يجعلهم راغبين في اغتنام الشهادة ، وقد تمت النقلة بصورة نهائية في خلال القرنين الأول والثاني للهجرة أو القرون الثلاثة التالية ، غير تاركة من بلاد المغرب سوى بقع ضئيلة ، أصبح حتى مجرد الاعتقاد في وجودها أمرا مشكوكا فيه . وبينما كانت معظم البلاد التي انتشر فيها الإسلام تحتفظ بطوائف مسيحية ، كانت لها مكانة مرموقة في الدولة في بعض الأحيان كما الشأن مع سكان جبل لبنان في بلاد الشام ، والأقباط في مصر ، وللمعاهدة المستعربين في الأندلس ، الذين كانوا يعيشون جميعا جنبا إلى جنب مع ساداتهم المسلمين ، فان وطن سان أوجستين لم يعرف نظيرا لذلك » [3] .

ونتج عن انتقال البربر إلى الإسلام انتشار اللغة العربية ، لغة القرآن ، في بلاد المغرب . ويذكر الأستاذ عثمان الكعاك أن الفتح العربي للمغرب يمتاز عن غيره من الفتوحات السابقة للمغرب كالفتح الفينيقي والروماني ، بأنه فتح ثقافي ، فقد حمل الفاتحون معهم اللغة والدين ممثلين في القرآن الكريم ، الذي هو قوام دين ، ودستور سياسة ، وبرنامج أخلاق ، وقاموس

---

(١) ابن عذارى ج ١ ، ص ٤٥ . ابن خلدون ، ج ٤ ، ص ٤٠٣ ، ج ٦ ص ٢٢٠

(٢) يقصد بهم نصارى البربر الذين كانوا يؤلفون الأغلبية العظمى لسكان المغرب . ويذكر الأستاذ مارسيه أن بعض سكان المغرب كانوا وثنيين ، ويستند استنادا الى ابن خلدون أن هؤلاء الوثنيين هم مناهاة الموس .

(٣) G. Marcais : la Berberie musulmane et l'Orient au Moyen Age, Paris, 1946, p. 36

لغة ، ودبوان ثقافة ، لذلك بنى للفتح على الثقافة فى يوم الفتح نفسه »[1] ، وكان من الطبيعى أن يحرص البربر الذين دخلوا فى الإسلام على تعلم العربية لدراسة ما جاء فى القرآن الكريم من آيات بينات. ولكن انتشار اللغة العربية التى حلت محل اللاتينية لم يقض على اللغة البربرية التى كانت منتشرة على وجه خاص فى أطراف المغرب وفى المناطق الجبلية والرعوية ، إلا أن لغة البربر كانت وسيلة للتعبير الشفوى عند البدو ، ولم تكن قط لغة حضارة . ويرجع الفضل فى انتشار الإسلام واللغة العربية إلى عقبة بن نافع الفهرى الذى أسس القيروان ومسجدها الجامع ، وإلى حسان بن النعمان الذى أسس مدينة تونس ووزع الفقهاء فى سائر البلاد لتثقيف البربر وتعليمهم أصول الإسلام ، وإلى موسى بن نصير الذى أرسل المعلمين إلى السوس الأقصى وحول الكنائس فيها إلى مساجد ، فجعلها مراكز لتحصيل العلوم الدينية ، وأسس مسجدى طنجة وأغمات بيلاده[2] ، وأخيرا إلى إسماعيل بن عبيد الله بن أبى المهاجر الذى كان لتقواه وورعه وزهده وحرصه على الإصلاح أعمق الأثر فى انتقال البربر إلى الإسلام جملة ، بفضل التابعين العشرة الذين بعثهم معه الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز . ومن بين المساجد التى أسست على أيدى هؤلاء التابعين مسجد الرباطى الذى بناه أبو عبد الرحمن عبد الله ابن يزيد المعافرى الإفريقى ، وجامع الزيتونة بتونس الذى بناه إسماعيل بن عبيد الله المعروف بتاجر الله . ولقد كانت المساجد الأولى التى بناها المسلمون مراكز علمية هامة ، ومعاهد للدرس والتحصيل قبل أن تظهر الجامعات

---

(١) عثمان الكعاك ، مراحل الثقافة فى المغرب ، مطبوعات معهد الدراسات العربية العالية ، القاهرة ١٩٥٨ ، ص ١٢

(٢) ابن عذارى ، ج ١ ، ص ٢٧

والمدارس ، فيه كان يسمع التلاميذ على أساتذتهم فى الفقه ، واللغة ، والحديث ، والقراءات ، والطب ، والفلك ، وغيرها من الدراسات العلمية دينية وأدبية ولغوية ، ولهذا السبب نشهد ثلاث ظواهر فى هذا القرن الثانى الهجرى فى بلاد المغرب ، الظاهرة الأولى ، إنشاء المساجد فى داخل بلاد البربر ، وفى بلاد السوس . والظاهرة الثانية ، إرسال بعثات من علماء العرب وفقهائهم ومن التابعين إلى سائر أنحاء بلاد المغرب . والظاهرة الثالثة ، تأسيس مساجد خاصة بقصد الأعمال الخيرية ، وأشهرها بالقيروان مسجد الرباطى أو الحيلى ، ومسجد أبى ميسرة ، ومسجد محمد بن خيرون الاندلسى[1] ، والمسجدان اللذان أسستهما مريم بنت محمد بن عبد الله الفهرى وأختها فاطمة القروية أم البنين ربيبتى الأندلسيين والقرويين بفاس[2] .

**ب ـ سياسة الاستبداد مع البربر ونتائجها :**

توفى الخليفة عمر بن عبد العزيز بدير سمعان فى ٦ شعبان سنة ١٠١ هـ ، وولى الخلافة المروانية بعده يزيد بن عبد الملك ، وكان يزيد هذا الأمر سياسة التسامح واللين التى اتبعها الخليفة المصلح عمر بن عبد العزيز ، وإنما كان يرى أن سياسة الترهيب والعنف أجدى على الدولة ، كذلك كان يرى أن انتقال البربر إلى الإسلام قد أدى بطبيعة الحال إلى ضياع مورد هام من موارد الدولة وهو الجزية التى كانت تفرض على المعاهدين من النصارى وأهل الذمة ، ولذلك بادر منذ توليه الخلافة بعزل إسماعيل بن أبى المهاجر

---

(١) عثمان الكعاك ، مراكز الثقافة فى المغرب ، ص ١٤

(٢) الجزنائى ، كتاب زهرة الآس فى بناء مدينة فاس ، الجزائر ١٩٦٢ ، ص ٣٤

وولى على إفريقية صاحبا الحجاج بن يوسف هو يزيد بن أبي مسلم ، كاتب الحجاج وصاحب شرطته ، ليطبق على البربر نفس السياسة التي طبقها الحجاج الطاغية على أهل العراق . فقدم يزيد بن أبي مسلم إلى إفريقية سنة ١٠٢ هـ ، وعزم على أن يسير في البربر بسيرة الحجاج في أهل الإسلام الذين سكنوا الأمصار ممن كان أصله من السواد من أهل الذمة ، فأسلم بالعراق ، فانه ردهم إلى قراهم ، ووضع الجزية على رقابهم على نحو ما كانت تؤخذ منهم وهم كفار »[1] . وهكذا شبه يزيد بن مسلم بالحجاج ، واستبد مع البربر ، وفرض عليهم الجزية ، واستخف بهم ، واشتد عليهم في جمع أموالهم ، وسبى نسائهم ، وأسرف في ذلك حتى أوغر عليه صدورهم . ويذكر ابن عبد الحكم أنه قبض على محمد بن يزيد القرشي ، فعذبه وجلده جلدا وجيعا ، فاستسقاه ، فسقاه رمادا ، وكان قد بنى له في السجن بناضيقا ، فجعله فيه ، وكساه جبة من الصوف المغلظ وختمها بالرصاص[2] . وذكر ابن عذارى أنه « كان ظلوما غشوما ، وكان البربر يحرسونه ، فقام على المنبر خطيبا : إني رأيت أن أرسم اسم حرسي في أيديهم كما تصنع ملوك الروم بحرسها ، فأرسم في يمين الرجل اسمه ، وفي يساره حرسي ، ليعرفوا بذلك من بين سائر الناس ، فاذا وقفوا على أحد أسرع لما أمرت به ، فلما سمعوا ذلك منه ، أعني حرسه ، اتفقوا على قتله ، وقالوا : جعلنا بمنزلة النصارى »[3] . وأخذ هؤلاء الحراس ومعظمهم من موالي عبد الله

---

(١) الطبري ، تاريخ الأمم والملوك ، طبعة القاهرة ١٩٣٩ ، ج ٥ ، ص ١٠٣ — الأثير ، ج ٤ ، ص ١٨٢

(٢) ابن عبد الحكم ، فتوح مصر والمغرب ، تحقيق عبد المنعم عامر ، ص ٢٨٨

(٣) ابن عذارى ، ج ١ ، ص ٤٦

ابن موسى بن نصير ، يترقبون الفرصة المواتية للوثوب عليه ، وقد نجحوا في قتله وهو يؤدي الصلاة بعد شهر واحد من ولايته [١] . ثم اتفق القوم على تولية المغيرة بن أبي بردة ، ولكن ابنه عبد الله نصحهم بأن يختاروا محمداً بن يزيد ، وكان غازيا بصقلية ، لأن أباه شهد مقتل يزيد بن أبي مسلم ، فخشي أن يتهم بقتله ، فوافق القوم على ذلك ، فلما قدم محمد بن يزيد ، قلده أمر إفريقية والمغرب ، وكتبوا إلى الخليفة يزيد بن عبد الملك : « إنا لم نخلع أيدينا من طاعة ، ولكن يزيد بن أبي مسلم سامنا ما لا يرضاه الله والمسلمون ، فقتلناه ، وأعدنا عاملك » ، فكتب إليهم يزيد بن عبد الملك : « إني لم أرض ما صنع يزيد بن أبي مسلم » وأقر محمد بن يزيد على عمله » [٢] .

لم يجد يزيد بن عبد الملك بدا من الإذعان لرغبة البربر ، وقبول الأمر الواقع ، ولكنه بدأ يحترز من البربر ويعمل لهم حسابا كبيراً ، فرأى أن يغير سياسته معهم ، ثم أقام عليهم بشر بن صفوان الكلبي واليا سنة ١٠٢ هـ ، وكان بشر واليا على مصر عند مقتل يزيد بن أبي مسلم ، فقدم إلى القيروان ، واصطنع مع البربر سياسة تقوم على المساواة بينهم وبين العرب ، وحسن المعاملة والعدل ، تهدئة لخواطرهم ، ونجح في تمهيد المغرب ، وتسكين أرجائه بحسن سيرته ولينه ، وساد البلاد في عهده فترة من السلم والهدوء . ويبدو أن يزيد بن عبد الملك كان غاضبا على بن موسى بن نصير في المغرب ، إذ كان يعتقد أن لهم يداً في تحريك مواليهم على الثورة على يزيد وقتله ، وكان

---

(١) ابن عبد الحكم ، فتوح عبد الرحمن عامر ، ص ٢٢٩ — السلاوي ، الاستقصا ، ج ١ ، ص ١٠٣

(٢) ابن الأثير ، ج ٤ ، ص ١٨٧ — ابن خلدون ، ج ٤ ص ٢٠٣ — السلاوي ، ص ١٠٣

معظم الثائرين على يزيد بن أبي مسلم من موالي موسى بن نصير ، فعظم ذلك على يزيد بن عبد الملك ، وأمر عامله بشر أن يقتل عميدهم عبد الله بن موسى ومصادرة أموالهم ، فكان أول ما فعله بشر قتل عبدالله بن موسى وتعذيب آله واستصفاء أموالهم [1] ، ولعله كان يطمع في أخذ هذه الأموال الطائلة لنفسه عن هذا الطريق بعد أن انقطع عنه المورد الآخر وهو الهزيمات بمقتل يزيد بن أبي مسلم . ثم رحل بشر بعد ذلك إلى دمشق ليقدم هذه الأموال والتحف إلى الخليفة ، ولكن يزيد كان قد توفي قبل وصول بشر إلى دمشق ، فقدم بشر الهدايا والأموال إلى هشام بن عبد الملك ، فأقره على عمله بالمغرب فقدمها وتتبع أموال موسى بن نصير بالمصادرة وعذب موالية . وفي سنة ١٠٩ خرج بشر بن صفوان بنفسه لغزو صقلية ، فأصاب بها سبيا كثيراً [2] ، ولكنه أصيب عند عودته بمرض خطير يقال له الدبيلة مات على أثره بالقيروان في شوال سنة ١٠٩ هـ ، وكان بشر قد استخلف على المغرب أثناء مرضه العباس بن باضة الكلبي ، فظل العباس يقوم بولاية المغرب حتى وصل عبيدة بن عبد الرحمن السلمي ، الوالي الجديد إلى القيروان في ربيع الاول سنة ١١٠ . وكان عبيدة هذا قيسيا متعصبا ، فتعامل على عمال بشر وأنصاره ، فسجنهم ، وأغرمهم ، وعذب بعضهم ، ثم ولي على الاندلس من قبله ولاة أربعة على التوالي هم . عثمان بن أبي نسعة الخثعمي في شعبان سنة ١١٠ ، وحذيفة بن الأحوص القيسي ، في أول محرم سنة ١١١ هـ ، والهيثم بن عبيد الكناني في محرم سنة ١١٢ هـ ، وعبد الرحمن بن عبد الله الغافقي ، في محرم

---

(١) ابن عبد الحكم ، ص ٢٩٠

(٢) ابن عذارى ، ج ١ ص ٤٨ — ابن الأثير ، ج ٤ ص ٢٠١

سنة ١١٣ هـ وكان من ضحايا سياسته التعصبية عامل من عمال بشر بن صفوان هو أبو الخطار الحسام بن ضرار الكلبي، عزله عبيدة ونكل به، فكتب أبو الخطار الأبيات الثلاثة الآتية:

أفاتم بني مروان فيما دعاءنا
وفي الله إن لم تنصفوا حكم عدل
كأنكم لم تشهدوا مرج راهط
ولم تعلموا من كان تم له الفضل
تعاميتم عنا بعين جليلة
وأنتم كهذا ما قد علمنا لنا فعل

وبعث بهذه الأبيات إلى الخليفة هشام، فأمر هشام بعزل عبيدة عن إفريقية والمغرب، فاستخلف عبيدة أحد أصحابه هو عقبة بن قدامة، في شوال سنة ١١٤ هـ، وتوجه إلى الشام ومعه من الهدايا والتحف للخليفة والأمراء والدواب الكثير [1]، وذكر ابن عبد الحكم أنه حمل إلى هشام من الجواري المتخيرة سبعمائة جارية وغير ذلك من الخصيان والخيل والدواب والذهب والفضة والآنية [2].

وكان عبيدة رغم حسن رأيه وحزمه شديداً في معاملته للبربر، فأسرف في غزو قبائلهم وسبي نسائهم، وبالغ في التعسف معهم والجور بهم، وقد كان لهذه السياسة الطائشة أثرها في تقبل البربر لدعوة الخوارج على النحو الذي سنفصله فيما بعد. ومن جلائل أعمال عبيدة إرساله المستنير بن الحارث الطريف

(١) نفس المرجع من هذا ابن الأثير، ج ٤، ص ٢١٥
(٢) ابن عبد الحكم، ص ٢٢٣

إلى صقلية حيث قضى فيها الشتاء غازيا ، وعند قفوله من غزوته ثار البحر ، فغرق من معه من المسلمين ، ونجا المستنير في مركبة ، ونزل بساحل طرابلس ثم قدم إلى القيروان ، فعاقبه عبيدة بالجلد والتشهير بالقيروان ، ثم أمر بسجنه فظل به إلى أن قدم عبيد الله بن الحبحاب واليا على إفريقية سنة ١١٤ هـ ، فأفرج عن المستنير ، وولاه تونس[1] .

وكان عبيد الله بن الحبحاب قد أثبت مهارة كبيرة في إدارة شئون مصر ، فاختاره الخليفة هشام بن عبد الملك واليا على المغرب كله لصرامته وشدته ، فاستخلف عبيد الله بن الحبحاب على مصر ابنه القاسم ، واستعمل على الأندلس عقبة بن الحجاج السلولي القيسي ، واستعمل على طنجة وما والاها من المغرب الأقصى ابنه اسماعيل ، ثم عمر بن عبد الله المرادي[2] . وكان عبيد الله قيسيا متعصبا لقيسيته ، كما كان متعصبا للعرب عامة على البربر ، فجعل يعسف معهم كما كان يعسف مع اليمنية ، ويبدو أن بربر السوس الأقصى شقوا عليه عصا الطاعة ، فبعث إليهم حبيب بن أبي عبدة بن عقبة بن نافع سنة ١١٦ هـ غازيا ، فبلغ أرض السودان ، وتغلب عليهم ، وأصاب كثيرا من السبي[3] والذهب والفضة ، كذلك سير عبيد الله بن الحبحاب جيشا إلى صقلية لغزوها ، واشتبكت سفن المسلمين مع سفن الروم في قتال عنيف انتهى بهزيمة الروم[4] .

---

(١) ابن الأثير ، جـ ٤ ، ص ٢١٥

(٢) ابن عذارى ، جـ ١ ص ٥١

(٣) ابن عذارى ، ص ٥١ — ابن الأثير ، جـ ٤ ص ٢١٩ — ابن خلدون ، جـ ٤ ص ٤٠٤ ، جـ ٦ ص ٢٦١

(٤) ابن الأثير ، جـ ٤ ، ص ٢١٦

وأساء عمال ابن الحبحاب فى المغرب السيرة مع البربر ، واعتبروهم فيئا للمسلمين وعبيداً لهم ، وكان أشد هؤلاء العمال ظلما واستبدادا عامله على طنجة عمر بن عبد الله المرادى ، الذى « أساء السيرة ، وتعدى فى الصدقات والعشر ، وأراد تخميس البربر ، وزعم أنهم فيء المسلمين ، وذلك ما لم يرتكبه عامل قبله ، وإنما كان الولاة يخمسون من لم يجب للاسلام ، فكان فعله الذميم هذا سببا لانتقاض البلاد . ووقوع الفتن العظيمة المؤدية إلى كثير من القتل فى العباد » (١) . وكان هشام بن عبد الملك يستحب طرائف المغرب ويكتب إلى عامله بطنجة أن يرسل إليه « جلود الخرفان العسلية ، التى تسلخ من جلود سخال الضأن عند ولادتها أى قبل أن تصيح خشية بموت الخراف ، فيصنعون منها الجباب الصوفية الناعمة ، وكان الخليفة يؤثر اللون العسلى ، ويطلب من عامله أن يأتيه بها عسلية اللون غير مصبوغة . ولما كان من العسير للغاية التوصل إلى خراف وليدة بهذا اللون العسلى ، فقد عمد العامل إلى النعاج الحاملة ، فيأمر بقر بطونها واستخراج أجنتها بحثا عن هذه الجلود العسلية . ويذكر صاحب أخبار مجموعة أنه كانت تذبح « مائة شاه فربما لم يوجد فيها جلد واحد » (٢) . وكان من الطبيعى أن يعذب صاحب قطيع الغنم إذ يرى غنمه تهلك بالذبح لاتخاذ الجلود العسلية من سخالها ، ويعز عليه ضياع كل ماله بهذه الكيفية الوحشية ، ولا يستطيع أن يفعل شيئا أمام هذا الظلم والاستبداد . وكان الخلفاء يستحبون أيضا طرائف المغرب ونسائه ، ويبعثون إلى عامل إفريقية يطلبهن ، فكان العامل يحرص كل

---

(١) ابن عذارى ، ج ١ ص ٥٢

(٢) أخبار مجموعة ، ص ٣٣

الحرص على إرسال الجزيات المسبيات [1] ، وهو أمر كان ينكره البربر على عاملهم . ويذكر ابن عذارى أنه « لما أفضى الأمر إلى ابن الحبحاب ، منعهم بالكثير ، وتكلف لهم أو كلفوه أكثر مما كان ، فاضطر إلى التعسف وسوء السيرة » [2] .

ويلخص ابن خلدون أسباب ثورة البربر بقوله: استعمل ابن الحبحاب « عمر بن عبد الله المرادي على طنجة والمغرب الأقصى ، وابنه اسماعيل على السوس وما وراءه ، واتصل أمر ولايتهم وساءت سيرتهم في البربر ، وتقموا عليهم أحوالهم ، وما كانوا يطالبونهم به من الوسائف للجزيات والأعنة المسلية الألوان وأنواع ظرف المغرب . فكانوا يتغالبون في جمعهم ذلك واقتحاله ، حتى كانت الصرمة من الغنم تهلك بالذبح لاتخاذ الجلود المسلية من سخالها ولا يوجد فيها مع ذلك إلا الواحد وما قرب منه ، فكثر عجبهم بذلك في أموال البربر وجورهم عليهم » [3] .

وهكذا كانت نفوس البربر تغلي لهذه الظلم في الوقت الذي انقسم فيه العرب إلى عصبيتين: يمنية وقيسية . وفي أثناء ذلك ، كثر ورود الخوارج إلى بلاد المغرب لبعدها عن مركز الخلافة ، وتسللوا بين البربر ، وأخذوا يبثون تعاليمهم بينهم ، مستغلين الخصومات القائمة بين العصبيتين اليمنية والقيسية واشتغال الولاة بهذه المنازعات . ويقبل البربر هذه التعاليم المنادية بالمساواة بينهم وبين العرب ، وفتحوا للخوارج صدورهم واحتضنوهم ، وكان لبربر البتر ، وعلى الأخص هوارة وزناتة الفضل الأعظم في استكمال فتح المغرب

---

(١) ابن عذارى ، ج ١ ص ٣٣

(٢) نفس المرجع

(٣) ابن خلدون ، ج ٦ ص ٢٤٠

وفتح الأندلس ، وكانوا لذلك يتوقعون من العرب أن يعاملوهم معاملة الأنداد ، ولكنهم صدموا لاستذلال الولاة لهم ، فنفرت نفوسهم نحو العرب وبدأوا ينقلبون عليهم ، وتحالفت زناتة مع الأفارقة الذين ساءهم أن يضعهم العرب في منزلة الروم ، فاعتبروا الأفارقة موالي ، وغنموا أراضيهم وأموالهم ، وهذا يفسر انضمام عبد الأعلى بن جريج الافريقي إلى مبسرة المطغري في الثورة (١) .

ج مقدمات ثورة البربر على العرب في المغرب ( موقعة الاشراف سنة ١٢٢ هـ ) :

فر عدد كبير من العلويين والخوارج إلى الطرف الغربي من الدولة العربية ونعني به بلاد المغرب من بطش الأمويين بهم ، والتمسوا الأمان بين البربر الساخطين على عمال بني أمية في المغرب . ووجد دعاة الخوارج من العرب في بلاد المغرب أرضا خصبة لغرس تعاليمهم القائمة على المساواة بين المسلمين والثورة على الظلم ، ولكن البربر اختلفوا في مدى تقبلهم لهذه التعاليم ، فبربر القسم الشمالي من المغرب الأقصى والمغرب الأوسط تقبلوا المذهب الإباضي المعتدل ، بينما اعتنق بربر القسم الجنوبي من المغرب الأقصى — في المناطق الجبلية الممتدة من السوس الأدنى إلى جبال درن — مذهب الصفرية المتطرف. وبينما كان المعتدلون من البربر يدعون إلى الثورة على الظلم ، كان الغلاة وقد داخلتهم الشعوبية البربرية يدعون إلى إقامة حكومة بربرية دينها الإسلام ، أو إسلام متبربر ، ولغتها البربرية ، وظهرت هذه النزعة في برغواطة (٢) التي كانت تدين بديانة شرعها لها صالح بن طريف الذي تسمى بصالح المؤمنين

---

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٤٠ — حسين مؤنس ، فجر الأندلس ، ص ١٤٨

(٢) عصام الكمالي ، المرجع السابق ص ١٥

وزعم أنه المشار إليه فى القرآن (١) . ومن الغريب أن تتقلب فرقا الإباضية والصفرية اللتين لم تكونا حربا على الخلافة فى المشرق ، إلى حركة تفوق فى قسوتها وتطرفها حركة الأزارقة بالمشرق (٢) ، مما دعا الدكتور حسين مؤنس إلى أن يشك فى نسبة حركات البربر فى المغرب الأقصى إلى الصفرية والإباضية لاعتدال هذين المذهبين ، فيرجعهـــا إلى أسباب سياسية (٣) . فالمذهب الإباضى يتفق فى كثير من أصوله وفروعه مع مذاهب أهل السنة ، وهو أقرب إلى أهل السنة من بقية الفرق الأخرى ، كما أن مذهب الصفرية يكاد يكون أكثر مذاهب الخارجية اعتدالا (٤) .

وأول من أدخل مذهب الإباضيه إلى إفريقية سلمة بن سعيد الذى قدم إليها من المشرق فى أوائل القرن الثالث لينشره هناك بين البربر ، وأخذ عنه فيها عاصم السدراني ، واسماعيل بن درار الغدامسى ، وداود القبلى النفزاوى وعبد الرحمن بن رستم الفارسى . وقد رحل هؤلاء إلى البصرة ، وتلقوا هناك أصول المذهب على أبى عبيدة مسلم بن أبى كريمة البصرى من كبار علماء الإباضية ، وانضم إليهم بالبصرة عبـد الأعلى بن السمح ، ثم عادوا إلى المغرب بعد أن أقاموا عند أبى عبيدة خمسة أعوام حتى أصبحوا من أعلام الإباضية ، وعرفوا لذلك عند الإباضية فى المغرب بحملة العلم (٥) .

---

(١) البكرى : ص ١٢٤ ـ ١٢٦ ؛ ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، القسم الثالث ، تحقيق الدكتور محمد المنونى ، ص ١٨٢

(٢) عبد المنعم ماجد ، التاريخ السياسى للدولة العربيـة ، الجزء الثانى ، القـاهرة ١٩٦٠ ، ص ٢٨٨

(٣) حسين مؤنس ، فجر الأندلس ، ص ١٤٩

(٤) نفس المرجع

(٥) الطاهر احمد الزاوى ، ص ١٢٦

ذكرنا أن بربر البتر بالذات تقبلوا التعاليم التي نشرها دعاة الخارجية ، ولم يشرع البربر في إعلان ثورتهم على العرب إلا بعد أن يئسوا من الاصلاح. ويبدو أن دعاة الخارجية بذلوا جهدا كبيرا في إقناع البربر على الوثوب بالعرب ، ولكن البربر آثروا إبلاغ أول الأمر من الخلفاء عن مساوىء عمالهم في المغرب ، فسيروا وفدا إلى الخليفة هشام لمطالبته باصلاح الوضع في المغرب ، ولكنهم لم يتمكنوا من مقابلته ، إذ حال الأبرش وزيره بينهم وبينه ، فعادوا إلى المغرب وقد عزموا على الثورة . وفي ذلك يقول الطبري : « ... فما زال أهل المغرب من أسمح أهل البلدان ، وأطوعهم إلى زمان هشام بن عبد الملك ، فلما دب إليهم أهل العراق ، واستثاروهم ، قالوا: إنا لا نخالف الأئمة بما تجبي العمال ، ولا نحمل ذلك عليهم ، فقالوا لهم : إنما يعمل هؤلاء بأمر أولئك . فقالوا لهم : لا نقبل ذلك حتى نخبرهم . فخرج ميسرة المضغري في بضعة عشر إنسانا (١) حتى قدم على هشام . فطلبوا الإذن ، فحجب عليهم ، فأتوا الأبرش (٢) ، فقالوا : أبلغ أمير المؤمنين أن أميرنا يغزو بنا ويجنده ، فإذا أصاب تقلهم دوننا ، وقال هم أحق به ، فقلنا ، هو أخلص لجهادنا . وإذا حاصرنا مدينة قال : تقدموا ، وأخر جنده . فقلنا : تقدموا ، فانه ازدياد في الجهاد ، ومثلكم كفى إخوانه . فوقيناهم بأنفسنا وكفيناهم . ثم إنهم عمدوا إلى ماشيتنا ، فجعلوا يقرونها عن السخال ، يطلبون الفراء الأبيض لأمير المؤمنين ، فيقتلون ألف شاة في جلد ، فقلنا : ما أيسر هذا لأمير المؤمنين ، فاحملنا ذلك ، وخلينا هم وذلك.

---

(١) ذكر المالكي في رياض النفوس ، وابن خلدون في البربر أنه خرج في بضعة وعشرين رجلا .

(٢) كان الأبرش وزيرا لوزراء هشام بن عبد الملك.

ثم إنهم سألونا أن يأخذوا كل جبلة من بلادنا ، فقلنا : لم نجد هذا في كتاب ولا سنة ، نحن مسلمون . فأجبنا أن نعلم ، أعن رأي أمير المؤمنين ذلك أم لا ؟ قال الأبرش : فصل . فلما طال عليهم ، ونفدت نفقاتهم ، كتبوا أسماءهم في رقاع ورفعوها إلى الوزراء ، وقالوا : هذه أسماؤنا ، وأنسابنا ، فان سألكم أمير المؤمنين عنا فأخبروه . ثم كان وجههم إلى إفريقية . فخرجوا على عامل هشام فقتلوه ، واستولوا على إفريقية ، وبلغ هشاما الخبر . فسأل عن النفر ، فرفعت إليه أسماؤهم ، فاذا هم الذين صنعوا ما صنعوا » [1] .

ولما لم يجد ميسرة المطغري ورفاقه من الخليفة هشام اهتماما ببحث شكايتهم ، لجئوا إلى الثورة على عامل الخليفة في المغرب ، وكان ميسرة هذا شيخا من شيوخ قبيلة مطغرة البترية [2] . وكان عالما مستبدا ، فساءه أن لا يصغي الخليفة لشكاية قومه ، فعزم على الانقاض على العرب ، فتولى دعوة الصفرية في المغرب الأقصى بين ذويه وقومه من بني مطغرة ، ولم يلبث أن انضم إليه بربر مكناسة وبرغواطة بزعامة صالح بن طريف ، كما انضم إليه الأفارقة في طنجة بزعامة عبد الأعلى بن جريج ، وبايعه البربر إماما ، وخاطبوه بأمير المؤمنين ، ونشت مقالته في سائر القبائل بافريقية » [3] . وهكذا وجد

---

(١) الطبري ، حوادث سنة ١٢٢ ، ج ٢ ص ١٢٨٨ ، ١٢٨٩ .

(٢) ميسرة المطغري المعروف في المصادر العربية بالمغير أو المغفر ، أو المطغر كان سقاء يبيع الماء بسوق القيروان ( ابن القوطية ص ٤٤ — البكري ص ١٢٤ — ابن الأثير ج ٤ ص ٢٢٤ — ابن عذاري ج ١ ص ٥٢ ) ، ولكن الدكتور مؤنس يعتقد أن يكون كذلك ، ويعتمد استنادا على ابن خلدون أنه كان رئيسا لقبيلة مطغرة ، أو جبا من أعيانها وقد أثبت الأحداث أنه كانت له عصبية قوية من قومه ( حسين مؤنس ، فجر الأندلس ص ١٦٥ )

(٣) ابن خلدون ، ج ٤ ص ٤٠٠

البربر لهم رئيس يقودهم ، فاقتدوا بخوارج الأزارقة وأهل النهروان أصحاب عبد الله بن وهب الراسبي ، وحلقوا الرؤوس [١] . وذكر ابن خلدون أنهم دعصوا من أوساط رؤوسهم ، وتادوا بشعار الخارجية [٢]. وسنحت الفرصة لميسرة للخروج على العرب عندما خرج جيشهم بقيادة حبيب بن أبي عبدة في حملة إلى صقلية ، فجمع أنصاره ، ونقضوا الطاعة لعبيد الله بن الحبحاب بطنجة وأقاليمها ، وتداعت برابر المغرب بأسره ، فثار البربر في المغرب الأقصى سنة ١٢٢ هـ ( ٧٣٩م ) ، وخرج ميسرة للطنجي ، ووثب على عمر بن عبد الله المرادي بطنجة فقتله ، وولى ميسرة مكانه مولى من موالي موسى بن نصير هو عبد الأعلى بن جريج الافريقي الروى الأصل ، وكان مقدما للصفرية في طنجة . وسار ميسرة إلى السوس ، وهاجم قوات اسماعيل بن عبيد الله بن الحبحاب، فهزمه وقتله ، واضطرم المغرب على أثر ذلك نارا ، فانتقض أمره على خلفاء بني مروان في المشرق [٣] .

وهكذا تحرج موقف عبيد الله بن الحبحاب في بلاد المغرب ، وساء مركز العرب ، وفي نفس الوقت ، عظمت مكانة ميسرة وأتباعه من البربر الخوارج ، وكثر جمعه من البربر ، وقوى أمره في المغرب الأقصى . وغضب عبيد الله لزوال هيبة العرب بقتل عامله على طنجة وولده اسماعيل،

---

(١) أخبار مجموعة، ص٣٦

(٢) ابن خلدون، ج ٦ ص ٢٤٣

(٣) ابن خلدون، ج ٦ ص ٢٤٠ . أخطأ الأستاذ محمد علي دبوز إذ ذكر أن اسماعيل ابن عبيد الله بن الحبحاب تغلب على ابن جريج وقتله لتفوق اسماعيل عليه في العدد والسلاح (ج ٢ ص ٢٩٦ )

فكتب إلى حبيب بن أبي عبدة يأمره بالرجوع من صقلية حتى يتمكن العرب من التكتل ، ومواجهة ثورة البربر [1] .

وأعد عبيد الله بن الحبحاب بالقيروان جيشا مؤلفا من خيار العرب ، جعل على مقدمته خالد بن حبيب بن أبي عبدة الفهري ، وتقدم هذا الجيش قاصدا إلى طنجة لمقابلة حشود ميسرة من البربر ، وعبر خالد وادي شليف بالقرب من تاهرت ، والتقى هناك بجيش أبيه حبيب الذي عاد من صقلية ، فنزل حبيب على مجاز الوادي وآثر البقاء هناك ، فلم يبارحه . أما ابنه خالد فقد مضى من فوره حتى لقي ميسرة بالقرب من طنجة ، فاقتتل جيشاهما ، وتراجع ميسرة ، فثار عليه البربر وقتلوه ، وولوا أمرهم مكانه زعيما من الغلاة المتطرفين هو خالد بن حميد الزناتي ، فالتقى خالد بن حبيب بالبربر بقيادة ابن حميد الزناتي ، ولكنه لم يستطع أن يصمد أمام جيوشهم الكثيفة ، فانهزم ، وانهزم وراءه العرب هزيمة منكرة لم يسمع بمثلها ، وقتل ابن حبيب ومن معه ، ولم يبق من أصحابه رجل واحد ، فقتل في تلك الواقعة سادة العرب وفرسانها وكماتها وأبطالها ، فسميت الغزوة بغزوة الأشراف » [2] .

د ـ ثورة البربر في المغرب ( موقعة بقدورة على وادي سبو سنة ١٢٤هـ ) :

انتفضت البلاد بعد انهزام العرب في موقعة الأشراف ، وعرج أمر الناس [3] ، ووصلت أخبار هزيمة العرب في طنجة إلى مسامع البربر

---

(١) ابن عذاري ج ١ ، ص ٥٤ ـ ابن الأثير ج ٤ ، ص ٢٢٢

(٢) نفس المرجع ص ٥٥ ـ ابن الأثير ج ٤ ، ص ٢٢٣ . ويذكر ابن خلدون أن موقعة الأشراف حدثت على وادي تلغ ( ابن خلدون ج ٦ ص ٢٢ )

(٣) ابن الأثير ، ج ٤ ، ص ٢٢٢ ـ ابن عذاري ، ج ١ ص ٥٥ ـ ابن خلدون ، ج ٦ ص ٢٢٢

الأندلس ، ثاروا على عاملهم عقبة بن الحجاج السلولى ، وعزلوه فى صفر سنة ١٢٣ ، وولوا عبد الملك بن قطن الفهرى [١] ، وتحـــرج موقف ابن الحبحاب فى المغرب لذلك ، فاجتمع أعيان العرب فى القيروان وعزلوه [٢] .

ولما علم هشام بالكارثة التى أصابت العرب فى المغرب ، كتب يستدعى عبيد الله بن الحبحاب من إفريقية ، فخرج منها فى جمادى الأولى سنة ١٢٣ ( ٧٤٠ م) ، وعزم هشام على الانتقام من البربر وعبر عن ذلك بقوله : «والله لأغضبن لهم غضبة عربية ، ولأبعثن لهـــم جيشا أوله عنـــدهم وآخره عندى» [٣] . وشرع فى العمل ، فأقام على المغرب بدلا من ابن الحبحاب رجلا قيسيا آخر من غلاة القيسية هو كلثوم بن عياض القشيرى ، وسير معه جيشا كثيفا عدته ١٢ ألفا من الشاميين ، انضم إليهم ثلاثة آلاف من مصر ، وثلاثة آلاف من جند قنسرين ، كما انضم إليه فى طرابلس حشد هائل من جنـد طرابلس ، وتولى قيـــادة الجيش ابن أخيه بلج بن بشر القشيرى . وكان هشام قد أوصى كلثوما بأن يجعل الأمر عند إصابته إلى ابن أخيه بلج ، ثم إلى ثعلبة بن سلامة العاملى [٤] ، وكلاهما من غلاة القيسية. وكان معظم عرب إفريقية ، الذين توطنوا هذه البلاد منذ أيام الفتح العربى للمغرب ، وأصبحوا بلديين ، شأنهم فى ذلك شأن عرب الأندلس ، عن

---

(١) ابن القوطية ص١٤ ــ ابن الأثير ، ج ٤ ، ص ٢٢٣ ــ ابن عذارى ، ج ١ ص٥٥ ابن خلدون ج ٦ ، ص ٢٤٠

(٢) ابن عذارى ، ج ١ ، ص ٥٥

(٣) نفس المرجع ــ ابن القوطية ، ص ١٤

(٤) ابن القوطية ، ص ١٤ ــ أخبار مجموعة ، ص ٣٠

اليمنيين . وكانت بين القريقين ثارات وأحقاد قديمة ترجع إلى أيام وقعة الحرة التي حدثت في سنة ٦٣ هـ في عهد يزيد بن معاوية ، وكان الموقف يستلزم نسيان هذه الأحقاد ، ودفنها أمام الخطر الداهم ، ولكن الأحداث أثبتت غير ذلك .

وصل كلثوم بن عياض إلى إفريقية في رمضان سنة ١٢٣ ، ولكنه تنحى عن دخول القيروان [1] ، وعامل بلج بن بشر العرب الأفارقة بجفاء ، وقال لهم : « لا تنقلوا أبوابكم حتى يعرف أهل الشام منازلهم » ، فغضب العرب البلديون من قوله . وكتبوا إلى قائد قواتهم حبيب بن أبي عبدة وهو بطنجة مواقف البربر ، يشكون إليه بلجا وكلثوما . فكتب حبيب إلى كلثوم رسالة جاء فيها : « إن ابن عمك السفيه قال كذا وكذا ، فارحل بعسكرك عنهم وإلا حولنا أعنة الخيل إليك » ، فكتب كلثوم يعتذر إليه ، ويأمره أن يقيم بشلف حتى يقدم عليه [2] . فأقام كلثوم على القيروان عبد الرحمن بن عقبة الغفاري ، ومسلمة بن سوادة القرشي ، وزحف بجيشه إلى تلمسان مارا ببلدة سبيبة [3] . ويذكر ابن عبد الحكم أنه استخلف على القيروان عبد الرحمن بن عقبة الغفاري ، وعلى الحرب مسلمة بن سوادة القرشي ، ثم رحل من إفريقية متجها إلى طنجة . فقام عكاشة بن أيوب الفزاري ، وكان من الخوارج الصفرية ، من ناحية قابس ، وبعث أخاه في جمع من البربر فحاصروا حبيب بن ميسون ومن معه من العرب في سبتة .

---

(١) ابن عذاري ، ج ١ ، ص ٥٦

(٢) نفس المرجع

(٣) ابن خلدون ، ج ٤ ، ص ١٠٦

فاستنجد ابن ميمون بصفوان بن مالك ، أمير طرابلس ، فقدم لنجدته ، فانهزم البربر وتراجعوا إلى قابس . وكان خبر هذه الغزوة قد وصل إلى القيروان ، فخرج القائد مسلمة بن سوادة القرشي إلى قابس للقضاء على حركة البربر ، ولكنه انهزم في جيوشه بأحواز قابس ، وقتل عامة من خرج معه ، وتراجع إلى القيروان حيث تبعته جنود البربر وحاصرته فيها [1] ، وازداد بذلك تحرج موقف العرب . ثم خرجت فرقة من العرب إلى جيش عكاشة ، فهزمته ، ولحق ببلاد البربر [2] .

ولما وصل كلثوم إلى معسكر حبيب بن أبي عبيدة على وادي مليان ، استخف بحبيب وأهانه ، وعنفه وقبح وتنقصه ، وقال : وهذا الذي يجول أمية الخيل إلينا ؟ ! [3] . فغضب عبد الرحمن بن حبيب ، ونادى إلى القتال ، وفوترت القوس توتراً يؤذن بالقتال ، وانفصل العربان الأغارقة إلى جانبه وانضم إليهم عسكر مصر . ولم يكد القتال ينشب بين الشاميين والأغارقة العربية حتى إن ابن عبد الحكم وابن خلدون يؤكدان نشوب القتال بين العاتبين قبل أن يلقوا البربر ، ولم يتمكن كلثوم من إقرار الصلح إلا بعد جهد كبير ، فتعانق الفريقان ، واتحدا فيما بينهما للقاء العدو المشترك . ولكن هذه الصفاء لم يكن إلا شعاراً زائفاً يخفي تحته ما كان قائماً بالفعل بينهما من انقسام وتغاير . ويعلق ابن عذاري على ذلك بقوله : « فكان هذا الاختلاف سبب هلاكهم مع سوء رأي كلثوم وبلخ » [4] . ثم زحف كلثوم مع جيوش العرب

---

(١) ابن عبد الحكم ، ص ٢٩٠ — ابن خلدون ، ابن الأندلسي ، ص ١٢٤

(٢) ابن الأثير ، ج ٤ ، ص ٢٢٢

(٣) ابن عذاري ، ص ٥٦

(٤) ابن الرقيق ، ص ٥٢

خمسة [1] نحو البربر وكان الخليفة هشام قد أمر كلثوم بأن يستخدم حنظلة الفرني مولى معاوية بن هشام ، ومغيثا الرومي مولى الوليد لمعرفتهما بالبلاد ، فجعل كلثوم على رجالة إفريقية مغيثا ، وجعل على خيلهما حنظلة الفرني . واشتبك العرب بقيادة كلثوم مع البربر بقيادة خالد بن حميد الزناتي عند بليدة بقدورة الواقعة على وادي سبو ، بالقرب من مدينة تاهرت ، في طليعة عام ١٢٤ . ولما رأى مغيث وحنظلة كثرة حشود البربر ، نصحا كلثوم باقامة خندق يحيط بمعسكر المسلمين ، وقالا له : « خندق لها الأمير ، ونلوم بالكراديس ، واعطنا الخيل نحالفهم إلى قرارهم ودراريهم » [2] . ويبدو أن كلثوم قد اقتنع برجاحة رأيهما ، وتم حفر الخندق حول المعسكر ، غير أن بلجا وقد ملأه الغرور ، قاطعه في ذلك ، وكان كلثوم لا يعصي له أمرا ، فقال له بلج : « لا تفعل ، ولا يرعك كثرة هؤلاء ، فان أكثرهم عريان أعزل ، لا سلاح لهم » [3] . فناشبهم كلثوم القتال ، وجعل بلجا ابن أخيه على قيادة الخيالة الشاميين ، وحنظلة الفرني على خيالة عرب إفريقية ، ومغيثا على رجالة عرب إفريقية ، بينما قاد كلثوم رجالة أهل الشام . ويذكر ابن عذاري أن كلثوم « وجه بلجا ليلا ليوقع بالبربر ، فسرى ليله ، وأوقع بهم عند الصباح ، فخرجوا إليه عراة ، فهزموه ، ووصلوا إلى كلثوم » [4] .

---

(١) يذكر ابن عذاري أن جيوش العرب بلغت ثلاثين ألفا ( البيان ص ٥٢ ) ، بينما يذكر صاحب أخبار مجموعة أنها وصلت تسعين ألفا ( أخبار مجموعة ص ٣١ ) . والظاهر أن هذا الرقم الأخير يتضمن جيش عرب إفريقية بالاضافة إلى ذلك .

(٢) أخبار مجموعة ص ٣٢

(٣) نفس المرجع

(٤) ابن عذاري ، جـ ١ ، ص ٥٢

فاشتد القتال ، ولجأ البربر إلى وسيلة مبتكرة كسبوا بها المعركة، فقد كانوا يستغلون خيل بلج بالجلود اليابسة المحشوة بالحجارة ، فيرغمون خيل أهل الشام على النكوص والتراجع، كما عمدوا إلى الرماح الطويلة فطعنوا في أذنابها القرب والأنطاع اليابسة ، ثم وجهوها نحو معسكر كلثوم، فنفرت الخيل[1] واختل صفوف العرب ، واضطر كلثوم إلى المناداة بالنزول عن الخيل ، وكان ذلك ما يرمي إليه البربر ، إذ لم تكن لديهم خيول تكافىء خيول المسلمين ، فاعتمدوا على كثرتهم العددية ، وأعملوا في العرب سيوفهم ، وبدت أعراض الهزيمة على جيش كلثوم . ثم خالطت خيالة البربر ورجالاتهم كلثوما ورجاله ، فاستشهد كلثوم وحبيب بن أبي عبدة ، وسليمان بن أبي المهاجر ، وهرون القرني ، ومغيث الرومي ، وعدد هائل من وجوه العرب وانتهت المعركة بإبادة البربر لجيش كلثوم ، وأسفرت الوقعة عن هزيمة شنعاء أصيب بها جيش العرب . وركب من نجا من العرب منهزما إلى إفريقية وتبعهم البربر يقتلونهم ويأسرونهم، حتى ذكروا أن البربر قتلوا ثلث الجيش. وأسروا ثلثه الثاني ، وطاردوا الثلث المنهزم[2]. أما بلج فلم يجد بدا من الفرار هو ومن بقي من فرقته وعددهم عشرة آلاف ، فلاذ بمدينة سبتة، وأقبل البربر وراءه يحاصرون المدينة ويهاجمونها المرة بعد المرة ، ولكنهم لم يتمكنوا من اقتحام أسوارها ، لحصانتها ومناعتها ، فعمدوا إلى نسف مزارعها وتخريبها، فأقفرت الأرض حول سبتة مسيرة يومين، وبذلك قضوا على العرب للعاش ، فجاعوا حتى أكلوا دوابهم ، وأكلوا الجلود وأشرفوا على الهلاك[3] .

---

(١) أخبار مجموعة ص ٣٢ ـ ابن خلدون ، ج ٦ ، ص ٢١٣

(٢) ابن القوطية ، ص ١٥ ـ أخبار مجموعة ، ص ٣٤

(٣) أخبار مجموعة ، ص ٣٢ ـ ابن عذارى ، ج ٢ ، ص ٤٢

وكان عبد الرحمن بن حبيب قد فر إلى الأندلس عقب موقعة بقدورة التي استشهد فيها أبوه [١] ، وأقام في قرطبة في كنف أميرها عبد الملك بن قطن ، وكان يعنى منله وبلدها . أما بلج فقد اضطر إلى الاستنجاد بعبد الملك ابن قطن ، واستأذنه في العبور هو وأصحابه إلى الاندلس وذكر له ما صار إليه أمر عرب الشام من الجهد ، فنصحه عبد الرحمن بن حبيب بألا يأذن لهؤلاء الشاميين بالجواز إلى الاندلس ، وخوفه من غدرهم [٢] ، فتغافل ابن قطن عن إنجادهم ، وسره هلاكهم ، وخافهم على سلطانه [٣] . فاشتد الحال ببلج وأصحابه ، وضاق عليهم الأمر . واتفق أن ثار بربر الأندلس على عربها عندما بلغهم ظهور بربر العدوة على عرب الشام والعرب البلديين ، فاضطر عبد الملك إلى الاستعانة ببلج ورجاله المحصورين بسبتة ، واتفق معهم على أن يبارحوا الأندلس بعد قضاء مهمتهم ، ثم أرسل إليهم السفن والأطعمة .

ازدادت ثورة البربر في المغرب عنفا بعد انتصارهم على العرب في موقعة بقدورة ، وظهر في هذه الآونة زعيمان بربريان هما : أبو يوسف المغاري ، وعكاشة بن أيوب الفزاري الصفري الذي رأيناه يهاجم العرب في القيروان ، وأخذ هذان الزعيمان يتأهبان للزحف على القيروان ، وأخذت حشودهم تتجمع في منطقة الزاب . وكانت أنباء الهزيمة التي منى بها العرب في بقدورة وما تبعها من استشهاد كلثوم وحبيب وغيرهما من كبار قادة العرب قد

---

(١) ابن عذاري ، جـ ١ ، ص ٦٥

(٢) نص المرجع ، ص ٩٠

(٣) أخبار مجموعة ، ص ٢٧ — ابن عذاري ، جـ ٢ ، ص ٤٢

وصلت إلى الخليفة هشام ، فكان لها صدى أليم فى نفسه ، فغضب غضبا شديداً ، ورأى ضرورة اتخاذ موقف إيجابى حاسم تجاه الثورة البربرية الطاغية قبل أن يستفحل خطرها ، فيتهدد الأمر بضياع المغرب والأندلس نهائيا على العرب ، فأمر حنظلة بن صفوان عامله على مصر ، بالسير فوراً إلى المغرب ، وتقلده ولاية المغرب ، وأمده بجيش ضخم من العرب ، فخرج حنظلة من الفسطاط فى صفر سنة ١٢٢ هـ ، ووصل إلى إفريقية فى ربيع الآخر ، واستقر بالقيروان . فلما علم عكاشة وعبد الواحد بوصول حنظلة زحفا بقواتهما من الزاب فى طريقين ليصلا إلى القيروان من جهتين ويطوقانها ، فسلك عكاشه طريق عجانة واقترب من القيروان ، وعسكر عند القرن ، بينما سار عبد الواحد فى طريق الجبال ، وجعل على مقدمته أبا قرة الغيلى [1] .

وآثر حنظلة أن يقابل كل منهما على حدة [2] ، إذ لا طاقة له بمواجهة أعدائه مجتمعين ، فلما اقترب عكاشة من القيروان خرج إليه حنظلة بجماعة من أهل القيروان ، واشتبك مع قوات عكاشة فى القرن ، واشتد القتال بينهما ، فدارت الدائرة على عكاشه ، وقتل من البربر أعداد هائلة . وبادر حنظلة بالعودة إلى القيروان بعد انتصاره ، خوفا من أن يصل إليها عبدالواحد ويذكر ابن عذارى ، نقلا عن عبد الله بن أبي حسان ، أن حنظلة « أخرج كل ما كان فى الخزائن من السلاح ، وأحضر الأموال ، ونادى فى الناس ، فأول من دخل عليه رجل من عصب ، فقال له : ما اسمك ؟ فقال : نصر بن نعيم ، قال : فتبسم حنظلة كالمكذب له ، وقال له : بالله اصدق . فقال : والله مالى اسم غير ما قلت ... فتفاءل به وقال : نصر وفتح . فأعطى الناس ، وخرج

---

(١) ابن عذارى ، جـ ١ ، ص ٦٢ — ابن الأثير ، جـ ٤ ، ص ٣٢٢

(٢) أخبار مجموعة ، ص ٢٧ — ابن الأثير ، ص ٣٢٢

لمقابلة الصفرية » (١) وكان عبد الواحد قد نزل على بعد ثلاثة أميال من القيروان فى موضع يقال له الأصنام ، على مقربة من طبنة وقد تجمع له من الجيوش ما يقدر بثلاثة آلاف مقاتل (٢) . فحشد حنظلة كل من بالقيروان من العرب ، ووزع عليهم الأسلحة ، فكثر جمعه . ويصف ابن الأثير موقف المسلمين أمام هذا الخطر البربرى فيقول : « فلما دنا الخوارج مع عبد الواحد خرج إليهم حنظلة من القيروان . واصطفوا للقتال ، وقام العلماء فى أهل القيروان يحثونهم على الجهاد وقتال الخوارج ، ويذكرونهم ما يفعلونه بالنساء من السبى وبالأبناء من الاسترقاق وبالرجال من القتل ، فكسر الناس أجفان سيوفهم ، وخرج إليهم نساؤهم يحرضنهم ، فحمى الناس ، وحملوا على الخوارج حملة واحدة ، وثبت بعضهم لبعض ، فاشتد الزحام ، وكثر الزحام ، وصبر الفريقان ، ثم أن الله تعالى هزم الخوارج والبربر ونصر العرب ، وكثر القتل فى البربر ، وتبعوهم إلى جلولاء يقتلون ، ولم يعلموا أن عبد الواحد قد قتل حتى حمل رأسه إلى حنظلة ، فخر الناس فد سجداً » (٣) . وبلغ عدد القتلى نحو ١٨٠ ألفا (٤) ، ووقع عكاشة أسيراً فى يد العرب ، فأمر حنظلة بقتله . وقد علق الإمام الليث بن سعد على هذا الانتصار الفوز الذى أحرزه العرب على البربر بقوله : ما من غزوة كنت أحب أن أشهدها بعد غزوة بدر أحب إلى من غزوة القرن والأصنام » (٥) . وتوفى هشام فى ٦ ربيع الآخر سنة ١٢٥هـ

---

(١) ابن عذارى ، ص ٦٣

(٢) ابن الأثير ، جـ ٤ ، ص ٢٣٣

(٣) ابن الأثير ، جـ ٤ ، ص ٢٣١

(٤) نفس المرجع — ابن عذارى ، جـ ١ ، ص ٦٤ — ابن خلدون ، جـ ٦ ص ٢٢٢

(٥) نفس المرجع — ابن عذارى ، جـ ١ ، ص ٦٤ — ابن خلدون ، جـ ٦ ص ٢٢٢

قبل أن يصل إليه خبر انتصار العرب فى الأصنام ، وخلفه الوليد بن يزيد ، فأمر حنظلة على ولاية إفريقية .

### ٥ ـ ثورة البربر فى الأندلس وقيام الصراع بين البلديين والشاميين :

لما علم بربر الأندلس بانتصار إخوانهم فى المغرب على جيوش العرب ، ثاروا بدورهم على عرب الأندلس ، فأخرجـــوا عرب جليقية وقتلوهم ، وأخرجوا عرب استرقة والمدائن التى خلف الدروب ، فلم يرع ابن قطن إلا فلهم قد قدم عليه ، وانضم عرب الأطراف كلها إلى وسط الأندلس » (١) . ويبدو أن البربر ثاروا على العرب فى المناطق البعيدة عن مركز الإمارة الواقعة فى أطراف الأندلس ، مثل المناطق الشمالية فى جليقية وأشتوريش وغرب الأندلس ، وهى المناطق التى يسكنها جمهور البربر حيث يؤلفون هناك أغلبية السكان ، بينما كان العرب أقلية بالنسبة إلى كثرتهم العددية فيها (٢) . ويدل على ذلك أن البربر لم يهاجموا عرب سرقسطة وثغرهم ، لأنهم كانوا يفوقون عليهم فى العدد . والتف بربر الأندلس حـــول زعيم لهم يقال له ابن هدين (٣) ، ويسميه صاحب فتح الأندلس زقطرتق (٤) ، على نحو ما فعله بربر المغرب عندما بايعوا ميسرة ثم ابن حميد الزناتى . فلما تحرج موقف

---

(١) أخبار مجموعة ، ص ٣٨

(٢) يوضح صاحب فتح الأندلس ذلك بقوله : « وتطاولت البربر أيضا بالأندلس على العرب الساكنين بجليقية واسترقـة والمدائن التى خلف الدروب ، فالتوم وطردوهم اكثرهم هناك وقتلوا العرب » ( فتح الأندلس ، ص ٣٩ )

(٣) أخبار مجموعة ، ص ٣٩

(٤) فتح الأندلس ، ص ٣١

عبد الملك بن قطن بثورة بربر الاندلس، أخرج إليهم جيوشا هزموها، وقتلوا للعرب في الآفاق، فخاف أن يكون مصير عرب الاندلس نفس مصير عرب المغرب، فاضطر إلى الإستعانة بالشاميين المحصورين في سبتة، للقضاء على عدوهم المشترك، وعزم على السماح لهم بالعبور الى الاندلس، على شريطة أن يبارحوها بعد انتهاء مهمتهم، واشترط عليهم مقام سنة بالاندلس ثم يخرجون عنها إلى المغرب. فرضي عرب الشام بكل ما اشترط عليهم، إذ وجدوا في الانتقال إلى الاندلس فرصة مواتية لتقوية أنفسهم، وعندئذ يمكنهم أن يعلوا على ابن قطن رغباتهم. كذلك اشترط ابن قطن عليهم، تأكيدا لعدم تمكنهم، أن يسلموه عددا من رهائنهم، أزلهم بجزيرة أم حكيم. ثم أذن لهم بالعبور إلى الاندلس، وأرسل اليهم السفن وعليها الاطعمة والأدم. فدخلوا الاندلس عراة لا نواويم إلا دروعهم، وقد بلغ بهم الجهد كل غاية، «وكانوا نحو عشرة آلاف من عرب الشام، فلما دخلوا كساهم عرب الاندلس على قدر أقدارهم، فرب رجل يكسو مائة رجل، وآخر عشرة، وآخر واحداً، إلى ما بين ذلك» (١)، وأعطاهم ابن قطن العطايا.

بدأ عرب الشام مهمتهم بمهاجمة جماعة من البربر بقيادة رجل من زناتة، كانوا قد انتفضوا على عبد الملك بن قطن في شذونة، فلم يكن للعرب قبل بهم إلا نهضة حتى أبادوهم، وأصابوا أموالهم ودوابهم، فاكتسى أصحاب بلج واقتنوا، وأصابوا للغانم، ثم مضوا مع عبد الملك إلى قرطبة (٢)، ومنها زحفوا إلى الشمال. أما البربر فقد أقبلوا في حشود هائلة من جليقية واسترقة

---

(١) أخبار مجموعة، ص ٣٦

(٢) ابن عذارى، ج ٢، ص ٤٣

ومارة وقورية وطليرة متجهين جنوبا نحو قرطبة، وعبروا وادى تاجة، والتقوا مع قوات العرب مجتمعة من الشاميين والبلديين فى حوز طليطلة، على وادى سليط، فحاق البربر رؤوسهم اقتداء بميسرة المطغرى، حتى لا يختلطوا فى جموع العرب فلا يخفى أمرهم (١). ثم انحط الشاميون على البربر كالبواشق خاطفين، فزقوا صفوفهم، وأذرعوا فيهم القتل وأبادوهم، فأطفئوا بذلك جمرة نقمتهم بحيث لم ينج من البربر إلا من فر بحياته. وبذلك انتهت مهمة بلج. وطالبه عبد الملك بن قطن بالخروج من الاندلس، فسأله بلج وأصحابه أن يجيء لهم الرحيل من ساحل إلبيرة أو ساحل تدمير (٢) فى سفن تنقلهم إلى تونس. فاعتذر عبد الملك بن قطن عن ذلك بوجود السفن فى الجزيرة الخضراء، لكى تنقلهم إلى سبتة. فقالوا له: «تعرضنا لبربر طنجة. اقذف بنا فى لجة البحر أهون لنا» (٣) فلما تبين لهم أن قصده من ذلك إهلاكهم، ثاروا عليه وأخرجوه من القصر، وأقاموا على إمارة الاندلس بلجا فى أول ذى القعدة سنة ١٢٥. أما ابن قطن فنزل داره، وقد أذهله تطور الاحداث ضده. ونتج عن تغلب الشاميين وظفرهم بالإمارة استحكام الفوضى فى الاندلس، وأمسك والى الجزيرة الخضراء عن إمداد رحالة الشاميين الذين كان قد وضعهم ابن قطن فى جزيرة أم حكيم بالطعام والشراب تضامنا منه مع ابن قطن؛ فات من الرحالة رجل غسانى من أشراف الشام، واتهم عرب الشام ابن قطن بأنه قد تسبب فى موته، فثار عرب اليمن لموت الغسانى، وطالبوا بلجا بأن يسلم لهم ابن قطن ليقتلوه مقابل الغسانى، فحاول

---

(١) أخبار مجموعة، ص ٤٠

(٢) ابن عذارى، ج ٢، ص ٤١

(٣) أخبار مجموعة، ص ٤١

بلج أن يردهم عن ذلك عيانا ، إذ اتهموه بأنه يحمي مضراً ، فخاف أن تتفرق كلمتهم ، فأمر بإخراجه من داره ، فأخرجوه وهو شيخ كبير تجاوز التسعين ، وهم ينادونه : « يا قال ، ظلت من سيوفنا يوم الحرة ، ثم عرضتنا أكل الكلاب والجلود طلبا بثأر الحرة ، ثم بعت جند أمير المؤمنين » (١) . فقتلوه عند رأس القنطرة ، وصلبوه .

وأثار مقتل ابن قطن موجة من الغضب في الأندلس ، واتحد العرب البلديون بقيادة قطن وأمية ابني عبد الملك بن قطن مع البربر الذين كانوا يحلفون لنيل ثأرهم من أهل الشام ، وانضم إليهم عبد الرحمن بن علقمة اللخمي عامل عبد الملك في أربونة ، كما انضم إليهم نفر من أصحاب عبدالملك أمثال عبد الرحمن بن حبيب بن أبي عبدة الذي كان يطمع في الظفر بإمارة الأندلس (٢) ، والتقى هذا الجيش مع جيش الشاميين في موضع يقال له أقوة برطورة ، وانتهت الموقعة بهزيمة البلديين من العرب والبربر وانتصار الشاميين ، وقتل بلج في هذه الموقعة ، فخلفه تعلبة بن سلامة العاملي . ولما بلغ الخليفة هشام ما أصاب اليمنيين على أيدي القيسية من أهل الشام ، شاور أخاه العباس بن الوليد في هذا الأمر ، فنصحه بأن يولي على الأندلس أحد اليمنيين وكان الخليفة قد تلقى بضعة أبيات كتبها أبو الخطار الحسام بن ضرار الكلبي أحد عمال بشر بن صفوان ، عن نكبهم عبيدة بن عبد الرحمن السلمي نصها :

---

(١) نفس المرجع ، ص ٤٢

(٢) ابن عذارى ، ج ١ ، ص ٦٥

أفاتم بن مروان قيسا دماءنا
وفى الله إن لم تنصفوا حكم عادل
كأنكم لم تشهدوا مرج راهط
ولم تعلموا من كان تم له الفضل
وفيناكم حر الوغى بصدورنا
ولبست لكم خيل تعدو ولا رجل
فلما رأيتم واقد الحرب قد خبا
وطاب لكم منها المشارب والأكل
تغافلتم عنا كأن لم يكن لنا
بلاء وأنتم ما علمت لنا فعل
فلا تجزعوا إن عضت الحرب مرة
وزلت عن المرقاة بالقدم النعل
تصرم حبل الوصل وانقطع القوى
ألا ربما يلوى فينقطع الحبل (١)

فكتب الخليفة بأمر حنظلة بن صفوان بأن يولى أبا الخطار الاندلس ليضع حدا للفتنة القائمة بين اليمنيين والبربر وبين الشاميين . فقدم إليها فى رجب سنة ١٢٥ هـ (مايو سنة ٧٤٣ م) ، وكان عبد الرحمن بن حبيب عقيا بقرطبة عند قدوم أبى الخطار إليها ، فخاف على نفسه منه ، وخرج مستترا ، فركب البحر إلى تونس ، فنزل بها أملا فى الدعوة إلى نفسه .

---

(١) ابن القوطية ، ص ١٨

## ( ٣ )

## المغرب فى السنوات الخمس الأخيرة من عصر الدولة الأموية

**١ - فشل حنظلة بن صفوان فى مواجهة الفتن فى المغرب وخروجه الى المشرق:**

لم يكن حنظلة بن صفوان قيسيا كما يذكر الدكتور حسين مؤنس [١]، ولكنه كان كلبيا يمنيا ، وكان معتدلا فى سياسته ، فلم يتعصب للكلبيين على القيسيين، ولذلك ساد الأمن والهدوء ربوع إفريقية فى السنة الثانية لانتصاره على عبد الواحد الهوارى وعكاشة الفزارى الخارجيين ، فى خلافة الوليد ابن يزيد الذى عرف باعتداله فى عصبيته . ولكن فترة السلام كانت قصيرة الأمد ، إذ وردت الأخبار بنزول عبد الرحمن بن حبيب الفهرى بجزيرة قرقنة فى جمادى الأولى سنة ١٢٦ هـ ، وقيامه بالدعوة إلى نفسه فى تونس . وقد كان عبد الرحمن بن حبيب قد سار إلى الأندلس بعد انهزام الفهريين فى بقدورة ،

---

(١) يبدو أن الدكتور مؤنس قد اختلط عليه أمر حنظلة بن صفوان فذكر أنه كان قيسيا بقوله : « ولكن الثابت أن حنظلة بذل أقصى جهده فى الاستبدار بالسلطة والمعركة الحقيقية الخاسرة، وأنه تناسى تحيزه فى هذه اللحظة الحاسمة .. » ( أطلس فجر الأندلس ص ١٢٣ ) . وعلى هذا الأساس عرض الدكتور مؤنس رأيه فى أن مقتل الوليد بن يزيد كان إيذانا بانتصار اليمنيين وعونهم لله السلطان ، ويعنى باليمنيين عبد الرحمن بن حبيب الفهرى وأنصاره من العرب . والحقيقة الأمر أن المسألة لا تعدو صراعا بين اليمنيين من عرب المغرب وبين العرب الطارئين على المغرب من المشرق وهم القاعدون من القيسية واليمنية معا . ولم يكن خطر الصراع بين العصبيتين اليمنية والقيسية قد قام بعد ، إنما قام فى الأندلس عندما تعاون أبو الخطار وعامر بن مرثد الجذامى على الصميل ويوسف فى سنة ١٤٠ هـ ، واشتعلت نار الحرب بين العصبيتين اليمنية والقيسية ، وهى أول حرب كانت فى الإسلام بهذه الدعوة ولم تكن حرب قبل هذه الوقيعة » ( أخبار مجموعة ، ص ٩٩ )

عسى أن يجد لنفسه هناك سبيلا للوصول إلى الإمارة ، ولكنه لم يتمكن من الظفر بها في دوامة الصراع بين البلديين والشاميين ، فلما وجه حنظلة أبا الخطار إلى الأندلس أميرا ، يئس عبد الرحمن مما كان يرجوه ، وخاف أن يقع في قبضة أبي الخطـــار الذي كان لا يتردد في القضاء على كل متمرد ثائر . فركب سفينة حملته إلى تونس . وكان عبد الرحمن مايزال متطلعا إلى الإمارة ، ولم يكن يبالي بركوب الصعاب في سبيل نيلهـا ، ولا ندري لـماذا عاد إلى المغرب ، فقـــد كان حنظلة بن صفوان كلبيا يمنيا مثله ، كما أن تعليل عيينة بأن مقتل الوليد بن يزيد كان يعني انتصار اليمنيين على القيسيين لا يعدو أن يكون تعليلا ضعيفا ، فحنظلة بن صفوان كان كلبيا ، وأبو الخطار الحسام كان كلبيا كذلك ، بل إن الأحداث التي جرت في الأندلس ستثبت انتصار القيسية على اليمنية [1] ، وأعتقد أن وفود عبد الرحمن بن حبيب إلى المغرب وقيامه بالدعوة لنفسه يرجع إلى أنه آثر أن يتعاون مع العرب الأفارقة والبربر الزناتيين ، فقد كان لا يهمه إلا أن يحظى بتأييد البربر ما دام في ذلك سبيلا يوصله إلى الإمارة [2] . وقد فعل عمه يوسف بن عبد الرحمن الفهري ما يشبه ذلك بتحالفه مع القيسية ضد اليمنية ، لكي يصل إلى إمارة الأندلس . ولا شك أن عبد الرحمن بن حبيب كان يشعر بأنه زعيم العرب الأفارقة ، فهو من أقدم بيوت العرب الفاتحين الذين استقروا بافريقية منذ أسس جده الأول عقبة بن نافع مدينـــة القيروان ، وساهم أبوه حبيب ابن أبي عبدة وجده أبو عبدة بن عقبـــة بنصيب وافر في الفتح العربي للمغرب .

---

(١) تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ، ص ١٦٢ وما يليها .

(٢) كانت أمه برمودية من جبال أوراس وربما كان ذلك سببا في توكيد البربر

فلما أجاب أهل تونس من العرب البلديين والبربر عبد الرحمن بن حبيب إلى دعوته، فكر حنظلة بن صفوان في الخروج إليه، والزحف لمقاتلته، ولكنه لم يلبث أن عدل عن هذا الخاطر حقنا لدماء العرب[1]. فقد كان حنظلة لا يرى القتال إلا لكافر أو خارجي[2]، وآثر أن يبعث إليه وفدا من وجوه إفريقية عددهم خمسين رجلا، ليراجعوه فيما هو بسبيله، ويدعوه إلى مراجعة الطاعة، فلما قدموا إليه، انتهز هـذه الفرصة وقبض عليهم، وأوثقهم في الحديد، وأقبل بهم إلى القيروان[3]، مع أنصاره الأفارقة، وعسكر بهم في موضع قريب من القيروان يعرف بسبخة سجوم في أوائل سنة ١٢٧ هـ (٧٤٥ م)[4]. وكتب من هناك إلى حنظلة ومن معه يطلب إليهم ترك القيروان وإخلاء البلاد، وأمهلهم ثلاثة أيام للخروج منهـا، وذكر لهم أنه سيدخل القيروان، وأنذرهم بقوله: «إن رمى أحد من أولئهم بحجر قتلتهم»[5]. وكان في إمكان حنظلة أن يقاوم عبد الرحمن ابن حبيب، ولكنه أنف من مقاتلة إخوان له، لأن في ذلك تمكين الأعداء العرب من البربر الصفرية الذين كانوا يترصدون للعرب، وينتظرون فرصة مواتية للوثوب عليهم وإبادتهم، وهم الذين يفيدون بطبيعة الحال من انقسام

---

(١) ابن عذارى، جـ ١، ص ٦٥

(٢) ابن الأثير، جـ ٤، ص ٢٧٨

(٣) ابن عبد الحكم، ص ٢٠٠ — ابن عذارى، جـ ١، ص ٦٥ — ابن الأثير، جـ ٤ ص ٢٧٨ — ابن خلدون، جـ ٤، ص ١٠٢

(٤) حسين مؤنس، نقلا عن النويري، فجر الأندلس، ص ١٢٩

(٥) ابن عذارى، جـ ١، ص ٦٥ — ابن الأثير، جـ ٤، ص ٢٧٨ — السلاوي، جـ ١، ص ١١٧

الصف العربي ، ثم إن حنظلة كان قد زهد في الإمارة ، وكره أن يقاتل من أجل الاحتفاظ بها عربا مثله وعربا يمنيين بالذات ، يضاف إلى ذلك أن إنذار عبد الرحمن بن حبيب كان يعني ذبح رجال أبرياء ، وهم الرسل الذين كان قد بعثهم حنظلة إلى عبد الرحمن ليراجعوه عن قصده ، لذلك كله آثر أن يتنازل عن الإمارة له ، ويعود إلى دمشق ، وقد القاضي والعمال ، وفتح بيت المال ، فأخذ منه ألف دينار ، وترك الباقي ، وقال : لا أتلبس منه إلا بقدر ما يكفيني ويبلغني »[1] . ثم إنه جمع أتباعه وخرج عن إفريقية في جمادي الأولى سنة ١٢٧ هـ ، متجها إلى دمشق . ودخل عبد الرحمن بن حبيب القيروان ، ونهى الناس عن تشييع حنظلة .

ب ـ ثورات البربر في المغرب في ولاية عبد الرحمن بن حبيب الفهري :

لم يمكث الخليفة يزيد بن الوليد المعروف بالناقص في الخلافة سوى ستة أشهر ثم توفي في ٩ ذي الحجة سنة ١٢٦ هـ ، فتولى الخلافة من بعده أخوه ابراهيم بن الوليد بعهد منه ، ثم خلع نفسه لمروان الحمدي بعد مضي نحو شهر ونصف شهر فقط من توليته الخلافة ، وذلك بعد أن انهزم جيشه بقيادة سليمان بن هشام أمام جيش مروان الحمدي في عين الجر ( منجر بلبنان ) ، وبايع أهل دمشق مروان بالخلافة في سنة ١٢٧ هـ ، فبادر عبد الرحمن ابن حبيب بارسال بيعته إلى مروان مع بعض الهدايا[2] . فأقره مروان على ولاية إفريقية . ولم يكن ابن حبيب في حاجة إلى هذه الولاية ، إذ كان قد اغتصبها بالفعل ، وأصبح أميراً شبه مستقل عن الخلافة ، ولكنه أراد أن يسبغ على

---

(١) ابن عذاري ، ج ١ ، ص ٦٧

(٢) نفس المرجع

حكمه شرعية عدم سلطانه عند البربر ، وإن كان البربر في المغرب كله أصبحوا لا يقيمون وزنا للخلافة الأموية بعد أن فقدت هيبتها ، بل كانوا يتطلعون للقضاء على أي نفوذ لها ، ويترقبون الفرص المواتية للاستقلال ببلادهم . فلم يمض شهر واحد على إمارة عبد الرحمن بن حبيب حتى تفجرت براكين الثورة في أنحاء المغرب . ففي تونس ثار عليه عروة بن الوليد الصدفي ، واستولى على تونس ، وفي الساحل شق عليه المغرب عصا الطاعة تحت زعامة أبي عطاف عمران بن عطاف الأزدي ، نزل بطبيقاس [1] ، وثار البربر في المناطق الجبلية ، واستشرى داء البربر ، واغتنم أمر الخارجيـــة ورؤوسها ، فانتفضوا من أطراف البقاع ، وتواثبوا على الأمر بكل ما كان ، داعين إلى بدعتهم ، وتولى كبر ذلك يومئذ صفاجـــة » [2] . والتفت صفاجة حول زعيم من زعمائهم اسمه ثابت الصفاجي واستولوا على باجة ، كما ثار معه عبد الله بن سكردید من أمرائهم فيمن تبعه من بربر صفاجة . وفي طرابلس ثار عبد الجبار والحارث من هوارة ، وكانوا على مذهب الإباضية ، لقيام إلياس بن حبيب الفهري بقتل زعيمهم عبد الله بن مسعود التجيبي . فقتلوا عامل طرابلس بكر بن حبيب القيسي عندما خرج يدعوهم إلى السلم [3] ، كذلك ثار إسماعيل بن زياد الإباضي فيمن معـــه من بربر نفوسة ، واستولى على قابس . وكان لا بد لعبد الرحمن بن حبيب الذي تشبث بالإمارة أن يعمل على إخماد هذه الثورات ، فبدأ بثابت الصفاجي

---

(١) ابن الأثير ، ج ٤ ، ص ٢٧٩

(٢) ابن خلدون ، ج ٦ ، ص ٢٢٣

(٣) ابن عذارى ، ج ١ ص ٦٦ — ابن الأثير ، ج ٤ ، ص ٢٣٩ — ابن خلدون ، ج ٤ ، ص ٢٢٣

بباجة ، وأرسل أخاه إلياس بن حبيب الفهرى على رأس ستمائة فارس لمهاجمة أبى عطاف الأزدى ، وأوصاه أن يتظاهر بمتابعة السير إلى تونس لقتال عروة بن الوليد الصدفى ، فيخدعهم بذلك . فيأمنون ناحيته ، ثم ينقلب عليهم ويفاجئهم بالهجوم . ففعل إلياس ما أوصاه به أخوه ، وأغار على طبنة وأهلها غافلون ، لا يتوقعون منه ذلك ، فدهمهم برجاله ، فقتل منهم عددا عظيما . من بينهم أبو عطاف نفسه ، وذلك فى سنة ١٣٠ هـ . ثم كتب إلى عبد الرحمن يبشره بهذا النصر ، فأمره بالسير إلى تونس ، ومفاجأة عروة ابن الوليد وأصحابه قبل أن يتنبهوا له . ففعل ما أمره به ، ونجح فى هزيمة عروة بن الوليد ، وقتله ، واسترجع تونس ، وأقام بها (١) .

ثم ولى عبد الرحمن وجهه بعد ذلك نحو الحارث بن تليد الحوارى ، وعبد الجبار بن قيس الحوارى الثائرين بطرابلس ، فزحف إليهما بجيش كثيف فى سنة ١٣١ هـ ، وتمكن من قتلهما بالخديعة ، وقضى بذلك على ثورتهما ، كما هاجم اسماعيل بن زياد النفوسى وقتله ، وهزم جيشه ، واستعاد طرابلس ، وعمر سورها فى العام التالى سنة ١٣٢ هـ (٢) ، فانتقل الناس إليها من كل مكان (٣) . وما كاد عبد الرحمن ينتهى من خوارج طرابلس حتى عاد إلى القيروان ، ثم غزا تلمسان فى سنة ١٣٥ هـ ، وقضى على الثائرين فيها من البربر (٤) .

---

(١) نفس المرجع — ابن الأثير ، ج ٤ ، ص ٢٢٩

(٢) ابن الأثير ، ج ٤ ، ص ٢٢٩

(٣) أنظر تفاصيل مقتلهما فى فتوح افريقية والأندلس لابن عبد الحكم — ابن عذارى ج ١ ، ص ٦٩ .

(٤) ابن الأثير ، ج ٤ ، ص ٢٢٩ — ابن خلدون ، ج ٦ ، ص ٢٢٢

وهكذا يطش عبد الرحمن بن حبيب بأعدائه البربر الإباضية فى كل مكان، وكان سفاكا للدماء، وفى ذلك يقول ابن عذارى : « وأمعن عبد الرحمن ابن حبيب فى قتل البربر، وامتحن الناس بهم، واجلاهم بقتل الرجال صبرا، يؤتى بالأسير من البربر، فيأمر من يهمه بتحريم دمه بقتله، فيقتله »[1]. وكان يصطنع الحيلة والخديعة فى التغلب على أعدائه، فقد رأينا كيف انتصر على خصميه أبى عطاف عمران الأزدى فى طيفاس، وعروة بن الوليد فى تونس، كذلك استعمل دهاءه فى القضاء على ثورة طرابلس التى تأسست فيها إمامة عبد الله بن مسعود التجيبى، وهى إمامة كانت من أشد من سرت إلى قابس، وكانت هذه الإمامة قد تقوت بانضواء برير هوارة وتقوسه إلى الإباضية، فعمد عبد الرحمن بن حبيب إلى تولية أخيه الياس على طرابلس حتى يقضى على حركة الإباضية قبل أن تستفحل، ولم يتردد إلياس فى قتل عبد الله بن مسعود التجيبى زعيم الإباضية ظنا منه أنه إذا قضى على الرئيس تفرق شمل الإباضية (٢)، ولكن الإباضية بايعوا الخارث بن تليد الحضرمى بالإمامة عليهم فاتخذ عبد الجبار بن قيس وزيرا، وأسس الحارث بذلك جمهورية مستقلة عن المغرب، ولما لم يتمكن عبد الرحمن من التغلب على خصميه بقوة السلاح لجأ إلى الخديعة، فدس عليهما عصابة من أتباعه فى طرابلس قتلوهما فى دار الندوة، ثم أدخلوا على كل منهما سيفا وجعلوا مقبضه إلى جهة الآخر ليوهموا الناس بأنهما تنازعا، فتقاتلا فقتل كل منهما الآخر. وأحدث عبد الرحمن بذلك انقساما بين الإباضية حول قضية

---

(١) ابن عذارى، ج ١، ص ٦٦

(٢) محمد على دبوز، تاريخ المغرب الكبير، ج ٢، القاهرة ١٩٦٣، ص ٤١١

الفتيان ، فانقسم الإباضية على أنفسهم ، وولت إمامة اسماعيل بن زياد النفوسي بين مظاهر الاضطراب والانقسام ، فعاجله عبد الرحمن بالهجوم قبل أن يتمكن الإباضية من توحيد صفوفهم ، فقتل اسماعيل وانهزم جيشه .

وعلى هذا النحو تغلب عبد الرحمن بن حبيب على جميع خصومه .

# الفصل الرابع

## المغرب فى فترة الإنتقال بين سقوط الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية

(١) النزاع بين بنى عبد الرحمن بن حبيب

ا — مقتل عبد الرحمن بن حبيب وولاية إلياس

ب — انقراض بنى حبيب الفهرى فى المغرب

(٢) الصراع بين الإباضية فى طرابلس والصفرية فى إفريقية

ا — غلبة الخارجية على المغرب

ب — موقف الخلافة العباسية من الخوارج فى المغرب

ج — ولاة إفريقية فى العصر العباسى حتى قيام دولة بنى الأغلب :

١ — الأغلب بن سالم بن عقال بن خفاجة التميمى ( ١٤٨ — ١٥٠ هـ )

٢ — أبو جعفر عمر بن حفص بن عثمان بن قبيصة المعروف بهزار مرد

٣ — يزيد بن حاتم وقضاؤه على ثورة البربر الإباضية

٤ — روح بن حاتم بن قبيصة

٥ — المفضل بن روح بن حاتم

٦ — هرثمة بن أعين

٧ — محمد بن مقاتل العكى

# الفصل الرابع

## المغرب فى فترة الإنتقال بين سقوط الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية

### ( ١ )

### النزاع بين بنى عبد الرحمن بن حبيب

١ ـ مقتل عبد الرحمن بن حبيب وولاية إلياس :

سقطت الدولة الأموية فى سنة ١٣٢هـ ، وقامت الدولة العباسية على أنقاضها ، فأعلن عبد الرحمن بن حبيب دخوله فى طاعة أبي العباس السفاح مولاتوفى السفاح فى سنة ١٣٦هـ، وبويع أبو جعفر المنصور بالخلافة، أقر عبد الرحمن بن حبيب على ولاية إفريقية، وأرسل إليه خلعة سوداء ، وهو أول سواد دخل إفريقية، ثم كتب إلى عبد الرحمن بن حبيب يدعوه إلى الطاعة ، فأجابه، ودعا له ، ووجه إليه بهدية من بينها بعض الذهب وبزاة وكلاب ، وكتب إليه يقول : « إن إفريقية اليوم إسلامية كلها ، وقد انقطع السبي منها والمال ، فلا تطلب منى مالا » [1] . فغضب المنصور، وأرسل إلى عبد الرحمن كتابا يهدده فيه ويتوعده . فلما وصل الكتاب ، جمع عبد الرحمن الناس للصلاة ، ثم صعد المنبر ، وأخذ يسب أبا جعفر ويقول : « إني ظننت أن هذا الطاغى يبعث إلى

---

(١) ابن الأثير ، ج ٥ ، ص ٢٨٠.

الحق ، ويقوم به . حتى تبين لى خلاف ما بايعته عليه من إقامة العدل ، وإن الآن قد خلعته ، كما خلعت نعلى هذا ، وقذفه من رجله . ثم دعا بخلع السواد وأمر بحرقها » ، وقيل إنه أحرقها [1] .

وكان العباسيون يتعقبون أمراء بنى أمية حيث كانوا ، ويقتلونهم أينما وجدوهم ، فتفرق بنو أمية فى أطراف البلاد للنجاة بأرواحهم ، وكان فى جملة من فر إلى المغرب إبنان للوليد بن يزيد ، هما الياس وعبد المؤمن ، وكان عبد الرحمن بن حبيب وأخواه عبد الوارث والياس ، قد تزوجوا من بنات أعمامهما ، فلما قدما إلى المغرب استضافهما عبد الرحمن فى دار من دوره ، ولكنه علم أنهما يسعيان للظفر بالإمارة ، فقتلها . فحرضت بنت أبان ، زوجة إلياس ، زوجها على قتل أخيه عبد الرحمن ، ويذكر ابن الأثير أنها قالت : « إن أخاك قد قتل أخاك ولم يراقبك فيهم ، وتهاون بك ، وأنت سيفه الذى يضرب به ، وكلما فتحت له فتحا كتب إلى الخلفاء إن ابن حبيبا فتحه ، وقد جعل له العهد بعده ، وعزلك عنه ، ولم تزل تغريه به ، فتحرك لقولها ، وأعمل الحيلة على أخيه » [2] . ووافقه على ذلك أخوه عبد الوارث بموجاة من القيروان . واتفق أن خلع عبد الرحمن بن حبيب فى هذه الآونة طاعة المنصور ، فاتخذ المؤامرون من ذلك وسيلة لقتله ، وتأمير إلياس ، وإعادة الدعوة لابن جعفر للمنصور . ويبدو أن عبد الرحمن أحس بشىء من تلك المؤامرة [3] . فولى أخاه إلياس على تونس ، فأتاه إلياس ليودعه قبل رحيله ،

---

(١) ابن عذارى ، ج ١ ص ٧٦

(٢) نفس المرجع ص ٦٨ . ابن الأثير ص ٢٨٠

(٣) ابن الأثير ، ص ٢٨٠

ثم قتله . ويروى ابن عذارى قصة قتله بقوله : « وكان عبد الرحمن قد ولى أخاه إلياس تونس ، ووعده الخروج إليها ، وعبد الرحمن إذ ذاك مريض ، فدخل عليه وهو فى غلالة ورداء ، وابن له صغير فى حجره ، فقعد طويلا ، وعبد الوارث يغمزه ، فلما علم بوعده ، أكب عليه ووضع السكين بين كتفيه حتى وصل إلى صدره ، ثم رد يده على السيف فنحره ، وخرج هاربا دهشا . فقال له أصحابه : ما فعلت ؟ قال : قتلته . قالوا : إرجع فجز رأسه . فرجع وجزه ، وثارت الصيحة ، وأخذ إلياس أبواب دار الإمارة ، وسمع إبنه حبيب الصيحة ، فأخبر بقتل والده ، فاختفى ، ثم تحاول على وجهه إلى باب تونس ، أحد أبواب القيروان . فخرج منه ، ومضى الى عمه عمران بن حبيب ، وهو والى تونس لوالده »[1] . وتم قتل عبد الرحمن فى ذى الحجة سنة ١٣٧ هـ .

وهكذا أسدل الستار على عبد الرحمن بن حبيب الفهرى بعد أن قضى فى الإمارة عشر سنوات وسبعة أشهر ، قضاها كلها فى حروب مع البربر ، وقد كان عبد الرحمن هذا يطمع فى التغلب على الاندلس منذ أن فر اليها بعد هزيمة البربر للعرب فى بقدورة ، ومع أنه ظفر بامارة المغرب ، إلا أنه كان ما يزال طامعا فى احتلال الاندلس ، وفى ذلك يروى المؤرخون أن كان فى بلاط ابن حبيب يهودى عالم بالحدثان ، قد صحب مسلمة بن عبد الملك ، فذكر لابن حبيب أنه يغلب على الاندلس رجل من أبناء الملوك يقال له عبد الرحمن له ضفيرتان ، ومن بيت الملك ، فاتخذ ابن حبيب ضفيرتين ، أرسلهما رجاء أن تناله الرواية ، فلما قدم عبد الرحمن بن معاوية الى المغرب

---

(١) ابن عذارى ، ج ١ ص ٧٧

بعد أن أفلت من أيدي العباسيين ، وكانت له ضفيرتان ، لم يقتله حتى لا تتحقق نبوءة اليهودي [١] ، وطارده ولكن ابن معاوية تمكن من دخول الأندلس ، واغتلب على يوسف بن عبد الرحمن الفهري [٢] ، وأحيا بذلك ملك بني أمية في الاندلس بعد انقطاعه .

ب ـ الفرار بن حبيب الفهري في المغرب :

لما قتل عبد الرحمن بن حبيب على يدي أخيه الياس ضبط هذا أبواب قصر الإمارة حتى يمنع حبيبا بن عبد الرحمن من الفرار ، ولكن حبيبا تمكن من الإفلات . ولاذ بعمه عمران الذي كان يطمع في إمارة إفريقية . واتفق حبيب وعمه عمران على محاربة إلياس وعبد الوارث ، فأعدا جيشا لذلك الغرض ، ولكن الياس فضل أن يبدأ هو بالهجوم ، فسار إليها على رأس جيشه ، ويذكر ابن الاثير أن الياس سار اليها ، واقتتلوا قتالا يسيرا ، ثم اصطلحوا على أن يكون لحبيب قفصة وقسطيلية ونفزة ( لعلها قعلة بالقليم المجريد ) ويكون لعمران تونس وصفاقسة والجزيرة ، ويكون سائر

---

(١) أخبار مجموعة ص ٨٨ ، راجع الى تعليق على هذه القصة في كتابي « تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس » ص ١٢٧

(٢) ذكر السلاوي أن يوسف الفهري كان ابنا لعبد الرحمن بن حبيب الفهري (السلاوي ج ١ ، ص ١١٨ ) . والواقع أن يوسف الفهري كان ابنا لعبد الرحمن بن عقبة بن نافع ، وكان طاعنا في السن عندما ولاه العسيل امارة قرطبة ، فليس من المعقول أن يكون ابنا لعبد الرحمن بن حبيب . وتذكر حولية موسك أنه كان حاكما لمدينة أربونة في عام ١١٦هـ (٧٣٤م) ( أنظر Chronicon Moissiacense, Apud. Ajbar Machmuâ, p.165) كذلك أشار المقري إلى أنه كان عاملا لأربونة في عهد عبدالملك بن قطن في ولايته الأولى على الأندلس ، وفي عهد مروان بن رباط المسلمين على غير رضوة ( المقري ، ج ١ ، ص ٣٢٠ )

إفريقية لإلياس ، وكان هذا الصلح سنة ثمان وثلاثين ومائة [1] . ولكن إلياس كان يضمر السوء بأخيه عمران ، إذ كان يخشى منه على إمارة إفريقية ، فعمل على التخلص منه أولا ، ثم يتفرغ بعد ذلك للتخلص من حبيب. فلما سار حبيب إلى عمله من بلاد الجريد ، ورحل عمه عمران إلى تونس غدر إلياس بعمران فقتله ، وقتل أنصاره من أشراف العرب واسترجع تونس ، ثم عاد إلى القيروان [2]. وذكر ابن عذارى ان الياس وثب على عمران وبعث به إلى الأندلس ، وولى على تونس محمد بن المغيرة . وانصرف بعد ذلك إلى القيروان [3] ولكن الارجح أن الياس قتل عمرا ، لأنه كان يخاف منه على ملكه ، وبقى بذلك ابن خلدون [4]. فلما قتل عمران ، لم يعد الياس يخاف من حبيب وظن انه أصبح سيد الموقف ، فبعث بطاعته إلى أبى جعفر المنصور مع وفد من العرب منهم عبد الرحمن بن زياد بن أنعم قاضى إفريقية [5] .

وكان من الطبيعى أن يسىء حبيب الغدر الياس بعمه عمران ، ونكثه لعهده معه ، ويبدو انه عزم على محاربة إلياس ، وبلغ الياس ذلك ، « فدس له من زين له الخروج إلى الأندلس ، فعمل ، ووجه معه شقيقه عبد الوارث ومن أحب من مواليه ، فركبوا البحر ، وقد تحذرت بهم الريح ، فكتب حبيب إلى الياس ، إن الريح ردته ، ووقفوا بطرقة ، فكتب الياس إلى عامله بها يحذره من أمره . فسمع به موالى عبد الرحمن وأهل طاعته ، فأتوا

---

(١) ابن الأثير ، ج ٤ ، ص ٢٨٠

(٢) نفس المرجع

(٣) ابن عذارى ، ج ١ ، ص ٧٨

(٤) ابن خلدون ، ج ٤ ، ص ٤٠٨

(٥) ابن الأثير ، ج ٤ ، ص ٢٨٠ — ابن خلدون ، ج ٤ ، ص ٤٠٩

إليه من كل ناحية ، وطردوا سليمان بن زياد عامل الياس ، وهـــو فى معسكره بحرس حبيبا ، فأسروه ، وشدوا وثاقه ، وركبوا إلى حبيب ، فأخرجوه الى البر »[1] .

التف موالى عبد الرحمن بن حبيب بابن مولاهم ، فاجتمعوا على طاعته ، ثم زحف نحو القيروان ، فاستولى على الاربس . وعندئذ خرج الياس بعد أن استخلف على القيروان محمد بن خالد الذرنى[2] . فلما التقيا تقـاتل الفريقان قتالا خفيفا ، فلما أمسى حبيب أوقد النيران ليظن الناس أنه مقيم ، ثم أسرى ، فأصبح بجلولا ، ثم عاد الى القيروان فاستولى عليهـــا »[3] وأخرج من سجنها من كان محبوسا ، فكثرت جموعه ، وعاد الياس لمحاربته ولكن أكثر جنده افترقوا عنه ، وانضمـــوا إلى عسكر حبيب . عندئذ خرج إليه حبيب فى حشود كثيفة ، فلما التقيا ، نادى حبيب : لم نقتل صناعنا وموالينا ، وهم لنا حصن ، ولكن أبرز أنت وأنا ، فأينا قتل صاحبه استراح منه فنادى الناس : قد أنصفك يا إلياس . فخرج كل واحد منهما إلى صاحبه ، ووقف أهل العسكر ينظرون . فتطاعنا حتى تكسرت قناتاهما . ثم تضاربا بسيوفهما ، وعجب الناس من طول صبرهما على القتال ، ولكن التعب بدأ يظهر على الياس ، وبدأت قواه تخور ، فضربه حبيب ضربة أسقطته . ثم أكب عليه فحز رأسه ، وأمر برفعه على رمح ، وأقبل به إلى

---

(١) ابن عذارى ، ج ١ ، ص ٢٨

(٢) نفس المرجع ، ص ٢٩

(٣) نفس المرجع .

القيروان فدخلها ، فى سنة ١٣٨ هـ (١) .

ولاذ إخوة الياس بعد مقتله ببطن من بطون بربر نفزة يقـــال لهم ورفجومة ، وكانوا من غلاة الصفرية ، ونزلوا فى كنف أمير ورفجومة ويدعى عاصم بن جميل ، فكتب إليه حبيب يأمره بردهم إليه ، ولكن عاصم نصرهم وحماهم من بطش حبيب بهم . فزحف إليه حبيب ، واصطدم معه فى موقعة انتهت بهزيمـــة حبيب ، فتراجع إلى قابس ، وقوى أمر ورفجومة على أثر ذلك ، وتضخم عسكرهم بمن انضم إليهم من الخوارج. وكان عاصم زعيمهم كاهنا « ادعى النبوة والكهانة ، فبدل الدين ، وزاد الصلاة ، وأسقط ذكر النبى ﷺ من الأذان »(٢). ولما رأى أهل القيروان تغلب عاصم على حبيب ، كتبوا إليه يدعونه للولاية عليهم على أن يدعو لأبى جعفر المنصور ، فزحف عاصم وأخوه مكرم على رأس جموع البربر ومن انضم إليهم من العرب ، إلى القيروان ، وخرج القاضى أبو كريب جميل ابن كريب ، نائب حبيب فى القيروان ، لقتالهم ورفجومة ، ولكن الناس تفرقوا عنه ، وبقى أبو كريب مع ما يقرب من ألف رجل يقاتلون حتى الموت ، فقتل أبو كريب وأكثر رجاله ، ودخل بربر ورفجومة القيروان فى ذى الحجة سنة ١٣٨ هـ ، فاستحلوا المحارم . وارتكبوا الكبائر . ونزل عاصم بمصلى روح (٣) ، وذكر ابن الأثير أنهم ربطوا دوابهم فى جامع القيروان

---

(١) ابن عذارى ، جـ ١ ، ص ٨٠ — ابن الأثير ، جـ ٤ ، ص ٢٨٠ — ابن خلدون ، جـ ٤ ، ص ٤٠٦ — السلاوى ، جـ ١ ، ص ١٢٦

(٢) ابن الأثير ، جـ ٤ ، ص ٢٨٠ — ابن خلدون ، جـ ٤ ، ص ٤٠٩

(٣) ابن عذارى ، جـ ١ ، ص ٨١

وأفسدوا فيه (١).

ثم استخلف عاصم بن جميل عبد الملك بن أبي الجعد الوزجوى على القيروان ، وسار لقتال حبيب في قابس ، فهزمه ، وفر حبيب إلى جبل أوراس ، واحتمى بمعاقله ، وطارده عاصم واشتبك معه في قتال عنيف أسفر عن قتل عاصم في جملة أصحابه . فسار حبيب على أثر ذلك إلى القيروان ، فقضاء على عبد الملك بن أبي الجعد ، خليفة عاصم بن جميل ، فهزمه عبد الملك وقتله في المحرم سنة ٢١٤هـ (٢).

وبمقتل حبيب تمت سيادة البربر الصفرية على إفريقية والمغرب ، وفقد العرب كل سلطان لهم في هذه البلاد .

---

(١) ابن الأثير ، ص ٢٨٠

(٢) نفس المرجع ، ص ٢٨١ — ابن عذارى ، ج ١ ، ص ٨١ — ابن خلدون ، ص ٤٠٩

## (٢)

## الصراع بين الخوارج الاباضية فى تونس والصفرية فى إفريقية

### ١ ـ غلبة الخارجية على المغرب :

بعد أن قضى عبد الرحمن بن حبيب على إمامة الإباضية بطرابلس بقتل مؤسسيها الحارث بن تليد ، وعبد الجبـــار بن قيس الهوارى ، وخليفتهما إسماعيل بن زياد النفوسى ، استعمل على طرابلس عمرو بن سويد الوادى(١). ولكن قضاء ابن حبيب الفهرى على زعماء الإباضية لم يقض على الحركة نفسها فى ولاية طرابلس ، فقد كانت تعاليمها قد رسخت فى النفوس ، بل إن الوسيلة البشعة التى توسل بها ابن حبيب للقضاء على الإمامة الإباضية أثارت عليه نفوس سكان هذا الإقليم . ولما انتصرت وزجومة على حبيب بن عبد الرحمن ، وتغلبت على القيروان ، وانقرضت بذلك دولة بنى حبيب الفهرى فى إفريقية والمغرب ، انتهز الإباضية بنو لحى طرابلس هذه الفرصة ، وبايعوا أبا الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعـــافرى إماما عليهم فى طرابلس سنة ١٤٠هـ، من خليج سرت إلى قابس . وقد رأينا أنه كان واحدا من حملة العلم الخمسة الذين أخذوا فى البصرة أصول الخارجية الاباضية على أبى عبيدة مسلم ابن أبى كريمة البصرى . وكان سكان المغرب الأوسط قد تشيعوا أيضا بتعاليم الإباضيـــة ، فلم يلبث معظم هؤلاء السكان أن انضووا تحت لواء أبى الخطاب ، وبايعوه بالإمامة . وعلى هذا النحو أصبحت إمامة الإباضية تضم إقليم طرابلس ، وقسما كبيرا من المغرب الأوسط .

---

(١) ابن عبد الحكم ، فتوح مصر والمغرب ، ص ٢٠٢

أما إفريقية فقد خضعت لورفجومة ، بعد أن استولى زعيمهم عاصم بن جميل على القيروان . فلما قتل عاصم خلفه عبد الملك بن أبي الجعد على القيروان ، وكانت ورفجومة صفرية متطرفة ، قد خرج زعماؤها عن الدين الإسلامي ، وقد ذكرنا أن عاصم بن جميل ادعى النبوة ، والكهانة ، ولذلك فقد كانوا من الفساد والظلم والاستهتار بالدين [1] بحيث يستحلون المحرمات ويستهينون بالمساجد . وقد قام بربر ورفجومة بارتكاب كثير من الفظائع في القيروان بعد مقتل زعيمهم عاصم، فسفكوا كثيرا من دماء أهل القيروان، وهتكوا المحرمات ، وأساءوا إلى الدين الإسلامي . ويذكر ابن الأثير ، أن رجلا من الإباضية شاهد قوما من ورفجومة ، وقد أخذوا إمرأة قهرا والناس ينظرون ، فأدخلوها الجامع ، فترك الإباضي حاجتـــه ، وقصد أبا الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري، فأعلمه بذلك ، فخرج أبو الخطاب وهو يقول: يبك اللهم يبك ، فاجتمع إليه أصحابه من كل مكان، وقصدوا طرابلس الغرب، واجتمع إليه الناس من الإباضية والخوارج وغيرهم [2]. أما المغرب الأقصى ، فقد كان يخضع منذ هزيمة العرب في وقعـــة الأشراف للخوارج الصفرية البربر ، وقد حاول الصفرية بزعامة أبي يوسف الهواري ومكناسة بن أيوب الفزاري ، وعبد الواحـد بن يزيد الهواري، وأبي قرة المغيلي ، القضاء على العرب في إفريقية ، ولكن حنظلة تمكن من التغلب على جنود الصفرية، ففرق عسكرهم في نواحي المغرب الأقصى ، وكان من جملتهم عسكر برغواطة بزعامة طريف بن شمعون [3] ، فسار طريف إلى

---

(١) ابن الأثير ، ج ٤ ، ص ٢٨١

(٢) نفس المرجع

(٣) في أعمال الأعلام صالح بن طريف ( ابن العذاري ، أعمال الأعلام القسم الثالث ص ١٨ )

تامسنا ، وبايعه الناس هناك ، ويذكر ابن عذارى أنه شرع لهم تشريعا مخالفا للإسلام ، فلما مات خلفه ابنه صالح ، فادعى أنه أنزل عليه قرآن الصفرية الذى كانوا يقرأونه ، وعهد صالح إلى ابنه الياس بديانته وعلمه شرائعه وفقهه فى دينه ، وأمره ألا يظهر الديانة حتى يظهر أمره ، وينتشر خبره ، فيقتل حينئذ من خالفه » ، وزعم أنه المهدى الذى يكون فى آخر الزمان لقتال الدجال . ثم إنه خرج إلى المشرق فى سنة ١٧٤ هـ ، وخلفه ابنه الياس الذى ظل يحكم خمسين سنة [١] . وهكذا كان المغرب الإسلامى كله بعد انقراض دولة بنى حبيب الفهرى فى قبضة الخوارج الاباضية والصفرية والمراطقة البرغواطيين ، وسنرى موقف الخلافة العباسية إزاء هؤلاء الخوارج .

### ب ـ موقف الخلافة العباسية من الخوارج فى المغرب

لما استولت ورفجومة على القيروان ساءت أحوالها الظلم والعسف ، وأسرفوا فى ارتكاب المعاصى والفظائع وأعمال المنكر من سفك الدماء ، وهتك الحرمات ، ففر كثير من أهل القيروان إلى طرابلس لائذين فى حمى أبى الخطاب عبد الأعلى بن السمح ، وغادروا ما ارتكبه الورفجوميون من شروب البطش والظلم والطغيان والفساد ، واستباحة الأعراض ، وتدنيس المساجد . وكان عبد الأعلى عربيا من وجوه العرب الذين تقبلوا الخارجية على المذهب الإباضى المعتدل ، فلما بلغه ذلك غضب وأنكر من ورفجومة سلوكها ، فتحركت فى نفسه عوامل الغيرة على الإسلام ، فاستنفر أتباعه من الإباضية ،

---

(١) ابن عذارى ، جـ ١ ، ص ٦٠ ، ٦١ ـ ابن الخطيب ، المرجع السابق ، ص ١٨٤

وشايعه برابرة طرابلس وفى مقدمتهم هوارة ، وزحف بجموعه نحو القيروان لتطهيرها من دنس ورفجومه ، وتحرير أهل القيروان من استبدادها وطغيانها، وما إن علم عبد الملك بن أبى الجعد الورفجومى بذلك حتى خرج من القيروان فى حشود كثيفة من ورفجومة ومن أهل القيروان ، واشتبك الفريقان بالقرب من القيروان فى صفر سنة ١٤٩ هـ ، واشتد القتـــال ، ودارت الدائرة على عبد الملك ، إذ خذله أهل القيروان وانهزموا عنه ، فأغار فيهم عبد الأعلى ، وهزمهم، وقتل منهم عدداً كبيراً، من بينهم عبد الملك نفسه، وتمكن عبد الأعلى من دخول القيروان [١]، واستخلف عليها وليه عبد الرحمن بن رستم الفارسى أحد كبار علماء الإباضية ، وعاد هو إلى طرابلس إستعداداً لملاقاة القوات العباسية التى سيرها الخليفة أبو جعفر المنصور لقتاله .

واضطرب أمر الصفرية فى المغرب الأقصى بعـــد تغلب عبد الأعلى على إفريقية ، فاجتمع الصفرية من مكناسة على أبى القاسم بن سمغون بن واسول المكناسى فى الموضع الذى قامت عليه سجلماسة ، وشرعوا فى بناء هذه المدينة، ثم قدموا على أنفسهم عيسى بن يزيد الأسود ، أحد موالى العرب ، ثم أخذوا عليه بعض ما أخذ فعزلوه وولوا على أنفسهم أبا القاسم بن سمغون للمرة الثانية ، فلم يزل واليا عليهم حتى سنة ١٦٨ هـ، وهو جد بنى المدرار أصحاب سجلماسة ، وسنتحدث عنهم فى الفصل القادم .

وكان قد وفد على أبى جعفر المنصور بعـض عساكر العرب، منهم نافع ابن عبد الرحمن، وعبد الرحمن بن أنعم، يستصرخونه لإنقاذ إفريقية من فساد

---

(١) ابن عذارى ، جـ ١ ، ص ٨٢ ـ ابن الأثير ، جـ ٤ ، ص ٢٨١ ـ ابن خلدون ، جـ ٤ ، ص ٤١٠ ـ الدلاوى ، جـ ١ ، ص ١٢٤

ورجومة ، كما وفد إليه أيضا جيل السدراتى أحد جنود عبدالأعلى الإباضى الخارجين عليه [1] ، فولى المنصور محمد بن الاشعث الخزاعى على مصر وإفريقية ، وسير من مصر جيشا من السودة بقيادة أبى الاحوص عمر ابن الاحوص العجلى لاسترجاع المغرب ، وكان ذلك هو السبب فى عودة عبد الاعلى إلى طرابلس بعد تغلبه على عبد الملك بن أبى الجعد . فاشتبك عبد الاعلى مع القوات العباسية فى سرت ، وهزمهم فى سنة ١٤٢ هـ [2] ، وعاد فلهم إلى مصر . فعزل المنصور محمد بن الاشعث عن ولاية مصر ، وولاه قيادة الجيوش إلى المغرب ، وأقام مكانه على مصر حميد بن قحطبة ، فخرج ابن الاشعث على رأس جيش كثيف عدته خمسون ألف مقاتل [3] ، وكان فى جملة عساكره عدد من كبار القواد العباسيين ، نخص بالذكر منهم : الاغلب ابن سالم التميمى ، والمحارب بن هلال ، والمخارق بن غفار الطائى . وكان جيش عبد الاعلى يضم عسكرا من زناتة وهوارة ، فتنازعت هاتان القبيلتان ، واتهمت زناته عبد الاعلى بالميل إلى هوارة وعصابتها ، وفارقه عامة كبيرة من الزناتيين . وبلغ ابن الاشعث تخلى الزناتيين عن عبد الاعلى ، فقوى عزمه . ثم إنه تظاهر بأن المنصور أمره بالعودة إلى مصر ، وتباطأ فى سيره ، وتراجع بالفعل مسيرة ثلاثة أيام ، فوصل عيون أبى الخطاب وأخبره بعودة ابن

---

(١) محمد على دبوز ، المغرب الكبير ، ج ٣ ، ص ٥ ، ٦

(٢) ابن خلدون ، ج ٤ ، ص ١١٦ . ويذكر ابن عذارى أن المعركة حدثت فى بلدة على ساحل البحر .

(٣) ابن الأثير ، ج ٤ ، ص ٢٨١ . أشار ابن عذارى إلى أن ابن الأشعث خرج لزحام ٢٠٠ ألف مقاتل عسكر بهم فى أرض سرت ( ابن عذارى ، ج ١ ، ص ٨٣ ) ، وفى موضع آخر يذكر أنه خرج فى أربعين ألفا منهم ٢٨ قائدا ، وهو الأقرب إلى الصواب .

الاشعث ، فتفرق عنه كثير من أتباعه ، واطمأن الباقون ، فعاد ابن الاشعث مسرعا ، وفاجأ قوات عبد الاعلى على غير استعداد للحرب ، وهاجمها ، فوضع العباسيون السيوف فى الخوارج ، واشتد القتال ، وأسفرت الموقعة عن مقتل عبد الاعلى وعامة أصحابه فى صفر سنة ١٤٤ هـ [١] . حدثت هذه الوقعة بالقرب من تورغا الواقعة إلى الشرق من طرابلس وعمراطه ، وقد أبدى فيها الإباضية مع قلة عددهم وعدم تأهبهم للقتال كثيراً من ضروب الشجاعة والإقدام ، واستماتوا فى القتال حتى استشهدوا جميعا ، فاحتز ابن الاشعث رأس أبى الخطاب وأرسله إلى المنصور .

وكان أبو الخطاب قد استنفر الإباضية فى سائر نواحى طرابلس للجهاد ، وبادر هو للقاء ابن الاشعث . فلما انحصر ابن الاشعث على أبى الخطاب وخذله فى عامة أصحابه ظن أنه ضمن بذلك القضاء نهائيا على الإباضية ، ولكنه فوجىء بوصول أبى هريرة الزناتى أحد قادة أبى الخطاب فى ستة عشر ألفا من زناتة وغيرها [٢] ، جاءوا طالبين ثأر أبى الخطاب ، ولكن بعد فوات الأوان ، فالتقاهم ابن الاشعث ، ومزق صفوفهم ، وتمكن من إلحاق الهزيمة بهم فى ربيع الاول من سنة ١٤٤ هـ [٣] . وكان عبد الرحمن ابن رستم قد تأهب لنجدة أبى الخطاب ، فلما وصل إلى قابس ، بلغه ما انتهى إليه مصير أبى الخطاب ، فحمل وطنه ، وخرج من القيروان ، ولحق بإباضية المغرب الاوسط ، فنزل فى تاهرت ، وهى بطن من بنى فاتن بن نامصيت من البتر .

---

(١) ابن الأثير ، ج ٤ ، ص ٢٨١

(٢) ابن عذارى ، ج ١ ص ٨٣ — ابن الأثير ، ج ٤ ، ص ٢٨١

(٣) نفس المرجع .

لخلف كان بينه وبينهم ، فالتفوا حوله ، وبايعوه بالخلافة ، ورأى ابن رستم أن يقيم مدينة تكون قاعدة له في المغرب الأوسط على نحو ما فعله بنو الدرار في سجلماسه ، فشرع في بناء مدينة تاهرت في سنة ١٤٤ هـ ، وأتمها واستقر بها في سنة ١٤٥ (١) .

وكان ابن رستم قد استخلف أحد أتباعه على القيروان ، فأوقع أهلها في الحديد ، وولوا على أنفسهم عمرو بن عثمان القرشي ، فظل يقوم بأمرهم إلى أن وصل ابن الأشعث إلى القيروان ، ودخلها في غرة جمادى الاولى من تلك السنة (٢) . ثم كتب ابن الاشعث بانتصاراته إلى المنصور ، وأخذ يولي عماله على المغرب ، فأقام على طرابلس المغارق بن غفار الطائي ، كما ولى على طبنة والزاب الاغلب بن سالم (٣) . وأقام ابن الاشعث في القيروان سنة ١٤٥ هـ ، وأمر ببناء سورها في ذي القعدة سنة ١٤٥ ، وتم بناء السور في رجب سنة ١٤٦ هـ (٤) وسير من هناك جيشا بقيادة قائده إسماعيل بن عكرمة الخزاعي فدخل زويلة وودان ، وقتل زعيم الاباضية بزويلة وبدمر عبد الله بن يحيان الاباضي (٥) . وهكذا فرض ابن الأشعث سطوته على الجزيرة ، فأذعنوا له بالطاعة . ولم يشأ ابن الاشعث أن يقاتل الاباضية في المغرب الاوسط ، واكتفى باستيلائه على إفريقية ، إذ كان العباسيون يحرصون على الاحتفاظ بها في أيديهم لتكون سداً منيعاً أمام حركة الخارجية (٦) .

---

(١) البلاوي ، ج ١ ص ١٢٨

(٢) ابن عذاري ، ج ١ ص ٨١

(٣) ابن خلدون ، ج ٤ ، ص ١١٩

(٤) ابن عذاري ، ج ١ ، ص ٨٤ وما يليها

(٥) ابن عذاري ، ج ١ ص ٨٤ — ابن الأثير ، ج ٤ ، ص ٢٨٨

(٦) محمد علي دبوز ، ج ٢ ص ٣٠

ثم اشتعلت نار العصبية العربية من جديد فى بلاد المغرب ، فقد كان ابن الأشعث عتيا ، وكان معظم عسكره من المضرية ،فثار عليه رجل من جنده يقال له هاشم بن الشماخ بقمونية وتبعه عدد كبير من الجند ، فسير إليهم ابن الأشعث فرقة من جيشه هزمها هاشم ،وهنا أخذ القواد المضريون فى جيش ابن الاشعث يخرجون عليه وينضمون إلى هاشم كراهية لابن الاشعث(١) ، فسير إليهم ابن الاشعث جيشا آخر تمكن من إلحاق الهزيمة بهم ، وفر هاشم إلى تاهرت، وجمع هناك جموعا كثيفة من البربر بلغ عددهم نحو عشرين ألفا سار بهم إلى تهوذه ، فخرج إليهم جيش ابن الاشعث فهزمهم ، ففر هاشم وقتل جيشه إلى طرابلس، وهناك قتله رسول من الخليفة المنصور فى صفر سنة ١٤٧هـ وبذل الامان لأتباع هاشم، فعادوا،ولكن ابن الاشعث طاردهم وقتل منهم عددا كبيرا . فثار المضرية على ابن الاشعث ، وانفـــردوا على خلعه ، وأقاموا على إفريقية بعده عيسى بن موسى بن عجلان الخراساني، وذلك فى ربيع الآخر سنة ١٤٨ هـ(٢) .فخرج ابن الاشعث من إفريقيـة إلى المشرق، وظل عيسى بن موسى على إمارة المغرب إلى أن ولى المنصور على إفريقية الأغلب بن سالم .

ج – ولاة افريقية فى العصر العباسى حتى قيام دولة بنى الاغلب :

١ – الاغلب بن سالم بن عقال بن خفاجة التميمى (١٤٨ – ١٥٠):

هو جد بنى الاغلب الذين استقلوا بافريقية على أيام ابنه ابراهيم، وكان

---

(١) ابن الأثير ، ج ٤ ص ٢٨٢

(٢) عنان المصدر ، ج ١ ص ٢٨٣

الأغلب من أصحاب أبي مسلم الخراساني ، وساهم في نشر الدعوة العباسية بخراسان وعرف بالشجاعة والبلاء وحسن الرأي ، واشترك في حملة محمد بن الاشعث على المغرب ، فولاه على طبنة والزاب . فلما قام المضرية بثورتهم في القيروان على ابن الاشعث وخلعوه من ولاية إفريقية ، وطردوه إلى المشرق ، واختار أبو جعفر المنصور لهذا المنصب الخطير القائد الأغلب بن سالم ، لما عرفه عنه من الحزم والشجاعـــة وحسن الرأي ، ولكونه مضريا يرضاه المضريون الذين ثاروا على ابن الأشعث ، وبعث إليه المنصور عهده بولايته في آخر جمادى الآخرة سنة ١٤٨ هـ ، ثم كتب إليه المنصور يأمره بالعدل في الرعية وحسن السيرة في الجند ، وأوصاه بأن يحصن مدينة القيروان ، ويخندق حولها ، وينظم حاميتها ، ومن يثوب عنه فيها إذا هو استلزم الأمر رحيله لقتال الأعداء (١) . هذا الحرص على تحصين القيروان يدل دلالة واضحة على إلمام المنصور بشئون المغرب وعلى بعد نظره ، فقد كان يدرك كل الادراك أن شعب البربر يذهب من جديد في ثورة ثانية مع المذهب ، وقد صدق المنصور في ظنه وحدسه ، فان زناتة التي تمثل أكبر قبائل البربر البتر وأقواها تمسكت بالمذاهب الخارجية منها ، أحست بأن ولاة العباسيين على المغرب يسعون إلى معاداة الخارجيـة ، والقضاء عليها في المغرب كله ، ولذلك بايعت زناتة في نفس العام الذي تولى فيه الأغلب إمارة إفريقية بالإمامة رجلا لا يقل عن خالد بن حميد الزناتي الصفري في الشجاعة والبأس ، هو أبو قرة بن دوناس اليفرني الصفري ، الذي ضم الصفرية في المغربين الأوسط والأقصى ، ونظم صفوفهم (٢) ، واتخذ من تلمسان قاعدة له في المغرب الأوسط ، ومن طنجة

---

(١) ابن عذاري ، ج ١ ص ٨٦

(٢) محمد علي دبوز ، المغرب الكبير ، ج ٣ ص ٣٦

لقاعدة له في المغرب الأقصى ثم خرج أبو قرة على رأس جيش كثيف من البربر الزناتيين ، فآثر الأغلب أن يسير للقائهم ، فزحف بجيوشه حتى انتهى إلى الزاب ، فخاف أبو قرة أن يشتبك معه هناك في قتال ، فيتمكن الأغلب من التغلب عليه بسبب كثرة أنصاره في الزاب ، وقربها من القيروان قاعدة الأغلب في إفريقيـــة ، فانسحب غربا إلى طنجـــة ليستدرج الأغلب وجيوشه إلى المغرب الأقصى موطن الصفرية ، فيقضي عليه كما قضى خالدبن حميد الزناتي من قبل على كلثوم بن عياض القشيري ومعظم من كان معـه . ولم يكن الأغلب يهاب شيئا من ذلك ، فأراد أن يتابع زحفه ، ولكن جنده بدأوا يتفرقون من حوله ، فاضطر الأغلب إلى العودة إلى القيروان ، فعاد أبو قرة الى تلمسان (١) .

ثم جهز الأغلب جيشا آخر ، وخرج به للمرة الثانية لغزو الصفرية في المغربين الأوسط والأقصى في سنة ٢٨٠ هـ بعد أن استخلف على القيروان سالم بن سوادة ، ولما أوغل في بلاد المغرب أخذ جنده وقواده ينفضون من حوله ويتسللون إلى القيروان ، واتفق أن ثار على الأغلب أثناء مسيره أحد أبنائه من اليمنية بتونس وهو الحسن بن حرب الكندي ، وكان قد نجح في إثارة قلوب القواد والجند على الأغلب ، واستلطم إليه ، وكان ذلك هو السبب الذي دعا عسكر الأغلب إلى الإنفضاض من حوله وتفرقهم عنه إلى القيروان . وتمكن الحسن بن حرب من الاستيلاء على تونس ، وخرج في حشود كثيفة من أنصاره ومن انضم إليه من عسكر الأغلب إلى القيروان ،

---

(١) البلاوي ، الاستبصار ، ج ١ ص ١٢٩

فاستولى عليها ، وقبض على عاملها سالم بن سواده وحبسه [1] . وبلغ الأغلب هذه الأخبار ، فاغتم ، وانحرف عن خطته فى مقاتلة أبى قرة ، وعاد فى عدة يسيرة إلى القيروان ، وكتب إلى الحسن بن حرب ، يعرفه بفضل الطاعة ووبال المعصية ، فأعاد الجواب إلى الاغلب ، وفى آخره :

ألا قولا لأغلب غير سر * مقالة عن الحسن بن حرب
بأن البغى مرتعه وخيم * عليك وقربه لك شر قرب
فان لم تدعن لقتال سلمى * وعفوى فادن من طعن وضرب [2]

غضب الأغلب عند قراءة هذه الأبيات التى تتضمن معنى الوعيد والتهديد ، وعزم على المسير إلى الحسن ومقاتلته ، ولكن أصحابه نصحوه بالسير إلى قابس ، وحشد عساكره هناك ، وقالوا له : « ليس من الرأى أن تعدل إلى لقاء العدو فى هذه العدة القليلة ، ولكن الرأى أن تعدل إلى قابس ، فان أكثر من معه يجىء إليك لأنهم إنما كرهوا السير إلى طنجه لأنهم ، وتقوى بهم ، وتقاتل عدوك » [3] . ففعل الأغلب ما نصحوه به ، وتمكن من جمع حشود كثيفة من الجند ، واشتبك مع قوات الحسن ، فتغلب عليه ، وانهزم الحسن بن حرب إلى تونس ، ودخل الأغلب القيروان [4] ولم يسكت الحسن على ما أصابه من الهزيمة ، فكر بجيش هائل على الأغلب ، فخرج إليه الأغلب فى جمادى الآخرة سنة ٢٥٠هـ ، واقتتل الفريقان ، واشتد القتال

---

(١) ابن عذارى ، جـ ١ ص ٨٧
(٢) نفس المرجع
(٣) ابن الأثير ، جـ ٥ ص ٢٦
(٤) نفس المرجع — ابن عذارى ، جـ ١ ص ٨٧

فأصيب الأغلب بسهم قتله ، بينما ثبت رجاله وقدموا على أنفسهم المخارق بن غفار الطائي ، عامل الأغلب على القيروان ، وكان في ميمنة جيش الأغلب . وانتهت المعركة بهزيمة الحسن بن حرب وفراره إلى تونس في شعبان سنة ١٤٠ هـ ، وتولى الخارق إفريقية في رمضان من نفس السنة ، فوجه الخيل في أثر الحسن ، فلجأ الحسن إلى كتامة ، فأقام في كنفهم شهرين ثم عاد إلى تونس ، فقتله بعض الجند هناك [١] ، وصلبوه . أما الأغلب ، فقد اعتنى جنده بدفنه ، وسموه الشهيد [٢] .

٢ — أبو حفص عمر بن حفص بن عثمان بن قبيصة المعروف بهزار مرد :

عرف عمر بن حفص بشجاعته المتناهية في ميادين القتال ، ولذلك لقب بهزار مرد ، وهي لفظة فارسية معناها ألف رجل ، دلالة على شدة بأسه ومراسه ، ولاء المنصور على المغرب ليقضي على الفتن والثورات التي احتدمت في أرضه ، ويعيد الجيش العباسي إلى الطاعة ، وأرسل معه فرقة تتألف من عساكر فارس ليستعين بهم في ميمنته الكبرى (٣) . فقدم عمر بن حفص إلى القيروان في صفر سنة ١٤١ هـ ، وأول ما عني به عمر هو تهدئة خواطر الجند ، وتسكين الأهالي في القيروان ، فاجتمع فور وصوله بوجوه المدينة ، ووصلهم وأحسن إليهم ، فهدأت الأحوال ثلاث سنوات ، واستقامت أمور الغرب طوال هذه الفترة .

ويبدو أن المنصور اغتر بهذا السكون ، فتطلع بنظره إلى امتلاك المغرب

---

(١) ابن عذاري ، ج ١ ص ٩٦ — ابن الأثير ، ج ٥ ص ٢٦

(٢) ابن الأثير ، ج ٥ ، ص ٢٦

(٣) ابن عذاري ، ج ١ ص ٨٨ — ابن الأثير ، ج ٥ ص ٤١

الأوسط ، فأمر واليه عمر بالتوجه إلى طبنة قاعدة إقليم الزاب وتحصينها بسور حتى تكون مركزا للقوات القبلية على المغربين الأوسط والأقصى ، القضاء على دولة الرستميين بتاهرت، وبقوات الصفرية في تلمسان وسجلماسة فاستخلف عمر بن حفص على القيروان حبيب بن حبيب بن يزيد بن المهلب ، وعزم على السير لقضاء مهمته ، وأحس الرستميون بالخطر الذي يتهددونهم من تحصين مدينة طبنة، فاتفق ابن رستم مع أنصاره في طرابلس وجنوب إفريقية وتلمسان على الانتفاض ، ومحاربة العباسيين ، فما كاد عمر بن حفص يخرج إلى طبنة ، وتخلو إفريقية من عسكر العباسيين حتى ثار بها البربر ، ولما خرج إليهم حبيب للقائهم، قتلوه بعد أن هزموا جيشه وحبيت طرابلس الذي سيره الجنيد بن بشار عامل عمر بن حفص على طرابلس [1] . ونتج عن انتصار البربر في إفريقية قيام الفتنة في سائر أنحائها . واجتمعت جنود البربر من كل فج ، وولوا على أنفسهم أبا حاتم يعقوب بن حبيب الإباضي، فكتب الجنيد ابن بشار الأسدي عامل طرابلس إلى عمر يستمده ، فأمده من طبنة بعسكر فتقوى بهم ، واشتبكت قوات الجنيد مع جموع أبي حاتم ، فانتصر البربر ، وسحقوا قوات العباسيين سحقا ، وتراجع فلول العباسيين إلى قابس ، فحاصرهم أبو حاتم [2] .

احتشدت جموع البربر من كل ناحية لمهاجمة عمر بن حفص في طبنة . ويجمع مؤرخو العرب على أنه تجمع للبربر اثنى عشر عسكرا ، توجهوا جميعا نحو الزاب ، منهم أبو قرة الصفري الذي قدم في أربعين ألف مقاتل، وعبد

---

(١) ابن الأثير ، جـ ٥ ص ٢٢ — ابن خلدون ، جـ ٤ ، ص ٤١٢

(٢) نفس المرجع

الرحمن بن رستم الاباضى فى خمسة عشر ألفا ، وأقبل عاصم السدراتى من سدراته فى ستة آلاف مقاتل ، وأبو حاتم فى جيش كبير ، وعبد الملك بن سكردید فى ألفين ، والمسور بن هانىء الزناتى فى عشرة آلاف [1] . وأسهم من خوارج صنهاجه وزناتة وهوارة أعداد لاتحصى من البربر غير أن ابن رستم آثر أن يحشد بعسكره فى تهودة التى تقع جنوبى طبنة ، ليكون مدداً لقوات أبى قرة عند الحاجة .

ولم يكن مع عمر بن حفص من العسكر سوى خمسة عشر ألفا وخمسمائة ، فهاله ما رآه من حشود البربر الهائلة التى تجمعت بالقرب من طبنة ، فحصن داخل أسوار المدينة ، وطاول عليه حصار البربر له ، أنف أن يكون سجينا لهم فى طبنة ، وعزم على الخروج مع عسكره مرة واحدة خروج من وطن نفسه على الموت . فأشار عليه فؤاده بأن يبقى فى طبنة حتى لا يعرض نفسه للهلاك ، ونصحوه باعمال الحيلة والدهاء ، فتبع نصيحتهم ، وكان يعرف ما للمال من تأثير كبير فى نفوس من يحتاج إليه ، وكان اضطراب الأحوال السياسية فى المغرب منذ أواخر عصر الدولة الأموية قد سبب ارتباكا فى البناء الاقتصادى ، فكثرت المجاعات ، وعم القحط فى البلاد ، وعانى البربر كثيراً من ضروب البؤس والفقر ، وكان ذلك من أسباب تقبلهم لمبادىء الخارجية ، فوجه عمر رسله إلى أبى قرة يعرضون عليه ستين ألف درهم وكسى كثيرة حتى ينصرف برجاله ، فرد عليهم بقوله « بعد أن سلم على بالخلافة أربعين سنة أبيع حربكم بعرض قليل من الدنيا » ، ولم يجبهم إلى ذلك [2] . ولما

---

(١) ابن عذارى ، ج ١ ص ٨٨ — ابن الأثير ، ج ٥ ص ٣٢

(٢) نفس المرجع ، ص ٨٩ — ابن الأثير ، ج ٥ ص ٣٢

رأى عمر أن إغراء المال وبريق الذهب لم ينجحا فى تحويل أبى قرة عن عزمه ، أعاد المحاولة مع أخ لأبى قرة ، فدفع رسوله إليه قدرا من المال مقداره أربعة آلاف درهم وبعض الثياب ، بشرط أن يعمل على صرف أخيه أبى قرة والصفرية إلى بلادهم . ونجح عمر هذه المرة ، فقد ضعف عزم شقيق أبى قرة أمام هذا العرض ، فشرع من لبانه فى إثناء الصفرية عن محاصرة القيروان ، ولم يعلم أبو قرة حتى انصرف عنه أكثر العسكر ، فلم يجد بدا من اتباعهم »[1] . وهكذا نجح عمر فى تفريق كلمة البربر بأمواله ، وعندئذ وجه عسكره إلى عبد الرحمن بن رستم ، وكان مرابطا فى تهوذه ، فانهزم ابن رستم وتراجع إلى تاهرت ، ولم يجد من بقى من الاباضية على حصار طبنة بدا من التراجع إلى القيروان ومحاصرتها ، وزحف عمر بعسكره من طبنة متجها إلى القيروان لفك الحصار عنها بعد أن استخلف على طبنة بعض عسكره . وفى هذه الاثناء علم أبو قرة بخروج عمر من طبنة ، فقدم إليها ، واشتبك مع عسكر العباسيين ، فولى منهزما بعد أن قتل من رجاله عدد كبير .

وكان أبو حاتم قد لازم حصار القيروان مدة ثمانية شهور حتى نفذ الطعام من أهرائها ، وأكل الناس دوابهم وكلابهم ، وجهدهم الجوع ، وجاءت الأخبار بوصول عمر بن حفص من طبنة فى سبعمائة فارس ، فك أبو حاتم الحصار عن المدينة ، واتجه إلى الأربس حيث نزل عمر ، فغادر عمر الأربس إلى تونس ، فتبعه البربر ، فعاد إلى القيروان مجدداً ، وأدخل إليها ما يحتاج من طعام ودواب وحطب وكل ما يصلحه من المرافق استعدادا لحصار طويل ، وتحصن العباسيون فى داخل أسوار المدينة ، ثم أقبل أبو حاتم فى

---

(١) ابن عذارى ، جـ ١ ص ٨٩

حشود كثيفة من البربر قيل أن عددهم ١٣٠ ألف مقاتل [١] ، وحاصروا القيروان ، وكان عمر بن حفص يخرج لمنازلتهم كل يوم ثم يعود إلى المدينة. فلما طال الحصار على أهل القيروان ، وقلت لديهم الأقوات ، وانعدمت المؤن ، وضاق أمرهم ، أكلوا دوابهم وكلابهم وسنانيرهم ، وانتهى الملح عندهم أوقية بدرهم » [٢]

ثم بلغه أن المنصور قد سير إليه يزيد بن حاتم على رأس جيش قوامه ستين ألف مقاتل لنصرة أهل القيروان . فعز عليه عمر أن تكون نجاة القيروان على يدي قائد آخر ، فقال : « لا خير في الحياة بعد هذا أن يقال : يزيد أخرجه من الحصار ، إنما هي رقدة وأبعث إلى الحساب » [٣]. وخرج يقاتل البربر ، ويطعن فيهم حتى قتل في ١٥ ذي الحجة من سنة ١٥٤ هـ ، فخلفه على قيادة جيش العباسيين أخوه جميل بن حفص [٤] ، وقيل حميد بن صخر أخو عمر لأمه [٥] . ولما طال الحصار على العباسيين دون أن تصل إليهم قوات يزيد بن حاتم ، وساءت أحوال المسلمين بداخل القيروان ، اضطر جميل بن حفص إلى مصالحة أبي حاتم بشرط أن يظل العباسيون في القيروان موالين للمنصور العباسي، لايتازعهم أبو حاتم في سوادهم وسلاحهم،

---

(١) ذكر ابن عذارى أن عدد قوات البربر التي كان يقودها أبو حاتم الإباضي وأبو قادي بلغت ٣٠٠ ألف ، والخيل منها ٣٠ ألفا ، وأرسين ألفا مع أبي قرة اليفرني ( البيان ص ٩١ )

(٢) ابن عذارى ج ١ ص ٩٠

(٣) نفس المرجع ص ٩١

(٤) نفس المرجع

(٥) ابن الأثير ، ج ٥ ص ٣٢ — ابن خلدون ، ج ٤ ص ٤١٢

فرفض أبو حاتم هذا الشرط ، ثم هاجم القيروان ، وأحرق أبوابها ، وهدم سورها (١) ، ودخلها فلم يسفك دماء أهلها ومن كان فيهـــا من عسكر العباسيين ، ثم إنه أمر باخراج معظم هؤلاء العسكر من القيروان حتى يتجنب بذلك قيامهم بالثورة عليه مستقبلا ، ويأمن لنفسه الإقامة بها دون أن يترصده عدو يقيم معه بها ، وأنزلهم بطبنة . ولم يبق في القيروان من جند العباسيين إلا عدد قليل .

وجاءته الأنباء بوصول يزيد بن حاتم إلى طرابلس ، فاستخلف على القيروان عبد العزيز بن السمح المعافري (٢) . وترك معه عددا قليلا من الجند ، وسار هو بمعظم جيشه إلى طرابلس لملاقاة جيش يزيد بن حاتم قبل ان يصل إلى إفريقية . وبالغ منه في الحذر من العباسيين القيمين في القيروان ، أمر أبو حاتم عامله على القيروان بأن يجرد هؤلاء العرب من السلاح ، وأن يفرق بينهم حتى لا يفكروا في القيام بثورة مسلحة عليه داخل المدينة . ولما علم العباسيون في القيروان بما اعتزم عليه أبو حاتم من تجريدهم من سلاحهم ، قدموا على أنفسهم عمر بن عثمان الفهري ، ووثبوا على عسكر أبي حاتم في القيروان ، وقتلوهم ، واستولوا على المدينة . وبلغ أبو حاتم غدرهم به ، فعاد أدراجه إلى القيروان ، فهرب عمر بن عثمان إلى تونس ، حيث تجمع جيل بن حفص ، والجند العباسيون في التوجه شرقا ، وانضموا إلى قوات يزيد بن حاتم بسرت .

أسرع أبو حاتم إلى العمل ، فأرسل فرقة من جيشه بقيادة جرير بن

---

(١) المرجع السابق — ابن خلدون ص ٤٦٣ .

(٢) ابن عذارى ، ص ٩٠ — ابن خلدون ، جـ ٤ ص ١١٤ .

مسعود المديوني للقبض على عمر بن عثمان والمغارق بن غفار جونس ، قال ابن خلدون يذكر أنهما فرا إلى جيجل من سواحل كتامة ، فتركهما ، واستخلف على القيروان عبد العزيز بن السمح المعافري ، ومضى هو للقاء جيوش العباسيين بقيادة يزيد بن حاتم . أما جرير المديوني فقد أدرك عمر ابن عثمان بجيجل، فقاتلا ، فقتل جرير وأصحابه ، وتمكن عمر بن عثمان والمغارق بن غفار من دخول تونس [1] .

٣ — يزيد بن حاتم والقضاء على دولة المهلبيين الإباضية :

كانت أخبار الثورات التي أشعلها البربر في المغرب الأدنى قد وصلت إلى مسامع أبي جعفر المنصور ، فبادر بتولية يزيد بن حاتم بن قبيصة بن المهلب على المغرب ، وسيره إلى إفريقية في جيش من عرب الشام والعراق وخراسان عدته سبعون ألفا [2] . ووصل يزيد إلى سرت في عام ١٥٥ هـ ، وانضم إلى جيشه هناك عدد كبير من عرب إفريقية وطرابلس . كما انضم إليه جماعة من البربر ، فضمهم بهم جيشه . وكان أبو حاتم قد خرج من القيروان على رأس جيشه من الإباضية للقاء يزيد بن حاتم ، وانضم إليه قائد عربي من أصحاب عقبة بن نافع هو عبد الرحمن بن حبيب بن عبد الرحمن الفهري [3] . وآثر أبو حاتم أمام كثرة أعدائه أن يلاقيهم في منطقة جبلية يسهل عليه أن يتغلب فيها عليهم ، فاختار لهذا الغرض جبل نفوسة لكثرة من فيه من المشايخ له وتركنه ، فسير يزيد بن حاتم طائفة من عسكره إلى قابس ،

---

(١) النويري ، نهاية الأرب ، ج ٢٢ ، عن محمد علي دبوز ، المغرب الكبير ، ج ٢ ص ٢٧٤

(٢) ابن الأثير ، ج ٥ ص ٣٣ — ابن خلدون ، ج ٤ ص ٤١٤

(٣) ابن عذاري ، ج ١ ص ٨٤ — ابن الأثير ، ص ٣٣ — ابن خلدون ، ص ٤١٤

فاشتبك معهم أبو حاتم ورجاله فى معركة دامية انهزم بهزيمة العباسيين، وعاد فلهم إلى يزيد بن حاتم(١) ، ورأى يزيد أنه أمام خصم شديد المراس ، فعزم على السير بنفسه لملاقاته ومقاتلته، ولما علم أبو حاتم بقدومه إليه تحصن فى مكان وعر ، وخندق على عسكره ، ثم التقى الجيشان فى ربيع الأول سنة ١٥٥ هـ واشتد القتال بينهما ، واستبات أبو حاتم فى مدافعة العباسيين حتى قتل هو وأهل نجدته ، وطارد يزيد فلول جيشه فى السهول والجبال ، وقتل منهم مايقرب من ثلاثين ألفا . وظل العباسيون يقاتلون الإباضية فى جبل نفوسة شهرا حتى سحقوهم ، ثم استخلف يزيد على طرابلس سعيد بن شداد ، ومضى بجيشه إلى القيروان ، فدخلها فى ٢٠ جمادى الآخرة سنة ١٥٥ هـ (٢) .

وكان عبد الرحمن بن حبيب حفيد عبد الرحمن بن حبيب الفهرى الثائر على حنظلة بن صفوان ، قد انضوى تحت لواء أبى حاتم والإباضية ، واشترك فى معركة جبل نفوسة، فلما انهزم جيش أبى حاتم، فر عبد الرحمن مع من فر من أصحاب أبى حاتم إلى جبال كتامة الواقعة فى شمال قسطينة ، واعتصم بقلعة صحاب ، فبعث إليه يزيد بن حاتم المخارق بن غفار الطائى والى طبنة لمحاصرته ، ويبدو أن المخارق أبدى عجزا فى استزال عبد الرحمن بن حبيب، فوجه يزيد بن حاتم مددا إلى المخارق بقيادة العلاء بن سعيد المهلبى سنة ١٥٦ هـ (٣) . ونجح القائدان هذه المرة فى التغلب عليه ، ففر عبد الرحمن بن حبيب عن القلعة ، وعبر البحر إلى الأندلس (٤) . وفى نفس هذا التاريخ

---

(١) ابن الأثير ، ج ٥ ص ٣٣

(٢) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٩١

(٣) نفس المرجع

(٤) ابن الأثير ، ج ٥ ص ٦٠

ثار بطرابلس على يزيد ، أبو يحيى بن قرياس الهوارى ، فالتف حوله كثير الجيوش ، فاشتبك معه عبـــد الله بن السمط الكندى ، فقاد جيش يزيد فى إطرابلس فى قتال عنيف ، انتهى بهزيمة أبى يحيى وسحق ثورته (١) .

وكان يزيد من خيرة ولاة إفريقية ، إذ قضى على الثورات ، وضبط البلاد ، وأمن الناس على معاشهم ، وأموالهم ، وبدأت بعهده صفحة جديدة فى تاريخ للغرب الأدنى . وظل الهدوء يخيم على الغرب الأدنى فى عهده حتى سنة ١٦٤ هـ ، عندما انتفضت قبيلة ورفجومة بزعامة أيوب الهوارى . فسير إليهم يزيد جيشا ضخما بقيادة يزيد بن حجزأة المهلبى ، والمخارق بن غفار الطائى ، فالتقى الفريقان بالزاب فى معركة حامية ، انهزم فيها يزيد ، وقتل المخارق والى الزاب ، فولى يزيد بن حاتم مكانه المهلب بن يزيد المهلبى ، إلى أن استعمل على الزاب العلاء بن سعيد المهلبى ، وأمده يزيد بن حاتم بجيش كثيف تمكن بواسطته من القضاء على ثورة ورفجومة (٢) .

ثم ساد البلاد فترة من الهدوء مرة ثانية ، عكف خلالها يزيد بن حاتم على الإصلاحات الداخلية ، وترميم ما أفسدته الحروب والثورات . اهتم يزيد بالعمارة والفنون ، فأعاد تنظيم مدينة القيروان ، وجعـــل لكل حرفة من الحرف سوقا خاصة بها ، وجدد بناء المسجد الجامع بالقيروان (٣) ، وأزاد فيه سنة ١٧٤ هـ . وشهدت البلاد الإفريقية فى أيامه ازدهارا لم تشهده منذ أيام حسان بن النعمان ، وظلت إفريقية تنعم بالهدوء والأمن حتى توفى يزيد بن

---

(١) ابن عذارى ، ص ٩٨

(٢) ابن الأثير ، ج ٥ ص ٣٣

(٣) ابن الأبار ، كتاب الحلة السيراء ، ج ١ ، تحقيق الدكتور حسين مؤنس ، القاهرة ، ١٩٦٣ ص ٢٢

حاتم فى رمضان سنة ١٧٠ هـ ، فى خـــلافة الرشيد [١] ، وقيل توفى فى سنة ١٧٩ [٢] .

٤ — روح بن حاتم بن قبيصة :

لما مرض يزيد بن حاتم استخلف ولده داود على ولاية إفريقية ، فلما توفى يزيد ظل داود يقوم بولايتها زهاء تسعة أشهر قضـــاها فى محاربة الإباضية الثائرين عليه ، فقد انتقض الإباضية بجبال باجة ، وتزعمهم نصير ابن صالح الإباضى ، فسير إليهم داود جيشا بقيادة المهلب بن يزيد ، فهزمه الإباضية ، وقتلوا جملة من عسكره ، فوجه إليهم داود جيشا بقيادة سليمان ابن يزيد ، يتألف من عشرة آلاف مقاتل ، ونجح جيشه هذه المرة فى تمزيق صفوف الثوار والقضاء على ثورتهم . وأقام داود على ولاية إفريقية إلى أن قدم إليها عمه روح بن حاتم أميرا على المغرب من قبل الرشيد [٣] .

وفى عهد روح ساد الهدوء إفريقية ، فقد هادن عبـد الوهاب بن رستم بامرت ، ووادعه [٤] . ولم يطل عهده إذ توفى فى القيروان فى ٢٣ رمضان سنة ١٧٤ هـ .

٥ — الفضل بن روح بن حاتم :

لما توفى روح بويع ابنه قبيصة فى المسجد الجامع ، وكان الفضل بن

---

(١) ابن الأثير ص ٤٣ ، ٨٢ — ابن خلدون ، جـ ٤ ص ٤١٥ — ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، القسم الثانى ص ٩

(٢) ابن عذارى ، جـ ١ ص ٦٦ ، ٦٨

(٣) ابن عذارى ، جـ ١ ص ٦٩ — ابن الأثير جـ ٥ ص ٨٢

(٤) ابن خلدون ، جـ ٤ ص ٤١٥

روح عاملا لأبيه فى الزاب ، ولكن الرشيد استعمل على إفريقية بعد وفاة روح ، حبيبا بن نصر المهلبى فى رمضان سنة ١٧٤ ، فخرج الفضل بن روح إلى بغداد ، وطالب الرشيد بولاية إفريقية باعتباره أحق بها من حبيب بن نصر ، فولاه الرشيد على إفريقية ، وعندئذ عاد الفضل إلى القيروان فى سنة ١٧٧هـ ، فولى ابن أخيه المغيرة بن بشر على مدينة تونس ، وكان أرعنا ، فاستخف بالجند ، وأساء السيرة معهم ، فشكوا إلى الفضل ، فلم يحرك ساكنا ، فاتفق الجند فيما بينهم على تقديم قائد منهم يقال له عبدالله ابن الجارود ، ويعرف بعبدويه الأنبارى ، والتف حوله عدد كبير من الساخطين على الفضل ، وأعلنوا الثورة عليه ، وطردوا عامله على تونس ، وكتب ابن الجارود إلى الفضل بن روح : « أما بعد ، فانا لم نخرج على المغيرة خروجا عن الطاعة ، ولكن لأحداث أحدثها فينا ، ظهر فيها فساد الدولة ، فصيل لنا من ترضاه ليقوم بأمرنا ، وإلا انظرنا لأنفسنا » ، فأجابه الفضل : « أما بعد ، فان الله يجرى قضاؤه على ما أحب الناس أو كرهوا ، وليس اختيارى وقليا اخترته لكم أو اخترتموه بحائل دون شىء أراد الله عز وجل بلوغه فيكم ، وقد وليت عليكم عاملا ، فان دفعتموه فهو آية النكث منكم والسلام »[1] . وبعث إليهم عبد الله بن يزيد المهلبى ، عاملا على تونس ، فى صحبة النضر بن حفص ، وأبو الجهم والجنيد بن سيار ، فلما وصلوا إلى ظاهر تونس أدرك ابن الجارود أن مجىء العامل فى رفقة ثلاث من القواد يعنى عزمه على القبض على رؤساء الثورة والتنكيل بهم ، فحث رجاله على القبض عليهم ، فخرجوا إلى عبد الله بن يزيد فقتلوه ، وأسروا من معه .

---

(١) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٠٩ — ابن الأبار ، الحلة السيراء ص ٢٧

فسير إليهم الفضل جيشا لقاتلهم ، ولكن جيشه منى بهزيمة نكراء ، وارتد منهزما إلى القيروان ، وأقبل ابن الجارود بعسكره ، وحاصر القيروان ، وتمكن من اقتحام المدينة فى جمادى الآخرة سنة ١٧٨ ، وأخرج الفضل ومن معه إلى قابس ، ثم ردهم ابن الجارود وقتل الفضل خوفا من أن يتوجه إلى طرابلس ويعود منها بجيش يحاربه . وعندما عجز الجند عن غضبهم لقتل الفضل قاتلهم ابن الجارود وهزمهم ، ففروا إلى الأربس . وألقوا على أنفسهم العلاء بن سعيد والى الزاب [1].

٦ ـ هرثمة بن أعين :

لما بلغ الرشيد مقتل الفضل بن روح وما أثاره ذلك من عوامل الفوضى والاضطراب فى إفريقية ، ولى على إفريقية هرثمة بن أعين ، وبعث إلى ابن الجارود يحيى بن موسى ، لمكانته عند أهل خراسان [2] ، وقصد من إرساله أن يستميل ابن الجارود ليعود الطاعة قبل وصول هرثمة . ونجح يحيى بن موسى فى استمالة جماعة من أجناد ابن الجارود على رأسهم محمد بن الفارسى ، ولكن ابن الجارود قتل محمد بن الفارسى وهزم عسكره ، فعاد يحيى إلى هرثمة بطرابلس ، وفى نفس الوقت تمكن العلاء بن سعيد من جمع قوات كثيرة للزحف بهم إلى القيروان ، فكتب ابن الجارود إلى يحيى فى أول صفر سنة ١٧٩ هـ يدعوه للحضور إلى القيروان قبل العلاء . ولكن العلاء سبق يحيى فى دخول القيروان ، وقتل من أتباع ابن الجارود عددا كبيرا ، ثم أقبل يحيى بن موسى إلى القيروان ، وأمر العلاء بالخروج منها ، فخرج

---

(١) ابن الأثير ، جـ ٥ ص ٥٥

(٢) نفس المرجع ـ ابن خلدون جـ ٤ ، ص ٤١٧

إلى طرابلس [1] . ثم قدم هرثمة إلى إفريقية ، ودخل القيروان في غرة ربيع الآخر سنة ١٧٩ . فهدأ نفوس أهلها ، وأقام على الزاب إبراهيم بن الأغلب . وكان هرثمة مولعا بالبناء ، فأقام القصر الكبير بالمنستير سنة ١٨٠ هـ وبنى سور مدينة طرابلس مما يلي البحر [2].

وفي سنة ١٨٠ هـ ثار على هرثمة عياض بن وهب الهواري ، وكليب ابن جميع الكلبي ، ووجها إليه جيشا لمحاربته ، فسير هرثمة إليهما يحيى بن موسى في جيش كثيف ، تمكن من إيقاع الهزيمة بهما ، والتغلب عليهما [3] . ولكن هرثمة لم يرض بالبقاء أكثر من ذلك في إفريقية لكثرة ثورات أهلها وتقلب أجنادها ، فطلب من الرشيد الاستعفاء ، فأمره بالقدوم إليه ، فخرج من إفريقية في رمضان سنة ١٨٦ هـ .

٧ ـ محمد بن مقاتل العكي :

استعمل الرشيد على إفريقية بعد هرثمة محمداً بن مقاتل بن حكيم العكي وكان أخاه في الرضاع ، فقدم إليها في أول رمضان سنة ١٨٦ هـ . ولم ينجح ابن مقاتل في تهدئة نفوس الجند ، بل على العكس من ذلك أثار عليه كراهية الجند لسوء سيرته ، وقبيح ما يؤثر من أخباره ، من ذلك إقدامه على ضرب البهلول بن راشد بالسياط ، وتسببه في قتله بسبب وعظه له ، ومعارضته في تصرفاته ، خاصة عندما أمد الروم في صقلية بالأسلحة . وكان البهلول من كبار أئمة المرجئة في الشريعة ، ولذلك كان مقتله سببا في بغض الناس لابن مقاتل ،

---

(١) ابن عذاري ، ج ١ ، ص ١٠٩ ـ ابن الأثير ، ج ٥ ص ٩٦

(٢) نفس المرجع ص ١١٠ ـ ابن الأثير ص ٩٦

(٣) ابن الأثير ، ج ٥ ص ٩٦ ـ ابن خلدون ، ج ٤ ص ١١٨ .

يضاف إلى ذلك أنه اقطع أرزاق الجند ، وأساء السيرة فيهم وفى الرعية ، ولذلك اختلف جنده عليه [1]، واتفقوا على تقديم خلد بن مرة الأزدى . ولما علم ابن مقاتل بذلك ، سير إليه جيشا للقضاء على ثورته ، وتمكن هذا الجيش من هزيمة أنصار خلد ، فاختفى فى مسجد ، ولكن جند ابن مقاتل تمكنوا من القبض عليه ، وذبحوه [2] .

ثم ثار عليه أبو الهيم تمام بن تميم التميمى عامله فى تونس ، لاستهجانه تصرفات ابن مقاتل ، وسار تمام فى جموع هائلة إلى القيروان فى رمضان سنة ١٨٣ هـ ، واشتبك مع ابن مقاتل فى منية الخيل من القيروان ، فانهزم ابن مقاتل ، و تحصن فى داره التى بناها ، وترك دار الامارة ، وأقبل تمام ، فنزل بعسكره خلف باب أبى الربيع . فلما أصبح تمام فتحت له الأبواب ، فدخل القيروان يوم الأربعاء لخمس بقين من رمضان سنة مهذه ، فأمن تمام الناس على دمه وأهله وماله . فكانت ولايته إلى أن أخرجه تمام من القيروان سنتين وعشرة أشهر » [3] .

خرج الناس من القيروان بعد أن أمنه تمـــام ، وسار إلى طرابلس ، فأدركه قوم من الخراسانيين ، منهم طرخون صاحب شرطه ، فدخل بهم طرابلس وأقام بها . واستاء ابراهيم بن الأغلب التميمى من خروج تمام على والى إفريقية الشرعى ، فجمع ابن الأغلب جيشا من الزاب سار به إلى القيروان ، وقبل أن يصل إليها كان تمام قد فر إلى تونس ، فدخل

---

(١) ابن عذارى ، جـ ١ ص ١١١ ــ ابن الأثير ، جـ ٥ ص ١٠٤

(٢) ابن الأثير ، جـ ٥ ص ١٠٤

(٣) ابن عذارى ، جـ ١ ص ١١٢

ابراهيم بن الأغلب القيروان واتجه مباشرة إلى المسجد الجامع ، وصعد المنبر ، وخطب في الناس خطبة بليغة ، أشار فيها إلى أنه قدم إلى القيروان لنصرة محمد بن مقاتل العكي ، لأنه الأمير الشرعي على إفريقية [1] . ثم كتب ابراهيم إلى العكي بطرابلس يدعوه إلى دخول القيروان . فعاد العكي إلى القيروان ، فانزعج الناس لعودته ، وبدأوا يغزعون إلى تمام بتونس . فلما علم تمام كثرة من وفد إليه من الجند والمشايخ ، عزم على مهاجمة القيروان ، فخرج ابن الأغلب لمقاتلته ، فانهزم تمام ، وانسحب إلى تونس ، فطارده ابن الأغلب ، وتأهب لمحاصرته فيها في محرم سنة ١٨٤هـ . فلما رأى تمام ألا طاقة له على مقاتلة ابن الأغلب ، استأمنه على نفسه ، فأمنه ، وأقبل به إلى القيروان في ٨ من المحرم ، ثم أرسله إلى بغداد ، فأمر الرشيد بحبسه في المطبق [2] .

أصبح ابراهيم بن الأغلب رجل إفريقية القوي ، بعد أن هزم تمام ، وأعاد ابن مقاتل إلى مقر ولايته ، ولكن أهل البلاد والجند كانوا قد سئموا حكم ابن مقاتل ، وكرهوا عسفه ، فاتصلت جماعة منهم بابراهيم بن الأغلب وطلبوا منه أن يتولى شؤونهم بدلا من ابن مقاتل ، وحملوه على أن يكتب إلى الرشيد طالبا منه أن يقره على ولاية إفريقية ، فكتب إليه في ذلك ، وأبلغه أنه مستعد في مقابل ذلك أن يتنازل عن المائة ألف دينار التي كانت تبعثها حكومة مصر كل عام معونة لإفريقية ، بالإضافة إلى استعداده لإرسال أربعين ألف دينار كل عام إلى الخليفة . فلما عرض الرشيد الأمر

---

(١) ابن عذاري ، ص ١١٣

(٢) ابن عذاري ، ص ١١٩ — النويري ، ص دبوز ، ج ٢ ، ١٢٢

على هرثمة بن أعين ليسأله النصيحة ، أشار إليه بأن يوافق على منحه ولاية إفريقية لكفايته ، وحزمه ، ومقدرته الحربية فى إخماد الثورات والقضاء على الفتن . فكتب له الرشيد عهدا بولاية إفريقية فى جمادى الآخرة سنة ١٨٤ هـ ، فتقبل بن مقاتل عائدا إلى المشرق [1] .

وبولاية ابن الاغلب يبدأ عهد جديد فى تاريخ إفريقية والمغرب .

---

(١) ابن عذارى ، جـ ١ ص ١١٦ ـ ابن الأثير ، جـ ٥ ص ١٠٤ ـ ابن خلدون ، جـ ٤ ص ١١٩ ـ السلاوى ، جـ ١ ص ١٣٥

# الباب الثالث

## الولايات المستقلة بالمغرب فى القرن الثالث الهجرى

# الفصل الخامس

## دولة الأغالبة في المغرب الأدنى

(١) عصر الأمراء الأقوياء :

١ ـ ابراهيم بن الأغلب ( ١٨١ ـ ١٩٦ هـ ) .
٢ ـ أبو العباس عبد الله بن ابراهيم ( ١٩٦ ـ ٢٠١ هـ ) .
٣ ـ زيادة الله بن ابراهيم ( ٢٠١ ـ ٢٢٣ )

(٢) خلفاء زيادة الله بن ابراهيم بن الأغلب :

١ ـ أبو عقال الأغلب ( ٢٢٣ ـ ٢٢٦ هـ ) .
٢ ـ أبو العباس محمد بن الأغلب بن ابراهيم ( ٢٢٦ ـ ٢٤٢ ) .
٣ ـ أبو ابراهيم أحمد بن محمد ( ٢٤٢ ـ ٢٤٩ ) .
٤ ـ أبو محمد زيادة الله بن محمد ( ٢٤٩ ـ ٢٥٠ ) .
٥ ـ أبو الغرانيق محمد بن احمد ( ٢٥٠ ـ ٢٦١ ) .
٦ ـ ابراهيم بن احمد ( ٢٦١ ـ ٢٨٩ ) .
٧ ـ أبو العباس عبد الله بن ابراهيم ( ٢٨٩ ـ ٢٩٠ ) .
٨ ـ زيادة الله بن عبد الله ، آخر أمراء بني الأغلب ( ٢٩٠ ـ ٢٩٦ ) .

(٣) ازدهار الحياة الاقتصادية في المغرب الأدنى في عصر الأغالبة .

(٤) سكان إفريقية في عصر الاغالبة : ١ ـ العرب ٢ ـ العجم الفرس ٣ ـ البربر ٤ ـ الروم والافارق ٥ ـ الصقالبة .

(٥) منشآت الأغالبة فى إفريقية :

أ ـ العمارة الدينية : ١ ـ المسجد الجامع بالقيروان ٢ ـ جامع الزيتونة بتونس ٣ ـ المسجد الجامع بسوسة ٤ ـ مسجد أبى الحناة بسوسة ٥ ـ مساجد أخرى خاصة .

ب ـ العمارة الحربية : ١ ـ رباط سوسة ٢ ـ رباط المنستير ٣ ـ سور سوسة ٤ ـ سور صفاقس

ج ـ العمارة المدنية والمنافع العامة : ١ ـ مدينة العباسية ٢ ـ مدينة رقادة ٣ ـ المواجل والخزانات والقناطر .

# جدول بأمراء بني الأغلب

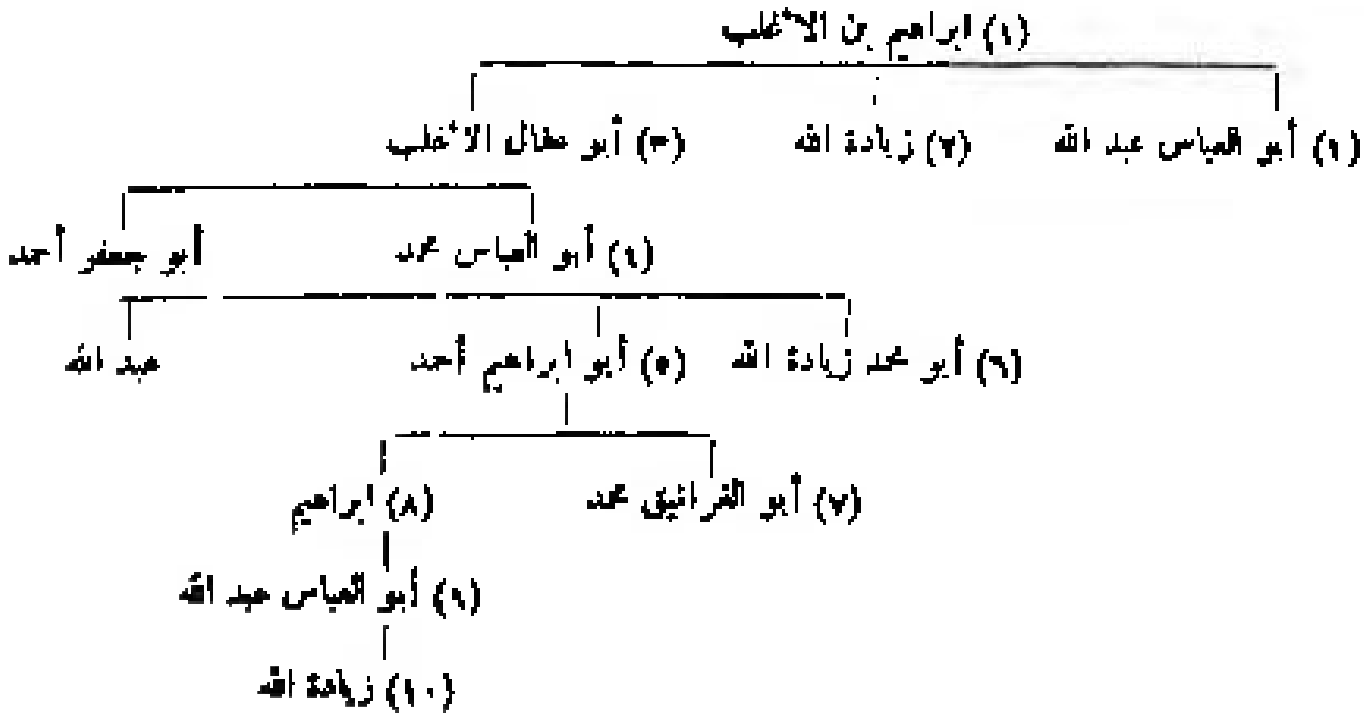

# الفصل الخامس

## دولة الأغالبة فى المغرب الأدنى

### ( ١ )

### عصر الأمراء الأقوياء

شهد المغرب الإسلامى منذ أواخر القرن الثانى الهجرى قيام دويلات مستقلة فى سائر أجزائه ، ففى المغرب الأدنى ، بالقيروان ، قامت دولة الأغالبة ، وفى المغرب الأوسط بتاهرت قامت دولة الرستميين ، وفى المغرب الأقصى بفاس قامت دولة الأدارسة ، وفى سجلماسة قامت دولة بنى المدرار ، وفى تكرور والريف الغربى قامت دولة بنى صالح بن منصور الحميرى ، وفى نكاة بجاية قامت دولة بنى صالح بن طريف البرغواطى . وأهم هذه الدويلات جميعا دولة بنى الأغلب ، وهم أسرة مستعربة ، حكمت إفريقية طوال القرن الثالث الهجرى ، أسسها ابراهيم بن الأغلب بن سالم التميمى ، الذى ولاه الرشيد فى ولاية إفريقية فى سنة ١٨٤هـ . وأسرة الأغالبة أسرة راقية فى مضمار الحضارة ، عملت على نشر الحضارة الإسلامية فى البلاد التى خضعت لنفوذها ، أى فى إفريقية وصقلية ، كما أن أمراءها أقاموا المدن والقصور ، وشيدوا المساجد الحصون ، وشجعوا الآداب والعلوم والفنون . وفيما يلى دراسة لأمراء هذه الأسرة الأقوياء :

١ - ابراهيم بن الأغلب ( ١٨٤ - ١٩٦ ) :

أفضت أحداث إفريقية المتوالية ، من معارك خاضها العرب ضد البربر

الصفرية والإباضية ، ومن حركات التمرد التي قام بها الجند ، ومن فتن طاحنة متواصلة ، الرشيد بأن انفصال المغرب عن الامبراطورية العباسية أصبح حقيقة واقعة ، وقد دفعه هذا إلى قبول ما عرضه عليه ابراهيم بن الأغلب، عامل الزاب من قبل ابن مقاتل ، والتسليم باستقلال ولاية إفريقية استقلالا جزئيا عن الخلافة العباسية ، والاكتفاء بتبعيته الاسمية لها نظير مبلغ من المال يبعثه إلى الخليفة . هذا الوضع الجديد الذي وافق عليه الرشيد يؤكده لقب الإمارة الذي أطلقه المؤرخون كثيراً على بني الأغلب، كما يؤكده قيام كل خليفة عباسي جديد بإقرار الأمير الأغلبي على ولاية إفريقية [1] . ولاشك أن الرشيد بإرساله عهد ولاية إفريقية إلى ابراهيم بن الأغلب ، كان يقر استقلالا فعليا بهذه البلاد مع التبعية الاسمية للخلافة لسبب آخر يمكن أن نضيفه إلى السبب السابق . فقد كان إدريس بن عبد الله بن الحسن قد فر إلى المغرب الاقصى بعد انهزام إخوته في موقعة فخ بمكة سنة ١٦٩هـ، وتمكن إدريس من الإفلات مع مولاه راشد إلى مصر ، ومن هناك مضى إلى أقصى الطرف المغربي من العالم الإسلامي ، حيث استقر ببلدة وليلي قاعدة جبل زرهون في سنة ١٧٢ هـ [2] ، وبايعه بربر أوربة بالإمامة ، ونجح في تكوين دولة شيعية في هذا القطاع من بلاد المغرب ، وانضمت إليه قبائل أخرى منها زواغة ، وزواوة ، ومدرنة ، وغياثة ، ومكناسة ، وغمارة ، وتطلع

---

(١) Marçais, la Berberie musulmane et l'Orient au Moyen Age, p. 59.

(٢) البزناسي ، كتاب زهرة الآس في بناء مدينة فاس ، نشرة الفريد بل ، الجزائر ١٩٢٧ ، ص ٩

إدريس بعد ذلك إلى توحيد المغرب [١] وكان من الطبيعي أن يخشى الخلفاء العباسيون من مطامع الأدارسة في المغرب ومصر ، فرضي الرشيد بإقامة دولة الأغالبة في المغرب الأدنى لتكون حاجزاً بين البلاد الخاضعة للدولة العباسية وبلاد الإدارسة في المغرب الأقصى الذين كانوا يطلعون إلى فصل المغرب عن بقية العالم الإسلامي ، بل كانوا يهدفون إلى توحيد المغرب والمشرق العربيين تحت قيادتهم [٢]. فلقد أورد الأستاذ الدكتور احمد مختار العبادي نصا لرسالة وجهها إدريس بن عبد الله إلى المصريين يمكن أن نستنتج منها مدى اتصال الأدارسة بأهل مصر كذلك [٣] .

كان ابراهيم بن الأغلب من أفضل ولاة المغرب ، فقد كان يجمع إلى علمه وتفقهه في الدين وأدبه ، حسن الرأي ، والتجربة ، والبأس ، والحزم ، والمعرفة بالحروب ومكائدها ، « ولم يل إفريقية أحسن سيرة منه ، ولا سياسة ، ولا أراف برعية ، ولا أوفى بعهد ، ولا أرعى لحرمة منه ، فطاعت له قبائل البربر ، وتمهدت إفريقية في أيامه » [٤] .

واتخذ الأمير ابراهيم بن الأغلب مدينة القيروان عاصمة لولايته واتخذ يعمل منذ استقلاله عن الخلافة العباسية على تكوين قوة بحرية هائلة ، مكنت أعقابه من بعده من غزو جزيرة صقلية وافتتاحها سنة ٢١٢ هـ ، وغزو مالطة

---

(١) اسماعيل بن عبد الرشيد ، جلاء الطلام الخامس في موجز تاريخ المغرب الى عصر محمد الخامس ، الرباط ، ١٩٧٢ ص ٣٠

(٢) ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، القسم الثالث الخاص بالمغرب ، ص ١٧ ، حاشية رقم ٢

(٣) نفس المرجع ،

(٤) ابن عذارى ، ج ١ ص ١١٦

وسواحل إيطاليا الجنوبية والجنوبية الغربية. ولقد اهتم ابراهيم بن الأغلب بالقيروان اهتماما خاصا ، فشرع في سنة ١٨٤ هـ في بناء مدينة القصر القديم التي تقع أطلالها على بعد ثلاثة أميال جنوبي القيروان[1]، وسماها العباسية[2] تعبيرا عن ولائه للعباسيين .

وفي عهد ابراهيم بن الأغلب ثار بتونس رجل من رجالات العرب اسمه عبد بس، ونزع السواد شعار بني العباس، فبعث إليه إبراهيم قائده عمران بن عباد في جيش كبير لقمع حركته ، والتقى عمران معه في موقعة بالقرب من تونس انهزم فيها عبد بس وأنصاره ، وقتل منهم نحو عشرة آلاف ، وتمكن عمران من دخول مدينة تونس[3] . وكان ابراهيم ابن الأغلب عظيما للخلافة العباسية ، فجعل يرصد أعداءها في المغرب ، فصرف نظره إلى المغرب الأقصى ، وكان إدريس بن إدريس بن عبد الله قد أكمل من العمر عشر سنوات ، فجدد له راشد مولى أبيه البيعة ، وعهد له الأمور في المغرب، فكثر جمعه بأقاصي المغرب ، واستفحل أمره بفضل ما بذله راشد من جهود مضنية ، فعمل ابن الأغلب على الكيد لراشد ، فجعل يدس إلى البربر ويسرب فيهم الأموال حتى قتل راشد ، وسيق رأسه إليه في سنة ١٨٦ هـ[4] . ثم تولى أمر إدريس بعد راشد زعيم من زعماء البربر اسمه بهلول عبد الرحمن المنظر[5] ، وقيل بهلول بن عبد الواحد[6] ، فأخذ ابن

---

(١) المرجع السابق ، ص ١١٧

(٢) ابن الأثير ، ج ٥ ص ١٠٤ — ابن خلدون ، ج ٤ ص ٢١٦

(٣) نفس المرجع ص ١٠٤ — ابن خلدون ص ٢١٦

(٤) ابن خلدون ، ج ٤ ص ٢٢٠

(٥) نفس المرجع

(٦) ابن الأثير ، ج ٥ ص ١٠٤

الأغلب يستميله بالكتب والهدايا إلى أن انحرف عن دعوة الأدارسة ، وفارق إدريس وانضم إلى ابن الأغلب، فتفرق جمع إدريس من أتباع بهلول، فكتب إدريس إلى ابن الأغلب يستعطفه ويسأله أن يكف عن التدخل فى شؤون بلاده ، ويذكره بقرابته من رسول الله ، فأجابه ابراهيم بن الأغلب إلى ذلك ووادعه [1] .

ولم يخل عهد ابن الأغلب من الثورات والفتن ، ولكنها كانت لا تقاس بالثورات التى كانت تضطرم فى إفريقية فى العهود السابقة ، فمن هذه الثورات: ثورة أهل طرابلس على ولاتهم من قبل ابن الأغلب فى سنة ١٨٩ ، وقد أورد ابن الأثير خبر هـــذه الثورة فى شىء من التفصيل ، فذكر أن أهل طرابلس كانوا يشكون إليه من ولاته عليهم ، فيعزلهم ويولى غيرهم . وحدث أنه ولى عليهم فى هذه السنة عامله سفيان بن المضاء [2] للمرة الرابعة ، فثار أهل طرابلس على سفيان ، وعزموا على خلعه وطرده ، وزحفوا إليه ، فقاتلهم فى المسجد الجامع ، فهزموه ، ثم أمنوه ، فخرج من طرابلس فى شعبان من سنة ١٨٩ هـ ، واستعمل الجند وأهل طرابلس عليهم ابراهيم بن سفيان القيسى [3] ، فبعث ابن الأغلب جيشا هزمهم ، ودخل طرابلس ، وقضى على الثورة .

---

(١) الربع العامل — ابن خلدون ، ج ٤ ص ٤٢٠ — ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، القسم الثالث ، ص ١١

(٢) يسميه ابن خلدون سفيان بن المهاجر ( ابن خلدون ، ج ٦ ص ٤٢٠ )

(٣) ابن الأثير ، ج ٥ ص ١٢٦ — ابن خلدون ، ج ٤ ص ٤٢٠

والثورة الثانية قام بها عمران بن مجالد ، وكان من بطانة إبراهيم بن الأغلب، ثم انتقض عليه فى سنة ٢٩٥ هـ وافترق عنه، وثار عليه هو وخريش ابن التونسى ، واجتذبا إليهما عدداً كبيراً من الأنصار والمشايخ ، فى القيروان وأكثر مدن إفريقية ، فاضطر ابن الأغلب إلى النزول بين القيروان والعباسية، وأحاط العباسية بخندق منيع، وتحصن فيها ، فحاصره فيها عمران سنة كاملة، فأرسل الرشيد إلى ابن الأغلب كثيراً من الأموال أغرى بها أصحاب عمران ، فتفرقوا عنه ، وانهزم عمران. وأقام فى الزاب إلى أن توفى إبراهيم ابن الأغلب ، وتولى ابنه عبد الله ، فاستأمنه على نفسه ، فأمنه ، وأحضره إليه ، وأسكنه معه ثم قتله [1] .

أما الثورة الثالثة ، فقد قامت بطرابلس فى سنة ٢٩٦ هـ ، ففى هذه السنة ولى ابراهيم بن الأغلب ولده عبد الله على طرابلس، فلما قدم إليها ثار عليه الجند ، وحاصروه فى داره ، ثم صالحوه على أن يخرج من بلدهم ، فلم يبعد عن طرابلس كثيراً حتى التف حوله عدد كبير من الناس ، وأخذ عبد الله يجتذب الأنصار من البربر بالأموال والعطايا ، ويذكر ابن الأثير أنه كان يعطى الفارس كل يوم أربعة دراهم ، والراجل درهمين ، فكثرت جنوده ، فزحف بهم إلى طرابلس ، وتغلب على جندها ، وتمكن عبد الله بن ابراهيم من دخول المدينة ، ثم عزله أبوه ، واستعمل سفيان بن المضاء ، فثارت قبيلة هوارة ، وهاجمت عسكر المدينة ، فانهزم الجند ، وخرجوا لهوارة عن طرابلس، فدخلتها، وعدمت أسوارها. وتراجع جند طرابلس إلى القيروان، فاضطر ابن الأغلب إلى تسيير ولده أبى العباس عبد الله فى ٣٠ ألف فارس،

---

(١) ابن الأثير ، ج٦ ص ١٢١ — ابن خلدون ، ج ٤ ص ١٢٩ — ابن الأبار ، الحلة السيراء ص ١٠٥

واستطاع بهم اقتحام المدينة ، وهزيمة هوارة . وأقام عبد الله بها بعض الوقت، فأعاد بناء أسوارها [١]. ولما بلغت أنباء هزائم البربر إلى عبد الوهاب ابن رستم في تاهرت ، خرج لنصرة بربر طرابلس في جيش عظيم ، فحاصرها وأغلق عبد الله باب زناتة ، وكان يقاتل من باب هوارة ، ولم يزل يقاوم جيش الرستميين إلى أن توفي أبوه ابراهيم في شوال سنة ١٩٦ هـ ، وعهد إليه بالإمارة ، فأخذ أخوه زيادة الله له العهود على الجند ، وكتب إلى عبد الله يخبره بوفاة أبيه . فاضطر عبد الله إلى مصالحة عبد الوهاب الرستمي على أن يكون البلد والبحر أي المدينة وما يطل منها على البحر لعبد الله ، أما ما زاد على ذلك من أرياض فلعبد الوهاب. وبهذه الاتفاقية عاد إلى القيروان، وتسلم زمام أمورها [٢] في سنة ١٩٧ هـ ، فتلقاه زيادة الله ، وسلم أمور الولاية إليه .

ويعتبر إبراهيم بن الأغلب أول من اتخذ للعبيد أعمالا خاصة ، واستكثر من طبقاتهم، واستغنى بذلك عن استخدام الرعية في أي شأن من شؤونه [٣]. وقد عمل ابراهيم على اسكان عبيده وأهل الثقة به من خدمه حوله [٤] .

٢ ـ ابو العباس عبد الله بن ابراهيم ( ١٩٦ ـ ٢٠١ هـ ) :

كان أبو العباس وقت وفاة أبيه في ٢٩ شوال سنة ١٩٦ هـ ، مشغولا بإخماد ثورة قامت في طرابلس ، فقام له زيادة الله أخوه من أبيه ، بأمره،

---

(١) ابن خلدون ، ج ٤ ص ٤٢٠

(٢) ابن الأثير ، ج ٥ ص ١٠٦ ـ ابن خلدون ، ج ٤ ص ٤٢١

(٣) ابن المطيب ، أعمال الاعلام ، القسم الثالث ، ص ١٩

(٤) ابن عذارى ، ج ١ ص ١١٧

وثاق البيعة له على نفسه وعلى أهل بيته وجنده وخدمه ، وبعث إليه بذلك وهو محاصر في طرابلس ، فعجل بالصلح مع عبد الوهاب بن رستم ، وعاد إلى القيروان في صفر سنة ١٩٧ هـ . فاستقبله أخوه استقبال الأمراء ، وتسلم منه عبد الله الإمارة . ولكن بدلا من أن يعترف أبو العباس بفضل زيادة الله عليه ، أخذ يعامل عليه ويتنقصه ، ويأمر ندماءه باطلاق ألسنتهم بسبه ، ومع ذلك فقد ظل زيادة الله يبدي له التعظيم والتبجيل ، ولا يظهر عليه أي أثر من ذلك [1] ، وكان أبوه قد ترك له ملكا ممهدا ، فاتسم عهده بالهدوء والسلم . وكان أبو العباس جائراً متعسفا ظلوما مع رعيته ، ويذكر ابن عذارى أنه « أحدث بافريقية وجورها من الظلم شيئة ، منها أنه قطع العشر جميعا ، وجعله ثمانية دنانير للقفيز أصاب أو لم يصب ، وغير ذلك من الظلم والمغارم ، فاشتد على الناس ذلك » . فضاق الناس ذرعا بذلك ، وبدأوا يتذمرون من ظلمه ، ويبدو أن تصرفاته الجائرة دفعت جماعة من الصالحين كانوا قد وفدوا إلى القيروان قادمين من الجزيرة ، على رأسهم الصالح حفص بن حميد الجزري إلى نصحه بالعدول والإنصاف ، ووعظوه في الدين وفي ضرورة رعاية مصالح المسلمين ، ويذكر ابن الخطيب أن الصالح حفص نصحه بازالة الجور عن رعيته ، وتطبيق قواعد السنة [2] ، فاستخف بهم ، وتهاون بنصائحهم ، فخرجوا من قصره بالعباسية ، وقد ساءهم منه هذا الاستخفاف ، فلما وصلوا إلى وادي القصارين بالقرب من القيروان ، نزلوا هناك وصلوا في كنيسة روح ركعتين ودعوا الله أن يكف عن المسلمين جور أبي العباس ، ويريحهم

---

(١) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٢٠ — ابن خلدون ، ٤ ص ٤٢٢

(٢) ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، القسم الثالث ، ص ١٠

من أيامه . فلم يمض على دعائهم خمسة أيام حتى توفى أبو العبـــاس بسبب قرحة أصابته تحت أذنه فى ٦ من ذى الحجة سنة ٢٠١ هـ ( ٨١٧ م ) [١] .

٢ ـ زيادة الله بن ابراهيم ( ٢٠١ ـ ٢٢٣ هـ ) :

كان زيادة الله أعظم أمراء بنى الاغلب وأفضلهم على الاطلاق ، إذ تنعم البلاد التونسية فى عهوده بما نعمت فى عهده ، وكان رجل بناء وتشييد، فقد ترك لنا آثارا كثيرة بالقيروان والعباسية وتونس وسوسة ، وكان يجمع إلى جانب حبه للفنون والعمارة والآداب ، مقدرة وكفاية حربية ، فقد تمكن من إخماد الثورات التى اشتعلت بمجرد اعتلائه الامارة ، وبذلك دعم البناء الذى أسسه أبوه من قبل، وتشهد بذلك آثاره فى سوسة والعباسية والقيروان وتونس من مساجد وقناطر وأربطة وخزانات ومواجل.

تولى زيادة الله إمارة إفريقية بعد وفاة أخيه أبى العباس ، ووصله التقليد بالإمارة من قبل الخليفة المأمون ، فظل زيادة الله مخلصا للمأمون عندما تولى على الخلافة ببغداد ابراهيم بن المهدى الملقب بالمبارك ( ٢٠٢ ـ ٢٠٤هـ)، فلما دخل المأمون بغداد فى سنة ٢٠٤هـ ، وخلصت له الخلافة ،شكر له ذلك [٢] . وكان زيادة الله أبى النفس ، فعندما كتب إليه المأمون بالدعاء لعبد الله بن طاهر على منابر إفريقية ، غضب غضبا شديداً ، وبعث مع رسول الخليفة إليه كيسا به ألف دينار مضروبة بأسماء بنى إدريس [٣] ، وفى ذلك

---

(١) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٢١ ـ ابن الأثير ، ج ٥ ص ١٨١ ـ ابن خلدون ، ج ٤ ص ١٢٢ ـ ابن الخطيب ص ١٦

(٢) ابن الخطيب ، المرجع السابق ص ١٦

(٣) ابن خلدون ، ج ٤ ص ١٢٢ ـ ابن الخطيب ، المرجع السابق ص ١٧

تهديد الخليفة بخروج الأغالبة على العباسيين وانضمامهم إلى الأدارسة لو فكر العباسيون في مس استقلال بني الأغلب الذاتي .

وأهم الأحداث البارزة في عصره ثورة زياد بن سهل المعروف بابن الحنظلية عليه في سنة ٢٠٧ هـ ، وثورة عمرو بن معاوية القيسي عليه في سنة ٢٠٨ هـ ، ثم ثورة منصور الطنبذي عليه بتونس في سنة ٢٠٩ هـ وهذه الثورة الأخيرة هي أخطر الثورات التي اشتعلت نيرانها في عهده .

في الثورة الأولى ، قام زياد بن سهل وحاصر مدينة باجة بجموع كثيفة ، فسير إليه زيادة الله جيشا تمكن من إيقاع الهزيمة به ، وقتلوا من رجاله عددا كبيرا . وفي الثورة الثانية تمكن عمرو بن معاوية القيسي ، عامل زيادة الله على القصرين ، من التغلب على هذه البلدة ونواحيها ، فسير إليه زيادة الله جيشا حاصره أياما ، ثم استنزله بالأمان هو وولديه ، حبـــاب وسعـــدان ، ولكنه نكث بعهده وقتلهم بعد ذلك [1] . وفي الثورة الثالثة انتفضت إفريقية على زيادة الله ولم يبق في يده منها غير الساحل وقابس ، ففي سنة ٢٠٩ هـ ، ثار منصور بن نصير الطنبذي بطنبذة ، وأخذ يسعى للاستيلاء على تونس ، فأرسل إليه زيادة الله قائده محمد بن حمزه في ثلاثمائة فارس مسلحين ، وأوصاه بسرعة السير إلى تونس ومفاجأة منصور فيها دون أن يشعر بقدومه ، فيقبض عليه ، ويأتيه به . فلما وصل محمد بن حمزة إلى تونس ألفى منصورا غائبا في قصره بطنبذة ، فنزل بدار الصناعة بتونس وبعث إلى منصور وفدا يتألف من ٤٠ من شيوخ تونس على رأسهم شجرة ابن عيسى القاضي في صفر سنة ٢٠٩ هـ ، ليناشدوه الطاعة ، ونبذ الخلاف

---

(١) ابن عذاري ، ج ١ ص ١٢٦

والعصيان . فأنكر منصور هذه التهمة ، وظاهر أمامهم بأنه ما زال مخلصا للأمير لم يخلع يدا ، ولم يحدث حدثا ، وأبدى استعداده للسير معهم إلى زيادة الله ، ولكنه عرض عليهم المبيت عنده هذه الليلة [1] ، وفي نفس الوقت بعث إلى محمد بن حمزة بتونس ينهي إليه بقدومه في اليوم التالي في صحبة القاضي ورفاقه ، ووجه إلى محمد بن حمزة بقرا وغنما وعلفا . فاطمأن ابن حمزة لذلك ، وذبح الغنم والبقر ، وأكل منه هو وعسكره . ولكن منصور غدر بالقاضي ورفاقه ، فسجنهم في قصره ، وزحف في خيله وأشياعه إلى تونس ، وباغتوا ابن حمزه بالهجوم ليلا ، فقتل معظم رجاله ، إلا من رمى بنفسه في البحر ، ثم أمر منصور باحضار اسماعيل بن سفيان بن سالم بن عقبال ، عامل زيادة الله على تونس ، وولده محمد ، فأمر بقتلهما ، واستولى على المدينة . فلما علم زيادة الله بذلك ، وجه وزيره الأغلب بن عبد الله بن الأغلب ، المعروف بغلبون في جيش كثيف إلى منصور الطنبذي لقتاله ، واسترجاع تونس ، وعهد زيادة الله هؤلاء الجند بالقتل إذا انهزموا أمام منصور . فسار غلبون في ١٠ ربيع الأول إلى تونس ، فلما وصل إلى سبختها اصطدمت قواته بقوات منصور ، فانهزم غلبون في ٢٠ ربيع الأول ، وخاف جنده أن يعودوا إلى زيادة الله فيعاقبهم بالقتل ، فتفرقوا عن غلبون ، واستولوا على عدد من مدن إفريقية وحصونها امتنعوا فيها من زيادة الله ، وخلعوا طاعة بني الأغلب وأعلنوا تبعيتهم لمنصور الطنبذي ، فوقعت باجـــة والجزيرة وصطفورة والأربس ، « واضطرمت إفريقية نارا » [2] .

ولما كثرت جموع منصور الطنبذي ، ولمس من نفسه القدرة على منازلة

---

(١) المرجع السابق

(٢) ابن عذاري ، ج ١ ص ١٢٨ — ابن الأثير ، ج ٥ ص ١٨٠

زيادة الله فى حاضرته ، زحف إلى القيروان فى ٥ من جمادى الأولى ، وحاصرها حصارا شديدا ، ثم خندق على نفسه ، وحدث بينه وبين زيادة الله وقائع كثيرة ، انضم فيها أهل القيروان إلى جانب منصور ، ثم زحف زيادة الله فى منتصف جمادى الآخرة بجيوش كثيفة حاصت قوات منصور ، فانهزم هزيمة نكراء ، فر على أثرها إلى قصره بتونس ، وتمكن زيادة الله من دخول القيروان ، ورفا عن أهلها ، واكتفى منهم بضرب سور المدينة [1] .

تفرق أنصار منصور إلى مدنهم التى تغلبوا عليها ، فقضى زعيمهم عامر ابن نافع الأزرق إلى سبيبة ، فأرسل إليه زيادة الله محمد بن عبد الله بن الأغلب ، فالتقى مع عامر بن نافع فى موقعة حدثت فى ٢٠ من المحرم سنة ٢٩٠ هـ ، فانهزم ابن الأغلب وقتل [2] . فعظم الأمر على زيادة الله . ولم يكتف الثوار بذلك ، بل هاجموا القيروان من جديد ، واستولوا عليها ، فلم يبق فى طاعة زيادة الله من إفريقية سوى قابس والساحل ونفزاوة وطرابلس ، وكتب الثوار إلى زيادة الله يطلبون منه أن يرحل من إفريقية ، ويمنحونه الأمان هو وأهله ، فضاق به الحال ، فأشار عليه سفيان بن سوادة بأن يبعثه فى مائتى فارس إلى قبيلة . نفزاوة ، ليدعو بربرها إلى نصرته ، ففعل زيادة الله ، ونجح سفيان فى مهمته ، وتجمعت لديه حشود هائلة منهم ، اشتبك بهم فى معركة عنيفة مع قوات عامر بن نافع ، وأسفرت المعركة عن هزيمة جيش عامر ، وفراره إلى قسطيلية ، فتبعه ابن سوادة إلى قسطيلية ، فاستولى عليها .

---

(١) ابن عذارى ، ج١ ص ١٢٩ — ابن الأثير ، ص ١٨٥ — ابن خلدون ، ج٤ ص ٤٢٤

(٢) نفس المرجع — ويذكر كل من ابن الأثير وابن خلدون أنه عاد ومن معه الى القيروان .

ثم دب الخلاف بين عامر ومنصور سنة ٢١١ هـ ، وانتهى بعد وقائع طويلة بسجن منصور فى جزيرة جربة ، وقتل أخيه حمدون [١] . أما عامر فظل مقيما بتونس إلى أن توفى فى سنة ٢١٢هـ . فاستأمن أولاده وبنوه إلى زيادة الله ، وبوفاة عامر انتهت الثورة الكبرى التى أشعلها منصور الطنبذى فى إفريقية وكادت تطيح بملك بنى الأغلب .

ولم تمض خمس سنوات على استتباب زيادة الله لبنى منصور حتى اشتعلت نار الثورة فى الجزيرة بتونس ، وأشعلها هذه المرة ثائر يعرف باسم فضل بن أبى العنبر ، وانضم إليه فى ثورته عبد السلام بن الفرج الربعى ، وكان عبد السلام هذا من أنصار منصور الطنبذى ، فسير زيادة الله إليهما جيشا ، فاقتتلوا وانتصر عليهما فى موقعة حدثت عند مدينة قليبود بالجزيرة ، قتل فيها عبد السلام ، وحمل رأسه إلى زيادة الله ، ولكن فضل بن أبى العنبر تمكن من الفرار إلى تونس ، ودخلها وامتنع بها [٢] . فسير إليه زيادة الله جيشا بقيادة أبى فهر محمد بن عبد الله بن الأغلب ، حاصره بتونس ، ونجح فى اقتحام المدينة ودخولها عنوة ، وقتل جنوده عددا كبيرا من أهل تونس ، نخص بالذكر منهم الفقيه الصالح عباس بن الوليد [٣] ، وفر عدد كبير من أهل تونس إلى النواحى المجاورة ، وطلبوا الأمان من زيادة الله ، فأمنهم فى ظليمة سنة ٢١٩ هـ فعادوا إليها [٤] .

---

(١) طالع تفاصيل هذا النزاع فى البيان المغرب لابن عذارى ص ١٢٠ ، ١٢١

(٢) ابن الأثير ج ٥ ص ٢٣٦

(٣) ابن عذارى ج ١ ص ٩٠

(٤) ابن عذارى ج ١ ص ١٢٦ — ابن الأثير ج ٥ ص ٢٣١

ومن مآثر زيادة الله عنايته بالأسطول الإسلامى ، وقيامه بغزو بعض الجزر القريبة من تونس ، ففى سنة ٢٠٦ هـ سير محمد بن عبد الله القيسى فى الأسطول إلى جزيرة سردانية ، ففزاها ، وغنم منها غنائم كثيرة ، ولكن بعض قطع من أسطوله أصيبت أثناء هذه الغزوة .

وأهم الغزوات البحرية التى تمتاز عهده غزو جزيرة صقلية فى سنة ٢١٢ هـ ، ولم تكن هذه الغزوة فى الواقع أولى الغزوات الاسلامية إلى صقلية ، فقد وجه إليها المسلمون منذ أيام معاوية بن حديج الأسطيل المرة تلو المرة ، وكانوا يعودون منها بغنائم كثيرة [1] . وفى سنة ٨٦ هـ ، عقد موسى بن نصير لعياش بن أخيل على أسطول للغرب ، فغزا صقلية ، وهاجم سرقوصة ، وغنم منها غنائم هائلة [2] . وفى سنة ١٠٠ هـ ، غزا بشر بن صفوان بنفسه جزيرة صقلية ، فأصاب بها سبيا كثيراً [3] ، كذلك غزاها المسلمون فى ولاية عبيد الله بن الحبحاب سنة ١٢٢ هـ ، إذ بعث لغزوها حبيب بن أبى عبيدة . ولكن المسلمين انقطعوا عن غزو تلك الجزيرة منذ أن شغل ولاة العباسيين فى إفريقية بقمع الثورات الداخلية ، فجرأت سفن الروم على مهاجمة السواحل الإفريقية ، ولعل ذلك كان السبب الذى جعل هرثمة بن أعين يتم بناء القصر الكبير بالمنستير سنة ١٨٠ هـ ، وبناء سور مدينة طرابلس مما يلى البحر . وظل الروم يواصلون هذه الغارات البحرية على الساحل التونسى فى أيام ابراهيم بن الأغلب إلى أن اتفق البطريق جريجورى مع أمير

---

(١) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٢

(٢) نفس المرجع ، ج ١ ص ٣٦

(٣) نفس المرجع ، ج ١ ص ٤٨

القيروان فى سنة ١٩٢ هـ ( ٨١٢ م ) على هدنة لمدة عشر سنوات ، ولم تمض ١٤ سنة بعد ذلك حتى تجددت أعمال القرصنة والغارات المتبادلة بين المسلمين والروم [١] .

وعلى هذا الأساس يمكننا أن نرجح فتح المسلمين لصقلية فى عهد زيادة الله للأسباب الآتية :

١ ـ يمكن اعتبار غزوة صقلية سنة ٢١٢ هـ بمثابة محـــاولة للقضاء على غارات الروم ، وعودة إلى سياسة الاعتداء على أراضى الروم ، وهى السياسة التى جرى عليها ولاة بنى أمية .

٢ ـ كانت صقلية بالنسبة للمسلمين بلادا غنية بالغنائم ، فى الوقت الذى أفقرت بلاد المغرب من هـــذه الغنائم . كذلك كانت صقلية تمثل أراضى جديدة يمكن فتحها واستغلالها .

٣ ـ هناك عامل دينى هو الجهاد فى سبيل الله ، ولا ننسى أن أهـــل إفريقية كانوا قد تفقهوا فى الدين الإسلامى وأصبح منهم العلماء والفقهاء ، وساعدت الأربطة على تكوين طبقة من الصالحين الذين كرسوا حياتهم للجهاد ضد الروم . وكان الخروج لمدافعة الروم فى صقلية أقصى ما يتمناه العابدون والصالحون . ولاشك أن موافقة زيادة الله على اختيار القاضى أسد ابن الفرات ، مصنف الأسدية فى الفقه على مذهب مالك ، قائدا للحملة ، يعتبر أصدق تعبير عن روح الجهاد المسيطرة على الفاتحين ، فلقد ولاه زيادة الله قائدا على الجيش ، ووافقه على القضاء مع القيادة ، فخرج معه أشراف

---

(١) Marçais, la Berbérie musulmane, p. 55.

إفريقية من العرب ، والجند ، والبربر ، والأندلسيين ، وأهل العلم والبصائر »[1] .

٤ ـ أراد زيادة الله أن يظهر أمام رعيته بمظهر المجاهد الثائر في سبيل الله فيكسب بذلك قلوبهم ، ويوطد مكانه ومنزلته في نفوسهم .

٥ ـ عانى زيادة الله كثيراً من ثورات جنده ، وفتنهم المتعددة ، فأراد أن يكسر شوكتهم ، ويتخلص منهم بإشراكهم في هذه الغزوة .

٦ ـ ذكر ابن الأثير أن قائد الأسطول الروماني بصقلية فيمي Euphemius ثار على الامبراطور ميخائيل الثاني واستولى على سرقوصة Siracusa ، ثم أعلن نفسه ملكاً على صقلية . ولكن أتباعه خرجوا عليه وتفرقوا عنه ، وتمكن والي مدينة بلرم Palermo من هزيمة فيمي ، والاستيلاء على سرقوصة ، فركب فيمي ومن معه سفنهم وتوجهوا إلى إفريقية ، وأرسل إلى الأمير زيادة الله يستنجد به ، ويعده بملك جزيرة صقلية[2] ، فاستنجاد فيمي بزيادة الله كان سبباً مباشراً في إغراء زيادة الله على فتح هذه الجزيرة . وفتح صقلية من هذه الناحية يشبه فتح الأندلس لأن فيمي بقايل بليان الذي ساعد المسلمين على دخول الأندلس .

يذكر المؤرخون أن زيادة الله احتفل بخروج المسلمين لغزو صقلية احتفالاً عظيماً في ربيع الأول سنة ٢١٢ هـ وأقلع أسطول الأغالبة في نحو

---

(١) ابن عذاري ، ج ١ ص ١٢

(٢) ابن الأثير ج ٥ ص ١٨٢ ـ إحسان عباس ، العرب في صقلية ، القاهرة ، ١٩٥٩ ، ص ٣٢ .

عائة مركب سوى مراكب فيمى ، ونزلت الجيوش الحربية ببلدة مازر Mazara ، وزحفوا إلى الروم وهزموهم هزيمة نكراء ، وفر بلاطة Plato منافس فيمى بصقلية إلى قلورية ، فظل بها ، واستولى المسلمون على عدة حصون فى الجزيرة ، ثم حاصر أسد بن الفرات مدينة سرقوصه براوبحرا ، وجاءته الإمدادات من إفريقية لنجدة المسلمين ، ولكن وبا بلوم زحف على المسلمين فى سرقوصة ، فخندق المسلمون على أنفسهم ، وحفروا خارج الخندق حفراً كثيرة ، فلما حمل الروم على المسلمين ، سقط منهم كثيرون فى الحفر ، وقتل منهم عدد كبير . وشدد المسلمون على أثر ذلك الحصار على سرقوصة ، ولكن وباء شديدا أصاب معسكر المسلمين فهلك بسببه قائدهم أسد بن الفرات ، وعدد كبير منهم فى رجب سنة ٢١٣ هـ ، فدفنه المسلمون فى مدينة قصريانة [1] Castrogiovanni . ثم توفى محمد بن أبى الجراوى فى سنة ٢١٣هـ وتولى بعده زهير بن غوث . وحدث أن سرية من المسلمين خرجت بقصد تجميع بعض المؤن ، فاصطدم بهم الروم وهـزموهم ، ثم التقى المسلمون مع الروم مرة ثانية ، فانهزموا ، وقتل منهم نحو ألف ، وعاد فل المسلمين إلى معسكرهم بقصريانة ، وخندقوا على أنفسهم ، فحاصرهم الروم حصارا طويلا ، وانقطعت الأقوات عن المسلمين ، فعزموا على التسلل من المدينة ، دون أن يعلم الروم ، ولكن هؤلاء عرفوا ما يقصدونه ، فغادروا المعسكر ، وترصدوا للمسلمين فى كل مكان ، ثم كروا عليهم ، وأكثروا فيهم القتل ، وفر الناجون إلى ميناو Minoa ، بينما استولى الروم على قصريانة ، ثم شدد الروم عليهم الحصـــار حتى قلت الأقوات لديهم ، فأكلوا الدواب

---

(١) ابن الأثير ج ٥ ص ١٨٧ — ابن خلدون ج ٤ ص ٤٢٦ .

والكلاب[1] ، فلما علم المسلمون فى جرجنت ما آل إليه مصير إخوانهم فى ميناو ، هدموا مدينة جرجنت ، وخرجوا إلى مازر ، وحاولوا الإتصال باخوانهم المحصورين لنصرتهم ، فتعذر عليهم الأمر ، وأشرف المسلمون فى ميناو على الهلاك . وفى هذه اللحظة الحرجة التى يوقف عليها مصير هؤلاء المسلمين ، حدث أمر لم يكن فى الحسبان ، إذ أقبل أسطول من الأندلس فى أول سنة ٢١٤هـ يحمل رجالا وطنوا أنفسهم للجهاد ، بقودهم أمير البحر إصبغ بن وكيل المعروف بغرغوش ، وفى نفس الوقت ، وصلت سفن كثيرة من إفريقية مددا للمسلمين فبلغ عدد القطع الوافدة ثلثمائة سفينة . ونزل المسلمون بالجزيرة ، وأقبلوا لفك الحصار عن المسلمين المحصورين فى ميناو ، فانهزم الروم ، وفكوا الحصار عن المسلمين .

ثم زحفت جيوش المسلمين إلى مدينة بلرم ، فحاصروها حصارا محكما ، وافتتحوها بالأمان فى رجب سنة ٢١٦ هـ . وكان فتح بلرم فى الواقع خطوة كبيرة فى سبيل افتتاح صقلية كلها ، ولما كانت بلرم ميناء بحريا على الساحل الشمالى لصقلية ، فقد كانت تصل إليها السفن بسهولة من إفريقية ، وعليها المؤن والإمدادات . بعد أن دخل المسلمون بلرم خرج عاملها الرومى إلى القسطنطينية[2] ، وقام المسلمون بحرق المدينة وخربوهـــا[3] . ثم زحف المسلمون إلى مدينة قلونية ، فحاصروها ، وتمكنوا من الاستيلاء عليها . غير أن وباء انتشر فى المدينة بعد دخول المسلمين فيها ، كان سببا فى وفاة

---

(١) ابن الأثير ج ٦ ص ١٨٧ .

(٢) نفس المرجع ص ١٨٨ .

(٣) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٢٩

عدد كبير منهم ، من بينهم قرغلوش نفسه ، وعدد من القادة. واستغل الروم هذه الفرصة ، فهاجموا المسلمين ، وقتلوا كثيرا منهم . ويبدو أن خلافا قام بين الأندلسيين وأهل إفريقية فى صقلية ، بشأن قيادة الجيوش ، فقد وجه زيادة الله بن الأغلب على صقلية قائدا مشهورا من قواده هو أبو فهر محمد ابن عبد الله التميمى فى سنة ٢٩٧ هـ (١) ، فعزم الأندلسيون على النزول إلى بلادهم (٢) . إلا أنهم وافقوا أخيرا على ولاية أبى فهر سنة ٢٩٩هـ . واتخذ أبو فهر مدينة بلرم عاصمة له ، وذلك لسهولة اتصالها بافريقية ؛ ومن هناك أخذ يوجه الغارات على قصريانة فى سنتى ٢١٩ ، ٢٢٠ هـ . كذلك سير سير عسكرا بقيادة محمد بن سالم إلى مدينة طرمين Taormion الواقعة بشرق الجزيرة ، فغنم غنائم كثيرة . ولكن جنده تمردوا عليه وقتلوه ، فأرسل زيادة الله من إفريقية النفيل بن يعقوب عوضا عنه ، وأحرز المسلمون على الروم عدداً من الانتصارات فى سرقوصه ، وغنموا غنائم كثيرة ، كما تمكنت فرقة من المسلمين من هزيمة الروم وأسر قائدهم بطريق صقلية (٣).

ويبدو أن زيادة الله بن الأغلب لم يرض عن سياسة أبى فهر محمد ابن عبد الله فى صقلية فولى عليها أخا لأبى فهر هو أبو الأغلب ، فوصلها فى منتصف رمضان سنة ٢٢٠هـ. وقد أحرز المسلمون حدوصوله انتصارات بحرية كثيرة ، فظفروا بأسطول للروم ، وغنموا ما فيه وقتلوا بحارته من الروم. وبعث أبو الأغلب أسطولا إلى قوصرة ، فظفر فيها بحراقة رومية ، ووجه

---

(١) ابن الأثير ص ١٨٨ .

(٢) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٣٠

(٣) ابن الأثير ، ج ٥ ص ١٨٨

فى سنة ٢٢٩ سربة إلى جبل النار ( مسينة Messina ) بشمال جزيرة صقلية، فغزاها ، وغنم المسلمون غنائم لاتحصى . وكان أبو الأغلب يبعث سراياه وفرقه من بلرم للاغارة على مدن صقلية ، وفى كل مرة كان المسلمون يعودون مظفرين غانمين . وتمكن المسلمون فى إحدى غاراتهم على قصريانة من الاستيلاء عليها (١) ، كما افتتحوا حصن مدنار ومعاقل كثيرة فى غزوة قام بها الفضل بن يعقوب فى سنة ٢٢٢ هـ . وفى العام التالى وصلت إلى الروم بصقلية إمدادات بيزنطية ، وكان المسلمون يحاصرون إحدى مدن صقلية فاضطروا إلى رفع الحصار عنها ، ووقعت بينهم وبين الروم القادمين عدة وقائع ، وبينما كانت هذه الوقائع دائرة بينهم وبين الروم ، وصلت الأنباء بوفاة زيادة الله بن الأغلب فى ٩ رجب سنة ٢٢٣ هـ ، وأحدثت وفاته أثرا كبيرا فى نفوس المسلمين ، فدب الوهن فى صفوفهم ، ولكنهم تمالكوا أنفسهم ، واستعادوا حماسهم فى قتال الروم . وقد ظلت صقلية طوال العصر الأغلبى مركزا للجهاد ، واهتم أمراء بنى الأغلب امتهاما خاصا بغزوها وامدادها بالمؤن والرجال والسلاح ، ولم يكتف المسلمون بالاستيلاء على صقلية بل أغاروا على مالطة واقتحموها فى أيام محمد بن الأغلب سنة ٢٦١ هـ ، وقدم الأمير الأغلبى ابراهيم بن أحمد إلى صقلية للجهاد فى ربيع الأول سنة ٢٨٤ هـ ، وتمكن من فتح ميقش Miqus بنواحى طبرمين فى شرق صقلية ، وعبر مجاز مسينة ، وغزا قلورية Calabria وهى المنطقة الواقعة فى أقصى الجنوب من شبه جزيرة إيطاليا ، وتفصلها عن صقلية مضيق مسينة ، وحاصر مدينة كوسنتة Cosenza فى كلابريا ، وتقع قريبا من خليج تارنتو ، وتوفى وهو

---

(١) المرجع السابق ص ١٨٩ — ابن خلدون ص ٤٢٢

يحاصرها في ٢٨٩ هـ (١). وفي العصر الفاطمي تولى أمر صقلية أسرة الحسن ابن علي بن أبي الحسين، وظلوا يتوارثون إمارتها، ويجاهدون الروم فيها، إلى أن انقرضت دولة بني الحسين على أيدي النورمان سنة ٤٨٤هـ.

---

(١) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، القسم الثالث، ص١٢٠

( ٢ )

## خلفاء زيادة الله بن ابراهيم بن الأغلب

### ٩ ـ أبو عقال الأغلب ( ٢٢٣ ـ ٢٢٦ )

لما توفى زيادة الله خلفه أخوه أبو عقال الأغلب الملقب بخزر ، وكان أول ما قام به الأغلب فى صدر ولايته تأمين الناس على أنفسهم ، والإحسان إليهم وإلى جنده ، وإزالة المظالم ، وزيادة أرزاق عماله ، حتى يكفوا أيديهم عن الرعية [١] ، والتودد إلى الناس والتقرب إليهم باسقاط كثير من المحدثات التى بالغ فيها العمال . وذكروا أنه حرم على الناس تعاطى النبيذ والخمور فى القيروان ، وعاقب على بيعه وشربه [٢] حتى يكسب رجال الدين والفقهاء إلى جانبه .

وكانت أيام أبى عقال لذلك كلها هادئة ، ولم يقطع هـــذا الهدوء إلا اضطراب خوارج زواغـــة ولواتة ومكناسة سنة ٢٢٣هـ ، فى إقليم قسطيلية ، وقيامهم بقتل عامله على هذا الاقليم . فسير إليهم جيشا بقيادة عيسى بن ربعان الأزدى ، اشتبك معهم فيما بين قفصة وقسطيلية ، فأبادهم عن آخرهم [٣] . واهتم أبو عقال فى أول ولايته بأمر صقلية فبعث فى سنة ٢٢٤هـ سرية غزت بعض مواضع من الجزيرة وغنمت غنائم كثيرة ، ونجح المسلمون فى اقتحاع

---

(١) ابن عذارى ج ١ ص ١٣٩ ـــ ابن الأثير ج ٥ ص ٢٠٣ ـــ ابن خلدون ج ٤ ص ٢٢٨ ـــ ابن الخطيب ، القسم الثالث من أعمال الأعلام ، ص ٢٠ .

(٢) ابن عذارى ، ص ١٣٩ ـــ ابن الأثير ص ٢٠٣

(٣) نفس المرجع ـــ ابن الأبار ، ج ٥ ص ٢٠٦ ـــ ابن خلدون ج ٤ ص ٢٢٨

عدد من حصونها ، فاستولوا على حصن البلوط ، وأبلاطو وقرلون ومرو. وافتتح الأسطول الإسلامي مدينة قورية ، واشتبك مع الأسطول البيزنطي في موقعة بحرية دارت خارج قورية ، وانتهت بانتصار المسلمين . وأغارت فرقة من جيش المسلمين على قصريانة ، ثم توجهت بعد ذلك إلى حصن الفيران ، وعادت بغنائم كثيرة[1]. وتوفي الأغلب في ربيع الآخر سنة ٢٢٦هـ ، وخلفه ابنه أبو العباس محمد بن الأغلب .

## ٢ ـ أبو العباس محمد بن الأغلب بن إبراهيم (٢٢٦ ـ ٢٤٢هـ)

ساد الأمن والسلام بلاد إفريقية في أول ولايته ، وظل الهدوء سائداً خمس سنوات من ولايته ، ثم خلالها بتوسيع دائرة نفوذه في المغرب الأدنى ، فأسس مدينة بالقرب من تاهرت عاصمة العباسية في سنة ٢٢٧ [2] ، ولكن الإمام أفلح بن عبد الوهاب بن رستم قام بتخريبها ، وقد كافأه الأمير عبد الرحمن الأوسط بالأندلس على ذلك بأن أرسل إليه مائة ألف درهم[3].

وفي سنة ٢٣١ هـ قام أخوه أبو جعفر أحمد بن الأغلب بالثورة عليه ، فقد كان ساخطاً عليه بسبب تسلط الوزير أبي عبدالله بن علي بن حبيد على أمور الدولة ، وسكوت أخيه على ذلك . لاشتغاله بلهوه وعكوفه على قيانه بمدينة القصر القديم . فاستغل أبو جعفر أحمد اشتغال أخيه بلهوه وعكوفه على قيانه بمدينة القصر القديم . فاستغل أبو جعفر أحمد اشتغال أخيه بلهوه على القصر ، وخرج في جملة من أتباعه إلى القصر القديم ، وقد خلا القصر من الرجال ، فدخل القصر ومعه أتباعه ، وأغلقوا الأبواب ، ثم هجموا على أبي عبد الله

---

(١) ابن الأثير ص ٢٥٣

(٢) ابن خلدون ، ج ٤ ص ٤٢٩

(٣) ابن الأثير ج ٥ ص ٢٦٣ ـ ابن خلدون ، المرجع السابق

ابن علي بن حميد الوزير ، وقتلوه . وبلغ أبا العباس محمد خبر قيام أخيه ، فتحصن في غاية من منعة بقصره [1] ، ونشب القتال بين حراس القصر وبين رجال أحمد ، فتغلب حراس القصر على الثوار ، فأخذ أحمد ورجاله ينادون « نحن في الطاعة ، لم نخلع عنها يدا ، وإنما قتلنا علي بن حميد الذين قهروا السلطان ، واستأثروا بالمال » [2] . فتوقف القتال ، وتوجه محمد في مجلسه العام ، واستقدم أخاه أحمد ، فعانقه ، واصطلحا بعد أن اتفقا على ألا يغدر أحدهما بصاحبه . ومنذ ذلك الحين عظم أمر أحمد ، ونقل الدواوين إليه ، وقبض على من شاء من خصومه ، واستحق من أراد ، واستوزر نصر بن حمزة ، ولم يبق لمحمد من الامارة غير الاسم فقط [3] .

فلما رأى محمد عزم أخيه إلى خلعه من الامارة ، « أقصر عن اللذات ، وأخذ في الاحتيال على أخيه ، والكتب إلى قواده وخواصه في السر ، ويأتيه ذلك إلى أخيه فيكذبه ، إلى أن تم له الأمر ، وحضر الوعد ، وتيسر من إعداد الرجال الغرض ، وضرب محمد الطبل — وهو العلامة — فأقبل القوم ، وكانت بين الفريقين حرب عظيمة ، إلى أن كرّ أصحاب أحمد فانهزموا » [4] ويذكر ابن عذاري أن محمد بن الأغلب استند على جماعة من بني عمه ومواليه ، واحتال على بوابي القيروان ، حتى دخلها وأطلق من كان في حبس أخيه ، فاستمد بهم ، ووصل أهل القيروان حتى نفد جميع ما في خزائنه من الأموال

---

(١) ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، القسم الثالث ص ٢١ .

(٢) ابن عذاري ، ج ١ ، ص ١٤١ — ابن الخطيب ، الرجز السابق ص ٢١

(٣) نفس المرجع ، ص ١٤٢ — ابن الأثير ، ج ٥ ص ٢٧٥ — ابن الخطيب ، ص ٢١

(٤) ابن الخطيب ، ص ٢٢

والاكسية [1]. ولما تغلب على أخيه أحمد ، نفاه بأهله وولده إلى مصر ، واستقام أمر محمد بافريقية بعد ذلك . ولم تكن ثورة أحمد هي الثورة الوحيدة التي واجهها أبو العباس محمد ، ففي سنة ٢٣٣هـ عزل محمد بن الأغلب سالم بن غلبون ، عامله على الزاب ، فاستاء سالم لذلك ، وأعان الثورة على الأمير ، وأقبل بجيش من أنصاره نحو القيروان ، فلما وصل إلى قلعة يلبس عدل عن خطته فسار إلى الأربس وحاول دخولها ، فمنعه أهلها من ذلك ، فزحف إلى باجه ودخلها ، وامتنع بها ، فسير إليه الأغلب قائده خفاجة بن سفيان ، فقتله ، وحمل رأسه إلى الأمير (٢) .

وفي العام التالي ثار عمرو بن سليم القبيبي المعروف بالقويع في تونس ، واستمرت ثورته حتى ٢٣٤ ، ٢٣٥ هـ ، وفشل القائد خفاجة بن سفيان في القضاء عليها ، فبعث إليه ابن الأغلب جيشا آخر بقيادة محمد بن موسى المعروف بعربان ، ولكن عدداً كبيراً من عسكر ابن الأغلب انضم إلى القويع ، فانهزم محمد بن موسى وعاد به إلى القيروان . وقويمحر كالقويع ، فسير إليه ابن الأغلب للمرة الثالثة جيشا بقيادة خفاجة بن سفيان ، وتمكن خفاجة هذه المرة من هزيمة القويع وقتله ، ودخل جيش ابن الأغلب مدينة تونس في ١٠ ربيع الأول سنة ٢٣٦ (٣) . وتوفي أبو العباس محمد في أول محرم سنة ٢٤٢هـ وكان عهد محمد بن الأغلب عهد سلم بالنسبة للعهود السابقة ، ومن مآثره أنه استقضى على القيروان أبا سعيد عبد السلام سحنون الملقب

---

(١) ابن عذارى ، ج ١ ، ص ١٤٢

(٢) نفس المرجع ص ١٤٣ ـ ابن الاثير ج ٥ ص ٢٨١

(٣) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٤٤ ـ ابن الاثير ج ٥ ص ٢٨٢

بدراج للقيروان ، وكان عالما في أصول الدين والفقه على مذهب مالك (١).

٣ ـ أبو ابراهيم أحمد بن محمد (٢٤٢ـ٢٤٩ هـ)

لما توفي أبو العباس محمد خلفه ابنه أبو ابراهيم أحمد ، وكان على حداثة سنه حسن السيرة ، كريم الفعال ، رفيقا برعيته ، متجنبا للظلم . ويذكر ابن عذاري أنه كان يخرج من القصر القديم ويمشي حتى يدخل من باب أبي الربيع ومعه دواب بالدراهم ، فكان يعطي الفقراء والمساكين حتى ينتهي إلى المسجد الجامع بالقيروان (٢) . وكان أبو ابراهيم أحمد مولعا بالبناء ، ففي سنة ٢٤٥ هـ أخرج مالا كثيرا لحفر الماجل والبيان المساجد والقناطر . وفي سنة ٢٤٦ هـ شرع في حفر الماجل الكبير الواقع على باب تونس ، وتم بناء هذا الماجل في سنة ٢٤٨ هـ وهو على شكل صهريج عظيم مستدير الشكل ، يبلغ قطره نحو ١٥٠ مترا ، وكانت مياه الأودية تجري اليه . وكان أهل القيروان يشربون من هذا الماجل في سنوات المحل والجفاف (٣) .

وأبو ابراهيم هذا هو الذي زاد في جامع القيروان ، وأصلح قنطرة باب أبي الربيع سنة ٢٤٨ هـ (٤) وبنى سور سوسه في سنة ٢٤٥ هـ (٥) ، وشرع في

---

(١) المالكي ، رياض النفوس ، ج ١ ص ٢٤٩ ـ ٢٩٠

(٢) ابن عذاري ، ج ١ ص ١٤٧ ـ ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، القسم الثالث ، ص ٢٣ .

(٣) ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ص ٢٣ حاشية رقم ١ ـ حسن حسني عبد الوهاب ، خلاصة تاريخ تونس ، ١٣٢٣ هـ ص ٦٨

(٤) ابن عذاري ، ج ١ ص ١٤٨ ـ ابن الأبار ، الحلة السيراء ص ١٦٤

(٥) ابن الخطيب ص ٢٣

إصلاح المسجد الجامع بتونس والزيادة فيه سنة ٢٤٩ هـ، ولكنه توفى قبل تمامه (١). وذكر ابن الخطيب أنه اعتل فى أثناء إجراء الماء إلى الماجل الذى أقامه بالقصر القديم، وكان يسأل: هل دخله الماء؟ إلى أن دخله الوادى، فعرفوه بذلك فسر به، وأمرهم أن يأتوه بكأس مملوءة منه فشربها قال: الحمد لله الذى لم أمت حتى تم أمرى، ثم مات على أثر ذلك» (٢).

وفى عهد أبى ابراهيم أحمد ثار خوارج الجريد من الإباضية فى طرابلس سنة ٢٤٥ هـ، وهزموا عاملها أخاه عبد الله بن محمد، فسير إليهم أخاه زيادة الله، فانهزم الإباضية، وقتل منهم عدد كبير (٣). وتوفى أبو ابراهيم أحمد فى ذى القعدة سنة ٢٤٩ هـ.

٤ — أبو محمد زيادة الله بن محمد (٢٤٩-٢٧٥هـ)

لما توفى أبو ابراهيم أحمد خلفه أخوه أبو محمد زيادة الله الثانى، وعلى الرغم من صغر سنه عند توليه الامارة لم يطل به العهد فيها، إذ توفى بعد عام واحد، فى ذى القعدة سنة ٢٥٠ هـ. وزيادة الله هذا هو الذى أتم زيادة أخيه أبى ابراهيم أحمد فى جامع الزيتونة بتونس.

٥ — أبو الغرانيق محمد بن أحمد (٢٥٠-٢٦٩هـ)

قام بالامارة فى إفريقية بعد وفاة زيادة الله ابن أخيه أبى الغرانيق محمد ابن أبى ابراهيم أحمد، وقد لقب بهذا اللقب بسبب حبه لصيد الغرانيق

---

(١) ابن عذارى، ج ١ ص ١١٨

(٢) ابن الخطيب، ص ٢٤

(٣) ابن الأثير، ج ٥ ص ٣٠٠ — ابن خلدون، ج ٤ ص ٤٣١

حتى أنه بنى قصراً يخرج إليه لصيدها أنفق فيه ٣٠ ألف مثقال من الذهب[1].

وكان أبو الغرانيق مولعاً بالبناء والتشييد، فبنى حصوناً ومحارس على ساحل البحر بالمغرب، على مسيرة ١٢ يوماً من رقادة الى جهة المغرب (٢). وفي عهده أقام محمد بن سحنون الافريقي الماجري المسجد الشريف المنسوب إليه بالقيروان في سنة ٢٥٢ هـ (٨٦٦ م) ويعرف بمسجد الأبواب الثلاثة، بناه بالآجر والجص والرخام، وتعتبر زخارفه واجهته من أروع الزخارف المنسوبة الى عصر الأغالبة (٣).

٦ـ ابراهيم بن أحمد (٢٦١ – ٢٨٩ هـ).

لما توفي أبو الغرانيق في ٦ جمادي الأولى سنة ٢٦١ هـ، خلفه أخوه إبراهيم ابن أحمد. ويعتبر الأمير ابراهيم هذا أعظم أمراء بني الأغلب على الاطلاق، فهو الذي أسس مدينة رقادة سنة ٢٦٣ هـ، وبنى فيها جامعاً وقصراً سماه القصر (٤)، وهو الذي أتم بناء المسجد الجامع بتونس، وماجل القيروان، وذكر ابن خلدون أنه بنى الحصون والمحارس بسواحل البحر حتى كانت النار توقد في ساحل سبتة للتنبيه بالعدو فيصل إيقادها بالاسكندرية في الليلة الواحدة. وهو الذي بنى سور سوسة (٥).

---

(١) ابن عذارى، ج ١ ص ١٠٠.

(٢) ابن خلدون، ج ٤ ص ١٢١.

(٣) G. Marçais. l'Architecture musulmane d'Occident, Paris. 1954. pp. 47 - 48.

(٤) أتم هذا الجامع والقصر في سنة ٢٦٤ هـ.

(٥) ابن الأثير، ج ٦ ص ٥ — ابن خلدون، ج ٤ ص ١٢١.

وفى عهده كانت فتنة العباس بن أحمد بن طولون الذى انتهز فرصة غياب أبيه فى الشام وأعلن خروجه عليه فى مصر ، وأزمع الاستقلال بها ، فلما بلغه قدوم أبيه إلى مصر عزم على غزو إفريقية فى سنة ٢٦٧هـ وإخراج بنى الأغلب عنها ، أملا فى إقامة ملك له بشمال إفريقية . ولكنه فشل فى الاستيلاء على طرابلس وبلدة (١) .

وكان ابراهيم بن أحمد فى السنين الست الأولى من إمارته يسير على نهج أسلافه من حسن السيرة والعدل ، ثم أخذ يتغير بعد ذلك ، فكان يزداد تغيرا وسوءا فى كل سنة ، وأصبح جائرا ظالما ، سفاكا للدماء . ثم أصيب فى آخر عمره بجنون القتل (٢) ، أسرف بسببه فى قتل أقرب الناس إليه من ذويه وأصحابه وحجابه ، فقتل ابنه أبا الأغلب ، وقتل بناته ، وقتل ثمانية إخوة له ، وأتى بأمور لا تصدر إلا من المتوحشين الهمج . وقيل أنه افتقد منديلا صغيرا كان يمسح به فمه من التراب ، قد سقط من بعض جاريانه وأخفاه خادم له ، فقتل بسببه ثلاثمائة خادم ، كذلك قتل ابنه أبا عقال لأن حديث المنجم أنباه بأن ابنه هـــذا يلى الملك فى وقت حدده له ، وقتل وصيفاته وجواريه دون سبب أو جريرة (٣) . وفى أيامه ظهر أبو عبد الله الشيعى الداعى فى قبائل كتامة ، يدعو للإسماعيلية ، ونجح فى اجتذاب

---

(١) راجع التفاصيل فى البيان المغرب ، ج ١ ص ١٢٦ — ١٢٨

(٢) ذكر ابن خلدون أنه أصابه « مالیخولیا » ( ج ٤ ، ص ٤٢٦ ) ، وذكر ابن عذارى أنه غلب عليه خلط سوداوى ( البيان ج ١ ص ١٢٨ ) ، وذكر ابن الخطيب أنه انقلب المزاج عما كان عليه ، وفسد فكره لفساد مزاج سوداوى ساءت له أحلامه وتغيرت ظنونه فأسرف فى القتل » ( أعمال الاعلام ص ٢٩ )

(٣) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٢٨ ، ١٢٩ — ابن الخطيب ، ص ٢٩ — ٣٤

الكتامين إلى دعوته ، ويبدو أن ظهور الشيعي كان سببا في استقامة ابراهيم أحمد وتوبته ، حتى يستميل الناس بأفعاله فلا ينضموا إلى دعوة الشيعة (١)، « فرد المظالم ، وأسقط القبالات . وأخذ العشر طعاما ، وترك الأعمال الضياع خراج سنة وسماها سنة العدل، وأعتق الرقيق، وأعطى فقهاء القيروان ووجوه أهلها أموالا عظيمة ليفرقوها في الضعفاء والمساكين » (٢) ، ولكن ابنه أبا العباس استرد هذه الأموال التي أخرجها أبوه إلى الفقهاء، وأنفقها في مآدبه وشهواته (٣). وذكر المؤرخون أنه أخرج من في السجون ، وبعث يستدعي ابنه أبا العباس من صقلية فاقيام بأعباء الحكم ، فقدم عليه في ربيع الأول سنة ٢٨٩ هـ ، وعزم ابراهيم بن أحمد على الجهاد بصقلية (٤) ، فاستنفر الناس ، ودعاهم إلى الجهاد ، ورزع عليهم الأموال الطائلة، وخرج من مدينة سوسة في أواخر ربيع الآخر في الأسطول ، وأجر إلى صقلية ، فنزل بمدينة مازر في ٢٨ رجب سنة ٢٨٩ هـ، وحاصر ميقش Miqus (٥) سبعة عشر يوما ، ثم فتح مسينة ، وهدم أسوارها ، ثم فتح طرمين Taormina في آخر شعبان من سنة ٢٨٩ هـ (٦) . وبعث جنده زيادة الله إلى قلعة ميقش فافتتحها ، بينما بعث

---

(١) المرجع السابق ص ١٢٢ — ابن خلدون جـ ٤ ص ١٢٢

(٢) نفس المرجع ص ١٢٢

(٣) نفس المرجع ص ١٢٦

(٤) ذكر ابن الأثير أنه عزم على الحج ، وعلم أنه ان يجعل طريقه الى مكة من مصر منعه صاحبها ابن طولون، فجرى بينهما حرب فيقتل المسلمون ، فجعل طريقه على جزيرة صقلية ليجمع بين الحج والجهاد .

(٥) ابن الأثير ، جـ ٦ ص ٦ — ابن الخطيب ص ٢٥

(٦) ابن خلدون ، جـ ٤ ص ١٢٦

ابنه أبو محرز إلى رمطة Rumetta، وهي قلعة حصينة تقع غربي مدينة مسينة، فأعطاه أهلها الجزية [1] . ولم يكتف ابراهيم بن أحمد بذلك ، بل عبر مضيق مسينة من صقلية، وأغار على ساحل إيطاليا الجنوبي الغربي ، « وسار في بر الفرنج ، ودخل قلورية عنوة ، فقتل وسبى ، ورهب منه الفرنجة »[2] وقلورية المذكورة هي كلابريا Calabria، وتفصلها عن صقلية مضيق مسينة . ثم مضى نحو كسنة Cosenza ، وهي مدينة تقع بالقرب من خليج تارنتو ، فنازل أهلها ، فعرضوا عليه الجزية ولكنه لم يقبل منهم ذلك ، فحاصرها [3] وأصيب وهو قائم بحصارها بمرض شديد ، سبب وفاته في ١٨ ذي القعدة سنة ٢٨٩ هـ بأرض كلابريا ، ونقل ميتا إلى جزيرة صقلية ، فدفن ببلرم بعد ثلاثة وأربعين يوما من وفاته [4] . وبنى على قبره قصر [5] أو رباط .

## ٧ ـ ابو العباس عبد الله بن ابراهيم ( ٢٨٩ ـ ٢٩٠ هـ ) :

وبوفاة ابراهيم بن أحمد بدأ الضعف والوهن يدب في دولة الأغالبة ، فقد تولى بعده ابنه أبو العباس عبد الله بن ابراهيم . وفي أيامه اضطرب الحكم حتى إن ابنه زيادة الله أمر على قتله [6] . فحبسه أبوه في بيت داخل داره، ومات أبو العباس عبد الله بن ابراهيم مقتولا في ٢٩ شعبان سنة ٢٩٠ هـ

(١) المرجع السابق ـ ابن الخطيب ، ص ٣٥

(٢) ابن خلدون ، ج ٤ ص ٤٢٢ ـ ابن الخطيب ، ص ٣٥

(٣) ابن الأثير ، ج ٦ ص ٦ ـ ابن الخطيب ، ص ٣٥

(٤) ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٢٨ ـ وذكر ابن خلدون وابن الخطيب أنه دفن في مدينة بلرم في ٢١ من ذي الحجة .

(٥) ابن الخطيب ، ص ٣٦

(٦) ابن خلدون ، ج ٤ ص ٢٢٨

بأيدي فتيين من فتيانه الصقالبة بايعـاز من ولده زيادة الله [١] . وكان أبو العباس عبد الله حسن السيرة عادلا ، أكثر من الجهـــاد في صقلية ، وذكر المؤرخون أن ولايته كانت رحمة ، نسخت العذاب الذي كان سائدا في عهد أبيـه [٢] ، وأظهر التقشف ، والجلوس على الأرض وإنصاف المظلوم ، ومجالس أهل العلم ، ومشاورهم ، وكان لا يركب إلا إلى الجامع » [٣] . ولم يسكن قصر أبيه ولكنه اشترى دارا مبنية من الطوب ، فأقام فيها حتى قتل.

٨ ـ زيادة الله بن عبد الله اخر امراء بني الاغلب ( ٢٩٠ ـ ٢٩٦ هـ ) :

لما تولى زيادة الله الثالث الإمارة ، قبض على أعمامه وأرسلهم إلى جزيرة الكراث ، وهي جزيرة صغيرة تقع على بعد كيلو مترين ونصف شمالي تونس ، وأمر بقتلهم ، فقتلوا جميعا [٤] . كذلك أمر بقتل الفتيين اللذين قتلا أباه [٥] ، وقتل أخاه أبا عبد الله الأحول بعد أن استقدمه من طبنة ، ثم ولى وزارته وشؤون البريد عبد الله بن الصائغ ، كما ولى أبا مسلم منصور بن اسماعيل ديوان الخراج . وعكف على لذاته ولهوه ومعاشرة المضحكين والعابثين ، وأهمل أمور دولته . وكان مقيما بتونس ، فأمر أبا مسلم منصور بن اسمـــاعيل باصلاح ما وهى من قصور مدينة رقادة ، وترميمها ، وأنشأ مركبا على ما جعل القيروان تسمى بالزلاج ، وقدم من تونس في شهر ربيع الآخر سنة

---

(١) ابن الأثير ، ج ٦ ص ١٠٢

(٢) ابن الخطيب ، ص ٣٦

(٣) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٨٠

(٤) نفس المرجع ، ص ١٨٣ ـ ابن الخطيب ، ص ٣٨

(٥) نفس المرجع ـ ابن خلدون ، ج ٤ ص ٤٢٦ ـ ابن الخطيب ، ص ٣٨

٢٩٢ هـ ، ونزل على الساحل الكبير بالقيروان [1] ، وكان خطر الداعي الشيعي قد استفحل ، إذ استولى في سنة ٢٩٢ هـ على سطيف بالجزائر ، فسير إليه زيادة الله جيشا من أربعين الف مقاتل بقيادة ابراهيم بن حبشي ، فالتقى مع جنود الشيعي في كيتونة ، فانهزم ابن حبشي هزيمة شنعاء ، وزحف أبو عبد الله الشيعي بجيشه الظافر في أملاك الاغالبة ، فأخرج إليه زيادة الله جيشا بقيادة مدبج بن زكريا ، وأحمد بن مسرور الخال ، ولكنهما خرجا عليه ، فسار زيادة الله بنفسه إلى مدينة الأربس في سنة ٢٩٣ هـ ، واجتمعت إليه الجنود ، وأنفق عليهم أموالا طائلة لترغيبهم في مقاتلة الشيعي وأنصاره ، وأمر زيادة الله أثناء مقامه بالأربس بإرسال العساكر إلى باغاية ، وشحن طبنة عاصمة الزاب بالرجال ، وأقام عليها ماجيه أبا المقارع حسن بن أحمد ابن ماكس ، وشبيب بن أبي شداد القمودي ، وخفاجة العبسي ، وكانوا من كبار قواده ، وأمرهم بشن الغارات على كتامة .

وعلى الرغم من كل الاحتياطات التي اتخذها زيادة الله لإيقاف تقدم الشيعي ، فقد تمكن الشيعي من محاصرة مدينة طبنة ، ونصب عليها الدبابات ، وثقب بربها وبدنة ، فسقط السور بعد قتال شديد ، واستولى أبو عبد الله الشيعي على مدينة طبنة ، فاحتمى المقدمون بحصن المدينة ، فحاصرهم ، فطلبوا الأمان فأمنهم ، ثم دخل الحصن في آخر ذي الحجة ٢٩٣ هـ ، وزحف بعد ذلك إلى مدينة بلزمة . وكان قد حاصرها من قبل عدة مرات ، ولم يتمكن من الاستيلاء عليها ، فحاصرها هذه المرة ونصب عليها الدبابات ، ورماها

---

(١) ابن عذاري ، ص ١٨٦

بالنار أحرقها ، وفتحها بالسيف ، وقتل الرجال ، وهدم أسوارها [١] .

وخاف زيادة الله أن يباغته الشيعي بغزو الأربس ، فرحل إلى رقادة بعد أن بيّت سورها بالطوب والطوابي ، واستخلف على جيشه بالأربس ابراهيم ابن أحمد بن أبي عقال [٢] . وواصل الشيعي تقدمه في البلاد التونسية ، فاستولى على باغاية في شعبان من نفس السنة بالأمان ، وفي سنة ٢٩٦ هـ وصلت خيله إلى قسطيليه ، وانسحبت جيوش زيادة الله إلى توزر ، فاستولى الشيعي على تيجس صلحا ، ثم سقطت قفصة وبلاد قسطيلية في يده ، وزحف بعد ذلك إلى الأربس ، ونازلها ، وافتتحها عنوة في ٢٤ جمادى الآخرة سنة ٢٩٦ هـ [٣] . وأخذت جيوش الشيعي تستولي على مدن إفريقية الواحدة بعد الأخرى ، فسقطت في يده مجانة ونيفاش وسبيبة وقمودة [٤] ، ثم نبحتها سكيانة وتبسة . وفي مدينة وجد أن أهالي قصر الإفريق ومرجنة ومجانة قد التجئوا إليها ، وتحصنوا بها ، فاقتحم الحصن ، ثم رحل إلى القصرين من قمودة وأمن أهلها ودخلها [٥] .

ولما علم زيادة الله بذلك سقط في يده ، وعزم على الهرب إلى مصر ، فخرج من رقادة ومعه وجوه رجاله وأعيانه وعبيده ، وقد حمل من الذهب والجوهر ما خف حمله ، وانتخب من عبيده الصقالبة ألف خادم جعل على

---

(١) ابن الأثير ، ج ٦ ص ١٣٠

(٢) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٩٣ — ابن خلدون ، ج ٤ ص ٤٢٩

(٣) نص الرسير ص ٩٩ — ابن الخطيب ص ٤٢

(٤) ابن خلدون ، ج ٤ ص ٤٤٠ ، ٤٤١

(٥) ابن الأثير ، ج ٦ ص ١٣٩

وسط كل واحد منهم ألف دينار، ورحل من رقادة في ٢٦ من جمادى الآخرة. وأصبح الناس غداة ليلة خروجه، وهجموا على قصوره برقادة ، فانتهبوا ما فيها من أموال وآنية ذهبية وفضية [1] .

وبلغ أبا عبدالله الشيعي نبأ هروب زيادة الله ، فبعث قائده خروبة بن يوسف إلى رقادة فدخلها في غرة رجب ، ونزل بقصرها المعروف بقصر القصبة [2] .

أما زيادة الله فقد سار في الجادة الموصلة إلى طرابلس، فأقام بطرابلس ١٧ يوما ، ثم سار بعد ذلك إلى مصر . وانقرضت بذلك دولة بني الأغلب .

---

(١) ابن عذارى ج ١ ص ٢٠١ — ابن الخطيب ، ص ١٤

(٢) نفس المرجع ص ٢٠٥

## (٣)

## ازدهار الحياة الاقتصادية فى المغرب الأدنى فى عصر الأغالبة

لم يزودنا المؤرخون بمعلومات كافية توضح لنا الحالة الاقتصادية فى إفريقية فى عصر الأغالبة ، ولهذا فاننا نلجأ عادة إلى كتب الجغرافيا والرحلات ، وخاصة اليعقوبى المعاصر لدولة الأغالبة ، والذى زار المغرب فيما بين عامى ٢٦١ ، ٢٧٤ هـ ( ٨٧٤ - ٨٨٨ م ) .

لم تعرف بلاد إفريقية منذ العصر الرومانى ازدهارا اقتصاديا كما عرفته أيام الأغالبة ، فقد أصيب اقتصادها منذ النصف الثانى من القرن الثالث الميلادى حتى أواخر القرن السابع باضطراب شديد بسبب تعاقب الغزاة على إفريقية ، وقيام البربر بالثورات المتواصلة على حكامهم ، والفتن التى اضطرمت نيرانها فى البلاد بسبب غارات سكان الجبال والبدو الصحراويين على المدن والسهول . وعلى هذا النحو لم تكن المزارع الإفريقية تعرف الأمن والسلام اللازمين لقيام الزراعة واتصال عبور القوافل التجارية . وكان البناء الاقتصادى فى إفريقية عند بداية الفتح العربى لبلاد المغرب فى غاية التصدع ، وعجلت ثورة كسيلة وثورة الكاهنة على هذا التصدع ، وأتى عليه تشدد أمراء بنى أمية فى جباية الضرائب على السكان ، وما تبع ذلك من ثورات البربر وحركات الصفرية والإباضية ، وتحولت بلاد إفريقية إلى ميادين للقتال بين جيوش العرب أموية وعباسية ، وبين حشود البربر الخوارج المتسادين بالمساواة . ولما قامت أسرة الأغالبة بامارة إفريقية ، أحس المزارعون بنوع من الاستقرار النسبى كانوا يفتقدونه منذ عهود طويلة ، وفى ظل هذا الأمن

الذى ساد فى معظم عهود بنى الأغلب ، زادت المحاصيل الزراعية [1] . ولم تتعرض إفريقية للمحل والقحط إلا فى عصر أبى الغرانيق سنة ٢٦٠ هـ [2] .

واشتدت الأزمة الاقتصادية بإفريقية نتيجة لذلك فى ولاية ابراهيم بن أحمد فى سنة ٢٦٦هـ[3] . ويبدو أن أمد هذه المجاعة كان قصيرا ، بحيث لم يهتم المؤرخون بذكر شىء عنها بعد ذلك . ثم إن اليعقوبى المغرافى رغم زيادة اهتمامه بالمدن على الريف أبدى دهشته لطهر الخضرة وكثافة الأشجار فى المنطقة الممتدة ما بين قمودة والساحل ، وهى مسافة تقدر بمائة وخمسين كيلو مترا ، ويبدو اليوم على الرغم من تقدم حركة التشجير بسقاقس منطقة شبه صحراوية [4] . ويذكر اليعقوبى أن أشجار الزيتون والنخيل تسود زراعتها فى هذه السهول الرملية وعلى طول الساحل ، فى هذه المنطقة الساحلية بساتين وقرى متصلة ، كل منها تضم معصرة للزيت [5] . وبالإضافة إلى الزيتون ، كانت تزرع أنواع مختلفة من الفواكه ، تخص منها بالذكر العنب الذى كان يصنع منه النبيذ وهو الشراب الأثير عند الأغالبة . وعلى الرغم من قيام بعض أمراء الأغالبة بمنع صناعته ومعاقبة من يتولى بيعه وشربه ، مثل الأمير أبو عقال الأغلب بن ابراهيم [6] ، فقد كان بعضهم يدمن شرابه

---

(١) Marçais, la Barbarie musulmane, pp. 76,77.

(٢) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٠٢

(٣) نفس المرجع ، ص ١٠٥

(٤) اليعقوبى ، كتاب البلدان ، ليدن ١٨٩١ ص ٢٤٩ ؛ Marçais, op. cit. p. 78

(٥) Marçais, Ibid.

(٦) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٢٩

أمثال زيادة الله الثالث[1] ، وأبو العباس محمد بن الأغلب[2].

وإلى جنوب إقليم قمودة كانت تكثر في إقليم قسطيلية من بلاد الجريد أشجار الزيتون والكروم والنخيل (٣). أما المنطقة الواقعة إلى الشمال من قمودة فكانت مزارع للحبوب ، فكانت بلاد باجة التي امتدح الجغرافيون العرب خصبها من المدن المنتجة للقمح .

أما من حيث ثروة إفريقية المعدنية فقد اشتهرت بجانة بمعادنها الكثيرة ، وعلى الأخص الفضة والكحل والحديد والزئبق والرصاص (٤). ويعتقد الأستاذ هارسيه أن منطقة بجانة أصبحت منذ منتصف القرن الثاني تتمتع بنشاط اقتصادي ، يبرره وجود المعادن بكثرة في أرضها (٥). وينقلنا الحديث عن المعادن بإفريقية إلى الصناعات ، وأهم الصناعات التي ازدهرت بإفريقية في عصر الأغالبة صناعة الآلات الحديدية اللازمة لصناعة السفن ، والسيوف ، والسروج ، ولجم الخيل ، وصناعة التحف المصنوعة من الذهب والفضة ، وقد أشار المؤرخون إلى كثير من هذه التحف كانت موجودة بقصور رقادة ، وانتهبها العامة بعد خروج زيادة الله الثالث من رقادة هاربا إلى مصر . كذلك ازدهرت صناعة الزجاج ، وكان في القيروان حي خاصا بالزجاجين ،

---

(١) ابن عذاري ، ص ١٩٤ . يذكر ابن عذاري أن زيادة الله كان يدام الغيارين والشطار والمارة ، وكان اذا فكر في زوال ملكه وغيا النعيم من أكثر أعماله يقول: « املأ واسقني من القرن يكفيني »

(٢) ابن عذاري ، ص ١٤٠

(٣) اليعقوبي ، ص ٣٥٠

(٤) نفس المرجع ص ٣٤٦

(٥) Marçais, op. cit. p. 79.

مما يدل على شهرة القيروان فى هذا النوع من الصناعات . أما صناعة الخزف فقد تأثرت بصفة خاصة بالتقـــاليد العراقية ، فقد ذكر الدباغ فى معالم الايمان ، عند حديثه عن أبى ابراهيم أحمد ( ٢٤٢ ـ ٣٢٩هـ ) أنه « جلبت لهذا الأمير تلك القراميد الثمينة لمجلس أراد أن يعمله ، وجلبت له من بغداد خشب الساج ليعمل له منها عيدان ، فعملها منبرا للجامع ، وجاء بالمحراب منفصلا رخاما من العراق ، عمله فى جامع القيروان ، وجعل تلك القراميد فى وجه المحراب ، وعمل له رجل بغدادى قراميد زادها إليهـــا ، وزينه تلك الزينة العجيبة بالرخام والذهب والآلة الحسنة » [1] . ولاشك أن زخارف الزيدات الخزفية التى تزين جدار المحراب بجامع القيروان تبدو من طراز يختلف عن الزخارف الرخامية التى تكسو وجه المحراب ، ثم أنها تشبه مجموعة من الخزف ذى البريق المعدنى ، عثر عليها فى سامرا والرقة وسوسة مما لا يدع مجالا للشك فى تأثر هذه الصناعة فى القيروان بالتقاليد العراقية [2] .

كذلك اشتهرت إفريقيـة بصناعة السجاد وذلك منذ أقدم العصور ، وهى صناعة محلية لم يكن للعرب فضل فى إدخالها فى البـلاد ، وإنما كانت معروفة منـــذ العصر الرومانى [3] . كذلك اشتهرت إفريقية بصناعة المنسوجات ، وإلى سوسة كانت تنسب الثياب السوسية الرفيعة ذات البياض الناصع [4] . وكانت منسوجات دور الطراز بإفريقية مما يهادى به الخلفاء

---

(١) الدباغ : معالم الايمان فى معرفة أهل القيروان ، ج ٢ تونس ١٩٧٠ ، ص ٩٧

(٢) Marçais, les faiences à reflets métalliques de la grande mosquée de Kairouan, Paris, 1928

(٣) Marçais, la Berberie, P. 81

(٤) البكرى ، ص ٣٤ ـ الاستبصار ، ١١٩

العباسيين . ويذكر ابن عذارى أن أبا عبد الله الشيعى لما هزم جيش ابراهيم ابن حبشى قائد زيادة الله بن الأغلب ، غنم كثيرا من الأموال ، والسلاح ، والسروج ، واللجم ، وضروب الأمتعة ، وهى أول غنيمة أصابها الشيعى وأصحابه ، فلبسوا ثياب الحرير ، وتقلدوا السيوف المحلاة ، وركبوا بسروج الفضة واللجم المذهبة »[1] . وكان أمراء بنى الأغلب يبعثون إلى الخلفاء العباسيين كثيرا من الهدايا والطرف ، ويذكر ابن عذارى أن زيادة الله الثالث بعث الحسن بن هاشم إلى العراق رسولا منه بهدايا وطرف[2] .

أما فيما يتصل بالسكة فيعتقد الأستاذ مارسيه أن الشرفين على دار السكة كانوا من الموالى الروم أو العبيد أو الفتيان الذين أولاهم أمراء بنى الأغلب كل ثقتهم ، ويذكر مارسيه بعض أسماء هؤلاء الفتيان منهم موسى فى عهد ابراهيم بن الأغلب ، ومسرور فى عهد زيادة الله الأول ، وخلف فى عهد أبى العباس ، وبلج وشاكر فى عهد ابراهيم الثانى ، وخطاب فى عهد زيادة الله الثالث[3] . وقد ورد ذكر خطاب فى البيان ، فيذكر ابن عذارى أن زيادة الله الثالث « اشتد كلفه بغلام له يسمى خطاب ، فكتب اسمه فى سكة الدنانير والدراهم ، ثم وجد عليه ، فحبسه وقيده ، فغنت له جارية تستعطفه على خطاب :

يا أيهـــا الملك اليمون طائره
رفقا فانك يد المشوق فوق يدك

---

(١) ابن عذارى ، ١ ص ١٨٢
(٢) نفس المرجع ص ١٨٠
(٣) Marçais, la Berberie, p. 88

كم ذا التجلد والأحشاء خافقة
أعيذ كفك أن تسطو على كبدك

فرضى من خطابه ، وأعاده إلى منزلته »[1] .

ويغلب على الظن أن الدنانير التي كانت تصدر من دار السكة في القيروان والعباسية لم تنقص عن وزنها قط طوال العصر الأغلبي ، وإن كان وزنها قد قل نسبيا في عهد زيادة الله الثالث من ٤٫٢٠ جراما إلى ٤٫١٢ و٤ جراما . أما الدراهم الفضية فقد أمر إبراهيم بن أحمد في سنة ٢٧٥هـ بضرب الدراهم الصحاح ، وحرم ما كان يتعامل به من القطع المدنية الأخرى والدراهم المتداولة في الأسواق . فأنكرت العامة ذلك ، وأغلقوا الحوانيت ، واجتمعوا في مظاهرة صاخبة ، وساروا إلى رقادة ، وصاحوا على ابراهيم يطلبون احتجاجهم ، فأمر بحبسهم في جامع رقادة . واتصل ذلك بأهل القيروان ، فخرجوا إلى الباب ، وأظهروا المدافعة ، فوجه إليهم إبراهيم ابن أحمد وزيره أبا عبد الله بن أبي السحق ، فرموه بالحجارة وسبوه ، فانصرف إلى الأمير وأخبره بذلك ، فركب إبراهيم إلى القيروان ، ومعه حاجبه نصر بن الصمصامة في جماعة من الجند ، فناصب أهل القيروان القتال ، فتوجه الأمير إلى المصلى ، وعدا الناس ، وبعث إليه أهل القيروان فقيهم أبا جعفر أحمد بن مقيث ، فباحث مع الأمير ، واتفق معه على إطلاق المحبوسين من جامع رقادة ، وإلقاء القطع من إفريقية ، وعلى أثر ذلك هدأت نفوس أهل القيروان . ثم ضرب إبراهيم بن أحمد دنانير ودراهم سماها

---

(١) ابن عذاري ، ص ١٩١

العاشرية فى كل دينار منها عشرة دراهم (١) .

ويذكر ابن الأثير أن هذا الأمير فرض الأمن فى الطرق والمسالك المؤدية إلى القيروان ، فكانت القوافل التجارية والتجار يسيرون فى الطرق آمنين (٢) ، وأصبحت القيروان على هذا النحو مركزا للطرق المؤدية إلى سائر إفريقية والمغرب ، وتحولت هذه المدينة التى كان عقبة بن نافع قد أسسها لغرض عسكرى ودينى إلى مدينة تجارية من الدرجة الأولى ، وكان على الأسواق الذى يشغل قلب المدينة شارع فسيح مستقيم يمتد من الشمال إلى الجنوب ، تكتنفه الحوانيت من كل من جانبيه ، يعرف بالبساط ، يتوسطه المسجد الجامع (٣) .

وازدهرت الحياة التجارية فى القيروان محاذرة بنى الأغلب ازدهارا عظيما ، وكثرت فى أيدى أهلها الأموال بسبب التجارة . ويصفها اليعقوبى فى عصر الأغالبة بقوله : « والقيروان مدينة كان عليها سور من لبن وطين ، فهدمه زيادة الله بن ابراهيم بن الأغلب لما ثار عليه عمران بن مجالد ، وعبد السلام بن المفرج ومنصور الطنبذى ، فانهم ثاروا عليه بالقيروان ، وهم من الجند القدم الذين كانوا قدموا مع ابن الأشعث ، وشربهم من ماء المطر إذا كان الشتاء ، ووقعت الأمطار والسيول دخل ماء المطر من الأودية إلى برك عظام يقال لها المؤاجل ، فمنها شرب السقاة . ولهم واد يسمى وادى السراويل فى قبلة المدينة يأتى فيه ماء صالح لأنه فى سباخ

---

(١) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٦٠ — Marçais, la Berberie, p. 83

(٢) ابن الأثير ، ج ٦ ص .

(٣) Marçais, la Berberie, p. 84

الناس يستعملونه فيما يحتاجون إليه »[1].

ويعبر الإدريسي عن رخاء أهل القيروان بقوله : « أم أمصار ، وقاعدة أقطار ، وكانت أعظم مدن الغرب قطرا ، وأكثرها بشرا ، وأيسرها أموالا ، وأوسعها أحوالا ، وأنقنها بناء ، وأنفسها متاعا ، وأربحها تجارة ، وأكثرها جباية ، وأغلبها سلعة ، وأنماها ربحا »[2].

---

(١) اليعقوبي ، ص ٢٤٧ ـ ٢٤٨

(٢) الادريسي ، ص ١١٠

## ( ٤ )

### سكان إفريقية فى عصر الأغالبة

كان يسكن إفريقية فى العصر الأغلبى أخلاط بشرية مختلفة فى الجنس وفى اللغة ، ويمكننا أن نميز منها خمسة عناصر هى : ١ ـ العرب ٢ ـ العجم الفرس ٣ ـ البربر ٤ ـ الروم والأفارق ( عجم البلد ) ٥ ـ القبط. أما العرب فينقسمون إلى فريقين : الأول وهو أكثرية سكان العرب من أعقاب العرب الفاتحين للمغرب واستوطنوا هذه البلاد ، وأصبحوا بمرور الزمن عربا أفارقة أو عربا بلديين ، وتضم إلى هذا الفريق جماعات العرب الذين وفدوا من المشرق فى العصرين الأموى والعباسى واستقروا فى إفريقية وأصبحوا من أهل البلاد . والفريق الثانى من العرب الوافدين على المغرب فى العصر العباسى فى الجيوش التى كان يبعثها الخلفاء العباسيون ، وقد استقر بهؤلاء المقام على مايشتهون فى إفريقية وكانوا يؤلفون طبقة الجند .

أما العجم فهم : الفرس الذين وفدوا من المشرق الإسلامى مع الجيوش العباسية ، ومنهم الخراسانيون ، الذين كانوا يؤلفون معظم أجناد العباسيين فى إفريقية ، وهناك غير العجم الفرس عجم البلد [1] ، وهم الروم أو الأفارقة الذين ظلوا يحتفظون بالدين المسيحى .

أما البربر فهم سواد سكان إفريقية والمغرب :

١ ـ العرب : كان بعضهم من أعقاب الفاتحين الذين استوطنوا أرض إفريقية ، وأصبحوا من أهل البلاد ، ومعظمهم كان يقيم فى بلزمة ، وأكثر

---

(١) البلوى ، ص ٣١٨

هؤلاء العرب من قيس ، وقد قاموا فى عصر الأغالبة بدور كبير فى كبح جماح مرر كتامة ، ولكن ابراهيم بن أحمد أوقع بهم فى سنة ٢٨٠ هـ ، واستقدم منهم نحوا من سبعمائة من أبطالهم فى القيروان ، ووسع عليهم ، وبنى لهم دارا كبيرة تشتمل على دور لامنفذ لها غير باب واحد ، فأنزلهم بهذه الدار ، ثم أمر بقتلهم جميعا (١) . كذلك كانت هناك جماعات من العرب الشاميين الذين اشتركوا فى الحملات التى كان يسيرها خلفاء بنى العباس إلى إفريقية . وكان عرب بنى تميم المستقرون فى تونس يتمتعون بامتيازات كبيرة فى عصر الأغالبة لانتسابهم إليهم ، ولكن ابراهيم بن أحمد انقلب عليهم ، وأرسل إليهم فى سنة ٢٨١ هـ جيوشا الجيش فقتل جماعة منهم (٢) . وكان معظم عرب إفريقية جنودا يستنفرهم الأمراء فى أوقات الحرب ، ولكن هؤلاء الجند كانوا كثيرا مايطلبون تورائهم على الأمراء والعمال فى مدن إفريقية ، ويشكلون بذلك خطرا جسيما على دولة الأغالبة. وقد عانى ابراهيم بن الأغلب من ثورات جنده كثيرا ، ففى سنة ٢٨٦ هـ خرج عليه محمد بن الكندى ونزع للسواد ، كما ثار عليه عمران بن مجالد ، ومحمد ابن الأغلب ، ولذلك عمد ابن الأغلب إلى اصطناع العبيد لحمل سلاحه ، واستكثر من طبقاتهم (٣) .

وقد اشتد خطر الجند فى عصر الأمير زيادة الله بن ابراهيم ، وكان سبب قيامهم بالثورة عليه يرجع إلى استخفافه بهم ، وإمعانه فى سفك دمائهم لسوء ظنه بهم . وأولى ثورات الجند فى عهده ثورة عمر بن معاوية القيسى

---

(١) ابن عذارى ، ص ١٦٤

(٢) نص المرجع ، ج ١ ص ١٦٣

(٣) ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، القسم الثالث ، ص ٩٠

في القصرين سنة ٢٠٨ هـ ، ثم ثورة منصور الطنبذي بتونس في سنة ٢٠٩ هـ ، وهي الثورة التي أدت إلى تواثب القواد العرب على أعمال إفريقية وامتناعهم فيها ، وثورة عامر بن نافع بسبيبة في سنة ٢٩٠ هـ . وقد ساء مركز زيادة الله بسبب هذه الثورات إلى درجة أن الجند كتبوا إليه أن يرحل عن إفريقية[1] ، وليس أدل على خطورة ثورة عامر بن نافع من تعليق زيادة الله عندما بلغه وفاة عامر في سنة ٢٩٣ هـ بقوله : « اليوم وضعت الحرب أوزارها » [2] . وتجددت ثورات الجند في عهد ابراهيم بن أحمد في بلزمة ، وقد تمكن الأمير من القضاء عليها عن طريق المكر والخديعة ، وقتل نحو ٧٠٠ من كماة العرب وأبطالهم ، وقد أثار ذلك غضب عرب إفريقية على الأمير ، فثار عرب بني تميم بتونس ، وعرب الجزيرة ، والأربس ، وباجة ، وقمودة ، وقدموا على أنفسهم رجالا من الجند [3] .

٢ ـ العجم الفرس : يشير اليعقوبي إلى جماعات من المشارقة نظم عربا وعجما كانت تسكن بلاد إفريقية ، ويقصد اليعقوبي بالعجم ، الفرس الذين قدموا من خراسان وفارس مع ولاة بني العباس على إفريقية [4] ، وكان هؤلاء الفرس يؤلفون قسما هاما من الجند ، وكانوا يعيشون في القلاع البيزنطية القديمة بقابس والقيروان وتونة وباجة وعجانة ، أو في القلاع القديمة باقليم تومبديا الروماني الذي أصبح يؤلف الثغر الغربي لدولة الأغالبة مثل قلاع طبنة وباغاية والأربس . وقد ساهم الخراسانيون بنصيب كبير في

(١) ابن عذاري ص ١٣٠ .
(٢) نفس المرجع ، ص ١٣٢
(٣) نفس المرجع ، ص ١٦١
(٤) يسميهم اليعقوبي « عجم من أهل خراسان » (اليعقوبي ص ٣٥٠) .

الجياد بصقلية ، فالحملة التي نظمها زيادة الله بن ابراهيم لغزو صقلية كان معظم جنودها من الفرس الخراسانيين ، بقودهم القاضي أسد بن الفرات ، وكان خراسانيا كذلك (١) .

٣ ـ البربر : كان البربر يؤلفون السواد الأعظم من سكان إفريقية ، وكان معظمهم من الإباضية المعتدلين الذين طالبوا الأمويين بالمساواة ، وحاولوا إقامة جمهورية لهم في المغرب . وقد رأينا ثوراتهم المتعاقبة على ولاة بني أمية وبني العباس . فلما تولى ابراهيم بن الأغلب إمارة إفريقية ، أطاعته قبائل البربر . ولكن ابراهيم لم يلبث أن تعرض لثوراتهم في طرابلس معقل الإباضية الأشح ، ويذكر ابن عذارى أنه كان له مع بربر إفريقية حروب يطول ذكرها (٢) . وقد حرص زيادة الله على إشراك البربر في حملته التي أعدها لغزو صقلية ، حتى يشغلهم بقتال الروم عن التفكير في القيام عليه . وعلى الرغم من ذلك فقد قام بربر لواتة ومكناسة وزواغة في عهد أخيه أبي عقال الأغلب بالثورة على الأمير في منطقة قسطيلية ، فتمكن قائد الأغلب من هزيمتهم ، وأباد معظم تجمعاتهم (٣) . وفي عهد ابراهيم بن أحمد قامت في صقلية فتنة بين العرب والبربر في سنة ٢٨٥هـ ، فكتب إليهم الأمير يدعوهم إلى الرجوع إلى الطاعة (٤) .

٤ ـ الروم والافرنجة : أشار اليعقوبي في سياق حديثه عن مدن إفريقية

(١) اسماعيل عباس ، العرب في صقلية ، ص ٣٤

(٢) ابن عذارى ج ١ ص ١١٢

(٣) نفس المرجع ص ١٣٩

(٤) نفس المرجع ص ١٢٠ .

إلى الروم والأفارقة الذين كانوا كالبربر من سكان البلاد من غير العرب ، ويعنى اليعقوبي بالروم بقايا الروم (١) أو الروم القدم (٢) ، الذين كانوا يخدمون بزنطة قبل الفتح العربي ، والذين لم يجلوا عن قرطاجنة بعد أن سقطت في أيدى المسلمين . وقد تمكن هؤلاء الروم بفضل عزلتهم من الاحتفاظ بقاء دمائهم ، وبلغتهم ، وبتقاليدهم ، وكانوا يقيمون في القلاع البيزنطية القديمة مثل طبنة وباغاية ، وفي مدن الجريد الصغيرة التي يبدو أنها اتخذت ملاذا لغير العرب من أهل البلاد ، كما أقام بعضهم في القيروان باعتبارها حاضرة البلاد ، أملا في الحصول على عمل يتعيشون منه . أما الأفارقة أو الأفارق فكانوا من أهل البلاد من بقايا الفينيقيين واللاتين ، وكانوا يتكلمون باللسان اللاتيني الإفريقي (٣) ، ويدينون بالمسيحية . وكانوا يستوطنون في عصر الأغالبة إقليم الجريد في قفصة وتوزر وقفطة وقفيوس والحامة ، كما كانت طائفة منهم تقيم في طبنة عاصمة الزاب ، وفي باغاية وفي السهول الساحلية (٤) . وكان هؤلاء الأفارقة والروم يشتغلون بزراعة الزيتون ، ويستخرجون منه الزيوت ، وقد ابتاع أمراء بني الأغلب بالنسبة لهؤلاء العجم البلديين سياسة تقوم على التسامح ، فأسند بعض الأمراء إلى نفر من الأفارق مناصب هامة في الدولة (٥). ويبدو أن أمراء بني الأغلب

---

(١) اليعقوبي ، ص ١٢٥

(٢) نفس المرجع

(٣) الادريسي ص ٧٥ : يقول الادريسي : « أهل قفصة كانوا قوما متبربرين وأكثرهم يتكلم لسان اللتين الأفريق »

(٤) Marçais, la Barbarie p. 71

(٥) Ibid. p. 73

كانوا يشترطون فيمن يتولى هذه المناصب الحماسة أن يعتنق الاسلام، فابن عذارى يذكر أن ابراهيم بن أحمد عرض ديوان الخراج عـلى سوادة النصرانى على أن يسلم ، فقال : ماكنت لأدع ديني على رئاسة أناها ، فقطع بنصفين وصلب » (١) .

٥ ـ الفتيان والعبيد : كان الأمير ابراهيم بن الأغلب أول من اتخذ العبيد حرسا له ، فاستكثر منهم ، وجعلهم على خدمته وحراسته فى مدينة القصر القديم . وكان هؤلاء العبيد إذا تقادم بهم العهد فى خدمة الأمير ، يطلق عليهم اسم موالى أو فتيان (٢) . وكثيرا ماكان العبيد من النوع الأسود ، إذ كان الأمراء يشترونهم من الصحراء أو من بلاد السودان ، وكانت بلاد المغرب فى عصر الأغالبة مركزا هاما لهذه التجارة . وكان الأمراء يعلمونهم فنون القتال ليصبحوا جندا . وقد حل هؤلاء العبيد تدريجيا محل جند العرب، ووكل اليهم الأمراء مهمة حراستهم والذود عنهم. كذلك اتخذ الأمراء عبيدا من الجنس الأبيض وهم المعروفون باسم الصقالبة وكانت غزوات المسلمين فى صقلية وسردانية وقلورية ومالطة سببا فى حمل أعداد كبيرة من أطفال هذه البلاد ، إلى إفريقية ، حيث ينشأون نشأة عسكرية ، ويتعلمون العربية، ثم تسند إليهم مناصب هامة فى الدولة(٣) .

ولقد لعب الفتيان والعبيد دورا هاما فى دولة الأغالبة ، وسجلت أسماء بعضهم على العملات باعتبار أن الفاتحين بالإشراف على دار السكة منهم ،

---

(١) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٦٢

(Marçais, l'Architecture musulmane d'Occident, P. 612 .)

(٢) أحمد مختار العبادى ، الصقالبة فى اسبانيا وعلاقاتهم بحركة التعريب، مدريد ١٩٦٣

Marçais, l'Architecture musulmane d'Occident, p. 6

فهم موضع ثقة الامراء فى هذه الوظائف الخطيرة. كذلك سجلت اسماء بعضهم فى النقوش التاريخية على بعض المنشآت التى تمت على أيديهم ، ومن هذه الاسماء المسجلة : اسم مسرور الخادم مولى الامير زيادة الله بن ابراهيم ، ونراه منقوشا على لوحة من الرخام تعلو باب المئذنة برباط سوسة الذى أسس فى سنة ٢٠٦ هـ ، واسم خلف الذى اسم يطلق على برج من أبراج سور سوسة، ويقع فى الزاوية الجنوبية الغربية من السور . ونقرأ اسم نصر وفتح الله على قبة المحراب بجامع الزيتونة فى نقش نصه : «بسم الله الرحمن الرحيم مما أمر بعمله المستعين بالله أمير المؤمنين العباسى طلب ثواب الله ، وابتغاء مرضاته ، على يدى نصر مولاه سنة خمسين ومائتين — يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله — صدق الله » (١).

---

(١) Marçais, Manuel . ينسب ل نزارة الاستاذ مارسيه المقطع الثانى من اسم العامل

## ( ٥ )

# منشآت الأغالبة فى إفريقية

### ١ ـ العمارة الدينية :

#### ١ ـ المسجد الجامع بالقيروان

تاريخ المسجد : هو أقدم مساجد المغرب الإسلامى ، والمصدر الحقيقى الأول الذى اقتبست منه العمارة المغربية الاندلسية عناصرها ، ومنه انبثقت الافكار المعمارية والزخرفية وتطورت فى العصور المختلفة . اختطه عقبة بن نافع فى سنة ٥٠ هـ ، ولكنه لم يحدث فيه بناء إلى أن ركز لواءه فى القبلة ، وأصبحت قبلة جامع القيروان منذ ذلك التاريخ موضع إجلال الناس وتعظيمهم ، فلم يتعرض لها أحد من الأمراء بسوء ، فى الزيادات المتتالية التى أجريت فى الجامع عامة ، وفى بيت الصلاة بصفة خاصة ، ولم يغير وضع القبلة ، ولم يهدم جدار المحراب على الرغم من انحراف هذه القبلة عن الاتجاه الصحيح ، وذلك لانها ركزت على يدى عقبة الفاتح الجليل . وكان جامع عقبة فيما يظهر بناء بسيطا صغير المساحة ، وكانت أسقفه على الأرجح تقوم مباشرة على الأعمدة دون أن تحملها عقود على نحو ما كانت عليه أسقف جامع الكوفة ، لذلك لم يكد يمضى على بنائه عشرون عاما حتى هدمه حسان بن النعمان الغسانى فى حدود سنة ٨٤ هـ عامنا المحراب ، ونصب فى محرابه ساريتين موشاتين بفسيفساء كانتا فى كنيسة [1] ، ثم شيد حسان على موضعه مسجدا جديدا فيما بين عامى ٧٩ ـ ٨٤ هـ ( ٦٩٨ ـ ٦٩٨ م ) ، احتفظ فيه بمحراب عقبة . وتم بناء مسجد حسان من الجهة الشمالية الغربية

---

(١) البكرى ، ص ٢٢ ، وانظر ابن الأبار أنه بناه بالقرب ،

للمحراب تجنبا لتغيير جدار القبلة . ويعتقد الأستاذ الدكتور أحمد فكري في كتابه الذي صنفه عن المسجد الجامع بالقيروان أن حسان قد زاد في عدد أروقة الجامع ، وأن بيت الصلاة الجديد كان يشتمل على أربعة أساكيب ، ولم يكن للمسجد في ذلك الوقت عجنبات تطل على الصحن ، وتدور حوله [١] .

وفي عام ١٠٥ هـ ( ٧٢٣ م ) ضاق الجامع بالمصلين ، فأمر الخليفة هشام ابن عبد الملك بشر بن صفوان ، عامله على القيروان ، (١٠٣-١٠٩هـ) بزيادة المسجد ، فاشترى بشر أرضا محيطة بالجامع من شماله وضمها اليه ، وبنى في الصحن ماجلا ، وأضاف إلى بيت الصلاة ثلاثة أساكيب أخرى مد بها طول بلاطاته ، ويمكننا أن نشاهد حدود هذه الزيادة اليوم في صف العقود التي تمتد بعرض بيت الصلاة في خط مستقيم ، عند نهاية الاسكوب السابع ، ابتداء من القبلة ، مما يدل على أن بيت الصلاة كان ينتهي عند هذا الحد . ثم بنى بشر مئذنة للمسجد في منتصف جداره الشمالي داخل الصحن ، على بئر كانت تعرف ببئر الجنان ، ونصب أساسها على الماء [٢] . ويذكر ابن عذاري أن يزيد بن حاتم جدد بناء المسجد الجامع بالقيروان عام ١٥٧ هـ [٣] ، ولكننا نعتقد أن أعمال يزيد لم تكن تزيد على إصلاح وتجديد بعض زخارف الجامع . وظل المسجد على حالته بعد زيادة بشر بن صفوان إلى أن تولى زيادة الله ابن ابراهيم إمارة إفريقية ، فبدأ بهدم أجزاء كثيرة من المسجد سنة ٢٢١ هـ

---

(١) أحمد فكري ، المسجد الجامع بالقيروان ، القاهرة ١٩٢٦ ص ٢٣

(٢) البكري ، ص ١٢ — فكري ، ص ١٣

(٣) ابن عذاري ، ج ١ ص ٩٥

دون أن يغير كثيرا من نظامه أو يبدل من حدوده [١] . ويذكر البكري أن زيادة الله أراد هدم المحراب ، فقيل له : إن من تقدمك توقفوا عن ذلك لما كان واضعه عقبة بن نافع ومن كان معه ، فأبى في هدمه لئلا يكون في الجامع أثر لغيره ، حتى قال له بعض البناة : أنا أدخلة بين حائطين ، ولا يظهر في الجامع أثر لغيرك ، فاستصوب ذلك وفعله ولم يمسه بسوء . وبنى المحراب الجديد بالرخام الابيض [٢] . فمحراب عقبة ما يزال يرى اليوم من خلال هذه الكسوة الرخامية المغرمة [٣] . ويعتقد الاستاذ الدكتور أحمد فكري أن بيت الصلاة في عهد بشر بن صفوان كان يتألف من ١٨ بلاطا . فهدم زيادة الله للرواقين التاسع والعاشر ، وأقام منهما بلاطا واحداً فسيحا ، فأصبح للمسجد ١٧ بلاطا ، الا وسطها أكثر ارتفاعا واتساعا من بقية البلاطات الأخرى [٤] . وعلى هذا النحو يمكن تفسير هدم زيادة الله للجامع كله بأنه هدم أسقف الجامع وأقامها من جديد بعد أن رفعها عما كانت عليه ، وبنى قبة على أسطوان المحراب ، زخارفها على نمط زخارف اللوحات الرخامية التي كسا بها المحراب الجديد . أما أسوار الجامع وصحنه وأعمدته ، فظلت كما كانت عليه أيام بشر بن صفوان [٥] . ويبدو أن زيادة الله أنفق على هذه الاعمال المعمارية أموالا طائلة ( ١٨٠ ألف مثقال ) [٦] ،

---

(١) البكري ، ص ١٣ ، ٢٤

(٢) البكري ، ص ٢٣ . وذكر ابن الأبار أنه « بنى جامع القيروان بالصخر والآجر والرخام بعد أن هدمه ، وبنى المحراب كله بالرخام من أسفله الى أعلاه وهو مفوض بكتاب وغير كتاب ، ويستدير به سواد مسدان ، يعلوهما جزعة بأسود ناصعة البياض ... يقابل المحراب عمودان أحمران ... » الحلة السيراء ص ١٦٣

(٣) فكري ، مساجد القاهرة ومدارسها ، الاسكندرية ١٩٦١ ص ٢٠٠ .

(٤) ابن الرجم ص ٢٠٨

(٥) البكري ، « المسجد الجامع بالقيروان » ص ٢٤ ـ ٢٦

(٦) البكري ، ص ٢٤

وانه زود الجامع بصورته الاخيرة التي نراها في يومنا هذا ، وهي صورة لم تتغير كثيرا من بعده : فهو الذي وضع للبلاطات نظامها الفريد الذي يشف عن أصالة وابتكار . ويذكر ابن عذاري أنه كان يقول « ما أبالي ما قدمت عليه يوم القيامة وفي صحيفتي أربع حسنات : بنياني المسجد الجامع بالقيروان ، وبنياني قنطرة أبي الربيع ، وبنياني حصن مدينة سوسة ، وتوليتي أحد بن أبي محرز قاضي إفريقية » (١) .

وفي عام ٢٤٨ هـ ( ٨٦٢ م ) تمت زيادة أبي ابراهيم أحمد بن محمد في جامع القيروان (٢) ، ولا ندري ما المقصود بهذه الأعمال ، وأغلب الظن أنها تتمة لأعمال البناء التي شرع فيها زيادة الله (٣) ، وإن كان الأستاذ كريسويل يؤكد أنه هو الذي زين جدار المحراب بالفراميد الخزفية واللوحات الرخامية والمقبر (٤) . ولما تولى ابراهيم بن أحمد الامارة ، زاد في طول الجامع في سنة ٢٦١ هـ ( ٨٧٥ م ) ، وبنى القبة المعروفة بباب البهو على مدخل البلاط الاوسط ، وكذلك اقام ابراهيم بن أحمد المجنبات التي تدور حول الصحن (٥) .

ظل المسجد على هذه الصورة دون أي تغيير جوهري حتى أضاف اليه

---

(١) ابن عذاري ، ص ١٣٨

(٢) ابن عذاري ، ص ١٤٨

(٣) السيد عبد العزيز سالم ، المسجد الجامع بالقيروان ، مكتاب الشعب رقم ٢٨ ، ج ٢ من كتاب مساجد ومعاهد ، ١٩٦٠

(٤) Creswell, a short account of early Muslim architecture, London, 1958, p. 238

(٥) البكري ، ص ٢٨

بتوزيري واجهات الصحن ، وقد سجل تاريخ هذه الاضافات على أحد أعمدة الجنبة القبلية ، إذ نقشت عليه كتابة بالخط الكوفي نصها : « وهذا ما أمر بعمله خلف الله بن غازي الأشعري في رمضان من عام اثنين وأربعماية »(١). كذلك أقام المعز بن باديس المقصورة الخشبية التي ما تزال منصوبة حتى اليوم بجوار المحراب ، في سنة ٤٤١ هـ . ويرى الأستاذ مارسيه أن المسجد زود بأسقف خشبية ، وجددت زخارف أسقفه القديمة في عهد المعز بن باديس (٢) .

تخطيط الجامع : وجامع القيروان من أكبر المساجد الجامعة الباقية في الاسلام ، وأعظمها مظهرا ، إذ يبلغ طوله ١٣٦ مترا ، وعرضه ٧٧ مترا ، وطول بيت الصلاة فيه ٧٠ مترا ، وعرضه ٣٧,٧٠ مترا ، وصحنه واسع فسيح طوله ٦٧ مترا وعرضه ٣٦ مترا ، ولهذا الصحن عتبات عرض كل منها نحو ستة أمتار وربع متر ، وتنقسم الجنبة إلى رواقين . ويشتمل بيت الصلاة على ١٧ بلاطا عمودية على جدار القبلة ، تعتمد على عشرة أساكيب أو بلاطات عرضية(٣) . وبلاط المحراب وأسكوبه أوسع من بقية البلاطات والأساكيب ، ولا تعترضهما أية عقود ، فهما يؤلفان مجازين متعامدين . ونلاحظ أن تخطيط جامع القيروان يتميز بظاهرة جديدة ، فصلي بلاط المحراب أو البلاط الاوسط قبتان : الأولى عند تقاطعه مع أسكوب المحراب أمام القبلة ، والثانية على مدخل البلاط الاوسط مما يلي الصحن . وتعرف القبة الاولى

---

(١) مقري : المسجد الجامع بالقيروان ، ص ١٩

(٢) Marçais, Coupoles et plafonds de la grande mosquée de Kairouan (Tunis, 1926) p. 35

(٣) مقري : المسجد الجامع بالقيروان ، ص ١٩

بقبة المحراب ، والثانية بقبة باب البهو . وقد أثر هذا النظام الذى ابتدعه مهندسو زيادة الله على أنظمة المساجد التونسية الأخرى ، فنراه فى جامع الزيتونة ، ونراه فى مساجد أخرى ، كما قلده مهندسو الحكم المستنصر عند زيادتهم فى المسجد الجامع بقرطبة (١) .

وتمتد فى بيت الصلاة صفوف منتظمة من العقود ، تحملها أعمدة قديمة اتخذت من الكنائس المهدمة ، وأعيد استخدامها بالجامع ، ونظرا لقصر هذه الأعمدة ، وتفاوتها فى الارتفـــاع ، توسل المهندسون المسلمون بوسيلتين لزيادة ارتفاع سقف المسجد ، وتسوية ارتفاع الأعمدة ، فاستعانوا بكعبات حجرية مستطيلة أو مربعة ، محاطة من أعلى بطنوف ، ومن أدنى بقرم ، على النحو الشائع فى العمارة البيزنطية ، ثم رفعوا فوق هذه الدعائم عقودا متجاوزة تشبه حدوة الفرس (٢) . وعقود جنبات الصحن تقوم على

---

(١) Lambert, l'Architecture musulmane du xe siècle à cordoue et à Tolède, Gazette des Beaux Arts, t. XII, 1952 p p. 141 - 161 - Lambert, les coupoles des grandes mosquées de Tunisie et de l'Espagne au IX e et Xe siècles, t. XXII, fasc. 2, 1936 - Lambert, les mosquées de type andalou en Espagne et en Afrique du Nord, al - Andalus, vol. XIV, fasc. 2, 1949 p. 281 - Lambert, La grande mosquée de Cordoue et l'art byzantin. dans Actes du VI congrès d' Etudes byzantines. 1948 - 1953. p p 381. 392

السيد عبد العزيز سالم ، المساجد والقصور بالاندلس ، مجلة آفاق عـــدد ١٦ ، اكتوبر ١٩٦٨ ص ٣٤ ــ ٣٦

(٢) فكرى ، المسجد الجامع بالقيروان ص ١٦٨ ــ ١٢٠

Marçais, l'Architecture, p. 18

أعمدة مزدوجة يلتصق كل زوج منها بركيزة ضخمة، وهذه الركائز تكسب البناء قوة وثباتا (١) .

وعمراب الجامع جوفة فى جدار القبلة يرجع تاريخها إلى أيام عقبة بن نافع ، وقد ذكرنا أن هذه الجوفة تحتوى وراء لوحات مخرمة من الرخام الابيض . ويرى الاستاذ مارسيه أن وجود هذه الجوفة أمر طبيعى لأن هذه اللوحات الرخامية تتطلب أن يكون خلفها فراغ معتبر حتى تتضح نقوشها وتظهر جلية ، وأن هـــذا الاحتياط البسيط أدى إلى اختلاق المؤرخين لأسطورة محراب عقبة (٢) ، ويؤيده الأستاذ كريسويل فى هذا الزعم ، فهو يستنكر أن تكون تلك الجوفة التى نشاهد من خلال خروم المحراب الجديد هى محراب عقبة بن نافع القديم ، ويقول إن هذه الخروم التى تبطن لوحات المحراب ، وتملؤها ، قصـــد منها أن تكون ستارة قائمة لتوضيح الزخرفة الرخامية المفرغة فى لوحات الرخام ، ولا يعتقد الأستاذ كريسويل أن جامع عقبة كان به محراب مجوف ، فالمحاريب المجوفة فى رأيه لم تظهر فى الإسلام حتى زمن الوليد (٣) . وقد اعترض الأستاذ الدكتور أحمد فكرى على هذه الآراء ، وفندها جميعا ، وأدلى برأيه فى ذلك واضحا لا لبس فيه ولا غموض ، معززا بالأدلة القوية والحجج والبراهين القاطعة ، وأثبت أن هذه الجوفة التى تظهر من خلال لوحات الرخام فى محراب عقبة القديم ، ونحن

---

(١) المرجع السابق ص ٨١

(2) Marçais, Manuel d'art musulman, t. I, paris 1926, p. 23 ; L'architecture musulmane d'Occident, p. 11

(3) Creswell, a short account of early muslim architecture p.379

نؤيد هذا الرأى ونأخذ به للأسباب التى ذكرها الأستاذ الدكتور أحمد فكرى [1].

ويدعم جدران المسجد الشرقية والغربية من الخارج ركائز ضخمة تلتصق بالجدران ، وظيفتها لبس كما قد يتبادر إلى الذهن دعم البناء ، وتحمل الضغط الذى تمارسه عقود بيت الصلاة ، لأن هذه الركائز أقيمت فى مواضع بعيدة عن نقط امتداد العقود ومراكز اندفاعها ، وإنما الغرض منها أن تتمشى فى مظهرها مع الدعائم البارزة التى تكتنف أبواب المسجد ، فتحقق عليه جمالا ، لأن هذه الدعائم لو تركت بمفردها لظهرت كأنها بارزات متنافرة تشوه المظهر الجمالى للمسجد من الخارج [2] .

أما المئذنة فتتوسط الجدار الشمالى للجامع ، وتتكون من ثلاثة طوابق ، تعلوها قبة مضلعة ، والطابق الأدنى مربع القاعدة ، تنحدر جدرانه إلى الداخل انحدارا طفيفا ، فيقل عرضها كلما ارتفعت مما يكسب المئذنة قوة وارتكازا وتماسكا . وبنيت قاعدة هذا الطابق حتى ارتفاع ثلاثة أمتار ونصف المتر بقطع حجرية ضخمة مصقولة ، أما بقية الطابق ، فمن كل حجرة مستطيلة الشكل تشبه قوالب الآجر . ويعلو هذا الطابق طابق آخر مربع ولكنه أصغر كثيرا من الطابق الأدنى ، وتتراجع الطابق الثالث عن الطابق الثانى ، وتزدان جدران الطابق الثانى بطاقات ثلاث مسدودة ، ومعقودة فى كل وجه من أوجهه ، فى حين يزدان كل وجه من أوجه الطابق الأعلى بنافذة تكتنفها طاقتان مسدودتان . ويعلو الجدار الأعلى من كل طابق

---

(١) فكرى ، المسجد الجامع بالقيروان ، ص ٨٥ ، ٩٠ .

(٢) نفس المرجع ، ص ١١٥ ، ١١٦ .

شرفات على هيئة عقود متصلة ومفرغة فى وسطها . ويمر بداخل المئذنة درج ضيق ، سلقه على هيئة قبوات نصف اسطوانية ، وتتخلل جدران المئذنة فتحات تبدو ضيقة من الخارج ، ولكنها تتسع كلما تقدمت فى الجدران، وظيفتها إنارة الدرج ، وتعلو هذه الفتحات من خارج المئذنة عقود عقفة المضلع تشبه حدوة الفرس (١) . وينسب الدكتور فكرى هذه المئذنة إلى بشر بن صفوان الذى قام ببنائها فى سنة ٩٠ هـ بأمر الخليفة هشام بن عبد الملك ولقد اتخذت هذه المئذنة أنموذجا للمآذن الاسلامية فى المغرب والأندلس ، مثل مئذنة جامع سفاقس، ومآذن جوامع وتلمسان وأغادير والرباط والقرويين بفاس ، والرملية وإشبيلية ومراكش والرباط ، كما قلدت فى المآذن المصرية (٢) ، مثل مئذنة مسجد الجيوشى وضريحه ، ومئذنة مسجد دير سانت كاترين بشبه جزيرة سيناء من العصر الفاطمى(٣).

قباب الجامع : ونتنقل إلى قباب الجامع ، وأولها قبة المحراب التى أقامها زيادة الله عند تقاطع البلاط الأوسط مع أسكوب المحراب المحاذى لجدار القبلة ، وهى قبة أودعها البناء كل روائع الفن القوطى من زخارف ونقوش ، وهى أقدم قبة فى بلاد المغرب كلها ، وعلى مثالها أقيمت قباب المحراب بمساجد المغرب والأندلس . والقبة الثانية هى قبة باب البهو التى أقامها ابراهيم بن أحمد فى سنة ٢٦١ هـ على مدخل البلاط الأوسط من جهة الصحن ، وأتم بها تتويج بلاط المحراب من جهتيه القبلية والجوفية، واستكمل

---

(١) المرجع السابق ص ١٩٠ ـ السيد عبد العزيز سالم ، المسجد الجامع بالقيروان ص ١٧٣

(٢) السيد عبد العزيز سالم ، المآذن المصرية ، نظرة عامة عن أصلها وتطورها ، بولاق سنة ١٩٥٦

(٣) السيد عبد العزيز سالم ، الآثار الاسلامية فى دير سانت كاترين بطور سيناء ، مجلة الفنون ، العدد الأول من السنة العاشرة ، يناير ١٩٦٢ ص ٦

بيت الصلاة بهذه القبة تماسكه واتزانه ، وأصبح بناء قبتين على البلاط الأوسط بيت الصلاة منذ ذلك الحين قاعدة عامة اتبعتها مساجد المغرب والأندلس (١) .

ثم أقام الخليفة أبو حفص سنة ٦٩٣ هـ قبتين تعلوان مدخلي بيت الصلاة شرقا وغربا ، وهناك قبتان أخريان : إحداهما تعلو المئذنة ، والثانية تتوج المدخل الأوسط بالجهة القبلية ، ويذكر الأستاذ الدكتور فكري أنه بالرغم من اختلاف مظهر هذه القباب ، فانها تتشابه جميعا في البنيان ، وتتشعب من فكرة واحدة ، فكرة خصبة ، متزنة وأصيلة (٢) .

وتتكون قباب جامع القيروان من ثلاثة أجزاء : القاعدة المربعة ، والعنق الأوسط الدائري ، والخوذة الكروية المضلعة . وعناصر البناء في قباب الجامع تتكون من عقود وأقواس وضلوع وأعمدة ، وتشمل هذه العناصر بعضها ببعض ، وتترك فراغا بينها يزدان بقوانص زخرفية ، ومقرنصات ، وعيون ، وطاقات ، ودوائر ، ونوافذ ، وقنوات (٣) . ويعتقد الأستاذ الدكتور أحمد فكري أن قبة المحراب أقامها زيادة الله على مثال قبة كانت قائمة بالمسجد قبل زيادة الله ، ثم بنيت قبة زيادة الله بالمحراب تطورا لها ، ويرجح

---

(١) Lambert, les mosquées de type andalou, p. 282

(٢) فكري ، المسجد الجامع بالقيروان ص ٨٦

(٣) أوجز الى وصف هذه القباب في المراجع التالية :

Marçais, Coupoles et plafonds, p. 9 et s. 91

فكري ، المسجد الجامع بالقيروان ، ص ٩٠ — ٩٨

Creswell, a short account, p. 298, 299

عبد العزيز سالم ، المسجد الجامع بالقيروان ، ص ١٢٤ ، ١٢٥

أن تكون هذه القبة القديمة هي قبة المدخل الغربي إلى الصحن وقد عزز رأيه بأدلة مقنعة توصل اليها من عمارة القبتين [١] .

وقد انتشر نظام قباب القيروان في المغرب والأندلس، واتخذ أنموذجا لقباب جامع الزيتونة بتونس الذي يشتمل بيت الصلاة فيه على قبتين تعلوان بلاط المحراب ، كما هو الشأن في جامع القيروان ، إحداهما قبة المحراب ، والأخرى قبة باب البهو . وعناصر قبة المحراب بجامع الزيتونة مماثلة لعناصر قبة المحراب بجامع القيروان ، كما أن عدد العقود والأعمدة والفلوع متساو في كل من القبتين . ولكننا نشهد في قبة المحراب بجامع الزيتونة تطورا للعناصر الجديدة التي ظهرت لأول مرة في جامع القيروان ، وهي الفلوع البارزة والمقرنصات ، كما نلاحظ فيها تفوقا في البناء ، وتقدما في الزخرفة . وقبة الزيتونة تعرض فكرة استقلال الفلوع البارزة عن الحنوذة المقعصة في وضوح تام ، كما أنها تبشر بظهور القباب ذات الفلوع المتقاطعة التي ظهرت في جامع قرطبة بعد ذلك بما يقرب من قرن من الزمان [٢] . ويرى الأستاذ الدكتور فكري أن فكرة تصميم قباب قرطبة تتفق مع قبة مسجد القيروان ، واتفاق هذه الفكرة في رأيه يرجع إلى وحدة تفكير

---

(١) فكري ، المرجع السابق ، ص ٦٦

(٢) Lambert, les coupoles des grandes mosquées de Tunisie et d'Espagne - les origines de la Croisée d'ogives, offices des Instituts d'Archéologie et d'histoire d'art, Nos 8 - 9. Nov. 1936 - Mars 1937. pp 131 - 146. - Ahmed Fikry, la mosquée az-Zaytouna à Tunis, (Recherches archéologiques) dans : Egyptian Society of historical Studies, vol II le Caire 1952, pp 27-54.

رجال الفن المسلمين ، وارتباطهم بعوامل واحدة ، وتمثل عناصر هذه الفكرة مجتمعة فى قبة المحراب بجامع قرطبة ، وإن كانت تطورت كثيرا ، فتعددت الخطوط الهندسية ، وزاد تجزى الفضاء ، واتخذت العقود والأقواس والضلوع والأعمدة رسما أكثر وضوحا ، أما المقرنصات ، فبدت فى مظهر زخرفى بحت (١) . وقد انتقل نظام التقبيب القائم على تقاطع الضلوع من قرطبة إلى طليطلة ، فنراه ممثلا فى صور مختلفة بمجدباب مردوم ، ومن قبابه ما يبدو رباعيا منحرفا ذا أقطار ، كأنه قبوتان من الطراز القوطى ، إحداهما داخل الأخرى ، ومنها ما يبدو مثمنا ، ومنها ما يقلد تقاطع ضلوع قبة المحراب بقرطبة ، ثم انتشر هذا النوع من القباب منذ ذلك الحين انتشارا واسعا يشهد به ذلك العدد الهائل من القباب والقبوات التى نراها فى الكنائس المسيحية بطليطلة (٢) ، والمزارن بقشتالة ، وتوريس دل ريو ، ودير موساك ، وأولورون ، وسان بليز . ومن هذه القبوات الأخيرة استلهم الفنانون والفرنسيون فكرة قبوانهم القوطية المعدلة (٣) .

---

(١) عكرى ، المسجد الجامع بالقيروان ، ص ١٠١

(٢) Lambert, les coupoles des grandes mosquées de Tunisie et d'Espagne-L'art de l'Islam occidental, dans Annales de l'Université de Paris, 1953, P. 8 – Gomez-Moreno, Arc Hispanias, t. III. Madrid 1951

السيد عبد العزيز سالم ، أثر الفن الحلال بقرطبة فى العمارة المسيحية بأسبانيا وفرنسا الجزء ، العدد ٢ ، القاهرة ١٩٥٨ — المساجد والقصور بالأندلس ص ٥٠ : ٥٣ — تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس ص ٤٠١

(٣) السيد عبد العزيز سالم ، أثر الفن الحلال بقرطبة ، ص ٨٨

Lambert; Les Origines de la croisée d'ogives, pp 131-146.

زخارف الجامع : يغلب طابع البساطة على بناء الجامع بوجه عام ، ويتجلى ذلك في عقوده اللساء بجدرانها ، وقرمها ، وطنفها ، وشبابيكها ، ولكن هذه الصورة البسيطة ما لبثت أن دخلتها بعض الحليات ، فملا العقود صف من عقود زخرفية صغيرة في صورة رواق مصغر أو بائكة متصلة العقود ، أو أحاط بالعقد إفريز مستطيل نقشت فيه مربعات موضوعة على رأسها كعقد باب المبخرة ، ثم تطور المظهر الزخرفي بمرور الزمن ، وازدانت بعض عناصر الجامع بزخارف في غاية الأناقة والجمال ، كزخارف المحراب وقبته وبلاطه [1] .

وتكسو جوفة المحراب غلالة رقيقة من الرخام نقشت فيها زخارف نباتية مخرمة يتسرب الضوء من بين خرومها . وتحيط بهذه النوعات الرخامية مصفوفا أربعة في كل صف سبع حشوات ، عرض كل منهـــا ٩٤ سم ، ويزدان الشريط الأفقي العلوي الذي يفصل الصف العلوي من الحشوات عن السفلي بكتابة كوفية منقوشة في الرخام تقرأ فيها: [ بسم الله الرحمن الرحيم قل هو الله أحد . الله الصمد ، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد . محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ][2] . وتزدان الحشوات الرخامية بزخرفة نباتية تقوم على التوريقات ، وهندسية تكثر فيها المربعات والدوائر والخطوط المتقاطعة ، وتقوم هذه الزخارف ورقة العنب في صور مختلفة ، فهي مقصوصة أو ملفوفة ، أو معقدة ، أو متشابكة ، وكثيرا ما تتفرع من السيقان الملتفة أوراق وأزهار تملأ الفراغ أو تتفرع هـــذه الأوراق النباتية من ساق

(١) فكري ، المسجد الجامع بالقيروان ، ص ١٢٤ـ١٢٦

(٢) عبد العزيز سالم ، المسجد الجامع بالقيروان ، ص ١٢٢

متوسطة منحنية فى تموجات (١) . وبعض هذه الحشوات الرخامية يزدان زخرفة فى صورة قوافع ، ولكن العدد الأكبر منها يشغله فرعان منحنيان متعانقان يتشابكان أحيانا على امتداد المحور ، وتبرز وسط هذا التشابك زهرة . وبجانب هذه الحشوات تبدو الشبكات الزخرفية التى تغطى نوافذ القبة ، وتتكون زخارفها عامة من ساق متوسطة تشبه شجرة الحياة الفارسية ، أو من فروع متموجة تتدلى منها أغصان بها أوراق للعنب ومناقيده ، وتشبه هذه الزخارف نظائرها بواجهة مسجد الأبواب الثلاثة الذى أقامه محمد بن خيرون المعافرى الأندلسى بالقيروان فى سنة ٤٥٧ هـ . ويكسو الجدران التى تعلو البلاط الأوسط بجامع القيروان زخرفة هندسية ونباتية تمتد إلى بنيقات العقود ، وتعد من أروع أمثلة الزخرفة فى عصر الأغالبة .

ومنبر جامع القيروان من أجمل وأبدع أمثلة الخشب فى بلاد المغرب ، ويرجع هذا المنبر إلى أبى إبراهيم أحمد سنة ٢٤٨ هـ ، وزخارفه هندسية تقوم على الدوائر والمخطوط ، ونباتية تتمثل فى أوراق العنب . وبالجامع مقصورة خشبية ، صنعت فى سنة ٣٩١ هـ ، فى عهد المعز بن باديس ، وأبوابها غنية بالزخرفة والكتابة (٢) .

٢ — جامع الزيتونة بتونس :

يعتبر هذا الجامع من أهم مساجد إفريقية لقدم عهده ، ولاحتفاظه بعناصره المعمارية والزخرفية الأولى منذ نشأته ، ثم لشهرته كجامعة علمية قديمة

---

(١) Marçais L'Architecture, p. 50, 51 — ذكرى ، المرجع السابق ص ١٢٦ — ١٢٨

(٢) عبد العزيز سالم ، المرجع السابق ، ص ١٢٨

ما زالت تدرس فيها علوم اللغة والتاريخ والفقه . وتاريخ هذا الجامع يكتنفه الغموض ، فقد أغفل المؤرخون وصفه ، يضاف إلى ذلك أنه كان مغلقا في وجه الأجانب من غير المسلمين ، فلم تقم حوله أي دراسة أثرية علمية ، وظل هـــذا الجامع مع أهميته مجهولا لدى مؤرخي الفن ، لا يذكرون عنه إلا إشارات تتعلق بوصف جدرانه الخارجية والأسواق المحيطة به حتى قام أستاذي الكبير الدكتور أحمد فكري بدراسة هـذا الأثر الجليل عليا بين عامي ١٩٣٢ – ١٩٤٨ ، ونشر أول أبحاثه عنه في سنة ١٩٥٢ (١) . وقد ضمنه المؤلف آراء ونظريات على جانب كبير من الأهمية أوضحت ما خفي من هذا الفن في عصر الأغالبة .

وجامع الزيتونة من بناء عبيد الله بن الحبحاب ، أسسه في عام ١١٤ هـ ، ويذكر النويري أن أبا إبراهيم أحمد بن محمد بن الأغلب أمر ببناء المسجد الجامع بتونس ، وأنه شرع في البناء في سنة ٢٤٨ هـ ( ٨٦٣ م ) ، وتوفي الأمير بعد ذلك بسنة واحدة دون أن يتم ما شرع فيه من بناء ، فأتمه أخوه زيادة الله الثاني الذي تولى الإمارة من بعده ، ولم يطل العهد بزيادة الله ، فمات بعد عام واحد وسبعة أيام من توليه الامارة في ذي القعدة سنة ٢٥٠ هـ ، ولعل ذلك هو السبب في أن اسمي هذين الأميرين لم يسجلا في النقوش التذكارية بهذا المسجد (٢) . ويؤكد الأستاذ الدكتور فكري أن أعمال أبي إبراهيم

---

(١) Fikry, la mosquée de Zeytouna à Tunis . وقد اعتمدت في هذا المقال على هذا البحث ، وعلى المقال الذي نشره في كتاب مساجد وجامعـــة ، ج ٢ ص ١٦٤ – ١٦٨

(٢) Fikry la mosquée de Zeytouna à Tunis p. 29

أحد واجهه زيادة الله تمت داخل نطاق جدران المسجد القديم الذى ظل محفظ منذ إنشائه سنة ١١٤ هـ بحدوده الخارجية ، واقتصرت هذه الأعمال الإنشائية على زيادة ثلاثة أساكيب فى بيت الصلاة ، وإقامة قبـــة أمام المحراب (١) .

وتصمت المراجع التاريخية خلال القرون الاربعة التالية عن ذكر شىء عن هذا المسجد ، ثم تعود فتروى ما طرأ على الجامع من إصلاحات ، فيذكر الزركشى أنه شرع فى إصلاح جامع الزيتونة وتحسينه وزخرفته فى عهد الواثق ، وتمت أعمال الإصلاح فى ١٥ من شعبان سنة ٦٧٦ هـ . ويذكر المؤرخ نفسه أن السلطان يحيى زكريا أمر بصنع أبواب خشبية ووضع جـــوائز خشبية فى عرض المسجد . ويعلق الدكتور فكرى على ذلك بقوله : « إذا كانت هذه الإشارات الموجزة لا تكفى لدراسة تاريخ الجامع فان الجامع نفسه أمدنا بنصوص تاريخية هامة للغاية ، فهو يحمل تاريخه مسجلا واضحا لا غموض فيه » ، ويذكر أيضا أن هذا المسجد يمتاز عن غيره بأنه يحتفظ بنقوش تاريخية ، فقد أنشىء وجدد وأصلح وأضيف إليه وزخرف فيه فى عصور مختلفة لم تترك لعلماء الآثار العربية فيها أقوالهم ، ولكن ذلك كله ، بالإضافة إلى أسماء الصناع الذين تولوا عمله ، مسجل فى نقوش هذا الجامع (٢) ، مثل ذلك أننا نقرأ تاريخ بنائه مسجلا فى قبة المحراب ، ونصه : « بسم الله الرحمن الرحيم ، مما أمر بعمله الإمام المستنصر أمير المؤمنين العباسى ، طلب ثواب الله وابتغاء مرضاته ، على يدى

---

(١) فكرى مساجد القاهرة ومعاهدها ص ٢٥٥ ، ٢٥٦

(٢) نفس المرجع ، ص ٢٥٥

نصير مولاه سنة خمسين وستمائة . يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله . صنعه فتح الله ) ، وبفضل هذه النقوش التي تراها أيضا في واجهة الصحن القديمة ، وفي قبة البهو [1] ، وعلى الباب الشرقي النافذ من صحن الجنائز ، عرف تاريخ المسجد .

والمسجد مربع في غير انتظام ، يغطي مساحة من الأرض طولها ٧٦ مترا وعرضها ٦١ مترا ، ويبلغ طول جدار المحراب ٦١ مترا ، والجدار الشرقي ٥٩ مترا والغربي ٧٦ مترا ، والشمالي ٥٧ مترا [2] . وبيت الصلاة في هذا المسجد يشتمل على سبعة أساكيب موازية لجدار القبلة ، طول كل منها ٤٠ مترا ، تخترقها ٩ بلاطات ، طول الواحدة منها ٧٦ مترا تقريبا ، ومتوسط عرض كل من الأساكيب والبلاطات فيما بين الأعمدة ثلاثة أمتار ، عدا أسكوب المحراب ، فعرضه ٣٫٥٠ مترا ، وبلاطة المحراب عرضه ٤٫٥٠ مترا [3] . وعقود المسجد تتجه اتجاهين في آن واحد : عمودية على جدار القبلة ، وموازية لهذا الجدار . والعقود لا ترتكز على جدران الجامع ، بل تظهر مستقلة عن هذه الجدران وترتكز على أعمدة . هذه العقود تشبه حدوة الفرس ، ولا تختلف في شيء عن عقود جامع القيروان ، وتقوم على حدائر ، بأعلاها قرم وبأدناها

---

(١) جاء هذا النقش التاريخي مسجلا في قبة البهو وقد سقط من التاريخ الكلمة التي تبين العدد العشري ، وبقي رقم الآحاد ورقم المئات أحدى ٠٠ وثمانمائة ، ولكن هذا النقش عينه تراه مسجلا على تاج سارية من سواري هذه القبة وتقرأ فيه [كان ابتداء العمل في الجنبات والدامور والقبة في شهر ربيع الأول من سنة ثمانين وثمانمائة وتم جميع ذلك من شهر جمادي الأولى سنة خمس وثمانين وثمانمائة ]

(٢) فكري ، مساجد القاهرة ومدارسها ، ص ٢٥٨

(٣) Fikry, la Mosquée Azemyeddine, p. 81 — مساجد القاهرة ومدارسها ، ص ٢٥٨

طنف من الحجارة . وتزدان حدائر جامع الزيتونة بزخارف نباتية محفورة في كتلة الحجر ، في حين تركت عارية من الزخرفة في جامع القيروان . وتزدوج هذه الحدائر في أسلوب المحراب بجامع الزيتونة لدعم الأعمدة وتركيز الضغط على كتلة واحدة بدلا من تشتيته وبعثرته .

وأعمدة بيت الصلاة وتيجانها متنوعة جلبت من آثار رومانية وبيزنطية ، وأعيد استعمالها في الجامع ، ومع ذلك فاننا نجد في جامع الزيتونة تيجانا إسلامية ترجع إلى القرن الحادي عشر الميلادي ، وتظهر في قبق هذا المسجد ملتصقة بالدعائم ، وتتفتح فيها وريقات الاكنثس على أكثر من صف [1] .

وجدران الجامع مبنية جميعا بالحجر الجيري المنحوت ، ويبلغ ارتفاعها ما يقرب من تسعة أمتار ، وسمكها ١٫٢٠ مترا ، وليس بها من الخارج ركائز كما هو الحال في جامع القيروان . وصحن الجامع مربع غير منتظم الأضلاع ، تحيط به عنبات من جهاته الأربع ، وترتفع في ركنه الشمالي الغربي مئذنة أقيمت في عام ٧٦٢ هـ على أنقاض المئذنة القديمة .

ولمسجد الزيتونة قبتان : واحدة أمام المحراب والثانية على مدخل البلاط الأوسط مما يلي الصحن . وتحكم قبة المحراب بجامع الزيتونة على ٣٢ عمودا كما هو الحال في قبة جامع القيروان ، وتتخلل هذه الأعمدة طاقات مفتوحة ومغلقة متعاقبة في المحيط الدائري لعنق القبة . أما الطابق الأدنى ، وهو الذي يؤلف قاعدة القبة ، فربع تقوم على أركانه مقرنصات أربعة معقودة ، على كل مقرنص منها مقدان متوازيان في هيئة قوائم ، تتشعب فصوص جوفاتها

---

(1) Fibry, op. cit. p. 41

من أركان القاعدة . وترتكز عقود المقرنصات على أعمدة ، وبتوسط أعلى كل جانب من جوانب القاعدة المربعة للقبة عقد آخر يضم قوقعة على شكل زهرة . وهذا التقسيم الداخلي إلى ثلاثة طوابق يتفق مع التقسيم الخارجي، فالطابق الأدنى مربع طول ضلعه نحو ٦ ½ مترا ، وبكل من الوجهين الشمالي والجنوبي من هذا الطابق بقبة المحراب ثلاث طاقات . وتختلف عقود طاقات قبة الزيتونة عن عقود طاقات قبة القيروان في أنها تتألف من أربعة صفوف مسننة متراكبة في تراجع ، أما الطابق الثاني فشبيه داخلي ، ويقابل الطاقات العشر بالداخل عشر دعائم موزعة بين النوافذ (١) .

أما قبة الجزائق أقيمت في سنة ٣٨١ هـ ، فهي تحق أروع القباب التونسية جميعا ، لتناسق تخطيطها ، ودقة تفاصيلها المعمارية ، وتوافق نسبها ، وثراء زخارفها . وعناصر هذه القبة من الداخل كعناصر قبة المحراب، ولكنها تبدو مستقلة واضحة . وقد سجل تاريخ بناء قبة المحراب تحت القبة ، كما سجل اسم صانعها فتح الله ، وقد أخطأ الأستاذ مارسيه في إسمه، ويبدو أنه نقل هذا النص التاريخي ناقصا ، فلم ينقل من اسم الصانع سوى مقطعه الأول فتح (٢) ، وظن أنه من الفنيان الصقالبة وأنه ساهم في بناء القبة . وقد اعترض الدكتور أحمد فكري على هذا الاعتقاد ، وأثبت بصورة لا تدع مجالا للشك وجود طائفة من كبار المهندسين والحرفاء المسلمين في بلاد تونس منذ مطلع القرن التاسع الميلادي ، تخصصوا في فن بناء القباب ، وبرعوا فيه وحذقوه (٣) .

---

(١) Fikry, Ibid. p. 46 - 52

(٢) Marçais, l'Architecture, p. 7

(٣) Fikry, op. cit. p. 56

ويتميز جامع الزيتونة بظهور عنصر زخرفي جديد يقوم على تناوب اللونين الأبيض والرمادي في كتل الحجارة التي تؤلف سمج العقود أو مداميك البناء داخل قبة المحراب . وقد ظهرت هذه الزخرفة أول ما ظهرت في قبة المحراب من الداخل ، ثم اتبعت في زخرفة عقود قبة البهو وفاضت في داخلها وخارجها ، وغمرت كل بدائها ، فغطت العقود وامتدت إلى الجدران نفسها ، والطرز التي تحيط بالعقود . وازدانت دعائم الطابق الثاني من القبة بمربعات ملونة قائمة على رؤوسها . وقد تحول اللون الرمادي خارج القبة إلى اللون الأحمر ، وهكذا اكتسبت هاتان القبتان مظهرا زخرفيا رائعا انفردتا به من بين قباب الإسلام جميعا (١) .

ومن المحتمل أن يكون مهندس جامع الزيتونة قد استلهم فكرة تناوب اللونين من عقود جامع قرطبة التي تتناوب فيها قطع الحجارة البيضاء مع قطع الآجر ، فيحدث من ذلك نوع من الزخرفة الهندسية البسيطة . وظهور هذا النوع من الزخرفة في بوابات الجامع على هيئة تربيعات شطرنجية . ولا نستبعد انتقال هذه الفكرة إلى جامع الزيتونة عام ٢٥٠ هـ ، وتطبيقها على الحجارة الملونة : فقد أخذ جامع قرطبة من القيروان كثيرا من عناصره ، مما يثبت وجود مجال للتأثيرات المتبادلة (٢) .

ويزدان ما بقي من عقود بلاط المحراب من الداخل بثلاثة عناصر زخرفية مرتبة في محور رأسي واحد ، فهناك حشوة عليها زخرفة محفورة في الجص تشغل موضع القفاء منتهى كل عقدين ، ابتداء من شرفة الحدارة حتى نقطة

---

(١) Fikry, op. cit. p. 58

(٢) السيد عبد العزيز سالم ، جامع الزيتونة بتونس ، ص ١٦٢

انطلاق الشريط البارز المحيط بالعقد . وتعلو هذه الحشوة حشوة أخرى مربعة ، قائمة على رأسها ، وتشغل هذه الحشوة بقيتي كل عقد . أما الطابق الأعلى فتشغله حشوة ثالثة مستطيلة الشكل ، أكبر من الحشوتين السابقتين محفورة في الجدار الذي يعلو العقد ، وتقع على محور الحشوتين السابقتين . وللأسف ضاع كثير من هذه الحشوات ، وحل محلها حشوات أخرى في القرن السابع عشر الميلادي . ومعظم ما تبقى من هذه الحشوات ، يقتصر على الحشوات العليا ، وتتكون زخارفها من تكوينات تذكرنا بزخارف الرخام بجوفة المحراب ، فهي تتألف من إطار مستطيل يضم جوفة على هيئة قوقعة ، يحيط بها عقدمزدوج متجاوز ، يقوم على كل من جنبيه على عمودين صغيرين توأمين . والجزء الأدنى من الجوفة يزخر بزخارف كثيفة تتداخل فيها السيقان والدوريقات . وتمتاز زخارف هذه الحشوات بأنها حفرت حفرا غائرا يظهر مسطحات الزخارف واضحة نتيجة التباين الشديد بين الظلة والضوء ، وقد شاهدنا بعض أمثلة هذا النوع في قباب القيروان ، ولكنها في الزيتونة أكثر رقة ومرونة (١) .

وبجامع الزيتونة منبر يرجع تاريخه إلى عام ٧٠٠ هـ يشبه إلى حد كبير منبر جامع القيروان ، ولكنه أصغر منه حجما وما يبقى من حشواته التي كانت تؤلف كتفيه سوى ٢٢ حشوة مستطيلة الشكل في كل من الكتفين . ولا توجد من بين هذه الحشوات واحدة تماثل الأخرى في الزخرفة . وتزدان هذه الحشوات بزخارف هندسية ، محفورة حفرا غائرا مفرغا ، من مربعات ودوائر ومعينات ، وزخارف نباتية من زهرات متكررة ذات أربع ورقات

---

(١) Fiberg, op. cit. p. 59

تخضع للأسلوب الهندسي ، فتحول إلى زخرفة هندسية لا تذكرنا بأصلها النباتي إلا عروق وقنوات تخترق خطوطها المنتظمة، ويحيط بهذه المشوات طرز من زخارف نباتية قوامها سيقان تلتوي التويقات [١] .

٣ ـ المسجد الجامع بسوسة:

اتخذ الأغالبة من سوسة ميناء لعاصمتهم القيروان ، يركبون منها السفن للجهاد في صقلية ، ولذلك حظيت باهتمام أمرائهم ، فزودوها بأسوار قوية ، وأقاموا بها الرباط للشهور ، ومسجدا يعرف بأبي فطاطة ، فيما بين ٢٢٣ ، ٢٢٦ هـ ، والمسجد الجامع بسوسة في سنة ٢٣٦ هـ .

أقيم جامع سوسه في عهـــد الأمير أبي العباس محمد بن الأغلب ، في الطرف الشمالي الشرقي من المدينة ، قريبا من باب البحر [٢] ، وقد سجل تاريخ بنائه على إفريز من الكتابة الكوفية الرائعة منقوشة على الحجر حول الصحن ، ويتضمن النقش آيات قرآنية ، وتاريخ بناء المسجد ، ولكن هذا الإفريز الحجري تهدم ما يقرب من نصفه في سنة ١٩٤٤ . وقد قام الأستاذ الدكتور أحمد فكري في إعادة تركيبه على حالته الأولى ، إلا أن الجزء الذي كان يمتد منه على واجهة بيت الصلاة ، فقـــد بعض حروفه وكلماته ، ولذلك فإن النص التاريخي لهذا المسجد غير كامل ، ونقرأ فيه [ مما أمر به ... محمد الأ ... ست وثلاثون ومائتين في المسجد ... ] [٣].

---

(١) Ibid. pp. 50 - 53

(٢) Creswell, a short account, p. 260

(٣) فكري : مساجد القاهرة ومدارسها ، ص ٢٠

وعلى الرغم من الزيادات التي أضيفت إلى المسجد في العصور التالية مثل الجنبة التي أضيفت لصق واجهة بيت الصلاة سنة ١٠٨٦ هـ [١] ، وما طرأ على جدار القبلة الأغلبي من تغييرات نتيجة لإضافة ثلاثة أساكيب قبلية ، فانه يمكننا بوضوح تحديد المسجد بصورته التي بني عليها ، وحدوده القديمة ، ولا يهمنا بطبيعة الحال من بناء جامع سوسة إلا هذا الجزء القديم الذي بني في عصر الأغالبة .

كان هذا المسجد على شكل مستطيل طوله ٥٢ مترا ، وعرضه ٤٤ مترا ، وكانت مساحة الصحن فيه تبلغ ٤٩ × ٢٧ مترا مربعا ، وطول بيت الصلاة ٤٩ مترا ، وعرضه نحو عشرة أمتار . ويفتح بيت الصلاة على الصحن بواجهة من ١٩ عقدا ، ويشتمل هذا البيت على ١٣ بلاطة ممتدة على ثلاثة أساكيب يفصلها فيما بينها دعائم ضخمة مصلبة الشكل عددها في كل أسكوب ١٢ دعامة وتحمل هذه الدعائم عقودا نصف دائرية مرتفعة موازية لجدار القبلة ، وأخرى متجاوزة ومنخفضة عمودية على هذا الجدار ، أي أن كل دعامة تحمل أطرافه أربعة عقود . ونلاحظ أن بلاطة المحراب يزيد اتساعها عن البلاطات الأخرى ، فبينما يصل اتساع البلاطة الجانبية ٣ أمتار تقريبا ، يبلغ اتساع البلاط الأوسط ٤٫٣٠ مترا [٢] . ويمتد البلاطان الشرقي والغربي الطرفان في بيت الصلاة شمالا بامتداد الصحن ، فيشكلان جنبتين شرقية وغربية ، تطل كل منهما على الصحن بستة عقود ، وتصلهما من طرفيهما الشمالي جنبة شمالية بأكملها تتكون من ١٩ عقدا . أما الجنبة الرابعة القبلية ،

---

(١) Marçais, l'Architecture musulmane, p.94 — ماركيس ، الأرجع السابق ص ٢٥٠

(٢) شكري ، مساجد القاهرة ص ٢٠٢

فقد أضيفت كما ذكرت فى سنة ٨٨٦ هـ . وكان يعلو الجنبات الأغلبية الثلاثة قبوات نصف أسطوانية متصلة فيما بينهـــا . ونلاحظ أن العقود المجاورة التى تدور بالصحن يزيد ارتفاعها مرتين عن ارتفاع الدعائم التى تحملها ، ويعلو العقود جدار يزدان بالإفريز الكتابى الذى أشرنا إليه [1]. ويشغل الزاوية الشمالية الشرقية من الصحن درج يصعد إلى جوسق مثمن الشكل ينتهى بقبة ، ويقوم هذا الجوسق على برج أسطوانى الشكل يبرز عن الجدارين الخارجيين الشرقى والشمالى للجامع . ويعتقد الأستاذ كريسويل أن بناء هذا الجوسق أحدث عهدا من بناء البرج [2].

وسقف المسجد قبوات نصف أسطوانية تغطى بلاطاته ، وتقوم هذه القبوات على العقود نصف الدائرية التى ذكرناها قبل ذلك [3] . ويعلو الأسطوان المواجه للمحراب قبة نصف كروية عقدها من الخارج مثمن الشكل ، ضلوعه مقعرة ، وتفصلها زعانف منفصلة ، ويقوم هذا العقد على قاعدة مربعة تعلوها زخرفة من أسنان بارزة . والقبة من الداخل تقوم على جوفات مقوسة فى الأركان .

٤ — مسجد أبى فتاتة بسوسة :

يقع هذا المسجد قريبا من باب سوسة الجنوبى ، وهو مسجد صغير تبلغ مساحته الخارجية ١٣ × ١٠ م² ، ويعتقد الأستاذ الدكتور أحمد فكرى أن صحن هذا المسجد كان يحيط به من الشرق والغرب والشمال ، على غير

---

(١) Marçais, l'architecture musulmane, p. 24

(٢) Creswell short account, p. 272

(٣) Marçais, op. cit. p. 24

النظام الذى تبدو عليه الجدران التى تحيط به حاليا من الشرق ومن الشمال ، ذلك لأن الكتابة الكوفية المسجلة على الخجارة فى الإطار الذى يعلو جدار الواجهة الشمالية للمسجد ، كانت تعد على الواجهة الغربية للجامع ، إذ ما تزال بعض آثارها ظاهرة على هذه الواجهة . ونقرأ فى بقايا النقش الكتابى الذى كان يعلو واجهات الجامع عبارة ( ابن إبراهيم الأغلب ) ، وتشير هذه العبارة إلى الأمير أبى عقال الأغلب بن ابراهيم الذى ولى إمارة إفريقية بعد وفاة زيادة الله فى سنة ٢٢٣ هـ [١] . ولم يبق من هذا المسجد سوى بيت الصلاة ، ورواق يمتد أمامه كان يطل على الصحن ، ولعله كان صحنا للجنائز [٢] . وبيت الصلاة مربع الشكل طول كل ضلع يقل قليلا عن ٨ مترا ، ويشتمل على ثلاثة بلاطات عمودية على جدار القبلة ، وتنقسم هذه البلاطات إلى ثلاثة أساكيب تمتد بمحاذاة هذا الجدار ، بحيث يضم بيت الصلاة تسعة أساطين مربعة الشكل ، يبلغ طول كل جانب منها ٢ ½ مترا تقريبا ، وترتكز عقودها على أربعة دعائم مضلعة الشكل . والمسجد على هذا النحو يشبه من حيث التخطيط مسجد صغير بطليطلة يعرف باسم باب مردوم ، أسسه أحمد بن حديدى القاضى ، فى سنة ٣٩٠ هـ [٣] ، كما يشبه من حيث النظام الداخلى لبناء المسجد الجامع بسوسة الذى أقيم فى سنة ٢٣٦ هـ ، إذ أن سقف مسجد أبى فتاتة على شكل قبوات نصف أسطوانية تقوم على عقود

---

(١) البكرى ، مسالك افريقية ومما لكها ، ص ٢٠٤

(٢) نفس المرجع ص ٢٠٤

(٣) السيد عبد العزيز سالم ، المساجد والقصور بالأندلس ص ٥٠ ، ٥٣ ، مسجد المدينة بطليطلة ، مقال بمجلة كلية الآداب بجامعة الاسكندرية ، ١٩٥٨

نصف دائرية مطولة ، بينما تفصل الأساكيب الثلاثة عقود منخفضة نصف دائرية متجاوزة (١) .

٥ ـ مساجد أخرى خاصة:

وإلى جانب المساجد التي ذكرناها ، أقيمت في إفريقية مساجد أخرى على نفقة بعض الأشخاص الصالحين ، كمثل من الأعمال الخيرية ، منها المسجد الذي أقامه محمد بن خيرون المعافري الأندلسي بالقيروان ، في سنة ٢٥٢ هـ ، ويعرف هذا المسجد بذي الأبواب الثلاثة ، وقد اكتسب هذه التسمية بسبب واجهته الشمالية ذات العقود الثلاثة المتجاوزة لنصف الدائرة ، وتمتاز هذه الواجهة بكسوتها الزخرفية الرائعة (٢) .

ومنها المسجد الجامع بسفاقس الذي بناه علي بن سالم الجنياني ، أحد تلامذة الفقيه الصالح أبي سعيد سحنون بن سعيد الملقب بسراج القيروان (٣) ، وذلك في سنة ٢٣٥ هـ . وتقوم مئذنة هـذا الجامع في منتصف الواجهة الشمالية على نحو مئذنة جامع القيروان . ويشبه جامع سفاقس المذكور جامع القيروان من حيث عناصره المعمارية (٤) .

ثانيا ـ العمارة الحربية :

اهتم أمراء بني الأغلب بتحصين مدن إفريقية ، فيذكر ابن خلدون أن أبو ابراهيم أحمـد بنى بافريقية نحوا من عشرة آلاف حصن بالحجارة

---

(١) Marçais, l'architecture musulmane, p. 24

(٢) Ibid, pp. 25, 47

(٣) المالكي ، رياض النفوس ج ١ ص ٢٤٩ ـ ٢٦٠

(٤) Marçais op. cit. p. 25

والكاس وأبواب الحديد »[1]. وتتضمن هذه الرواية مبالغة واضحة ، ولكن النص على أي حال يكشف لنا اهتمام هذا الأمير بتحصين البلاد . وقد يكون المقصود ببناء هذه الحصون ترميم سلسلة التحصينات التي كان قد أقامها البيزنطيون على عجلة على تخوم الصحراء إبتداء من طرابلس شرقا حتى نوميديا غربا ، وكانت هذه التحصينات تشتمل على قلاع وأبراج تكاد تكون متصلة ، ومن هذه القلاع قلعة جلولاء الواقعة على بعد نحو ٣٠ كم إلى الشمال الغربي من القيروان ، وقلعة القصرين التي لعبت دورا هاما على الحدود الغربية لدولة الأغالبة[2] ، وقلعة بلزمة التي افتتحها أبو عبد الله الشيعي وخربها ، وقد ذكر البكري أنها قصر قديم البناء ، ومنها قلعة باغاية التي ظلت قائمة حتى هدمها أبو عبد الله الشيعي . ومن قلاع إفريقية في عصر الأغالبة قلعة طينة التي بناها أحد الولاة العرب[3] ، وقصبة مقرة التي شاهد اليعقوبي حصونها الكثيرة[4] . وكانت معظم بلاد قسطيلية محصنة بالقلاع المنيعة . ولقد عنى الأغالبة بتحصين السواحل ، خوفا من طروق الروم لها ، وأعظم أمراء الأغالبة الذين تهمموا بالأبنية الحربية الأمير ابراهيم بن أحمد الذي بنى الحصون والمحارس على سواحل البحر ، حتى كانت المنار توقد في ساحل سبته ، فتنذر بالعدو ، فيتصل إيقادها بالاسكندرية في الليلة الواحدة[5] ، ولعل المقصود بالمحارس الأربطة . وقد أشار اليعقوبي الى

---

(١) ابن خلدون ، ج ٤ ، ص ٢٢٩

(٢) Marçais, op. cit. p. 29

(٣) Ibid .

(٤) اليعقوبي ، ص ٢٥٦

(٥) ابن الأثير ، ج ٦ ص ٥ ـ ابن خلدون ، ج ٤ ، ص ٢٣٤

كتابه البلدان انه من اسفاقس إلى بنزرت ثمانية أيام ، وفى جميع المراحل حصون متقاربة ينزلها العباد والمرابطون [1] .

وإلى أبي ابراهيم أحمد بن محمد بن الأغلب ينسب بناء أسوار سوسة[2]، وإن كان ابن الأثير وابن خلدون ينسبانها خطأ إلى إبراهيم بن أحمد [3]، لأن سور مدينة سوسة يحمل تاريخ الانشاء سنة ٢٤٥ هـ وهو يتفق مع عصر أبي ابراهيم أحمد بن محمد .

وأهم المنشآت الحربية فى عصر الأغالبة الآثار التالية :

١ ـ رباط سوسة :

كان الخوف من غارات الروم على السواحل التونسية ، من جهة ، والاستعداد الدائم للجهاد ضد الروم فى صقلية حافزا على عناية الأغالبة بتحصين هذه السواحل ، وذلك باقامة الحارس والأربطة ، وقد لعبت الأربطة دورا هاما فى الحياة الدينية والحربية ببلاد إفريقية . وكان الرباط يزود عادة بمنار توقد فيه النار ليلا للتحذير باقتراب سفن العدو ، وعن طريق هذه الإشارة تستعد الحارس والأربطة المجاورة ، للاقاة العدو بحرا وبرا ، ولذلك كثر عدد الأربطة على السواحل التونسية .

ورباط سوسة المعروف بقصر الرباط من أهم الأربطة التى أقيمت فى عصر الأغالبة ، وقد وصلت إلينا عمارته فى حالة جيدة . وهو من بناء الأمير

---

(١) البكرى ، ص ٣٥٠

(٢) ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، القسم الثالث ص ٢٣

(٣) ابن الأثير ، جـ ٦ ص ٥ ـ ابن خلدون جـ ٤ ص ٤٣١

زيادة الله بن الأغلب ، أسسه فى سنة ٢٠٦ هـ ، وتاريخ الإنشاء مسجل على لوحة من الرخام بأعلى مدخل المنار[1]، نقرأ عليها النص التالى : ( مما أمر به الأمير زيادة الله بن ابراهيم أطال الله بقاءه على يدى مسرور الخادم مولاه فى سنة ست ومائتين اللهم أنزلنا منزلا مباركا وأنت خير المنزلين ) . ويضم رباط سوسة على خليج قابس ، بداخل أسوار مدينة سوسة ، فى القسم الأدنى من المدينة ، ولقد بنى قبل إنشاء أسوار سوسة بنحو ٣٠ سنة . ويشتمل الرباط على سور مربع الشكل طول ضلعه ٣٤ مترا تقريبا ، مزود عند أركانه ومنتصف أسواره بأبراج معظمها نصف أسطوانية ، ( ست منها نصف أسطوانية ، أما البرج الواقع فى الركن الجنوبى الغربى لمربع الشكل ، يقوم عليه منار أسطوانى الشكل ، ينتهى من أعلاه بجوسق تعلوه قبة ) ، ويكتنف المدخل بناء مربع الشكل يعلوه فوق السور قبة .

وتزدان الأسوار والأبراج فى أعلاها بطراز ممتد من المقرنصات الصغيرة المتصلة ، وتنتهى الأسوار من أعلى بشرافات مستديرة الرؤوس .

ومدخل الرباط بارز ، بوسط الواجهة القبلية ، ويصل المرء إلى داخل الرباط عن طريق درج هابط ، يؤدى إلى باب معقب مفتوح فى هذا السور القبلى ، فاذا ما اجتاز المرء هذا الباب ، وجد نفسه فى ممر ينقسم إلى ثلاثة أقسام : الأول أسطوان تعلوه قبوة متعارضة ، ويكتنفه على كل من الجانبين أسطوان قبوته نصف أسطوانية . أما القسمان الآخران فتعلوهما قبوتان نصف أسطوانيتين ، ويؤدى هذا الممر شمالا إلى صحن الرباط .

---

(١) Creswell, a short account, p. 332

والصحن مستطيل الشكل ، طوله من الشرق إلى الغـــرب ٢٠٫٤٠ مترا ، وعرضه من الشمال إلى الجنوب ١٩٫٢٠ مترا . ويحيط بالصحن من جهاته الشمالية والشرقية والغربية أروقة تطل عليـه بوائك ، عقودها مدببة على دعائم . ووراء هـذه البوائك غرف لا توافق لهـا ، سقفها قبوات نصف أسطوانية ، وبتراوح اتساع الغرفة الواحـدة ما بين ٣٫٥٠ مترا ، ٣٫٦٠ مترا ، باستثناء غرف الجانب الشرقي التي لا يزيد اتساع الواحـدة منها على ثلاثة أمتار . ويعلو هذا الطابق من الغرف طابق كان مشابه للطابق الأرضي ولا يختلف عنه إلا في أن جنبات الصحن حل محلها سطح ارتفاعه من مستوى سطح أرض الصحن نحو ٣٫٣٠ مترا [١] . ويشغل الجانب الجنوبي من هذا الطابق مسجد صغير طوله من الداخل ٣٫٩٠ مترا ، وعرضه ٢ أمتار . ويتألف هذا المسجد من ١٦ بلاطة عمودية على جدار القبلة تعتمد على أسكوبين . ونلاحظ أن البلاطتين المتطرفتين أكثر اتساعا من بقية البلاطات . ويتوسط المحراب جدار السور الجنوبي للرباط ، وترتفع أمام المحراب قبة ، تبدو من الخارج بارزة [٢] . وللمسجد خمسة أبواب مفتوحة في الجدار المواجـــه لجدار القبلة : اثنان عن يمين الشخص المواجه للمحراب وثلاثة من يساره ، ولم يفتح في هذا الجدار باب يواجه المحراب [٣] . أما المنـارة فاسطوانية الشكل ، قطرها نحو ٤٫٧٢ مترا ، وارتفاعها فوق مستوى سطح ممشى السور ١٥٫٣٨ مترا [٤] .

---

(١) Creswell, a short account of early Muslim architecture, p. 231

(٢) Marçais, l'architecture, p. 31

(٣) مكي ، مساجد القاهرة ومدارسها ، ص ٢٥٣

(٤) Creswell, op. cit. p. 232

٧ ـ رباط المنستير :

كانت المنستير ميناء يقع بين سوسة والمهدية ، وكانت في الأصل رباطا أو قصرا يرابط فيه المسلمون لحماية ثغور إفريقية من الغارات البحرية التي كان يقوم بها الروم . بناه هرثمة بن أعين والي إفريقية من قبل الرشيد في سنة ١٨٠ هـ (١) . ومنذ تأسس هذا القصر اجتمع الناس وبنوا بيوتهم حوله حتى أصبح قصر المنستير مدينة عامرة كثيرة السكان . وقد وصف البكري هذا الرباط أو القصر بقوله : « وبالمنستير البيوت والحجر والطواحين ومواجل الماء ، وهو حصن عالي البناء ، متقن العمل ، وفي الطبقة الثانية منه مسجد لا يخلو من شيخ خير فاضل يكون مدار القوم عليه ، وفيه جماعة من الصالحين والمرابطين ، قد حبسوا أنفسهم فيه منفردين دون الأهل والعشائر . وهو قصر كبير عال ، داخله ربض واسع ، وفي وسط الربض حصن ثان كبير ، كثير المساكن والمساجد والقصاب العالية . طبقات بعضها فوق بعض ، وفي القبلة صحن فسيح ، فيه قباب عالية متقنة ، يزل حولها النساء المرابطات وله في يوم عاشوراء موسم عظيم ومجمع كبير ، وكان أهل القيروان يخرجون إليهم بالأموال والصدقات الجزلة . ويقرب المنستير حارس خمسة متقنة البناء ، معمورة بالصالحين » (٢) .

من هذا الوصف يتضح لنا أن هذا الرباط أضيف إليه في العصور التالية إضافات كثيرة عقدت تخطيطه الأصلي ، وغيرت معالمه ، ومع ذلك فانه

---

(١) ابن عذاري ج ١ ص ١١٠ ـ ابن الأثير ج ٥ ص ٩٦ ـ ابن خلدون ج ٤ ص ١٦٢ ـ ابن الخطيب ، ص ٩٩

(٢) البكري ، ص ٣٦ ـ ابن الخطيب ، ص ٩٩ ، حاشية رقم ٢

يمكننا أن نتعرف على العناصر الأساسية لهذا الرباط . كان السور محاطا ببراج مستديرة أو كثيرة الأضلاع ، ويحيط بالصحن النسيج من جهاته الثلاثة الشمالية والغربية والشرقية طابقان أو ثلاثة من الغرف التي لا تتقدمها بوائك تطل على الصحن على نحو النظام المتبع في رباط سوسة . ويرتفع في الركن الجنوبي الشرقي برج أسطواني الشكل ، يشبه نظيره في رباط سوسة . ويشغل الجانب القبلي بالطابقين الأدنى والأعلى مسجدان ، الأدنى منها بسيط في تخطيطه ، إذ يتكون من ثلاث بلاطات وأسكوبين . أما العلوي فيشتمل على تسع بلاطات وأسكوبين . وتقوم العقود التي تتكئ عليها القبوات نصف الأسطوانية ، والعقود الأخرى المتخذة التي تفصل بين البلاطات على دعائم مطولة [1] .

٣ — سور سوسة :

يذكر المؤرخون أن الأمير أبو ابراهيم أحمد بن محمد بن الأغلب بنى سور سوسة في سنة ٢٤٥ هـ [2] ، ويؤكد هذا التاريخ النقش المسجل على السور القبلي من أسوار سوسة . وأسوار سوسة مبنية من الحجر المصقول ، ويعلوها جدار مشرف المدرة لحماية ممشى السور . ويدعم الأسوار من الخارج أبراج ضخمة تتجاوز في ارتفاعها مستوى ممشى السور بنحو أربعة أمتار ، وفي الزاوية الجنوبية الغربية من أسوار سوسة ، وهي أكثر مناطق سوسة ارتفاعا ، ينتصب برج مرتفع ، يسميه البكري منار خلف الفتى ،

---

(١) Marçais, l'architecture Musulmane, p. 32

(٢) ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، القسم الثالث ص ٢٣

وهو برج مربع الشكل كالصوامع يعلوه برج أقل حجما ، ويشغل من الداخل أربع غرف تعلو الواحدة منها الأخرى ، السفلى منها مسقوفة بقبوة نصف أسطوانية ، والغرفة الثانية التي تعلوها تسقفها قبوة متعارضة ، أما الثالثة فسقفها قبوة نصف أسطوانية ، والغرفة الرابعة تتكون من أربع قبوات متعارضة تقوم على عقود مصلبة . ويبلغ ارتفاع هذا البرج مايزيد على ثلاثين مترا [1] .

٤ — سور سفاقس :

يذكر اليعقوبي أن سفاقس مدينة على ساحـــل البحر ، يضرب البحر سورها [2] . هذا السور الذي شاهده اليعقوبي في عهد الأمير ابراهيم بن أحمد ، أقيم في عصر هـــذا الأمير من القرن الثاني ، ثم رمم بعد ذلك بالأحجار ، ويتألف من ستارة مبنية من الحجر المنصقول ، وقطع من الحجارة غير المهذبة ، ويدعم السور أبراج مستطيلة الشكل ، مستديرة الرؤوس ، وبعضها مضلع [3] .

ثالثا — العمارة المدنية :

١ — مدينة العباسية ( القصر القديم ) :

أسسها ابراهيم بن الأغلب في سنة ١٨٥ هـ ، وتقع على بعد ثلاثة أميال

---

(١) Marçais, op. cit. p. 98

(٢) اليعقوبي ، ص ٣٥٠

(٣) Marçais, l'Architecture Musulmane p. 36

جنوبي القيروان[1]، ويبدو أن سبب بناء ابن الأغلب لهذه المدينة، يرجع إلى أن سكان القيروان لما كانوا يتصفون به من تدين وورع، أبدوا سخطهم على الأمير لإقباله على الخمر وانغماسه في حياة اللهو واللذات، فاضطر ابن الأغلب إلى إقامة هذه المدينة للاستمتاع بالحياة بعيدا عن أنظار رعيته، فلا يناله شيء من تقريع فقهائهم وانتقادهم لسلوكه. وقد يكون قد اتخذ هـــذه المدينة تقليدا للخلفاء الأمويين والعباسيين في اتخاذهم القصور خارج عواصمهم، أو إشباعا لرغبته في الظهور بمظهر العظمة والأبهة. ولقد اشترى ابن الأغلب لهذا الغرض أرضا من بني طالوت، وبنى قصرا للإمارة، نقل إليه السلاح والعـــدد سرا، وأسكن حوله عبيده وفتيانه ومواليه، وأهل الثقة من خدمه[2]، وسمي بالقصر القديم بالنسبة للقصر والقبة الذي بناه ابراهيم بن أحمد في سنة ٢٦٤هـ[3]، وعرف بالقصر الأبيض ربما لبياض لون جدرانه. ولقد أطلق ابراهيم بن الأغلب على هذه المدينة اسم العباسية، إمعانا في إظهار ولائه للعباسيين[4]. وفي هذه المدينة استقبل الأمير رسل شارلمان إليه سنة ١٨٥هـ عندما قدموا لنقل رفات القديس سان سيجرين[5]. وظلت هـــذه المدينة دارا للإمارة في عهد خلفاء ابراهيم بن الأغلب، وأسس فيها زيادة الله بن ابراهيم القصور والمنتزهات، وحصنها

---

(١) ابن عذاري، ص ١١٢ — وياقوت يعتبرها أنها تبعد عن مسافة من القيروان (البلدان ص ٢٤٨)

(٢) نفس المرجع، ص ١١٢

(٣) نفس المرجع، ص ١٠٤

(٤) ياقوت، معجم البلدان، مادة العباسية

(٥) Marçais, l'Architecture Musulmane, p. 111

٢٠٩ هـ[١] . كذلك أقام الأمير أبو الغرانيق محمد بن أحمد في العباسية ، وكان نزها مبذرا ، شغوفا باقتناص الطير ، وكان له برج في موضع منها يعرف بالساحلين يستطيع فيه أن يركن إلى هوايته المفضلة . وكان لمدينة القصر القديم جامع له صومعة مستديرة مبنية بالآجر والحجر سبع طبقات لم يرا أجل منها[٢] .

اتسعت العباسية ، وأصبحت مدينة كبيرة مسورة ، وكان يفتح فيها خمسة أبواب ، منها بابا الرحبة والحديد في السور القبلي ، وبابا غلبون والريح في السور الشرقي ، وباب السعادة في السور الغربي[٣] . وقد أقيم في المدينة كثير من المنشآت من حمامات وفنادق وأسواق ومواجل ، ويذكر البكري أيضا أنه كان يتوسطها ميدان فسيح ، أقيم تجاهه قصر يعرف بالرصافة . ولما كانت سنة ٢٦٤ هـ هجر الأغالبة مدينة القصر القديم واختطوا إلى المدينة جديدة هي مدينة رقادة . وقد آل مصير القصر القديم إلى الهدم والتخريب ، ولكن موقعه مازال معروفا حتى اليوم . ولقد أجريت على طول الجانبين الشمالي والغربي من الأطلال حفائر أثرية في سنة ١٩٢٣ ، أسفرت عن كشف بعض الغرف الصغيرة ، كما كشفت عن بعض القنوات والمخازن المنورة في باطن الأرض[٤] .

---

(١) ابن عذارى ، ص ١٢٤

(٢) ياقوت ، معجم البلدان ، مادة قصر القيروان ، مجلد ٤ ، ص ٣٦٢

(٣) البكري ، ص ٢٠

(٤) Marçais, l'architecture musulmane, p. 28

٢ ـ رقادة :

تقع رقادة على بعد ثمانية أميـــال جنوبى القيروان ، وهى العاصمة الأغلبية الثانية ، شرع ابراهيم بن أحمد فى تأسيسها سنة ٢٦٣ هـ ، وتم تأسيسها فى سنة ٢٦٤ هـ . وأصبحت رقادة منذ ذلك التاريخ مقر أمراء بنى الأغلب حتى انقراض دولتهم . ويصفها البكرى بقوله : « وأكثرها بساتين ، وليس بافريقية أعدل هـواء ، ولا أرق نسيما ، ولا أطيب تربة من مدينة رقادة وسميت رقادة لأن الأمير إبراهيم أرق يوما ، وشرد الكرى عن جفنيه ، فلم ينم ، وأمر بالخروج والسير ، فلما وصل إلى هذا الموضع نام ، فسمى رقادة ... والذى بنى رقادة واتخذها دارا إبراهيم بن أحمـــد بن محمد بن الأغلب ، انتقل إليها من مدينة القصر القديم ، وبنى بها قصورا عديدة ، وبساتين ، وعمرت بالأسواق والحمامات والفنادق » (١) ، وكان من قصورها قصر بغداد ، والمختار ، والقبح ، وقصر البحر ، وقصر العروس ، وقصر الصحن . وكان يحيط برقادة سور من الآجر والطين أضافه الأمير زيادة الله الثالث حتى يحصن فيها عند محاصرة أبى عبد الله الشيعى لها .

ولم تزل هذه المدينة بعد ذلك دار ملك بنى الأغلب حتى هرب منها زيادة الله الثالث أمام زحف قوات أبى عبد الله الشيعى ، فاحتلها عبيد الله المهدى ، وأقام فى قصر الصحن برقادة حتى سنة ٣٠٨ هـ ، ثم انتقل بعد ذلك إلى المهدية . ثم فقدت رقادة بالتدريج مكانتها القديمة ، وأخذ الخراب يدب فى قصورها وديارها ، حتى تولى معد بن اسماعيل الخلافة الفاطمية ، فهدم

---

(١) البكرى ، ص ٢٣

ماتبقى منها ، وأصبحت رمادة محجرا تستخرج منه مواد البناء في العصور التالية . وقد تبقى منها اليوم آثار حوض ، لعله حوض القصر المعروف بقصر البحر [١] .

٣ ـ المواجل والخزانات والقناطر :

اهتم خلفاء بني أمية ، وعلى الأخص هشام بن عبد الملك ، بالمنشآت الخاصة بالأعمال المائية والخزانات والمواجل في إفريقية اهتماما كبيرا ، فلما استقلت أسرة بني الأغلب بإفريقية ، حرص أمراؤها على زيادة هذا الاهتمام بإقامة هذه المنشآت ووجهوا إليها عناية خاصة . ويعتبر أبو إبراهيم أحمد أكثر بناة هذه الأسرة نشاطا ، ويتجلى هذا النشاط في بنائه المواجل للقيروان والقصر القديم . ويذكر ابن الخطيب ، أن بناءه للماجل الكبير بباب تونس في القيروان كان أعظم حسنة قام بها هذا الأمير [٢] . وقد كان قد شرع في بنائه سنة ٢٤٥ هـ وأتمه في سنة ٢٤٨ هـ [٣] . ويروى أنه اعتل أثناء اتخاذ الماجل بالقصر القديم ، وكان يسأل : هل دخله الماء ؟ إلى أن دخله الوادي فعرفوه بذلك فسر به ، وأمرهم أن يأتوه بكأس مملوءة منه فشربها ، وقال : الحمد لله الذي لم أمت حتى تم أمره ، ثم مات على أثر ذلك » [٤] .

وكانت مياه المطر والسيول تسيل في أودية ، وتصب في المواجل ،

---

(١) رابح الحسيلات ، ل : Marçais, op. cit. p. 28

(٢) ابن الخطيب ، ص ٣٣

(٣) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٤٨

(٤) ابن الخطيب ، ص ٢١

وهى برك عظيمة منها كان يشرب أهل القيروان [1] . وكان بالقيروان فيما يذكره البكرى « ماجلا ، وكانت هـــذه المواجل مستديرة الشكل ، تكسو سطوحها طبقة من الملاط شديد الصلابة ، كما أنها كانت تحاط من أعلى بسور يدعمه من الداخل أو من الخارج أو منها معا ركائز . وكان الماجل يسبقه أحيانا ماجل أصغر حجما يترسب فيه الطمى الذى تحمله القنوات ، أو يتصل فى بعض الأحيان بخزان فى جوف الأرض توزع منه المياه للسقيا . وكانت المواجل تزود بالمياه عن طريق جداول تجرى نحو المواجل بواسطة قناطر أو جسور ، أو بواسطة تجميع مياه العيون [2].

ويصف الإدريسى الماجل الكبير بالقيروان بأنه « من عجيب البناء ، لأنه مبنى على تربيع ، وفى وسطه بناء قائم كالصومعة ، وتذرع كل وجه منه مائتا ذراع ، وهـــو مملوء كله ماء » [3] . ويصف البكرى الماجل الكبير بالقيروان ، فيذكر أنه مستدير الشكل ، عظيم الاتساع ، بوسطه برج مثمن الشكل ، يعلوه مجلس له أربعة أبواب ، وبأعلاه قبة يحملها ١٩ عمودا . ويجوار هذا الماجل مباشرة ، وفى الجهة الشمالية منه ماجل آخر أقل اتساعا يعرف بالفسقية ، يتلقى مياهه من الوادى [4] عند مجراها ، فيخفف من سرعتها . وعندما يمتلىء بالمياه حتى ارتفاع قامتين ، تتدفق فى الماجل الكبير من طريق فتحة يسميها البكرى . وكان زيادة الله الثالث قد أنشأ مركبا

---

(١) اليعقوبى ، ص ٢٤٨

(٢) Marçais, Architecture, p. 88

(٣) الادريسى ، ص ١١٠

(٤) يسمى هذا الوادى مرجر الليل ( Creswell, op. cit. p. 331

لهذا الماجل سماء الزلاج ، وقدم من تونس إلى القيروان فى سنة ٢٩٢ هـ ونزل فى مجلس الماجل الكبير [١] . ويذكر الأستاذ مارسيه أن ماجل القيروان الكبير ليس دائريا ، وإنما هو متعدد الأضلاع ، تصل عدد ضلوعه إلى ٤٨ ضلعا ، تؤلف ما يقرب من الدائرة قطرها ١٢٨ مترا ، وكل زاوية من هذا المضلع ترتكز على ركيزة مزدوجة من الداخل والخارج ، وفى وسطه تنصب قاعدة من البناء مربعة الشكل ، يلصق كل وجه منها دعامة أسطوانية ، وكانت هذه القاعدة تحمل مجلسا كان يقيم فيه الأمير للراحة . أما الماجل الآخر فمتعدد الأضلاع ، من ١٧ ضلعا ، ويصل بين الماجلين فسحة نصف دائرية تقع على عدة أمتار من القناع . وللماجل الصغير ١٧ ركيزة داخلية تكتنف الأركان ، و ٢٨ ركيزة خارجية تكتنف الأركان الخارجية بالاضافة إلى منتصف كل ضلع . ونلاحظ أنه يقابل كل ركيزة توسط الأضلاع من الخارج جسورة من الداخل . وما زالت المياه تملأ الماجل القيروانى فى الوقت الحاضر ، بينما جفت مياه ماجل رقادة [٢] . وإذا كانت المواجل هى أحواض مكشوفة للهواء ، فقد كانت هناك خزانات جوفية للمياه أو جباب تحفظ فيها مياه الأمطار ، وأكبرها جب السفرة فى سوسة ، ويرجع تاريخ إنشائه إلى هذا العصر ، ويتألف من ست بلاطات تعلوها قبوات نصف أسطوانية ، تفصلها عن بعضها عقود نصف دائرية قائمة على دعائم ضخمة ارتفاعها يجاوز ستة أمتار . وكانت للأربطة والحارس جباب من هذا النوع لتوفير المياه لنزلائها من العاملين والمجاهدين . وتشبه هذه الجباب جب

---

(١) ابن عذارى ، ص ١٨٦

(٢) Marçais, op. cit. p. 38

المياه بمدينة الرملة ، وهو الجب المعروف بجب العزيزة ، الذى أقيم فى سنة ١٧٢هـ فى عهد الخليفة العباسى هارون الرشيد [١] .

كذلك اهتم الأغالبة بانشاء القناطر على الوديان وعجارى المياه لعبور السابلة والمسافرين إلى الطرق المؤدية إلى القيروان . ويؤثر عن زيادة الله ابن ابراهيم أنه بنى قنطرة أبي الربيع [٢] ، وتقع خارج باب أبي الربيع بجنوبى مدينة القيروان ، حيث يبدأ الشارع الرئيسى فى مدينة القيروان وهو الشارع المخصص لجميع المتاجر والصناعات[٣]. ولكن هذه القنطرة تثلمت على أثر سيل سنة ٢٤٢هـ ، فأمر الأمير أبو ابراهيم أحمد باصلاحها ، فكمل ذلك فى سنة ٢٤٨هـ [٤] .

---

(١) Marçais, l'architecture musulmane, p. 39 - Creswell, a short account, p. 330

(٢) ابن عذارى ، جـ ١ ص ١٢٨

(٣) البكرى ، ص ٢٠

(٤) ابن عذارى ، ص ١١٨

# الفصل السادس

## دولة الأدارسة بفاس

(١) قيام دولة الأدارسة

ا ـ ادريس بن عبد الله بن الحسن مؤسس دولة الأدارسة

ب ـ إمامة إدريس الثانى

(٢) خلفاء إدريس الثاني حتى سقوط فاس فى أيدى الفاطميين

ا ـ تقسيم دولة الأدارسة فى إمامة محمد بن إدريس

ب ـ خلفاء محمد بن إدريس

(٣) مدينة فاس حاضرة الأدارسة

أ ـ مشكلة تاريخ تأسيس فاس

ب ـ تاريخ مدينة فاس منذ تأسيسها حتى نهاية عصر بنى مرين

١ ـ فاس فى عصر الأدارسة

٢ ـ فاس فى عصر بنى موسى بن أبى العافية

٣ ـ سيطرة زناتة على فاس وموالاتها لخلفاء بنى أمية بقرطبة

٤ ـ فاس فى ظل دولتى المرابطين والموحدين

٥ ـ فاس عاصمة بنى مرين

# الفصل السادس

# دولة الأدارسة فى فاس

## ( ١ )

## قيام دولة الادارسة

**١ — ادريس بن عبد الله بن الحسن مؤسس دولة الأدارسة :**

فى سنة ١٤٥ هـ خرج محمد بن عبد الله بن الحسن بن حسن ( السبط ) بن على بن أبى طالب ، المعروف بالنفس الزكية ، فى الحجاز على أبى جعفر المنصور ، مطالبا بحقه فى الخلافة ، فأجمع أهل الحجاز على نصرته ، واستولى على المدينة (١) ، ثم تغلب على مكة ، وجرت بينه وبين المنصور رسائل طويلة فى أحقية كل منهما بالخلافة ، أوردها ابن الأثير (٢) ، والطبرى (٣) وابن خلدون (٤) . ثم بعث محمد أخاه ابراهيم إلى البصرة لنشر دعوة محمد ابن عبد الله بن الحسن فى العراق ، فتغلب ابراهيم على البصرة والاهواز وفارس (٥) . وكان محمد قد استعمل محمد بن الحسن بن معاوية بن عبد الله على مكة ، والقاسم بن اسحق على اليمن ، وموسى بن عبد الله على الشام . ولما بلغ

---

(١) ابن الأثير ، ج ٥ ، ص ٢ — ٨

(٢) نفس المرجع ، ص ٥ — ٧

(٣) الطبرى ، تاريخ الأمم والملوك ، طبعة القاهرة ١٣٢٦ هـ ، ج ٩ ص ٢١٢

(٤) ابن خلدون ، ج ٤ ص ٦ — ١٢

(٥) نفس المرجع ، ج ٤ ص ٦

المنصور خروج محمد بن عبد الله بن الحسن سير جيشا بقيادة أخيه عيسى ابن موسى إلى المدينة ، لمقاتلة محمد ، والقضاء على حركته . فخندق محمد بن عبد الله على نفسه فى المدينة ، ولكن أهل المدينة تخلوا عنه ، وبقى فى شرذمة قليلة من الناس ، وظل يقاتل جنود عيسى بن موسى حتى استشهد فى ١٤ رمضان سنة ١٤٥ هـ . وكان محمد بن عبد الله بن الحسن قد بعث إلى محمد بن الحسن ، عامله على مكة ، والقاسم بن إسحاق يأمرهما بالمسير إليه لنجدته فقدما ، ولكنهما علما فى نواحى قديد بمقتله ، فلحق محمد بن الحسن بإبراهيم بن عبد الله فى البصرة ، أما القاسم فقد اختفى فى المدينة حتى استؤمن ، وأما موسى بن الله فقد فشل فى دعوته بالشام ، وعاد إلى المدينة (١) ، وأما ابراهيم بن عبد الله فقد بادر الخليفة بمحاربته ، فاشتبك أنصاره مع جيش المنصور بقيادة عيسى بن موسى فى باخمرى ( بين الكوفة وواسط ) فى قتال عنيف ، انتهى بهزيمة ابراهيم ومقتله فى ٢٧ ذى القعدة سنة ١٤٥ (٢).

ولم تفت هذه الهزائم المتوالية فى عضد العلويين ، فقد أخذوا ينتظرون الفرصة المواتية للوثوب على الخلافة العباسية ، فلما توفى المنصور ، وآلت الخلافة العباسية إلى الهادى بن المهدى ، خرج العلويون بمكة والمدينة بزعامة الحسين بن على بن الحسن بن الحسن بن الحسن بن على ذى القعدة سنة ١٦٩ هـ بسبب سوء معاملة عمر بن عبد العزيز بن عبد الله بن عمر ، عامل المدينة من قبل الهادى لهم (٣). وبويع الحسين بالخلافة فى المدينة ، وأقام بها ١١ يوما ، ثم سار

---

(١) ابن الأثير ج ٥ ص ٢

(٢) نفس المرجع ص ٢٠ — البلاوى : الاستقصا ج ١ ص ١٥١

(٣) محمد بن على بن طباطبا : كتاب الفخرى فى الآداب السلطانية ، طبعة بيروت ١٩٦٠ ص ١٩٠ — ابن الأثير ج ٥ ص ٢٥ — البلاوى ج ١ ص ١٥١

إلى مكة ، فالتقى مع الجيش العباسى بقيادة سليمان بن المنصور بفخ ، وهو وادى فى طريق مكة ، يبعد عنها بنحو ستة أميال ، فانهزم العلويون هزيمة نكراء ، وقتل فى هذه الواقعة معظم أصحابه . وكان قد اشترك فى القتال مع الحسين عماه إدريس بن عبد الله بن الحسن ، ويحيى ، ونجح إدريس فى الإفلات مع المنهزمين من بنى حسن (١) ، فاستتر بعض الوقت ، وألح العباسيون فى طلبه ، « فخرج به راشد ، وكان عاقلا ، شجاعا ، أيدا ، ذا حزم ولطف ، فى جملة الحاج ، متحاشا من الناس ، بعد أن غير زيه ، وألبسه مدرعة وعمامة غليظة ، وصيره كالغلام يخدمه ، وإن أمره ونهاه أسرع فى ذلك ، فسلما حتى دخلا مصر ليلا » (٢) . ويختلف المؤرخون فى رواية الطريقة التى تمكن بواسطتها من الوصول إلى المغرب الأقصى سالما ، فالبكرى ذكر أنهما مرا فى مصر بدار مشيدة ، يدل ظاهرها على نعمة أهلها ويسارهم ، فجلسا فى دكان على باب الدار ، فرآهما صاحبها ، فعرفه من لهجتهما أنهما من الحجاز ، فأخذ عليه راشد موثقا أن يقوم بأحد أمرين : إما إيوائهما أو التستر عليهما ، ففعل ، فأخبره بخبر إدريس ، وقال له : « هذا إدريس بن عبد الله بن حسن بن حسن بن على بن أبى طالب ، خرج من موضعه مع حسين بن على ، فسلم من القتل ، وقد جئت به ، أريد ببلاد البربر ، فإنه بلد ناء لعله يؤمن فيه ، ويعجز من يطلبه » ، فأدخلهما الرجل واختبأ عنده فترة من الوقت إلى أن تهيأ لبعض أصحابه الخروج إلى إفريقية ، فاكترى لهما جملا ، وزودهما وكساهما ، واتفق معهما على أن يسير هو مع إدريس فى طريق غامضة غير طريق القوافل المارة بمسالح مصر ،

---

(١) ابن الأثير ، ج ٥ ص ٢٦ ـ ابن خلدون ، ج ٤ ص ١٣

(٢) البكرى ، ص ١١٨

خشية أن يكتشف أمر إدريس عند تفتيش المسافرين ، وبعض راشد مع الفتيان ، فيلتقيان في موضع قريب من إفريقية ، ورحل الرجل مع إدريس حتى حدود إفريقية ، ومن هناك اخترقا بلاد البربر حتى انتهيا إلى بلاد فاس وطنجة [1] أما بقية المؤرخين فيتفقون على أنهما نزلا بمصر ، وكان على بريدها واضح مولى صالح بن المنصور ، ويعرف واضح هذا بالمسكين ، وكان يتشيع لعلي ، وبلغه وصول إدريس إلى مصر ، فأتاه إلى الموضع الذي كان مستخفيا به ، وساعده على الفرار إلى المغرب ، فحمله على البريد إلى المغرب الأقصى هو ومولاه راشدا ، فنزلا بوليلي من أعمال طنجة [2] .

ونعتقد أن هذه الرواية الثانية أقرب إلى الحقيقة ، فرواتها ابن الأثير وابن خلدون أولى بالثقة ، وبدليل أن الهادي عندما بلغه الدور الذي قام به واضح أمر بضرب عنقه وصلبه [3] ، ثم أنه من المنطقي ألا يبوح راشد بسر إدريس في مصر إلا لرجل من دعاة الشيعة ، وأغلب الظن أنهما كانا يعرفان واضحا قبل ذلك فنزلا عنده ، وتحايل هو على مساعدتهما في النجاة إلى أرض المغرب .

ويذكر ابن أبي زرع أن إدريس ومولاه راشدا وصلا إلى القيروان [4] ، فأقاما بها فترة من الوقت ثم خرجا إلى المغرب الأقصى ، وقصد إدريس

---

(١) المرجع السابق ، ص ١١٩

(٢) ابن عذارى ، جـ١ ص ١٠٩ — ابن الأثير ، جـ ٥ ص ٢٦ — ابن خلدون ، ص ٢٤ — البلوناوي ص ٩ — الاستبصار ، جـ ١ ص ١٠٢ .

(٣) ابن الأثير ، جـ ٥ ص ٢٦

(٤) اتفق وصول لإدريس الى افريقية في ولاية يزيد بن حاتم .

حين خرج من القيروان فأليسه مدرعة صوف خشنة ، وعمامة غليظة وصيره كالخادم له ، يأمره وينهاه ، كل ذلك خوفا عليه وحياطة له ، فلم يزالا على ذلك حتى وصلا إلى مدينة تلمسان ، فاستراحا بها أياما ، ثم ارتحلا عنها نحو بلاد طنجة . فسارا حتى مرا وادي ملوية ، ودخلا بلاد السوس الأدنى وحده من وادي ملوية إلى وادي أم الربيع ، وهو أخصب بلاد المغرب ، وأعظمها بركة ، والسوس الأقصى من جبل درن إلى وادي النون ، فسار إدريس ومولاه راشد حتى نزلا بمدينة طنجة ، وهي يومئذ قاعدة بلاد المغرب ، وأم مدنه ، إذ لم يكن بالمغرب مدينة أعظم ولا أقدم منها فلما وصل إدريس إلى مدينة طنجة أقام بها أياما ، فلم يجد بها مراده ، فرجع مع مولاه راشد حتى نزل مدينة وليلي قاعدة جبل زرهون [١] .

نزل إدريس مدينة وليلي في غرة ربيع الأول سنة ١٧٢هـ ، فنزل على إسحق ابن محمد الله الأزدي ، أمير أوربة وكبيرهم في هذا الوقت ، فأجاره وأكرمه فأقام عنده زهاء ستة أشهر تمكن خلالها من نشر دعوته . وتمكن بفضل فصاحة لسانه وبلاغته من التأثير في نفوس البربر ، خاصة بعد أن عرفوا قرابته من الرسول ، فاجتمعت عليه قبائل أوربة ومغيلة وصدينة ، وبيعته قبائل زناته وهي زواوة لواتة وسدراته ونفزة ومكناسة وغمارة ، وبايعوه بالإمامة ، وتمكن إدريس من تأليف جيش كبير غزا به بلاد تامسنا ، فافتتح شالة وسائر حصون تامسنا ، حتى وصل إلى تادلا ، فافتتح حصونها ، ثم بلغ ماسة (٢) . وكان أكثر سكان هذه البلاد على دين

---

(١) Lévi - Provençal, Extraits des historiens arabes du Maroc, Paris, 1948, p. 16, 17

(٢) الجزنائي ، ص ٩

النصرانية واليهودية والمجوسية، ولم يكن الإسلام قد انتشر بعد في أنحائها(١) وعاد إدريس بعد هذه الغزوة إلى وليلي في ذي الحجة سنة ١٧٢ هـ فأراح عسكره، في شهر محرم ١٧٣ هـ، ثم خرج للغزو مرة ثانية، فغزا حصون فندلاوة وحصون مديونة وبهلولة، وقلاع غياثة وبلاد فازاز، ثم عاد بعد ذلك إلى وليلي فدخلها في منتصف جمادى الآخرة سنة ١٧٣ (٢) هـ. وأقام بوليلي بقية شهر جمادى الآخرة، ونصف رجب التالي، ريثما استراح جنده ثم خرج في منتصف رجب برسم غزو مدينة تلمسان، ومحاربة من بها من قبائل مغراوة وبني يفرن الخوارج، فحاصرها، فخرج إليه صاحبها محمد ابن خزر الزناتي مستأمنا وبايعه، وبايعته قبائل البربر، فقبل إدريس بيعتهم ودخل تلمسان، وبنى فيها مسجدا، ثم عاد إلى وليلي (٣).

وعلى هذا النحو تمكن إدريس من إقامة إمارة قوية بالمغرب الأقصى، واتصل بالرشيد ما بلغه إدريس في المغرب من دخول البربر في طاعته وانتزاعه مدن المغرب الأقصى بسيفه، وأبلغ بعزمه وقوته، فعظم عليه الأمر، وخاف أن يقضي الإدارسة بفضل دعوتهم على النفوذ العباسي في إفريقية وطرابلس، كما خاف أن يمتد نفوذهم إلى مصر، ولا شك أن استطاع إدريس بن عبدالله بن الحسن لسياسة الغزو المسلح في نواحي تامسنا وتادلا وتلمسان، يعبر عن رغبته في التوسع وبسط نفوذه على المغرب كله. وكان لذلك صدى عميق في المشرق الإسلامي، وأصبح الخليفة العباسي قلقا

---

(١) ابن الخطيب، ص ١٩٢ — ابن خلدون، ج ٤ ص ٢٥ — الزياني ص ٩٠

(٢) السلاوي ج ١ ص ١٠٩

(٣) ابن خلدون ج ٤ ص ٢٥ — ابن الخطيب، أعمال الأعلام، القسم الثالث ص ١٩٢ — السلاوي ج ١ ص ١٠٢

على معسكر المغرب الإسلامى ومصر [1] ، فتفكر فى اللجوء إلى السيف فى القضاء على الدولة الإدريسية الناشئة ، ولكن الأمر لم يكن من السهل على الخلافة إلى هذا الحد ، فالنفوذ العباسى الفعلى لم يكن يتجاوز حدود مصر الغربية ، فاضطر الرشيد إلى استشارة يحيى بن خالد البرمكى ، فأشار عليه بأمر إدريس ، واستشاره فيـــه ، وقال له : إنه ولد على بن أبى طالب ، وابن فاطمة بنت النبى صلعم وقد قوى سلطانه ، وكثرت جيوشه وعلا شأنه . واشتهر أمره واسمه ، وفسيح مدينة تلمسان ، وهو باب إفريقية ، ومن ملك الباب يوشك أن يدخل الدار ، وقد عزمت على أن أبعث لمحيثا عظيما لقتاله ، ثم إنى فكرت فى بعد البلاد ، وطول المسافة ، وتنائى المغرب عن المشرق ، ولا طاقة لجيوش العراق على الوصول إلى الموس من أرض المغرب فرجعت عن ذلك ، وقد هالنى أمره ، فأشر على برأيك فيه (٢) ، فأشار عليه يحيى بأن يبعث إلى إدريس رجلا تتوفر فيه صفات الذكاء والمكر والدهاء مع البلاغة والجرأة ليغتاله ، ووقع اختيار يحيى على سليمان بن جرير (٣) ، وقيل سليمان بن جدير (٤) ، وقيل سليمان ابن حرير (٥) ويعرف بالشماخ (٦) وكان هذا الرجل من أهل

---

(١) ذكر صاحب روض القرطاس ، أن الرشيد آثر بعزم ادريس ، على غزو افريقية فخاف أن يعظم أمره ، فيصل اليه ، لما يعلم من فضله وكماله ، وعبة الناس فى أهل بيت النبى صلى الله عليه وسلم ، فاغتم لذلك غما شديدا ، وعظم عليه شأنه .

( أنظر نص روض القرطاس فى Lévi - Provençal , Extraits des historiens arabes, p. 18

(٢) نفس المرجع

(٣) نفس المرجع ـ الجزنائى ، ص ٩٠

(٤) ابن الخطيب ، المرجع السابق ، ص ١٩٣

(٥) البكرى ص ١٢٠ ـ ابن خلدون ص ٢٥

(٦) ابن عذارى ، جـ ١ ، ص ٢٩٩

الشجاعة والدهاء والفصاحة ، وأخبره بحبي بالمهمة التي يعهد إليه بها ، ووعده برفعة المنزلة ، والصلات السنية ، وأعطاه أموالا جزيلة ، وتحفا مستطرفة ، وجهزه بما يحتاج إليه ، وأعطاه قارورة فيها غالية مسمومة ، ثم وجه معه رجلا يثق به وبشجاعته . فانطلق سليمان مع صاحبه من بغداد ، وهو يتظاهر بالطب ، وما زال يجد في السفر حتى وصل إلى وليلي . فاتصل بإدريس ، فسأله عن اسمه ونسبه ووطنه وسبب قدومه إلى المغرب ، فذكر له أنه من بعض موالي أبيه ، وأنه اتصل به خبرة ، فأتاه برسم خدمته ، بسبب محبته لأهل البيت ، فأنس إليه إدريس ، وسر به ، واتخذه صاحبا وطبيبا ، لا يجلس إلا معه ، ولا يأكل إلا إذا أكل معه ، إذ كان إدريس في هذا البلد البربري ، يحن إلى مجالسة العرب ومحادثتهم ، وكان سليمان هذا قد أبدى من العلم والأدب والبلاغة والجدال ما يجعل إدريس يرفعه إلى تلك المنزلة (١) ، وأخذ سليمان الشماخ يترصد فرصة لاغتيال إدريس بالسم ، فلم تهيأ له ذلك ، إذ كان راشد لا يزايله ولا يفارقه ، وظل سليمان منتظرا إلى أن واتته الفرصة أخيرا بغياب راشد ذات يوم في بعض شؤونه ، فدخل سليمان على جرير على المولى إدريس ، فألفاه وحده ، وقد جلس بين يديه على عادته ، فتحدث معه طويلا ، فلم ير راشدا أثرا ، فانتهز الفرصة واغتنم الخلوة فقال : ياسيدي جعلت فداك ، إني جئت من المشرق بقارورة طيب أتطيب بها ، ثم إني رأيت هذه البلاد ليس بها طيب ، فرأيت أن الإمام أولى بها من غيره فخذها تطيب بها ، فقد آثرتك على نفسي ، وهو من بعض ما يجب لك علي ، ثم أخرجها

---

(١) ابن الخطيب ، ص ١٩٣ — ابن أبي زرع من كتاب Extrait des historiens ص ٩٦ — الزياني ، ٩٠

من وعاء ، ووضعها بين يديه ، فشكر إدريس على ذلك ، ثم أخذ الفاروزة وشمها ، وتحصل بمرائه منه ، فمدت حيلته فيه ، وجعل يده في الأرض ، وخرج كأنه يريد قضاء حاجة الإنسان ، فسار إلى منزله ، وركب فرسا له من عتاق الخيل وسابقها ، كان قد أعدها لذلك . وخرج من مدينة وليلى بطلب النجاة ، وكانت الفاروزة مسمومة ، فلما انتشق إدريس الطيب صعد السم في خيشومه ، وانتهى إلى دماغه ، فغشي عليه ، وسقط بالأرض على وجهه ، لا يفهم ولا يعقل ، ولا يعلم أحد ما به ولا ما أصابه »[1] . وقضى إدريس في غشيته إلى عشي النهار ، فتوفي في مستهل ربيع الآخر من سنة ١٧٧ هـ[2] ، وقيل في سنة ١٧٥ هـ[3] . وانتبه راشد مولى إدريس إلى غياب الشماخ ، فعلم أنه سمه ، وكان سليمان الشماخ وصاحبه قد قطعا على فرسيهما أثناء ذلك مسافة طويلة ، فركب راشد في طلبه مع جماعة من أصحابه حتى أدركه بوادي مـــلوية ، فضربه بسيفه ضربتين قطع بهما يده ، ولكنه لم يستطع أن يجهز عليه ، إذ كبا به فرسه ، ونجح الشماخ في عبور الوادي واحتمى في البربر[4] . فأمن الشماخ من مطاردة راشد ، وعصب جراحه ، ووصل إلى بغـــداد[5] . فولاه الرشيد على بريد مصر[6] .

---

(١) نص للقرطاسي من كتاب : Extraits des historiens, p. 30

(٢) نفس المرجع ـ الاستبصار ج ١ ص ١٠٦

(٣) البكري ، ص ١٢١ ـ ابن عذاري ج ١ ص ٢٩٩ ـ ابن الأثير ، ج ٥ ص ٩٠ ـ ابن خلدون ، ج ٤ ص ٢٠ ـ القلقشندي ، ج ٥ ص ١٨٠ ـ الجزنائي ، ص ١١

(٤) ابن خلدون ، ج ٤ ص ٢٠

(٥) البكري ، ص ١٢١ ـ ابن عذاري ، ص ٢٩٩ ـ ابن الخطيب ، ص ١٩٥ ـ الناصري ج ١ ص ١٥٩ .

(٦) البكري ، ص ١٢١

وذكر بعض المؤرخين أنه سمه بوضع ذرور مسموم في سن له موجوعة ، وقيل أنه سمه في حلاوة (١) .

ودفن إدريس بخارج باب وليلى ، في صحن رابطة ليتبرك الناس بقربه (٢) .

ب ـ إمامة ادريس الثاني :

توفي إدريس بن عبد الله دون ولد ، ولكنه ترك جارية له من جاريانه اسمها كنزة حاملا في السابع من أشهر حملها ، فجمع راشد قبائل البربر ، وذكر لهم ، ما كان من أمر هذه الجارية ، فقالوا له : « أيها الشيخ المبارك نقوم بأمرنا كما كان إدريس يفعل فينا حتى تضع الجارية ، فان وضعت غلاما ربيناه وبايعناه تبركا بأهل البيت بيت النبوة وذرية رسول الله ﷺ ، وإن كانت جارية نظرنا لأنفسنا (٣) . فقام راشد بأمرهم حتى وضعت كنزة في ربيع الآخر سنة ١٧٧هـ (٤) ، وكان غلاما أشبه الناس بأبيه إدريس ، فأخرجه راشد إلى رؤساء البربر فأعجبوا من شبه الكبير بأبيه ، فقالوا : وهذا إدريس كأنه إدريس (٥) ، فسمي لذلك باسم أبيه ، وقام راشد مولاه بأمره ، وكفله الى أن غلظ وشب ، فأحسن تأديبه ، وأقرأه القرآن ، وأحفظه إياه ، ولم يجاوز إدريس من العمر بعد ثمان سنوات ، تم عليه السنة والفقه وأشعار العرب وأيامهم ، وسير الملوك ، ثم دربه على ركوب الخيل ،

---

(١) البكري ، ص ١٢١ ـ ابن الخطيب ، ص ١٩٤

(٢) الجزنائي ، ص ١١ ـ السلاوي ، ج ١ ص ١٥٩

(٣) ابن الخطيب ، ١٩٦ ـ السلاوي ، ج ١ ص ١٦٠

(٤) البكري ، ص ١٢٢ ـ ابن الخطيب ، ص ١٩٦

(٥) ابن الخطيب ، ص ١٩٦ ـ السلاوي م ١ ص ١٦٠

والمصاولة والمجاولة ، وإحكام الرماية بالسهام (١) . ولما تم إدريس عن العمر عشر سنوات ، جدد له راشد البيعة ، بجامع وليلى فى أول شهر ربيع الأول سنة ١٨٦ هـ . ويذكر ابن خلدون أن ابراهيم بن الأغلب صرف همه إلى تمهيد المغرب الأقصى ، إذ ساءه استفحال أمر إدريس براشد . فلم يزل يدس الى البربر ، ويضرب فيهم الأموال ويستميلهم حتى قطوا راشدا ، وسيق رأسه اليه (٢) ، وذلك سنة ١٨٦ هـ. وفى ذلك يقول ابراهيم ابن الأغلب يخاطب الرشيد ، ويكذب ادعاء محمد بن مقاتل العكى الذى نسب الى نفسه محاولة قتل راشد :

ألم ترنى أهلكت بالكيد راشدا
وإنى لأخرى لابن إدريس راصد
وناء أخوعك بعهلك راشد
وقد كنت فيه ساهرا وهو راقد (٣)

ويجمع معظم المصادر أنه قام بكفالة إدريس بعد مقتل راشد رجل اسمه أبو خالد يزيد بن إلياس العبدى (٤). وذكر البكرى أنه جدد لإدريس

---

(١) المرجع السابق ، الجزنائى ، ص ١٢٣

(٢) ابن خلدون ، ج ٤ ص ٢٥ ، ١٢٠

(٣) ابن الخطيب ، ١٩٢ — وأورد السلاوى نصا آخر لهذه الأبيات نقله عن عبد الملك ابن الوراق نصها :

ألم ترنى بالكيد أردت راشدا — وانى لأخرى لابن ادريس راصد
ثناوله عمرى على عهد داره — بحنوة يبغى بها من يكايد
فناء أبو عبك يقتل راشد — وقد كنت فيه شاهدا وهو راقد

(٤) البكرى ، ص ١٢٢

البيعة في ٧ ربيع الاول سنة ١٨٧ هـ (١) . وهو ابن إحـــدى عشر سنة . وبايعه جميع القبائل من زناتة ، وأوربة وصنهاجة وغمارة وسائر قبـائل البربر ، فاستقام له الامر بالمغرب الاقصى وتوطد ملكه ، وعظم سلطانه ، وقوى عسكره ، ووفد إليه الناس من سائر البلدان (٢) ، وكان ممن وفد عليه نحو ٥٠٠ فارس من إفريقية والأندلس ، من القيسية والأزد والخزرج ومدلج وبني يحصب ، فسر إدريس بوفادتهم عليه ، وتزوجهم إلى بلاده ، وأجزل صلاتهم ، وقربهم منه ، وجعلهم بطانته (٣) ، واستوزر منهم عمير ابن مصعب الازدي الملقب بالملجوم (٤) .

ولما رأى ابراهيم بن الأغلب عظم قوة إدريس استمال إليه كبير أوربة أبا ليلى اسحق بن محمد الأوربي ، ويبدو أن إدريس تبين له ميل اسحق لابن الأغلب، فقتله في ٦ من ذي الحجة سنة ١٩٢ هـ (٥) . وكثرت حاشية إدريس وأنصاره ، وضاقت وليلي بهم ، وبمن وفد عليه من العرب والبربر ، فأسس لهم وبعض القرويين من مدينة فاس في سنة ١٩٣ (٦) هـ ، وانتقل من عدوة الأندلسيين إلى الموضع المعروف بالقرمدة من عدوة القرويين حيث بنى دار القيطون ، وبنى بجوارها بجامع الشرفاء (٧) .

---

(١) المرجع السابق — ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٩٩ — ابن خلدون ، ج ٤ ص ٢٦

(٢) البزناني ، ص ١٣

(٣) ابن خلدون ، ج ٤ ص ٢٦ — البزناني ، ص ١٣

(٤) ابن خلدون ، ص ٢٩ — البزناني ، ص ١٣ — السلاوي ، ١٦٣

(٥) البكري ، ص ١٢٣ — إبن خلدون ، ص ٢٦

(٦) البكري ، ص ١٢٣ — ابن عذارى ، ص ٢٩٩ — ابن خلدون ، ص ٢٦

(٧) ابن الخطيب ، ص ٢٠٩ — البزناني ، ص ٢٠٩

استقام الأمر لإدريس بفاس ، فأقام بها حتى سنة ١٩٧ هـ ، ثم عزم على غزو قبائل البربر الوثنيين فى نفيس وبلاد المصامدة ، فخرج على رأس جيش كثيف ، واستولى على مدينة نفيس ومدينة أغمات ، وفتح سائر بلاد المصامدة ، وعاد إلى فاس ، فأقام بها إلى شهر محرم من سنة ١٩٩ هـ ثم خرج إلى غزو قبيلة غزة بتلمسان ، ففتحها وأصلح أسوارها ، ورمم جامعها بالكاذير ( أخاذير ) وأقام له منبرا . وظل مقيما بتلمسان ثلاث سنوات (١) ، ثم عاد إلى فاس فى شهر محرم (٢) سنة ٢٠٢ هـ . واستقبل فيها فوجا كبيرا من ثوار الربض بقرطبة الذين طردهم الأمير الحكم الربضى عقب واقعة الربض ، فسمح لهم إدريس بالإقامة فى عدوة الأندلس (٣) .

وكان إدريس قد أبدى فى محاربة الصفرية من البربر فى تلمسان ما أثار إعجاب رجاله ، ويذكر البكرى أن داود بن القاسم بن اسحق بن عبد الله ابن جعفر قال : « كنت مع إدريس بن إدريس فى المغرب ، فخرجت معه يوما الى قتال الخوارج . فلقيناهم وهم فى ثلاثة أضعاف عددنا ، فقاتلناهم قتالا شديدا ، فأعجبنى إدريس ذلك اليوم ، وجعلت أديم النظر اليه ، فقال : ويحك ، لم توالى النظر الى ، قلت لخصال ، أما أولها فانك تبصق بصاقا

---

(١) ابن خلدون ، جـ ٤ ص ٢٧ . وأقام ادريس لجامع أبيه بتلمسان منبرا شاهده عبد الملك بن الوراق فى سنة ٥٠٠ هـ ، ورآى فى رأس المنبر ألواحا من بقية المنبر القديم مكسرة هناك ، وقد كتب عليها : « هذا ما أمر به الامام ادريس بن ادريس بن عبد الله بن حسن ابن الحسن بن على بن أبى طالب رضى الله عنه ، فى شهر محرم سنة تسع وتسعين ومائة » (البيزانى ، ص ٢٢)

(٢) ابن عذارى ، ص ٢٦٩ — ابن خلدون ، جـ ٤ ص ٢٢ — البيزانى ، ص ٢٢ — السلاوى ، ص ١٦٦

(٣) ليفى بروفنسال ، الاسلام فى المغرب والاندلس ، ص ١٠

عجبتما وأنا أطلب قليل ماء أبل به حلقي فلا أجده ، قال : ذلك لاجتماع قلبي وذهاب بصاقك لذهاب عقلك ، قال ، قلت : والثانية ، لما أرى من منتك قال ان النبي ﷺ صلى علينا ، قلت : والثالثة ، لما أرى من حركتك وقلة قرارك على الدابة . قال : ذلك زعم الى القتال فلا تحسه رعبا »(١).

ويبدو أن إدريس اتخذ له بالاضافة الى وزيره عمير بن مصعب وزيرا من البربر اسمه بهلول بن عبد الواحد المغراوي ، وكان بهلول هذا من أركان دولته ، فلما أخضع إدريس خوارج المغرب الاوسط لطاعته ، وامتد نفوذه حتى شلف ، أصبح يهدد قلعة العباسيين بافريقية ، فاضطر ابن الأغلب الى أن يدافع عن حماه ، فأخذ يلاطف بهلول ويستميله إليه بالكتب والهدايا حتى « انحرف عن دعوة الادارسة إلى دعوة العباسية »، ونجح ابن الاغلب في استمالة بهلول بمن معه من قومه ، فوفد عليه بالقيروان ، واستوزر إدريس بالبربر ، فصالح ابن الأغلب (٢) . ولعل ذلك كان سببا في استكثار إدريس من العرب في دولته ، وانتقاله من وليلي إلى فاس ، وأقام إدريس بعد ذلك في فاس حتى توفي في أول شهر ربيع الأول سنة ٢١٣ هـ ، وكان سبب وفاته أنه أكل عنبا ، فغص بحبة منه ، فلم يزل مفتوح الفم سائل اللعاب حتى مات (٣) . وقيل أنه توفي مسموما (٤) ، ودفن على

---

(١) البكري ، ص ١٢٣ — ابن الخطيب ، ص ١٩٨ — الناصري ، ١٦٨

(٢) ابن خلدون ، ج ٤ ص ٢٢ ، ٢٣٠ — ابن الخطيب ، ص ١٤

(٣) البكري ، ص ١٢٣ — ابن الخطيب ، ص ٢٠٢ — الجزنائي ، ص ٢٣

(٤) ابن عذاري ، ص ٢٦٦

حد قول المؤرخين في مدينة وليلي (١) . وذكر بعضهم أنه دفن بفاس في مسجد الشرفاء ، إزاء الجدار الشرقي منه ، وقد أنشأ في ذلك بعض الشعراء :

منازل أهل الله آل رسوله
فاحبب بهم أهلا وأحبب بهم مغنى

مدينة إدريس بن إدريس التي
بها قبره نار وقبره مبني (٢)

---

(١) البكري ، ص ١١٥ — ابن الخطيب ، ص ٢٠١ — السلاوي ، ج ١ ص ١٧١

(٢) البلوانسي ، ص ٢٢ — السلاوي ، ص ١٧١

## ( ٢ )

## خلفاء ادريس الثانى حتى سقوط فاس فى أيدى الفاطميين

### ١ ـ تقسيم دولة الادارسة فى أيام محمد ابن ادريس :

لما توفى إدريس خلفه على الإمامة ابنه محمد، بعهد من أبيه إليه، وأوصته جدته كنزة أن يشرك إخوته معه فى سلطانه، فيقسم دولته إلى أعمال يتولاها إخوته، فولى أخاه القاسم سبتة وطنجة وقلعة حجر النسر وبكرة وتيطاون، وما يلحق بهذه المدن من بلاد وقبائل، واختص أخاه عمرا ببلاد صنهاجة الهبط وغمارة، وولى داود بلاد هوارة، وتسول، وتازى وما بينهما من القبائل مكناسة وفازاز. أما عبد الله، فولاه أغمات وبلاد نفيس، وجبال الصامدة، وبلاد لمطة والسوس الأقصى. وولى يحيى على أصيلا والعرائش وبلاد زواغة، وخص عيسى بشالة، وسلا، وآزمور، وتامسنا، وبرغواطة وما إلى ذلك. وخص أحمد بمدينة مكناسة، ومدينة تادلا، وما بينهما من بلاد فازاز. وولى حمزة على وليلى وأعمالها، وأبى تلمسان لابن عمه سليمان بن عبد الله، أما الباقون فقد أبقاهم فى كفالة جدته كنزة، لصغر أعمارهم عن الولاية، أما هو فاكتفى بحاضرته فاس (١). وأقام محمد بن إدريس بفاس عاصمة مملكته، ولكن عيسى لم يلبث أن ثار بشالة، وشق عصا الطاعة على محمد طالبا الأمر لنفسه، فكتب محمد إلى أخيه القاسم صاحب طنجة، يأمره بمحاربة عيسى، ولكن القاسم امتنع عن ذلك،

---

(١) البكرى، ص ١٢٤ ـ ابن عذارى، ج ١ ص ٢٠٠ ـ ابن خلدون، ج ٤ ص ٢٢، ٢٨ ـ ابن الخطيب، ص ٢٠٤ ـ السلاوى، ج ١ ص ١٢٢

وخالف أمر أخيه الإمام محمد ، فاضطر هذا إلى أن يكتب إلى أخيه عمر صاحب صنهاجة وغمارة . فامتثل لأمره ، وسارع إلى نصرته ، إذ كان على خلاف مع أخيه عيسى ، وزحف إلى عيسى في جنود هائلة من بربر صنهاجة وغمارة ، وأمده أخوه محمد بألف فارس من قبيلة زناتة، واشتبكت قوات عمر مع قوات عيسى وهزمتها ، وكتب عمر إلى الإمام محمد بهذا الانتصار ، فولاه على ما فتحه من أعمال عيسى ، وأمره بالسير لمحاربة القاسم ، فزحف عمر إلى القاسم ، ونزل عليه بظاهر طنجة ، ثامت الحرب بينهما ، فانتصر عمر ، واستولى على طنجة وسائر أعمال القاسم ، وأصبح الريف البحري كله تابعا لعمر من بلاد غمارة إلى سبتة وطنجة في منطقة البحر المتوسط ، ثم إلى أصيلا وسلا وأزمور وبلاد تامسنا ، وكلها بلاد مطلة على المحيط (١) . أما القاسم فقد سار إلى ساحل البحر حتى بلغ أصيلا ، فاتخذ هنالك مسجدا ورباطا ، ما زال قائما بالقرب من الحدارت ، ورابط فيه ، وزهد في الدنيا ، إلى أن توفي هنالك .

واتسعت ولاية عمر بما انضم إليه من عمل أخويه عيسى والقاسم ، وأخلص عمر للإمام محمد ، إلى أن توفي في ٢٢٠ هـ ببلاد صنهاجة في موضع يقال له فج الفرس ، وكان منية له ، فحمل إلى فاس ، ودفن فيها مع أبيه . وخلفه على عمله ابنه علي بن عمر (٢) . وعمر هذا هو جد بني حمود الذين تلقبوا بالخلافة في الأندلس في عصر ملوك الطوائف .

---

(١) ابن خلدون ، ج ٤ ص ٢٨ — الناصري ، ج ١ ص ١٢٣

(٢) ابن عذاري ، ج ١ ص ٢٠٠ — ابن خلدون ، ج ٤ ص ٢٨ ، ٢٩ — ابن الخطيب ، ص ٢٠٦ — الناصري ، ج ١ ص ١٢٤

ولم يطل العهد بالإمام محمد ، إذ مرض ، ثم توفي بعد سبعة أشهر من وفاة أخيه عمر في سنة ٢٦١ هـ ، ودفن بشرقي جامع الشرفاء بفاس .

ب ـ خلافة محمد بن ادريس :

كان الإمام عمر قد استخلف ابنه عليا الملقب بحيدرة أثناء مرضه، وكان على لا يجاوز عمره تسع سنوات ، فقام بأمره « الأولياء والحاشية من العرب وأوربة وسائر البربر وصنائع الدولة »(١) ، وبايعوه بالإمامة وهو غلام ، فسار سيرة أهل العدل والفضل والدين ، وتمتع الناس في عهده بالأمن والدعة ، ثم توفي في رجب سنة ٢٧٤ هـ ، وعهد بالأمر من بعده إلى أخيه يحيى بن محمد (٢).

تولى يحيى بن محمد الامامة بعد وفاة أخيه ، وشهدت فاس في عصره القصير ازدهارا في العمران ، وفي ذلك يقول ابن خلدون : « واستجدت فاس في العمران ، وجليت بها الحامات والفنادق للتجار ، وبليت الأرباض ، ورحل اليها الناس من الثغور القاصية » (٣) . وفي عهده أسست أم البنين فاطمة بنت محمد الفهري المسجد الجامع بعدوة القرويين بفاس . وتوفي يحيى بن محمد في تاريخ غير معروف . وخلفه ابنه يحيى بن يحيى ، وكان ماجنا معجبا بالشراب ، مجبا بالنساء ، فأساء السيرة ، وخالف طريق سلفه ، وذكروا أنه دخل يوما الحمام للقصور على النساء ، بسبب امرأة جميلة من

---

(١) ابن خلدون ، ج ٤ ، ص ٢٩

(٢) نفس المرجع ـ ابن الخطيب ، ص ٢٠٧ ـ السلاوي ، ج ١ ص ١٧٥

(٣) نفس المرجع

البهود [1]، يقال لها حنة [2]، وراودها على نفسها، فنفر عليه أهل فاس، وثارت به العامة، وعلى رأسهم عبد الرحمن بن أبي سهل الهذاني، فأخرجوه من عدوة القرويين إلى عدوة الأندلسيين، وأبت زوجته مانكة بنت علي ابن عمر بن إدريس أن تخرج معه إلى عدوة الأندلسيين [3]. أما يحيى فقد توارى بهذه العدوة ليلتين، ثم توفي أسفا.

وبلغ خبر وفاته عليا بن عمر صاحب الريف، واستدعاه أهل الدولة من العرب والبربر وتوالى، فقدم إلى فاس ودخلها، وبايعه أهلها بالإمامة [4]، وخطب له بمنابر أعمال المغرب، وانتقلت الإمامة على هـذا النحو من بني محمد بن إدريس إلى بني عمر بن إدريس، واستقام الأمر لعلي بن عمر، إلى أن ثار عليه عبد الرزاق الفهري الخارجي الصفري، وزحف إليه من جبل مديونة الواقع قبلي فاس، ودارت بينه وبين علي بن عمر مواقع حربية، انتهت بهزيمة علي وفراره إلى بلاد أوربة، واستولى عبد الرزاق على عدوة الأندلسيين. ولكنه لم يتمكن من الاستيلاء على عدوة القرويين، وبعث أهالي عدوة القرويين إلى يحيى بن القاسم المعروف بالعدام، فولوه عليهم، فلم يزل بها حتى قتله ربيع بن سليمان سنة ٢٩٢ هـ [5]. وقد تمكن يحيى هذا من التغلب على عبد الرزاق، وإخراجه من عدوة

---

(١) البكري، ص ١٢٤ — ابن عذاري، ج ١ ص ٢٠٠ — ابن الخطيب، ص ٢٠٢ — السلاوي، ج ١ ص ١٧٨

(٢) البكري، ص ١٢٤

(٣) نفس المرجع، ص ١٢٥

(٤) ابن خلدون، ج ٤ ص ٣٠

(٥) البكري، ١٢٥ — ابن عذاري، ج ١ ص ٢٠١ — ابن خلدون، ج ٤ ص ٣٠

الأندلسيين ، واستعمل عليها ثعلبة بن عارب بن عبد الله الأزدي ، من أهل قرطبة بقرطبة الذين جاءوا إلى فاس ، واستقروا ببدوة الأندلسيين . ولما توفي ثعلبة استعمل مكانه ابنه عبد الله بن ثعلبة المعروف بعبود ، ثم استعمل بعد وفاة عبد الله والده عارب بن عبود [1] .

ولما قتل يحيى بن القاسم خلفه يحيى بن إدريس بن عمر بن إدريس سنة ٢٩٧ هـ ، فبايعه أهل فاس في العدوتين ، وخطب له فيهما ، وفي سائر دولة الأدارسة . وكان يحيى هذا على حد قول ابن خلدون « أعلى بني إدريس ملكا ، وأعظمهم سلطانا ، وكان فقيها عارفا بالحديث ، ولم يبلغ أحد من الأدارسة مبلغه في السلطان والدولة » [2] .

ولم يزل يحيى قائما بأمر دولة الأدارسة ، حتى قدم مصالة بن حبوس الكتامي ، قائد عبيد الله المهدي سنة ٣٠٥ هـ ، فخرج إليه يحيى بن إدريس مدافعه بجموع من بربر أوربة وسائر القبائل ، والتقوا على مكناسة الزيتون ، فانهزم يحيى هزيمة نكراء ، ورجع مفلولا إلى فاس ، وحاصره فيها مصالة ، فصالحه يحيى على مال يؤديه إليه ، ودخل في بيعة عبيد الله الشيعي ، ورحل عنهم مصالة إلى إفريقية في سنة ٣٠٧ هـ ، بعد أن أقام موسى بن أبي العافية الكتامي أميرا على تمسول وبلاد نازي ، وترك يحيى أميرا على فاس . وكانت بين يحيى وموسى عداوة قديمة ، فلما عاد مصالة إلى المغرب الأقصى في غزوته الثانية في سنة ٣٠٩ هـ ، سعى ابن أبي العافية بيحيى بن إدريس عنده ، حتى ضاق مصالة بيحيى ، وعزم على القبض عليه ،

---

(١) ابن خلدون ، ج ٤ ص ٣٩ ـ ابن الخطيب ، ص ٢٠٩ ـ السلاوي ، ج ١ ص ١٨٠

(٢) ابن خلدون ، ج ٤ ص ٣٩

فلما قرب معصالة من فاس ، خرج إليه يحيى مسلما فى جملة من عسكره ، فقبض عليه معصالة ، وكبل يحيى بالأغلال ، وأدخله المدينة ، واستصفى أمواله ، ثم أطلقه ، فخرجه يحيى إلى ناحية أصيلا والريف ، وكانت محل ذوى قرباه (١) . أما فاس ، فقد أقام عليها معصالة ريحانا الكتامى من كبار قواده ، ورحل بعد ذلك إلى إفريقية . أما يحيى ، فقد تمكن موسى بن أبى العافية من اعتقاله وسجنه عشرين سنة بمدينة لكاى ، ثم أطلقه بعد ذلك ، فرحل إلى المهدية سنة ٣٣٩ هـ (٢) ، حيث توفى بها بجوما أثناء حصار أبى يزيد بن كيداد اليفرنى للمهدية فى سنة ٣٣٢ هـ (٣) .

أما فاس ، فقد ثار بها حسن بن محمد بن القاسم بن إدريس المعروف بالحجام بعد ثلاثة أشهر من ولاية ريحان فى سنة ٣٠٩ هـ ، فقدم إلى فاس فى جنود كثيفة من شيعته ، وأنصاره ، فباغت أهلها ، واستولى عليها ، ونفى ريحانا منها ، وملكها عامين ، ثم قام بينه وبين موسى بن أبى العافية خلاف ، فزحف الحسن إلى موسى فى سنة ٣١١ هـ ، واشتبك معه فى قتال شديد ، على مقربة من وادى المطاحن ، بين فاس وتازى ، انتهى بهزيمة موسى بن أبى العافية ، وقتل من رجاله أكثر من ألفين ، من جملتهم ابنه منهل (٤) . ولكن ابن خلدون يذكر أن الحسن عاد إلى فاس منهزما (٥) .

---

(١) المرجع السابق ، ص ٣٢ — ابن الخطيب ، ص ٢١٦ — القلقشندى ، صبح الأعشى ج ٥ ص ١٨٢ — السلاوى ، ج ١ ص ١٨٣

(٢) البكرى ، ص ١٢٦ — ابن خلدون ، ج ٤ ص ٣٢

(٣) ذكر البكرى أنه توفى بالمهدية سنة ٣٣٠ هـ .

(٤) البكرى ، ص ١٢٧ — ابن عذارى ، ٢٠٢ — ابن الخطيب ، ص ٢١٢ — السلاوى ، ج ١ ص ١٨٥

(٥) ابن خلدون ، ج ٤ ص ٣٢ — القلقشندى ، ص ٢٨٣

وأغلب الظن أن النصر تم لموسى فى النهاية ، وأن الحسن الحجام عاد مقفولا إلى فاس ، فغدر به عامله على عدوة القرويين حامد بن حمدان الهمدانى المعروف بالوزى ، فقبض عليه ، وأغلق أبواب عدوة القرويين عن عسكر الحجام ، ثم أرسل حامد إلى موسى ، فأتاه بجيوشه ، ودخل عدوة القرويين ، وأخذ يحث حامدا على قتل الحجام فى سجنه ، ولكن حامد سوف فى ذلك وماطل فى تنفيذه ، ثم أطلق الحسن متنكرا بعد ما عاين من قسوة موسى بن أبى العافية . فتدلى الحسن من سور العدوة ، فسقط ، وكسرت ساقه ، فتحامل على نفسه حتى وصل إلى عدوة الأندلسيين ، حيث مات بعد ليلتين من عودته فى سنة ٣١٣ هـ . أما حامد فقد فر إلى المهدية (١) .

ثم تمكن موسى بن أبى العافية من الاستيلاء على عدوة الأندلسيين ، وقتل عبد الله بن تعلبة بن عارب وابنيه محمد ويوسف ، وانقرضت بذلك دولة الأدارسة بفاس ، وخضعت بلاد موسى بن أبى العافية ، الذى انتقم من الأدارسة ، وأجلاهم عن مواضعهم ، وتقاسم بمدينة حجر النسر .

---

(١) البكرى ، ص ١٢٢ — ابن عذارى ، ص ٢٠٣ — ابن خلدون ، ص ٣٣ — ابن الخطيب ، ص ٢١٢

## (٣)

### مدينة فاس حاضرة الأدارسة

**١ ـ مشكلة التاريخ لتأسيس مدينة فاس :**

يؤكد الجغرافيون العرب الذين وصفوا مدينة فاس بأنها تتألف من مدينتين منفصلتين ، وأقدم هؤلاء الجغرافيين اليعقوبي ، وابن حوقل ، والبكري ، والإدريسي .

فقد وصف الجغرافي اليعقوبي مدينة فاس في القرن الثالث الهجري بقوله : « ثم يدخل إلى المدينة العظمى التي يقال لها مدينة إفريقيا على النهر العظيم الذي يقال له فاس ، بهـــا يحيى بن يحيى بن إدريس ، وهي مدينة جليلة ، كثيرة العمارة والمنازل . ومن الجانب الغربي من نهر فاس ، وهو نهر يقال إنه أعظم من جميع أنهار الأرض ، عليه ثلاثة آلاف رحى تطحن ، المدينة التي تسمى مدينة أهل الأندلس ، بناها داود بن إدريس » (١) .

ووصفها أيضا الجغرافي ابن حوقل في القرن الرابع الهجري بأنها : « مدينة جليلة يشقها نهر ، وهي بجانبان يليها أميران مختلفان ، وبين أهل الجانبين الفتن الشائعة ، والقتل الذريع للفصل ، ونهرهـــا كبير غزير الماء ، عليه أرحية كثيرة ، وهي مدينة خصبة مقروشة بالعمارة ، أحدثها إدريس ابن إدريس ... » (٢) .

---

(١) اليعقوبي ، ص ٢٥٧ ، ٢٥٨

(٢) ابن حوقل ، صورة الأرض ، ص ٩٠

ويصفها البكري في القرن الخامس الهجري بقوله : « ومدينة فاس مدينتان مفترقتان مسورتان ، وبينهما نهر مطرد ، وأرحاء وقناطر ، وعدوة القرويين في غربي عدوة الأندلسيين ... وعلى باب دار الرجل فيها رحاه وبستانه بأنواع الثمر ، وبجداول الماء تخرق داره . وبالمدينتين أزيد من ثلاث مائة رحا ، وفيها نحو عشرين حماما ، وهي أكثر بلاد المغرب يهودا ، يختلفون منها إلى جميع الآفاق ، ومن أمثـــال أهل المغرب « فاس بلد بلاناس » ، وكلتا عدوتي فاس في صفح جبل ، والنهر الذي بينهما مخرجه من عين غزيرة في وسط برج بلاد مطغرة ، على مسيرة نصف يوم من فاس ، وأسست عدوة الأندلسيين في سنة ١٩٢ هـ ، وعدوة القرويين في سنة ثلاث وتسعين ومائة في ولاية إدريس بن إدريس »(١) .

وأخيرا يصفها الإدريسي في القرن الخامس الهجري بقوله : « ومدينة فاس مدينتان بينهما نهر كبير يأتي من عيون تسمى عيون ، وعليه في داخل المدينة أرحاء كثيرة تطحن بها الحنطة بلا ثمن له خطر ، والمدينة الشمالية منها تسمى القرويين ، وتسمى الجنوبية الأندلس ، والأندلس ماؤهـا قليل ، لكن بشقها نهر واحد يمر بأعـلاها ، وينتفع منه ببعضها ، وأما مدينة القرويين فبأهلها كثيرة ... وفي كل مدينة منها جامع ومنبر وإمام ، وبين المدينتين أبدا فتن ومقاتلات ، وبالجملة إن أهل مدينتي فاس يقتل قيامهما بعضهم بعضا »(٢) .

وتتضمن المصنفات التاريخية المغربية كثيرا من التفاصيل عن تاريخ

---

(١) البكري ، ص ١١٥

(٢) الادريسي ، ص ٧٥ ، ٧٦

فاس ونشأتها ، وأهمها روض القرطاس لابن أبي زرع ، وزهرة الآس للجزنائي ، وجذوة الاقتباس لابن القاضي . وكل هذه المصنفات تجمع على أن إدريس بن إدريس بن عبد الله هو مؤسس مدينة فاس ، وأنه شرع في تأسيس عدوة الأندلسيين في عام ١٩٢ ، وأسس عدوة القرويين بعد ذلك في سنة ١٩٣ هـ . وقبل أن نخوض في مشكلة تاريخ بناء مدينة فاس ، وهي مشكلة أثارها المستشرق الفرنسي الأستاذ ليفي بروفنسال (١) ، أود أن أستعرض بإيجاز ما أورده القرطاس وزهرة الآس ، وجذوة الاقتباس فيما يختص بتأسيس مدينة فاس :

١ — لما رأى الإمام إدريس بن إدريس أن الأمر استقام له ، وعظم ملكه ، وكثر أنصاره وحشمه ، وضاقت بهم وليلي ، عزم على الانتقال منها إلى مدينة جديدة يؤسسها ، ويسكنها هو وخاصته وجنوده ووجوه أهل دولته ، فركب بعد الاستخارة في خاصة من قومه في سنة ١٩٠ هـ ، وطاف ببعض النواحي إلى أن بلغ جبل زالغ ، فعزم على أن يبني فيه المدينة ، وشرع بالفعل في بنائها ، فبنى بعض دورها ونحو الثلث من سورها ، فأتي السيل من أعلى الجبل في بعض الليالي ، وهدم السور والدور ، وحمل ما حول ذلك من الخيام والزروع وألقى به في نهر سبو . فعدل عن هذا الموضع .

٢ — ثم خرج في العام التالي في بداية عام ١٩١ هـ ، ليرتاد موقعا يبني فيه مدينته ، فانتهى إلى نهر سبو بالقرب من عين خولان ، فأعجبه الموضع

---

(١) ليفي بروفنسال ، الإسلام في المغرب والأندلس ، ترجمة الدكتور السيد عبد العزيز سالم ، والأستاذ محمد صلاح الدين حلمي ، القاهرة ١٩٥٨ ص ٤ — ٥ .

لقربه من الماء ، ولوجود المادة الساخنة ، وشرع فى حفر الأساس ، وعمل الجيار ، وابتدأ بالبناء . ثم فكر فى نهر سبو وما يأتى به من المدود والسيول ، زمن الشتاء ، وما يحدث نتيجة ذلك من الضرر العظيم للناس ، فكف عن البناء ، وعاد إلى وليلى .

٣ — عهد إدريس بعد ذلك إلى وزيره عمير بن مصعب الأزدى بمهمة ارتياد موضع لتأسيس مدينته ، فنزل على عين ماء سميت بعين عمير ، ثم ركب إلى قمص سايس حتى وصل إلى العيون التى ينبع منها نهر وادى فاس ، فرأى عيونا كثيرة تزيد على الستين عينا ، ورأى مياهها تفيض على الأرض فسيحة ، فشرب من الماء ، فاستطابه ، ثم سار فى اتجاه الوادى حتى وصل إلى الموضع الذى قامت عليه مدينة فاس ، فنظر إلى ما بين الجبلين ، فرأى غيضة ملتفة الأشجار ، مطردة العيون والأنهار ، وفى مواضع منها خيام من شعر يسكنها قوم من زواغة يعرفون ببنى الخير ، وقوم من زناتة يعرفون ببنى يرغش ، كانوا على دين المجوسية ، وكان بيت نارهم فى الموضع المعروف بشيبوبة ، وكان بعضهم على دين اليهودية ، وبعضهم على دين النصرانية . وكان بنو الخير ينزلون بعدوة القرويين ، وبنو يرغش ينزلون بعدوة الأندلسيين ، وكانوا على خلاف دائم لتباين أديانهم ، واختلاف نزعاتهم .

٤ — رجع عمير إلى إدريس ، وعرفه من استحسانه لذلك الموضع ، من كثرة مياهه ، وطيب تربته ، ورطوبة هوائه ، فسر إدريس ، وركب إلى هناك ليشاهد الموضع ، فوجد بنى الخير وبنى يرغش يقتتلون ، فأصلح بينهم ، وأسلموا على يده ، ثم إنه اشترى منهم موضع الغيضة بستة آلاف درهم ، فرضوا بذلك .

٥ – ضرب إدريس أخيه وقايه بالموضع المعروف بجرواوة من عدوة الأندلس ، وابتدأ ببناء سورها ، وبنى بها جامعها للخطبة قريبا من رحبة البزر ، يعرف بجامع الأشياخ .

٦ – انتقل إدريس بعد ذلك إلى الموضع المعروف بالقرعدة من عدوة القرويين ، حيث دار القيطون المتصل بمسجد الشرفاء ، وابتدأ بحفر الأساس بفأس من ذهب . وتبعه الفعلة فى ذلك فسميت المدينة فاسا ، وقيل أنه لما شرع فى حفر أساسها من جهة القبلة وجد فى الحفر فاس أثرى كبير ، فسميت المدينة فاسا لذلك . وقيل أن راهبا أخبره بأنه كانت تقوم فى موضع القرويين مدينة أزلية ، خربت منـــذ ألف عام ، وكان اسمها ساف ، فآثر إدريس أن يسمى مدينته باسم المدينة القديمة مفلوبا . وشرع فى بنائها فى غرة ربيع الأول سنة ١٩٣ هـ ، وأدار حولها السور ، وبنى لها مسجدا لصق داره المعروفة بدار القيطون عرف بمسجد الشرفاء . وكان فى أثناء ذلك قد أمر الناس ببناء الدور والغرس ، ونادى فيهم أن كل من بنى موضعا أو اغترسه قبل تمام السور فهو له هبة لله تبارك وتعالى .

٧ – لما فرغ إدريس من بناء أسوار المدينة ( القرويين ) وجامع خطبتها ، أنزل الوافدين عليه من الأندلس بالعدوة الشرقية ، فسميت لذلك بعدوة الأندلس ، وأنزل الوافدين عليه من القيروان بالعدوة الغربية عنها فسميت لذلك بعدوة القرويين . ثم أمر الناس بزيادة البناء والغرس ، فبنى الناس الدور والمساجد فى القرويين ، وغرسوا جانبى الوادى من منبعه بفحص سايس إلى مصبه فى نهر سبو بأنواع الأشجار ، وعمرت الأرض بغرس الأشجار وجميع أنواع المزروعات ، وزاد العمران ، وقصد الناس مدينة

فاس ( يقصد القرويين ) . ولما كانت المدينة واستقامت حال رعيته فيها ، خطب في الناس بجامعها (١) .

* * *

ويخرج الأستاذ ليفي بروفنسال من هذه الروايات المختلفة في نشأة مدينة فاس بدلالة أسئلة لا إجابة عنها في المصادر العربية ، الأول : ما هو مغزى تأسيس إدريس الثاني لمدينتين متجاورتين ومنفصلتين في آن واحد ، لكل منها سور مستقل ، في تاريخ متقارب ، بحيث لا يفصلها من العمر إلا عام واحد ؟

والثاني : كيف استطاع هذا الإمام الصغير الذي لم يكن يتجاوز من عمره ١٧ عاما أن يقوم بتنفيذ مشروع ضخم وهو إنشاء مدينتين مختلفتين في مكان واحد ؟

الثالث : ماذا أثر إدريس إيجاد تعارض عنصري وسياسي واجتماعي لمدينتين متماثلتين ؟

وعندئذ يعرض الأستاذ ليفي بروفنسال نظرية جديدة في نشأة فاس ، وتقوم أساسا على أن إدريس بن عبد الله أسس مدينة فاس في سنة ١٧٢ هـ في الموضع الذي تقـــوم عليه عدوة الأندلس ، وأن إدريس بن إدريس

---

(١) ابن أبي زرع ، كتاب الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبـــار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس ، نشرة تورنبرج Carolus Johannes Tornberg أبسالة ١٨٤٣ — الجزنائي ، كتاب زهرة الآس في بناء مدينة فاس ، نشرة الفريد بل ، الجزائر ١٩٢٢ — السلاوي ، الاستقصا لأخبـــار دول المغرب الأقصى ، الدار البيضاء ، ج ١ ، ١٩٥٤

أسس عـــدوة القرويين في سنة ١٩٢ هـ في غرب مدينة أبيه ، وعلى الضفة اليسرى من وادي فاس ، في الموضع المعروف بدار القيطون . وقد اعتمد الأستاذ ليفي بروفنسال لإثبات هذه النظرية على أدلة مادية ، وعلى نصوص تاريخية نجملها فيما يلي :

الأدلة المادية :

١ ـ في المكتبة الأهلية بباريس درهم ضرب بمدينة فاس في سنة ١٨٩ هـ قبل التاريخ المتواتر في المصادر السابقة لتأسيس مدينة إدريس الثاني بسنتين.

٢ ـ في متحف مدينة خاركوف درهم آخر ضرب في مدينة فاس في سنة ١٨٥ هـ .

٣ ـ في نفس الوقت توجد عملات يظهر فيها اسم إدريس الثاني ضربت في وليلي وتدغة تحمل التواريخ المتعاقبة لسنوات ١٨١ ، ١٨٢ ، ١٨٣ هـ .

٤ ـ معظم العملات التي تحمل اسم إدريس الثاني ضربت في مدينة العالية في سنوات ١٩٨ ، ٢٠٧ ، ٢٠٨ ، ٢٠٩ ، ٢١٠ ، ٢١٤ هـ . والقصر في هذه المدينة حسب رأي الأستاذ ليفي بروفنسال إنما أنها تعني المرتفعة باعتبار أن عدوة القرويين أكثر ارتفاعا من عدوة الأندلسيين ، وإما نسبة إلى علي ، أو أنها صفة الحضرة العلية ، بدليل أن المدينة البيضاء التي أسسها يتو مريش كانت تسمى بفاس العليا .

ويفسر الأستاذ ليفي بروفنسال هـــذا التباين في أسماء دور السكة الإدريسية بأن فاس كانت مركزا لتلك العملة قبل سنة ١٩٢ هـ ، استنادا على الخنائق المستمدة من نقوش العملات ، إذ أن اسم فاس يختفي منذ

سنة ١٩٨ هـ وما بعدها ، ويحمل اسم العالية على اسم ... س ، ولا يعود اسم فاس إلى الظهور على العملات المغربية إلا منذ سنة ٣٦٩ هـ على درهم فاطمي ، وعلى عملات أموية مضروبة بحمل اسم هشام المؤيد كما تحمل تاريخا يتراوح ما بين عامي ٣٧٧ ، ٣٩٨ هـ . ويخرج الأستاذ ليفي بروفنسال من كل ذلك بأن فاس أسست قبل سنة ١٨٥ هـ (١).

الأدلة التاريخية :

١ ـ رواية من الورع القرطبي أبو بكر أحمد بن محمد الرازي المتوفى سنة ٣٤٤ هـ نقلها ابن الأبار في الحلة السيراء ، جاء فيها أن إدريس بن عبد الله دخل المغرب في سنة ١٧٢ هـ في شهر رمضان ، وذلك بعد أن هرب من شغب أبي جعفر المنصور له ، ونزل في موضع يعرف بوليلي يقع قريبا من وادي الزيتون . وهناك اجتمعت إليه قبائل من البربر ، وبايعوه بالإمامة ، فأسس مدينة فاس ، وكانت أجمة شعراء . وسميت بفاس لأنهم لما شرعوا في حفر أساسها وجدوا فأسا في موضع الحفر ، وسكنها البربر ولم يطل عهد إدريس بن عبد الله ، إذ توفي في سنة ١٧٤ هـ تاركا إحدى جواريه حاملا منه ، فوضعت غلاما ذكرا سمي إدريس ، وهو الذي خلف أباه على مدينة فاس ، ونال به العهد في الإمامة حتى توفي في شهر ربيع الأول سنة ٢١٣ هـ ، وكان مولده في شهر ربيع الثاني سنة ٧٨ هـ (٢).

ويخرج الأستاذ ليفي بروفنسال من هذا النص بالملاحظة التالية : أن

---

(١) ليفي بروفنسال ، الإسلام في المغرب والأندلس ، ص ١٠ ـ ١٩

Roger le Tourneau, Fès avant le Protectorat, Casablanca, 1949, pp. 33. et sqq.

(٢) ابن الأبار ، الحلة السيراء ، ج ١ ص ٥٥

إدريس بن عبد الله أسس فاسا سنة ١٧٢ هـ على أكثر تقدير ، وهي سنة وصوله إلى المغرب الأقصى ، ولا يمكن أن تكون قد تأسست بعد سنة ١٧٤ لأنه توفي في هذه السنة ، وأن هذه النشأة المدنية التي سميت بفاس كانت منذ نشأتها مدينة بربرية .

٢ ـ رواية لابن سعيد المغربي في المغرب ، ولابن فضل الله العمري في مسالك الأبصار ، والقلقشندي في صبح الأعشى ، وهي رواية نقلت عن مصدر واحد هام ، ونصها :

قال ابن سعيد في المغرب : « وهي مدينتان إحداهما بناها إدريس بن عبد الله أحد خلفاء الأدارسة بالمغرب وتعرف بعدوة الأندلس ، والأخرى بليت بعدها وتعرف باسم عدوة القرويين » (١).

وهذه الرواية تثبت أن فاسا من إنشاء إدريس بن عبد الله ، وأنها هي نفس المدينة التي أطلق عليها فيما بعد اسم عدوة الأندلسيين ، وأن عدوة القرويين من إنشاء إدريس بن إدريس (٢) .

٣ ـ نص رواه البكري (بخلاف النص الذي أشرنا إليه سابقا في وصف فاس ) نقلا عن أبي الحسن اللتوفي وجاء فيه ما يلي : « وقتل أبا ليلى اسحق ، وهو القائم به وبأبيه ، يوم السبت لست خلون من ذي الحجة سنة اثنتين وتسعين ومائة ، وبعث رأسه إلى المشرق مع أحمد وسليمان ابني عبد الرحمن ، ثم نزل مدينة فاس في عدوة الأندلسيين ، وأقام بها شهرا ، وذلك سنة

(١) القلقشندي ، صبح الأعشى في صناعة الانشا ، ج ٥ ، ص ١٥٣

(٢) ليفي بروفنسال ، الاسلام في المغرب والأندلس ، ص ٢٣

اثنتين وتسعين ومائة ، ولما كانت عدوة القرويين فياضا في أطرافها أبيات من زواغة ، فأرسلوا إلى إدريس ، فدخل عندهم ، فاسس مدينة القرويين سنة ثلاث وتسعين » (١). ويثبت هذا النص بصورة لا تدع مجالا للشك أن مدينة فاس وهي عدوة الأندلسيين كانت موجودة بالفعل قبل مجيئه إليها وإقامته بها شهرا كاملا .

٤ — وينقل هذا النص ابن الأبار في كتابه الحلة السيراء ، نقلا عن التوفلي بشيء من الإيجاز ، فيذكر أن إدريس بن إدريس أسس مدينة في القرويين في سنة ١٩٣ هـ(٢).

٥ — ورواية المؤرخ فرناطي مجهول عاش في القرن الثامن الهجري ، في عصر سلاطين دولة بني نصر بغرناطة ، في مجموعة متفرقات تاريخية بعنوان: « الزهرة المنثورة في الأخبار المأثورة » فيها إشارة لثوار ربض شقندة الذين نفاهم الحكم بن هشام من الأندلس ، وقد نقل المقري هذه الرواية في كتاب نفح الطيب ، وملخصها : أن فريقا من أهل الربض اتجه إلى بلاد المغرب ، فنزلوا بعدوة الاندلس ، وهي قسم من مدينة فاس ، سمي منذ ذلك الحين باسم عدوة الاندلسيين ، وعمرت هذه العدوة بأسكان يفضل هؤلاء الوافدين سنة ٢٠٢ ، وتمدينت بهم . وكان أمير المغرب وقتئذ القاسم بن إدريس المهاجر من المغرب ، وكان إبنا لعبد الله . وكانت قد مضت ثلاثون سنة بين إعادة تأسيس المدينة على يد الاندلسيين ، وبين تأسيس مدينة فاس القديمة ، التي بنيت في سنة ١٧٢ هـ ، عندما دخل الى المغرب إدريس بن عبد الله جد القاسم هاربا من تعقب أبي جعفر المنصور له ، حيث التف حوله البربر ، وجعلوه

---

(١) البكري ، ص ١٢٢

(٢) ابن الأبار ، الحلة السيراء ، ج ١ ص ٢٢

إمامهم ، وبنوا له مدينة فاس وكان موضعها غيضة. وعندما حفرت الأسس وجدوا فأسا في باطن الأرض ، وسميت المدينة لذلك السبب بفاس .

ويؤكد هذا النص قيام إدريس بن عبدالله ببناء مدينة فاس في سنة ١٧٢هـ أي قبل وفود الاندلسيين بثلاثين عاما . ويخرج الأستاذ ليفي بروفنسال من جميع هذه الأدلة بالنتائج الآتية :

١ ـ أن ادريس بن عبد الله أسس مدينة على القطراز القديمة في الجزء الواقع شرق فاس الحالية في سنة ١٧٢ هـ ، سميت بفـــاس ، وسكنت فيها العملات الإدريسية في تاريخ غير معروف ولكنه يرجع على الأقل إلى سنة ١٨٩ هـ .

٢ ـ أن إدريس بن إدريس أسس بعد ذلك بنحو ٢٩ سنة في موضع بقع غربي الموقع الذي أقيمت فيه مدينة فاس في عهد أبيه ، وهو موضع أفضل من حيث المناخ ووفرة المياه من موضع فاس القديمـــة ، مدينة على القطراز الافريقي أطلق عليها وسميا اسم العدوة . ولعلها سميت أيضا بافريقية على حد قول اليعقوبي ، وهو اسم له علاقة واضحة بما انتهى إليه أمرها . وهو مدينة القرويين أي مدينة القيروانيين .

٣ ـ لما وفد أهل الربض بقرطبة إلى المغـــرب الأقصى لاجئين إلى دولة الأدارسة ، أنزلهم إدريس في مدينة أبيه ، فاستقروا فيها ، وأنشأوا بها مدينتهم التي سميت بمدينة الأندلسيين . وعلى هذا النحو أصبح اسم فاس يطلق على العدوتين معا (١) .

---

(١) ليفي بروفنسال ، الاسلام في المغرب والأندلس ، ص ٢٢ ، ٢٨

ونضيف إلى الأدلة السابقـــة التي أوردها ليفي بروفنسال أدلة ثلاثة أخرى مستقاة من كتاب زهرة الآس للجزنائي ، ودليلا من ابن عذاري، ودليلا آخر من ابن الخطيب وأخيراً نضيف دليلا يقوم على المقارنة .

١ ـ الأدلة المأخوذة من الجزنائي :

١ ـ أن الجزنائي ذكر أن الفيضة التي شاهدها عمير بن مصعب الازدي، وفيها العيون والأنهار هي الموضع الذي بنى فيه إدريس بن إدريس مدينة فاس ، ولا ينطبق هذا الوصف إلا على عدوة القرويين .

٢ ـ أن الجزنائي قال نقلا عن ابن الرقيق : « ثم إن ضرب الإمام أخيمته وقبابه بالموضع المعروف بجرواوه من عدوة الاندلس ، ودور عليه جرواوة من الخشب فسمي الموضع جرواوة إلى زمننا هذا . ثم انتقل بعد ذلك إلى الموضع المعروف بالقرمدة من عدوة القرويين حيث دار القيطون المتصلة لمسجد الشرفاء ، ثم شرع في البناء »(١) . ومعنى هذا أن إدريس لم يؤسس شيئا في عدوة الاندلسيين ، وإنما أقام بها بعض الوقت ثم انتقل الى القرمدة حيث شرع في بناء مدينته .

٣ ـ أن الجزنائي عندما تعرض لذكر عدوة الاندلسيين يذكر أن ادريس ابن إدريس هـــو الذي أسسها ، وإنما قال : « وأما عدوة الاندلس ، فانها أسست في يوم الخميس مهل شهر ربيع الأول سنة اثنتين وتسعين ومائة، أقام الإمام ادريس منها بالموضع المعروف بجرواوة حيث نزل بأخيمته وقبابه، واتخذ

(١) الجزنائي ، ص ١٤

سورها من جهة القبلة ». ويمضي بعد ذلك في ذكر الأبواب التي فتحت في هذا السور . أما بالنسبة لعدوة القرويين ، فانه يذكر قيام ادريس بانشاء السور ثم يضيف بعد ذلك أنه أمر الناس ببناء الدور والغرس ، وأن كل من بنى موضعا أو اغترس قبل تمام السور فهو له . وهذا دليـــل على أن عدوة الاندلسيين كانت بها دور وأبنية من قبل .

ب ـ الدليل المأخوذ من ابن عذاري :

ذكر ابن عذاري فيما يختص ببناء فاس النص التالي : « وكانت عدوة القرويين غياضا في أطرافها بيوت من زواغة ، فأسلموا إليه ، ودبر في البناء عندهم ، فكان ابتداء بناء مدينة فاس سنة ١٩٣ وذلك عدوة القرويين »(١) . وواضح من هذا النص أن ابن عذاري يشير إلى قيام إدريس بن إدريس ببناء عدوة القرويين .

ج ـ الدليل المأخوذ من ابن الخطيب :

عندما ذكر ابن الخطيب قيـام ادريس بن ادريس ببناء مدينة فاس سنة ١٩٢ ، ذكر أنه « بنى داره المعروفة اليوم لسانه بدار القيطون ، ومسجدها بجواره ، وعظم شأنها بالعمارة بعده ، وسكنها الملوك والاشراف »(٢) . ولما كانت دار القيطون المذكورة تقع في ربض القرويين ، فانه يتضح لنا من هذا النص أن المقصود ببناء فاس هو بناء مدينة القرويين .

---

(١) ابن عذاري ، ج ١ ص ٢٩٦

(٢) ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، القسم الثالث ، ص ٢٠٩

د ـ الدليل القائم على المقارنة :

عندما اجتمعت قبائل زناتة المغربية حول أبي القاسم سمغون بن واسول المكناسي المغراوي اختط لهم مدينة سجلماسة سنة ١٤٠ هـ . كذلك أسس عبد الرحمن بن رستم الفارسي مدينة تاهرت سنة ١٤٤ هـ، وهي نفس السنة التي انهزم فيها أبو الخطاب على يدي ابن الأشعث ، وفر ابن رستم على أثر ذلك إلى جبل سوفجج حيث اجتمع إليه الإباضية ، فأسس لهم مدينة تاهرت . وفي المغرب الأدنى قام ابراهيم بن الأغلب بتأسيس مدينة العباسية أو القصر القديم بعد توليته الإمارة بعهد من الخليفة الرشيد في جمادى الآخرة سنة ١٨٤ هـ، بأقل من عام ، وانتقل إليها في سنة ١٨٥ هـ . ونستخلص من ذلك أن قيام الدول المستقلة بالمغرب في القرن الثاني الهجري كان يتبعه مباشرة قيام مدن جديدة . ولا نشك في أن ادريس بن عبد الله أسس في حياته مدينة فاس اقتداء ببني واسول المغراويين بسجلماسة ، وبني رستم بتاهرت ، وليس من المعقول أن ينتظر الأدارسة عشرين سنة لكي يؤسسوا مدينة تكون مقرا لهم .

* * *

بقي علينا تفسير نقطة أخيرة ، وهي أنه إذا كان تاريخ سنة ١٧٢ هو الذي حددناه لبناء مدينة فاس في عهد إدريس الأول فلماذا لم يذكره المؤرخون ويتفقوا عليه صراحة ، ولماذا يجعلوا إنشاء مدينتي فاس في عامي ١٩٢ ، ١٩٣ بدلا من هذا التاريخ ؟ .

يفسر الأستاذ ليفي برفنسال كيف استقر التاريخ الخاطيء لبناء فاس سنة ١٩٢ في الرواية القديمة ، وحل محل التاريخ الحقيقي وهو سنة ١٧٢ ،

بأنه من الخطأ وقوع لبس بين إنشاء مدينة فاس وانشاء مدينة العالية، وظهر هذا اللبس منذ أن أطلق اسم فاس على المدينتين معا . ومما أزاد هذا اللبس تشابه إسمي المؤسسين . ويعتقد أن أساس هذا اللبس التاريخي يرجع إلى خطأ يسير في القراءة بين رقمي سبعين وتسعين ، وهو خطأ أدى إلى تحريف سنة ١٧٢ هـ. إلى ١٩٢ هـ. [1] . ونحن نؤيد الاستاذ ليفي بروفنسال في ذلك الرأي ، فكثيرا ما نعثر على أخطاء تاريخية ناتجة عن التحريف في النقل ، ونذكر مثالا لذلك التحريف الذي يقع فيه الفساخ في كثير من الاحيان ، فابن الخطيب يذكر عندما يتعرض لذكر دولة الحسام بن القاسم بن إدريس أنه اغتيل على يدي ربيع بن سليمان سنة اثنتين وسبعين ومائتين بدلا من التاريخ الصحيح وهو سنة اثنتين وتسعين ومائتين [2] .

ب ـ تاريخ مدينة فاس منذ تأسيسها حتى نهاية عصر بني مرين :

١ ـ فاس في عصر الادارسة :

لم تكن مدينة فاس التي أسسها إدريس بن عبد الله في سنة ١٧٢ هـ ، وهي سنة نزوله في أرض وليلي سوى بلدة صغيرة ذات طابع بربري دقيق ، شأنها في ذلك شأن القرى المتناثرة التي تشاهدها في جنوب المغرب الاقصى والتي لا تضم من العمران غير بضعة دور متوزعة . وكانت فاس التي بناها إدريس بن عبد الله تحمل طابعا بربريا خالصا ، ويتجلى ذلك في اسم الموضع الذي نزل فيه إدريس بن إدريس بها في سنة ١٩٢ هـ وهو المعروف بحدراوة

---

(١) ليفي بروفنسال ، المرجع السابق ص ٢٦ ، ٣٠

(٢) ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، القسم الثالث ، ص ٢٠٩

وهو جدار من جذوع الشجر والقاب ، سور به معسكره الذى كان يجتمع فيه مع مشايخ البربر [1] . كذلك يحمل جامع الاشياخ أيضا هذا الطابع البربرى ، والمقصود بالاشياخ شيوخ البربر الذين كانوا يرافقون إدريس فى رحلته ، ويعرفون بالآمغارن .

وعلى الرغم من قيام إدريس بن عبد الله بانشاء مدينة فاس ، فقد آثر أن يقيم فى وليلى بين أنصاره من البربر ، الذين أيدوه ونصروه ، ولما توفى دفن بوليلى . وآثر ابنه إدريس الثانى الإقامة فى وليلى بين أنصار أبيه ، حتى إنما بويع بالإمامة فى سنة ١٧٨ هـ واستقام له الأمر بالمغرب الأقصى ، ووفد عليه العرب من كل مكان من إفريقية والأندلس ، وقدم إليه فى جملة الوافدين فى سنة ١٨٩ نحو ثمانية من الفرسان العرب من القيسية والأزد والخزرج ومدلج وبنى يحصب ، بدأ إدريس يفكر فى الخروج من عزلته التى فرضها عليه الأوصياء عليه والكافلين له ، فقرب العرب اليه ، وجعلهم بطانته دون البربر ، واعتزهم « لأنه كان فريداً بين البربر »[2] .

ويبدو أن وزيره العربى عمير بن مصعب الازدى هو الذى أوحى إليه بفكرة الانتقال من وليلى ، إلى مدينة يؤسسها بنفسه وتكون مركزا له ، لأن مدينة أبيه ماؤها قليل ، إذ يشقها نهر واحد يمر بأعلاها ، وأما موضع مدينة القرويين الذى أعجب به عمير فكان كثير المياه ، بحيث كانت المياه بعد تأسيس عدوة القرويين تجرى فى كل شارع منها وفى كل زقاق[3] . ويبدو

---

(١) ليفى بروفنسال ، ص ٣٥

(٢) البزناسى ، ص ١٣

(٣) الادريسى ، ص ٧٥

أن هذه الفكرة لقيت قبولا واستحسانا عند إدريس ، فراه يخرج في سنة ١٩٠ هـ ليرتاد موضعا يبني فيه مدينته الجديدة، ويبدو أن زعيم بربر أوربة استحق خلافه في ذلك وتآمر مع ابن الاغلب ، فقتله إدريس في سنة ١٩٢ هـ. وأخيرا اهتدى إدريس إلى موضع مدينة القرويين ، فأسسها قبالة مدينة فاس ، على النحو الذي فصلناه آنفا .

ولقد أسس إدريس في القرويين مسجدا جامعا هو الجامع للقرويين بالشرفاء ، وقيسارية إلى جانب هذا الجامع ، وأدار الأسوار من كل جانب[1] وكان لا بد لمدينة القرويين التي بناها إدريس ومعها بالعالية أن تنمو سريعا وتعمر بالبناء ، فأسكنها العرب الوافدين عليه من القيروان والأندلس ورجال الحاشية ، والخاصة، فسميت بعد ذلك بعدوة القرويين، وأمرهم إدريس بزيادة البناء والغرس ، فأسس الناس الدور والمساجد والحوانيت (انظر خريطة رقم ٨ ، ٩ ). أما البربر فلم يكن لديهم ما يشكون منه ، إذ كانت لهم مدينتهم الخاصة ذات الطابع البربري الذي يتفق مع طابع معيشتهم ، وهي مدينة فاس التي أقامها إدريس بن عبد الله ، فسكن فيها فرسان الأمير وعسكره وقواده من البربر[2] ، وأخذت عدوة القرويين تنمو ويزدهر فيها العمران ، بينما ظلت مدينة فاس القديمة متأخرة عنها . وفي سنة ٢٠٢ هـ قدم على إدريس جماعة من الربضيين الأندلسيين ، الذين أخرجهم الأمير الحكم الربضي من ربض شقندة بقرطبة ، فأنزلهم إدريس مدينة فاس . ولم تكن فاس تعدو

---

(١) ابن أبي زرع ، روض القرطاس ، ص ١٩ ، ٢٠

(٢) ليفي بروفنسال ، الإسلام في المغرب والأندلس ص ٥٠

Terrasse Histoire du Maroc, t. I, p. 113

وكانت قرية ، بيوتها متواضعة مبنية من اللبن ، مسقوفة بفروع الأشجار ، ولم يمض عهد قصير على نزول الأندلسيين بها حتى ارتفعت من مجـــرد قرية إلى مصاف المدن ، وإن كان الطابع الريفي ما زال يفرض نفسه على أحيائها المتطرفة حتى اليوم [1] . وكان ينفتح بسور عدوة الأندلسيين عدة أبواب هي : أبواب القبلة ، والكنيسة أو الخوخة ، وأبو سفين ، وجرواوة والشيبوبة ، والحفية . أما أبواب سور عدوة القرويين فهي : إفريقية ، والقلعة ، والحديد ، والفرج أو السلسلة ، والفصيل أو الفقية [2] . إلا أن هذه الأسماء تغيرت فيما بعد ، وحلت محلها أسماء أخرى .

٢ — فاس في عصر بن موسى بن أبي العافية :

في سنة ٣١٩هـ استعمل موسى على عدوة الأندلس طوال بن أبي يزيد ، بينما استخلف موسى ابنه مدين على عدوة القرويين . وفي هذه السنة كاتب موسى بن أبي العافية الخليفة عبد الرحمن الناصر لدين الله صاحب الأندلس ، « ورغب في موالاته والدخول في طاعته ، وأن يستميل له أهواء أهل العدوة المجاورين له [3] » . فقبله عبد الرحمن أحسن قبول ، وأمده بالطلع والأموال ، وبفضل ذلك تمكن موسى من التغلب على مدينة جراوة ، وأخرج عنها الحسن بن أبي العيش بن إدريس .

ولما بلغ عبيد الله المهدي تأخروج موسى على طاعته ، سير إليه قائده حميد ابن يصل المكناسي ، صاحب تاهرت ، في عشرة آلاف فارس ، فتقدم حميد في سنة ٣٢٩ هـ إلى المغرب ومعه حامد بن حمدان الهمذاني . فلما علم مدين ابن موسى بقدومهما إلى فاس ، فرعنها ولحق بأبيه . فدخلها حميد ، واستعمل

---

(١) ليفي بروفنسال ، الاسلام في المغرب والاندلس ، ص ٤٠

(٢) الجزنائي ، ص ١٩ ، ٢٠

(٣) ابن عذارى ، ج ١ ، ص ٢٨٢

عليها حامد بن حمدان الهمذاني . ثم عاد حميد إلى إفريقية(١). وأقام حامد واليا على فاس من قبل الفاطميين، إلى أن ثار عليه أحمد بن بكر بن عبد الرحمن بن أبي سهل الجذامي في سنة ٣٢٢ هـ، عقب وفاة عبيدالله المهدي ، فقتل حامدا ابن حمدان ، وبعث برأسه ورأس ولده إلى موسى بن أبي العافية، فأرسلها موسى إلى عبد الرحمن الناصر بقرطبة مع سعيد بن الزراد ، وعادت الدعوة في فاس باسم الخليفة عبد الرحمن الناصر . ولكن الخليفة الفاطمي أبا القاسم بن عبيد الله المهدي لم يرض بهذا الوضع ، فسير قائده ميسور الفتى إلى المغرب في سنة ٣٢٣ هـ ، وتقدم ميسور إلى فاس ، فحاصرها أياما ، فخرج إليه أحمد بن بكر إلى معسكره مبايعا ، وقدم إليه هدية قيمة وأموالا، فقبض عليه ميسور ، وبعث به إلى المهدية (٢) . وما إن علم أهل فاس بغدر ميسور، امتنعوا عليه ، وتحصنوا داخل أسوار مدينتهم ، وقدموا على أنفسهم حسن ابن قاسم اللواتي ، فحاصرهم ميسور ستة أشهر ، ولما طال عليهم الحصار عارضوه في الصلح ، فصالحهم على أن يعطوه ستة آلاف دينار، وأطاعوا وبعثوا وفدا للماء وأثاثا ، وعلى أن يبايعوا لأبي القاسم الشيعي ، ويسجلوا اسمه في السكة ، ويخطبوا له على منابرهم ، وأقر ميسور عليهم حسن بن قاسم اللواتي ، ثم ارتحل عنهم (٣) . وظل حسن اللواتي عاملا على فاس إلى أن قدم أحمد بن بكر من المهدية ، فعزل له حسن عن الولاية في سنة ٣٤١ هـ .

---

(١) البكري ، ص ١٢٨ — ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ص ٢١٦

(٢) نفس المرجع — ابن الخطيب ص ٢١٦ — القلقشندي ، ج ٥ ص ١٨٤ — السلاوي ج ١ ص ١٨٩

(٣) البكري ، ص ١٢٨ — القلقشندي ص ١٨٤ — السلاوي ص ١٨٩

ثم بايع أهل فاس للناصر لدين الله فيمن بايعه من أهل العدوة ، فولى عليهم عبدا بن الخير المغراوى ، فظل بليها من قبل الخليفة الأموى ما يقرب من عام ، ثم رحل إلى الأندلس للجهاد ، واستخلف عليها ابن عمه أحمد ابن أبي بكر بن أحمد بن عثمان بن سعيد الزناتي ، وهو الذي بنى صومعة جامع القرويين بفاس سنة ٣٤٤ هـ (١) .

٣ - سيطرة زناتة على فاس وموالاتها لخلفاء بني امية بقرطبة :

غضب المعز لدين الله الفاطمي لخروج المغرب الاقصى من طاعته ، وانضوائه إلى الخلافة الاموية فى الاندلس ، فسير جوهرا الصقلى فى جيش كثيف من بربر كتامة وصنهاجة ، لاستئناف الثوار فى المغرب ، وإعادة النفوذ الفاطمى على المغرب ، ونجح جوهر فى اعادة جاع بلاد العدوة ، وتقدم إلى فاس لمحاصرتها ، ولكنها امتنعت عليه ، فتركها إلى سجلماسة ، واستولى عليها . ومن هناك مضى إلى فاس ، فنزل عليها فى سنة ٣٤٩ هـ ، فحاصرها من سائر جهاتها زهاء نصف شهر ، ثم اقتحمها قائده زيرى ابن مناد الصنهاجى بالسيف ، إذ تسنم أسوارها ليلا ودخلها فقتل بها عددا كبيرا من سكانها ، وقبض على أميرها أحمد بن أبي بكر الزناتي عامل الناصر الأموى عليها ، ونهب المدينة ، وقتل حاميتها وشيوخها ، وسبى أهلها ، وهدم أسوارها . ودخلها جوهر فى ٢٠ رمضان سنة ٣٤٩ هـ . ويروى ابن الأثير قصة سقوط فاس فيقول : « ثم سار منها إلى فاس وبها أحمد بن بكر ، فأغلق أبوابها فنازلها جوهر ، وقاتلها مدة ، فلم يقدر عليها ، وأنفذ هدايا الأمر الفاطميين بأقاصى السوس ، وأشار لها على جوهر وأصحابه

---

(١) الجزنائى ص ٣٦ - السلاوى ص ١٩٢

بالرحيل إلى سجلماسة .... وسلك تلك البلاد جميعها فافتتحها ، وعاد إلى فاس فقاتلها مدة طويلة ، فقام زيري بن مناد ، فاختار من قومه رجالا لهم شجاعة ، وأمرهم أن يأخذوا السلاليم ، ويقصدوا البلد ، وصعدوا إلى السور الأدنى في السلاليم ، وأهل فاس آمنون ، فلما صعدوا على السور ، قتلوا من عليه ونزلوا إلى السور الثاني ، وفتحوا الأبواب ، وأشعلوا المشاعل ، وضربوا الطبول ، وكانت الإمارة بين زيري وجوهر ، فلما سمعها جوهر ركب في العساكر ودخل فاس »[1] .

وظل نفوذ الفاطمي قائما بفاس إلى أن أرسل الخليفة الحكم المستنصر قائده غالب إلى المغرب في سنة ٣٦٢ ، فسار إلى فاس في سنة ٣٦٣ هـ ، فدخلها ، واستعمل عليها محمد بن أبي علي بن قشوش بعدوة القرويين ، وعبد الكريم بن تعلبة بعدوة الأندلس ، وعاد غالب بعد ذلك في آخر رمضان سنة ٣٦٣ هـ إلى الأندلس . ولم يمض على رحيله ست سنوات حتى زحف بلكين بن زيري بن مناد الصنهاجي على المغرب الأقصى ، وحاصر مدينة فاس ، وقتل عاملها محمد أبي علي بن قشوش ، وعبد الكريم بن تعلبة ، واستعمل على فاس محمد بن عامر الكتامي ، ولما تغلب بلكين على المغرب خرج بنو مغراوة من بني خزر وبني يفرن إلى ميته ، وعمر محمد بن الخير من آل خزر إلى المنصور يستنجد به . وظل نفوذ الفاطميين قائما في فاس حتى أرسل المنصور بن أبي عامر ابن عمه أبا الحكم عمرو بن عبدالله بن أبي عامر الملقب بمسكلاجه سنة ٣٧٥ هـ لمواجهة تقدم الحسن بن كنون الوافد من مصر . ونجح مسكلاجة في دخول فاس ، واستولى على عدوة الأندلس ،

---

(١) ابن الأثير ، ج ٦ ، ص ٤٠٠ .

وخطب فيها لبني أمية . وبقي محمد بن عامر المكناسي عامل الفاطميين بعدوة القرويين حتى دخلها أبو عيش عنوة في سنة ٣٧٦ هـ ، وقبض على محمد بن عامر وقتله ، وخطب فيها أيضا لبني أمية [1] .

عاد مكناسة إلى الأندلس، فعقد المنصور على المغرب الأقصى الوزير حسن بن أحمد بن عبد الودود السلمي سنة ٣٧٦ هـ ، وأوصاه بغزاوة ، ولاسيما مغراوة وزيري ابن عطية ، لإخلالهم للأمويين. فنزل الوزير حسن بن أحمد بفاس ، وضبط المغرب ، وأحسن إدارته .

ولما قتل الوزير ابن عبد الودود في سنة ٣٨١ هـ ، وعقد المنصور بن أبي عامر لزيري بن عطية من بعده على المغرب وفاس . وكان أبو الليهار بن زيري بن مناد الصنهاجي قد خرج على أخيه أبي الفتح منصور بن بلكين أمير إفريقية وظهر الدولة الفاطمية في مصر ، وتغلب على تلمسان ووهران ومتيجة وشلف وونشريش وتنس ، وخطب للخليفة هشام المؤيد ، وباع له ، وكتب إلى ابن أبي عامر يخبره بأنه دخل في طاعته ، وأنه يرغب في أن يتصل به زيري بن عطية الزناتي صاحب فاس ، فاشترط عليه ابن أبي عامر لذلك أن يبعث إليه ابنه رميثة ، ففعل أبو الليهار ، ووجه ابنه في مركب مع كاتبه ميمون المعروف بابن الدباغ ، فغرقت بهما في البحر ، فوجه أبو الليهار ولده الآخر فوصل إلى المنصور [2] ، وعندئذ أرسل إليه المنصور بن أبي عامر بعهده على ما بيده من بلاده كما أرسل إليه هدية وخلعا وأربعين ألف

---

(١) القلقشندي ، صبح الأعشى ، ج ٥ ص ١٨٥ ـ السلاوي ، الاستقصا ، ص ٢٠٨

(٢) ابن عذارى ، ج ١ ص ٣٠٠

دينارا (١)، ثم كتب المنصور إلى زيرى بن عطية، يأمره أن يتحصر لأبي البهار ويعضده، فلما بلغ أبا البهار ذلك، رحل إلى فاس، والتقى مع زيرى بن عطية، واتفق معه. وأقام أبو البهار على بيعة هشام المؤيد شهرين ثم نكث وخلعها، وعاد بظاهر الدولة الفاطمية، فغضب المنصور لذلك، وكتب إلى زيرى بن عطية يعهد له على بلاد أبي البهار، وأمره بمحاربته عليها. فرحف زيرى بن عطية من مدينة فاس في جيوش لا تحصى من قبائل زناتة وغيرهم، فقر أبو البهار أمامه، ولحق بأخيه منصور بن بلكين بافريقية. وتمكن زيرى من الاستيلاء على جميع أعمال أبي البهار، وبذلك امتد سلطان زيرى من السوس الأقصى إلى الزاب. وكتب بالفتح إلى ابن أبي عامر، وبعث إليه في سنة ٣٨١هـ هدية نفيسة القيمة، منها مائتا فرس من عتاق الخيل، وخمسون جملا مهريا، وألف درقة من جلود القمط، وأحمال كثيرة من قمى الزان، وقطوط الغالية والزرافة، وأصناف الوحوش الصحراوية، وألف حمل من التمر الجيد في جلسه، وأحمال كثيرة من ثياب الصوف الرقيقة، فسر بها المنصور (٢).

وأقام زيرى بفاس، وأسكن قبيلته مغراوة الزناتيين بأحوازها، بينما رفع بنو يفرن عنها وعن أحوازها، وأبعدهم إلى نواحي سلا، فسكنوها. وفي عام ٣٨٢هـ استدعاه المنصور بن أبي عامر لزيارة قرطبة، فاستخلف زيرى على المغرب ولده المعز بن زيرى، وأمره بسكنى تلمسان، واستخلف على عدوة الأندلس من فاس عبد الرحمن بن عبد الكريم بن ثعلبة، وعلى عدوة القرويين منها علي بن محمد بن أبي علي بن قشوش، ومضى إلى الأندلس،

---

(١) السلاوي، ج ١ ص ٢١٠

(٢) السلاوي، ج ١ ص ٢١٠

وقدم بين هدية عظيمة، منها طائر فصيح يتكلم العربية والبربرية، وثياب من ثياب المسك والغالية، ومهاة وحشية تشبه الفرس، وحيوانات غريبة، وأسدان عظيمان في قفصين من حديد، وشيء كثير من التمر في غاية الكبر الواحدة منه تشبه الخيارة عظما، وحمل معه من قومه ٣٠٠ فارس، ومن خدمه وعبيده ٣٠٠ عبد. فاحتفل المنصور بقدومه احتفالا عظيما وخرج إلى لقائه في خاصته وحاشيته [1]، وأنزله في قصر جعفر الحاجب، وتوسع له في الجرايات والإكرام، ولقبه باسم الوزير، ومنحه الأموال الكثيرة، وخلع عليه الخلع النفيسة، ولم يطل مقام زيري بقرطبة، فقد عجل المنصور بإرساله إلى المغرب عندما علم باستيلاء بدر بن يعلى اليفرني صاحب سلا على عدوة الأندلس من فاس في ذي القعدة سنة ٣٨٣هـ. وأقفل زيري عائدا، فنزل مرسى طنجة. ويذكر البلاوي أنه لما نزل بهذه المدينة عبر عن رغبته في الاستقلال بالمغرب بقوله: «الآن علمت أنك لي»، فقد استخف بلقب الوزارة الذي منحه المنصور إياه، وكان يطمع في الإمارة، فلما بلغت مقالته المنصور صم عليها أذنه، وزاد في اصطناعه [2].

ولما نزل زيري بن عطية إلى طنجة جد في السير حتى وصل إلى فاس لاستخلاصها من بني يفرن، واشتبك زيري بن عطية مع بدر بن يعلى في عدة مواقع بالقرب من فاس، انتهت بهزيمة بني يفرن، وتمكن زيري من دخول فاس، وقبض على بدر وقتله، وأرسل رأسه إلى المنصور في سنة ٣٨٣هـ [3].

---

(١) ابن الخطيب، أعمال الأعلام ج ٣ ص ١٠٧ ـ البلاوي، ص ٢١١

(٢) البلاوي، ص ٢١١

(٣) ابن الخطيب، المرجع السابق ص ١٠٨ ـ البلاوي، ص ٢١٢

وصفا له الجو بعد ذلك فى المغرب ، وأصبح يحكمه بلا منازع ، وظلت علاقته مع المنصور حسنة فى الظاهر ، ولكنه كان يضمر فى قرارة نفسه الخروج عليه .

وفى سنة ٣٨٦ هـ فسدت العلاقات بينهما بسبب استبداد المنصور بالخليفة هشام المؤيد وتغلبه على الدولة بتفويض من الخليفة أذاعه المنصور فى سائر أنحاء الدولة الأموية بالأندلس والمغرب ، وكانت السيدة صبح قد اتصلت بزيرى بن عطية ، وأغرته على خلع طاعة المنصور ، وعهدت إليه بأن يقوم مقام المدافع عن حقوق الخليفة الشرعية [١] . وذكر ابن عذارى أسباب خروج زيرى على المنصور بقوله : « ثم إن زيرى بن عطية المغراوى نكث على ابن أبى عامر بعد الغلب الشديد ، والوفاء الأكيد ، وطعن على ابن أبى عامر سلبه لملك هشام ، وامتعض لهشام المؤيد وغلبة ابن أبى عامر عليه »[٢] . واتصل بالمنصور أن زيرى ينتقصه ، ويعرض فى شأنه ، وحجره على المؤيد ، فقطع عنه رزق الوزارة الذى كان يجريه عليه فى كل سنة ، ودفع هذا التصرف من جانب المنصور زيرى إلى تطلع اسم المنصور من الخطبة وقصر الدعاء فيها لهشام [٣] . ولم يكتف زيرى بذلك بل طرد عمال المنصور من العرب والحشم إلى سبتة [٤] . وعلى أثر ذلك سير ابن أبى عامر قائده واضحا فى جيش كثيف ، إلى المغرب ، فسير واضح الزقاق إلى ساحل

---

(١) ليفى أوفنسال ، المنصور بن أبى عامر ، مذكرة معارف الشعب ، عدد ٦٧ ، القاهرة ١٩٥٩ ، ص ٢٩٦

(٢) ابن عذارى ، جـ ١ ص ٣٦٢

(٣) ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، القسم الثالث ، ص ١٠٨

(٤) البيان ، جـ ١ ص ٣٦٣

العدوة ، ونزل بطنجة حيث انضم إليه كثير من بربر غمارة وصنهاجة ، وزحف واضح نحو فاس ، فخرج إليه زيرى بن عطية فى جموع كثيرة من زناتة ، والتقى الجيشان فى موضع يعرف بوادى ردات ، يقع بالقرب من أحواز البصرة [1] . ودام القتال بينهما زهاء ثلاثة أشهر ، تمكن زيرى فى نهايتها من التغلب على واضح ، فتراجع منهزما إلى طنجة ، وكتب إلى المنصور من هناك يستمده . فخرج إليه بنفسه من قرطبة حتى وصل الجزيرة الخضراء ، وأجاز إليه ابنه عبد الملك المظفر ، على رأس جيش ضخم من عسكر الأندلس ، وبلغ ذلك زيرى ، فاستنفر قبائل زناتة ، فوافته فى جموع كثيفة من البربر قادمين من بلاد التراب فيما وراء ملوية وسجلماسة ، فسار بهم زيرى لمقاتلة عبد الملك بن المنصور ، وتم اللقاء بوادى نى بأحواز طنجة ، ودارت بين الجيشين معركة عنيفة دامت طوال اليوم ، وتمكن غلام أسود كان زيرى قد قتل خاله من ظعن زيرى بسكينه فى لبته ، فجرح جرحا بالغا ، وانهزمت زناتة ، وفر زيرى ومن بقى معه إلى موضع يعرف بمضيق العلية بالقرب من مكناسة ، حيث اجتمع إليه فله ، ولم يكد زيرى يستدرك أمره ، ويجمع فله حتى باغته عبد الملك بخمسة آلاف من كتائب وجنائه على رأسهم واضح القيسى ، وذلك فى منتصف رمضان سنة ٣٨٨ هـ ، فأوقع بهم واضح وقيعة عظيمة ، استأصل فيها رجال زيرى ، وأسر منهم نحو المئتين ، ضمهم إليه عبد الملك ، وأركبهم فى جنده ، وفر زيرى فى شرذمة من أصحابه إلى فاس [2] .

---

(١) ابن الخطيب ، ص ١٥٨ — السلاوى ، ص ٢١٤

(٢) ابن عذارى ، ج ١ ص ٣٦٢ — ابن الخطيب ، ص ١٥٩ — السلاوى ، ص ٢١٦

وكان أهل فاس قد علموا بهزيمته ، فأغلقوا أبواب المدينة دونه ، وأخرجوا إليه ذويه ، فانصرف بهم إلى الصحراء ، ونزل بأحواز صنهاجة. ودخل المظفر عبد الملك مدينة فاس في شوال سنة ٣٨٨ هـ وكتب إلى أبيه بالفتح ، فقرىء كتابه بمنابر الأندلس ، وكتب إليه المنصور بعهده على المغرب .

انصرف واضح إلى قرطبة ، بينما أقام المظفر ستة أشهر بفاس ، فأحسن إلى أهلها ، ورأوا من فضله وعدله عالم يروه من ولاة فاس من قبل . ثم صرفه المنصور إلى الأندلس ، واستعمل على فاس عيسى بن سعيد ، صاحب الشرطة ، فأقام بها إلى صفر سنة ٣٨٩ هـ ، ثم عزله وولى عليها واضحا [1] . فأقام بها فترة من الوقت ، ثم استخلف عليها عبد الله بن أبي عامر ابن أخي المنصور ، ثم تعاقب على ولاية فاس من قبل واضح اسماعيل بن البورى ، فالأحوص معن بن عبد العزيز ، الذي ظل يقوم بأمر فاس حتى وفاة المنصور [2] .

أما زيري فقد جمع حشوده العائدة من زناتة ، واستغل فرصة اختلاف الصنهاجيين على باديس بن منصور أمير إفريقية وزحف زيري إليهم ، وهزمهم ، ودخل تاهرت وتنس وتلمسان وشلف ، وأقام في هذه البلاد الدعوة للمؤيد هشام ثم توفي في المحرم سنة ٣٩٦ هـ ، فخلفه ابنه المعز بن زيري . واتصل المعز بالمظفر عبد الملك في قرطبة يطلب منه أن يصفح عنه ، فصرف عبد الملك بن أبي عامر واضحا عن ولاية المغرب ، وكتب إلى المعز بن زيري بعهده على

---

(١) السلاوي ج ١ ص ٢١٦

(٢) ابن عذاري ، ج ١ ص ٢٦٣

فاس وسائر أعمال المغرب فى سنة ٣٩٣ هـ بعد أن استوثق منه بأخذ ولده منصور رهينة عنده. ولما تولى الظافر وخلفه أخوه عبد الرحمن شنجول على الحجابة ،بعث إليه المعز بن زيرى هدية رائعة تألف من ٧٠٠ من الخيل ، وأحمال من الدرق واللمط والسلاح ، فمر عبد الرحمن وجدد له ولاية المغرب(١). وظل المعز أميرا على فاس والمغرب حتى توفى فى جمادى الأولى سنة ٤٠٢ هـ ، فخلفه ابن عمه حمامة بن المعز بن عطية ، وكانت الخلافة الأموية فى قرطبة قد انقرضت فى هذه السنة ،فاستقل حمامة بالمغرب الأقصى ، واستفحل ملكه ، ثم نازعه على المغرب الامير أبو الكمال تميم بن زيرى بن يعلى البرغواطى سنة ٤٢٤ هـ ، ودامت بينهما حروب طويلة انهزم فيها حمامة ، وفر إلى تلمسان ،ودخل تميم مدينة فاس ،وقتل فيها عدداً كبيراً من اليهود . ولكن حمامة لم يلبث أن تغلب عليه وأجلاه عن فاس فى سنة ٤٣٩ هـ ،وأقام بالمغرب حتى توفى سنة ٤٤٠ هـ (٢) ، وقيل سنة ٤٤٣ (٣) . وكان حمامة مستنيرا ، حسن السياسة ، فتمتعت فاس فى أيامه ، وشهدت فترة من الرخاء والازدهار. وكان الشعراء يقصدونه من الأندلس ،ويمدحونه بأشعارهم(٤).

ولما توفى خلفه ابنه أبو القطان دوناس واستولى على فاس وسائر ما كان لأبيه من مدن المغرب ، ولكن عهده كان مشحونا بالاضطراب والفتن ، فقد خرج عليه ابن عمه حماد بن منصر بن المعز بن زيرى ، فقامت بينهما حروب طويلة ، وغلب حماد على فاس ، وحاصرها حصارا شديدا ، وقطع

---

(١) المرجع السابق ص ٢٦٤
(٢) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ص ١٦١
(٣) ابن عذارى ص ٢٦٥
(٤) نفس المرجع ص ٢٦٥

مياه الوادي من عدوة القرويين ، إلى أن توفي حماد ، واستقام أمر دوناس ، وساد فاس عهد من السلم والهدوء ، استمر حتى وفاته في سنة ٥٢ هـ . وقد ازدهرت فاس في عهده ، وتمت عمرانها ، وأصبحت بحق عاصمة المغرب ، وكان دوناس قد احتفل بعمارتها ، وأدار سورا يحيط بها وبأرباضها ، وبنى بها المساجد والحمامات والفنادق ، وأصبحت فاس مدينة واحدة في أيامه (١) .

ولما توفي دوناس في سنة ٥٢٥هـ خلفه على فاس ابنه الفتوح بن دوناس ، ونزل بعدوة الأندلس ، فنازعه الأمر أخوه لصغر عجيسة ، فاستولى على عدوة القرويين ، ونشبت الحرب بين الأخوين ، فحصن الفتوح عدوة الاندلس ، وبنى بها قصبة لسكناه بالموضع المعروف بالكدان ، وفتح بابا في العدوة من الجهة القبلية سماه باسمه . كذلك حصن عجيسة عدوة القرويين ، وبنى بها قصبة لسكناه بعقبة الصفر ، وفتح هناك بابا في الجهة الشمالية سماه باسمه ، واشتد العداء بين فتوح وعجيسة ، وأصبح القتال بينهما يوميا في الموضع المسمى بكهف الوقادين ، ونتج عن كثرة الحروب والاضطرابات اشتداد الغلاء ، وانتشار المجاعة في المدينة . واستمر القتال دائرا بين الأخوين زهاء ثلاث سنوات ، إلى أن تمكن الفتوح من اقتحام عدوة القرويين ، وقتل أخاه ، واستولى على العدوتين ، فأمر بتغيير اسم باب عجيسة ، فأسقط العين وأضاف إلى الاسم حرفا الألف واللام ، فأصبح هذا

---

(١) ابن الخطيب ، ص ١٦٢ ـ القلقشندي ، ص ١٨٧ ـ الجيزناني ص ٣٠ ـ الناصري ص ٢٢٢

الباب يعرف بباب الجيسة (١) . وفي أثناء ذلك كانت لمتونة قد ظهرت في أطراف البلاد ، وتغلبت عليها ، وتمكن عبد الله بن ياسين من دخول أغمات وما يليها (٢) ، وتمكن خليفته يوسف بن تاشفين من افتتاح بلاد كثيرة ، فخاف المعتز على نفسه من الملثمين ، فتخلى عن مدينة فاس لأحد أقاربه هو منصور بن حماد بن منصور بن المعز بن زيري ، وعندئذ زحف يلكين بن محمد بن حماد ، صاحب قلعة بني حماد ، إلى فاس في سنة ٤٥٤ هـ ، ودخلها ، وأخذ عدد من أعيانها رهائن لديه ، ثم عاد إلى قلعته . وكان منصور بن حماد قد تلقى بيعة قبائل مغراوة بفاس وأحوازها في رمضان سنة ٤٥٥ ، وكان منصر هذا شجاعا حازما ، تمكن من مدافعة الملثمين من لمتونة ، وانتصر عليهم في إحدى المواقع ، ولكن يوسف تمكن من دخول مدينة فاس صلحا في سنة ٤٥٩ هـ ، وخلف عليها عامله ، وعفى لمغارية غمارة ، وافتتح كثيرا من بلادها وقلاعها ، فاستغل منصر فرصة اشتغال ابن تاشفين بمحاصرة قلعة فازاز ، ودخل مدينة فاس ، وقتل عامل يوسف عليها ومن معه من لمتونة . ولما بلغ يوسف بن تاشفين خبره ، سير مهدي بن يوسف الكزنائي ، صاحب مكناسة ، إلى فاس ، فهاجمه منصر في طريقه ، وهزمه وقتله في سنة ٤٥٦ هـ ، فسرح يوسف عساكر لمتونة إلى حصار فاس ، وقطع المرافق عنها ، حتى اشتد الأمر على أهلها ، فوزر إليه منصر ، واشتبك مع لمتونة في قتال شديد انتهى بهزيمة منصر ومقتله في سنة ٤٦٠ هـ . فبايع أهل فاس ابنه تميم . وعانى أهل فاس في أيامه من حصار الملثمين ومن الفتنة ومن الغلاء.

---

(١) الجزنائي ، ص ٢١

(٢) ابن عذاري ، ص ٢٦٥

ولما فرغ يوسف بن تاشفين من أمر غمارة سنة ٤٦٢هـ ، زحف إلى فاس وحاصرها أياما ، ثم افتتحها عنوة للمرة الثانية ، وقتل بها زهاء ثلاثة آلاف من قبائل مغراوة وبني يفرن ومكناسة ، وقبائل زناتة ، وكان ثمم من جملتهم[1] . وقيل أن يوسف دخل مدينة فاس في سنة ٤٦١ [2] ، وقيل في سنة ٤٦٢ [3] .

٤ ـ فاس في ظل دولتي المرابطين والموحدين:

لما دخل يوسف بن تاشفين مدينة فاس ، أمر بهدم الأسوار التي كانت تفصل بين عدوتي القرويين والأندلسيين ، وجعلها مدينة واحدة [4] ، وحصنها ، وأمر ببنيان المساجد في شوارع فاس وأزقتها ، كما أمر ببناء الحمامات والفنادق والأرحاء والأسواق [5] . واهتم يوسف بن تاشفين بمدينة فاس اهتماما كبيرا على الرغم من اتخاذه مدينة مراكش عاصمة لدولته ، وفي ذلك يقول الجزنائي : « ومازال كبير لمتونة وأميرها يوسف بن تاشفين في زيادة المساجد ، وسقاياتها ، وحماماتها ، وخاناتها ، وإصلاح أمورها ، وأقدم من قرطبة جملة من صناع ، فبنوا منها كثيرا إلى ما يذكر بعد إن شاء الله تعالى ، وفي أيامه عبارت العدوتان قطرا واحدا » [6] . وفي أيام

---

(١) القلقشندي ، ص ١٨٨ ـ السلاوي ، ص ٢٢٥

(٢) ابن الخطيب ، ص ١٦٣

(٣) المقل الوشية ، ص ١٦

(٤) القلقشندي ، ص ١٨٨ ، ١٩٠ ـ السلاوي ج ٢ ، ص ٢٩

(٥) ابن أبي زرع ، روض القرطاس ، ص ٩٠

(٦) الجزنائي ، ص ٣٢

على بن يوسف شيد سور القوراجة (١) التي تقع بين باب الجيسة وباب أصليجن على يد قاضيه عبـــد الحق بن معيشه ، كما أقام يوسف بن تاشفين سور زيتون بن عطية وأقام البرج الكبير القائم هناك (٢) .

وقد ازدهرت فاس في عهد المرابطين ، وأصبحت بحق العاصمة الثانية للمغرب . ولقد وصفها الإدريسي في عصر المرابطين بقوله : « ومدينة فاس صناع ومعايش ، ومبان سامية ، ودور وقصور ، ولأهلها اهتمام بحوائجهم ومبانيهم وجميع آلاتهم ، ونعمها كثيرة ، والمنتابة بها رخيصة الأسعار جدا دون غيرها من البلاد القريبة منها ، وفواكهها كثيرة ، ورخصها زائد ، وبها في كل مكان منها عيون نابعة ، ومياه جارية ، وعليها قباب مبنية ، ودواميس محكمة ، وتفوتن وضروب من الزينة ، وبخارجها الماء مطرد فائض من عيون غزيرة ، وجهاتها مخضرة موئقة ، وبساتينها عامرة ، وحدائقها ملتفة ، وفي أهلهـــا عزة ومنعة » . ثم يقول الإدريسي في موضع آخر : « ومدينة فاس قطب ومدار لمدن المغرب الأقصى ... ومدينة فاس هي حضرتها الكبرى ومقصدها الأشهر ، وعليها تشد الركائب ، وإليها تقصد القوافل ويجلب إلى حضرتها كل غريبة من الثياب والبضائع والأمتعة الحسنة . وأهلها مياسير ولها من كل حسن أكبر نصيب ، وأوفر حظ » (٣) .

ظلت فاس تحتل المكانة الثانية في المغرب كله بعد مدينة مراكش التي أسسها يوسف بن تاشفين في سنة ٤٥٤ هـ . وفقـــا لرواية ابن أبي زرع ،

---

(١) القوراجة سور من البناء يتفرع من السور الأصلي للمدينة ، ويبنى عادة ببرج براني يقوم بناؤه في أضعف المواقع الدفاعية في المدينة .

(٢) المرجع السابق

(٣) الادريسي ، ص ٧٥

وأقام بها فصر الحجر سنة ٤٦٣ هـ (١)، وسورها علي بن يوسف سنة ٥٠٢ هـ (٢). وظلت فاس خاضعة للمرابطين إلى أن ظهر الموحدون، وتغلبوا على المرابطين.

وفي سنة ٥٤٠ هـ حاصر عبد المؤمن بن علي مدينة فاس، وقد تحصن بها يحيى بن أبي بكر الصحراوي (٣)، من قبل جيش المرابطين في وهران، وأقام الموحدون على حصار فاس، وأهلها يقاتلونهم خارج البلد فعالا عنيفا، فعمد عبد المؤمن إلى وسيلة لإرغام أهل فاس على التسليم، فأمر بسد فاس بالبناء والخشب والحطب، ورفع التراب على الوادي سدا بعد آخر حتى احتبس الماء عن مجراه فتفاضى على الحصن كله، فأصبح الحصن بحيرة،

---

(١) الحلل الموشية، ص ١٢

(٢) نفس المرجع ص ٢٠

(٣) هو يحيى بن أبي بكر بن يوسف بن تاشفين عم الأمير يوسف بن تاشفين، ويلقب بالصحراوي، وهو لقب أخذه عن أمه الصحراوية، وكان لقبه الصحيح ابن الصحراوية، وقد تولى قيادة جيوش المرابطين بعد مقتل تاشفين بن علي، فتولى القيادة العامة لجيش المرابطين، وفر إلى فاس (انظر ابن الأثير) - وقد أبلى يحيى هذا في محاربة الموحدين بلاء حسنا، ثم دخل في طاعة الموحدين، واندرج تحت لوائهم، وعظم عندهم، فتولوه على من وحد من لمتونة، وظل كذلك إلى أن قتل عندما حاصر عبد المؤمن تلمسان وأتوال أعنته عليه. وكان أخ يحيى متزوجة من الكاتب المكين أبي جعفر أحمد بن عطية الذي استوزره عبد المؤمن، فأراد أبو جعفر أن ينتقم من قتل عبد المؤمن عليه، فنصحه بالفرار للجزيرة حيث قد طلب استدعاء عبد المؤمن تظاهر بالمرض، وبلغ عبد المؤمن ما فعله كاتبه أبو جعفر، فدخل أبا جعفر في سنة ٥٥٣ هـ، ثم أمر بالقبض على يحيى وسجنه فمات فيه. (المرجع السابق: أبو بكر الصنهاجي المعروف بالبيذق، كتاب أخبار المهدي ابن تومرت، باريس سنة ١٩٢٨، تعليق لفي بروفنسال، ص ١٦٠، ملحوظة ١ — المراكشي، المعجب، ص ١٩٩، ٢٠٠)

واستعان عبد المؤمن على ذلك بالآلات واتساع الفحص ، ثم خرق السد مرة واحدة . فتدفقت المياه كالسيل العارم فهدمت السور بباب السلسلة وتهدم من دور فاس ما يزيد على ألفى دار . ولكن أهل فاس لم يستسلموا لذلك ، بل ازدادت مقاومتهم للموحدين ، ووقفوا على هدم السور ، وقاتلوه من خارجها ، وكان عبد المؤمن قد خرج من عدوته أثناء الليل إلى مكناسة لمحاصرتها ، وترك على جيشه بفاس أبا بكر بن جبر فلما طال الحصار على أهل فاس إلى تسعة أشهر توجه والى المدينة أبو محمد الجيانى (١) خفية إلى أبي بكر بن جبر ، وأدخله من باب الفتوح . وكان الجيانى المذكور موتوراً من الصحراوى إذ كان قد طالبه بمال كثير وضيق عليه فيه ، ولم يكن فى وسع الجيانى أن يعطيه هذا المال ، فتحايل على إدخال الموحدين ، فلم يشعر الصحراوى إلا وقد اقتحم الموحدون المدينة فى فجر يوم ١٤ ذى القعدة سنة ٥٤٠ هـ ، وتمكن الصحراوى من الفرار ومعه عمر بن يغمراسن ، ويحيى بن سعد وجدال بن موسى وشيوخ لمطة . فهبطوا مع نهر سبو إلى بنى تاودا ، ودخلوا قلعة أمرجو وتحصنوا بداخلها ، ثم فر الصحراوى إلى الأندلس . أما عبد المؤمن فقد دخل مدينة فاس ، وأقام بها بعض الوقت ، ثم خرج منها بعد أن ترك عليها أبا عبد الله محمد بن يحيى الهنتيوى والجيانى (٢).

ولما دخل عبد المؤمن مدينة فاس ، أمر بفتح ثغرات واسعة بسورها ،

---

(١) هو أبو محمد بن عبد الله بن خيار الجيانى كان عاملا على مدينة فاس فى دولة المنصور ( انظر ابن الابار ، الحلة السيراء ، ملحق رقم ٢ من كتاب البيان ، أخبار المهدى ابن تومرت ، ص ١٤٦ )

(٢) البيذق ، ص ١٠١ ، ١٠٢ — الحلل الموشية ، ص ١٠١ ، ١٠٢ — السلاوى ، ص ١٠٢

وقال : « إنا لا نحتاج إلى سور ، وإنما أسوارنا سيوفنا وعدلنا » . وظلت فاس بلا أسوار إلى أن شرع الخليفة أبو يوسف يعقوب المنصور في بنائها ، وأكملها ابنه أبو عبد الله محمد الناصر عند زيارته لفاس في سنة ٥٩٥ هـ وأقام بها ثلاث سنوات أتم خلالها بناء أسوار فاس وقصبتها الواقعة على الوادي (١) ، كذلك أتم بها أبو عبد الله محمد الناصر باب الشريعة الذي سمي بباب الحروق نسبة إلى العبيدي الثائر بجبال وزان من أحواز فاس ، الذي علق رأسه على باب الشريعة ، وأحرق جسده في وسط هذا الباب في اليوم الذي ركبت فيه مصاريع الباب سنة ٦٠٠ هـ (٢) .

ولقد ازدهرت فاس في عصر المرابطين والموحدين ، ازدهارا لم تشهده هذه المدينة من قبل ، وتألقت تألقا جعلها جديرة بأن تكون العاصمة الفعلية للمغرب كله ، في عصر هاتين الأسرتين . ويذكر عبد الواحد المراكشي ، أن « مدينة فاس هذه هي حاضرة المغرب في وقتنا هذا ، وموضع العلم فيه ، اجتمع فيها علم القيروان وعلم قرطبة ، إذ كانت قرطبة حاضرة الأندلس كما كانت القيروان حاضرة المغرب . فلما اضطرب أمر القيروان - كما ذكرنا - بعيث العرب فيها ، واضطرب أمر قرطبة باختلاف بني أمية بعد موت أبي عامر محمد بن أبي عامر وابنه ، رحل من هذه وهذه من كان فيها من العلماء والفضلاء من كل طبقة ، فرارا من الفتنة ، فنزل أكثرهم مدينة فاس ، فهي اليوم على غاية الحضارة ، وأهلها في غاية التكيس ونهاية التظرف ، ولتتهم أفصح اللغات في ذلك الإقليم ، ومازلت أسمع المشايخ يدعونها بغداد المغرب ،

---

(١) الجزنائي ، ص ٣٢ - السلاوي ، ج ٢ ص ١٠٢

(٢) نفس المرجع ص ٣٣ - الدنيدة السنية في تاريخ الدولة المرينية ، تحقيق محمد بن شنب ، الجزائر ، ١٩٢٠ ص ٣٨

وبحق ما قالوا ذلك ، فإنه ليس بالمغرب شيء من أنواع الظرف واللياقة في كل معنى إلا وهو منسوب إليها ، وموجود فيها ، ومأخوذ منها ، لا يدفع هذا القول أحد من أهل المغرب ، وإنما يحقد لقوتها والمعاندة مدينة مراكش وطننا ، ولا يجعلوها دار ملكه لأنها خير من مدينة فاس في شيء من الأشياء ، ولكن لقرب مراكش من جبال المصامدة وصحراء لمتونة ، فلهذا السبب كانت مراكش كرسي المملكة ، وإلا فمدينة فاس أحق بذلك منها »(١). ثم يصف المراكشي مدينة فاس ، ويذكر عظمتها وتمو عمرانها فيقول : « وما أظن في الدنيا مدينة كمدينة فاس ، أكثر مرافق ، وأوسع معايش وأخصب جهـــات ، وذلك أنها مدينة يحفها الماء والشجر من جميع جهاتها ، وتتخلل الأنهار أكثر دورها زائدا على نحو من أربعين عينا يتفجر عليها أبوابها ، ويحيط بها سورها ، وفي داخلها وتحت سورها نحو من ثلاثمائة طاحونة تطحن بالماء ، ولا أعلم بالمغرب مدينة لا تحتاج إلى شيء يجلب إليها من غيرها ، إلا ما كان من العطر الهندي سوى مدينة فاس هذه ، فإنها لا تحتاج إلى مدينة في شيء مما تدعو إليه الضرورة ، بل هي توسع البلاد مرافق ، وتملؤها خيرا »(٢).

كذلك يعظمها ابن أبي زرع ، ويذكر أن المرابطين والموحدين إنما نزلوا بمراكش واتخـــذوها قاعدة لدولتهم لقربها من بلادهم ، ولأنها مبنية في وسط بلادهم وبين قبائلهم(٣). ويصفها الجزنائي في عصر دولتي المرابطين والموحدين

---

(١) عبد الواحد المراكشي ، المعجب ، ص ٣٠٨

(٢) نفس المرجع ، ص ٣٠٩

(٣) Levi - Provençal, Extraits des historiens, p. 21

وصفا رائعا ويذكر عظمتها وما بلغته من عمران وعمارة ، ويشير إلى الصناعات التي ازدهرت فيها فيقول : « وانتهت مدينة فاس في أيام المرابطين والموحدين من بعدهم من الفيطة ، والرفاهية ، والنعمة ، والأمن ، والعافية ، ما لم تبلغه مدينـــة من مدن المغرب لاسيما في زمن المنصور الموحدي وولده محمد الناصر ، وكانت المساجد بها سبعمائة وخمسة وثمانين ، ودور الوضوء اثنين وأربعين ، والسقايات ثمانين ، والحمامات ثلاثة وتسعين ، وأرحاء الماء أربعمائة واثنين وسبعين ، ودور السكنى تسعا وثمانين ألفا ومائتين وستة وثلاثين ، والمصاوى ١ سبعة عشر ألفا وإحدى وأربعين ، والفنادق أربعمائة وسبعة وستين ، والحوانيت تسعة آلاف واثنين وثمانين ، وقيسارية واحدة في كل عدوة منها ، ودار السكة واحدة في كل عدوة منها ، والأطرزة(٢) ثلاثة آلاف وأربعة وتسعين ، ودور عمل الصابون سبعا وأربعين ، ودور الدباغين ستا وثمانين ، ودور الصباغ مائة وستـــة عشر ، ودور تشبيك الحديد والنحاس اثني عشر ، ودور عمل الزجاج إحدى عشرة ، وكوش الحبس مائة وخمسا وثلاثين ، وأفران الخبز ألفا ومائة وسبعين ، وأحجار عمل الكاغيد (٣) أربعمائة ، كل ذلك بداخل المدينة ، ودور الفخارة مائة وثمانين بخارج المدينة » (٤) .

---

(١) المصاوى جمع مصراية ، والمصراية غرفة عليا بالدار تطـــل على الطريق بمدخل ، وتشبه المقعرية أو المطلة ، وكانت الغرفة في معظم الأحيان مقرنصة أي مزودة بنافذة مشبكة الانتشاب .

(٢) المقصود بالاطرزة الانوال

(٣) الكاغيد هو الورق

(٤) الجزنائي ، ص ٣٣

ولكن هـــذا العمران الزاهر لم يلبث أن تعرض للتدمير فى أيام الفتنة التى قامت فى أيام العادل وأخيه المأمون أبى العلاء إدريس ، فى أواخر عصر الموحدين زهاء عشرين سنة (١).

٥ — فاس عاصمة بنى مرين : ( أنظر خريطة رقم ٩٠ )

انقرضت دولة الموحدين بوفاة أبى العلاء إدريس الواثق بالله المعروف بأبى دبوس ، ودرست آثارها ، واستولى الخراب والدمار على معظم ديار المغرب ، وخاصة فاس ، بسبب الحروب القائمة بينه وبين المرتضى أبى حفص عمر بن اسحق . وقد تحالف أبو دبوس مع بنى مرين ليظفر بالخلافة ، ولكن لم تنظم معاونتهم له عن مراكش حاضرة الموحدين ، ففر المرتضى إلى آزمور حيث مات قتيلا فى سنة ٦٦٦ هـ ، ولكن أبا دبوس نكث بعهده مع بنى مرين ، فانحدر الأمير أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق المرينى إلى مهاجمة مراكش فى نفس هذه السنة ، وانتهى الأمر بمقتل أبى دبوس أمام أسوار مدينة مراكش ، فدخلها بنو مرين ، وبعثوا برأس أبى دبوس إلى فاس . وكانت فاس قد تعرضت لهجمات بنى مرين فى سنة ٦٤٢ هـ فى خلافة السعيد على ، ولكنهم لم يتمكنوا من دخولها ، ولبعض أربع سنوات على ذلك حتى تمكن الأمير أبو بكر بن عبد الحق المرينى من الاستيلاء على مدينة فاس ، وانتزعها من عاملها السيد أبى العباس ، إذ بايعه أهلها فى الرابطة الواقعة خارج باب الشريعة ، ودخلها جيش بنى مرين فى ٢٩ ربيع الآخر سنة ٦٤٦ هـ بعد موت السعيد فى مراكش بحوشهر بن . واستخلف عليها مولاه المسعود بن خرباش ، وسار لمحاصرة فازاز ، فانتقض أهل فاس ، مع طائفة من الزرقة النصارى

(١) المرجع السابق ص ٣٩

بقيادة ثريد الفرنجي على بني مرين في ٢٠ شوال سنة ٦٤٧ ، وقتلوا السيد وأربعين من رجاله ، وبايعوا المرتضى . وعندما علم أبو بكر بن عبد الحق بذلك رفع الحصار عن فازاز ، وقدم إلى فاس ، وأطاعها بعسكره ، وقطع المادة عنها ، وبأس أهل فاس من نصرة المرتضى لهم ، فسألوا أبا بكر الأمان ، فأمنهم ، واسترجع المدينة [1] . وفي فاس توفي الأمير أبو بكر في قصره بالقصبة في سنة ٦٨٦ ، ودفن داخل باب الجيسة ، وخلفه من بعده ابنه أبو حفص عمر ، ولكن عمه المنصور بالله يعقوب بن عبد الحق هاجم فاس ودخلها في سنة ٦٨٧ هـ ، وأصبحت فاس حاضرة دولة بني مرين ، فانتعشت المدينة في عصرهم . وكان أول ما فعله أبو يوسف يعقوب أن أمر بإخراج أجناد الروم الذين كانوا يسكنون فاس ، وبنى لهم الرسى القديم بخارج باب الشريعة على يد عامله عليها أبي العلاء بن أبي طلحة [2] .

اهتم بنو مرين بفاس اهتماما خاصا ، واعتنوا بأمرها ، وزودوها بمدينة ألحقت بها تعرف بالمدينة البيضاء المعروفة بفاس الجديد ، واتخذوها داراً للإمارة [3] منذ عهد المنصور أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق المريني ، فقد عزم أبو يوسف بعد أن تمهد ملكه في المغرب أن يختط بلدا ينسب إليه ، ويتخذها دار ملكه وقرار سلطانه ، ويسكنها هو وحاشيته وحشمه وأولياؤه ، فأمر ببناء المدينة البيضاء ، بإلحاق مدينة فاس ، فخرج في ٣ شوال من سنة

---

(١) تعرضت فاس لحريق كبير في أيام ولاية السلطان المريني أبي سالم ، فاحترقت سوق الصاغة والقلادين والصباغين ودامت النار إلى باب البلغة فاحترقت مساجده ( الشجرة الزكية ، ص ٢٠٠ )

(٢) نفس المرجع ص ١٠٠ ، ١٠٦

(٣) إسماعيل بن الأحمر ، روضة النسرين في دولة بني مرين ، الرباط ، ١٩٦٢ ص ٦٩

٦٧٤ هـ وسمه العرفاء والبنائين وأهل المعرفة بالصنائع ، فتخيروا موضعها على وادي فاس من جهة أعلاه ، وشرع في حفر أساسها في هذا اليوم واختطها وبناها ، وشيدها ، وبنى أسوارها وجامعها وأسواقها [1] ، ونزلها بحاشيته وذريه في نفس هذه السنة ، واختط للناس بها الدور والمنازل ، وأجريت فيها المياه إلى القصور [2] ، وأقام القناطر بطرقاتها مثل قنطرة وادي النجاء وقنطرة مرين [3] . ولما أتم بناء سور مدينة فاس الجديد ، أمر في سنة ٦٧٦ هـ ببناء الجامع الكبير بفاس الجديد للخطبة [4] ، فأسس على يدي أبي عبد الله ابن عبد الكريم الحدردي ، وأبي علي بن الازرق والي مكناسة ، واشتغل في البناء أسرى الروم الذين قدم بهم من الأندلس . وقد تم بناء هذا الجامع في رمضان سنة ٦٧٧ هـ ، وأقيمت فيه الصلاة . وفي سنة ٦٧٩ هـ ، أقام بمدينته الجديدة الأسواق من باب القنطرة إلى باب عيون صنهاجة ، وبنى بها حماما عظيما ، وقصورا لوزرائه ، وعمرت المدينة بعد ذلك بالمدارس والفنادق والأسواق » [5] . ولقد أجرى بعقوب المياه إليها عن طريق وادي الجواهر وغدير الحمص الذي يلتقي ماؤه من الموضع المعروف برأس الماء غربي هذه البلدة ، اختط به أبو يوسف يعقوب قصرا مشرفا على محل خروجه [6] .

---

(١) الذخيرة السنية ، ١٨٦ ، ١٨٧

(٢) السلاوي ، ج ٣ ص ٤٤

(٣) الذخيرة السنية ص ٩٩

(٤) Maslow, les mosquées de Fès et du Nord du Maroc, Paris 1927, pp. 38 - 59

(٥) نفس المرجع ص ١٨٨ — روضة القرطاس ص ٢٠

(٦) روضة القرطاس ص ٢٠

وقد مدح ابن الخطيب بالتشدق عليه فاس الجديد بقوله : « وأما مدينة الملك فبيضاء كالصباح ، أنق للقرر العداح ، عتقر لايوانها إيوان كسرى ، وترجع العين حسرى ، ومقاعد الحرس ، وملاعب الليث المفترس ، وغابات الدوح المغترس ، ومدرس من درس أو درس ، ومجالس الحكم للفصل ، ومقاصف الترس والنصل ، وأعداف الحاشية أولى الحصل ، وأراوين الكتاب ، وخزائن عرائس الآداب ، وكراسي الحجاب ، وعنصر الأمر العجاب ...»[1].

ووصفها ابن أبي زرع في عصر بني مرين فذكر محاسنها بقوله : « وهي الآن قاعدة ملوك بني مرين أطال الله أيامهم ، وأعلى أعلامهم ، وخلد سلطانهم ، فهي منهم في المحل الرفيع والشكل البديع ، وقد جمعت مدينة فاس بين عذوبة الماء ، واعتدال الهواء ، وطيب التربة ، وحسن الترة ، وسعة المحرث ، وعظيم بركته ، وقرب المحطب ، وكثرة عوده وشجر وشجرة ، وبها منازل موثقة ، وبساتين مشرقة ، ورياض مورقة ، وأسواق مرتبة منسقة ، وعيون منهمرة ، وأنهار متدفقة متحدرة ، وأشجار ملتفة ، وجنات دانية بها مجتمعة ، وقالت الحكماء ، أحسن مواضع المدن أن تجمع خمسة أشياء وهي : النهر الجاري ، والمحرث الطيب ، والمحطب القريب ، والسور الحصين ، والسلطان إذا به صلاح حالها ، وأمر سبيلها ، وكف جبابرتها ، وقد جمعت مدينة فاس هذه الخصال التي هي كمال المدن وشرفها ، وزادت عليها بمحاسن كثيرة ، فإنها المحرث العظيم سقيا وبعلا ، على كل جهة منها ما ليس هو على مدينة من مدائن المغرب ، وعليها المحطب في جبل بني بهلول الذي في قبالتها يضيء كل

---

(١) ابن الخطيب : مشاهدات لسان الدين بن الخطيب في المغرب والأندلس ، تحقيق الدكتور أحمد مختار العبادي ، الاسكندرية ١٩٧٨ ، ص ١٨٢

يوم على أبوابها أحمال حطب للبلوط والفحم ما لا يوصف كثرة ، ونهرها يشقها بنصفين ويتشعب في داخلها أنهارا وجداول وخلجانا ، فتخلل الأنهار ديارها وبساتينها وجناتها ، وشوارعها وأسواقها وحماماتها ، وتطحن به أرحاؤها ، ويخرج منها وقد حمل أثقالها وأقذارها ورمادتها [1] ».

ولقد اهتم سلاطين بني مرين بانشاء الحمـــامات ، فأنشئت حمامات خولان ورشتانة وأبي يعقوب . وكانت بفاس دار صناعة لإنشاء القوارب والسفن الصغار بالموضع المعروف بالجبالات قرب ملتقى وادي فاس ، وكان قد أنشأها عبد المؤمن ، وفي هذه الدار أمر السلطان أبو عنان المريني بانشاء جفنين بمنزل خولان أحدهما شيلمي يجري مائة وعشرين محاريا ، والثاني شلمي يجري ستين محاريا ، ودفعا بوادي سبو إلى أن وصلا إلى سلا سنة ٧٥٦ هـ [2].

وظلت فاس قاعدة بني مرين حتى ضعفت دولتهم ، وظهرت دولة الأشراف السعديين على أنقاض دولة بني مرين ، وأخذ سلطانهم محمد الشيخ يستولي على مدن المغرب ، فاستولى على مراكش في سنة ٩٤٦ هـ ، واكتسب محمد الشيخ محبة أهل المغرب لجهاده ضد البرتغاليين ، ونجاحه في افتتاح حصن فونق وحصن آسفي وآزمور فالخط مرسى أغادير بالسوس الأقصى في سنة ٩٤٢ هـ ، واستولى على مكناسة الزيتون في سنة ٩٥٥ هـ ، وأخذ بلتهم مدن بني مرين الواحدة بعد الأخرى ، ثم تقدم في سنة ٩٥٩ لمحاصرة فاس ، وتمكن من الاستيلاء عليها ، وفر قائد جيش بني مرين وهو أبو حسون الوطاسي

---

(١) ابن أبي زرع ، نص وارد بكتاب : Traités des historiens arabes ص ٢٦ — ٢٢ — الجزنائي ، ص ٢٥ ، ٢٦

(٢) الجزنائي ، ص ٢٦ ، ٦٢

إلى ثغر الجزائر ، حيث استنجد بالأتراك ، ونجح بفضلهم في استرجاع فاس في سنة ٩٦١هـ ، ولكن الأتراك تصرفوا تصرف الفاتحين ، فانتهكوا الحرمات ، وعاثوا في البلاد ، واضطر أبو حسون إلى صرفهم عن خدمته ، وإخراجهم من فاس ، ووجد نفسه بعد إخراجهم وحيدا دون نصير . وكان محمد الشيخ قد استنصر القبائل واستنفرها ، وعبأ الأجناد ، فزحف إلى فاس ، ودخلها في ٢٤ شوال سنة ٩٦١ هـ ، وقتل أبا حسون ، وتلقب بالخلافة ولكنه لم يتخذ فاسا عاصمة له ، وآثر مدينة مراكش لهذا الغرض (١).

وفي عهد دولة الأشراف العلويين بالمغرب ، استرجعت فاس عظمتها ، وأصبحت حاضرة المغرب في عهد مولاي الرشيد سنة ١٠٧٢-١٠٨٢ هـ ، وقد زودها بمنشآت كثيرة منها قنطرة وادي سبو القائمة على أقواس أربعة ، شيدها في سنة ١٠٨٠ هـ بالقرب من مدينة فاس ، والقصبة الجديدة التي أسسها في سنة ١٠٨٩-١٠٨٩ بفاس بالي ، كما أقام قصبة الحبس بالبلدة نفسها (٢) . أما ابنه مولاي إسماعيل فقد فضل مدينة مكناس واتخذها حاضرة له . وأصبح للمغرب عاصمتان : فاس في الشمال ، ومكناس في الجنوب ، ثم استعادت فاس عظمتها في عهد مولاي سليمان ( ١٢٠٦ - ١٢٣٨ هـ ) الذي أنشأ فيها أبوابا كثيرة ومساجد جديدة . وظلت فاس منذ ذلك الحين المدينة الأولى في المغرب .

---

(١) السيد عبد العزيز سالم ، المغرب الإسلامي ، ج ٢ ص ١٢٩

(٢) André Julien, histoire de l'Afrique du Nord depuis la conquête arabe Paris 1952

# الفصل السابع

## دولتا الرستميين بتاهرت والمدراريين بسجلماسة

(١) أولية الرستميين

ا ـ انتشار دعوة الإباضية في المغربين الأدنى والأوسط

ب ـ عبد الرحمن بن رستم وتأسيس تاهرت

ج ـ عبد الرحمن بن رستم إمام الرستميين

د ـ إمامة عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم وبداية ظهور الانقسامات المذهبية عند الإباضية

(٢) خلفاء عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم

ا ـ خلافة الإمام أفلح

ب ـ الإمام أبو بكر بن أفلح

ج ـ إمامة أبي اليقظان محمد

د ـ إمامة أبي حاتم يوسف بن محمد

هـ ـ إمامة اليقظان بن أبي اليقظان ونهاية دولة الرستميين

(٣) علاقة الدولة الرستمية بجيرانها

ا ـ علاقة الدولة الرستمية بولاة إفريقية

ب ـ علاقة الرستميين بالأمويين في الأندلس

ج ـ علاقة الرستميين بمصر

د ـ علاقة الدولة الرستمية بدولة بني واسول بسجلماسة

هـ ـ علاقة الدولة الرستمية بالسودان

(٤) حضارة الرستميين في تاهرت

ا ـ الحياة العلمية

ب ـ الحياة الاقتصادية

ج ـ الحياة الفنية

(٥) دولة بني مدرار بسجلماسه

ا ـ نشأة سجلماسة وقيام دولة بني واسول المدراريين

ب ـ خلفاء اليسع بن أبي القاسم محمون الملقب بالمدرار

# الفصل السابع

## دولتا الرستميين بتاهرت والمدراريين بسجلماسة

### (١)

### أولية الرستميين

١ ـ انتشار دعوة الإباضية في المغربين الأدنى والأوسط :

كانت السياسة الجائرة التي جرى عليها خلفاء وبني أمية قد جعلتهم في نظر كثير من أتقياء المسلمين منحرفين عن تعاليم الإسلام ومبادئه القائمة على العدل والمساواة والشورى ، فقد استأثروا بالخلافة ، واستبدوا برئاسة الدولة ، ولم يطبقوا نظام الشورى في اختيار الخلفاء ، وحادوا عن العدل والمساواة بين المسلمين ، وانحرفوا عن الاشتراكية التي نادى بها الإسلام ، وتقوم على التزام العدل وإنفاق مال الدولة في مصالح المسلمين ، وأصبحت الأموال في العصر الأموي تنفق على الشهوات والمتع واللذات ، وعلى الأولياء والأنصار والمؤيدين . أدت هذه السياسة الفاشمة إلى قيام جماعات في العراق تنادي بتطبيق مبادىء الإسلام القائمة على المساواة والعدل ، والرجوع إلى الشورى في اختيار الإمام ، فظهر الإباضية ، وهي فرقة خارجية تنسب إلى داعية منهم هو عبد الله بن إباض المري التميمي ، ومن أئمتها أبو الشعثاء جابر بن زيد الأزدي العماني ، الذي يعتبر المؤسس الحقيقي لهذه الفرقة ، وكان من أعظم علماء عصره بالشريعة والفقه الإسلامي ، متبحرا في أصول الفقه ، أخذ العلم عن كثير من الصحابة ، وكان مما قاله على نفسه اعتزازا وتحدثا

رضي الله عنه : « أدركت ستين رجلا من بدر ، فحويتا ما عندهم من العلم إلا البحر الزاخر ( يقصد عبد الله ابن عباس ) » ، وكان ابن عباس يمتدح علمه فيقول : « اسألوا جابر بن زيد ، فلو سألته من بالمشرق والمغرب لوسعهم علمه » ، ولما توفي جابر عبر عالم التابعين أنس عن خسارة الإسلام بفقده بقوله : « مات اليوم أعلم من في الأرض » (١) . ومن تلاميذ جابر ، أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة ، وضمام بن السائب ، وحيان الأعرج ، وأبو حمزة الأشعث ، وأبو نوح صالح الدهان ، وعمرو بن دينار . وكان جابر بن زيد ينادي بالقضاء على بدعة الملك الذي اصطنعه الأمويون ، والرجوع بالإسلام إلى نظام الشورى والعدل والمساواة بين المسلمين المعروف في عصر الخلفاء الراشدين ، لذلك حاربه بنو أمية ، وفر إلى الحجاج إلى عمان ، فأقام بها مدة ، ثم عاد إلى البصرة لاستكمال رسالته ، وظل يعمل جاهدا لإنشاء الجمهورية الإسلامية الفاضلة ، إلى أن توفي في سنة ٩٣ هـ . وخلفه في إمامة الإباضية أبو عبيدة مسلم ، وكان مثالا للورع والتمسك بالدين ، عالما من أبرز علماء عصره ، شديد التمسك بعبادة أستاذه ، فسجنه الحجاج مع جماعة من الإباضية ، ثم أفرج عنه في خلافة سليمان بن عبد الملك . وأدرك عبيد الله ضرورة الدعوة للمذهب الإباضي في المشرق الإسلامي ، ورأى أن ينطلق الإباضية بدعوتهم إلى أطراف الدولة الإسلامية ، وعلى الأخص بلاد المغرب . فاختار رجلا من تلاميذه معروفا بحماسة للإباضية ، وبعلمه الغزير ، وتقواه وورعه مع بلاغته وفصاحة لسانه هو سلمة بن سعد ، بعثه إلى المغرب لنشر دعوة الإباضية . ويوفود سلمة بن سعد في أول القرن الثاني الهجرة

---

(١) أبو الربيع سليمان الباروني ، مختصر تاريخ الإباضية ، تونس ، ١٩٦٨ ص ٢٩

إلى سرت ، انتشر المذهب الإباضي على نحو تجاوز كل تقدير في الحسبان ، وعند ذلك للمهد بدأ دعاة الإباضية يتوافدون على المغرب لنشر الدعوة تمهيدا لإنشاء دولة إباضية . وقد ساعد على انتشار الإباضية ، وتوافد دعاتها أن الدولة العباسية كانت أشد وطأة على الخارجين من الدولة الأموية ، فاستبد العباسون بالدولة ، وداسوا على مبادىء الإسلام الكريمة ، ورفعوا السيف في كل من ناوأ سلطانهم . وكان المغرب الإسلامي يقلى سخطا على ولاة الأمويين والعباسين لمظالمهم ، وكان إقبال البربر على الإباضية سريعا ، فلم تلبث هذه الشرارة الأولى أن أشعلت نارا احتدم لظاها في المغربين الأدنى والأوسط في طرابلس وإقليم قسطيلية ، ومعظم بلاد المغرب الأوسط من مليانة إلى وهران .

وأراد البربر التعمق في دراسة مذهب الإباضية ، فقد شوقهم سلمة بن سعد إلى شد الرحال إلى المشرق لتلقي علوم هذا المذهب على الإمام أبي عبيدة (١) ، فرحل فريق من علمائهم إلى البصرة للأخذ على هذا الإمام ، وكانوا أربعة هم : عبد الرحمن بن رستم الفارسي ، وعاصم السدراتي ، وأبو داود الفزيل النفزاوي ، وإسماعيل بن ضرار الغدامسي ، وانضم إليهم عند أبي عبيدة مسلم ثائر آخر هو أبو الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري الذي اختاره أبو عبيدة لرئاسة الدولة الإباضية التي ينوي البربر إقامتها في المغرب ، لغزارة علمه ، وتفهمه العميق للدين ، ومهارته في الاستنباط . وعاد حملة العلم الخمسة إلى المغرب الإسلامي ، بعد إقامة دامت خمس سنين في البصرة ، عادوا إلى المغرب وهم يشعلون حماسا لإنشاء دولة على مذهبهم الإباضي ، وتمت مبايعة

---

(١) أبو اليقظان إبراهيم التاروتي ، مختصر تاريخ الإباضية ، ص ٣٥

أبي الخطاب بالإمامة ، وأعلن قيام الدولة الإباضية في محرم سنة ١٤٠ هـ في موضع يعرف باسم صياد غربي طرابلس ، وتمكن الإباضية بعد مبايعة أبي الخطاب من الاستيلاء على طرابلس واتخذوها مقرا لهم (١) . ودانت لأبي الخطاب البلاد بالطاعة لما شاع عنه من الرفق بالرعية ، والعدل بين الناس ، فعظم شأنه فيهم ، واعتد سلطانه شرقا إلى برقة ، وغربا إلى القيروان ، وجنوبا إلى غدامس (٢) . واختار أبو الخطاب عبد الرحمن بن رستم رفيقه في العلم قاضيا بطرابلس (٣) .

وفي هذه الأثناء كانت قبيلة ورفجومة النفزية بقيادة عاصم بن جميل ، وكانت من غلاة الصفرية قد دخلت القيروان ، واستحلت فيها المحارم ، وارتكبت الكبائر ، وأساء رجالها إلى الإسلام ، فتقربطوا دوابهم في المسجد الجامع ، وعاثوا عيثا شديدا في مدينة القيروان (٤) . ولما علم أبو الخطاب بما أصاب القيروان ، بكى رحمة بأهلها ، ودفعه غيرته على الإسلام إلى استنفار الناس لمقاتلة هؤلاء المتوحشين ، وخرج بجيش من أتباعه عدته نحو ستة آلاف في سنة ١٤١ هـ ، وافتتح قابس ، ومنها سار إلى القيروان ، واشتبك مع ورفجومة في قتال عنيف ، في صفر سنة ١٤١ هـ انتهى بانتصار الإباضية ، وقتل عبد الملك بن أبي الجعدي اليفرني ، قائد عاصم بن جميل ، ودخل أبو

---

(١) محمد علي دبوز ، تاريخ المغرب الكبير ، ج ٣ ص ١٣٥ ـ ١٠٩

(٢) العمر ، تاريخ الإباضية ، ٣٣

(٣) نفس المرجع ص ٣٥ ـ سليمان بن عبد الله الباروني النفوسي : مختصر الأزهار الرياضية في أئمة وملوك الإباضية ، بدون تاريخ ، ص ٨٩

(٤) ابن عذاري ، ج ١ ص ٨١ ـ مختصر تاريخ الإباضية ، ص ٣٣

الخطاب مدينة القيروان ، وحصروها بذلك من الصفرية المتطرفين . ثم علم أبو الخطاب وهو بالقيروان بعزم محمد بن الأشعث الخزاعي ، عامل بني العباس على مصر على تسيير حملة إلى طرابلس بقيادة أبي الأحوص عمرو بن الأحوص العجلي . فولى عبد الرحمن بن رستم الفارسي ، قاضي طرابلس ، وأحد زعماء الإباضية ، على إفريقية موقعم من بلاد المغرب الأوسط كان سكانه من الإباضية ، يمتد من جزائر بني مزغنة إلى وهران . وعاد أبو الخطاب إلى طرابلس . وفي سنة ١٤٧ هـ أقبل الجيش العباسي بقيادة أبي الأحوص العجلي ، فزحف إليه أبو الخطاب بجموع الإباضية من البربر والعرب ، والتقى الجيشان في مصداس ، فانهزم أبو الأحوص وجيشه ، وعاد إلى مصر . ولم يسكت أبو جعفر المنصور على هذه الهزيمة ، ورأى في ضياع نفوذ بني العباس بالمغرب تهديدا مباشرا لمصر والشام ، فعزم على القضاء على دولة الإباضية ، وإعادة بسط النفوذ العباسي على إفريقية ، وأخذ يهيء كل طاقات الدولة وإمكاناتها لهذا الغرض ، فولى إفريقية محمد بن الأشعث الخزاعي ، عامله السابق على مصر ، وأعد جيشا ضخما عدته أربعون ألف مقاتل ، يقودهم عشرة من أعظم قواد دولته نخص بالذكر منهم الأغلب بن سالم التميمي ، والمخارب بن هلال ، والخارق بن غفار الطائي . وزحف هذا الجيش إلى برقة . وأمام هذا الخطر الذي يتهدد الإمامة الإباضية الفتية ، خرج أبو الخطاب في جيش هائل عدته مائتي ألف مقاتل ، عسكريهم في أرض سرت . وأمام هذه الكثرة الهائلة أحجم ابن الأشعث عن لقاء الإباضية ، فتظاهر بالانسحاب إلى مصر ، ثم دهم معسكر أبي الخطاب في تاورغا فجأة في صفر سنة ١٤٤ ، فانهزم الإباضية ، وقتل أبو الخطاب في جملة من خيار

أصحابه يبلغ عددهم ٩٢ ألفا (١) . وكان عبد الرحمن بن رستم يذهب لنجدة أبي الخطاب ، فسمع وهو في طريقه إليه بأنباء الهزيمة للشماء التي منى بها جيشه ، وآثر أن يترك الغرب الأدنى ونائه ، ويمضي إلى المغرب الأوسط حيث لا يصل نفوذ العباسيين ، وحيث يتركز جمهور الإباضية الذين انحصروا لأبي الخطاب وله ، فيمكنه هناك أن يؤسس دولة إباضية على شتى دولة أبي الخطـــاب .

ب — عبد الرحمن بن رستم وتأسيس تاهرت :

أجمع المؤرخون على أن عبد الرحمن بن رستم من أصل فارسي ، وذكر بعضهم أنه من أعقـاب رستم قائد جيش الفرس في موقعة القادسية (٢) ، بينما يرفع بعضهم نسبه إلى بهرام كور كسرى فارس (٣) . وكان ابن رستم هذا مولى لعثمان بن عفان (٤) ، ثم وفد إلى المغرب مع العرب الفاتحين (٥) ، ويبدو أنه قدم في أواخر العصر الأموي ، واستقر بالقيروان ، وأخـذ في بيئتها العلمية الزاهرة على كبار علمائها ، وكان من بين العلماء الأربعة الذين

---

(١) ابن عذاري ، ص ٨٣ — ابن خلدون ، ج ٤ ص ٤١١ — مختصر تاريخ الإباضية ، ص ٢٤

(٢) ابن خلدون ، ج ٦ ص ٢٤٦

(٣) البكري ، معجم ما استعجم ، مادة تاهرت — ياقوت ، معجم البلدان ، مادة تاهرت — ابن عذاري ، ج ١ ص ٢٢٧

(٤) ابن عذاري ، ج ١ ص ٢٢٢ — ياقوت ، معجم البلدان ، مادة تاهرت ، ج ٢ ص ٨

(٥) ابن خلدون ، ج ٦ ص ٢٤٦ . وقيل أن أباه رستم بن بهرام قدم مكة بزوجته وابنه الصغير فمات بها ، فتزوجت زوجته رجلا من القيروان ، فأقبل مع أمـــه إلى القيروان ( ديوان ، ص ٣٠١ نقلا عن الشماخي صاحب السير ) .

وقع عليهم اختيار الإباضية للبربر للالتفاف على أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة التميمي البصري ، ولما عاد إلى المغرب مع رفاقه ، وقامت إمامة أبي الخطاب ، ولاه على قضاء طرابلس ، وكان عبد الرحمن بن رستم أكبر أعوانه في إدارة دولته وتصريف أموره ، وفي حل المشكلات التي يستعصي عليه حلها (١) ، وكان أبو الخطاب قد ماز مقدرته وكفايته وحسن سياسته ما جعله يستخلفه على القيروان وللمغرب الأوسط ، قبل أن يمضي هو لمحاربة المسودة ، ولما قتل أبو الخطاب ، وتمكن ابن الأشعث من القضاء على الولايات الإباضية بطرابلس ، وزحف بجيشه لاسترداد القيروان ، وجد ابن رستم أن من الأسلم له ولأتباعه النجاة إلى المغرب الأوسط ، حيث يستطيع بفضل أنصاره هناك أن يعيد إنشاء دولة على المذهب الإباضي ، على نسق دولة أبي الخطاب في طرابلس . فخرج مستخفيا قاصدا المغرب ، ولم يكن معه شيء إلا ما خف من ماله ولم يكن يرافقه إلا ابنه عبد الوهاب ومماليك (٢) ، فتوجهوا إلى قبيلة لماية البربرية وذلك لحلف قديم كان قائما بينه وبينهم (٣) . وقطعوا في سيرهم مسافة غير قصيرة ، ولكنهم فوجئوا بموت فرس عبد الرحمن ، فدفنوه حتى لا يعلم بموته أحد من حزب عبد الرحمن بن حبيب فيطمع فيهم ويتبع أثرهم ، ولما كانت المسافة إلى لماية طويلة ، فقد كان من الطبيعي أن يمس عبد الرحمن بن رستم بالتعب ، لكبر سنه وشيخوخته ،

---

(١) عبد على ديوز ، ج ٣ ص ٢٥١

(٢) الأزهار الرياضية في أئمة وملوك الإباضية ج ٢ ص ٢ — مختصر تاريخ الإباضية ص ٣٦

(٣) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٤٢

فاضطر ابنه عبد الوهاب ، وعبده إلى حملة على ظهريهما بالتناوب (١). ويبدو أن عبد الرحمن سلك فى سيره الطريق الجنوبية للقـــارة بقسطيلية . وذكر الأستاذ ديوز أنه اخترق شمال وادى سرف ، وسار مغربا على شمال تيفورت ومدينتى القرارة وبيربان من وادى ميزاب إلى مدينة الأغواط ، فاجتاز جبال بنى راشد غربا ، ثم انحرف شمالا ، شرق مدينة آفلو ، وغربى وادى شلف حتى نزل على وادى سوفجج الذى ينبع من سفح جبـل سوفجج ، ويقع بين مدينتى سلالة شرقا والسوفر غربا (٢) ، وجنوبى مدينة تاهرت . ويعتقد الأستاذ ديوز أن هذا الجبل هو نفس الجبـل المعروف اليوم بجبل سوفنيف . وكان هذا الجبل فى غاية المنعة والحصـانة لصعوبة مرتقاه ، فنزله عبد الرحمن ، وتحصن فيـه ، وكان عامرا بالإباضية ، فأدركوه ، وأنزلوه بينهم ، وتبع به وجوه الإباضية وعلماؤهم ، فقصدوه من كل النواحى حتى اجتمع لديه من طرابلس وجبل نفوسة من العلماء وحدهم مايزيد على ستين من كبار أهل العلم والفضل والرأى (٣) . وتسارعت قبائل هوارة ولواته ولماية بالانضمام إليه ، والالتفاف حوله . ولما علم ابن الأشعث فى القيروان بمكان ابن رستم بنى الفرار إلى المغرب الأوسط ، واجتماع قبائل البربر إليه ، والتفافهم حوله ، جهز جيشا ، وسار به إلى هذا الجبل بقصد استئزال عبد الرحمن بن رستم قبل أن يستفحل أمره ، فلما تقـــدم بجيشه عسكر فى سفح الجبل ، وحفر خندقا حول معسكره خوفا من أى هجوم قد يقوم به الإباضية على معسكره ، ثم طوق الجبل من كل ناحية ، واستمر محاصرا له

---

(١) الأزهار الرياضية ، ٣ ـ مختصر تاريخ الإباضية ، ص ٣٦

(٢) ديوز ، ج ٣ ص ٢٥٩

(٣) الأزهار الرياضية ، ص ٣ ـ مختصر تاريخ الإباضية ، ص ٣٦

مدة حاول خلالها بكل الوسائل عبثا الوصول إلى معقل ابن رستم ، ولما طال الحصار ، سئم جنده البقاء ، واتفق أن فشا بينهم وباء الطاعون ، فهلك منهم عدد كبير ، وقد اضطر لذلك إلى فك الحصار والعودة إلى القيروان ، وعبر عن صعوبة فتح الجبل بقوله : « إن موضعه لا يدخله إلا دارع ومدجج » (١) . وأقام عبد الرحمن هناك حتى اجتمع إليه عدد كبير من فضلاء الإباضية وكبارهم ، وأجمع هؤلاء على مبايعة عبد الرحمن بن رستم برئاستهم ، وكان لابد لمؤسس دولة الرستميين أن يؤسس مدينة يتزل فيها هو وأتباعه وأنصاره ، تكون مقرا لدولته على نحو ما فعله أبو القاسم محمد ابن واسول الكتامي المصغري عندما اختط سجلماسة سنة ١٤٠ هـ (٢) ، فتطلع عبد الرحمن بعد أن بويع بزعامة الإباضية إلى إنشاء مدينة تكون جديرة بمركز هذه الدولة الفتية . وكان يهدف إلى اختيار موضع منيع تحوطه الجبال ، لتكون درعا طبيعيا لهذه المدينة ، ووقع اختياره على الموضع الذي تقوم عليه مدينة تاهرت القديمة ، وكانت حصنا للروم ، وشرع في بناء دورها . ويذكر البكري « أنهم لما أرادوا بناء تاهرت ، كانوا يبنون النهار ، فإذا جن الليل ، وأصبحوا ، وجدوا بنيانهم قد تهدم ، فبنوا حينئذ تاهرت السفلى ، وهي الحديثة ، وهي على خمسة أميال من القديمة » (٣) . ويمتاز موقع هذه المدينة الرستمية بأنه على سفح جبل جزول المرتفع ، وتكتنفه غابة ملتفة بالأشجار ، يمكن أن تكون أرضا صالحة للزراعة ، وتليع

---

(١) الأزهار الرياضية ، ص ٣

(٢) ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٨٢ — ابن خلدون ج ٦ ص ٣٣٢

(٣) البكري ص ٦٧ — تاهرت ، معجم البلدان ، مادة تاهرت ، ص ٨

فيها العيون الطبيعية ، ويجرى فيها نهر لا ينقطع ماؤه اسمه نهر مينة (١) ، ويكتنف المدينة بأعلى المناطق الجبلية غابات خضراء رائعة الجمال .

وللموقع اختيار عبد الرحمن على هذا الموضع لبناء مدينته المقبلة ، وأعجبه مناخه المعتدل ، اشتراه من أصحابه ، وهم بربر من صنهاجة ومغراوة ، بعد أن اتفق مع أصحابها على أن يؤدى إليهم خراجا معلوما بأخذونه من غلتها ، واتبع الإباضية فى تطهير الغابة وإزالتها نفس السبيل الذى اتبعه عقبة بن نافع من قبل فى تطهير الغيضة التى أقيمت عليها القيروان ، فأحرق الأشجار ، فلما خمدت النيران ، قام أبناء بتنقية هذه الأشجار وتمهيد الأرض ، وأصبحت بذلك صالحة للعمارة عليها . ثم شرع فى تخطيط تاهرت الجديدة ، وحفر أسس أسوارها سنة ١٤٤ ، وأسس مسجدها الجامع ، وكان يتألف من أربع بلاطات (٢) . وكان هذا الجامع مصلى للجنائز (٣) على نحو جامع الزيتونة وجامع القرويين بفاس . ثم أقبل الناس على بناء القصور والقصور ، والحمامات ، والفنادق ، والحوانيت ، والأسواق ، والأرحاء ، فأصبحت تاهرت فى أمد وجيز مدينة عامرة ، تجارتها زاهرة ، وقومها مياسير . وكان لها عدة موانئ منها مرسى فروخ ترسو فيه مراكبها ، ومرسى تنس ، ومستغانم ، ووهران ، وهذا المرسى الأخير كان يربط الدولة الرستمية بالأندلس . وقصدها الناس من كل الأقطار الإسلامية ، واتجهوا من كل مكان ، فازدهر اقتصادها ، وألفت الحضارة فيها . وأصبحت تاهرت

---

(١) الاستبصار ، ص ١٧٨

(٢) ابن عذارى ، ص ٢٢٢

(٣) ابن الصغير المالكى ، سيرة الأئمة الرستميين ، بارمن ١٩٠٤ ، ص ٤١

على هذا النحو مقصد الرحلات ، ومركز الهجرات ، لما شاع من عدل عبد الرحمن بن رستم في رعيته وحسن سيرته فيهم ، ففتحت أبوابها لكل من طرقها من الخارجين على الدولة العباسية ، ومن ضاقت نفوسهم بعسف خلفاء بني العباس واستبدادهم . وكان من جملة الوافدين عليها طائفة من الفرس . وقام الوافدون على تاهرت بالبناء والعمارة وغرس البساتين وإجراء الأنهار واتخاذ الرحى والمستغلات وغير ذلك ، فاتسع لذلك عمران المدينة حتى « لا ترى داراً إلا قيل هذه لفلان الكوفي ، وهذه لفلان البصري ، وهذه لفلان القيرواني » (١) .

وقد وصف اليعقوبي مدينة تاهرت في القرن الثالث الهجري بقوله : « والمدينة العظمى تاهرت جليلة المقدار ، عظيمة الأمر ، تسمى عراق المغرب ، لما اختلط من الناس تغلب عليها قوم من الفرس ، يقال لهم بنو محمد بن أفلح بن عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم الفارسي ... » (٢) . ووصفها المقدسي في القرن الرابع الهجري بقوله : « تاهرت هي اسم القصبة أيضا هي بلغ المغرب ، قد أحدق بها الأنهار ، والتفت بها الأشجار ، وغابت في البساتين ، ونبعت حولها الأعين ، وجل بها الإقليم ، وانتعش فيها الغريب ، واستطابها اللبيب ، يفضلونها على دمشق وأخطأوا ، وعلى قرطبة وما أظنهم أصابوا ، هو بلد كبير كثير الخير ، رحب رفق ، طيب ، رشيق الأسواق ، غزير الماء ، جيد الأهل ، قديم الوضع ، عكر الوصف ، عجيب الوصف ... بها جامعان على ضفة البلد ، قد بنيا بالحجارة » .

---

(١) الأزهار الرياضية ، ص ١٢ .

(٢) اليعقوبي ، ص ١٠٣ .

قريبان من الأسواق . ومن دروبها المعروفة أربعة : باب عجانة ، درب المعصومة ، درب حارة القنير ، درب البساتين »[1] . ووصفها ابن حوقل في القرن الرابع الهجري أيضا فقال : « وتامرت مدينتان كبرتان ، إحداهما قديمة أزلية ، والأخرى محدثة ، والقديمة ذات سور ، وهي على جبل ليس بالعالي ، وفيها كثير من الناس ، وفيها جامع . وفي المحدثة أيضا جامع ، ولكل إمام وخطيب ، والتجار والتجارة بالمحدثة أكثر ، ولهم مياه كثيرة تدخل على أكثر دورهم ، وأشجار وبساتين ، وحمامات وخانات . وهي أحد معادن الدواب ، والماشية ، والغنم ، والبغال ، والبراذين الفراهية ، ويكثر عندهم العسل والسمن وضروب الفلات »[2] ويصفها البكري في القرن الخامس فيقول : « ومدينة تامرت مدينة مسورة لها أربعة أبواب : باب الصفا ، وباب للنازل ، وباب الاندلس ، وباب المطاحن . وهي في سفح جبل يقال له جزول ، ولها قصبة مشرفة على السوق تسمى المعصومة ، وهي على نهر يأتيها من جهة القبلة يسمى عينة ، وهو في قبليها ، ونهر آخر يجري من عيون تجتمع يسمى تاتش ، ومنه شرب أهلها وأرضها ، وهو في شرقيها ، وفيها جميع الثمار . وسفرجلها يفوق سفرجل الآفاق حسنا وطعما وحشا ، وسفرجلها يسمى بالفارسي . وهي شديدة البرد كثيرة الثلوج والثلج »[3] .

ويصفها صاحب الاستبصار في القرن السادس الهجري بقوله : « ومن

---

(١) المقدسي : أحسن التقاسيم لمعرفة الاقاليم ، ليدن ، ١٩٠٦ ص ٢٢٨

(٢) ابن حوقل : صورة الأرض ط . بيروت ١٩٦٢ ، ٨٦

(٣) البكري : ص ٦٦

مدن المغرب الأوسط المشهورة مدينة تاهرت ، وهي مدينة مشهورة قديمة كبيرة ، عليها سور صخر ، ولها قصبة منيعة على سوقها تسمى المصورة . ومدينة تاهرت في سفح جبل يسمى فرندل ، وهي على نهر كبير يأتيها من ناحية المغرب يسمى منية ، وللنهر آخر يجري من عيون تجتمع بسمى نانس ، ومنه تشرب أرضها وبساتينها ، وكان لها بساتين كثيرة فيها جميع الثمار ، فيها سفرجل يفوق سفرجل جميع البلاد حسنا وطعما ورائحة » (١) . وفي تاهرت يقول أيضا ياقوت : « وهي مدينة جليلة ، وكانت قديما تسمى عراق المغرب ، ولم يكن في طاعة صاحب إفريقية ، ولا بلغت عساكر السودة إليها قط ، ولا دخلت في سلطان بني الأغلب ، وإنما كان آخر ملاعتهم مدن الزاب ... وهذه تاهرت الحديثة ، وهي على خمسة أميال من تاهرت القديمة ، وهي حصن ابن بخاتة ، وهو شرق الحديثة ، ويقال إنهم لما أرادوا بناء تاهرت القديمة كانوا يبنون بالنهار ، فاذا جن الليل ، وأصبحوا وجدوا بناءهم قد تهدم ، فبنوا حينئذ تاهرت السفلى وهي الحديثة ... » (٢) .

ج — عبد الرحمن بن رستم امام الرستميين :

لم يبايع الاباضيه ابن رستم بالإمامة إلا في سنة ١٦٠ هـ بعد أن رست قواعد الدولة ، ورسخت دعائمها ، وتوطدت أركانها ، وامتدت جذورها ، وأصبحت قادرة على الدفاع عن نفسها ، وبعد أن نظم مؤسسوها صفوفهم ، وأذابوا مشاكلهم . وأهم هذه المشاكل التي صادفتها الدولة قبل سنة ١٦٠ هـ

---

(١) الاستبصار ، ص ١٧٨

(٢) ياقوت ، معجم البلدان مجلد ٢ ص ٨

مشكلة الإتحاد مع صفرية تلمسان فى ضرب العباسيين الذين كانوا يهددون إلى القضاء معا على الصفرية والإباضية بالمغرب . كذلك لم يكن إباضية طرابلس قد ألقوا سلاحهم ، بعد استشهاد إمامهم أبى الخطاب فى سنة ١٤٤ ، فظلوا يخوضون المعارك مع العباسيين ، متحصنين من جبل نفوسة حصنا ومعقلا يحتمون فيه . فى ولاية الأغلب بن سالم ، تمكنت زناتة البترية فى تلمسان من جمع شملها تحت لواء أبى قـــرة بن دوناس اليفرنى الصفرى ، وكان الأغلب ينوى الإصطدام مع زناتة الصفرية ، ولكنه أصيب فى موقعة حدثت بينه وبين الحسن بن حرب ، بسهم أرداه قتيلا فى سنة ١٥٠ هـ . وخلفه على إفريقية عمر بن حفص ، وكان يهدف إلى تحصين طبنة ، واتخاذها مركزا لشن غاراته على الإباضية والصفرية ، فما كاد يخرج إلى طبنة فى سنة ١٥٤ هـ ، وتخلو إفريقية من عسكر العباسيين حتى ثار بها البربر باتفاق مع الصفرية فى تلمسان والإباضية فى تاهرت وطرابلس وجنوب إفريقيـــة . هاجم البربر الجنيد بن بشار الأسدى ، عامل عمر بن حفص على إفريقية . واجتمع الإباضية فى طرابلس ، وبايعوا أبا حاتم يعقوب بن حبيب الإباضى بالإمامة فى سنة ١٥٤ . ولما هرجم الجنيد ، استنجد عمر بن حفص فى طبنة ، فأمده بعسكر لمواجهة الوقف . ولكن قوات الإباضيـــة أبادتهم ، وفر فلهم إلى قابس ، فحاصرهم أبو حاتم بها [1] . وتجمعت حشود الخوارج من كل ناحية ، حتى قيل أن عدد جيوشهم بلغ ١٢ جيشا ، توجهوا جميعا إلى الزاب . واشترك عبد الرحمن بن رستم فى المعركة بقيادة جيشه ، ولكنه رابط فى تهوذه استعدادا للتدخل عند الحاجة إليه . وقد رأينا كيف نجح عمر بن حفص فى إغراء جماعة من

---

(١) ابن الأثير ، ج ٥ ص ٣٢

اليوبر بمالة للتخلى عن أبى قرة ، ثم تمكن بذلك من فك الحصار ، ووجه عسكره إلى ابن رستم ، فانهزم ابن رستم إلى تاهرت . وعلى الرغم من انتصار إباضية طرابلس بقيادة أبي حاتم ، على عمر فى القيروان ، فقد انتهى أمر هؤلاء بالهزيمة على أيدى قوات يزيد بن حاتم فى جبال نفوسة فى ربيع الأول سنة ٥٥ ؛ هـ ، وقتل أبو حاتم هو وصفوة قواده (١) .

عاد ابن رستم إلى تاهرت بعد هزيمته على يد عمر بن حفص ، فاهتم بتنظيم بلاده ، وأجمع أهل الحل والربط من الإباضية على مبايعته بالإمامة فى سنة ١٦٠ هـ ، كما اشترك فى مبايعته إباضية طرابلس ، فاتسع سلطانه بين القبائل العديدة التى دخلت فى طاعته ، وعلى رأسها نفوسة . وساد الأمن والسلام ربوع بلاده ، إذ كان يسلك فى الناس سبيل العـــدل والإنصاف ، وكان لايستبد برأى ، وإنما كان يصطنع أهل الرأى فى مجلس الشورى ، وانتشرت فى المشرق الاسلامى سيرته العطرة ، فكثر أنصاره ، لا فى البـــلاد القريبة فحسب ، بل فى العراق ومصر وخراسان ، واعتز إباضية البصرة بهذه الدولة التى تحققت بها أمنيتهم فى قيام إمامة إباضية تطبق فيها مبادىء مذهبهم . ولم يتردد هؤلاء الإباضية فى البصرة عن مساعدة هذه الإمامة الفتية بالأموال ؛ ويذكر ابن الصغير أن إباضيه البصرة وغيرها من بلاد المشرق الاسلامى جمعوا أموالا عظيمة وبعثوا بها مع نفر من ثقاتهم لتسليمها إلى عبد الرحمن بن رستم ، عندما يتبين لهم صدق مايشاع عنه من حسن السيرة والعدل . فمضى هـــذا الوفد البصرى حتى وصـــلوا إلى تاهرت ، ونزلوا المصلى ، فأناخوا جمالهم ودخلوا تاهرت من باب العنبا ، ودلهم الناس على دار الإمام عبد الرحمن ؛

---

(١) مختصر تاريخ الإباضية ص ٣١ .

« فوجدوا عند بابها غلاما يسجن طينا ، فناولوه رجلا على سطح الدار يصلح ثقبا فيه . فسلموا على الغلام ، فرد السلام . فقالوا : أهذه دار الإمام ؟ ـ تعجبا من بساطتها ، وظنا أن لا تكون هي دار الإمام ، إذ كانوا يتوهمون أن يجدوا داره قصرا منيفا ـ فقال الغلام نعم . فقالوا له : استأذن لنا منه ، وأعلمه أن رسل إخوانه إليه من البصرة . فرفع الغلام رأسه إلى سيده ، وقد علم أنه سمع كلامهم . فقال : قل للقوم يصبرون قليلا . ثم أقبل على ما كان من إصلاح السطح حتى انقضى ، والقوم ينظرون إليه ، وهم شاكون فيه ، هل هو صاحبهم أم لا . فنزل من سطحه إلى داره ، فغسل ما كان بيديه من أثر الطين ، ثم توضأ وضوء الصلاة ، فأذن للقوم فدخلوا عليه ، فوجدوا رجلا جالسا على حصير فوقه جلد ، وليس في بيته سوى وسادته وسندانه الذي يقام عليها وسيفه ورمحه ، وفرس مربوط في ناحية من داره . فسلموا عليه ، وأعلموه أنهم رسل إخوانه إليه . فأمر غلامه بإحضار طعامه ، فأتاه بمائدته عليها قرص ساخن وسمن وشيء من ملح . فأمر بذلك القرص فهشم ، وأمر بالسمن فلت به ، ثم قال : على اسم الله ادنوا وكلوا ، فأكل معهم . فلما انقضى طعامهم ، جدد الترحيب بهم ، فسألهم : ما مرادكم ، وما جاء بكم ؟ فقالوا له : نريد أن تأذن لنا فنخلو بأنفسنا ، ثم نكلمك بعد ذلك ، فقال : افعلوا . فنهض لحوائجه ، فأخلى لهم المجلس ، فجلسوا تجيا ، فقال بعضهم لبعض : يكفينا من السؤال عنه ما رأينا منه من إصلاحه لداره بنفسه ، ومطعمه وملبسه وحلية بيته ، فما نرى إلا أن ندفع إليه المال ، ولا نشاور أحدا فيه . وكان الذي معهم من المال ثلاثة أحمال من المال ، ست غرائر ، فأجمع رأيهم على حمل المال إليه . فرجعوا إليه . » [1] . ثم أبلغوه بأمر مساعدة إباضية

(١) ابن الصغير المالكي ، ص ٦٠ ـ الأزهار الرياضية ص ٨٠ وما يليها

المشرق له فى تمكين دولته بهذا المال ، فعزم ابن رستم على عقد مجلس للشورى من وجوه القبائل فى المسجد الجامع . فلما اجتمع أعضاء المجلس قرروا قبول هذه المساعدة لحاجة الإمامة الفتية إلى ما من شأنه أن يقوى دعائمها ، على أن يقسم ثلث هذا المال للكراع ، وثلثه للسلاح ، وثلثه للفقراء والضعفاء . فشرع الإمام فى شراء الكراع والسلاح ، وتحسنت أحوال الناس ، وأنسوا من أنفسهم قدرة على توسيع نطاق العمران فشرعوا ، فى إجراء الأنهر واتخاذ الأرحاء والمستغلات . ولم يمض ثلاث سنين على هذه المعونة المشرقية حتى عاد وفد إباضية البصرة يحملون عشرة أحمال من الذهب لإعانة الإمامة من جديد حتى تقوى وتتمكن بذلك من الوقوف أمام مطامع العباسيين . ولكنهم شاهدوا مدينة تاهرت قد تبدلت ، إذ أقيمت فيها « قصور مشيدة ، ودور منظمة ، وأبنية مبهجة ، وقباب مرتفعة ، وأسواق مزدحمة ، ومساجد متعددة بمنارات عالية ، وحمامات متقنة ، ويحيط بالعاصمة بساتين متنوعة ، ومطاحن منصبة ، على الأنهار الجارية ، واتخذ أهلها الفرش والستائر المزخرفة ، والخيل المسومة ، وتنوعت الملابس وتعددت الثياب والأزياء ، ورأوا ما لم يخطر لهم ببال »[1] ، ولكنهم رأوا دار الإمام على ما كانت عليه من البساطة ومذاجة البناء . فلما قابلوا عبد الرحمن بن رستم ، جمع مجلس الشورى كاملة الساعة لاستشارة أصحابه ، فتركوا له أمر التصرف فى هذه الأموال . فأمر عبد الرحمن أعضاء الوفد البصرى ، بإرجاع هذه الأموال إلى أصحابها ليستعينوا بها فى جهادهم مع العباسيين ، فهم أولى من المسلمين بذلك ، بعد أن أثرت الدولة الرستمية ، وقويت دعائمها ، وعيشا

---

(١) نفس المرجع ص ١٣

حاول الجميع إقناع الإمام بوجوب قبوله لها ، ولكنه أصر على رأيه[1].

تجمع عبد الرحمن بن رستم في أمد وجيز للغاية في أن يؤسس دولة قوية، هابها جيرانها، وانضوا يطلبون صداقته، ويسعون إلى خطب مودته ومواده. وهاجر إليها كثيرون من أهل المشرق والمغرب والأندلس ، ونزلوا بها ، وقصدها التجار ، والكتاب ، والعلماء ، ورجال الصناعة والفن ، وأرباب الحرف من سائر أنحاء العالم الاسلامي . وقد كان لذلك أكبر الأثر في تطور عمرانها ، ونمو تجارتها ، واتساع مواردها الاقتصادية ، وشهد المغرب الأوسط في عهد عبد الرحمن بن رستم سيلا من الهدوء والأمن لم يعرفها من قبل ، بينما كان المغرب الأدنى يضطرم بنار الفتن والثورات .

ولما أحس عبد الرحمن بدنو أجله ، اقتدى بعمر بن الخطاب ، فاختار سبعة من خيرة رجال الدولة الرستمية ، ممن كان يتوسم فيهم الصلاح والزهد والعلم ، وهم : مسعود الأندلسي ، وعبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم ، وعمران بن مروان الأندلسي ، وأبو الموفق سعدون بن عباية ، وشكر ابن صالح الكتامي ، ومصعب بن سدمان ، ويزيد بن فندين وأوصاهم بالاجتماع والتشاور فيما بينهم لاختيار إمام من بينهم ، ثم توفي عبد الرحمن في سنة ١٧١ هـ[2] ، وقيل سنة ١٦٨ هـ[3] ، وتاريخ سنة ١٧١ هـ أول بالثقة .

---

(١) الأزهار الرياضية ، ص ٩٠ ، ٩١ ـ مختصر تاريخ الإباضية ص ٢٨

(٢) نص المرجع ص ١٠٩ ـ مختصر تاريخ الإباضية ص ٢٨

(٣) ابن عذارى ، ص ٢٢٢ ـ زاهور ، معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الاسلامي ، ج ١ ، القاهرة ١٩٨١ ص ١٠٠

د ـ امامة عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم وبداية ظهور الانقسامات المذهب عند الإباضية :

بعد أن توفى عبد الرحمن بن رستم ،اجتمع المرشحون للامامة ، وطال اجتماعهم شهرا ، وانتهوا أخيرا إلى اختيار عبدالوهاب بن عبد الرحمن ، وبويع له بالإمامة فى جامع تاهرت . ولكن اختيارعبد الوهاب لم يتم باجماع الآراء ، فقد كانت كتلة مسعود الأندلسي أكثر رجوحا ، وكان القوم يميلون إليه ، إذ كانوا لايقبلون مبدأ الوراثة من أصله . وكانت الإمامة تخرج عن عبد الوهاب ،ولولا تأييد زناتة له ، لأن أمه كانت بقرنية من زناتة، ولولا تأييد الفرس له أيضا باعتباره من أصل فارسي(١)، ولولا زهد مسعود الأندلسي عن تولى الإمامة وعزوفه عن هـــذا المنصب الخطير . ويذكر الشيخ سليمان الباروني النفوسي أن عامة الإباضية كانوا يميلون إلى اثنين من من السبعة المرشحين للامامة ، وهما عبد الوهاب ومسعود الأندلسي . ثم أجمعوا أخيرا على مسعود الأندلسي ، إما لأن مبدأ الإباضية كان يقضى بالشورى دون الوراثة ، أو لأن مسعود كان أعلم من عبد الوهاب ،ولكن مسعود الأندلسي كان ينفر من الرئاسة ويزهد فيها ، فآثر أن يخلي عنها لعبد الوهاب، فلما تقرر عقد المجلس فى دار الإمامة ، توارى عن الأنظار، فلما بحثوا عنه لم يجدوه، فاجتمعوا عبد الوهاب لمبايعته،وبينما كانوا يأمرون لذلك فوجئوا بوجود مسعود فى مقدمة المبايعين (٢) .

---

(١) محمد بن تاويت ، دولة الرستميين أصحاب تاهرت، مجلة معهد الدراسات الاسلامية في مدريد ، المجلد الخامس ١٩٥٧ ،ص١١٣

(٢) الأزهار الرياضية ص ٩٩

وكان يزيد بن فندين يطمع فى الإمامة لنفسه ، فلما وجد إجماع الناس على مبايعة عبد الوهاب حاول أن يفسد على عبد الوهاب مبايعة الناس له ، فأعلن فى الجامع أنه مستعد لمبايعة عبد الوهاب على أن يجعل معه فى الإمامة جماعة لا يقطع فى أمر دون مشورتهم (١) . ولكن مسعود الاندلسى عارضه فى ذلك بقوله « لا نعلم شرطا فى الإمامة غير أن يحكم بيننا بكتاب الله وسنة نبيه عليه السلام ، وآثار الصالحين قبله (٢) » ، وعلى أثر ذلك تمت مبايعة العلماء لعبد الوهاب ، وحمل إلى دار الإمامة فى موكب غصت به طرق تاهرت ، وتمت له البيعة العامة . ولكن ابن فندين لم يسكت على ذلك ، ففى أول ولاية عبد الوهاب قام يزيد بن فندين فى تاهرت بإثارة الفتنة ، وطعن فى إمامة عبد الوهاب ، وذلك لأنه كان يطمع فى الظفر بأحد المناصب الخطيرة فى الدولة ، فلما لم يظفر بشىء منها نقم على عبد الوهاب ، ولم يجد ما يعاربه به فى أول الأمر غير إثارة الفتنة والتلبيس على من اتبعه ، فطالبه بإقامة هيئة استشارية لا يصدر الإمام فى أمر من الأمور إلا عن رأيها ، ثم تدرج إلى إنكار إمامة عبد الوهاب من أصلها بدعوى أن فى المسلمين من هو أعلم منه (٣) ، وأدى ذلك إلى حدوث انقسام مذهبى عند الإباضية إلى نكارية ووهابية ، وكان الوهابية هم جمهور الإباضية ، كذلك أدى إلى استفتاء الفريقين لعلماء الإباضية وفقهائهم فى المشرق . وفى هذه الاثناء دبر ابن فندين مؤامرة لقتل عبد الوهاب فى غرفة نومه ، ولكن المؤامرة فشلت من أساسها

---

(١) الرجراجى ص ١٠٠ — دبوز ، ج ٣ ، ص ٤١٩

٢ نفس المرجع ، ص ١٠٠ — دبوز ، ص ٤٥٢

(٣) مختصر تاريخ الإباضية ، ص ٣٦

فزادت نقمة الثائرين من النكارية على عبد الوهاب ، وقامت المعارك في الدبغة ، وانتهت بانهزام فرقة النكارية وهزيمة شنعاء وقتل منهم نحو ١٢ ألفا ، كان من بينهم ابن فندين صاحب الحركة نفسه (١) . وأعقب هزيمة ابن فندين وأتباعه ، وصول رسل الاباضية من المشرق بصحة ولاية الإمام عبد الوهاب ، فغضب النكارية أصحاب ابن فندين لذلك ، وعبروا عن غضبهم وسخطهم بقتل ميمون بن عبد الوهاب ، والتمثيل بجثته (٢) . وقد تمكن أحد أبناء ميمون من التعرف على قتلة أبيه ، وقاتلهم هو وجده الإمام عبد الوهاب في الجبال ، وقتل منهم عددا كبيرا .

ولم تنته حركة النكارية عند هذا الحد ، إذ انضم إليهم الواصلية المعتزلة و معظمهم من زناتة ، وخرجوا على عبد الوهاب لعدة أسباب منها : أنه قتل ابن فندين ، ولأن إدريس بن عبد الله بن الحسن كان قد غزا محمد بن خزر الزناتي أمير تلمسان سنة ١٧٣ هـ ، فانضوى ابن خزر تحت لواء الأدارسة ، وأقره إدريس على تلمسان ، ولكي يوسع محمد بن خزر نفوذه أخذ يحرض قومه الزناتيين في شمال تاهرت على الثورة والانفصال عن الرستميين ، وكان معظمهم من الواصلية . ولأن اسحاق بن محمد الأوربي كان زعيما الواصلية في وليلي ، وهو الذي ناصر الأدارسة وأسس دولتهم ، وكان يطمع في مد نفوذه على كل بلاد المغرب ، فعمد إلى إثارة الواصلية في تاهرت على الإمام ، وحرضهم على الانفصال عن الدولة الرستمية .

وكان الواصلية يؤلفون حزبا قويا في شمال تاهرت ، فقد ذكر ياقوت

---

(١) الأزهار الرياضية ، ص ١١١ ـ مختصر تاريخ الاباضية ، ص ٣٦

(٢) نفس المرجع ص ١١٢

أن جمعهم كان قريبا من تاهرت، وكان عددهم يبلغ نحو ثلاثين ألفا، وكانوا يعيشون في بيوت كبيوت الأعراب يحملونها[1]، وكانوا ينتشرون في شمال تاهرت من مستغانم إلى وهران، وفي جنوبها في تيلمت وفي الصحراء، وفي وادي ميزاب، كما انتشر مذهبهم في شمال غربي المغرب الأقصى في وليلي ونواحيها[2]. وكان هؤلاء الواصلية يدعون إلى الإمامة الإسلامية باللسان، ولذلك لم يختلفوا مع الإباضية في الدولة الرستمية، بل ظلوا معهم في الاتجاه المذهبي العام، وعاشوا في كنف الرستميين، إلى أن واتتهم الفرصة للانفصال عن الإمامة الرستمية، فاضطر الإمام عبد الوهاب إلى محاربتهم بالسيف، وقضى على تمردهم[3].

وفي إمامة عبد الوهاب حاولت قبيلة هوارة الخروج على طاعة الإمام، وشرعت أولا في عاقة قبيلة لواتة عن طريق المصاهرة، ولكن عبد الوهاب تنبه إلى ذلك، فحارب قيام هذا الحلف بنفس الوسيلة، وأصهر من شيخ لواتة، وتزوج ابنته التي كان قد خطبها أمير هوارة. وبذلك انحازت إليه قبيلة لواتة[4].

وساد الهدوء بلاد الرستميين بعد ذلك، واستقر الأمر لعبد الوهاب، وازدهرت تاهرت في ظل هذه الحياة الآمنة الهادئة، فعزم عبد الوهاب على أن يختم حياته بالحج إلى مكة براً حتى يمر بقبيلة نفوسة - فاستخلف ابنه

---

(١) ياقوت، معجم البلدان ج ٢ ص ٨

(٢) الأزهار الرياضية ص ١١٦ وما يليها — ديوز، ج ٢ ص ٤٨١

(٣) نفس المرجع ص ٤٨٨ — ديوز ص ٤٨٣

(٤) نفس المرجع ص ١٢٥ — محمد بن تاويت، دولة الرستميين، ص ١١٤

أفلح على القيروان واعطى صهوة جواده ، ومضى شرقا وفى صحبته زوجه وجمع كبير من رجاله ، وسلك عبد الوهاب الطريق الصحراوية للاذرة بقسطيلية وجبل دمر الواقع إلى الجنوب من قابس ، وإلى الشمال الغربى من جبل نفوسة ، وكان جبل دمر تسكنه قبائل من دمر الزناتية ، ومع أنهم كانوا إباضية إلا أن استقرارهم قريبا من إفريقية جعلهم يؤثرون الاستقلال عن الدولة الرستمية حتى لا يتعرضوا لضربات العباسيين . وعلم أهل دمر بقدوم الإمام ، فاحتفلوا باستقباله ، ودعاهم الإمام للانضمام إلى إخوانهم بالدولة الرستمية ، فبايعوه ، وانضموا إلى دولته ، فولى عليهم شيخا صالحا يقوم بشؤونهم اسمه مدرار (١) . ومضى بعد ذلك إلى جبل نفوسة ، فنزل فى مدينة تمروس عاصمة هذا الجبل ، وأقبل إليه أهلها وأهل الجبل ، ومنعوه من متابعة السير إلى مكة إشفاقا عليه من الوقوع فى أيدى العباسيين فيقتلوه (٢).

وأقام الإمام فى جبل نفوسة سبع سنين تولى فيها شؤون القوم ، وانتقل إلى مدينة جادو مقر ولاة الرستميين فى هذا الجبل ، وأقام فى قرية منها تعرف باسم ميرى ، وبنى فيها مسجدا ، وكان يتولى فى خلال هذه السنين التى قضاها فى نفوسة ، التدريس فى مسجدها (٣) . ويبدو أن إقامة عبد الوهاب بن رستم فى جبل نفوسة شجعت قبائل هوارة الخاضعة لأمير إفريقية على إعلان ثورتها على العباسيين بطرابلس ، وأعلنت استقلالها فى سنة ١٩٦ هـ ، فاستنجد عاملها بإبراهيم بن الأغلب ، فسير ابنه أبا العباس عبد الله على رأس

---

(١) المرجع السابق ص ١٣٧ — دبوز ص ٥٠٢

(٢) الأزهار الرياضية ص ١٢٨

(٣) نفس المرجع ص ١٤٢ — دبوز ، ج ٣ ص ٥٠٢

جيش عدته ١٣ ألف فارس ، فانهزم للزبير ، وتمكن ابن الاغلب من دخول طرابلس ، وبنى سورها [١] . فاستغاثت حوارة بالإمام عبد الوهاب ، فلم يتردد في نجدتها ، وزحف إلى طرابلس بجيش ضخم ، فتحصن عبد الله الأغلبي داخل أسوار طرابلس وعندئذ حاصره الرستميون محاصرة محكمة وكان عبد الله بن ابراهيم قد أغلق أبواب المدينة ، ولم يترك منها مفتوحا إلا باب حوارة وذلك لكي يخرج منه لقتال الرستميين [٢] . وواصل عبد الوهاب ابن عبد الرحمن حصاره حول طرابلس إلى أن حدث ما لم يكن في الحسبان ، فقد علم عبد الله بوفاة أبيه ابراهيم بن الاغلب في ٢٠ شوال سنة ١٩٦ هـ ، فعزم على العودة إلى القيروان للظفر بالإمارة الاغلبية قبل أن يغتصبها منه أحد من إخوته ، فاصطلح مع عبد الوهاب على أن تكون أعمال طرابلس كلها للدولة الرستمية بينما يحتفظ الأغالبة بمدينة طرابلس والساحل [٣] . وعلى هذا الاساس رفع عبد الوهاب الحصار عن طرابلس ، وعاد إلى نفوسة بعد ان امتد سلطانه على صحراء طرابلس الواسعة . ثم عزم عبد الوهاب على العودة إلى تاهرت ، فأقام السمح بن أبي الخطاب عبد الاعلى ، أمر اصدقائه وقربهم إليه ، عاملا من قبله على جبل نفوسة وما يليه إلى ضواحي طرابلس وقابس ، ثم مضى عبد الوهاب بعد ذلك إلى تاهرت .

ولما توفي السمح بن أبي الخطاب أسرع كثير من العامة إلى مبايعة ابنه

---

(١) ابن الاثير ، ج ٥ ص ١٠٦

(٢) نفس المرجع ص ١٠٢ — الازهار الرياضية ص ١١٤ — ديوز ، ص ٢١٢

(٣) نفس المرجع — ابن خلدون ج ٤ ص ٤٢١ — الازهار الرياضية ص ١١٥ — عبد ابن ذريع ، ١١٦

خلف بولاية الجبل ، وتابعهم في ذلك بعض أعيان الجبل ، ممن رأوا الاستقلال عن الدولة الرستمية . ولكن الإمام عبدالوهاب لم يرض عن ذلك ، فصمم على عزل خلف وتولية غيره من أهل الفضل ، فولى أيوبا بن العباس على الجبل (١) . فلما توفي أيوب ولى أبا عبيدة بن عبد الحميد ، وقد قامت بين خلف الناشر وأتباعه الذين عرفوا بالخلفية منذ أن بايعوا خلفا بالإمامة ، وبين هذين العاملين معارك طويلة ، انتهت بهزيمة خلف في موقعة حدثت في سنة ٢٢٩ هـ في عهد الإمام أفلح بن عبد الوهاب ، على يدي أبي عبيدة عبد الحميد . ولم يتم القضاء نهائيا على خلف إلا على يدي العباس الذي أسند إليه أفلح ولاية الجبل فعقب خلفا ، وشتت شمل من بقي من أصحابه ، إلى أن توفي خلف ، وفر ابنه إلى جزيرة جربة (٢).

وتوفي الإمام عبد الوهاب في سنة ٢٩١ هـ (٣) . وقيل سنة ٢٠٨ هـ (٤) ، بعد أن وصلت الدولة الرستمية في عهده إلى درجة كبيرة من الاتساع .

---

(١) الأزهار الرياضية ص ١٥٢ — مختصر تاريخ الاباضية ص ٤٠

(٢) مختصر تاريخ الاباضية ص ٤٠ .

(٣) ديورنو ، ج ٣ ص ٦٢٤ . وذكر البارودي أنه توفي في سنة ٢٠٩ ، وفي ذلك خطأ كبير لأن عبد الوهاب كان ما يزال حيا عندما حاصر قائد ابن الاغلب في سنة ١٩٦ ، كما كان حيا عندما قام خلف بن السمح بالثورة عليه

(٤) انظر الانساب لزامباور ، ودائرة المعارف الاسلامية ، مادة تاهرت لجورج مارسيه — وعمد بن تاويت ، دولة الرستميين ص ١١٨

## ( ٢ )

### خلفاء عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم

١ ـ خلافة الإمام أفلح :

كان أفلح قد مارس الحكم أثناء غياب أبيه في جبل نفوسة ، فلما توفي أبوه عبد الوهاب ، اجتمع أهل الشورى من علماء الدولة ، وأجمعوا على مبايعة أفلح بالإمامة ، إذ كان قد أظهر أثناء حياة أبيه من الورع والتقوى وحسن السيرة والعلم ما جعل الناس يتمسكون به إماما . فسار في العدل والإحسان سيرة أبيه ، وعنى بنشر الأمن في ربوع البلاد ، فتقدمت الحضارة الرستمية ، ووصلت الدولة في عهده إلى ذروة عظمتها ، ومنتهى ازدهارها .

ولم يقطع الهدوء الذي ساد بلاد الرستميين إلا استمرار تحالف بن السميح بالثورة على الإمام ، وخروج فرج النفوسي المعروف بنفات بن نصر عليه . أما ثورة خلف فقد رأينا كيف قضى عليها في عهد أفلح ، وأما فرج النفوسي فقد شق عصا الطاعة على الإمام عندما عين أفلح سعداً بن أبي يونس عاملا على قنطرارة ، وكان سعد يطمع في أحد المناصب ، فأخذ يثير بعض المشاكل للإمامية ، منها إنكاره الخطبة في يوم الجمعة ، مدعيا أنها بدعة ، ومنها إنكاره استعمال الإمام العمال والسعاة لجباية الحقوق الشرعية . (١) وقد تولى أفلح نصحه في عدة رسائل ، حذره فيها من سوء العاقبة ، وأنذره أخيرا بمعاقبته إن لم يرتدع . فخاف نفات على نفسه ، وتوجه إلى بغداد . وقد كان لنفات بعض التابعين الذين عرفوا باسم النفاتية .

---

(١) مختصر تاريخ الإباضية ص ٤٢ .

وتبع أفلح فى كسب الواصلية إلى جانبه ، فاتخذوه إماما لهم ، وكان أتباعه من الواصلية وجدهم للاتين أنهم طوائف يسكنون الخيام[1]. وتوفى أبو سعيد ميمون الأفلح سنة ٢٩٤ هـ (٢) .

ب — خلافة الامام ابى بكر بن الافلح

كان أبو اليقظان بن أفلح وقت وفاة أبيه أسيرا عند بنى العباس ، فقد قبض عليه عامل الحجاز وهو متوجه للحج ، فأودع للسجن ببغداد [2]. واتفق الخليفة الواثق كان غاضبا على أخيه المتوكل فسجنه كذلك ، فتصادق أبو اليقظان مع المتوكل أثناء مقامهما بالسجن ، فلما ارتقى المتوكل إلى دست الخلافة ، أذن لأبى اليقظان بالعودة إلى بلاده ، فقدم إلى تاهرت فى إمامة أخيه أبى بكر .

فلما توفى أفلح ، تولى ابنه أبو بكر الإمامة مع قلة كفايته ، إذ كان أخوه اليقظان أقدر منه على إدارة شؤون الدولة ، ولكنه كان مايزال عند مسجونا ببغداد ، وكان أخوه الثالث يعقوب حدثا صغير السن ، ولذلك بويع أبو بكر بالإمامة . وكان أبو بكر شابا أرعنا لم يحسن الإدارة ، كما أنه لم يكن دينا عادلا يقظا كأبائه ، وإنما كان يميل إلى الراحة وحياة الخمول ، فانغمس فى الترف وأسرف فى اللهو ، فلما عاد أخوه أبو اليقظان من بغداد بعد أشهر من إمامة أخيه ، أسلم إليه أبو بكر مقاليد الإمامة ،

---

(١) ابن خلدون ، ج ٦ ص ٢٤٨

(٢) الأزهار الرياضية ، ص ٢٢١ — مختصر تاريخ الاباضية ، ص ٢٤٠ ، وتحمل المصادر تاريخ وفاته سنة ٢٠٨

(٣) ابن الصغير المالكى ، سيرة الأئمة الرستميين ، ص ٢٢ — مختصر تاريخ الاباضية ص ٤٤

وترك له مهمة القيام بشؤون الدولة وحل مشكلاتها ، وانغمر هو فى حياة اللذات والشهوات ، واحتجب عن العامة ، ثم إن أبا بكر وكل إلى صهره محمد بن عرفة ، وكان من أعيان تاهرت ، مهمة الاتصال بالرعية ، والنظر فى قضاياهم ، وكان ابن عرفة شخصية لطيفة ، وكان محسن إلى الناس ، ويسعى إلى حل مشاكلهم ، فاقتنعوا به ، وأحبـــوه ، وأصبح مقصدهم فى العاصمة ، وأصبح له أشياع وأنصار يمجدونه ، فأصبحت الإمامة الفعلية لمحمد بن عرفة ، والاسمية لأبى بكر (١) .

وكان قد وفد إلى تاهرت عدد كبير من جند القيروان الذين أعلنوا فى مناسبات كثيرة تمردهم على بنى الأغلب ، واستقروا بها ، وأسسوا لهم ربضا كبيرا فى تاهرت ، سوروه حتى أصبح يدور وكأنه مدينة عامرة ، وكان من الطبيعى أن يؤيد هؤلاء الجند الوافدين محمد بن عرفة ، وينا صروه ، لأنه عربى وقروى مثلهم وافد من القيروان (٢) . فلما أحس محمد بن عرفة بعلو مكانته ، وضخامة شأنه ، ومشايعة جمهور تاهرت له ، غلبه الغرور وملك نفسه ، فاستبد بالأمر استبدادا كاملا ، وأصبح لا يكترث لأبى بكر ، ولا يهتم بشأنه . وكان أهل الشورى من علماء تاهرت وآل بنى رستم يشاهدون ما يجرى فى الدولة وهم ساكتون ، فلما أسرف ابن عرفة فى استبداده ، خافوا على إمامتهم من غروره واستبداده ، فشخصوا إلى أبى بكر بدار الإمامة ، وأطلعوه على افتتان الناس بابن عرفة ، وبينوا له سوء العاقبة إذا لم يتصرف تصرفا سريعا ، وحثوه على الخروج بن قدمه وعزله ، ومباشرة الأمر بنفسه . ولكن أبا بكر كان

---

(١) ابن الصغير ، ص ٢٩

(٢) دبوز ، ج ٣ ص ٢٧٠ .

بقتل ابن عرفة الذي استغل ثقته به، فعهد أبو بكر إلى أحد غلمانه بقتل ابن عرفة، فاغتاله الغلام، وأخفى جثته. وعندئذ اشتعلت نار الفتنة في تاهرت، وثار أنصار محمد بن عرفة، ومشايعوه على أبي بكر، وانقسم أهل تاهرت إلى فريقين: فريق يشايع الإمام ويتألف من نفوسة والعجم، والفريق الآخر من أنصار ابن عرفة، ويتألف من جند العباسيين وحلفائهم في تاهرت، وعلى رأسهم محمود بن الوليد، وخلف الخادم مولى الأغلب ابن سالم وغيرهم، وقد قام هذا الفريق بمهاجمة دور النفوسيين بتاهرت وإحراقها، واحتدمت نار الفتنة في المدينة، فاضطر أبو اليقظان إلى الخروج من تاهرت هو وخاصته، وبايعوه بالإمامة، واستغل محمد ابن مسالة الهواري الإباضي فرصة قيام الفتنة وخروج أبي اليقظان وخاصته من تاهرت، واستولى عليها (١).

ج ـ امامة ابي اليقظان محمد :

بويع بالإمامة بعد قيام الفتنة، وقيل بعد موت أخيه أو بتسليم منه إليه(٢) سنة ٢٤١ هـ.، وتمت بيعته وأحوال البلاد في غاية السوء من الاضطراب والفتنة، ولكنه تمكن بفضل عزيمته وشجاعته من استئزال الثوار، فجيش الجيوش، واستنجد بسكان جبل نفوسة، فأمدوه بجيش كثيف تمكن بفضله من إخماد نيران فتنة أتباع ابن عرفة، ثم وجه أبو اليقظان همه إلى استرجاع تاهرت بعد قتال عنيف، وحصار دام نحو سبع سنوات(٣).

---

(١) ابن الصغير ص ٣٢ ـ الأزهار ص ٢٣٢، مختصر تاريخ الإباضية ص ٤٥

(٢) مختصر تاريخ الاباضية ص ٤٥

(٣) المختصر ص ٤٥، ويذكر الأستاذ ديوز أن محمد بن مسالة مال إلى السلم بعد أن ضعف النفوسيون بانقسام الهدوء ( ديوز، م ٣، ص ٥٨٥ )

عكف أبو اليقظان بعد ذلك على إصلاح ما أفسدته الفتنة ، فبسط الأمن والعدل في البلاد ، فسادها الهدوء ، واطمأن الناس في حياتهم ومعاشهم ، وأحبه أهل جبل نفوسة إلى درجة الافتتان (١). ومن الأحداث المشهورة في عهده ، قيام قائده أبي منصور إلياس النفوسي بهزيمة جيش العباس بن أحمد بن طولون في سنة ٢٦٧ هـ ، وتفصيل ذلك أن العباس انهزم فرصة غياب أبيه في بلاد الشام ، وخرج في عسكر كثيف قاصدا بلاد إفريقية للتغلب عليها ، فلما علم إبراهيم بن أحمد بن الأغلب بذلك سير إليه قائده أحمد ابن قرهب إلى طرابلس، وهناك حشد ابن قرهب من أمكنه من جند طرابلس وبربرها ، ثم خرج إلى لبدة فدخلها قبل وصول العباس، ثم قدم العباس من برقة والتقى جيشه مع جيش ابن قرهب على بعد خمسة عشر ميلا من لبدة ، فانهزم ابن قرهب وانسحب بفلوله إلى طرابلس، فركب العباس في أثره حتى نزل طرابلس ، ونصب عليها المجانيق ، وظل يحاصرها ٤٣ يوما . ولكن بعض جنوده اعتدوا على حرم البوادي ، أتباع الدولة الرستمية ، فاستغاثوا بأبي منصور قائد أبي اليقظان ، وكان واليا بجبل نفوسة ، وشاركهم في الاستغاثة أهل طرابلس ، فأغاثهم بجيش هائل يتألف من ١٢ ألف مقاتل من رجال نفوسة ، واشتبك مع العباس بن أحمد بن طولون ، فدارت الدائرة على جيش العباس ، فانهزم ومضى منسحبا إلى برقة، وترك النفوسيون ما خلفه الطولونيون وراءهم من معدات وأموال وأسلحة ، زاهدين فيها ، متورعين عنها ، فانتهبها أهل طرابلس (٢) . وعاش أبو اليقظان نحوا من مائة سنة ، قضى منها في الإمامة أربعين عاما ، ثم توفي سنة ٢٨١ هـ .

---

(١) ابن الصغير ، ص ٤٦

(٢) ابن عذاري ص ١٢٨ ـ الزاوي ، مختصر تاريخ الإباضية ، ص ٤٦

د ـ امامة أبي حاتم يوسف بن محمد :

بايعه مجلس الشورى بالإجماع ، استجابة لرغبة الجمهور الأعظم من أهل تاهرت. وكان أبو حاتم حسن السيرة ، مصلحا ، محبا للعدل ، ورث عن أبيه ذكاءه وشجاعته وعلمه ، وفي أول إمامته خرج عليه عمه يعقوب بن أفلح ، بتحريض من بعض سكان تاهرت ممن لم يرضهم الإمام ببعض المناصب ، فأعلنوا الثورة عليه ، واستقدموا يعقوب من زواغة ، وبايعوه بالإمامة (١). فقامت الحرب الأهلية في تاهرت ، واحتدم القتال بين أنصار أبي حاتم وأنصار يعقوب ، ودامت الحروب بينهم أربع سنوات ، وانتهت بانحصار أبي حاتم وإعادته إلى الإمامة، وعودة عمه يعقوب إلى زواغة (٢).

وفي عهد الإمام أبي حاتم ، شق الطيب بن خلف عصا الطاعة عليه في حوز طرابلس وجبل نفوسة ، فعهد الإمام بتأديبه إلى أبي منصور إلياس ، وإليه على الجبل ، فوجه إلى الطيب جيشا لمحاربته ، فالتجأ الطيب إلى زواغة مقل أنصار أبيه ، فنجده أبو منصور إلياس ، وطالب زواغة بتسليمه إليه ، ولكنهم أبوا ذلك ، فحاربهم أبو منصور وهزمهم ، فحاصر الطيب مع فريق ممن لم يقبل الدخول في طاعة الإمام إلى جزيرة جربة ، فطاردهم أبو منصور ، وحاصر جربة ، ثم دخلها وقبض على الطيب ، وحمله مقيدا إلى جبل نفوسة ، وحبسه فترة ، ثم أخرجه بعد أن أعلن توبته ، وعاد إلى الولاء للإمام(٣).

ولما توفي أبو منصور إلياس ، أسند الإمام ولاية نفوسة إلى أفلح بن

---

(١) الدرجيني ، المختصر تاريخ الاباضية ص ٤٢

(٢) الأزهار ، ص ٢٧١ ـ المختصر ، ص ٤٢

(٣) الأزهار ، ص ٢٧٢ ـ المختصر ، ص ٤٨

العباس ؛ ولم يكن لأفلح مهارة أبي منصور في قيادة الحروب ، فقد انهزم على أيدي الأغالبة في سنة ٢٨٤ هـ ، وذلك أن ابراهيم بن أحمد الأغلبي عزم على أن يغزو الطولونيين بمصر ؛ ففي سنة ٢٨٣ هـ ، زحف ابن الأغلب في جيش كثيف بقيادة أبي بحر بن آدم (١) متجها إلى مصر لمحاربة أحمد بن طولون ، فاعترضته نفوسة بين قابس وطرابلس ، ومنعته من المرور ، فناصبهم الحرب قريبا من قصر مانو ، وكانت عدة النفوسيين ٢٠ ألف مقاتل بقودهم أفلح ابن العباس ، واشتد القتال بين الأغالبة والنفوسيين ، وانتهى بهزيمة أهل جبل نفوسة هزيمة شنعاء ، وقتل من عامة نفوسة في هذه الواقعة نحو ١٢ ألفا ، ومن علمائهم ٤٠٠ رجل . ومنذ ذلك العهد لم تعد نفوسة توافي الرستميين بالإمدادات ، وكان لذلك أعمق الأثر في اضمحلال دولة الرستميين (٢).

ولم يكتف ابراهيم بن أحمد بذلك ، بل سير ابنه أبا العباس في العام التالي إلى نفوسة ، فقتل منهم عددا كبيرا ، وأسر نحو ثلاثمائة ، أخذهم معه إلى القيروان حيث أمر ابراهيم بن أحمد بذبحهم ، واستخلاص قلوبهم وتعلقها في حبال نصبت على باب تونس (٣).

وكانت هذه المزائم كفيلة بسقوط هيبة الإمام ، وطمع بعض أقاربه في الإمامة ، فتآمر عليه أبناء اليقظان ، وكان أخاه من أبيه ، فقتلوه في سنة ٢٩٤ هـ .

---

(١) ابن عذارى ، ص ١٧٣

(٢) الازهار ، ص ٢٨٠ ــ المختصر ، ص ١٩

(٣) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٧٤

٥ ـ امامة اليفطان بن ابي اليفطان ونهاية دولة الرستميين :

بويع اليفطان بعد مصرع أخيه ، وقامت إمامته بين عوامل الانقسام والاضطراب . أما الانقسام فلأن شيوخ الدولة كانوا ساخطين عليه لاتهامه بقتل أخيه ، وأما الاضطراب فلأن خطر الاسماعيلية قد اقترب من دولتهم ، وأصبح يهددها بالسقوط ، فقد تمكن أبو عبد الله الشيعي من احتلال المزاب ، والتغلب على دولة الأغالبة ، ودخل رقادة سنة ٢٩٦ هـ . وأحس اليفطان بعجزه عن مواجهة الشيعة ، وأدرك قرب نهايته ونهاية دولته . وفي ١٥ رمضان خرج أبو عبد الله الشيعي من رقادة متجها إلى تاهرت ، فدخلها بالأمان ، ولكنه قتل يفطان ومن ظفر به من بني رستم ، وأرسل رؤوسهم إلى أخيه أبي العباس وإلى أبي زاكي خليفته برقادة ، فطوفت بالقيروان ثم نصبت على باب رقادة (١) . ولم يكتف الشيعي بذلك بل استباح أموال الرستميين ، وتوجه إلى المكتبة الكبرى للعصومة ، وأخذ ما فيها من الكتب الخاصة بالرياضيات ، والصنائع ، والفنون ، وأحرق ماعدا ذلك (٢) . إذ أن معظم كتبها خاص بالشريعة الإسلامية ومذهب الإباضية وتاريخ الرستمية . وقضى الإسماعيلية بذلك على الدولة الرستمية ، فقر كثير من سكانها إلى جبل أوراس ، وجبال بني راشد ، وإلى واحة ورجلان في الصحراء ، وإلى جربة ، وإلى جزيرة جربة .

ولقد حاول أحد الأباضية التكارية وهو أبو اليزيد الملقب بصاحب

---

(١) ابن عذاري ، ج ١ ص ٢٠٨

(٢) مختصر تاريخ الإباضية ص ٤٩

الحمار (١) أن يعيد إنشاء الدولة الإباضية على مذهب النكارية ، فخرج على الفاطميين فى عهد المهدى بجبل أوراس سنة ٣١٦ هـ ، وكثر اتباعه فى أيام القائم بأمر الله أبي القاسم محمد بن المهدى ، ودعا للخليفة عبد الرحمن الناصر بالأندلس ، وأخذ يستولى على مدن المغرب مثل تبسة وعنابة والأربس وسبيبة وباجة ، ودخل رقادة ، وأخذ بناوى، قواد الفاطميين فى المغرب ، ولكن الخليفة المنصور ، تمكن من القبض عليه بقلعة كتامة بعد أن سقط أبو اليزيد جريحا فى رمضان سنة ٣٣٥ هـ ، فلما توفى أبو اليزيد فى محرم سنة ٣٣٦ أمر الخليفة الفاطمى بسلخ جلده وحشوه تبنا ، وقيل قطنا ، واتخذ له قفصا ، فأدخل فيه مع قردين يلاعبانه (٢) .

أما جبل نفوسة ، فقد استقل بعد انقراض الدولة الرستمية . وتولى إمارته أحفاد من بنى أبى المنصور إلياس (٣) ، كما فر عدد كبير من الإباضية الرستميين إلى واحة وريجلان ، وأقاموا فيها حتى قدمت جيوش المرابطين ، فهاجروا إلى مزاب ، وحولوا الأقاليم الصحراوية هناك إلى واحات خضراء سميت فيما بعد باسم مجموع مدن (٤) ، ومازال سكان إقليم مزاب إباضية حتى اليوم .

---

(١) سمى كذلك لأنه كان يركب حمارا أشهب اللون ( ابن خلدون ج ٤ ص ٨٠ )

(٢) ابن عذارى ج ١ ص ٢١٣ — ابن خلدون ، ج ٤ ص ٩٤

(٣) مختصر تاريخ الإباضية ص ٥٠

(٤) محمد بن تاويت ، ص ٦٢٢

## (٣)

## علاقة الدولة الرستمية بجيرانها

### ١ ـ علاقة الدولة الرستمية بولاة افريقية :

رأينا من قبل كيف فشل ابن الأشعث فى استئصال عبد الرحمن بن رستم بجبل سوفجج سنة ١٤٤ هـ ، وكيف اضطر إلى العودة إلى القيروان بعد أن طال حصاره لابن رستم ، وتفشى المرض فى صفوف رجاله . فلما أسس عبد الرحمن مدينة تاهرت ، واتخذها حاضرة له ، واستقرت دعائم دولته لم يحاول ولاة إفريقية بعد ابن الأشعث مواجهة هذه الدولة الناشئة ، وعلى الرغم من تمكن عمر بن حفص من إنزال الهزيمة بجيش ابن رستم بالقرب من تهوذه سنة ١٥١ هـ (١) ، فانه لم يفكر بعد فى مهاجمة تاهرت ، فعاد إلى القيروان حيث قتل فى إحدى معاركه مع ثوار أبى حاتم يعقوب بن حبيب الإباضى (٢) . وبمرور الزمن استطاع ابن رستم أن يسير بدولته فى طريق القوة والمنعة ، فهابه روح بن حاتم ، ورغب فى موادعة عبد الرحمن بن رستم فوادعه وهادنه سنة ١٧٩ هـ (٣) ، كما وادع ابنه عبد الوهاب بن عبد الرحمن من بعده (٤) .

ولما قامت دولة بنى الأغلب بدأ أمراؤها ينازعون الرستميين فى

---

(١) ابن عذارى ، جـ ١ ص ٨٩

(٢) نفس المرجع ص ٩٠

(٣) ابن خلدون ، جـ ٦ ص ٢٢٨

(٤) نفس المرجع جـ ٤ ص ٤١٥

أملاكهم بسرعة ، فاستغاث قبيلة هوارة بالإمام عبد الوهاب بن عبد الرحمن سنة ١٩٦ هـ ضد أبي العباس عبد الله بن إبراهيم بن الأغلب وحث عبد الوهاب بعشود هائلة من بربر نفوسة ، وقرب المصار على طرابلس ، فاضطر ابن الأغلب إلى مهادنته على أن يحتفظ الأغالبة بمدينة طرابلس والساحل بينما يخضع الرستميون أيديهم على ضواحي طرابلس والصحراء (١) .

وظلت العلاقات متوترة بين الرستميين والأغالبة ، وكانت تاهرت قد ازدهرت ازدهارا كبيرا في عهد أفلح بن عبد الوهاب ، وأصبحت بحق حاضرة المغرب كله ، إذ اجتذبت إليها الخارجين على دولة الأغالبة من أفريقية وأهالي القيروان ، وتضخم ملك الرستميين تضخما كبيرا ، وتألق نجمهم في سماء المغرب ، وعندئذ عمد أبو العباس محمد بن الأغلب إلى محاربة الرستميين وذلك بإنشاء مدينة تجاور تاهرت ، كان الغرض من إنشائها أن تحتل المكانة التي تشغلها تاهرت . ففي سنة ٢٢٧ هـ أسس مدينة بالقرب من تاهرت سماها العباسية ، فسكت عليه الإمام أفلح ، ولم يحاول أن يثنيه عن إقامتها وتخطيطها ، فلما تم بناؤها ، ونظمت أسواقها ، وتب عليها بجيوشه ، وأجلاسكانها عنها ، ثم أحرقها (٢) . ومع ذلك فقد ثرم أبو العباس محمد فصمت ، ولم يعمل على محاربة الرستميين ، إذ لم يكن له طاقة بحربهم . وأخيرا تمكن إبراهيم بن أحمد من هزيمة جيش الرستميين بقيادة أفلح بن

---

(١) ابن الأثير ، جـ ٥ ص ١٠٧ — ابن خلدون جـ ٤ ص ٤٢١ ، جـ ٦ ص ٢٤٨ — الباروني ، الأزهار ص ١٤٥

(٢) ابن خلدون جـ ٤ ص ٤٢٩ .

العباس في واقعة قصر ماتو سنة ٧٤٨ هـ ، وفي هذه المعركة ، استنفذ الطرفان قواهما ، وكان ذلك مقدمة لسقوط كل من دولتي الأغالبة والرستميين على أيدي الشيعة العبيديين .

ب ـ علاقة الرستميين بالامويين في الاندلس:

كان من الطبيعي أن يلتقي أمراء بني أمية في قرطبة بأئمة الرستميين في تاهرت ، وتقوم بينهم علاقات من الصداقة والمودة ، فان العباسيين الذين كانوا يحاربون بني أمية في الأندلس ، كانوا أيضا أعداء للاباضية في تاهرت (١) ، فقامت بين الأندلس وتاهرت علاقات تجارية ، وكانت السفن تتردد بين وهران والمرية حاملة التجار والعلماء والمسافرين إلى كل من القطرين . ويذكر الأستاذ ديوز أن قيام دولة الرستميين هو الذي مكن

---

(١) ذكر الأستاذ الدكتور محمود علي مكي أن الإمارة الأموية في الأندلس كانت تمثل منذ عهد بعيد على محاربة أي دعوة شيعية في شمال افريقية ، فمنذ تكونت دولة الأدارسة الشيعية في المغرب الأقصى ، وعمل أمراء بني أمية في الأندلس على توطيد صلاتهم ببعض القبائل المغربية ممن كانوا يخالفونها في الناحية المذهبية كدولة بني رستم الخارجية في تاهرت ، وذلك حرصا على اقتناص جيرانهم الأدارسة العلويين » (التشيع في الأندلس ، صحيفة المعهد المصري بمدريد ، ١٩٥٤ ، ص ١٢٩ ) ومعنى هذا أنه لم يعد أمام الأمويين في الأندلس من منافذ في المغرب سوى المغرب الأوسط ، لأن المغرب الأدنى كانت تقوم فيه دولة الأغالبة ولاؤلئك العباسيين ، والمغرب الأقصى كانت تقوم فيه دولة الأدارسة الشيعية ، كذلك كان من الطبيعي أن يتحالف عمر بن حفصون في الأندلس بعد خروجه على السلطة المركزية بقرطبة مع بني الأغلب ، فابن حيان يذكر أنه كاتب ابن الأغلب أمير افريقية وأخبره بأنه يصل لبني العباس ، ولاطفه بالهدايا ، فأجابه ابن الأغلب ، ورد على هديته بهدية (ابن حيان ، كتاب المقتبس في تاريخ رجال الأندلس ، ج ٣ ، نشره الأب ملشور ، باريس ١٩٣٧ ، ص ٩٢ )

دولة عبد الرحمن الداخل من الرسوخ ، وأتاح لها السبيل إلى الازدهار ، كما أن الدولة الرستمية كانت الجسر الذي يصل دولة بني أمية في الأندلس بالمشرق الإسلامي ، لذلك كان أمراء بني أمية يهادون أئمة الرستميين توددا لهم واكتسابا لصداقتهم (١) . وقد كثر وفود أهل الأندلس إلى تاهرت ، فكان منهم عمران بن مروان الأندلسي ومسعود الأندلسي اللذان رشحهما عبد الرحمن بن رستم في جملة من اختارهم للإمامة من بعده . ويذكر ابن القوطية أن عمر بن حفصون فر إلى مدينة تاهرت ، فاشتغل مساعدا لخياط أصله من ربة ، وبينما هو جالس في حانوته إذ أتاه شيخ معه ثوب يقطعه ، فقام إليه الخياط ، ووضع له كرسيا يقعد عليه ، فسمع الشيخ كلام ابن حفصون ، فأنكره عند الخياط ، فقال له : من هذا . فقال : غلام من جيراني بربة أتى ليخيط عندي ، فالتفت الشيخ إليه ، فقال له : متى عهدك بربة ؟ قال : منذ أربعين يوما . قال تعرف جبل بشتر ؟ فقال له : أنا ساكن عند أصله . قال له الشيخ : فيه معركة ؟ قال : لا . قال : قد آن له ذلك . ثم قال له : هل تعرف فيما يجاوره رجلا يقال له عمر بن حفصون ، فنفر من قوله ، وأحد الشيخ النظر إليه ، وكان ابن حفصون أفخم الفتية ، فقال له : يا منحوس ، تحارب الفقر بالإبرة . ارجع إلى بلدك ، فأنت صاحب بني أمية ، وسيلقون منك غيا ، وستدرك ملكا عظيما ، فقام من فوره ، وذلك خوفا من أن ينتشر الأمر وأن يقبض عليه بنو أبي اليقظان وكانوا بالكي تاهرت ،

---

(١) Lévi - Provençal. Histoire de l'Espagne, t. II, p. 245 - 248

حيوز ، ج ٣ ، ص ٣٠٠

ولازم بني أمية ، فأخذ خبزتين من الخباز ، وألقاها في كمه ، وخرج ، فأتى الأندلس » (١) .

ونستنتج من هذه الرواية أمرين : الأول ، أن تاهرت كانت تضم جالية أندلسية كبيرة ، والثاني أن العلاقات بين بني أمية بالأندلس والرستميين بتاهرت كانت قائمة على الصداقة والمودة . ويذكر البارودي صاحب الأزهار الرياضية أنه كان لأفلح بن عبد الوهاب مع ملوك الأندلس مواصلة وارتباط ومودة ، يهادونه بالهدايا النفيسة ، ويهاديهم بمثلها ، وله عندهم مقام رفيع ، ينظرونه بعين الإجلال والاعتبار (٢) . وعندما أحرق أفلح مدينة العباسية ، وخربها سنة ٢٢٧ هـ ، كتب إلى الأمير عبد الرحمن الأوسط بالأندلس يتقرب إليه بذلك ، فبعث إليه مائة ألف درهم (٣) .

وفي عهد أبي اليقظان محمد بن أفلح ، دامت علاقات المودة والصداقة بين تاهرت وقرطبة ، وكان أبو اليقظان « لا يقدم ولا يؤخر في أموره ، ومعتملاته إلا عن رأيه ( أي الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط ٢٠٨ – ٢٧٣ هـ ) وأمره ، وكذلك بنو مدرار بسجلماسة » (٤) .

ج – علاقة الرستميين بمصر :

كانت دولة الرستميين ترتبط ارتباطا وثيقا بمصر ، فقد كان كثير من

---

(١) ابن القرطبي ، ص ٩١ ، ٩٢

(٢) الأزهار ص ١٨٦

(٣) ابن خلدون ج ٤ ص ١٢٩

(٤) ابن عذاري ج ٢ ص ١٦١ – ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، القسم الخاص بالأندلس ، تحقيق ليفي بروفنسال ، ص ٢٢

أبناء مصر على مذهب الإباضية ، وكان من بين علماء الإباضية في مصر شعيب المصري ، الذي كان يطمح في الإمامة الرستمية لنفسه ، فقدم إلى تاهرت عندما قامت الفتنة بين عبد الوهاب وابن فندين التي أدت إلى الانقسام الإباضي إلى تكارية ووهابية ، وأيد شعيب ابن فندين في نزاعه مع ابن رستم . فلما تغلب ابن رستم على خصومه عاد شعيب إلى مصر (١) . ويذكر الأستاذ ديوز أن مصر فتحت ذراعيها للدولة الرستمية ، فتدفقت قوافلها التجارية إليها ، وكانت هوارة في شرق طرابلس وتونسة تجوب صحراء سرت ذاهبة آيبة بين المدن الرستمية في المغرب الأدنى والأوسط وبين مصر وقوافلها مثقلة بالسلع الرستمية والمصرية (٢).

د ـ علاقة الدولة الرستمية بدولة بني واسول المكونين بسجلماسة :

كانت دولة بني واسول دولة صغيرة معتدلة ، ولذلك التقت أهدافها مع أهداف الدولة الرستمية ، وتوطدت بينها أواصر الوحدة والصداقة ، وازدادت هذه الروابط وثاقة ، وإحكاما منذ أن تزوج اليسع بن إلياس ، وكان إباضيا صفريا (٣) ، ابنة مدرار من أروى ابنة عبد الرحمن بن رستم (٤). وقد أنجب مدرار من أروى ولداً سماه ميمونا ، وكان يؤثره على بقية بنيه ، وقد لعب ميمون هذا دورا هاما في تاريخ دولة بني واسول بسجلماسة ، إذ تولى الإمارة في عهد أبيه ، ولكن أخاه يسوا غلبه عليها (٥).

---

(١) مصر تاريخ الإباضية ص ٣٩

(٢) ديوز ، ج ٣ ص ٣٤١

(٣) ابن خلدون ، ج ٦ ص ٢٦٨ ـ الأزهار ص ٩٤

(٤) ابن خلدون ، ج ٦ ص ٢٦٨ ـ الأزهار ، ص ٩٤

(٥) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٦٨ ـ ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، القسم الثالث ص ١٤٣

هـ ـ علاقة الدولة الرستمية بالسودان :

اتصلت الدولة الرستمية بالسودان اتصالا تجاريا ، وذلك عن طريق القوافل التجارية التي كانت تخرج من ورجلان ( ورجلة ) قاعدة الرستميين التجارية في الصحراء . وكان تجار الدولة الرستمية يحملون المنسوجات الصوفية والقطنية ، والكتانية ، وأواني الزجاج ، والفخار والخزف ذي البريق المعدني ، والملح ، إلى بلاد السودان لندرته عندهم ، فيبيعونه هناك بأسعار مرتفعة للغاية ، ويعودون محملين بالذهب والعاج وجلود الحيوانات . وكان أهل ورجلان يقودون هذه القوافل التجارية إلى بلاد السودان [1] . وكان الامام أفلح قد عقد مع ملك كوكو في السودان الشمالي الغربي علاقات من المودة ، فأهدى إلى هذا الملك هدية نفيسة ليوثق الصداقة بينهما ، ويشكره على ما يجده تجار بلاده من حسن معاملتهم . وكان رسوله إلى ملك كوكو هو محمد بن عرفه ، وقد أعجب الملك بشخصية ابن عرفه وثقافته وفروسيته ولطفه ، وكان ذلك أكبر الأثر في توثيق عرى الصداقة بينه وبين الامام أفلح [2] .

---

(١) الأزهار الرياضية ص ١٨٥ ، ١٨٦ .

(٢) ديفز ، ج ٣ ص ٢٤٦ ، ٢٤٩ .

## ( ٤ )

## حضارة الرستميين فى تاهرت

### ١ ـ الحياة العلمية :

كان أئمة الدولة الرستمية من العلماء الذين كرسوا حياتهم للعلم ونشرها فى كل طبقات المجتمع، وقد شارك هؤلاء الأئمة العلماء مشاركة فعالة فى الحركة العلمية فى تاهرت بتشجيع الناس على طلب العلم ، فكانوا يقومون بالتدريس فى جامع تاهرت وجامع جبل نفوسة . وكان عبد الرحمن بن رستم من كبار العلماء فى عصره ، فكان بارعا فى علوم الدين واللغة والفلك ، وكان محبا للعلم مقبلا على التأليف على قلة ما كان يجده من الوقت ، فصنف كتابا فى التفسير لم يصل الينا (١) . وكان الامام عبد الوهاب محبا للعلم ، تواقا إلى المعرفة ، وكان يبعث الأموال إلى العراق لشراء الكتب ، ولا يمل قراءتها فى شتاء أو صيف (٢) . وقد صنف كتابا سماه « نوازل نفوسة » وهو مجموعة من الفتاوى الشرعية كان علماء نفوسة يستفتونه فيها (٣) . وكان الامام أفلح عالما فى الحساب والفلك ، كما كان أديبا شاعرا ، ينظم الشعر ، وله قصيدة يشجع فيها على العلم ويحث على طلبه ، منها :

العلم أبقى لأهل العلم آثارا
يرنك أشخاصهم روحا وأبكارا
حي ـ وإن مات ـ ذو علم وذو ورع
ما مات عبد قضى من ذاك أوطارا
وذو حياة على جهل ومنقصة
كيت قد نوى فى الرمس أعصارا

---

(١) ديوز ، ج ٣ ص ٣٦٣

(٢) نفس المرجع ، ص ٣٢٣

(٣) نفس المرجع ، ص ١٦١

وفى هذه القصيدة يدعو الامام أفلح إلى الاقبال على العلوم الدينيـــة فيقول : ـ

فاطلب من العلم ما تقضى الفروض به
واعمـــل بعلمك مضطرا وغـــارا
وأطلبه ما عشت فى الدنيـا ومدتها
لموقف العرض أن لا تورد النـــارا
واجعـــله لله لا تجعله متخـرة
ولا تراثى به بدوا وأحضـــارا

وكان طلاب العلم يحصلونه فى مساجد تاهرت وتقوسة على أيدى كبار علماء الإباضية فى أصول الدين والشريعة ، والرياضيات والطب والكيمياء . وقد شاركت المرأة فى هذه الحركة العلمية ، وساهمت بدور هام فى ازدهار الحياة العلمية فى عصر الرستميين، ومن تبغن فى العلوم أخت الامام أفلح التى برعت فى علم الحساب والفلك والتنجيم . ومن المراكز العلمية الهامة فى الدولة الرستمية مدينة تاهرت ومدينة تروس بجبل نفوسة ، ومدينة جادو ، وقرية أجناون ، وجزيرة جربة ، ووارجلان . ولقد حمل جبل نفوسة شعلة العلم فى عصر الرستميين ، فظهر من علمائه الشيخ مهدى النفوسى ، ومحمد بن بانس ، وأبو الحسن الأيلانى ، وعمروس بن فتح ، ويعقوب بن أفلح ، وأبو عبيدة عبد الحميد الهناوتى ، ومعبد الجناوتى وغيرهم ، وبرز من علماء تاهرت ابن أبى إدريس ، وأحمد الليه ، وأبو العباس بن فحون ، وعثمان بن الصفار وأحمد بن منصور ، وأبو عبيدة الاعرج ، وقد ترجم لهم أبو العباس أحمد

الدرجيني في طبقاته ، وأحمد بن سعيد بن عبد الواحـــد الشماخي في كتابه السير [1] .

واشتهرت تاهرت في عصر الرستميين بمكتبتها الضخمة التي كانت تضم نحواً من ٣٠٠٠ ألف مجلد في مختلف أنواع العلوم والفنون ، وقد خربت هذه المكتبة على أيدي الفاطميين ، بعد أن أخذوا منها ما احتموا به من كتب الرياضيات والفلك والهندسة والطب .

ب ـ الحياة الاقتصادية :

كان نفوذ الرستميين يشمل مناطق زراعية واسعة تخترقها الوديان ، وتحفها الحيون ، وأهم هذه الوديان وادي شلف الذي يتفرع منه وادي مينة ، وعند مجراه حتى يصل إلى تاهرت من جهة الجنوب ، ومنها وادي مين سوخيج ، وهو واد ينبع من عين جبل سوخيج ، ويتجه شرقا فيلتقي بوادي الفرعة ، ثم بوادي الوحش ويتألف من ذلك كله واد يمر جنوبي مدينة شلالة . ويلتقي بوادي سوخيج من الشمال واد آخر يسمى قمين . هـذه الوديان ، بالإضافة إلى الأمطار الغزيرة ، كانت لها أثر كبير في تكوين السهول الخصبة في المغرب الأوسط ، وهي سهول أمرسو في جنوب تاهرت ، وسهول وادي شلف الغنية ، وسهول الساحل وفي هذه السهول كانت تزرع الحبوب والفواكه ، وأخصبها السفرجل الذي كان يفوق في طعمه سفرجل الآفاق . وبالاضـــافة إلى هذه السهول النهرية والساحلية ، كانت بالدولة الرستمية واحات خصبة في وسط الصحراء أهمها واحة ورجلان التي كانت تشتهر بنخيلها وزيتونها .

---

(١) ابن خلدون ، ج ٤ ص ٣٩٢ ، ٣٩٣

وإلى جانب هذه الثروة الزراعية التي أتاحها توافر المياه وخصوبة الأرض ، كانت دولة الرستميين تعتمد اعتمادا خاصا على التجارة ، وكانت سفن الأندلس تصل إلى موانئها بتنس ومستغانم ووهران مشحونة بالبضائع الاندلسية، فتفرغها، وتحمل منتجات البلاد الرستمية من منسوجات صوفية ومن العاج والجلود التي كانت تصل إلى المغرب الأوسط من بلاد السودان وغانة . وكانت الدولة الرستمية بحكم موقعها المتوسط بين المغربين الأدنى والأقصى، وبحكم علاقاتها الحسنة مع بلاد السودان والأندلس وسجلماسة تمثل مركزا تجاريا ممتازا في بلاد المغرب كلها ، فكانت مركزا هاما للتجارة . وكانت القوافل التجارية تصل إليها من فاس والقيروان وسجلماسة وبلاد كوكو في شمال السودان ، وكان الرستميون يصدرون إلى بلاد كوكو المنسوجات الصوفية والكتانية والحرير والقوارير الزجاجية ، والأواني الخزفية البراقة واللونة ، والأصواف والتحف المعدنية، والأفاوية والعطور وكانت تستورد من السودان وغانة الذهب الخام والعاج وريش النعام وجلود الحيوانات . وكانت ورجلان أكبر قواعد الدولة الرستمية للتجارة الجنوبية ، ولذلك أثرى تجار هذه المدينة ثراء فاحشا بفضل ما كان يتدفق عليهم من أموال ، وينعكس هذا الثراء في مآثر مدن الدولة الرستمية ، وخاصة في حاضرتها تاهرت التي ازدهرت في ظل الرستميين ، ولما عمرانها نموا لفت أنظار الرحالة والجغرافيين . وقد وصلت إلينا أسماء بعض الأثرياء في دولة الرستميين ، نخص بالذكر منهم يعيش بن زلفين المزاتي ، وكان يملك من الابل ثلاثين ألفا ، ومن الغنم ثلاثمائة ألف ، ومن الحيوانات عشر ألفا (١) ، ومنهم ابن وردة الفارسي الذي اتجر بتاهرت سوقا خاصا

---

(١) الأزهار الرياضية ص ١٢٢ ـ مختصر تاريخ الإباضية ص ٤٣

له[1]. وكان أهل جبل نفوسة أيضا يشتغلون بالتجارة في الذهب مع بلاد السودان. وكان لازدهار الحياة الاقتصادية في دولة الرستميين أثره في اجتذاب كثير من تجار المسلمين وصناعهم، فوفد إليها الناس، وقصدوها من كل مكان، واستوطنوها واشتغلوا فيها بالتجارة والصناعة، وفي ذلك يقول ابن الصغير المالكي «وأتتهم الوفود والرفاق من كل الأمصار، وأقاصي الأقطار، فقل أحد أن ينزل بها من الغرباء إلا استوطن معهم، وابتنى بين أظهرهم، لما يراه من رخاء البلد، وحسن سيرة إمامه، وعدله في رعيته، وأمانه على نفسه وماله، حتى ترى دارا إلا قيل هذه لفلان الكوفي وهذه لفلان البصري، وهذه لفلان القيرواني وهذا مسجد القيروانيين ومربعتهم وهذا مسجد البصريين، وهذا مسجد الكوفيين، واستحملت السبل إلى بلاد السودان، وإلى جميع البلدان من مشرق ومغرب بالتجارة وضروب الأمتعة»[2] وقد ظهر هذا الرخاء في تقدم العمران بتاهرت، وليس أدل على ذلك مما ذكره ابن الصغير عند اشارته إلى وفود رسل البصرة الذين قدموا للمرة الثانية إلى تاهرت بقصد منح الامام عبد الرحمن بن رستم عشرة أحمال من الذهب يستعين بها في تدعيم دولته الناشئة، فهالهم التطور الهائل الذي طرأ على عمران المدينة، فقد دخلوا المدينة، ونرأوا مبانيها قد تبدلت، ولاح عليها رونق المدينة والبسار، وعلت وجوه أهلها سيماء الحضارة والرفاهية وبدت من محياهم آثار النعمة والغنى، وازينت المدينة بقصور مشيدة ودور منظمة، وأبنية مبهجة، وقباب مرتفعة، وأسواق مزدحمة، ومساجد متعددة بمنارات عالية، وحمامات محكمة، ويحيط بالعاصمة بساتين مثمرة،

---

(١) ابن الصغير ص ٢٧

(٢) نفس المرجع ص ١٢ ، ١٣ — الأزهار ص ٤٢

ومطاعن منصبة على الأنهار الجارية ، واتخذ أهلها الفرش والستائر المزخرفة والخيل المسومة ، وتنوعت الألبسة ، وتعددت اللغات والأزياء ، ورأوا ما لم يخطر لهم ببال ، ولا شاهدوه في جيلهم الأول ... » (١)

وفي عهد الإمام أفلح تقدمت الدولة الرستمية تقدما سريعا ، ووصلت إلى أوج عظمتها ، وبلغت في السؤدد منتهى العز والثراء فقد ابتنى الأغنياء القصور الفخمة ، واتخذوا الضياع الواسعة ، واستكثروا من العبيد والخدم ، واتسع نطاق التجارة اتساعا عظيما إلى حد أن بعض التجار أصبح يملك سوقا قائما بذاته ، وفي عهده كثر المسافرون إلى السودان عن طريق الصحراء للاتجار واستجلاب الخير ، وضربه دراهم ودنانير للتعامل واتخاذه حليا (٢) .

ج ـ الحياة الفنية .

كان من أثر الازدهار الاقتصادي الذي شهدته دولة الرستميين أثر كبير في إقبال سكان هذه الدولة على تشييد القصور العظيمة والبانى الفخمة ، خاصة في عصر الإمام أفلح الذي بلغت فيه الدولة ذروة تقدمها في مضمار الحضارة ، فقد وسع في ملكه ، وابتنى القصور ، واتخذ أبوابا من الحديد ، وبنى الجفان ، وأطعم فيها الجيران ، وعمرت معه الدنيا ، وكثرت الأموال والمستغلات ، وأتته الرفاق والوفود من كل الأمصار والآفاق بأنواع التجارات ، وتنافس الناس في البنيان حتى ابتنى الناس القصور والضياع

---

(١) المرجع السابق ص ١٣ ـ الأزهار ص ٨٩ ـ دبوز ـ ٣ ص ٤١٢

(٢) محمد ، تاريخ الإباضية ١ ص ٤٢

خارج المدينة ، وأجروا الأنهار إليها ، فابتنى أبان وحوية القصرين المعروفين بها بأملاق ، وابتنى عبد الواحد قصره الذى يعرف به اليوم » (١).

غير أنه لم يبق من هذه المنشآت الكثيرة التى زخرت بها تاهرت شىء يذكر فقد اضمحلت هذه المدينة عقب سقوط دولة الرستميين ، فهجرها علماؤها وكبار أعيان الدولة الرستمية ، ولكنها ظلت تقرأ الأعمال الشيعية للفاطميين ، فوليها أيام المهدى أبو حميد دواس اللهيصى ، ثم وليها مصالة بن حبوس المكناسى . وفى ولاية حميد بن يصلى بن حبوس أقيمت فاعتها ، وبنى سورها (٢) . وظلت تاهرت تتعدر نحو النهاية بسبب المعارك التى كانت تدور فى ساحتها بين المتغلبين عليها إلى أن كانت الضربة الكبرى التى أصابتها فى أوائل القرن السابع الهجرى ، عندما خرج بنو غانية على الموحدين فى ناحية قابس ، ومازال يحيى بن غانية يشن عليها الغارات مرات متعددة إلى أن خرج عنها أهلها وهجروها تماما سنة ٦٦٢هـ (٣) . ومنذ ذلك التاريخ تخربت مبانيها ، وانحدرت المصانع عمرانها ، وأصبحت اليوم أطلالا دارسة . ولم يبق من هذه العاصمة آثار قصبتها التى شيدها الرستميون ، وجددها الصنهاجيون ، واستخدمها الأمير الثائر عبد القادر الجزائرى فى القرن ١٩م مركزا لقيادته . ويذكرنا نظام البناء فيها بالقصور الأموية التى شيدها خلفاء بنى أمية فى بادية الشام ، مما لا يدع مجالا للشك فى أن الرستميين تأثروا بالتقاليد المعمارية السورية (٤) . وسور هذه القصبة مستطيل الشكل ، يتوجه

---

(١) ابن الصغير ، ص ٢٦ ـ الأزهار الرياضية ص ٤٢

(٢) ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٧٦

(٣) ابن خلدون ، ج ٦ ص ٢٤٩

(٤) Marçais , l'architecture musulmane, P.350

تتربع موقع استراتيجي رائع يسيطر على المدينة وما يحوطها من بساتين ومروج . ويسبق سورها في الجانب الشمالي الشرقي سور أمامي صغير ، وفي الداخل فناء فسيح ، يشغل القسم الأعظم من القصبة ، وتلتصق بجدرانها من الداخل غرف مختلفة الاتساع (١) .

غير أننا يمكن أن نشاهد عددا كبيرا من آثار الرستميين في مدراتة بالصحراء الجزائرية وذلك أنه لما سقطت دولة الرستميين ، إنتقرض سلالتهم من الجزائر ، بل هاجرت أسراتهم من تاهرت ، إلى الصحراء التي لم تتعرض لغزو الفاطميين ، فاستقرت هذه الأسرات في ورجلان ، ثم مروا في القرن الرابع الهجري مدينة مدراتة وظلت هذه الأسرات الإباضية هناك حتى هاجمها جيوش الفرابطين ، فهاجرت من ورجلان إلى صحراء ميزاب ، وما لبث بقايا الرستميين أن حفروا الآبار في هذه البقاع الجدباء ، وعمروها ، وتحولوا من هذه الأماكن واحات خصبة عميت فيما بعد باسم سبع مدن (٢) . وتقع مدراتة على بعد ٦٠٠ كيلو مترا جنوب شرق الجزائر ، ١٤ ك . م . جنوب واحة ورجلان ، وقد جددت مدراتة حضارة تاهرت ، ولكنها خربت بعد ذلك في القرن السابع الهجري بسبب الفتن القبلية في الجنوب ، وطمرت الرمال آثار حضارتها إلى أن أسفرت الحفائر الأثرية التي أجراها علماء الآثار الفرنسيون في أرضها ، أمثال الأستاذ ماري ، وبول بلانشيه ، وفوشيه ، ومرجريت فان برشام ، عن كشف آثار بناء يعتقد أنه مسجد ،

---

(١) Ibid. ـ السيد عبد العزيز سالم " وآثار الآثار الإسلامية بجمهورية الجزائر ، المجلة ، عدد ٢٩ سنة ١٩٥٩ ص ٢٧

(٢) ابن خلدون ص ١٢٧

ويرى الاستاذ هرتزفلد أن بيت الصلاة في هذا المسجد كانت تعلوه القباب بيضاوية الشكل ، يلتصق بعضها إلى بعض ، وأنه كان يشتمل على ثلاثة صفوف من الدعائم الاسطوانية ، وكان أحد جدرانه مزينا بطاقات حفرت فيها جوقات مقوسة تعلوها أنصاف قباب مسطحة ، إحداها مزين بضلوع بارزة كالقصوص ، تشبه إلى حد كبير جوقات قصر الاخيضر بالعراق ، أو طاقات كنيسة طيسفون ، مما يدل دلالة واضحة على مدى تأثر الفن الزخرفي عند الرستميين بالفن العراقي الفارسي ، كذلك أسفرت الحفريات الاثرية ، التي أجريت بأرض صدراتة ، عن كشف بقايا دور كانت مزينة بزخارف جصية رائعة ، تشبه زخارف سامراء في العراق ، وقوامها العناصر الهندسية التي تتألف من مربعات وجامات مستديرة وفصوص ، والعناصر النباتية التي تقوم على الفروع الملتوية التي تتوزع فيما بينها التوريقات (١)

---

(١) السيد عبد العزيز سالم ، دراسات الآثار الاسلامية ، ص ٢٨

Marçais: op. cit. pp. 55 — 60

( ٥ )

## دولة بني الدرار بسجلماسة

### ١ ـ نشأة سجلماسة وقيام دولة بني واسول الدراريين :

انتشر المذهب الصفري في أقصى القسم الجنوبي والجنوبي الغربي من المغرب على أيدي أئمة من العرب الخوارج ، الذين لجئوا إلى هذه النواحي البعيدة عن النفوذ الأموي . ولذلك اعتنق أهل مواطن سجلماسة من مكناسة الإسلام على المذهب الصفري ، ثم انقرضوا مع المقرين على الدولة الاموية على أثر قيام ميسرة بقتله . وكان من زعماء الصفرية في هذه النواحي عيسى ابن يزيد الاسود المكناسي الصفري ، وكان صاحب ماشية يخرج بها المراعي بجنوب بلاد المغرب ، وكثيرا ما كان يلتجئ أرض سجلماسة ويتردد عليها (١) ، وكان موضعا براسا يجتمع الناس فيه من قبائل البربر المجاورين له يسوقون فيه ، فنزل عيسى في أرض سجلماسة سنة ١٣٨ هـ ، وهناك اجتمع إليه كثيرون من زناته الصفرية ، وسكنوا معه في خيام(٢) ، وكان عددهم يجاوز أربعة آلاف شخص ، فبايعه كبيرهم أبو القاسم سمغون بن واسول المكناسي الزناتي ، وحمل قومه على طاعته ، فولوه عليهم ، فقام بأمرهم ، وشرع في تخطيط مدينة سجلماسة سنة ١٤٠ هـ ، فأكمل بناءها ، وأتقن أسوارها ، وقسم مياهها في خلجان بقدر موزون ، وصرف إلى كل ناحية قدرها من مائه ، وأمر بغرس النخل والاستكثار منه » (٣) .

---

(١) ابن الخطيب ، القسم الثالث من كتاب أعمال الأعلام ص ١٣٨

(٢) ابن خلدون ، ج ٤ ص ٢١٥

(٣) ابن الخطيب ، المرجع السابق ص ١٣٩

وبيا و أن أهل سجلماسة أخذوا على عيسى بعض مآخذ أنكروها عليه، فقبضوا عليه، وشدوا وثاقه إلى أصل شجرة تين بجبل، بعد أن طلوه بالعسل، وتركوه حتى قتلته الزنابير والنحل سنة ١٥٥ هـ (١)، فسمي هذا الجبل لذلك باسم جبل عيسى. ويختلف ابن الخطيب وابن خلدون فيمن تولى بعده زمنة حكمه، فيذكر ابن الخطيب أنه تولى بعده أبو الخطاب المعافري (١٦٧ - ١٩١ هـ) بينما يتفق ابن خلدون وابن عذارى على أن أبا القاسم سمغون بن واسول الكتامي الملقب بمدرار (١٥٥ - ١٦٧) هو الذي تولى أمر سجلماسة بعد عيسى، ويتفق معهما السلاوي في ذلك (٢). ورأي ابن خلدون أولى بالثقة لأن أبا الخطاب المذكور كان قائما بإقليم طرابلس، وقد أشرنا إلى إمامته من قبل. ويذكر صاحب الاستبصار أن أبا القاسم سمغون هذا الملقب بالمدرار كان جدادا من جالية الربض بقرطبة، خرج من الأندلس بعد وقعة الربض، فنزل مزلا بقرب سجلماسة، فأنشأها مدرارا خيمة، وسكنها فبنى الناس حوله، وظهر برئاسة اليربر (٣). ويذكر ابن خلدون أنه كان إباضيا صفريا، وخطب في سجلماسة للمنصور والمهدي من بني العباس (٤). ولما توفي سنة ١٦٧ هـ خلفه ابنه إلياس الملقب بالوزير، ولكن أهل سجلماسة ثاروا عليه في سنة ١٧٤، وخلعوه، وأقاموا مكانه أخاه اليسع بن أبي القاسم الملقب بأبي منصور (١٧٤ - ٢٠٨ هـ)، ويعتبر اليسع بن أبي القاسم بن المدرار هذا المؤسس الحقيقي لدولة بني

---

(١) ابن خلدون جـ ٦ ص ٢٦٧ — ويجعلها ابن الخطيب سنة ١٦٢

(٢) السلاوي، جـ ١ ص ١٢٥

(٣) الاستبصار ص ٢٠١ — ابن الخطيب، ص ١٤٠

(٤) ابن خلدون، جـ ٦ ص ٢٦٨

واسول المعروفة بدولة بنى مدرار . ففى عهده استقحل ملك بنى المدرار فى سجلماسة ، « وهو الذى أتم بناءها وتشييدها ، واختط بها القصائر والقصور » ، وانتقل إليها فى سنة ١٩٩ هـ [١] ، وفيه يقول ابن عذارى : « وكان جبارا عنيدا ، قطفر بمن عاند من قبائل البربر ، وقهرهم وأذلهم ، وأظهر القصرية ، وأخذ خمس معادن درعة ، وعظم قدره فى ذلك الوقت ، وكان موضع سجلماسة قد عمر بالديار دون سور ، ثم زاد ملك المسمع المذكور ، وأمر ببناء السور ، أسفله بالحجارة وأعلاه بالطوب ، فقيل أن بناءه كان من ماله ، لم يشاركه فيه أحد ، فسكن سجلماسة وتوفى سنة ٢٠٧ هـ ، فكانت مدته بها نحو أربعين وثلاثين سنة » [٢] . وذكر ابن الخطيب أنه هدم سور المدينة الأول ، وبناه بناء أعظم من البناء الأول ، ورتج فيه ١٢ بابا عددة ، وقسم داخل المدينة على القبائل [٣] . وهكذا ازدهرت مدينة سجلماسة فى أيامه ، وأصبحت حاضرة هذه الدولة . وتقع مدينة سجلماسة على نهر يسميه اليعقوبى بنهر زيز ، وليس بها عيون ولا آبار [٤] .

ويصفها ابن حوقل فى القرن الرابع بقوله : « وسجلماسة مدينة حسنة الموضع جليلة الأهل ، فاخرة النسل على نهر يزيد فى الصيف كزيادة النيل... فيزرع بغالة حسب زروع مصر فى الفلاحة ، وربما زرعوا سنة عن بذر ، وحصدوا عاما من زرعه ، وتواترت السنون بالماء ، فكلما أقدمت تلك

---

(١) ابن خلدون ، جـ ٦ ص ٢٦٨ ـ السلاوى ، جـ ١ ص ١٢٨

(٢) ابن عذارى ، جـ ١ ص ٢١٥ ، ٢١٦

(٣) ابن الخطيب ، ص ١٤٣

(٤) اليعقوبى ، ص ٣٥٩

الأرض سنة فى عقب أخرى ، حصدوه إلى سبع سنين [1] ، يسنبل لا يشبه سنبل الحنطة ولا الشعير ، يحب صلب المكسر ، لذيذ المطعم ، وخلقه مابين القمح والشعير [2] ، ولها نخيل وبساتين حسنة وأجنة ، ولحم رطب أخضر من السلق فى غاية الحلاوة ، وأهلها قوم سراة مياسير ، يباينون أهل المغرب فى المنظر الخير ، مع علم ، وستر ، وصيانة ، وجمال ، واستعمال للمروءة ، وسماحة ورجاحة ، وأبنيتها كأبنية الكوفة إلى أبواب رفيعة على قصورها عتيدة عالية » [3]. وذكر البكرى أن أهل سجلماسة يعتمدون على التجارة فى غالبهم ، وأشار إلى مهارة نسائها فى غزل الصوف وصناعة الأزر البديعة التى تفوق ماكان يصنع فى مصر من القصب ، وكان ثمن الإزار الواحد منها يبلغ ٣٠ دينارا ، وتحدث البكرى عن غنى أهلها ، وكثرة أموالهم ، لاشتغالهم بالتجارة إلى بلاد غانة والسودان ، وهى بلاد مشهورة بالذهب . ويؤكد الاصطخرى هذا المعنى بقوله : « وهى قرية من معدن الذهب بينها وبين أرض السودان وأرض زويلة ، ويقال إنه لايعرف معدن الذهب أوسع ذهبا ولا أعمق منه ، إلا أن المسلك إليه صعب ، والاستعداد شاق جدا » [4] .

---

(١) فسر البكرى ذلك بأن سجلماسة بلاد شديدة الحرارة ، وكانت الحرارة تشقق الأرض ، فاذا بقى الزرع تناثر حب عند الحصاد ، فتساقط فى الشقوق ، فاذا كان العام الثانى حرث بلا بذر ، وكذلك فى العام الثالث ( البكرى ، ص ١٤٨ ) .

(٢) أشار اليعقوبى إلى أكثر مزروعات سجلماسة الحنطة والشعير .

(٣) ابن حوقل ، صورة الأرض ص ٩٠

(٤) أبو اسحق ابراهيم بن محمد الفارسى الاصطخرى ، المسالك والممالك ، تحقيق الاستاذ محمد جابر عبد العال الحينى ، القاهرة ١٩٦١ ، ص ٣٤ .

ويصفها المقدسي في القرن الرابع الهجري بقوله : « سجلماسة قصبة جليلة على نهر يعزل عنها ، يفرغ في تيليا ، وهي طولانية كمرقنيك ، عليها سور من طين ، وسطها حصن يسمى المسكر ، فيه الجامع ودار الإمارة شديدة الحر والبرد جميعا ، صحيحة الهواء ، كثيرة التمور ، والأعناب والزبيب ، والفواكه والحبوب ، والرمان ، والخضيرات ، كثيرة الفرباء ، موافقة لهم ، يقصدونها من كل بلد ، ومع ذلك تمر فاضل ، برستاقها معادن الذهب والفضة ، وهم أهل سنة ، وقوم جياد ، بها علماء وعقلاء ، لها باب للقبلي ، باب للغربي ، باب لغدير الجزارين ، باب موقف زناته ، وغيرها ، وهي في رحال ، ولهم مياه » (١) .

وكانت سجلماسة في عصر الموحدين مركزا تجاريا هاما ، وكان يتولاها أمير من أمراء الموحدين ، ويصفها صاحب الاستبصار بقوله : « ولمدينة سجلماسة ١٢ بابا ، ولها بساتين ، وهي كثيرة النخـــل والأعناب وجميع الفواكه ، وزيب عنبها المعرش الذي لامتناله الشمس لا يزبب إلا في الظل ، ويسمى الظلي ، وما أصابته منه زبب في الشمس ، وهي على نهرين من عنصر واحد في موضع يسمى أكلف ، وتحته عيون كثيرة ، ولهم مزارع كثيرة يسقونها من النهر في حياض كحياض البساتين » (٢) . ولقد اندثرت مدينة سجلماسة اليوم ، وقامت على أنقاضها تافيلت .

ب ـ ولاية ابن أبي القاسم سعدون الملقب بالمدرار :

تولى بعده ابنه مدرار الملقب بالمنصور ، وهـو الذي تزوج أروى ابنة

---

(١) المقدسي ، أحسن التقاسيم لمعرفة الأقاليم ، طبعة ليدن ١٩٠٦ ص ٢٣١

(٢) الاستبصار ، ص ٢٠١

عبد الرحمن بن رستم ، وأنجب منها ولده ميمون ، وكان له ولد آخر من امرأة تعرف بنفية اسمه ميمون أيضا ، وكان اليسع يميل إلى ابن الرستمية ولذلك تنازع الولدان فى عهده ، وقامت بينهما الحرب ثلاث سنوات ، تغلب فى نهايتها ابن أروى ، فلما استبد بالأمر وأساء السيرة خلعه أهل سجلماسة وأعادوا مدرار على ولايتهم ، ولكنه أخذ يميل من جديد إلى ابن الرستمية ، فخلعوه وقدموا على أنفسهم ميمونا ابن النفية ، وتوفى مدرار فى سنة ٢٥٢ هـ وظل ابنه ميمون قائما بإمارتهم حتى توفى سنة ٢٦٣ هـ .

وخلفه ابنه محمد بن ميمون بن مدرار وكان إباضيا ، ولم يطل عهده إذ توفى فى صفر سنة ٢٧٠ هـ ، وولى بعده عمه اليسع بن مدرار سنة ٢٧٠ هـ . وفى عهده وصل عبيد الله المهدى وابنه أبو القاسم إلى سجلماسة ، فحبسهما ، إلى أن زحف إليه أبو عبد الله الشيعى ، وتغلب عليه وقتله . ودخل سجلماسة فى ذى الحجة سنة ٢٩٧ هـ ، وخلص للمهدى وابنه ، وأقام على سجلماسة ابراهيم بن غالب الزابى ، من رجال كتامة (١) . وما كاد أبو عبد الله الشيعى يعود إلى إفريقية حتى ثار أهل سجلماسة على عامله عليهم ، وقتلوه بعد مضى ٥٠ يوما فقط من انصراف أبى عبد الله الشيعى ، وقدموا على أنفسهم الفتح بن ميمون بن مدرار ، الملقب بالرسول وذلك فى ربيع الأول سنة ٢٩٨ هـ . وظل الفتح يقوم بأمر سجلماسة إلى أن توفى فى رجب سنة ٣٠٠ هـ ، ثم خلفه أخوه أبو العباس أحمد على إمارة سجلماسة . واستقام أمره فى البلاد ، غير أن المهدى لم يدعه ينعم بالإمارة ، فوجه إليه مصالة بن حبوس الصنهاجى على رأس جيش كثيف من بربر كتامة ومكناسة فحاصر

---

(١) ابن عذارى ج ١ ص ٢١٧ — ابن خلدون ج ٦ ص ٢٦٩ — ابن الخطيب القسم الثالث من أعمال الأعلام ص ١٤٠

سجلماسة ، وافتتحها عنوة ، وقتل أبا العباس أحمد وارسل رأسه إلى عبيد الله المهدى فى محرم سنة ٣٠٩ . ورأى مصالة أن يقيم على سجلماسة أميرا من آل مدرار حتى يعد بذلك من ثوراتهم ، فأقام المعتز بن محمد بن سافور بن مدرار ، وكان المعتز هذا يدعو للفاطميين . ولما توفى فى سنة ٣٢٤هـ خلفه ابنه محمد الملقب بأبى المنتصر ، واستدام ملكه عشر سنوات ، وتوفى فى سنة ٣٣٤ . ثم تولى ابنه المنتصر ، وكان صغيرا لا يتجاوز من العمر ١٣ سنة ، فوثب عليه ابن عمه محمد بن الفتح بن ميمون بن مدرار فى سنة ٣٣٢هـ ، وأخرج المنتصر من سجلماسة ، وقطع الدعوة من خلفاء الفاطميين ، ودعا إلى نفسه ، وتسمى بأمير المؤمنين ، ولقب بالشاكر لله (٢) ، ورفض الخارجية ، وأخذ بمذهب أهل السنة ، واتخذ السكة باسمه ولقبه ، وكانت تسمى الدراهم الشاكرية (٣) . وكان عادلا حسن السيرة ، وظل يقوم بأمر سجلماسة وما يليها حتى زحف إليه جوهر الصقلى فى خلافة المعز لدين الله الفاطمى سنة ٣٤٧هـ ، فحاصر سجلماسة ثلاثة أشهر ، فغر الشاكر لله فى جماعة من أهله وخاصته ، وتحصن بحصن من حصون سجلماسة يبعد عنها بنحو ١٢ ميلا . أما جوهر فدخل مدينة سجلماسة . ويذكر ابن الخطيب أن الشاكر لله خرج من حصنه فى نفر من أصحابه يتجسس الأخبار ، ودخل سجلماسة متنكرا ، فغدر به قوم من مطغرة ، فقبض عليه جوهر ، وحبسه فى قفص من الخشب ، وحمله إلى القيروان ، ثم سجن بقلعة إلى أن توفى سنة ٣٥٩ . وبوفاته انقرض آل مدرار أمراء سجلماسة .

---

(١) ابن الخطيب ، الرسم السابق ص ١١٨

(٢) ابن خلدون ، ج ٦ ص ٢٢٠

# الفصل الثامن

## المغرب فى ظل الفاطميين

(١) قيام الدولة الفاطمية فى المغرب

ا ـ دور أبي عبد الله الشيعى فى تأسيس الدولة الفاطمية : ١ ـ مرحلة الاعداد ٢ ـ مرحلة الصدام المسلح

ب ـ خلافة عبيد الله المهدى :

١ ـ التخلص من الشيعى وأصحابه

٢ ـ القضاء على ثورة الإباضية بطرابلس

٣ ـ تأسيس المهدية والتمهيد لبسط النفوذ الفاطمى على مصر أو الأندلس

٤ ـ رد الفعل الأموى ضد مطامع الفاطميين فى الأندلس وأثر ذلك فى تحويلهم نحو مصر

٥ ـ فتح برقة ومحاولة فتح مصر

(٢) ثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد اليفرنى الخارجى

ا ـ قيام الثورات فى بداية عهد القائم

ب ـ ثورة أبي يزيد :

١ ـ المرحلة الأولى : ( ٣٣٢ ـ ٣٣٦ هـ )

٢ ـ المرحلة الثانية : ( ٣٣٢ ـ ٣٣٣ هـ )

٣ ـ المرحلة الثالثة : ( ٣٣٣ ـ ٣٣٤ هـ )

٤ ـ المرحلة الرابعة : ( ٣٣٤ ـ ٣٣٦ هـ )

(ب) خلافة المعز لدين الله الفاطمي

أ ـ بسط نفوذ الفاطميين على المغرب الأقصى

ب ـ استيلاء المعز على مصر وانتقاله إليها

# الفصل الثامن

## المغرب فى ظل الفاطميين

### ( ١ )

### قيام الدولة الفاطمية فى المغرب

**١ ــ دور ابى عبد الله الشيعى فى تأسيس الدولة الفاطمية :**

كان قيام الدولة الفاطمية فى حد ذاته ثورة وانقلابا فى التاريخ الاسلامى، إذ أن نجاح الشيعة الإسماعيلية فى إقامة خلافة لهم فى المغرب جاء بعد محاولات طويلة فاشلة قام بها الشيعة منذ قيام الدولة الأموية ، للظفر بالخلافة ، وكان هذا الفشل نتيجة لانقسامهم على أنفسهم وتفككهم [1]. وكان لهذا النجاح الذى أحرزه الفاطميون آثار هامة فى تقرير مصير بلاد المغرب لأمد بعيد ، فان المغرب الإسلامى رغم انفصاله عن الدولة العباسية كانت تسود فيه المذاهب السنية ، وذلك لأن المذهب الاباضى فى تاهرت ، وهو مذهب المعتدلين من الخوارج ، كان لايختلف كثيرا عن مذاهب أهل السنة ، حتى أطلق عليه حديثا اسم المذهب الخامس ، وهذا يفسر ، وفقا لما يراه الأستاذ الدكتور سعد زغلول عبد الحميد وكيف أن إمارة سجلماسة الصفرية كانت تدين بالولاء للخلافة العباسية ببغداد ، كما أن دولة الأدارسة فى فاس ، على

---

(١) حسن ابراهيم حسن وطه شرف ، عبيد الله المهدى امام الشيعة الاسماعيلية ، القاهرة ١٩٤٧ ص ٢٠

الرغم من كونها دولة علوية، إلا أن الأدارسة كانوا معتدلين بشكل لا يفرقهم عن أهل السنة، مما دعا إلى تسمية هذه الدولة بالدولة الحاشمية، شأنهم في ذلك شأن العباسيين، وعلى هـذا قامت فاس وتاهرت وسجلماسة بنشر الإسلام السني في المغرب الأقصى والأوسط، وبذل حكام هذه العواصم الثلاث جهدا صادقا في القضاء على هرطقات البورغواطة في المناطق الجبلية بالمغرب الأقصى، وخاصة مرافقة برغواطة. فقيام الدولة الفاطمية في المغرب انقلاب خطير، أدى إلى قطع علاقة المغرب بالمشرق، وبالخلافة العباسية ببغداد (١)، مما دعا أمراء بني أمية في الأندلس بعد ذلك إلى التلقب بألقاب الخلافة في ذي القعدة سنة ٣١٦، بعـد أن فقدت الخلافة العباسية هيبتها من جهة، ومناوءة الخلفاء الفاطميين في المغرب من جهة ثانية.

وقبل أن نتحدث عن قيام الدولة الفاطمية بالمغرب لابد أن نذكر أن هناك مرحلتان لنشر دعوة الاسماعيلية في هذه البلاد: الأولى، هي مرحلة الإعداد للدولة، وتكوين الأنصار والمشايعين للمذهب الاسماعيلي في المغرب. والثانية، مرحلة الصدام المسلح مع الدويلات القائمة في المغرب.

١ ـ مرحلة الإعداد:

كانت بلاد اليمن مركزا هاما للدعوة الشيعية، وذلك لبعدها عن مركز الخلافة العباسية، ومناعتها وصعوبة الطرق للوصول إليها، ولقربها من الحجاز

---

(١) سعد زغلول عبد الحميد، فترة خاصة من تاريخ المغرب، مجلة كلية الآداب والتربية بالجامعة الليبية، المجلد الأول ١٩٦٨، بنغازي، ص ٢١٩ ـ ٢٢١.

بلج الحواج [1]. وقد كان القائم بالدعوة الإسماعيلية رجلا من الكوفة اسمه رستم بن الحسين بن فرج بن حوشب الذي عرف بمنصور اليمن لانتصاره على الوالي العباسي ، وعلى أمراء اليمن [2] . وكان ابن حوشب يرسل الدعاة إلى اليمامة وعمان والبحرين ومصر والمغرب، وبها اختيار المغرب موفقا كل التوفيق لبعده عن مركز الخلافة العباسية ، وتقدم البربر من الحكم العباسي ، ولهذا فقد كانت بلاد المغرب تربة خصبة للدعوات الشيعية [3]. وكان الامام جعفر الصادق قد أنفذ إلى المغرب داعيين هما : الحلواني وأبا سفيان ، وقال لهما : « بالمغرب أرض بور ، فاذهبا واحرثاها حتى يجيء صاحب البذر » [4]. فنزل أحدهما ببلدة مراغة، والآخر ببلد سوف جار من أرض كتامة ، فانتشرت الدعوة الشيعية في هذه النواحي ، ولما بلغ ابن حوشب نبأ وفاة هذين الداعيين ، عهد إلى أبي عبد الله الشيعي بالدعوة للاسماعيلية في بلاد المغرب ، فخرج أبو عبد الله إلى مكة ، والتقى هناك ببعض رؤساء كتامة ، ومنهم موسى بن حريث ، وأبو القاسم الورفجومي ، ومسعود بن عيسى بن هلال الساكن [5] . وذكر ابن عذارى ، أنهم كانوا نحو عشرة

---

(١) أحمد مختار العبادي ، في التاريخ العباسي والفاطمي ، نشر المغرب والأندلس ، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية ، المجلد الخامس ، ١٩٥٧ ص ١٦٤

(٢) ابن خلدون ، ج ٤ ص ٦٥ ـ السيد عبد العزيز سالم ، المغرب الإسلامي ، ج ١ ص ١٠٤

(٣) محمود علي مكي ، التشيع في الأندلس ، صحيفة المعهد المصري في مدريد ، المجلد الثاني ، ١٩٥٤ ص ٦٨

(٤) المقريزي ، اتعاظ الحنفا بذكر الأئمة الخلفا ، نشره الدكتور جمال الدين الشيال ، القاهرة ، ١٩٤٨ ، ص ٥٢ ـ ابن خلدون ، ج ٤ ص ٦٥

(٥) ابن خلدون ، ج ٤ ص ٦٦

من قبيلة كتامة ملتفين على شيخ منهم ، فسألهم عن بلادهم ، فأخبروه بصفتها وسألهم عن مذهبهم ، فصدقوه عنه ، فتكلم أبو عبد الله الداعي في المذاهب فوجد الشيخ يميل في مذهبه إلى مذهب الإباضية النكارة ، فدخل عليه من هذه الثلمة ، ولم يزل يستدرجهم ، ويخيلهم بما أوتي من فضل اللسان ، والعلم بالجدل ، إلى أن سلبهم عقولهم بسحر بيانه (١). فلما آن لهم العودة إلى بلادهم ، سألوه عن مقصده ، فادعى أنه يريد مصر ليعلم بها ، فدعوه إلى بلادهم للقيام بهذه المهمة ، ونزل ببلاد كتامة في منتصف ربيع الأول سنة ٢٨٨ هـ (٢) . فنزل على موسى بن حريث بلده ، وهي مكان منزله بفج الأخيار ، وأخبره بأن النص عنده من المهدي بذلك ، وأن اسمهم مشتق من الكتمان (٣). وأخذ أبو عبد الله الشيعي يضع لأهل كتامة من الأحاديث والتأويلات يظهر به للمهدي ، ويستخدم السحر والطلاسم ، الأمر الذي أثار حماسهم ، وجعلهم يلتفون حوله ، ويعضدونه .

ولقد اعترضت أبا عبد الله الشيعي بعض الصعاب تمكن من التغلب عليها ، ذلك أن وجوده أحدث انقساما بين البربر ، انتهى بانتصار الفريق الذي كان يسانده ، والتزمت كتامة الطاعة له ، ودخلت قبائل كثيرة في دعوته ، فجعل لهم ديوانا ، وألزمهم الجندية ، وقال لهم : « أنا لا أدعوكم لنفسي ، وإنما أدعوكم لطاعة الإمام المعصوم من أهل البيت » (٤) .

---

(١) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٦٦

(٢) ابن خلدون ، ج ٤ ص ٦٦ ـ أحمد مختار العبادي ، سياسة الفاطميين ، ص ١٩٤

(٣) نفس المرجع ص ٦٧

(٤) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٧٢

استقام أمر أبي عبد الله الشيعي بكتامة وصنيعة وزواوة، وكثر الداخلون في دعوته من البربر، فقوى أمره، واستفحل خطره، وأحس بقوته، فبدأ الأمير ابراهيم بن أحمد يخاف هذه القوة الجديدة، ويحمل لها حسابا كبيرا، وكان لابد له أن يسعى لتحطيمها قبل أن تحطمه. ويذكر ابن الخطيب، أنه بعث إلى أبي عبد الله الشيعي من يتلطف في تعرف خبره، وسبر غوره، فلما دخل عليه قال له: «إن الأمير ابراهيم بن أحمد وجهني إليك يقول لك: ما حملك على التعرض لسخطي، والوثوب على ملكي، وإفساد رعيتي، والخروج علي. فان كنت تبغي غرضا من أغراض الدنيا، فانك تجده عندي، وإن كان قصدك غير ذلك، فقد عرفت عواقب من سولت له نفسه ما سولت لك نفسك، وإنما أردت الإعذار إليك، وهذا أول كلامي لك وآخره. فانظر في يومك لغدك». فرد عليه أبو عبد الله الشيعي بقوله: قد قلت فاسمع، وبلغت فأبلغ: أما ما ذكرت من التهديد، فما أنا ممن يروع بالإبعاد، وأما تخويفك إياي برجال دولتك أبناء عظام الدنيا، فانى في أنصار الدين، وحماة المؤمنين، الذين لا تروعهم كثرة أنصار الظالمين، مع قول الله (كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله، والله مع الصابرين)، وأما ما أطمع به من دنياه، فلست من أهل الطمع فيما عنده، أنا بعثت رسولا لأمر رجم، وقرب، وإنجاز وعد من الصدق، والله لا يخلف الميعاد. هذا جواب ما جئت به». ثم صرف الرسول على أحسن حال. فلما بلغ ابراهيم بن أحمد قوله، ووصفت له صفته، عرف أنه صاحب قطع دعوته. وكان له علم عن الحدثان [1]. ويبدو أن إبراهيم بن أحمد لما تلقى هذا الرد الجريء أراد أن يرضي العامة

---

(١) ابن الخطيب، ص ٣٩

ويستميل القلوب الخاصة بفعله ، فرد المظالم ، وأسقط القبالات [1] ، وأعلن توبته ، وهنا تبدأ المرحلة الثانية من مراحل الدعوة الإسماعيلية .

٢ ـ مرحلة الصدام المسلح :

وتبدأ هذه المرحلة منذ سنة ٢٨٩ هـ وتنتهي بإسقاط الشيعة الإسماعيلية لعرش الأغالبة والرستميين سنة ٢٩٦ هـ . شرع أبو عبد الله الشيعي في عام ٢٨٩ هـ في مصادماته الحربية مع الأغالبة ، فقد زحف إلى طبنة ، وأغار عليها ، فسير إليه أبو العباس بن ابراهيم بن أحمد ابنه أبا عبدالله الأحول لمحاربته [2] ، ولكنه انهزم مرتين [3] . ثم استدعاه أخوه زيادة الله من طبنة بعد أن تولى الإمارة عقب مقتل أبيه ، وقتله ، وانتقل من تونس إلى رقادة ، واستغرق في ملذاته . وفي هذه الأثناء كانت جيوش أبي عبد الله الشيعي قد انتشرت في البلاد . وفي سنة ٢٩٢ هـ حدثت موقعة كيتونة ، وتفصيلها أن زيادة الله سير إلى أبي عبد الله الشيعي حملة بقيادة ابراهيم بن حبشي ، فلما علم الشيعي بخروج العسكر إليه وكثرة من معهم من الرجال وما لديهم من العدة وآلات الحرب ، استنفر كتامة ، وتأهب للقاء ابراهيم بن حبشي . فلما التقى الجيشان ، دارت الدائرة على ابن حبشي ، وغنم أنصار الشيعي غنائم كثيرة ، وهي أول غنيمة أصابها أصحابه ، فلبسوا أثواب الحرير ، وتقلدوا السيوف المحلاة ، وركبوا بسروج الفضة والتجم المذهبة ، وكثرت لديهم الأسلحة . ثم كتب الشيعي إلى عبيد الله المهدي بسلمية من أرض حمص يخبره بما فتح

---

(١) ابن عذاري ج ١ ص ١٧٧

(٢) نفس المرجع ص ١٨٠

(٣) ابن خلدون ج ٤ ص ٢٠

الله عليه ، فتنكر للهدى فى زى تاجر ، وقدم إلى مصر ، ثم ارتحل منها إلى القيروان ، ثم مضى بعد ذلك إلى قسطينة ، ثم توجه منها إلى سجلماسة فأكرمه أميرها اليسع بن مدرار [1] .

وكان انتصار أبى عبد الله الشيعى فى كيتونه فاتحة انتصارات شيعية جديدة ، فقد زحف أبو عبد الله الشيعى إلى سطيف ، فحاصرها فترة ، فاستأمن أهلها ، فأمنهم ، ودخلها ، فهدمها . وفى سنة ٢٩٣ هـ استولى الشيعى على مديق بلزمة وطبنة ، وفى سنة ٢٩٤ هـ تمكن من الاستيلاء على باغاية بالأمان ، ثم افتتح قرطاجنة واستأمن أهل تيفاش ، ثم سقطت تبسة فى يده وتبعها القصرين من إقليم قسنطينة . وفى سنة ٢٩٥ استولى الشيعى على قسطينة ، وتوغل بعد ذلك إلى إقليم قسطيلية ، فاستولى على تجيس ثم على قفصة . وفى سنة ٢٩٦ هـ سقطت الأربس فى يده ، وعلى أثر ذلك فر زيادة الله إلى مصر ، فدخل أبو عبد الله الشيعى مدينة رقادة فى رجب سنة ٢٩٦ هـ وسقطت دولة الأغالبة باستيلائه أخيرا على القيروان .

وفى هذه الأثناء كان اليسع بن مدرار قد اكتشف أمر عبيد الله المهدى [2] ، فسجنه هو وولده أبا القاسم ، فلما علم أبو عبد الله الشيعى بذلك عزم على السير إلى سجلماسة لتخليصهما من السجن ، فاستخلف على إفريقية أخاه أبا العباس ، وأبا زاكى تمام بن معارك ، وسار فى طريقه إليها على

---

(١) ابن خلدون جـ ٤ ص ٢١

(٢) ذكر ابن خلدون أن زيادة الله ، وليل المكنى العباس ، كتب إلى اليسع بشأن عبيد الله ، وذكر له أنه المهدى الذى يدعوه الشيعة فى كتامة ، فحبسه اليسع لذلك (ابن خلدون جـ ٤ ص ٢١ ، ٢٢

ظهرت ساعرة الرستميين ، فاستولى عليها ، وقضى على الدولة الرستمية . وولى من تاهرت أبا حميد دواس بن صولات الهيصى ، وابراهيم بن محمد اليزاتى المعروف بالهوارى ، وكان يلقب بالسيد الصغير (١) . ثم تابع الشيعى بعد ذلك سيره إلى سجلماسة ، فحاصرها ، ودخلها ، وأخرج للمهدى وابنه من السجن (٢) . ويذكر المؤرخون أنه عندما أبصر المهدى ، ترجل وخضع بين يديه من فرحته بهذا اللقاء ، ثم إنه مشى أمامه راجلا حتى أنزله بالمخيم ، وسلم إليه الأمر ، وقال لمن معه : « هذا مولاى ومولاكم ، قد أنجز الله وعده ، وأعطاه حقه ، وأظهر أمره » (٣) .

وأقام أبو عبد الله الشيعى وعبيد الله المهدى بسجلماسة أربعين يوما ، ثم رحلوا نحو القيروان ، بعد أن ولى الشيعى على سجلماسة إبراهيم بن خالب الزناتى ، فوصلوا إلى رقادة فى ربيع الأول سنة ٢٩٧هـ ، وهناك خرج أهل القيروان من الفقهاء ووجوه المدينة لاستقبال المهدى ، فهنأوه بالوصول ، وسألوه تجديد الأمان لهم ، فأمنهم على أنفسهم ، ولم يذكر الأموال ، فعاودوه بعضهم وسألوه أن يؤمنهم على أموالهم ، فأعرض عنهم ، فخافه أهل العقل منذ ذلك الحين (٤) . ونزل عبيد الله المهدى فى قصر الصحن ، بينما نزل ابنه أبو القاسم فى قصر أبى الفتح ، ويوجه للمهدى فى رقادة البيعة العامة ، ولقب بالمهدى أمير المؤمنين ، واستقام له الأمر ، فضربت السكة باسمه ،

---

(١) ابن عذارى ، جـ ١ ص ٢١٠ .

(٢) يذكر المؤرخون أنهما كانا معتقلين فى قلعة عند مريم بنت عدرار ( ابن عذارى جـ ١ ص ٢١٠ ـ الاستبصار ص ٢٠٠ )

(٣) ابن عذارى ، جـ ١ ص ٢١٠ .

(٤) ابن عذارى ، جـ ١ ص ٢١٨ .

وأسند المناصب إلى رجال يثق فيهم ، فولى بيت المال أبا جعفر الخزرى ، وعلى ديوان الخراج أبا القاسم بن الديم ، وعلى الشرطة أبا بكر الفيلسوف المعروف بابن القصردى ، وعلى العطاء عبدون بن حياسة ، وعلى أضام قادة أفلح بن هارون اللواتى ، ثم أقر على عمالة القيروان الحسن بن أبى خنزير ، وعلى القضاء بها المروزى القاضى ، وبعث العمال على البلاد ، وجبى الأموال وذكر ابن عذارى ، أنه « أمر أن تقلع من المساجد والمآجل والقصور والقناطر أسماء الذين بنوها ، وكتب عليها اسمه ، وأظهر عبيد الله التشيع القبيح ، وسب أصحاب النبى ( صلعم ) وأزواجه ، حاشا على بن أبى طالب والمقداد بن الأسود ، وعمار بن ياسر ، وسلمان الفارسى ، وأبى ذر الغفارى ، وزعم أن أصحاب النبى ( صلعم ) ارتدوا بعده ، غير هؤلاء الذين سميناهم . ومنع المروزى الفقهاء أن يفتى أحدهم إلا بمذهب زعم أنه مذهب جعفر بن محمد ، منه سقوط الحنث عمن طلق بالبتة ، وإحاطة البنات بالميراث ، وأشياء يطول ذكرها . ومدحت الشعراء عبيد الله بالكفر ، فاستجازه » (١) .

ب ـ خلافة عبيد الله المهدى :

١ ـ التخلص من الشيعى وأصحابه :

كان عبيد الله المهدى ، منذ أن استقامت له الأمور فى المغرب ، يهدف إلى تدعيم مركزه فى بلاد المغرب ، وذلك باصطناع سياسة تركز السلطات وجمعها فى يده ، وكان لابد له أن يصطدم فى ذلك مع أبى عبد الله الشيعى مؤسس دولته ، ويذكر ابن خلدون أنه « لما استقام سلطان عبيد الله المهدى

(١) المرجع السابق ص ٢٢٠ .

بافريقية استبد بأمره ، وكفح أبا عبد الله الشيعي وأخاه أبا العباس عن الاستبداد عليه ، والتحكم في أمره ، فعظم ذلك عليهما ، وصرح أبو العباس بما في نفسه ، فنهاه أخوه عبد الله عن ذلك ، فلم يصغ إليـــه ، ثم استأذنه أبو العباس لشل رأيه ، فأجابه ، وبلغ ذلك إلى المهدي ، فلم يصدقه ، ثم نهى أبا عبد الله عن مباشرة الناس ، وقال إنه مفسد للهيبة » (١) . فأخذ أبو عبد الله منذ ذلك الحين يدعو الناس إلى خلعه ، ويطعن سرا في خلافته . وحاول أن يقنع الناس أنه ليس هو الإمام المعصوم ، وزعم لهم ان المهدي الصحيح علامة ، وهي أن بين كتفيه مكتوب « المهدي رسول الله » ، وحث أبو عبدالله رؤساء كتامة على امتحانه ، وذكروا أن شيخا من شيوخ كتامة ذهب إلى المهدي وقال له : « جئنا بآية على أمرك ، فقد شككنا فيك » ، فقتله المهدي على الفور . وبلغ المهدي أن أبا عبدالله الشيعي وأخاه أبا العباس وأبا زاكي تمام بن معارك وآخرين يأمرون عليه ، فعزم على قتلهم ، وبدأ بأبي زاكي ، فبعثه على طرابلس ، وفي نفس الوقت بعث إلى عامليها مأمون الاجابي يأمره بقتله ، فقتله فور وصوله . ثم أمر بقتل ابن الفقيم وكان من أصحاب زيادة الله ، واستصفاء أمواله وعمد بعد ذلك إلى التخلص من أبي عبد الله الشيعي وأخيه ، فأمر عروبة بن يوسف وأخاه حباسة بقتلهما ، فترصدا لهما ، في موضع يمران فيه إلى القصر ، فلما مرا بهذا الموضع حملا عليه ، فلما هم عروبة بقتل أبي عبدالله قال له هذا : « لا تفعل يا ولدي » ، فقال له عروبة « أمرني بقتلك من أمرني بطاعته ، وانخلعت له من الملك بعد تولعته (٢) » . ثم أجهز القاتلان عليهما في أول ذي الحجة سنة ٢٩٨ هـ ،

---

(١) ابن خلدون جـ ٤ ص ٢٩

(٢) ابن عذاري جـ ١ ص ٢٢٨ — ابن خلدون ، جـ ٤ ص ٢٢

وظلا صريعين على ضفة الخفير المعروف بالبحر إلى أن أمر المهدي بدفنهما، فدفنا في المكان.

وقد أثار مقتل أبي عبدالله الشيعي فتنة كبيرة قام بها أتباعه، وذكر المؤرخون أن من كان حول رقادة من كتامة أظهروا الخلاف على عبيد الله وقدموا على أنفسهم حدثا يعرف بالمارطي، واسمه كلدون بن معارك وجعلوه قبلة يصلون إليها، وكتبوا كتابا فيه شريعة زعموا أنها أنزلت على أبي عبدالله، وزعموا أن هذا الطفل هو المهدي المنتظر، فامتدت هذه الدعوة في جميع بلاد الزاب، وقوي أمر هذا المهدي، واشتدت شوكته، فسير عبيد الله لقتالهم، فانضم إليهم قائد من جيش عبيد الله المهدي هو صولات بن جندة في نحو مائتي رجل، فاضطر عبيد الله إلى تسيير حملة قوية بقيادة ابنه أبي القاسم إلى بلاد كتامة، لمحاربة المارطي وأتباعه، فافتتح تمسطينة وغيرها من أرض كتامة، وتمكن أبو القاسم من هزيمة الكتاميين في عدة مواقع، وقبض على المارطي وجماعة من كبار أهل كتامة، فطوفوا بالقيروان على الجمال وعليهم القلانس الطوال المشهرة بالقرون والمصافع، فقتلوا بمدينة رقادة [1].

٢ ـ القضاء على ثورة الإباضية بطرابلس سنة ٣٠٠هـ:

ثار أهل طرابلس في سنة ٣٠٠هـ على ما تنون الإجابي عامل عبيد الله عليهم، فقر ماكنون، وامتنع أهل طرابلس داخل مدينتهم، وقدموا على

(١) نفس المرجع ص ٢٣٣. ويذكر ابن خلدون أن أبا القاسم عزم الكتاميين، وقتل الطفل الذي تعبدوه، وعاد الى القيروان ( ابن خلدون ج ٤ ص ٢٨ )

أنفسهم محمد بن اسحق المعروف بابن الفرقين (١) . فأرسل عبيد الله ابنه أبا القاسم لاسترجاع طرابلس وإعادة الثورة ووجه إليها عبيد الله ٥٠ مركبا حربية أحرقها أهل طرابلس . أما أبو القاسم ، فقد هزم أهل هوارة ، ثم حاصر طرابلس ، وقطع عن أهلها المؤن والأقوات ، فاستسلموا لأبي القاسم على الأمان ، واشترط عليهم فظير ذلك أن يسلموا إليه ثلاثة من زعماء الثورة ، حملهم معه إلى رقادة ، حيث قتلوا ، كما أغرم أهل طرابلس مبلغا قدره ٣٠٠٠ الف دينار (٢) .

ب- تأسيس المهدية وتمهيد لد الفوذ الفاطمي إلى مصر أو الأندلس:

كان لقيام الثورات على عبيد الله أثر كبير فى حمله على بناء مدينة يحتمها عدة عند الشدة ، وملاذا فى أوقات الفتن (٣) . ويذكر ابن خلدون أنه قال : « بنيها لتحصن بها القواطم ساعة من نهار » (٤) . وكانت مدينة رقادة بقصورها فى وسط سهل فسيح عرضة لغزو من كل جانب ، فآثر أن يتخذ عاصمة تقع على البحر حتى تكون قاعدة لعملياته المستقبلة لغزو مصر أو الأندلس .

والواقع أن أهل المغرب خاب أملهم فى المهدى ، إذ اتضح لهم أن الوعود التى وعدهم بها أبو عبد الله الشيعى عن انقطاع الفساد بخلافة المهدى

---

(١) ابن عذارى ، جـ ١ ص ٢٣٣

(٢) نص الرسم ، جـ ١ ص ٢٣٤ — ابن خلدون جـ ٤ ص ٢٨

(٣) ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، القسم الثالث ص ٥٠ — ابن خلدون جـ ٤ ص ٢٩

(٤) ابن خلدون جـ ٤ ص ٢٩

وحاول عهد العدل والإنصاف والاصلاح لم تكن إلا سرابا ، فبالإضافة إلى البدع المذهبية الجديدة ومن إعلان عصمة الإمام وتقديسه ، وتناول بعض الشعائر أو الطقوس الدينية المتعارف عليها بالحذف والتغيير ، وتجريح كبار الصحابة وأئمة الاسلام - مما لا يمكن أن يقبله شعب نشأ على السنة ، وتعصب لمذهب مالك منذ أجيال - انتهج الفاطميون سياسة مالية متعسفة ، على عكس ما بشر به الداعي في أول الأمر ، فاشتطوا في جمع الضرائب ، وتفننوا في تنويعها ، حتى فرضوا على الحجاج جميعا أن يمروا بالمهدية حتى يدفعوا ضريبة الحج »(١) ، بل إن إقدام المهدي على مكافأة مؤسس دولته وصاحب الفضل الأعظم في إمامته بالمغرب ، بالقتل ، كان له أسوأ الأثر في نفوس البربر ، مما حملهم على الثورة عليه كما رأينا ، إذ أصبح المهدي في نظرهم شبيها بأبي جعفر المنصور الذي قتل أبا مسلم الخراساني سيف دولته . وعلى الرغم من نجاح غالبة المهدي في إخماد نيران الثورات المشتعلة في كل مكان ، فقد أحس المهدي في قرارة نفسه بعدم الاطمئنان في بلاد المغرب ، وأدرك أنه إذا كان قد نجح من ناحية فرض سيادته على المغرب فان خلفاؤه سيخفقون أو على الأقل سيواجهون متاعب كثيرة . فقد ذكر ابن خلدون « أنه لما ارتفع سور المهدية رمى فوقه بسهم إلى ناحية المغرب ، ونظر إلى منتهاه وقال : إلى هذا الموضع يصل صاحب الحمار »(٢) ، ويعني به أبا يزيد مخلد بن كيداد الذي سيثور على الفاطميين في خلافة أبي القاسم الملقب بالقائم بأمر الله . لذلك كان من الطبيعي أن يفكر عبيد الله في أمرين :

---

(١) سعد زغلول عبد الحميد ، فترة حاسمة ، ص ٢٢٢

(٢) ابن خلدون جـ ٤ ، ص ٨٢

الأول : تأسيس مدينة يحصن بها ، وتكون مركزا لعملياته الحربية والبحرية المقبلة .

الثاني : عمارة ذبح مصر أو الأندلس ، ونقل الخلافة الفاطمية إليها.

فخرج المهدي يرتاد موضعا لبناء المدينة المذكورة في سنة ٣٠٩ هـ ، فمر بتونس وقرطاجنة ، حتى وقف على موضعها بين سفاقس والمنستير ، في جزيرة متصلة بالبر كصورة كف اتصلت بزند [١] . وقد وصفها البكري بأن البحر يحيط بها من جميع جهاتها إلا الجانب الغربي ، وفيه بابها . والمهدية بلبان من حديد لا خشب فيها ، عليها رسوم حيوانية [٢] . وجلب عبيد الله إليها الماء من قناة تمتد ما بين قرية مشاتس والمهدية ، وأقام لها مرسى للسفن مقور في صخر صلد ، يسع ٣٠ مركبا ، وشيد على المرسى برجين بينهما سلسلة من الحديد يغلق بها بعد دخول السفن ، وذلك تحصينا لها حتى لا تحطم فيها مراكب الروم من صقلية وغيرها [٣] . وشيد بها أيضا دارا للصناعة نقرت في الجبل تسع مائة سفينة حربية كبيرة ، وفيها قيسان كيوان لوقاية السفن من الشمس أو المطر ، وزود المدينة بالمواجل وصهاريج المياه والأهراء ، وبنى بها القصور ، فلما أسس المهدية قال : « أمنت اليوم على الفواطم »[٤] . وقد اكتمل سور المهدية ، ونصبت به الأبواب الحديدية

---

(١) ابن خلدون ، ج ٤ ، ص ٧٩

(٢) شاهد ابن حوقل حدين البابين ، وذكر أنه لم يرهما في الأرض شبيه ولا نظير إلا بابي سور الزاوية ، وهي بعد متصل البناء بمدينة الزقاق ، بناها أبو جعفر المنصور سنة ١٥٥ ( ابن حوقل ، صورة الأرض ص ٧٣ )

(٣) البكري ، ص ٢٩ ، ٨٤ ـ ٨٥ ـ الاستبصار ، ص ١١٧ ، ١١٨

(٤) نفس المرجع ـ ابن خلدون ج ٤ ص ٨٠

فى ربيع الأول سنة ٣٠٤ هـ (١) . وانتقل إليها فى ٨ شوال سنة ٣٠٨ هـ (٢)، وأقام بها ، وعمرت المدينة بالأسواق ، وأصبح لها أرباض كثيرة عامرة مثل ربض زويلة ، وكان أقرب أرباضها إلى قصر الخليفة ، وربض الحمة ، وربض قتامة (٣) . ثم أمر المهدى بعد ذلك ببناء مدينة بجوار المهدية سماها زويلة نسبة إلى إحدى قبائل البربر ، وجعل بين المهدية وزويلة ميدانا فسيحا ، وحوط زويلة بسور وأبواب وحراس ، وأسكنها التجار بأسرهم وعائلاتهم ، وقال : « إنما فعلت ذلك لأمن غائلتهم ، وذلك لأن أموالهم عندى وأهاليهم هناك ، فان أرادونى بكيد ، وهم بزويلة كانت أموالهم عندى ، فلا يمكنهم ذلك ، وإن أرادونى بكيد وهم بالمهدية خافوا على حريمهم هنالك ، وبنيت بينى وبينهم سورا وأبوابا ، فأنا آمن منهم ليلا ونهارا ، لأنى أفرق بينهم وبين حريمهم نهارا (٤) » .

أما الأمر الثانى الذى فكر فيه المهدى فهو محاولة فتح مصر أو الأندلس فقد رأى المهدى بعد أن استقر حوزه فى بلاد المغرب أن هذه البلاد لا تصلح لأن تكون مركزا لدولته ، فضلا عن ضعف مواردها كان يسودها الاضطراب ، وتشتعل فيها الثورات من حين لآخر (٥) ، فتطلع بنظره إلى مصر والأندلس لوفرة ثرواتها ، وأخذ المهدى يجس النبض ، ويتأهب للهجوم

---

(١) ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٤٢

(٢) نفس المرجع ص ٢٤٨

(٣) البكرى ، ص ٣٠

(٤) نفس المرجع ص ٢٩ — ٣٠

(٥) جمال الدين سرور ، مصر فى عصر الدولة الفاطمية ، القاهرة ، ١٩٦٠ ص ٢٢

إما شرقا نحو مصر أو شمالا نحو الأندلس (١) . فبدأ بتوجيه حملاته على مصر منذ عام ٣٠٤ هـ ، وقد كشفت الحملة الأولى ، على الرغم من فشلها ، عن ميل كثير من المصريين إلى الدعوة الفاطمية ، بفضل الجهود التي بذلها دعاة الإسماعيلية فيها كأبي علي الداعي . وفي نفس الوقت أرسل دعاته وعيونه إلى الأندلس . أما الدعاة فلنشر الدعوة الفاطمية هناك وتمهيد البلاد قبل فتحها لقبول المذهب الإسماعيلي ، وأما العيون فلاستطلاع أحوال الأندلس وتعرف مداخلها ومواطن الضعف فيها (٢) ، ومن هؤلاء العيون أو الجواسيس المشارقة الذين دخلوا الأندلس قبل قيام الدولة الفاطمية في المغرب ، ثم خدموا عبيد الله المهدي بعد ذلك ، وزودوه بكثير من المعلومات عن أوضاع الأندلس الاجتماعية وأحوالها السياسية ، أبو اليسر الرياضي (ت. سنة ٢٩٨ هـ) ، وابن هارون البغدادي الذي تولى الكتابة للمهدي بعد وفاة أبي اليسر الرياضي ، بالإضافة إلى منصب رئيس ديوان البريد (٣) . ومن الجواسيس الذين قاموا بدور هام في الأندلس ابن حوقل النصيبي (ت. سنة ٣٦٧ هـ) ، وقد دخل الأندلس ليستطلع أحوالها . وسجل ملاحظاته عن أوضاعها الاجتماعية والاقتصادية والعمرانية والعسكرية (٤) . ولكن هذه الجهود التي قام بها عبيد الله وخلفاؤه من بعده حتى عهد المعز ، لم يكتب لها نجاح كبير ، فإن الدعاة الفاطمية التي مارسها دعاة الفاطميين وعيونهم في الأندلس ، لم تجتذب إلا عددا محدودا من الأنصار والمشايعين من أهل

---

(١) محمود علي مكي : التشيع في الأندلس ص ١١٦

(٢) محمود علي مكي ، التشيع في الأندلس ، ص ١١٢

(٣) نفس المرجع ص ١١٤

(٤) نفس المرجع ص ١١٥ — عثمان الصادق ، سياسة الفاطميين ص ٢٠٠

الفكر الأندلسي ، تخص بالذكر منهم ابن أبي المنظور الذي ولي القضاء لإسماعيل المنصور (٣٣٤ - ٣٤٦ هـ) ، والشاعر الأديب ابن هانيء الأندلسي (ت ، سنة ٣٦٢) الذي طرد من الأندلس حين تكشفت ميوله الفاطمية ، فالتحق بخدمة المعز الفاطمي [1] ، ومنهم القائد علي بن حمدون الجذامي المعروف بابن الأندلسي ، الذي قدم إلى المغرب ، واتصل بالمهدي وبايعه من بعده ، وقد عهد إليه عبيد الله ببناء مدينة المسيلة سنة ٣١٢ هـ ، وسماها المحمدية في وسط أرض بني برزال وبني كملان ، قريبا من هوارة [2] ، وقد عقد له القائم بالقد على المحمدية ، بعد احتفاظها ، فبناها وحصنها وشحنها بالأقوات ، فكانت مدداً للمنصور في حصار صاحب الحمار أبي يزيد بن كيداد [3] .

٤ - رد الفعل الأموي ضد مطامع الفاطميين في الأندلس وأثر ذلك في تحولهم نحو مصر :

كان عبد الرحمن بن محمد الأموي يتتبع في تيقظ وانتباه الخطوات التي يخطوها الفاطميون لبسط سلطانهم مذهبيا وعسكريا على الأندلس ، فاضطر إلى الوقوف أمام مطامع الفاطميين في بلاده موقفا صارما ، وبدأ يحاربهم ليس بنفس السلاح الذي يحاربونه به فحسب ، بل بأسلحة أشد مضاء ، وبأعمال إيجابية حاسمة ، أثبتت أنه بحق من أعظم رجال السياسة في العصور الإسلامية الوسطى ، وتتلخص هذه الأعمال فيما يلي :

( ١ ) بث العيون والوسطاء في أنحاء المغرب ، فقد تمكن هؤلاء العيون من

---

(١) المرجع السابق ، ص ١١٥ ، ١١٦

(٢) ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٦٨

(٣) ابن خلدون ج ٤ ص ٨٢

تزويد حكومة قرطبة بمعلومات قيمة عن نوايا الأندلسيين الذين توطنوا المغرب منذ القرن الثالث . وقد كانوا من الحزب المعارض للفاطميين ، ولذلك تعرضوا لسخطهم ، ومنهم أبو جعفر محمد بن خيرون الأندلسي العافري صاحب المسجد الشريف الذي أسسه بالقيروان في سنة ٣٥٢ هـ [١] ، وصاحب الفنادق المجاورة للسجن ، وقد أمر المرزوي ، قاضي القيروان ، بقتله [٢] ، ومنهم أبو علي حسن بن مفرج الفقيه ، ومحمد الشذوني الزاهد ، وقد أمر عبيد الله المهدي بقطعهما لتفضيلهما الصحابة على علي [٣] .

(ب) في سنة ٣٠٢ هـ ، وصل إلى الجزيرة الخضراء ، « وضبط البحر ، ونظر في أساطيله ، واستكثر منها ، ومنع ابن حفصون من البحر » [٤] . وأغلب الظن أنه وزع أساطيله على السواحل الجنوبية والجنوبية الشرقية من الأندلس حتى يمنع وصول الامدادات من القيروان إلى عمر بن حفصون الخارج عليه ، خاصة وأن ابن حفصون كان قد أرسل يومئذ إلى المهدي ، وأخذ يدعو له في منطقة نفوذه بالأندلس [٥] . وقد اهتم عبد الرحمن بن محمد بالأساطيل البحرية اهتماما جديا ، فعمل على إنشاء أسطول قوي يدفع عن الاندلس الأخطار التي تتعرض لها من غارات النورمانديين والغزو الفاطمي على السواحل ، وينازع به سلطان الفاطميين في البحر المتوسط. ويذكر

---

(١) ابن عذاري ، ج ١ ص ١٠٠

(٢) نفس المرجع ، ص ٢٤٠

(٣) نفس المرجع ، ص ٢٦٢

(٤) ابن خلدون ج ٤ ص ٢٠٣

(٥) نفس المرجع ، ص ٢٦٣

ابن خلدون أن أسطول الأندلس الذي في أيامه إلى عهد مائتي مركب (١). وقد تولى قيادة هذه الأساطيل القائد ابن رماحس ، وكان مرفأها المعد والإقلاع مدينة المرية ، القاعدة البحرية الرئيسية للأندلس ، وكانت دار الصناعة فيها تقوم بانتاج السفن والعدة والآلات اللازمة لها وما يقوم به الأسطول (٢) . ويعتبر الخليفة عبد الرحمن بن محمد المؤسس الحقيقي للأساطيل الأندلسية ، فقد قام بانشاء دور الصناعة والإنشاء في طركونة ، والمرية ، والجزيرة الخضراء ، ومالقة ، وميورقة ، ولقنت ، وشلب ، واستخدم لذلك الغرض أخشاب الصنوبر بطرطوشة ، وهي أخشاب مشهورة بجودتها وعدم تعرضها للتلف الناشيء من السوس (٣) . وكان لهذا الأسطول الفضل الكبير في استيلائه على طنجة ومليلة في سنة ٣١٤ هـ وعلى سبتة في سنة ٣١٩ هـ (٤) . وعلى أثر ذلك أعلن موسى بن أبي العافية ، أمير فاس والمغرب ، وكان موالياً للمهدي ، خروجه عن طاعة المهدي ، وانضوائه إلى عبد الرحمن بن محمد ، وكتب إلى عبد الرحمن سنة ٣١٩ هـ معلناً رغبته في موالاته والدخول في طاعته ، على أن يستعمله في أمراء أهل العدوة المجاورين له (٥) . وفي

---

(١) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٢٧٨

(٢) ابن غالب الاندلسي ، كتاب فرحة الانفس في تاريخ الاندلس ، قطعة نشرها الدكتور لطفي عبد البديع ، مجلة معهد المخطوطات العربية ، ١٩٥٦ ، ص ١٤

(٣) المجوي ، صفة جزيرة الاندلس من كتاب الروض المعطار ، ص ١١٤

(٤) ابن عذارى ج ٢ ، ص ٢٨٣

Lévi - Provençal, la Politica africana da Abd al-Rahman III, - al Andalus, vol. XI, fasc. 2, 1946, p. 386 - Lévi - Provençal, Histoire t. II, p. 86, t. III, p. 106

(٥) ابن عذارى ، ج ٢ ص ٢٨٢

العام التالي طلب موسى بن أبي العافية من عبد الرحمن أن يساعده في اقتناع جزيرة أرشقول ، فاستجاب عبد الرحمن لرغبته ، وأمر أهل بجانة وغيرهم من أهل السواحل بإقامة خمسة عشر مركبا حربية مجهزة بالرجال والسلاح لمحاصرة جزيرة أرشقول التي لجأ إليها الحسن بن عيسى ابن أبي العيش ، ولكن الحملة فشلت ، وعادت السفن الأندلسية إلى المرية في شهر رمضان من هذه السنة (١) . ولما رأى عبيد الله المهدي انضواء موسى بن أبي العافية إلى عبد الرحمن بن محمد ، سير قائده حميد بن يصلي أمير مكناسة وعامله على تاهرت لمحاربة موسى بن أبي العافية ، وذلك في سنه ٣٢٩ هـ ، فكتب موسى بن أبي العافية إلى عبد الرحمن بن محمد يستنجد به ، فأخرج إليه عبد الرحمن قائده قاسم بن طملس في العساكر والأسطول الأندلسي ، فوصل إلى سبتة ، وبلغه أن موسى هزم جيش حميد ، فعدل عن الدخول الحربي(٢) . وفي سنة ٣٣٣ جاز الأسطول الأندلسي بقيادة أحمد بن إلياس ، ويونس بن سعيد مرسى الجزيرة ، واحتلا للعدوة ، وحاصرا أحمد بن أبي العيش بن عمر بن إدريس ، وعند ذلك الحين أخذت الأساطيل الأندلسية تمد ضرباتها إلى ممتلكات الفاطميين في المغرب الأقصى (٣) .

وفي سنة ٣٤٤ هـ أمر عبد الرحمن بن محمد بإنشاء مركب كبير ، لم يعمل مثله ، في دار الصناعة بالمرية ، وسير ترسه أمسة إلى بلاد المشرق ، فلقي في البحر مركبا يحمل رسولا من صاحب صقلية إلى المعز لدين الله الفاطمي ،

---

(١) البكري ، ص ٢٨

(٢) ابن خلدون ج ٤ ، ص ٢٠٦

(٣) عبد العزيز سالم ، تاريخ المغرب والأندلس ، ص ٢٨٨

فقطع عليه بحريو الركب الأندلسي طريقه ، واستولوا على ما فيه ، كما استولوا على الكتب التي أرسلها الحسين بن علي صاحب صقلية إلى المعز ، فلما بلغ إلى المعز ذلك ، عمر أسطولا بقيادة الحسين بن علي صاحب صقلية، وسيره إلى الأندلس، فهاجم الاسطول الفاطمي مدينة المرية في نفس السنة، ودخل المهاجمون مرسى المرية ، وأحرقوا جميع ما فيه من السفن ، واستولوا على الركب الكبير ، وكان قد عاد من الاسكندرية وفيه أمتعة لعبد الرحمن وجواري ومشيات . ثم دخلوا المدينة وقتلوا ونهبوا ، وعادوا سالمين إلى المهدية (١) . وكان رد الفعل الأندلسي على هذه الغارة البحرية ، أن هاجم الأسطول الأندلسي بقيادة غالب القائد ، سواحل إفريقية سنة ٣٤٠ هـ في ستين سفينة ، وكان مرسى المرز وساحل سوسة هدف هذه الغارة (٢) .

وزاد اهتمام الحكم المستنصر بالأسطول الأندلسي زيادة كبيرة ، فارتفع عدد قطعه من ثلثمائة (٣) سفينة إلى ستمائة بين غزوي وغيره (٤) ، وكان قائده في البحر عبد الرحمن بن رماحس .

(ج) تلقب الأمير عبد الرحمن بن محمد الأموي في ٢٨ ذي القعدة سنة

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ، جـ ٦ ص ٣٤٩

(٢) ابن عذارى ، جـ ٢ ص ٢١٨ —

Lévi-Provençal, Histoire, t. II, p. 109 – Torres Balbas, Ataraxanas hispanomusulmanas, Al-Andalus, Vol. XI, 1946, p. 180

(٣) ابن الخطيب ، الاحاطة في أخبار غرناطة ، تحقيق الأستاذ محمد عبد الله عنان ، جـ ١ ، القاهرة ، ١٩٥٥ ص ٤٨٢

(٤) ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، القسم الخاص بالاندلس ، تحقيق ليفي بروفنسال ، ط . بيروت ص ٤٢

٣٩٩ هـ بألقاب الخلافة، ليدعم مركزه في داخل الأندلس وخارجه، ويفرض هيبته في نفوس أهـــل الأندلس حتى لا يتأثروا بالدعوة الإسماعيلية، وقد أصدر الناصر منشورا بذلك، وزعه عماله في النواحي المختلفة (١).

(د) وطد الناصر علاقته بأعداء الفاطميين، فحالف مع هيوج دى بروفانس (يسميه العـــرب أقوه، ملك الفرنجة وراء الغرب (٢).)، Hugues de provence، الذى كان يحنق على الفاطميين لتدميرهم ميناء جنوة، كما تحالف مع امبراطور بيزنطة الذى كان يرى إلى استرجاع صقلية من أيدى الفاطميين (٣). ثم وطد الناصر علاقته بالإخشيديين فى مصر، وعمل على إرسال الفقهاء المالكية من الأندلس إلى مصر لمحاربة المذهب الشيعى، ومن أمثال هؤلاء أبو اسحق محمد بن القاسم بن شعبان المعروف بابن القرطبي الأندلسى (٤).

(هـ) فتحت الأندلس أبوابها لأعـداء الفاطميين فى المغـرب، ومنهم ابن الخراز الليلى الذى كان قاضيا بمليلة، ذهب إلى قرطبة فى سنة ٣٢٥ هـ خوفا من جنود الشيعة، فسجل له الناصر على قضاء بلده، وحكم بن محمد القيرواني القرشى، الذى تعرض لسجن عبيـــد الله المهدى بسبب مهاجمته

---

(١) Une version arabe de 'Abd al-Rahman III al-Nasir, ed. par Lévi-Provençal, Y. Emilio Garcia Gomez, Madrid, 1950, p.78

(٢) ابن خلدون، جـ ٤ ص ٣١٠

(٣) Dozy, Histoire des Musulmans d'Espagne, t. II, p. 159

(٤) انظر على مكى، التشيع فى الأندلس ص ١٢٤ — مختـــار الباجى، سياسة الفاطميين، ص ٢٠٨

الفاطميين ، وكان يتردد بين قرطبة والقيروان (١) . كما وفد إلى قرطبة أيضا بنو سعيد بن صالح صاحب تكرور بعد أن دخلها مصالة بن حبوس ، وقتل أميرها سعيد في ٣ محـــرم سنة ٣٠٥ هـ . وكان هؤلاء اللاجئون إلى الأندلس ثلاثة أبناء لسعيد بن صالح ، هم: صالح ، وإدريس ، والمنتصر ، فعبروا البحر إلى مالقة ، فقام الناصر بانزالهم ، والتوسع عليهم ، وبعث إليهم بضروب الكسوة وكل ما احتاجوا إليه من الرافد ، وخيرهم بين القـدوم إلى قرطبة أو المقام بمالقة ، فاختاروا المقام بها ، لقربها من بلدهم ، وأملهم في العودة إليه . وكان مصالة قد استخلف على تكرور رجلا يقال له ذاول ، وانصرف إلى مقر ولايته بمالقة ، فغير صالح وإخوته إلى تكرور ، واسترجعها بعد أن قتل ذاولا .

* * *

وقد سجل الناصر باحتفاله ببني صالح أصحاب تكرور أول تدخل له في شؤون المغرب ، وعمل ذلك المهدي فيما بعد على معاونة فاتح مصر في سنة ٣٠٨ هـ (٢) ، والواقع أن عبد الرحمن الناصر اعتبر انتصار بني صالح على المهدي انتصارا شخصيا له ، فعبر عن اغتباطه بذلك الحدث الهام بأن أرسل إلى صالح الأخبية والآلات والبنود والطبول (٣) ، ورد عليه صالح بهدية من الخيل والمال (٤) . ومنذ ذلك الحين أخذ الناصر يتتبع أحداث المغرب

---

(١) المرجع السابق ص ١٢٤ ، ١٢٥

(٢) Lévi-Provençal, Histoire de l'Espagne, t. II, p. 93

(٣) ابن عذارى ، ج ٢ ص ٢٥٢

(٤) نفس المرجع ص ٢٥٠

باهتمام كبير ، باحثا عن أنصار له بين القبائل المعادية للفاطميين ، وتمكن من استمالة مغراوة وبنو إفرن الزناتيين ، وكان محمد بن خزر يزعم فيسلة مغراوة ، وأدرك المهدي خطورة السياسة التي ينتهجها الناصر ضده ، فأمر مصالة بن حبوس صاحب تاهرت بمحاربة الزناتيين سنة ٣١٧ هـ ، فخرج مصالة من تاهرت إلى قبائل زناتة القاطنة من وادي شلف حتى تلمسان ، واصطدم بقوات ابن خزر في معركة عنيفة انتهت بمقتل مصالة ، وانهزام جيشه في ٢٠ شعبان سنة ٣١٧ هـ (١). وقد اعتبر الناصر انتصار ابن خزر انتصارا لسياسته الإقريقية على الفاطميين . وفي سنة ٣١٤ هـ أحرز ابن خزر عدة انتصارات على قوات الفاطميين في تاهرت نفسها (٢) ، وقد استغل الناصر هذه الفرصة ليرفع القناع عن وجهه ، فانقض على مليلة في سنة ٣١٤ هـ ، واستولى عليها وحصن أسوارها (٣) . وأخذت الأحداث تتوالى بعد ذلك التاريخ في سرعة مذهلة ، فقد تمكن ابن خزر سنة ٣١٧ هـ من التغلب على إقليم الزاب كله ، فعهد موسى بن أبي العافية إلى مهاجمة تكرور ، وحاصر أميرها المؤيد بن عبد البديع بن صالح ، وتغلب عليها وقتل المؤيد ، وهدم أسوارها (٤) ، ثم حاصر الحسن بن عيسى المعروف بابن أبي العيش أمير جراوة ، ودخلها ففر الحسن إلى مدينة مليلة ثم إلى جزائر ملوية (٥) . وفي هذه اللحظة نزلت قوات عبد الرحمن الناصر بقيادة فرج بن نفيد على ساحل الحدوة واستولت

---

(١) ابن عذاري ، ج ١ ص ٢٦٦

(٢) نفس المرجع ص ٢٦٦

(٣) البكري ، ص ٨٩

(٤) البكري ، ص ٩٣ ـ ابن عذاري ، ج ١ ص ٢٧٤

(٥) ابن الخطيب ، ( القسم الثالث ) ، ص ٢١٤

على مدينة سبتة ، وشكوا عبد الرحمن بالرجال، وأقنعوا بالبيان (١). وأحدث سقوط سبتة صـــدى عميقا فى المغرب ، فتدفق الناصر باستيلائه على سبتة تكوين قاعدة حربية بحرية على ساحل العدوة تجاه ساحل الجزيرة الخضراء ، تمهيدا للسيطرة الفعلية على المغرب الأقصى ومحاربة موسى بن أبى العافية . وأدرك موسى بن أبى العافية خروج مركزه ، فرأى أن يسالم عبد الرحمن الناصر الذى أصبح سيد الموقف فى المغرب الأقصى ، فبادر بشق عصا الطاعة على المهدى ، وكان موسى يمثله فى بلاد المغرب ، ثم أعلن دخوله فى طاعة الخليفة الأموى ، وهكذا أثمرت سياسة الحذر والتدخل التى اتبعها عبد الرحمن الناصر ، وأصبح الجزء الاعظم من شمال المغرب الأقصى ، ومساحات واسعة من المغرب الأوسط فى حماية عبد الرحمن الناصر ، بفضل انضواء كل من محمد بن خزر المغراوى ، وموسى بن أبى العافية المكناسى تحت لوائه(٢) . ولما علم المهدى بذلك جهز جيشا إلى المغرب بقيادة حميد بن يصلى المكناسى ، فالتقى معه جيش ابن أبى العافية فى فحص مسون ، الواقع شرقى فازى ، فانهزم موسى أمامه ، وتمكن حميد من دخول فاس سنة ٣٢١ هـ ، واستعمل عليها حامد بن حمدان الهمذانى ، ثم عاد حميد إلى إفريقية - فثار عليه أحمد ابن بكر بن عبد الرحمن الهذانى فى سنة ٣٢٢ هـ ، عقب وفاة المهدى، وعادت الدعوة فى فاس باسم الخليفة الناصر (٣) . وظل النفوذ الأموى قائما على المغرب الأقصى وفاس حتى سقوط الخلافة الأموية بالأندلس ، على الرغم

---

(١) ابن عذارى ، ج ٢ ص ٢٤٤

(٢) ابن خلدون ، ج ٤ ص ٣٠٦ - ٣٠٩ ، Lévi - Provençal, Histoire, t. II, p. 70

(٣) ارجع الى الفصل الخاص بمدينة فاس ماخرة الأندلسية .

مما قام به ميسور الفتى فى أيام القائم بأمر الله من جهود القضاء على هذا التمرد عند استيلائه على فاس فى سنة ٣٢٣ هـ ، وقهره لموسى بن أبى العافية ، وعلى الرغم من قيام جوهر الصقلى قائد المعز لدين الله الفاطمى ، باعادة فتح بلاد المغرب وفاس سنة ٣٤٧ هـ . والسبب فى فشل الفاطميين فى القضاء على نفوذ الأمويين يرجع إلى احتفاظ هؤلاء بقواعدهم العسكرية فى منطقة الريف .

٥ ـ فتح برقة ومحاولة فتح مصر :

حاول عبيد الله المهدى فتح مصر ثلاث مرات ، بعد أن تبين له استحالة فتح الأندلس ، ولكن هذه المحاولات باءت كلها بالفشل ، ولم يتم فتح مصر إلا فى عصر المعز لدين الله الفاطمى ، بسبب ضعف الخلافة العباسية صاحبة السيادة على مصر ، وضعف الدولة الإخشيدية صاحبة السلطان الفعلى فيها[1] . ففى سنة ٣٠٩ هـ سير المهدى جيشا ضخما من المغاربة بقيادة حباسة بن يوسف ، فدخل مدينة سرت بالأمان ، ثم زحف إلى إجدابية واستولى عليها بالأمان ، ثم دخل برقة ، وقتل من أهلها عددا كبيرا بلغ نحو ألف رجل ، ثم أغرم أهلها مائة ألف مثقال . وفى أثناء مقام حباسة ببرقة ، قدمت إليه الجيوش العباسية من مصر ، فدارت بين الجيشين العباسى والفاطمى عدة معارك انتهت بهزيمة الجيش العباسى [2] . زحف حباسة بعد ذلك متجها نحو الاسكندرية ، وتغلب أثناء مسيره إليها على الحصون المتناثرة فى الطريق إليها ، وأدرك

---

(١) انظر تفاصيل ذلك فى بحث الأستاذ الدكتور جمال الدين الشيال عن مصر فى العصر الفاطمى ، فى موسوعة تاريخ الحضارة المصرية ، المجلد الثانى ، الجزء السادس ص ٤٢٨ ، ٤٢٩ ، القاهرة ١٩٦٣

(٢) ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٢٦ ـ سعد زغلول ، فترة حاسمة ، ص ٢٣٠ ، ٢٣١

أبو القاسم بن عبيد الله بجيش كثيف قبل أن يدخل الاسكندرية ، فدخلاها معا في سنة ٣٠٢ هـ وأنقذاها خالية ، قد هرب أهلها في البحر ، ثم تقدم جيش الفاطميين بقيادة أبي القاسم إلى الفيوم ، ولكن حباسة تخلف في الطريق بسبب خلاف حدث بينه وبين أبي القاسم ، وعاد إلى المغرب في ثلاثين من فرسانه ، فاضطر أبو القاسم إلى الانسحاب أمام قوات العباسيين بقيادة مؤنس الفتى [1] ، وكتب إلى أبيه يخبر حباسة . فلما وصل حباسة إلى جزيرة قبض عليه وسجن ، وكان أخوه غروبة عاملا على تاهرت ، فلما بلغه خبر القبض على أخيه ، هرب بما استطاع حمله من أموال ، ولكنه اعتقل بجبل أوراس ، وقتل ، وأمر الخليفة بقتل أخيه حباسة كذلك .

وما كاد أبو القاسم ينصرف عن برقة إلى إفريقية حتى قام أهلها بالثورة على الفاطميين ، وقتلوا من كان بها من الكتاميين في ذي القعدة سنة ٣٠٢ هـ فسير إليهم عبيد الله الجيوش بقيادة أبي مدين بن فروخ القيسي [2] ويبدو أن أبا مدين لاقى كثيرا من الصعوبات في فتح برقة ، لأنه لم يدخلها إلا في سنة ٣٠٤ هـ بعد حصار دام ١٨ شهرا ، قتل فيها من أهلها معظمهم ، ولما دخلها استصفى أموال من قتل من سكانها ، وبعث بجماعة منهم إلى عبيد الله ، فأمر بقتلهم [3] .

وفي أول ذي القعدة عام ٣٠٦ هـ ، خرج أبو القاسم لغزو مصر للمرة الثانية ، وخرج معه من قادة الفاطميين خليل بن اسحق ، وأبو عاصم الكاتب ،

---

(١) المرجع السابق ص ٢٣٩

(٢) نفس المرجع ص ٢٤١

(٣) نفس المرجع ص ٢٤٤

وعبد الله بن الحسين بن أبي خنزير ، وسليمان بن كافي . ولما اقترب أبو القاسم من الإسكندرية ، سير إليها سليمان بن كافي في جملة من رجال كتامة، فاجأوا أهل الإسكندرية ، ودخلوها ، وانتهبوا أموال أهلها ، ثم سار ، أبو القاسم إلى الفيوم ، ودخلها بالسيف ، ثم نزل الأشمونين . وفي هذه الأثناء تحرك الأسطول العباسي من سواحل الشام ، ونزل بالإسكندرية ، واشتبك في قتال عنيف مع الأسطول الفاطمي في رشيد ، انتصر فيه أسطول الفاطميين ، وتمكن من إحراق كثير من سفن الفاطميين ، وأسر عددا من كبار قوادهم ، اقتادهم معه إلى الفسطاط ، ومنهم سليمان الخادم ، ويعقوب الكتامي ، ونتيجة لذلك تراجعت الجيوش الفاطمية إلى المغرب [1] .

وعلى الرغم من هذا الفشل الملاحق ، فقد ظل المهدي يتطلع إلى غزو مصر بعد أن أيقن باستحالة فتح الأندلس ، فأعاد الكرة للمرة الثالثة عندما اضطربت أمور العباسيين في الشرق الإسلامي بعد وفاة الخليفة المقتدر ، وانقسم الأتراك في بغداد على أنفسهم . فأعد حملاته إلى مصر عام ٣٢١هـ وبعد مناوشات بين الإخشيديين والفاطمية ، أبرمت معاهدة الصلح في صفر سنة ٣٢٢ ، غير أن هذا الصلح لم يطل أمده ، فقد حدثت وقائع بين الفاطمية والإخشيديين في الجيزة وبلبيس ، ونجح محمد بن طغج الإخشيد في هزيمة الفاطمية ، سنة ٣٢٤ ، وأسر عدداً كبيرا منهم [2] .

---

(١) ابن عذارى ص ٢٥٥ — ابن الأثير ، ج ٦ ص ١٩١

(٢) انظر التفاصيل في كتاب عبيد الله المهدي ، الدكتور حسن ابراهيم حسن ، ص ١٨١ — ١٨٢

## (٢)

## ثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد اليفرني الخارجي

### ١ ـ قيام الثورة في بداية عهد القائم :

توفي عبيد الله المهدي في ربيع الأول سنة ٣٢٢ هـ ، وبوفاته أحس أهل المغرب بزوال كابوس الذي كان جاثما عليهم ، فاستعادوا كثيرا من حريتهم ، وأطلقوا العنان لثوراتهم التي أخذت تراكمها تتفجر في المغرب كله ، فاشتعلت البلاد من جميعها ثائرة في أول ولاية القائم بأمر الله ، ذلك أن قبائل البربر وجدت في اختفائه فرصة مواتية للتحرر من سلطان الفاطميين ، وأول هذه الثورات التي أعقبت وفاة المهدي ثورة رجل عربي يعرف باسم ابن طالوت القرشي بنواحي طرابلس ، فقد ادعى أنه ابن المهدي ، فتبعه البربر ، والتفوا حوله ، وزحف ابن طالوت إلى مدينة طرابلس وحاصرها ، ولكن حامية طرابلس تمكنت بمساعدة الأهالي من التصدي لهجوم هذا المدعي ، واتضح لأتباعه كذبه ، فانقلبوا عليه وقتلوه ، وبعثوا برأسه إلى القائم بأمر الله [1] . وفي فاس ثار أحمد بن بكر بن أبي سهل الهذامي على واليها حامد ابن حمدان الهمذاني ، فاضطر القائم بالله إلى تسيير ميسور الفتى إلى فاس ، لإعادة النفوذ الفاطمي على فاس والمغرب الأقصى ، فوصل ميسور إلى فاس في سنة ٣٣٣ هـ ، وغدر بأحمد بن بكر ، إذ قبض عليه عندما قدم إلى معسكره ، فامتنع أهل فاس داخل أسوارهم ، وقدموا على أنفسهم حسن ابن قاسم الكواتي ، فحاصرهم ميسور زهاء سبعة شهور ، ثم صالحهم على أن

---

(١) ابن عذاري ، ج ١ ص ٢٦٥ ، ٢٦٦ ـ ابن خلدون ، ج ٤ ، ص ٨٣ ـ محمد زنيبر ، المرجع السابق ص ٢٢٣

يابحر! القائم بالله ، وبسجلوا اسمه في السكة . وأمر ميسور عليهم حسن الوالي ، ثم رحل إلى المهدية [1].

وفي سنة ٣٣٣هـ بعث القائم بأمر الله عسكرا إلى برقة بقيادة قائد زيدان، وعامر الجنون ، وأبي زرارة ، وانضم إلى هذا العسكر جماعة من الجنود الكتاميين المرابطين ببرقة، ولكن هذا الجيش انهزم على أيدي قوات الإخشيد.

أما الثورة الكبرى التي كانت تشكل خطرا حقيقيا على كيان الدولة الفاطمية ، فهي ثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد اليفرني الزناتي ، وقد شغلت مصر القائم بالله كله ، وعامين من عهد ابنه أبي العباس إسماعيل المنصور ، أي أنها استغرقت نحو ١٤ سنة ، ومما يدل على خطورة هذه الثورة ، وأهمية القضاء عليها بالنسبة للدولة الفاطمية أن اسماعيل المنصور سجل انتصاره على أبي يزيد بانشاء مدينة المنصورية في سنة ٣٣٧ هـ [2].

ب ـ ثورة ابي يزيد مخلد:

١ ـ الرحلة الأولى (٣٢٢ ـ ٣٣٢ هـ)

صاحب هذه الثورة هو أبو يزيد مخلد بن كيداد بن سعد الله بن مقيث بن كرمان بن خلد من قبيلة يفرن الزناتية [3] ، وكان أبوه كيداد من أهل توزر ، وكان يشتغل بالتجارة بين بلاد السودان وإفريقية [4] ، ومن المعروف أن قوافل التجارة كانت تمر في العادة بمدينة ورجلان ، وكان سكان

---

(١) البكري ، ص ١٢٨ ـ القلقشندي ، ج ٥ ص ١٨٤ ـ الدوري ، ج ١ ص ١٨٩

(٢) ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٥ ، مادة المنصورية

(٣) ابن عذاري ، ج ١ ص ٢٠٢ ـ ابن الأثير ، ج ٦ ص ٢٠٢

(٤) ابن خلدون ، ج ٤ ص ٨٠

ورجلان من الإباضية وأكثرهم من أهل تاهرت الذين رحلوا عنها بعد سقوط تاهرت في أيدي الفاطميين ، واستقروا في ورجلان . ولد أبو يزيد مخلد بالسودان من جارية هوارية ، فأتى به أبوه إلى توزر ، فنشأ بها وتعلم القرآن منذ طفولته في نفطة ، ثم اتصل بالإباضية النكارية أتباع ابن فندين الذين أنكروا إمامة عبد الوهاب بن رستم ، فمال إلى مذهبهم وأخذ به ، ثم رحل إلى تاهرت مركز الإباضية في العهد الأخير من الدولة الرستمية ، فأقام بها مشتغلا بتعليم الصبيان . فلما استولى أبو عبد الله الشيعي على تاهرت سنة ٢٩٦ هـ ، رحل منها إلى تقيوس من مدن قسطيلية الكبار ، فاستقر به المقام هناك أيام عبيد الله المهدي ، واشترى ضيعة ، واستمر يشتغل بتعليم الصبيان القرآن والعلوم الدينية ، وأخذ يدعو هناك إلى تكفير الشيعة واستباحة الأموال والدماء ، والخروج على سلطان الفاطميين الذين انحرفوا عن مبادىء الإسلام بسبهم لأبي بكر وعمر ، ووجد من الناس تجاوبا معه ، فقد ضاقوا ذرعا بتشدد الفاطميين عليهم في تطبيق المذهب الاسماعيلي ، ثم اتجه في دعوته منذ سنة ٣١٦ هـ إلى تغيير المنكر ، فكثر أتباعه ، وقوي حزبه ، فلما توفي عبيد الله المهدي خرج من تقيوس لنشر دعوته الإباضية على مذهب النكارية ، ورحل إلى جبل أوراس الذي كان معقلا للثورات طوال عصور التاريخ . فانضم إليه عدد هائل من البربر الساخطين على الحكم الفاطمي ، فلقب بشيخ المؤمنين . وكان من الطبيعي أن يعتمد في ثورته على إحدى الشخصيات المناهضة للفاطميين ، فلم يجد خيرا من الاستناد على عبد الرحمن الناصر الذي كان له أنصار عديدون في المغرب ، فاجتذب بذلك الأنصار والأتباع من البربر [٢] .

---

(١) ابن خلدون ، ج ٤ ص ٨٤

## ٢ ـ المرحلة الثانية ( ٣٠٢ ـ ٣٣٣ هـ )

لما عظم أمره، واستفحل خطره، وأحس بقوته جاهر بعداله للفاطميين سنة ٣٠٢ هـ، ثم « هبط من جبل أوراس يدعو الخلق بزعمه، ولم يعلم الناس مذهبه، فرجوا فيه الخير والقيام بالسنة، فخرج على الشيعة، ودخل إفريقية »[1]. واشتد أمره حتى أن القائم اضطر إلى الفرار أمامه من رقادة، وأقام في المهدية، وسير إليه عامل مدينة باغاية، فزحف إليه أبو يزيد في جموع كثيرة من البربر، ودارت الموقعة بالقرب من باغاية، فانهزمت جموع جيش القائم وتراجعها، فزحف أبو يزيد على أثر انتصاره إلى باغاية وحاصرها. ولما طال الحصار، آثر أن يترك على حصارها جماعة من قبائل بني زناتة بضواحي قسنطينة، فحاصروها في سنة ٣٣٣ هـ، أما هو فمضى إلى تبسة فافتتحها صلحا، ثم افتتح مجانة كذلك وهدم سورها، واستولى بعد ذلك على مرماجنة، وأهدي إليه رجل من أهل مرماجنة حمارا أشهب اللون، فكان يركبه، ولذلك سمي بصاحب الحمار، وكان يلبس جبة من الصوف ضيقة الكمين[2]. وزحف أبو يزيد إلى الأربس، فانهزمت عنها حاميتها الكتامية، ولم تلبث أن سقطت الأربس في يده، فأحرقها ونهبها، وقتل من بها من أهلها إلى المسجد الجامع، ثم وجه عسكرا إلى سطيفة فافتتحها، وقتل عاملها. وكان لابد للقائم أن يعمل على إيقاف هذا السيل المدمر، فجهز الجيوش، وبعثها إلى رقادة والقيروان بقيادة ميسور الفتى، كما سير عسكرا بقيادة بشرى الفتى إلى باجة، فزحف إليه أبو يزيد، وهزم

---

(١) ابن عذارى، ج ١ ص ٢٠٧

(٢) ابن الأثير، ج ٦ ص ٣٠٣ ـ ابن خلدون، ج ٤ ص ٨٠

قوات بشرى فى باجة ودخلها ، وأحرقها ، وقتل من بها من الأطفال ، ومن النساء . واجتمعت إليه هناك حشود كثيفة من البربر ، وكان بشرى قد لجأ إلى تونس ، فثار عليه أهلها ، فقر بنفسه ، وتمكن أبو يزيد من دخول تونس ، وأمن على أهلها ، واستخلف عليها أحد أتباعه ، ثم مضى نحو القيروان . ولم يستكن القائم على هذه الهزائم المتوالية ، فسير بشرى فى جيش من الكتاميين لمحاربة أبى يزيد ، وتمكن بشرى فى هذه المرة من التغلب على قوات أبى يزيد ، وقتل منهم نحو أربعة آلاف ، وجرح بأضعافهم وعددهم نحو خمسمائة إلى المهدية ، حيث قتلتهم العامة [1] . غضب أبو يزيد لهذه الهزيمة ، فسار فى جيوش مجتمعة ، وعدتها نحو ٢٠٠٠٠ ألف مقاتل ، لمقاتلة الكتاميين ، فهزم فلالهم ، فانسحب الكتاميون إلى القيروان ، فطاردهم أبو يزيد إليها . ورأى أن يبدأ بالاستيلاء على رقادة ، وكان عاملها خليل ابن إسحق ينتظر وصول ميسور الفتى لنجدته ، ولكن أبا يزيد لم يمهله ، فهزمه ودخل رقادة ، فعاث فيها ، ووجه من هناك أحد رجاله وهو أيوب الزويلى فى عسكر إلى القيروان ، فدخلها فى صفر سنه ٣٣٣ هـ ، ونهبها . ثم قدم أبو يزيد إلى القيروان ، فخرج إليه شيوخ القيروان ، فأمنهم ، ورفع التعرض عنهم ، وأظهر الخير لأهلها ، وترحم على أبى بكر وعمر ، ودعا الناس إلى جهاد الشيعة ، وأمرهم بقراءة مذهب مالك . فخرج الفقهاء والصلحاء فى الأسواق بالصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم ، وعلى أصحابه وأزواجه ، حتى ركزوا بنودهم عند الجامع ، فلما كان يوم الجمعة اجتمعوا بالمسجد الجامع ، وركبوا مع أبى يزيد بالسلاح ومعهم البنود والطبول ، منها بيضان

---

(١) المرجع السابق ، ص ٢٠٤ — ابن خلدون ص ٨٦

أصفران مكتوب فى أحدهما البسملة وعند رسول الله ، وفى الآخر : نصر من الله وفتح قريب ، على يدى الشيخ أبى يزيد . اللهم انصر وليك على من سب أولياءك ، وبند آخر مكتوب عليه : قاتلوا أئمة الكفر ، الآية ، وبند آخر فيه مكتوب : قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ، ويخزهم وينصركم عليهم ، وبند آخر مكتوب فيه ، البسملة أيضا : محمد رسول الله ، أبو بكر الصديق ، عمر الفاروق . وبند آخر وهو السابع عليه مايلى: ( لاإله إلا الله. إلا تنصروه فقد نصره الله ، إذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين إذهما فى الغار ، إذ يقول لصاحبه لاتحزن إن الله معنا ) ، فلما اجتمع الناس وحضر الإمام وطلع على المنبر ،خطب خطبة أبلغ فيها ،وحرض الناس على الجهاد وأعلمهم بما لهم فيه من الثواب . ثم لعن عبيد الله ، وابنه ، ثم خرج الناس معه لقتال الشيعة » (١) . وكانت جيوش ميسور التى قد قدمت لمحاربة أبى يزيد ، فانخذل عنه بنو كملان ، وانضموا إلى أبى يزيد ، فخرج أبو يزيد للقائهم، واشتبك الجيشان فى معركة رهيبة بوادى الملح أسفرت عن هزيمة ميسور ، وقتله بجماعة من بنى كملان ، وجاؤوا برأسه إلى أبى يزيد ،فأمر بأن يطاف به فى القيروان (٢) ، وأصبح أبو يزيد متغلبا على معظم إفريقية. فلما بلغت القائم أنباء هزيمة ميسور ومصرعه ، تأهب للحصار ، فأمر بحفر الخنادق حول المهدية ، والاستعداد لحصار طويل الأمد ، فشحن المدينة بكل ما يلزمها من مؤن وأقوات . وأقام أبو يزيد سجين يوما فى مخيم ميسور بين خلافا السرايا فى كل نواحى إفريقية ، فافتتح سوسة عنوة ، وخرب عمران

---

(١) ابن عذارى ، جـ ١ ، ص ٢٠٨ ، ٢٠٩

(٢) المرجع السابق ص ٢١٠ — ابن الأثير ، جـ ٦ ، ص ٣٠٤ — ابن خلدون ، جـ

إلى برقة ، ثم زحف بجيوشه إلى المهدية لحصارها، وعندئذ استجمد القائم بزيري ابن مناد الصنهاجي زعيم قبيلة صنهاجة البربرية الموالية للفاطميين، وقد كان لذلك أثر كبير في تغيير مصير المعركة لصالح الفاطميين ، ويذكر الأستاذ الدكتور أحمد مختار العبادي أن هذا الانتقام « راجع إلى عداء تقليدي قديم بين صنهاجة وزناتة التي تناصر أبا يزيد، فالعرب في ظاهرها كانت بين خوارج وشيعة ، ولكنها في باطنها بين أهل البداوة والرحل أو البربر البتر ومنهم زناتة ، وبين أهل الزراعة والاستقرار أو البربر البرانس ومنهم صنهاجة»(١).

٣ ـ المرحلة الثالثة ( ٣٣٣ ـ ٣٣٤ ) :

نزل أبو يزيد على بعد ١٥ ميلاً من المهدية ، وأخذ يشن الغارات على أطرافها ونواحيها، فانتهب ما حولها من القرى ، ودمر ما صادفه من عمران، واصطدم في هذه الأثناء بعسكر الكتاميين ، فهزمهم ، ولكن وصول زيري ابن مناد في جموع صنهاجة حول مجرى الأحداث ، فرجحت كفة الفاطميين، وبدأت الهزائم تتوالى على عسكر أبي يزيد ، فاضطر إلى حفر خندق حول معسكره ، وبعث في طلب النجدة ، فاجتمع إليه حشد هائل من بربر قبوصة والزاب وأقاصي المغرب ، وكان من جملة من انضم إليه محمد بن خزر الزناتي ، فضيق الخناق على المهدية ، وزحف إليها في آخر جمادى الثانية ، ولكنه عجز عن اقتحامها ، والتزم أمامها ، فاضطر إلى الكتابة إلى عامله القيروان يستمده ، فأمده بعسكر كثيف زحف بهم للمرة الثالثة في آخر رجب سنة ٣٣٤ ، ولكنه انهزم في هذه المرة أيضاً ، وأيد قسم كبير من

(١) مختار العبادي ، سياسة الفاطميين ، ص ٢٠٢ ، ٢٠٣

جيشه أثناء المعركة . وفى آخر شوال ، زحف المرة الرابعة للهجوم على المهدية ، ولكن نتيجة المعركة فى هذه المرة لم تكن أحسن من المرات السابقة ، إذ انهزم هزيمة منكرة ، ورجع إلى معسكره مكتفيا بمحاصرة المهدية .

واشتد الحصار على أهل المهدية حتى أكلوا الدواب والميتة ، وخرج أكثر السوقة والتجار من المهدية ، ولم يبق بها غير الجند ، وكان كل من خرج من المهدية وقع فى أيدى البربر ، وأخذوا ماله ، وشقوا بطنه طلبا للذهب(١) . فاضطر القائم إلى فتح الأهراء التى كان المهدى قد أقامها فى المدينة ، ووزع ما فيها من حبوب على رجاله (٢) . ويبدو أن بطنا من بطون كتامة الضاربة فى المغرب الأوسط تأهب للمجىء إلى المهدية ، وعسكرت قوافله فى قسنطينة ، فسير إليهم أبو يزيد عسكرا من وركلجومة وغيرهم ، فهزموا الكتاميين ، واجتمع إلى أبى يزيد عقب ذلك حشد كبير من البربر من كل ناحية ، فحاصر مدينة سوسة التى كانت قد خرجت عليه (٣) . ويغلب على الظن أن سياسة أبى يزيد القائمة على تفضيل فريق من أبناء البربر على فريق آخر أغضبت جماعات كبيرة منهم ، فانفضوا عنه ، ولم يبق معه سوى هوارة وأوراس وبنى كملان ، وثار عليه أهل القيروان ، وأعلنوا طاعتهم للقائم ، وكان على بن حمدون فى هذه الأثناء يبث الغارات على المدن التابعة لأبى يزيد ، فهزم هوارة ، وتغلب على مدينتى تيجس وباغاية (٤) .

---

(١) ابن الأثير ج ٦ ص ٣٠٠

(٢) ابن الأثير ج ٦ ص ٣٠٠ — ابن خلدون ج ٤ ص ٨٨

(٣) الزهر الباسق — ابن خلدون ج ٤ ص ٨٨

(٤) ابن خلدون ج ٤ ص ٨٩

وفي جمادى الآخرة اتجه أبو يزيد إلى سوسة لمحاصرتها ، وبينما كان يحاصرها توفي القائم بالله ، وخلفه ابنه أبو الطاهر اسماعيل الملقب بالمنصور ، فكتم موت أبيه حرصا على ألا يطلع عليه أبو يزيد وهو يحاصر سوسة ، فلم يغير الوضع عما كان عليه قبل وفاة أبيه .

٤ ـ المرحلة الرابعة ( ٣٣٤ ـ ٣٣٦ هـ ) :

اشتد حصار أبي يزيد على سوسة ، فبعث اسماعيل المنصور الأساطيل من المهدية إلى سوسة مشحونة بالمدد من المقاتلة والأسلحة والميرة مع رشيق الكاتب ويعقوب بن اسحق ، فلما وصلت المؤن والأقوات إلى سوسة ، تقوى أهلها بالمدد ، وخرجوا مع عسكر المنصور لقتال أبي يزيد فهزموه ، واستباحوا معسكره نهبا وحرقا ، ففر إلى القيروان ، فتبعه أهلها من المخول ، وثاروا بعامله عليها ، فخرج إليه ، ورحلوا إلى سبيبة في أواخر شوال سنة ٣٣٤ (١) . وقدم المنصور على أثر ذلك إلى القيروان ، وأمن أهلها ، وأبقى على حرم أبي يزيد وأبنائه ، فأحسن إليهم .

ولما علم أبو يزيد بدخول المنصور القيروان قدم على رأس جيش كبير لمهاجمة المنصور ، فهزمه المنصور أولا ، ثم انتصر أبو يزيد ، وظل العسكران يتبادلان النصر والهزيمة حتى حل شهر محرم سنة ٣٣٥ هـ ، والقتال متواصل ، فبعث أبو يزيد يطلب من المنصور حرمه وأولاده ، فبعثهم بعد أن اشترط عليه أن يرحل عن القيروان ، فلما وصلوا إليه نكث بوعده ، وقاتل المنصور في ٥ محرم سنة ٣٣٥ هـ وهزم جيشه . وأعقب هذه الهزيمة عفو المنصور

---

(١) ابن الأثير ، ج ٦ ص ٣٠٨ ـ ابن خلدون ج ٤ ص ٩٠

عسكرا جرارا فى منتصف محرم ، واشتبك مع أبى يزيد فى معركة ضارية انهزم فيها أبو يزيد هزيمة شنعاء ، وسحق عسكره سحقا ، فبلغ عدد القتلى من فرسانه عشرة آلاف ، وتعرف هذه الواقعة بواقعة يوم الجمعة ، وفر أبو يزيد مع من بقى من رجاله إلى باغاية ، فمنعه أهلها من الدخول فيها ، فأقام يحاصرها [1] . وعندئذ خرج المنصور فى ربيع الأول سنة ٣٣٥ لمطاردته بعد أن استخلف على المهدية صرام الصقلى ، وأدرك أبا يزيد وهو يحاصر باغاية ، ففر أبو يزيد وجيوش المنصور تلاحقه من حصن إلى حصن ، فلما نزل المنصور مدينة طبنة بالزاب جاءته رسل محمد بن خزر أمير مغراوة تعلن خضوعها إليه وانضمامها إلى جانبه ، ومازال أبو يزيد يتراجع من موضع إلى آخر حتى سلك الأوعار والمضايق ، وأصاب رجاله الجهد والإرهاق ، ولم يبق أمامه إلا الفيافى المؤدية إلى السودان . وكان المنصور قد اعتل أثناء مطاردته لأبى يزيد ، فانتهز أبو يزيد هذه الفرصة وسار إلى المسيلة ( مدينة المحمدية ) وحاصرها ، فلما أبل المنصور من مرضه رحل فى أول رجب سنة ٣٣٥ ، لاستئناف مطاردة أبى يزيد ، فرفع أبو يزيد الحصار عن المسيلة ، وأوغل فى الجنوب بقصد الالتجاء إلى بلاد السودان ، فأبى بنو كملان مسايرته ، وأرغموه على العودة إلى جبال كتامة وعجيسة ، فتحصنوا بها [2] ، فعزم المنصور على محاربته ، فانهزم أبو يزيد هزيمة نكراء ، وقتل من رجاله مايزيد على عشرة آلاف ، وفرهذه المرة وهو مثخن بالجراح إلى قلعة كتامة ، فحاصرها المنصور حتى افتتحها ، وأضرم النيران فى الشعراء

---

(١) ابن الأثير ، جـ ٦ ص ٣٠٨ — ابن خلدون جـ ٤ ص ١١

(٢) نفس المرجع — ابن خلدون ص ٩٢

المحيطة بالقصر حتى يقضي ما حوله ، فينكشف من حاول الفرار ، فيقبض عليه ، ويحمل إلى المنصور . وتوفي أبو يزيد بعد ثلاثة أشهر من هزيمته ، وذلك في محرم سنة ٣٣٦ هـ ، فأمر المنصور بسلخ جلده وحشوه تبنا .

وبوفاة أبي يزيد انتهت الثورة الكبرى التي صدعت دعائم الدولة الفاطمية في المغرب وكادت تقضي عليها . وقد سجل أبو الطاهر اسماعيل المنصور انتصاره على أبي يزيد ببناء مدينة صبرة المعروفة باسم المنصورية في سنة ٣٣٧ هـ لصق القيروان ، ولا تبعد عنها بأكثر من نصف ميل . فانتقل إليها ، واستوطنها ، ونقل إليها المعز لدين الله ابن المنصور أسواق القيروان كلها وجميع الصناعات . وكان لصبرة خمسة أبواب : القبلي والشرقي وزويلة وكتامة ( شمالي ) والفتوح . ولما أعاد المعز بن باديس بناء سور القيروان سنة ٤٤٤ هـ ، جعل السور تمايل صبرة كالفصيل : حائطان يتصلان إلى مدينة صبرة ، وبينهما نحو نصف ميل ، ولا سبيل لتسـاجر ولا وارد أن يدخل القيروان إلا بعد جوازه على مدينة صبرة . وقد أثر بناء صبرة على عمران المهدية ، فخلت أكثر أرباضها ، وتهدمت وانحسر العمران عنها [1] .

---

(١) البكري ، ص ٢٨ ـ ابن عذاري ص ٢١٢ ـ معجم البلدان ، ج ٥ ص ٣٩١

# (٣)

## خلافة المعز لدين الله الفاطمي

### ١ ـ بسط نفوذ الفاطميين على المغرب الأقصى :

شغلت ثورة أبي يزيد الفاطميين عن بسط نفوذهم في بلاد المغرب الأقصى، فاستغل الأمويون بالأندلس هذه الفرصة ، ومدوا نفوذهم على طول الساحل الإفريقي حتى الجزائر ، كما أقاموا قواعد عسكرية في الثغور المطلة على جبل طارق مثل طنجة وسبتة ومليلة [1] . ونجح الخليفة عبد الرحمن الناصر في اجتذاب رؤساء البربر من زناتة ومغراوة ، فانضموا تحت لوائه .

ولما تولى أبو تميم معد الملقب بالمعز لدين الله الخلافة الفاطمية في سنة ٣٤١ هـ ، كان سلطان الفاطميين يمتد في المغرب الأوسط حتى إيفكان الواقعة فيها وراء تاهرت ، وكان يتولى تاهرت من قبله يعلى بن محمد اليفرني ، كما كان يتولى أشير وأعمالها زيري بن مناد الصنهاجي ، والمسيلة جعفر بن علي الأندلسي ، وباغاية قيصر الصقلبي . وإلى زيري يرجع الفضل في بناء مدينة أشير عندما استقل بولاية الزاب سنة ٣٢٤ هـ ، كما جدد بناء مدينة مليانة القديمة وأسكنها ابنه بلكين ، وبنى مدينة جزائر بني مزغنة والمدية [2] . أما جعفر بن علي بن حمدون المعروف بابن الأندلسي ، فقد خلف أباه على المسيلة والزاب كله ، وظل مقيما عليها إلى أن خرج عنها في سنة ٣٦٠ هـ في فتنة

---

(١) مختار البادي ، سياسة الفاطميين نحو المغرب والأندلس ، ص ٢٠٠

(٢) ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، القسم الثالث ، ص ٦٣ حاشية رقم

زيري[1]. أما فاس فكان يليها من قبل المعز أحمد بن بكر بن أبي سهل الجذامي، فخرج أهل فاس على المعز ، وبايعوا لعبد الرحمن الناصر ، فولى عليهم محمد ابن الخير المغراوي الذي أقام على ولايتها عاما واحدا ثم ارتحل إلى الأندلس للجهاد ، واستخلف على فاس ابن عمه أحمد بن أبي بكر بن أحمد بن عثمان الزناتي[2]. كذلك خرج على المعز يحيى بن محمد اليفرني سنة ٤٤٧ ، ونقض طاعة الشيعة ، وبايع لعبد الرحمن الناصر[3]. فغضب المعز لخروج المغرب الأقصى من طاعته ، وانضوائه إلى الخلافة الأموية بالأندلس . فسير جوهر الصقلي على رأس جيش كثيف إلى المغرب لإعادة النفوذ الفاطمي على بلاد المغرب الأقصى . وخرج مع جوهر جعفر بن علي صاحب المسيلة، وزيري بن مناد أمير أشير . ونجح جوهر في الإيقاع بيحيى بن محمد اليفرني ، وحرب إيفكان ، ومضى إلى فاس ، ثم تجاوزها إلى سجلماسة ، فاستولى عليها ، وقبض على أميرها الشاكر لله محمد بن الفتح من بني واسول المغراويين، ثم عاد إلى فاس ، وأحكم عليها الحصار ، وتمكن زيري بن مناد من افتتاحها في سنة ٣٤٨ هـ[4] . وبذلك نجح جوهر في مهمته ، وأعاد النفوذ الفاطمي على القسم الأعظم من المغرب الأقصى. وفر كثير من أعداء الدولة الفاطمية إلى الأندلس ، ومنهم بنو يحيى اليفرني ، وبقايا بني إدريس ، ووفدا من برغواطة على رأسهم الأمير أبو صالح البرغواطي رسولا من أبي منصور عيسى بن أبي الأنصار ، أمير برغواطة .

---

(١) ابن عذاري ج ١ ص ٢٠٦

(٢) الزناتي ، ص ٢٦ ـ العلاوي ج ١ ص ١٦٢

(٣) ابن خلدون ج ٤ ص ١٦

(٤) ابن الأثير ، ج ٦ ص ٣٠٤ ـ ابن خلدون ، ج ٤ ص ٥٢

ب ـ استيلاء المعز على مصر ، وانتقاله اليها :

استطاع المعز ، بفضل جهود قائده جوهر الصقلي وزيري بن مناد الصنهاجي ، أن يمكن سلطانه من حدود طرابلس شرقا حتى المحيط الاطلسي غربا ، وكان فتح مصر أمنية خلفاء الفاطميين منذ أيام عبيد الله المهدي ، بعد أن استحال عليهم فتح الاندلس . وكانت مصر بالنسبة للفاطميين معقد آمالهم لتراثها ، وأهمية موقعها الجغرافي سياسيا وحربيا ، وقربها من بلاد الشام والحجاز . وازداد تطلعهم لفتحها بعد أن قضى اسماعيل المنصور على ثورة أبي يزيد . فلما خلفه المعز اشتدت رغبته في فتحها ، ولكنه لم يشأ أن يقدم على ذلك قبل أن يؤمن ظهره من الأمويين وأنصارهم ، ويخضع بلاد المغرب الأقصى لسلطانه ، فلما تم له ذلك ، أخذ يتفرغ منذ عام ٣٤٥ هـ لهذه المهمة ، ورأى أن يعزز جيشه بكل الوسائل حتى يضمن لنفسه النصر . وساعدته الظروف السياسية في العالم الإسلامي وقتئذ على نجاحه في فتح مصر . فقد كانت أمور مصر قد انتهت بعد وفاة محمد بن طغج الإخشيد سنة ٣٣٤ هـ إلى الضعف ، وعلى الرغم من استبداد كافور بالحكم دون ولدي الإخشيد ، ونجاحه في إخماد الثورات ، فانه لم ينجح في تحسين الاحوال الإقتصادية بمصر ، ففي سنة ٣٥٧ هـ ، قصر النيل في فيضانه ، وحدث بمصر غلاء شديد ، نجمت عنه مجاعة ظلت تسع سنوات ، قاسى المصريون خلالها الشدائد » [1] ، وساءت أوضاع مصر بعد وفاة كافور سنة ٣٥٧ هـ ، وانتشرت بها الفوضى والاضطراب وعظم فيها الغلاء [2] . وفي ذلك يقول

---

(١) جمال الدين الشيال ، مصر في العصر الفاطمي ، ص ٤٢٩

(٢) ابن خلدون ، ج ٤ ، ص ٩٩

المقريزي : « وكثر الاضطراب ، وتعددت الفتن ، وكانت حروب كثيرة بين الجند والأمراء قتل فيها خلق كثير ، وانكبت أسواق البلد ، وأحرقت مواضع عديدة ، فاشتد خوف الناس ، وضاعت أموالهم ، وتغيرت نياتهم ، وارتفع السعر ، وعظم وجود الأقوات حتى بيع القمح كل وية بدينار ، واختلف العسكر ، فلحق الكثير منهم بالحسن بن عبد الله بن طغج ، وهو يومئذ بالرملة ، وكاتب الكثير منهم المعز لدين الله الفاطمي ، وعظم الإرجاف بمسير القرامطة إلى مصر »[1] . وبالإضافة إلى ذلك كانت ظروف الدولة العباسية قد ساءت إلى درجة كبيرة ، وكثرت الفتن في بغداد بين بختيار بن معز الدولة ، وابن عمه عضد الدولة ، وشغلت بغداد بهذه الفتن عن الاهتمام بشؤون مصر (٢) . يضاف إلى ذلك أن دعاة الشيعة الإسماعيلية في مصر نجحوا في اجتذاب عدد كبير من المصريين إلى هذا المذهب . وهكذا كان الجو في مصر مهيأ للغزو الفاطمي ، فلم يتردد المعز في تعبئة كل طاقاته وإمكاناته لغزوها ، وبدأ منذ سنة ٣٥٥ يتأهب لفتح مصر ، فجمع الأموال الوفيرة ، وكتب إلى عماله برقة لحفر الآبار في الطريق من إفريقية إلى برقة ، وإقامة المنازل على رأس كل مرحلة من هذا الطريق . فلما اجتمعت له جنود كثيفة ، وتمت كافة الاستعدادات للسير ، خرج جوهر الصقلي على رأس جيش عدته نحو مائة ألف من البر في ١٤ ربيع الثاني سنة ٣٥٨ هـ [2] ، في طريقه إلى مصر . ووصل جوهر إلى الإسكندرية

---

(١) المقريزي ، اتعاظ الأمة بكشف الغمة ، نشره الدكتور محمد مصطفى زيادة ، والدكتور جمال الدين الشيال ، القاهرة ١٩٤٠ ص ١٢ ، ١٣

(٢) ابن خلدون ، ج ٤ ص ٩٩

(٣) جمال الدين الشيال ، مصر في العصر الفاطمي ، ص ٤٣٠

فخرج إليه رغد من القضاة والفقهاء فى زوجة، فأجابهم إلى ملتمسهم، ودخل الاسكندرية دون مقاومة (١). وتقدم جوهر نحو الفسطاط، فاستعد الاخشيديون والكافورية لقتاله، والتقى الجيشان بالقرب من الفسطاط: جيش الإخشيدية بقيادة تحرير الأرغلى، وبن الطويل، والجيش الفاطمى بقيادة جوهر، وانتهت المواقعة بانتصار جوهر. وزال بذلك سلطان الإخشيديين والعباسيين عن مصر، وأصبحت مصر ولاية فاطمية. ودخل جوهر الفسطاط فى ١٧ شعبان سنة ٣٥٨ هـ، ثم إنه نزل بعسكره إلى الشمال الشرقى من الفسطاط، فى الموضع الذى اختط فيه مدينة القاهرة، وهناك وضع أسس هذه المدينة العظيمة التى قدر لها أن تتزعم العالم العربى حتى يومنا هذا، وبدأت أعمال الإنشاء فى سرعة عظيمة، فلم يمض عامان حتى كان جوهر قد انتهى من تأسيس القاهرة، وبناء جامعها المعروف بالأزهر (٢).

وقبل أن يرحل المعز لدين الله إلى عاصمته الجديدة أراد أن يبقى على النفوذ الفاطمى فى بلاد المغرب مع أنه كان يدرك أن استمرار هذا النفوذ لن يدوم طويلا، لما كان يعرفه من شدة مراس البربر، وطبيعتهم الثورية. ويرى الدكتور مختار العبادى أنه رأى أن خير وسيلة للاحتفاظ بتبعية المغرب للفاطميين أن يعمل على إضعافه، بإثارة الفرقة والتنافس بين قبائله حتى تظل فى حروب متواصلة، ولا يفكر أهل المغرب فى الخروج من

---

(١) الخريدى، اتعاظ الحنفا ص ١١٢ ـ السيد عبد العزيز سالم، تاريخ الاسكندرية وحضارتها فى العصر الاسلامى، الاسكندرية ١٩٦١ ص ٥٦

(٢) السيد عبد العزيز سالم، المغرب الإسلامى ص ١١٣

طاعة الفاطميين (١) . فاستغاث لذلك أبا الفتوح يوسف بن زيرى بن مناد الصنهاجي على إفريقية ، ومضى إلى مصر بأمواله ورجاله ، وحمل توابيت آبائه وأجداده ، ودفنهم بقصره فى القاهرة .

(١) اختار الباجى : نهاية الفاطميين ، ص ٩٠ :

# الفصل التاسع

## المغرب الأدنى والأوسط فى ظل بنى زيرى وبنى حماد الصنهاجيين

(١) أمراء بنى زيرى منذ قيامهم بأمر المغرب حتى استقلال الحماديين بالمغرب الأوسط

ا ـ دولة أبى الفتوح يوسف بن زيرى

ب ـ دولة أبى الفتح المنصور بن بلكين

ج ـ دولة نصير الدولة باديس بن أبى الفتح المنصور

د ـ انقسام دولة الصنهاجيين

(٢) علاقة الصنهاجيين بالخلافة الفاطمية بمصر

ا ـ الدور الأول من انفصال بنى زيرى عن الخلافة الفاطمية بمصر

ب ـ الدور الثانى » » »

ج ـ الدور الثالث » » »

د ـ الدور الأخير » » »

(٣) انتقام المستنصر بالله الفاطمى: غزو عرب الهلالية وبنى سليم لبلاد المغرب

ا ـ دخول قبائل بنى هلال وبنى سليم فى أرض المغرب

ب ـ هزيمة جيوش المعز لها أمام العرب

ج ـ نتائج غزو الهلالية للمغرب

(٤) استيلاء النورمانديين على المهدية

ا ـ غارات الزيريين على سواحل إيطاليا وصقلية وآثارها

ب ـ سقوط المهدية في أيدي النورمانديين .

(٥) انقراض دولة بني حماد

# الفصل التاسع

## المغرب الأدنى والأوسط فى ظل بنى زيرى وبنى حماد الصنهاجيين

### (١)

### أمراء بنى زيرى منذ قيامهم بأمر المغرب حتى استقلال الحماديين بالمغرب الاوسط .

١ — دولة ابى الفتوح يوسف بن زيرى :

ذكر القيروانى أن المعز قبل رحيله إلى مصر استقدم جعفر بن على بن حمدون ، وعرض عليه أن يتولى إمارة المغرب نيابة عنه ، ولكن جعفر اشترط عليه لقبول هذا المنصب شروطا تتيح له الاستقلال الداخلى ، وقال له : « تترك معى أحد أولادك أو إخوتك يجلس فى القصر وأنا أدبر ، ولا تسألنى عن شىء من الاموال ، لان ما أجبيه يكون بازاء ما أنفقه ، وإذا أردت أمر فعلته من غير أن أنتظر ورود أمرك فيه ، لبعد ما بين مصر والمغرب ، ويكون تقليد القضاء والخراج وغيره إلى » . فغضب المعز ، وقال : « ياجعفر ، عزلتنى عن ملكى ، وأردت أن تجعل لى فيه شريكا فى أمرى ، واستبددت بالاعمال والاموال دونى ، ثم فقد أخطأت حظك ، وما أصبت رشدك » ، ثم أقصاه عنه ، واستقدم بلكين بن زيرى بن مناد ، وعرض عليه ولاية المغرب ، ولكن بلكين قال له : « يامولانا ، أنت وآباؤك الأئمة من ولد الرسول ( صلعم ) ما صفا لكم المغرب ، فكيف

يعلو لى ، وأنا صنهاجى بربرى أطلق يا مولانا بغير سيف ولا رمح »(١).
ومازال به للعز حتى قبل ولاية المغرب نيابة عنه ، فولاه أمر إفريقية والمغرب ماعدا صقلية التى كان يتولاها بنو أبى الحسين الكلبى ، وطرابلس التى كان يتولاها عبد الله بن يخلف الكتامى ، وسمى بلكين يوسف ، وكناه أبا الفتوح ، ولقبه سيف المعز بالله (٢) ، ووصله بالخلع والآلة الفاخرة. ثم توجه المعز إلى قابس وقال لبلكين وهو يودعه : « إن نسيت شيئا مما أوصيتك به فلا تنس ثلاثة أشياء : لا ترفع الجباية عن أهل البادية ، ولا ترفع السيف عن البربر ، ولا تول أحدا من إخوتك وبنى عمك ، فانهم يرون أنهم أحق بهذا الأمر منك ، واستوص بالحضر خيرا »(٣) . وعهد إليه بأن يشرع فى غزو المغرب الأقصى لتسلم دانته ، والقضاء على النفوذ الأموى فيه (٤) . أثارت تولية بلكين إمارة المغرب غيرة منافسه جعفر بن على بن حمدون أمير الزاب ، فشق عصا الفاطميين وعصا الطاعة ، ورحل إلى الأندلس ، ملتجئا عند الحكم المستنصر ، كما ثارت عليه قبيلة زناتة الفاتحة بدعوة المروانيين فى الأندلس ، وخرج عليه أهل تاهرت .

فسار على رأس جيش كبير إلى تاهرت ، فدخلها وخربها ، ثم مضى إلى تلمسان ليقضى على جموع الزناتيين ، فحاصرها ، ودخلها . وعاد إلى

---

(١) المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، ص ١٤٣ — المقريزى ، الخطط ، طبعة بيروت ، مجلد ٢ ص ١٧٨

(٢) ابن خلدون ج ٦ ص ٢١٧ — ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، القسم الثالث ص ٩٠

(٣) ابن عذارى ج ١ ص ٢٦٤ — ابن خلدون ج ٦ ص ٢١٨ — ابن الخطيب ، ص ٩٠

(٤) ابن خلدون ، ج ٦ ص ٢١٨

القيروان بعد أن وصله كتاب من المعز يعفيه عن التوغل في المغرب ، وفي سنة ٣٦٧ هـ عقد له المعز بالله ولاية طرابلس وسرت وأجدابية زيادة على ولاية المغرب ، فاستخلف بلكين عليهـــا يحيى بن خليفة المليانى (١) ، واستقل ملك بلكين بما أصبح له من ولايه طرابلس وبرقة ، فخرج في هذه السنة لغزو المغرب الأقصى عندما بلغه أن خزرون بن فلفل بن خزر الزناتي قد زحف سنة ٣٦٦ هـ إلى سجلماسة في جيش كثيف وقتل أبا محمد المعز بالله من أولاد الشاكر بن المسراري ، واستولى على سجلماسة ، وبعث برأس المعز إلى قرطبة (٢) ، وبدأ أبو الفتوح بلكين بحصار سبتة ، فاستعصت عليه لمناعتها ، فتركها إلى فاس ، فاستولى عليها في سنة ٣٦٨ هـ ، وقتل عاملها محمد بن أبي علي بن قشوش ، وعبدالكريم بن مغلية واستعمل على فاس محمد بن عامر المكناسي . ثم افتتح سجلماسة ، وقبض على ابن خزر أمير مغراوة وقتله ، ففر ملوك زناتة أمامه ، ومنهم بنو يعلى بن محمد اليفرني وبنو عطية بن عبد الله بن خزر ، وبنو فلفل بن خزر ، ويحيى بن علي بن حمدون صاحب البصرة ، إلى سبتة ، واستنجدوا بالمنصور بن أبي عامر (٣) فطاردهم أبو الفتوح بلكين إلى سبتة مرة ثانيـــة وحاصرها ، ولكنها استعصت عليه لحصانتها ، وصعوبة الوصول إليها إلا بالسفن ، فرجع عنها مرغما . ومضى إلى البصرة مركز يحيى بن علي بن حمدون فهدمها وخرب عمرانها ، وسار بعد ذلك إلى أصيلا ، ومنهـا إلى شالة مركز برغواطة ،

---

(١) ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٢٩

(٢) نفس المرجع ـ ابن خلدون ج ٦ ص ١٧٣

(٣) ابن خلدون ، ج ٦ ص ٢١٩

فزاحم ، وقتل أميرهم ابن عيسى ، وسبى من نسائهم وذراريهم أعدادا كبيرة (١) .

وتوفى أبو الفتوح فى سنة ٣٧٣ هـ فى طريق عودته إلى إفريقية وذلك فى بلدة وارلنفوّ الواقعة بين سجلماسة وتلمسان .

ب — دولة أبى الفتح المنصور بن بلكين :

كان واليا بأشير عندما بلغه خبر وفاة أبيه، فخلفه على الإمارة فى أوائل سنة ٣٧٤ هـ ، وقلده العزيز بالله أمر إفريقية والمغرب، فعقد لعمه أبى البهار على تاهرت ، ولأخيه يطوفت على أشير ، وبلغ المنصور أن زيرى بن عطية المغراوى قد قام فى المغرب، واستولى على فاس وأصبح أمير زناتة كلها ، وكان يدعو لبنى أمية فى دولة هشام المؤيد ، فأمر المنصور فى سنة ٣٧٤ هـ أخاه يطوفت بالخروج على رأس جيش كثيف إلى مدينتى فاس وسجلماسة لاستردادهما من الزناتيين ، فوصل إلى مدينة فاس ، وكان يقوم بولايتها زيرى بن عطية الزناتى الملقب بالقرطاس(٢) . فلما علم زيرى بقدومه بادر بمهاجمته بجموع الزناتيين ، وهزمه هزيمة شنعاء ، وقتل من المشهاجيين عدداً كبيراً ، وقتل من رجال يطوفت قائدين هما ابن شفان وابن عامل ، وعادت فلول جيش يطوفت إلى تاهرت ومنذ ذلك الحين لم يحاول المنصور معاودة الغزو إلى المغرب وزناتة . ولكن فريقا من الزناتيين انضم إلى المنصور بن بلكين ، ومنهم سعيد بن خزرون الذى قدم إلى المنصور فى

---

(١) ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٢٨ ، ٢٢٩

(٢) ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٤٠ — ابن خلدون ، ج ٦ ص ٢٢٠

سنة ٣٧٩ هـ ، فولاه على مدينة طبنة ، وزوج ابنته من وردوا بن سعيد (١). وظل سعيد بن خزرون عاملا على طبنة إلى أن توفى رجب سنة ٣٨٢ هـ ، فولى المنصور ابنه فلفل بن سعيد على طبنة ، وأهداه ثلاثين حملا من المال وثمانين تختا من أنواع الكسى ، وخيلا بسروج محلاة ، وعشرة بنود مذهبة (٢) .

وفى عهد المنصور ثارت ثورتان الأولى قام بها أبو الفهم الخراسانى الداعى سنة ٣٧٦ هـ ، وأيدته قبائل كتامة ، فحاربه المنصور ، وخرب بلاد كتامة سنة ٣٧٨ ، وتمكن من القبض عليه وقتله (٣) . والثانية ثورة أبى اليسار بن زيرى فى تاهرت سنة ٣٧٩ هـ ، فزحف إليه المنصور إلى تاهرت ، ففر منها أبو اليسار إلى المغرب حيث دخل فى طاعة المنصور بن أبى عامر ، فدخل عسكر أبى الفتح المنصور مدينة تاهرت ، وقتل من تصدى لهم من أنصار أبى اليسار . ثم أمنهم بعد ذلك ، وولى على تاهرت أخاه يطوفت ، وعاد إلى أشير (٤) . ثم اختلف أبو اليسار فى فاس مع زيرى بن عطية سنة ٣٨٢ هـ ، فعاد أبو اليسار إلى قومه ، ووصل إلى المنصور فى ١٥ شعبان سنة ٣٨٣ هـ ، فرحب به المنصور ، وخلع عليه (٥) . وتوفى المنصور فى ٣ ربيع الأول سنة ٣٨٦ هـ ، ودفن بقصره الجديد بظاهر المنصورية .

---

(١) ابن عذارى ، ج ١ ص ٣١٩

(٢) نفس المرجع ص ٣٢٣

(٣) نفس المرجع ص ٣٤٨

(٤) نفس المرجع ص ٣٤٩ — ابن خلدون ج ٦ ص ٢٢١

(٥) نفس المرجع ص ٣٥٣ — ابن خلدون ص ٢٢١

ج ـ دولة تميم الدولة باديس بن أبي الفتح المنصور :

تولى إمارة إفريقية والمغرب الأوسط بعد وفاة أبيه ، وكان لا يجاوز من العمر ١٢ سنة ، فأقر عمه بطرفت على ولاية تاهرت ، وأقر عمه حماد على ولاية أشير. ولما بلغ أمراء زناتة نبأ وفاة المنصور ، وولاية ابنه باديس، استغلوا صغر سنه ، فزحف زيري بن عطية في جموع هائلة من زناتة سنة ٣٨٩ هـ إلى مدينة تاهرت ، وحاصره ، فكتب بطرفت بن يوسف إلى ابن أخيه باديس يستمده ، فبعث إليه جيشا يقوده محمد بن أبي العرب الكاتب، فسار هذا الجيش إلى أشير وانضم إليه عسكر آخر ، بقيادة حماد بن يوسف، ووصل الجيشان إلى تاهرت في أول جمادى الأولى سنة ٣٨٩ هـ ، وكان زيري بن عطية قد عسكر بجيش في موضع يقال له آسار يقع قريبا من تاهرت ، فخرج الجيش الصنهاجي إليه ، وكانت معركة عنيفة في ٤ من جمادى الأولى ، انتهت بهزيمة الصنهاجيين هزيمة منكرة ، وانسحب حماد وبطرف مع ابن أبي العرب إلى أشير ، وتركوا علائهم ومضاربهم بما فيها من الأموال والسلاح ، واستولى عليها زيري بن عطية ودخل تاهرت (١).

ولما بلغ تميم الدولة باديس خبر هذه الهزيمة ، خرج لمحاربة زيري بن عطية في ٢ جمادى الآخرة سنة ٣٨٩ هـ ، فلما وصل طبنة بعث في طلب فقال ابن سعيد بن خزرون الزناتي ، فبعث يستشيره ويسأله أن يكتب له سجلا بولاية طبنة ، فكتبه له ، وبعث إليه ، ثم رحل باديس إلى أشير ، فانتهز فقال فرصة رحيله عنه ، وأغار على ما حوله من النواحي. ثم واصل باديس زحفه حتى وصل إلى المسيلة ، فبلغه رحيل زيري بن عطية من تاهرت إلى

---

(١) ابن الرقيق ص ٣٠٨ ، ٣٠٩

فاس ، فعاد إلى أشير ، ودخل عمه بطوفت داعرت ، واستخلف عليها ابنه أيوب في أربعة آلاف فارس . ووصلت الأنباء إلى باديس بما قام به فلفل ابن سعيد ، فسير عسكرا من أشير لمحاربة فاقل ، ورحل هو بعدهم ومعه أبو الفهار بن زيري ، نازلا بالمسيلة ، وبلغها أن ماكسن وزاوي ومغنين شقوا عصا الطاعة على باديس في أشير ، وأنهم قبضوا على بطوفت ، فرحل أبو الفهار محاربا في بنيه ورجاله (١) . ويبدو أن باديس اتفق مع حماد على أن يتولى هو أمر باديس محاربة فلفل بن سعيد ، بينما يتولى حماد محاربة أعمامه بني زيري ، فرحل باديس إلى إفريقية ، فعلم وهو بلزمة أن فلفل قد تمادى إلى القيروان ، فسار إلى باغاية في طلبه ، والتقى معه في ٥ من ذي القعدة بالقرب من باغاية ، فانهزم فلفل وتراجع إلى جبل الخناش ، وقد قتل من رجاله نحو سبعة آلاف (٢) .

ولم يكتف نصير الدولة باديس بهذا الانتصار ، فخرج في سنة ٣٩٠ هـ محاربة فلفل ، فر فلفل منهزما إلى الشرق تاركا أنصاره ، وعاد نصير الدولة إلى إفريقية . أما فلفل فقد مضى إلى طرابلس حيث دخلها واستوطنها سنة ٣٩١ .

أما حماد فقد ظل يحارب إخوته حتى تمكن أخيرا وبعد حروب طويلة من قتل ماكسن بن زيري وولديه محسن وباديس في ٣ رمضان سنة ٣٩٩ هـ (٣) . أما زاوي بن زيري وابنا أخيه ماكسن : حباسة وحبوس ،

---

(١) ابن عذاري ج ١ ص ٢٦٠

(٢) نفس المرجع

(٣) نفس المرجع ص ٢٦١

فقد نجوا إلى جبل سبوة ، فنازلهم جماد أياما ، ثم عقد لهم السلم على أن يجيزوا إلى الأندلس ، فعبروا الزقاق إلى ساحل الأندلس ، ولاذوا بعبد الملك ابن المنصور(١) ، واستقبلهم عبد الملك بن المنصور سنة ٣٩٢ هـ أعظم استقبال ، ووصلهم بصلاته الجميلة ، ويذكر ابن بسام الشنتريني ، أنهم : « استقلوا ما وصلهم به عبد الملك على كثرته ، وما استقروا الدار إلا على قلعة ، ولا حمدوا معروفهم ، ولا لبسوا أعالي المراتب السلطانية إلا على ابتذال وحقرة ، ولا قطعوا أن المقام بالأندلس إلا بذكر الرحلة ، والناس التسريح بكرة وعشية ، جهلا وفرط أنفة »(٢) وكان عبد الملك يرغب في رفع منزلة زاوي ابن زيري وإخوته وعشيرته ، فولاه الوزارة ، فرفضها زيري محتجا بأن خطته لا تعدو الحرب ، وأن أفلاذه الرماح ، وصحائفه الأجساد(٣) . وقد اشترك زاوي بن زيري وبلكين بن ماكسن بن زيري في الفتنة التي اشتعلت نيرانها بقرطبة بعد مقتل عبد الرحمن شنجول بن المنصور سنة ٣٩٩ هـ ، فأيدوا سليمان المستعين ضد المهدي محمد بن عبد الجبار ، فكافأ بني زيري بأن منحهم قليعة ، فاستأثر بنو حبوس بن ماكسن بإمارة البيرة وغرناطة بعد أن رحل زاوي بن زيري إلى افريقية في سنة ٤٠٩ هـ(٤) ، وذلك بعد وفاة باديس(٥) ، فتولاها في دولة المعز بن باديس بعد أن ملك غرناطة نحو سبع

---

(١) ابن خلدون ، ج ٦ ص ٢٢٢

(٢) ابن بسام الشنتريني ، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، مجلد ١ قسم ٤ ص ٦١ ، القاهرة ، ١٩٤٥

(٣) تاريخ الملوك وآثارهم في الأندلس ، ص ٣٣٨

(٤) ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، قسم ثالث ، ص ٦٨ — الحلل السندسية في أخبار الدولة التركية ، القاهرة ١٩٢٨ ص ٢٠

(٥) تاريخ المساجد وآثارهم في الأندلس ، ص ٣٥٦

سنوات ، واستخلف عليها ابن أخيه حبوس بن ماكسن (١) . وظل بنو زيري يحاربون مالك غرناطة حتى سنة ٤٨٣هـ ، عندما خلع يوسف بن تاشفين أميرهم عبد الله بن بلكين بن باديس بن حبوس (٢) .

ظل نصير الدولة باديس على وفاق مع عمه حماد إلى أن تحركت قبائل زناتة في سنة ٤٠٥هـ نحو نواحي المسيلة وأشير فسير إليهم باديس عمه حماد ، فنازل زناتة وهزمها ، ثم نزل مدينة تيجس من أحواز قسنطينة (٣) . ثم نزل بأبي طويل وهي قلعة بأحواز قلعة حماد ومنذ عها على الساحل ، وهناك اختط مدينة القلعة وشيد القصور (٤) . وأخذ حماد يعمل على الاستقلال عن باديس .

وأحس باديس بما يتآمر له حماد ، فأراد اختبار طاعته ، فكتب إليه طالبا أن ينزل عن عمل تيجس وقسنطينة ، فأبى حماد وأظهر الخلاف (٥).

د ـ انقسام دولة الصنهاجيين :

رأينا من قبل كيف بدأ حماد يعمل على الانفصال عن ابن أخيه ، فأسس مدينة القلعة ونزلها وجعلها مقرا له ، وأدرك باديس منه هذا الميل للاستقلال ، فأراد أن يختبر مدى ولائه له ، فأمره بالنزول عن عمل تيجس وقسنطينة لابنه ( المنصور بن باديس ) فأبى ، وأعلن استقلاله بهذه الولاية. فسير إليه باديس ابراهيم بن يوسف سيف الدولة بلكين أخا حماد ، ال

---

(١) ابن الخطيب ، الحلة السيراء ص ٢٠

(٢) نفس المرجع

(٣) ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، القسم الثالث ، ص ٢٠

(٤) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٢٣

(٥) نفس المرجع

شوال سنة ٣٩٩ هـ ، فما كاد يصل إلى القلعة حتى انضم إلى أخيه حماد ، فاجتمعت كلمتهما ، وخلعا أيديهما عن الطاعة لباديس (١) ، بل إن حماد لم يكتف بذلك ، فأعلن تبعيته لطاعة الفاطميين ، وذلك للخلفاء العباسيين في سنة ٤٠٠ هـ (٢) . عندئذ عزم باديس على محاربة عمه ، فرحل بعسكره متجها إلى قلعة حماد في المحرم سنة ٤٠٦ هـ ، وانضم إليه في طريقه إليها عزم وقلل ابنا حسون بن سفوت وماكسن بن بلكين ، وعدنان بن معلم ، في عدة من فرسان جيش حماد ، فخلع عليهم ، وأحسن إليهم ، ومازال يسير الدولة باديس بواصل سيره إلى أن وصـــل إلى تاهديت ، فبلغه هناك وفاة ابنه الأمير عزيز الدولة ، فأقام بتاهديت حتى ٦ من صفر ، ثم واصل سيره حتى وصل إلى المهدية ، ومنها تابع سيره ، فعبر وادي شلف (٣) ، وهناك دخل في طاعته بنو توجين ، إذ كانوا ساخطين على حماد لقتله أميرهم دانيل (٤) . فسار باديس حتى قرب من جيش حماد وحشوده من زناته وغيرهم في العدوة الأخرى من الوادي ، والتقى الجيشان في معركة انتهت بهزيمة حماد وفراره إلى القلعة تاركا مخيمه ، فنهبها جنود باديس . ومات باديس في ٢٧ ذي القعدة سنة ٤٠٦ هـ .

واتفق الجند بعد وفاة باديس على مبايعة ولده المعز ، واستنابة ابن عمه كرامة بن المنصور حتى يتم مبايعة المعز البيعة العامة في المهدية ، وتمت هذه

---

(١) ابن عذارى جـ ١ ص ٢٢٢ — ابن خلدون جـ ٦ ص ٢٢٢

(٢) ابن خلدون جـ ٦ ص ٢٠١

(٣) ابن عذارى جـ ١ ص ٢٢٩

(٤) ابن خلدون جـ ٦ ص ٢٢٢

البيعة فى ٢١ ذى الحجة سنة ٤٠٦ هـ ، وهو ابن ثماني سنوات . واستغل حماد فرصة موت باديس فدخل للمسيلة وأشير ، وحاصر باغاية ، وبلغ ذلك المعز ابن باديس ، فزحف اليه فى سنة ٤٠٨ هـ ، فاضطر حماد إلى رفع الحصار عن باغاية واشتبك مع جيش المعز بن باديس فى معركة عنيفة أسفرت عن هزيمة حماد ، وفراره إلى القلعة . ثم آثر حماد الصلح مع المعز فاشترط عليه المعز أن يبعث ولده إليه ، وتم الصلح بين المعز وحماد ، وبمقتضاه يستقل حماد بعمل المسيلة وطبنة والزاب وأشير وتامرت وما يفتح من بلاد المغرب . وعقد لابن حماد على طبنة والمسيلة ومقره ، ومرسى الدجاج وسوق حمزة وزواوة . وبذلك الصلح وضعت المغرب أوزارها ، وانقسمت دولة الصنهاجيين إلى دولتين : دولة آل المنصور بن بلكين أصحاب القيروان ، ودولة آل حماد بن بلكين أصحاب القلعة (١) ، ثم بجاية بعد ذلك (٢) .

ويعتقد الأستاذ جورج مارسيه فى كتابه « المغرب الاسلامى والشرق فى العصر الوسيط » أن هذا الانقسام أمر طبيعى ، فقيام الدولة الحمادية جاء نتيجة طبيعية للحوادث ، إذ أن المناطق التى كان يحكمها بنو زيرى عند رحيل المعز لدين الله الفاطمى إلى مصر ، وكانت تعد مهمة قليلة بالنسبة لبلكين ، وابنه المنصور ، لأنها كانت تضم المغربين الأدنى والأوسط ، فاضطر المنصور إلى أن يعهد بولاية المغرب الأوسط إلى أخيه حماد بن بلكين ، وبطبيعة الحال طمع حماد فى هذه الولاية لنفسه . فلما حاول باديس استرجاع هذه الولاية ، اعترضه حماد وخرج عن طاعته وعن طاعة الخليفة الفاطمى

---

(١) ابن خلدون جـ ٦ ص ٢٢٤

(٢) ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، القسم الثالث ، ص ٧٦

الحاكم بأمر الله في آن واحد. ويذكر ابن خلدون أن حماد دعا للخلفاء العباسيين ، وقتل الرافضة وأعاد ولاءه إلى المذهب السني ، وترحم على أبي بكر وعمر . ويذكر مارسيه أنه لو صح ما ذكره ابن خلدون ، لكان حماد هذا أول من أعلن انفصاله السياسي عن الخلافة الفاطمية في مصر ، وأنه سبق في ذلك المعز بن باديس بنحو ثلاثين عاما حين شق عصا الطاعة على الخليفة المستنصر بالله الفاطمي [1] .

---

(1) Marçais, la Berbérie musulmane et l'Orient, p. 154

## ( ٢ )

## علاقة الصنهاجيين بالخلافة الفاطمية

### ١ ـ الدور الأول من انفصال بني زيري عن الخلافة الفاطمية بمصر :

سادت العلاقات الودية بين الدولة الفاطمية في مصر والدولة الصنهاجية في إفريقية في إمارة أبي الفتوح يوسف باديس بن زيري . ولما توفي ، وخلفه ابنه أبو الفتح المنصور أيدى ميلا صريحا إلى الانفصال الروحي والسياسي عن الخلافة الفاطمية ، وعبر عن ذلك بقوله لشيوخ القيروان ووجوه الناس ممن قدموا إليه لتهنئته بالإمارة : « إن أبي وجدي أخذا الناس بالسيف قهرا ، وأنا لا آخذهم إلا بالإحسان ، وما أنا في هذا الملك من يولى بكتاب ويعزل بكتاب ، لأني ورثته عن آبائي وأجدادي ، وورثوه عن آبائهم وأجدادهم حتى » (١) . فالمنصور يستنكر بهذا القول أن يتولى الإمارة بكتاب ، ويعزل بكتاب ، ويرى أن بلاد إفريقية والمغرب ملك ورثه عن آبائه وأجداده ، وفي ذلك تلميح بحسده للعزيز بالله الفاطمي .

ولا شك أن العزيز بالله قد غضب لهذا القول ، وأحس بما يحتمل في نفس المنصور من نوايا الانفصال ، فعمل على إزعاجه وتأليب قبائل الشرق عليه ، فأرسل داعيا له في سنة ٣٧٦ هـ اسمه أبو الفهم الخراساني إلى قبائل كتامة ليدعوهم إلى طاعته ، ويبدو أن العزيز بالله ، كان يهدف من وراء ذلك إثارة قبائل كتامة على ولاة إفريقية ، إضعافا لنفوذهم في البلاد.

---

(١) ابن عذاري ـ جـ ١ ص ٢٤٣ ـ ابن الأثير ـ جـ ٧ ص ١٢٩

فلما ظهر أبو القهم الداعي في قبائل كتامة ، التفت حوله ، وألف منهم أبو القهم جيشا جرارا زوده بالسلاح . وبلغ من نفوذ أبي القهم في كتامة أنه ضرب النقود وضرب السكة (١) . فكتب المنصور إلى العزيز بالله يبلغه بأمر أبي القهم ، فأرسل إليه العزيز بالله رسولين ينهيانه عن التعرض له وعمارية كتامة ، فغضب المنصور لذلك ، وأغلظ القول لهما والعزيز أيضا وأغلظ له ، فصمم على محاربة كتامة ، فزحف بجيوشه في سنة ٣٠٨ هـ إلى بلاد كتامة ، فخرب ميلة ، وهدم سورها ، ودمر كل ما قابله من حصون كتامة وقصورها حتى بلغ سطيف مركز أبي القهم ، ثم اشتبك مع الكتاميين في موقعة انتهت بانتصاره عليهم ، وهرب الثائر أبو القهم إلى جبل وعر (٢) ، فقبض عليه أحد أتباع المنصور ، وأمر به فلطم لطما شديدا ، ونتفت لحيته حتى أثرت على الموت ، ثم أخذه بعض رجاله ، وخنره وشق بطنه ، وقتل معه وإلى ميلة وجماعة من رؤساء كتامة (٣) . فلما رأى العزيز بالله فشل خطته ، آثر أن يصطنع سياسة الملاطفة ، فأرسل في سنة ٣٢٤ هـ هدية جليلة إلى المنصور من جنها قبل كبير (٤) ، وبعضها في أيام الحاكم هدية أخرى بعثها إلى المنصور في سنة ٣٢٨ هـ وتشتمل على جوهر وأعلاق نفيسة (٥) .

ب - الدور الثاني من اتصال بني زيري عن الخلافة الفاطمية بمصر :

ظلت العلاقات الودية بين مصر والمغرب الأدنى سائدة في عصر تصير

---

(١) المرجع السابق ، ص ٢١٥ .

(٢) ابن الأثير ، جـ ٢ ص ١٢٣ .

(٣) ابن عذارى ، جـ ١ ص ٢٤٦ .

(٤) نفس المرجع ص ٢٥٢ .

(٥) نفس المرجع ٢٥٢ .

الدولة بادیس ، ولكن هذه العلاقات كانت فى الواقع قناعا زائفا يخفى وراءه ما كان قائما بالفعل بين الحاكم وباديس من حقد وعداء ، فقد كان الحاكم يضمر فى نفسه السوء لباديس ، لاتجاهه إلى الاستقلال عن الدولة الفاطمية ، فأخذ يحيك له المؤامرات متبعا نفس الخطة التى كان يتبعها العزيز بالله من قبل ، فقد أمر الحاكم يانس العزيزى واليه على برقة بالسير إلى طرابلس والاستيلاء عليها فى سنة ٣٩٠ هـ ، ولما كانت طرابلس تابعة لباديس ، فانه لم يسكت على هذا الاعتداء السافر ، ولم يتردد فى الاشتباك مع قوات يانس فى معركة أسفرت عن هزيمة الجيش الفاطمى ومقتل يانس ، فبعث فلفل بن خزرون بذلك إلى الحاكم ، فغضب الحاكم ، وسير حملة ثانية بقيادة يحيى بن على بن حمدون الذى كان قد فر إلى مصر بعض مقتل أبيه جعفر ، ونزل على العزيز بالله فى القاهرة[1] ، فوصل يحيى إلى طرابلس فى ٩ ربيع الأول سنة ٣٩٢ ، واجتمع جيش يحيى بن على بن الأندلسى بجيش فلفل بن سعيد ، وتقدم الجيشان إلى قابس فى سنة ٣٩٣ هـ ، ولكنهما لم يلبثا أن تراجعا إلى طرابلس خوفا من الاصطدام مع جيوش باديس . ولما رأى يحيى اختلال الحال لديه ، وعجزه عن محاربة باديس اضطر إلى العودة إلى مصر[2] .

وأخيرا لجأ الحاكم بأمر الله إلى حث قبيلة زناتة على الاستيلاء على طرابلس ، ونجح فى ذلك ، وتمكنت زناتة بقيادة فلفل بن سعيد من النزول بطرابلس ، ونتج عن ذلك قيام الاضطرابات بين صنهاجة وزناتة فى هذه المنطقة .

---

(١) ابن خلدون ، ج ٤ ص ١٢٤

(٢) ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٦٨ — ابن الأثير ج ٧ ص ٢١٨

ولما نزل فلفل فى طرابلس سنة ٤٠٠ هـ ، وخلفه أخوه وروا ، زحف إليه نصير الدولة باديس فى جيش كثيف ، ونزل بظاهر طرابلس فى ٧ شعبان ، ودخلها ، ثم جاءته رسل وروا بن سعيد أخى فلفل ، تطلب منه الأمان والعفو ، فأمنهم وعفا عنهم ، وعاد إلى المنصورية مظفرا (١) . وهكذا تمكن باديس من القضاء على جميع مؤامرات الحاكم ضده ، فلما عاين الحاكم ذلك ، لم يجد بدا من العودة إلى السياسة القديمة وهى سياسة التودد ، فأخذ يعمل على التماس مودة باديس ، ويذكر ابن عذارى ، أنه وصل إلى المهدية فى سنة ٤٠٤ هـ مركب ، فيه هدية جليلة من الحاكم إلى نصير الدولة باديس صاحب إفريقية ، وإلى والده منصور عزيز الدولة ، فتلقاها المنصور مع أهل القيروان على قصر الماء بالبنود والطبول ، ووصلت سجلات منه إلى نصير الدولة باضافة برقة وأعمالها إليه » (٢). وفى العام التالى ، أرسل الحاكم سجلا إلى نصير الدولة يذكر فيه أنه جعل ولاية العهد فى حياته ( أى فى حياة الحاكم ) إلى ابن عمه عبد الرحيم بن إلياس بدلا من ابنه أبى الحسن على الذى لقب فيه بعد بالظاهر لاعزاز دين الله ، وقد غضب باديس على هذا الاجراء ، إذ رأى فيه خروجا على المذهب الاسماعيلى وقال « لولا أن الإمام لا يعترض على تدبير لكاتبته ألا يصرف هذا الأمر من ولده إلى ابن عمه »(٣). وساءت العلاقات الطيبة بين الحاكم وباديس بعد ذلك ، فقد رد باديس على هدية الحاكم له بهدية أخرى أرسلها إليه فى سنة ٤٠٥ هـ ، وكانت تضم مائة

---

(١) نفس المرجع ، ص ٢٧٢

(٢) نفس المرجع ص ٢٧٣ ، ٢٧٤

(٣) ابن عذارى ، ص ٢٧٥

فرس أبا سروج حلاة ، شدت فى ثمانية عشر حـــلا أقلاما ، وكان فيها ثمانية عشر حلا من الخز والسمور والثلج السوسى المذهب النفيس ، وعشرون وصيفة ، وعشرة من الصقالبة . كما وجهت السيدة أم ملال أخت باديس إلى السيدة أخت الحاكم هدية أخرى . ولكن هذه الهدية لم تصل إلى الحاكم وأخته ، إذ استولى عليها العرب فى برقة (١) .

ج ـ الدور الثالث من انفصال بنى زيرى عن الخلافة الفاطمية بمصر :

يعتبر هـذا الدور أهم الأدوار التى مرت بها حركة انفصال المغرب عن الخلافة الفاطمية بمصر ، ويبدأ منذ أن تولى المعز بن باديس إمارة إفريقية . ويذكر ابن الأثير أن المعز بن باديس كان ماشيا فى القيروان والناس يسلمون عليه ويدعون له ، فاجتاز بجماعة كانت هناك ، فقيل له هؤلاء رافضة يسبون أبا بكر وعمر ، فقال المعز : « رضى الله عن أبى بكر وعمر » ، فانصرفت العامة من فورها إلى درب المقلى بالقيروان ، وهو موضع يجتمع فيه الشيعة من كان يسكن فيه منهم (٢) . وذكر ابن عذارى أن المعز بن باديس عطف على وزيره أبى الحسن بن أبى الرجال ، وكان ورعا زاهدا ، فعلمه وأدبه ، ورده على مذهب مالك وعلى السنة والجماعة ، والشيعة لا يطلقون ذلك ولا أهل القيروان ، فخرج المعز فى بعض الأعياد إلى المصلى فى زيته وحشوده وهو غلام ، فكبا به فرسه ، فاستغاث بالشيخين أبى بكر وعمر ، فسمعته العامة فثاروا بالرافضة ووضعوا السيف فى الشيعة وقتل منهم ما يقيف على الثلاثة

---

(١) المرجع السابق ، ص ٣٢٠

(٢) ابن الأثير ، جـ ٧ ص ٢٩٠

آلافه » (١) . وبتعبير ابن خلدون أنه قتل دعاة الرافضة يومئذ فى سائر بلاد إفريقية (٢) .

ولم يكتف المعز باضطهاد الشيعة فى البلاد إلى درجة أن طائفة منهم يبلغ عددها نحو ٢٠٠٠ فارس خرجوا بأولادهم فى سنة ٩٠٩هـ إلى المهدية للركوب منها إلى صقلية (٣) ، بل إنه أخذ يحمل الناس على اعتناق المذهب المالكى ونبذ المذهب الاسماعيلى ، وكان يخف من وراء ذلك إلى الانفصال المذهبى والسياسى بطبيعة الحال عن مصر . وذكر المؤرخون أن المعز اضطهد الشيعة فى إفريقية ، وقتل منهم عدداً عظيماً ، وسميت هذه الحركة بحركة التطهير ، وفى ذلك يقول القاسم بن مروان الشاعر .

وسوف يقتلون بكل أرض
كما قتلوا بأرض القيروان

وقال أحد الشعراء :

يامعز الدولة عش فى رفعة
وسرور وانغباط وجذل
أنت أرضيت النبى المصطفى
وعنيت فى الملاحين الغزل
وجعلت القتل فرض سنة
بأقاصى الأرض فى كل الدول

---

(١) ابن عذارى ، ص ٢٩٨ — ابن خلدون ، ج ٦ ص ٢٩

(٢) ابن خلدون ، ج ٦ ص ٢٢٠

(٣) ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٨٨

ومع كل ما قام به المعز بن باديس للقضاء على الشيعة ، فان الخليفة الفاطمي الحاكم أغضى عن ذلك ، ولم يحاول أن يستثيره أكثر مما فعل ، بل نراه يحرص على استرضاء المعز ففي أواخر سنة ٤٠٠ هـ أي بعد مضي شهور على مذبحة الشيعة ، وصل إلى المعز بن باديس سجل من الحاكم خاطبه فيه بشرف الدولة [1] ، وفي سنة ٤١١ هـ ، ورد على المعز أبو القاسم بن الفريد رسولا من الحاكم إليه ومعه من الهدايا سيف محلى بنفيس الجوهر ، وخلعة من لباسه لم ير مثلها ، كما قدم إلى المعز محمد بن عبد العزيز بن أبي كدية ومعه سجل من الحاكم وعمة عشر علما منسوجة بالذهب [2] . وفي سنة ٤١٤ هـ قدم هذا الرسول من قبل الظاهر لإعزاز دين الله الفاطمي بتشريف عظيم لشرف الدولة المعز ابن باديس ، وزاده لقبا إلى لقبه ، فسماه شرف الدولة وعضدها ، وبعث إليه بثلاثة أفراس من خيل ركوبه مزودة بسروج نفيسة ، كما بعث إليه أيضا خلعة من نفيس ثيابه ومنجوقين منسوجين بالذهب على قصب فضة لم يدخل إفريقية مثلها قط ، وعشرين بدنا مذهبة ومفضضة [3] .

كل ذلك يعبر عن رغبة الحاكم بأمر الله وابنه الظاهر لإعزاز دين الله في تحسين العلاقات بين مصر وإفريقية بعد أن توترت على أثر أعمال العنف التي قامت في برقة وطرابلس بين جيوش مصر وإفريقية .

د ـ الدور الأخير من انفصال بني زيري عن الخلافة الفاطمية بمصر :

ذكر ابن عذاري أن المعز أظهر في سنة ٤٣٣ الدولة العباسية ، وورد

---

(١) ابن عذاري ، ج ١ ص ٢٨٨

(٢) نفس المرجع ، ص ٢٨٩

(٣) نفس المرجع ، ص ٢٩٢

عليه عهد الخليفة القائم بأمر الله العباسي (١) . وأتبع هذه الحركة بقطع الخطبة للخليفة المستنصر وبحرق بنود الخضراء والدعوة على منابر إفريقية للعباس بن عبد المطلب (٢). ويختلف المؤرخون في تحديد تاريخ انفصال المعز بن باديس نهائيا عن الدولة الفاطمية ، فابن عذارى وابن الأثير وابن خلدون يحددون له عام ٤٤٠ هـ (٣) ، وابن تغرى بردى والمقريزى بحملانه في سنة ٤٤٣ هـ (٤) . ويرجح الدكتور مختار العبادى حدوث الانفصال في سنة ٤٤٢ هـ استنادا على ما ذكره المقريزى في ألفاظ الحنفا ، وعلى أن وزارة اليازورى ـ الذى كان خلافه مع المعز بن باديس سببا مباشرا في هذا الانفصال ـ تبدأ في عام ٤٤٢ هـ (٥) . ولكننا نرجح سنة ٤٤٠ هـ تاريخا لهذا الانفصال ، فإن وزير المستنصر الفاطمى قبل اليازورى وهو أبو القاسم على ابن أحمد الجرجرائى المتوفى سنة ٤٣٦ هـ (٦) كان قد بلغه ما أظهره المعز ابن باديس في سنة ٤٣٣ من التودد للخليفة العباسى القائم بأمر الله ، وما كان يقوم به المعز من اضطهاد الشيعة الإسماعيلية والدعوة للمذهب المالكى ، فخاطب المعز محذرا وهو يراجعه بالتعريض بخلفائه والقدح فيهم ، حتى

---

(١) المرجع السابق ، ص ٣٩٧

(٢) نفس المرجع ، ص ٣٩٦

(٣) ابن عذارى ، ص ٣٩٦ ـ ابن الأثير ، جـ ٩ ص ٥٥ ـ ابن خلدون ، جـ ٦ ص ٣٢٥

(٤) ابن تغرى بردى ، جـ ٥ ص ٥٩ ـ المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، نشر الدكتور مختار العبادى عن النسخة الفوتوغرافية بمكتبة سراى أحمد الثالث بإستانبول ، مذيلة بكتاب : سياسة الفاطميين ص ٢٢٤

(٥) مختار العبادى ، سياسة الفاطميين ، ص ٢١٨ ، حاشية رقم ٢

(٦) ابن عذارى ، جـ ١ ص ٢٩٨

أظلم الجو بينه وبينهم (١)». وأعتقد أن العلاقات ساءت الفترة بعد ذلك بين مصر وإفريقية، ومع ذلك فقد كان الخليفة المستنصر «رغم غضبه من سياسة المعز بن باديس» لا يرغب في أن تتم القطيعة على يديه، ثم إنه كان يأمل في أن تتحسن العلاقات بينه وبين المعز، هذا بالإضافة إلى أنه كان مشغولا ومقتنعا بالأحداث الجارية في الشام، وقيام العرب في هذه البلاد بالحركات الانفصالية عن الدولة الفاطمية، فقد تملك حسان بن مفرج فلسطين، واستولى معز الدولة صالح الكلابي على حلب (٢). وكان الموقف السياسي يستلزم أن يقوم بتطليف الجو بينه وبين المعز بن باديس، على نحو ما كان يفعل آباؤه من قبل وعلى الأخص الحاكم بأمر الله، ولكنه لم يفعل شيئا من ذلك، ولم يحاول أن يهادي المعز أو يتودد إليه، فازدادت هوة الخلاف عمقا، وتوترت العلاقات توترا أدى في النهاية إلى القطيعة والانفصال في سنة ٤٤٠ هـ. فلقد كان المعز بن باديس ينتظر فرصة مواتية لإعلان انفصاله عن الخلافة، وكان يطالع رغبة أهل القيروان الملحة في قطع الدعوة للخليفة الفاطمي، وكان هو نفسه يميل إلى المذهب السني كما رأينا من قبل، ولكنه لم يرض أن ينكث بعهود آبائه للفاطميين، وإنما كان يتوقع أن يقوم المستنصر بترضيته، ولما لم يفعل اعتبر هذا استخفافا منه بأمره، واحتقارا لشأنه، وعز عليه أن يعامل بمثل هذه المعاملة مع ما لديه من الإمكانات الكثيرة التي تهيء له الانفصال عن الدولة الفاطمية نهائيا، ووجد في سكوت

---

(١) ابن خلدون جـ ٦ ص ٣٢٥

(٢) ابن القلانسي «ذيل تاريخ دمشق» ط بيروت ١٩٠٨، ص ٧٢ وما يليها — ابن خلدون، جـ ٤ ص ١٣٠ — جمال سرور، النفوذ الفاطمي في بلاد الشام والعراق، في القرنين الرابع والخامس بعد الهجرة، ١٩٥٩ ص ٤٦ وما يليها

المستنصر عن مخاطبته تربة لقطع الدعوة له ، وهو السلاح الذي كان يشهره دائما هو وآباؤه في وجوه خلفاء الفاطميين في مصر منذ المرحلة الأولى التي تحدثنا عنها . ويذكر ابن خلدون أن المستنصر لما بلغه ماقام به المعز بن باديس من قطع الخطبة له والدعوة لخليفة القائم العباسي ، كتب إلى المعز يتهدده (١) . ويذكر ابن خلكان أن المستنصر كتب إلى المعز يتهدده بقوله : « هلا اقتفيت آثار آبائك في الطاعة والولاء » ، فرد عليه المعز بكتاب حتى أسرته في الاستقلال ، فقال : « إن آبائي وأجدادي كانوا ملوك المغرب قبل أن تملكه أسلافك ، وكم عليهم من الخلع أعظم من القديمة ولو أخروهم لتقدموا بأسيافهم » (٢) . وأمام تهديد المستنصر بالله فقد كان من الطبيعي أن يحداه المعز بن باديس ، فيأمر في نفس هذا العام بلعن الفاطميين في الخطب (٣) ، ويأمر في العام التالي بسبك عاليه من الدنانير والدراهم والقطع التي تحمل أسماء بني عبيد الله ، وإزالة أسمائهم من الرايات والطراز (٤) . ومع ذلك كله ، فلم يكن المعز قد شرع بعد في تغيير لون أعلام الفاطميين ، فظل محافظا على الشكليات . فلما تولى اليازوري الوزارة الفاطمية في سنة ٤٤٤ هـ ، اشتد الخلاف بينه وبين المعز بسبب إتزان المعز من قدر اليازوري ، إذ كان يخاطبه دون ما كان يخاطب به من سبقه من الوزراء (٥) ، ولكن هذه الخصومة الشديدة أثرت في قيام المعز بإعلان

---

(١) ابن خلدون جـ ٤ ص ١٣١

(٢) ابن خلكان ، وفيات الأعيان جـ ٤ ص ٣٢١ — سعد زغلول ، تاريخ خاص ص ٢٥٩

(٣) ابن عذارى ، جـ ١ ص ٢٠٦

(٤) نفس المرجع ص ٢٠٣

(٥) ابن خلدون جـ ٤ ص ١٣١ — المقريزي ، اتعاظ الحنفا ، تحقيق جمال الدين الشيال ، ص ٢٢١ ، ٢٢٢

انفصاله الروحي والسياسي نهائيا من الخلافة الفاطمية ، وكان قد قطع في السنين الثلاث السابقة خطوطا كبيرا في ذلك حتى لم يبق إلا شكليات يسيرة ، فأرسل رسولا إلى بغداد ليستحضر الخلع واللواء السوداء(١) ، واستجاب الخليفة العباسي لرغبته ، فأرسل إليه أبا غالب الشيرازي رسولا من قبله ومعه العهد واللواء الأسود ، فاتفق أنه مر ببلاد الروم ، فقبض عليه الإمبراطور البيزنطي ، وأرسله هو واللواء والعهد والهدية إلى القاهرة ، فأمر المستنصر بإحراق العهد واللواء والهدية في حفرة بين القصرين (٢) . فاستغاض المعز ابن باديس عن اللواء العباسي بلواء بيضاء أمر بإخراجها من خزائن الكتان بالقيروان ، وصبغها باللون الأسود الحالك ، وجمع الخياطين وأمرهم بخياطتها ألوية ، ثم جمع الفقهاء ، والقضـــاة إلى قصره ، وخطيبي القيروان وجميع المؤذنين ، وكـلهم ذلك السواد ، وانصرفوا جميعا إلى الجامع ، وركب المعز وراءهم حتى وصل إلى جامع القيروان ، وتم صعد الخطيبُ ، وخطب خطبة أنى فيها على جميع الأمراء بأجزل لفظ وأحسن معنى ، ثم دعا لأبي جعفر عبد الله القائم بأمر الله العباسي ، ودعا للسلطان المعز بن باديس ولولده أبي الطاهر تميم ولي عهده من بعده ، ثم أخزى بني عبيد ولعنهم » (٣) . وبذلك انشق المغرب الأدنى نهائيا عن الخلافة الفاطمية .

ونستخلص مما سبق عرضه أن هذا الانفصال تم على مراحل مختلفة ، وقد ساعد على حدوثه سياسة الخلفاء الفاطميين العدوانية تجاه أمراء بني

---

(١) اتعاظ الحنفاء ص ٢٢٢

(٢) نفس المرجع ص ٢٢٣

(٣) ابن عذارى ، ج ١ ص ٢١٥

زيرى ، وإثارتهم المنافسة بين صنهاجة وزناتة ، ثم تدخل الوزراء منذ خلافة المستنصر بالله فى هذا الخلاف ، وسوء تصرفهم فى معاملة المعز بن باديس ، وأخيرا إسراف الخلفاء الفاطميين فى الاستخفاف بالدين وسب الصحابة ، وادعاء الحاكم الألوهية ودعوته الناس إلى عبادته . وأحدث خروج المغرب من الفاطميين صدى عميقا فى طرابلس ، فافتدى الناس بالمعز بن باديس وقام الفقيه أبو الحسن بن المتصر بتحريض العامة على الشيعة ، واشترك معهم فى قتلهم ، ثم قطع من الأذان عبارة « حى على خير العمل » ، وأذن أذان أهل السنة بنفسه (١) .

كذلك حذا أهل برقة حذو المعز بن باديس ، ففى سنة ٤٤٣ هـ نفسها كتب الأمير جبارة بن مختار العربى من برقة إلى المعز بن باديس يبايعه بالطاعة ، ويخبره بأنه وأهل برقة قد أحرقوا المنابر التى كان يدعى عليها للعبيدية ، وأحرقوا رايتهم ، وتبرأوا منهم ، ولعنوهم على منابرهم ، ودعوا للقائم بأمر الله العباسى (٢) .

ونلاحظ أن المعز بن باديس تأخر عن حماد بن بلكين فى الانفصال عن الدولة الفاطمية ، فان ابن خلدون يذكر أنه « خالف دعوة باديس ، وقتل الرافضة ، وأظهر السنة ، ورضى عن الشيخين ، ونبذ طاعة العبيديين جملة ، وراجع دعوة آل العباس ، وذلك سنة خمس وأربعمائة » (٣) .

---

(١) سعد زغلول ، فترة ما بين ٤٠٠ عن القيروان الرضا ، طبعة تونس ١٩٢٧

(٢) ابن عذارى جـ ١ ص ٢٩٦ .

(٣) ابن خلدون جـ ٦ ص ٢٥١

ويعلق الدكتور سعد زغلول عبد الحميد على انفصال المغرب عن الدولة الفاطمية بقوله : « عندئذ تحطم كل أمل فى إيجاد تسوية مناسبة ، فقد مضى الزمن الذى كان يوحى فيه المعز بقتل الشيعة ويرسل بهـــداياه وآيات خضوعه إلى القاهرة ، فيزد الحاكم بسجلات التشريف ، ولا يذكر ما كان من تابعه إلى الشيعة من القتل والاحراق » (١) .

---

(١) سعد زغلول : فترة خاصة ، ص ٢٥٥

(٢)

انتقام المستنصر بالله الفاطمى : غزو عرب الهلالية وبنى سليم لبلاد المغرب

١ ـ دخول قبائل بنى هلال وبنى سليم فى أرض المغرب :

أصل قبائل بنى هلال وبنى سليم من مضر ، وكانوا مازالوا متبدين منذ قيام الدولة العباسية ، ثم نجعوا إلى الحجاز ، فنزل بنو سليم بما يلى المدينة ، ونزل بنو هلال فى جبل غزوان عند الطائف (١) . وكانوا يطرقون العراق والشام فى وحقة الشتاء والصيف ، فيغيرون على أطراف البلاد ، ويفسدون العمران ، وكان بنو سليم يغيرون على الحجاج أيام الحج بمكة وزيارة المدينة ، ولم تستطع الخلافة العباسية أن تضع حداً لغاراتهم . فلما ظهر القرامطة ، انضم إليهم بنو سليم فى جملة من انضم من بنى ربيعة بن عامر ، ودخلوا فى جيوشهم فى البحرين وعمان ، وقدموا معهم إلى الشام ، فلما تغلب المعز لدين الله الفاطمى ، والعزيز بالله على القرامطة ، انسحب هؤلاء إلى البحرين ، ونقل العزيز بالله حلفاءهم من عرب بنى هلال وبنى سليم إلى مصر ، وأنزلهم فى البحيرة الشرقية من النيل ، فاستقروا هناك ، ولكنهم كانوا عنصراً هدماً فى البلاد ، فعاثوا فى الصعيد فساداً . وكانت قبائل بنى هلال تضم أحياء من جشم والأثبج وزغبة ورياح وربيعة وعدى . وكانت هذه القبائل فى عصر المستنصر بالله فى حرب مستمرة فيما بينها ، وقد عم ضررهم ، واحرق البلاد والدولة شرهم » (٢) . فأشار الوزير أبو محمد الحسن بن على

---

(١) القزيرى ، اتعاظ الحنفا ، الرسم السابق ص ٢٢٤ ـ ابن خلدون ، جـ ٦ ص ٢٢

(٢) ابن خلدون ، جـ ٦ ص ٣٠

اليازوري على المستنصر باصطناعهم ، واستخدام مشايخهم ، وتوليتهم أعمالا إفريقية ، ودفعهم إلى محاربة الصنهاجيين ، فإذا ما انتصروا عليهم أصبحوا أعوانا للدولة وعمالا جلت البلاد ، وأمر عرب البادية أهون من صنهاجة الملوك ، وإذا هزموا فانه بذلك يتخلص من عنصر مدمر في مصر ، دون أن يتكلف أي مشقة في محاربتهم أو محاربة الصنهاجيين . واقتنع الخليفة المستنصر بالله بوجاهة هذا الرأي ، وكان يتحرق شوقا إلى الانتقام من بني زيري المارقين . فأحضر الوزير ، مكين الدولة أبا علي الحسن بن علي بن ملهم بن دينار العقيلي أمير أمراء الدولة ، وكان معروفا بكياسته ، وحسن رأيه ، وسيره إلى زغبة ورياح من بطون هلال بخلع سنية ، وإنعام كثيرة وأمره أن يصلح ما بينها ، ويتولى دفع ما عليها من ديات[1]. فلما تم له ذلك ، وصل عامتهم بعير ودينار لكل فرد منهم ، وأباح لهم إجازة النيل ، وكان لا يسمح لهم بذلك ، فجاز منهم عدد كبير دون أن يوصيهم بشيء ، ولعله أنهم لا يحتاجون لوصية » (٢) . وذكر ابن خلدون أن اليازوري قال لهم : « وقد أعطيتكم المغرب وملك المعز بن باديس الصنهاجي ، العبد الآبق ، فلا تقصروا » ، ثم كتب إلى المعز : « أما بعد فقد أرسلنا إليكم خيولا وحملنا عليها رجالا فحولا ، ليقضي الله أمرا كان مفعولا » (٣) . وسارت هذه القبائل إلى برقة فوجدوها خالية ، إذ كان المعز قد أباد معظم سكانها من زناتة ، فنزل العرب برقة ، واحتقر المعز شأنهم ، واستكثر من شراء العبيد حتى كون

---

(١) المقريزي ، اتعاظ الحنفا ، نسخة ص ٢٢٣ .

(٢) ابن عذاري ، ج ١ ص ٢٩٤ .

(٣) ابن خلدون ، ج ٤ ص ١٣٦ ، ج ٦ ص ٣١ .

منهم فرقة يبلغ عددها ٣٠ ألفا (١) .

وفي أثناء ذلك كتب العرب النازلون ببرقة إلى إخوانهم بشرق النيل يرغبونهم في البلاد ، فأجازوا إليهم ، واستقر بنو سليم ببرقة ، وخربوا المدينة الحمراء وأجدابية وأصبرا وسرت أما هلال فسار جميع بطونها إلى إفريقية « كالجراد المنتشر لا يمرون على شيء إلا أتوا عليه » (٢) ، فوصلوا إليها في سنة ٤٤٣ هـ ، وكان أول من وصل من بني هلال مؤنس بن يحيى الرياحي أمير رياح ، فقدم على المعز ، وكان المعز قد سلم صنهاجة ، فأراد أن يستبدلهم بعنصر آخر ، فاستلطف مؤنسا ، وكان سيدا في قومه ، شجاعا عاقلا ، فاستدناه المعز إليه ، وزوجه من إحدى بناته ، وفاوضه في استدعاء عرب بني هلال من إطرابلس وحدود إفريقية ليستعين بهم على بني عمه (٣) ، فنصحه مؤنس بعدم التفكير في ذلك ، وعرفه بقلة اجتماعهم على الكلمة ، وعدم انقيادهم إلى الطاعة ، ولكنه ألح عليه إلحاحا متواصلا ، وعلل امتناعه من استقدامهم إلى إفريقية بحسده لقومه ، فلم يسع مؤنس أمام هذا الإلحاح إلا أن يذعن .

ب ـ هزيمة جيوش المعز على أيدي العرب :

ما كاد عرب بني هلال يصلون إلى نواحي إفريقية حتى عاثوا فيها فسادا ، فعظم الأمر على المعز ، وظن أن مؤنسا إنما دفعهم إلى ذلك ، فأمر بالقبض على أخي مؤنس وبقتل أولاده ، وختم على داره بالقيروان ،

---

(١) المرجع السابق ، جـ ٤ ص ١٣٩

(٢) نفس المرجع جـ ٦ ص ٢١

(٣) ابن عذارى ، جـ ١ ص ٢١٢ ـ ابن خلدون ، جـ ٦ ص ٢٢

وبعث يستنجد بابني عمه بقلعة حماد ، فبعث إليه القائد بن حماد كتيبة من ألف فارس ، واستنفر المعز قبيلة زناتة ، فقدم إليه المستنصر بن خزرون المغراوي في ألف فارس من زناتة (١) ، وعزم المعز على المبادرة بمحاربة العرب قبل أن يستفحل خطرهم ، فخرج بجيوشه من صنهاجة وزناتة والبربر والعبيد وبقايا عرب الفتح ، فبلغ عدد جيوشه ثلاثين ألفا (٢) ، واشتبك مع عرب بني هلال من رياح وزغبة وعدي بالقرب من حيدران من جهة قابس في ذي الحجة سنة ٤٤٣ هـ ، ولكن العرب البادين الذين كانوا في جيش المعز آثروا الانضمام إلى إخوانهم في الجنس ، فانحازوا إلى صفوف الهلالية ، أما زناتة وصنهاجة فقد خذلوه وفروا ، فانهزم المعز هزيمة نكراء ، وصمد أمام العرب إلى أن وصلت رماحهم إليه ، وقتل من عبيده عدد كبير ، ففر بنفسه وخاصته إلى القيروان ، وانقض عرب الهلالية على مضارب المعز وخيامه ، فانتهبوها ، وكان فيها من الذهب والفضة والأمتعة والأثاث والكراع أعداد هائلة ، وكان فيها من الأخبية ما يجاوز عشرة آلاف ، ومن الجمال نحو ألفين

---

(١) ابن خلدون ، جـ ٦ ص ٣٢

(٢) ذكر ابن عذارى نقلا عن ابن شرف أن عسكر المعز كان يتألف من ثمانين ألف فارس ، ونحو ذلك من المشاة ، وكان عدد فرسان عرب فلالية ثلاثين ألفا ، وعدد مشاتهم نحو ذلك (ابن عذارى ، جـ ١ ص ٢٧٠) ، والغالب الظن أن عدة جيش المعز لم تكن تتجاوز ثلاثين ألف مقاتل استنادا الى قول علي بن رزق الرياحي يصف هزيمة المعز :

لقد زار وهنا من أميم خيال ... وأبدى العطايا بالرميل صيال
وان ابن باديس لأهدى لما لك ... لسرى ولكن ما لديه رجال
ثلاثون ألفاً جنهم هزمتهم ... ثمانية آلاف وذاك خلال

( ابن خلدون جـ ٦ ص ٣٢ )

ومن قبائل مالا يحصى [١] . وقتل من الصنهاجيين وأتباع المعز على ماذكره ابن خلدون ثلاثة آلاف وثلاثمائة مقاتل [٢] . وفر معظم فلول جيش المعز فى جبل جيدران ، ثم توافدت على القيروان طلائع المنهزمين ، وفى مقدمتهم ابن الهوتب ، ووصل العرب إلى نواحى القيروان وبثوا خيولهم إلى ضواحى المدينة وقراهـــا ، يفسدون مزارعها ويدمرون عمرانها ، وفر سكان هذه المناطق إلى القيروان. فأمر المعز بأن ينتقل أهل صبرة وسوقها إلى القيروان، وأن ينقل جيـش عسكره من الصنهاجيين إلى صبرة ويـنزلوا فى أبنيتهـا وأسواقها ، ولما دخل العيد وعسكر صنهاجة صبرة ، أعادوا استخدام مبانيها ، فخربت عمائرها العظيمة [٣] ، وأقبلت جيوش العرب إلى القيروان فحاصرتها ، وخرج بعض الأهالى من القيروان بقصد محاربة العرب خارج باب تونس ، فحمل عليهم فرسان العرب ، وتمكنت منهم سيوفهم ورماحهم، فصمدوهم حصدا ، وأبادوهم [٤] .

وأقام العرب يحاصرون القيروان وينهبون البلاد حتى آنوا على عمران إفريقية ، وأدار المعز على القيروان سورا داخليا سنة ٤٤٦هـ [٥] . وكان عرب بنى هلال ، قد استولوا على باجة وقابس وقسنطينة وتونس وبونة، فلما رأى المعز ضياع ملكه ، صاهر بناته ثلاثة من أمراء العرب هم فارس بن

---

(١) ابن عذارى ، ج ١ ص ٢١٩

(٢) ابن خلدون ، ج ٦ ص ٢٣

(٣) ابن عذارى ص ٢٢٢

(٤) نفس المرجع ، ص ٢٢٢

(٥) ابن خلدون ، ج ٤ ص ١٢٢

أبي الليث ، وأخذ عائذاً ، والفضل بن أبي علي الرداسي (١) ، وفي سنة ٤٤٨ بعث ابنه تميم إلى المهدية ، وفي شهر رمضان من العام التالي ركب المعز مع مؤنس بن يحيى أمير رباح إلى المهدية ونزلها ، ودخل العرب القيروان فاستباحوها ، وخربوا عمرانها ومبانيها ، وعاثوا في محاسنها ، وطمسوا معالمها ، وجردوا قصورها مما كانت تحتويه من دفائن وتحف ، وشغلوا بالنهب كل من بقي فيها من أهلها ، فتفرق الناس في الأقطار (٢) .

وقضى المعز بن باديس السنوات الباقية من عمره حزيناً في المهدية ، إلى أن توفي في أوائل سنة ٤٥٤ هـ ، ودفن في رباط المنستير (٣) . وخلفه ابنه تميم ، الذي انحصر ملكه على شريط ضيق من الساحل يحيط بالمهدية ويشمل المهدية وأحوازها وسفاقس وقابس وجزيرة جربة (أنظر خريطة رقم ١٢٤) .

ج ـ نتائج غزو الهلالية للمغرب :

١ ـ نجم عن انحسار ملك الدولة الصنهاجية في إفريقية إلى الساحل ، بسبب الضغط الذي كانت تمارسه قبائل العرب على المدن الداخلية ، عناية الصناجيين بشؤون البحر ، فأسس تميم بن المعز أسطولاً ضخماً بدار الصناعة بالمهدية ، وقام هو وابنه يحيى بن تميم من بعده بالغارات البحرية المتواصلة على جزيرة صقلية وعلى السواحل الإيطالية (٤) ، وكان دخول صقلية في ملك

---

(١) المرجع نفسه ، ج ٦ ص ٣٤

(٢) نفس المرجع ، ج ٦ ص ٣٤

(٣) ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، القسم الثالث ، ص ٢٢

(٤) مختار العبادي ، سياسة الفاطميين ، ص ٢٢٠

النورمانديين قد دفع كثيرا من رجال البحر المسلمين إلى الهجرة منها إلى المهدية . واشتغالهم بأعمال القرصنة البحرية . وقد قام يحيى بن تميم بن المعز ( ٥٠١-٥٠٩ ) بدور كبير فى هذه الغارات ، « فقد كانت له غزوات بحرية عملها إلى بلاد الروم إلى أن طلبوا سلمه » (١) . ففى سنة ٥٠٣ هـ جرد من أسطوله خمسة عشر غرابا لغزو بلاد الروم ، فأصيب منها ستة . وعادت السفن الباقية إلى المهدية (٢) ، وفى سنة ٥٠٧ هـ ، أغار أسطول المهدية على بلاد الروم وعاد بسبى كثير فى ربيع الآخر ، وقد كان لهذه الغارات أثر كبير فى قيام النورمانديين بتوجيه ضرباتهم إلى المهدية ، وانتهى الأمر باستيلائهم على جربة فى سنة ٥٤١ ، وسفاقس فى سنة ٥٤٨ ، وبونة والمهدية فى سنة ٥٥٣ ، وزويلة فى سنة ٥٥٦ .

٢ — نتج عن تخريب العرب للبلاد وعيثهم فيها قيام فترة من الاضطراب السياسى والاقتصادى فى إفريقية والمغرب الأوسط ، فقد خرب العرب القيروان ، وأتوا على معالم الحضارة بإفريقية من زراعة وتجارة ومنشآت ، فخربت صبرة والقيروان وتونس وطبنة والمسيلة وقلعة بنى حماد ، واكتسحت كل بلاد إفريقية من طرابلس حتى حدود المغرب الأقصى موجة عاتية من الدمار ، تركت البلاد قاعا صفصفا (٣) .

٣ — كان لغزو الهلالية للمغرب رغم مضاره ومساوئه الكثيرة فضل

---

(١) ابن الخطيب « أعمال الأعلام » القسم الثالث ص ٨٠

(٢) ابن عذارى ، ج ١ ص ٣٤٨

(٣) Marçais, la Berberie musulmane, pp. 208-214

كبير فى تعريب البلاد وتخفيف حدة اللهجات المحلية فى القرى البربرية التى لم تصل إليها بعد إشعاعات الحضارة العربية .

٤ — انقسمت بلاد المغرب إلى دول الطوائف على نحو ما حدث فى الأندلس عقب سقوط الخلافة الأموية بقرطبة فقد استولى بنو هلال على المناطق الممتدة فى الداخل من قابس إلى المغرب ، وظل بنو زيرى يحتفظون بالمهدية ومايليها ، واستقر بنو حماد فى بجاية ، واستقل حمو بن مليل البرغواطى ، الذى تحالف مع العرب من زغبة ورياح وعدى والاثبج ، فى سفاقس ، واستقل ابن خراسان بتونس سنة ٤٥٨هـ ، واستقل مومن بن يحيى بقابس ، واستقل حاكم قلعة الزيرى بها بعد أن خرج على سيده واستعان بالعرب لتوسيع نفوذه فى مقابل جزية سنوية.

## ( ٤ )

## استيلاء النورمانديين على المهدية

### ١ ـ غارات الزيريين على سواحل ايطاليا وصقلية وآثارها:

سقطت صقليـــة في أيدي النورمانديين عقب نزاع قام بين ابن الثمنة للقب بالقادر بالله صاحب طرابنش Trapani وبين صهره القائد ابن الحواس علي بن نعمة صاحب قطانية وسرقوسة ، فاستنجد ابن الثمنة بالنورمانديين المقيمين بناورية في كالابريا سنة ٤٤٤ هـ ، وسهل دخولهـــم على مسرح الاحداث بصقلية ضياع هـــذه الجزيرة ، من أيدي المسلمين . وقد تمكن روجار النورمندي من بسط سلطانه على الجزيرة تدريجيا ، واستنجد أهـل صقلية بالمعز بن باديس ضد روجار ، فجمع الأمير عـــدداً من سفنه ، وأبحر قاصدا صقلية ، ولكن عاصفة عاتية أغرقت سفنه عند قوصره ، وكانت هذه الكارثة ضربة قاضية لآماله ، فقد استطاع النورمانديون السيطرة على معظم جزيرة صقلية ، بينما تمكن عرب الهلالية من التغلب على معظم إفريقيـــة . وحاول الأمير تميم استرجاع الجزيرة ، فأرسل ولديه أيوبا وعليا إلى صقلية ، ولكن عيدهما سبا قيام فتنة في الجزيرة ، فاضطر أيوب وعلي إلى العودة إلى المغرب في سنة ٤٦١ هـ تاركين صقلية لمصيرها المحتوم[1] . وفي سنة ٤٦٤ خرج ابن الحواس بأهله وماله صلحا ، وبذلك رحل كل المسلمين[2] ، باستثناء مدينتي قصريانة وجرجنت ، اللتين حاصرهما النورمانديون حصارا شديدا ،

---

(١) ابن الاثير ، ج ٨ ص ١٥٨

Marçais, la Berberie musulmane, pp. 319-320

(٢) ابن خلدون ، ج ٤ ص ١٥٠

حتى ضاق الأمر على أهلها فأكلوا الميتة ولم يبق فيهم ما يأكلونه، واضطر أهل جرجنت إلى التسليم . أما قصريانة فظلت بعدها ثلاث سنوات ، فلما اشتد الأمر على أهلهـــا أذعنوا إلى التسليم، فتسلمها النورمانديون في سنة ٤٨٤ هـ (١) .

وقد ذكرنا من قبل كيف أرغمت الظروف خلفاء المعز بن باديس في المهدية على اصطناع سياسة بحرية ، وكيف كانوا يغيرون على السواحل الايطالية ، وعلى جزر سردانية وصقلية ، وكانت هذه الغارات البحرية نوعا من الجهاد ضد النصارى ، وكانت الاعتداءات الوحشية على بلاد النصارى قد بلغت ذروتها في عهد تميم بن المعز ، بحيث اضطرت المدن التي تعرضت لغاراته إلى الاتفاق فيما بينها على القيام بعمل مشترك لتأديبه . وشجع البابا فكتور الثالث على تكوين طائفة من رجال البحر من البيزيين والجنويين للاغارة على السواحل الافريقية ، ردا على غارات الزيريين : ففي سنة ٤٨٠ هـ قدم « أهل جنوة وبيشة » (٢) Pisa في أسطول يتألف من ٣٠٠ سفينة تحمل ٣٠ ألف مقاتل لمحاصرة المهدية ، فاستولوا على المهدية وزويلة ، وأحرقوا ديارها ، وقتلوا السكان فيها ، وجعل ابن عذاري دخولهم في ثامن للربيعين وبقية عسكر سلطانها عنها ، ومفاجأة الروم قبل استقدامه إليها ، وأخذ الأهبة لقتالهم ، وخلو كافة الناس من الأسلحة والعدد ، وقصر الأسوار وتهدمها ، وتكذيب تميم بخبرهم ، وسوء تدبير عبد الله بن منكود مخول أمور الدولة في قصده مخالفة قائد الاسطول في الخروج إليهم لقتالهم في

---

(١) ابن الأثير ، ج ٨ ص ١٠٩

(٢) ابن عذاري ، ١ ص ٣٣١ — ابن الأثير ، ج ٨ ص ١٤٢ — ابن خلدون ، ج ٦ ص ٢٢٨ — ابن الخطيب ، ص ٨٢

لقاء ومنعهم من النزول إلى البر ، فكان ذلك كله سبب تغلبهم على المدينتين المهدية وزويلة ، وتهجيم إياهما وقتلهم الناس فيهما ، وإحراقهم بالنار ما هو مشهور بالمهدية إلى الآن ، وقد استوعب ذلك أبو الحسن الحداد فى قصيدته التى أولها :

أنى يسلم الخيال أو يقف
وبين أجفانها ثوى الدنف
غزا حماتا العدو فى عدد
هم الدبى كثرة أو القطر
عشرون ألفا ونصفها انطلقوا
من كل أوب وليت ما التقوا
يجتازوا على غرة إلى نفس
قد جهلوا فى الحروب ما عرفوا »(١)

ولما تميم إلى قصر المهدى ، ثم فاوضهم فى الصلح ، واضطر إلى تقديم مائة ألف دينار إلى الغزاة نظير تنازلهم عنها ، فدفع هذا المبلغ بين ناض وأوانى ذهب وفضة ، فأفلتوا بذلك كله وبعدد عظيم من أسارى المسلمين رجالا ونساء (٢) . وأحدثت هذه الغزوة الإيطالية دويا هائلا عند المسلمين. وقد أعاد الروم الكرة مرة أخرى فى سنة ٤٩٨ هـ فقدموا فى أجفان كثيرة جربة تعرف بالشوانى ، و ٧٣ مركبا ، ويذكر ابن عذارى أنهم كانوا

---

(١) ابن عذارى ، ج ١ ص ٤٣٢

(٢) ابن خلدون ، ج ٦ ص ٣٢٨ — ابن الخطيب ، القسم الثالث من أعمال الأعلام ، ص ٢٨ — Marçais, la Berbérie musulmane, p. 231

يهدفون إلى إيجاد فرصة لدخول المدينة كالمرة السابقة ، « فقصدوا إلى باب دار الصناعة فجعلوا أسطول المدينة من الخروج إليهم ، فحال بينهم ، وخرج أسطول المدينة إليهم فهزمهم ، وقتلوا كثيرا منهم » (١).

ولكن هذه الغزوات الرومية لم تعرقل حركة الجهاد البحري الإسلامي، فقد صرف يحيى بن تميم همه « إلى غزو النصارى في الأساطيل البحرية ، فاستكثر منها ، واستبلغ في اقتنائها ، وردد البحوث إلى دار الحرب فيها حتى اتقته أمم النصرانية بالجزى من وراء البحر من بلاد الفرنجة وجنوة وسردانية » (٢) .

ب ـ سقوط المهدية في أيدي النورمانديين :

كان تميم قد عقد بينه وبين روجار الأول هدنة في سنة ٤٦٨ هـ وظلت هذه الهدنة قائمة في عهد تميم وابنه يحيى من بعده ، غير أن المنافسات التجارية بين صقلية والمهدية أدت في النهاية إلى خرق الهدنة (٣) . وحدثت بين روجار وعلي بن يحيى بن تميم جفوة شديدة كان سببها خلافا حدث بين علي ابن يحيى ورافع بن كامل بن جامع الرياحي ، بسبب رغبته في احتكار التجارة البحرية ، وقد أدى هذا الخلاف إلى خروج علي لحصار رافع في قابس سنة ٤٩٩هـ ودون بعض قبائل العرب، فاستغل رافع بروجار صاحب صقلية الذي أمد رافع بأسطول صقلي أغار به على المهدية ، فتمكن علي بن

---

(١) ابن عذاري ، ص ٤٣٤

(٢) ابن خلدون ، ج ٦ ص ٣٢٩

(٣) Marçais, la Berbérie, p. 251

يجبى من جزيرة أسطول صقلية بساحل قابس [١] ، ويبدأ منذ ذلك الحين بدعم أسطوله وتقويته استعدادا للحرب . ولما كان على يدرك تماما عدم قدرته على مواجهة روجار وحده، فقد كاتب الزابطين يراكش للاجتماع معه على الدخول إلى صقلية وكف روجار عما يعتزمه [٢] . ويذكر ابن عذارى أن روجار صاحب صقلية أرسل فى سنة ٥٢١ هـ رسولا إلى الأمير على بن يحيى يلتمس تجديد العقود وتأكيد العهود ، ويطلب أموالا كانت له مرتبة بالجزية وذلك بعنف وغلظة ، فرد على رسوله دون جواب ، وجبهه بالقول ، فتزايدت الوحشة بينه وبين روجار ، فأوسع شرا ، وحاول بعد ذلك مكرا » [٣] .

وتوفى على وخلفه ابنه الحسن آخر أمراء بنى زيرى ، وحدث فى عهده أن قام أبو عبد الله بن ميمون ، قائد أسطول على بن يوسف بن تاشفين بالإغارة سنة ٥١٦ هـ على جزيرة صقلية ، فافتتح مدينة نقوطرة Nicotera ، من عمل روجار الثانى ، وسبى نساءها وأطفالها ، وقتل شيوخها ، وسلب جميع ما وجده فيها ، فلم يشك روجار فى أن الحرك لذلك والسبب له ، وهو أمير إفريقية الحسن بن على ، لما تقدم بينه وبين أبيه من الوحشة العظيمة ، فاستقر أهل بلاد الروم غضبة ، فانتقام له عالم يجهد مثله كثرة ، فعلم بذلك الحسن بن على ، فأمر بتشييد الأسوار ، واتخاذ

---

(١) ابن الأثير ، ج ٨ ص ٢٢٩ — ابن خلدون ج ٦ ص ٢٣٠ ، ٢٤٤ — محمد المزوغى ، قابس ، القاهرة ١٩٦٢ ص ١٢٢

(٢) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٤٤ — ابن الأثير ج ٨ ص ٢٢٩

(٣) ابن عذارى ج ١ ص ١٤٣

الأسلحة ، وحشد القبائل واستقدام العرب ، فجاءت الجنود من كل جهة ومكان ، والناس حاشدون لا يطرقهم منهم » (١) .

انخذت حملة روجار طابع الحملات الصليبية ، وأبحرت الحملة من ميناء مرسالة بقيادة جرجي بن ميخائيل الأنطاكي وعبد الرحمن بن عبد العزيز ، وكان جرجي نصرانيا هاجر من الشام بعد أن تعلم العربية ، وبرع في الحساب ، فاصطنعه تميم ، فلما توفي تميم رحل جرجي إلى صقلية ، فاستخدمه روجار على قيادة أسطوله ، فلما عزم روجار على حصار المهدية ، جهز في أسطوله سنة ٥١٦ هـ المذكورة في ٢٠٠ جفن تحمل نحو ألف فارس ، ووصل هذا الاسطول في أواخر جمادي الأولى سنة ٥١٧ هـ إلى ساحل إفريقية ، فافتتح جرجي جزيرة قوصرة ، ثم قصد بأسطوله إلى ساحل المهدية ، واستولى على جزيرة الاحاسي وقصر الديماس في ٩ جمادي الآخرة ، ولكن المسلمين تمكنوا من دخول الجزيرة وهزيمة الروم إلى أجفانهم ، وحاصروا قصر الديماس ، فاضطر عسكر صقلية إلى طلب الأمان من الأمير الحسن ، ولكن العرب الذين اشتركوا معه في تحرير الجزيرة رفضوا ذلك ، فخرج الصقليون من القصر في منتصف جمادي الآخرة ، فأخذتهم السيوف ، وأيدوا عن آخرهم (٢) . وأقلع الروم بمن فر من الجزيرة منهم في السفن عائدين إلى صقلية .

أدرك روجار الثاني بعد هذه الهزيمة استحالة فتح المهدية في ذلك الوقت ،

---

(١) المرجع السابق

(٢) نفس المرجع ص ٤٤٠ ـ ابن خلدون ج ٦ ص ٣٣١

فأرجأ ذلك إلى فرصة مواتية ، وأخذ يعد العدة لحملة أخرى . ولما أغار يحيى بن عمار على المهدية سنة ٥٣٠ هـ ، وحاصرها يحيى بن العزيز بالله صاحب بجاية بقرانه براً وبحراً ، « صالح الحسن رجار ووصل يده به ، واستمد منه أسطوله » (١) ، فأمـــده رجار بمائتين وعشرين سفينة ، كما استنجد الحسن بأعراب بني هلال ، فقدموا لنجدته واضطر يحيى بن العزيز إلى رفع الحصار عن المهدية رغماً عنه ، والعودة بجيشه إلى بجاية . ومنذ ذلك الحين بدأ ملك صقلية يتطلع إلى الاستيلاء على مدن إفريقية التي خرجت على طاعة الحسن ابن علي ، فقد سير رجار أسطوله في سنة ٥٣١ هـ إلى جزيرة جربة واستولى عليها (٢) ، وفي سنة ٥٣٦ هـ ، أغار جورجي الأنطاكي على مرسى المهدية في ٢٥ قرطاجة ، واستولى على ما كان راسيا به من سفن (٣) ، وفي العام التالي ، أغار أسطول صقلية على طرابلس ، ولكن النورمان لم يتمكنوا من الاستيلاء عليها لحصانتها وشدة دفاع أهلهـــا عنها . وفي سنة ٥٣٨ هـ هاجم أسطول النورمان مدينة سفاقس واستولوا عليها ، وأصبحت سفاقس تابعة لملك صقلية ، وفي نفس هـذه السنة استولى النورمان على بونة وجيجل ، وتمكنوا من الاستيلاء كذلك على برشك في العام التالي (٤) . ثم سار أسطولهم بعد ذلك إلى سواحل إفريقية وتمكنوا من الاستيلاء على جزيرة قرقنة سنة ٥٤٠ هـ ، وقتلوا رجالها ، وسبوا حريمها . فأرسل الحسن إلى رجار يذكره بالعهود القائمة بينهما ، ويعتبه على نقض هذه العهود ، فاعتذر

---

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ٣٢١

(٢) ابن عذاري ج ١ ص ٤٥٠

(٣) نفس المرجع ص ٤٥١

(٤) ابن الأثير ، ج ٩ ص ١٠

له رجار بأنه لم يهاجم إلا البلاد التي خرجت على طاعة الحسن ، وأنه مازال حافظا للعهود (١) .

ثم أعاد النورمان الكرة على طرابلس مرة ثانية في سنة ٥٤١ هـ وحاصروها بقيادة جورجي الأنطاكي . وأتفق أن دب الخلاف بين المدافعين عن المدينة، فاستغل النورمان ذلك واستولوا عليهـــا (٢) . وفي سنة ٥٤٢ هـ ثار أهل قابس على يوسف مولى محمد بن رشيد بن كامل بن جامع ، فاستنجد يوسف برجار ، فقدم أسطول النورمان إلى مدينة قابس ، وفي الوقت نفسه تدخل الحسن بن عـــلي في النزاع القائم بين الأهالي ويوسف ، لمصلحة الأهالي ، وانتهى الأمر بمقتل يوسف . فاتخذ رجار من مقتل حليفه ذريعة لنقض المدنة بينه وبين الحسن ، ومهاجمة المهدية ، وكان قد عقد مع الحسن صلحا لمدة سنتين ، ويذكر ابن الأثير أن رجار « علم أنه فانفتح البلاد في هذه الشدة التي أصابهم ، وكانت الشـــدة دوام الغلاء في جميع المغرب من سنة سبع وثلاثين إلى هذه السنة ( ٥٤٣ ) . وكان أشد ذلك عنه سنة ٥٤٢ ، فان الناس تاركوا البلاد والقرى ، ودخل أكثرهم إلى مدينة صقلية ، وأكل الناس بعضهم بعضا ، وكثر الموت في الناس » فاغتنم رجار هـــذه السنة ، فجهز أسطوله ، وأكثر منه ، فبلغ نحو ٢٥٠ شينيا مملوءة رجالا وسلاحا وقوتا ، وسار الأسطول عن صقلية ، ووصل إلى جزيرة قوصرة ، وهي مابين المهدية وصقلية ، فصدفوا بها مركبا وصل من المهدية ، فأخذ أهله ، وأحضروا بين يدي جورجي مقدم الأسطول ، فسألهم عن حال إفريقية ،

---

(١) عن المرجع ص ١١

(٢) عن المرجع ص ١٢

ووجد في المركب قفص حمام ، فسألهم : هل أرسلوا منها ، فحلفوا بالله أنهم لم يرسلوا شيئا ، فأمر الرجل الذي كان الحمام صحبته أن يكتب بخطه إننا لما وصلنا جزيرة قوصرة ، وجدنا بها مراكب من صقلية ، فسألناهم عن الأسطول المتدول ، فذكروا أنه أقلع إلى جزائر القسطنطينية ، وأطلق الحمام ، فوصل إلى المهدية ، فسر الأمير الحسن والناس ، وأراد جرجي بذلك أن يعمل بغنة ، ووصل الأسطول النورمندي إلى المهدية في أواخر سنة ٥٤٣ هـ ، وخادع أهلها بأنه إنما جاء مددا للأمير ، ودخل النورمان المهدية بدون مقاومة ، واحتل جرجي قصر الأمير فوجده كما هو بكل ما فيه من ذخائر ، فأمن الناس ، ثم أرسل من هناك أسطولا إلى سفاقس ، فاستولى عليها وأتبعها بسوسة ، وأصبحت بلاد الساحل كلها تابعة لملك صقلية [1] .

أما الأمير الحسن بن علي فقد خرج من المهدية بحاشيته ، وتبعه أهل المدينة ، فاتجه إلى قلعة عمر بن زياد بقرطاجنة ، فلم يرحب به عمر صاحبها ، فعزم على الرحيل إلى مصر ، والإقامة في كنف الحافظ عبد المجيد [2] . فترصد له جرجي الأنطاكي في البحر ، فاضطر إلى الرحيل نحو قسنطينة ، وكان بها صهر بن العزيز أخي يحيى صاحب بجاية ، فأرسله إلى جزائر بني مزغنة حيث أقام بها إلى أن فتح الموحدون الجزائر سنة ٥٤٧ هـ فأكرمه عبد المؤمن ، واشترك معه بعد ذلك في محاربة المهدية ، فلما افتتحها في ١٠ محرم سنة ٥٥٥ هـ ، أسكن بها الحسن [3] .

---

(١) ابن الأثير ، ج ٩ ص ١٨ — ٢٠

(٢) كان يحيى بن تميم قد دخل في طاعة العبيديين ، وبعث الخلعات والهدايا (ابن خلدون ج ٦ ص ٣٢٨) . ولم تجد إليه على وصله رسول الخليفة الفاطمي من مصر بالخلعات والهدايا سنة ٥١٦ هـ ( ابن عذاري ، ص ٤٤٢ — ابن خلدون ج ٦ ص ٣٢٩ )

(٣) ابن خلدون ج ٦ ص ٣٣٣

## ( ٥ )

### انقراض دولة بني حماد

رأينا من قبل كيف انقسمت دولة الصنهاجيين في المغرب منذ عهد نصير الدولة باديس بن المنصور بن بلكين سنة ٤٠٥ هـ إلى شعبتين : شعبة من آل باديس وكان مقرهم المهدية ، وشعبة من آل حماد بن بلكين ، وكان مقرهم قلعة حماد ثم انتقلوا بعد ذلك إلى بجاية ، التي بنيت من جديد في عهد الناصر ابن علناس بن حمادسنة ٤٥٧ هـ . وقد رأينا أن المنصور بلكين كان قد عقد لأخيه حماد على أشير والمسيلة ، وكان يتداول ولايتها مع أخيه بلكوت وعمه أبي البهار ، ثم استقل بها سنة ٣٨٧ هـ في عهد باديس بن المنصور . وكان المنصور قد عهد إليه بمحاربة زناته سنة ٣٩٥ هـ ، بالمغرب الأوسط نظير ولاية أشير والمغرب الأوسط وكل بلد يفتحه ، وقد بذل حماد جهوداً موفقة في محاربة زناته ، واختط مدينة القلعة بجبل كتامة سنة ٣٩٨ هـ ، ونزل إليها جماعة من أهل المسيلة وأهل جراوة ، ومصر القلعة ، وشيد بنيانها وأسوارها ، فازدهرت في عهده وأصبحت مركز الرحلة ، وغاية طلاب العلم وأرباب الصنائع (١) ، وظل حماد يفتح الحصون والبلاد ويضمها إلى ولايته ، فافتتح تيجس وقسطينة وغيرها ، فلما طالبه باديس بالتخلي عن هاتين المدينتين ، أبى وخالف دعوة باديس ، ونبذ طاعة الفاطميين كذلك ، وزحف إلى بابة واستولى عليها ، فحاربه باديس في سنة ٤٠٦ هـ ، وظل مقيماً على محاربته إلى أن توفي . فلما تولى المعز بن باديس الإمارة ، تم الصلح بينه وبين حماد ، على أن يستقل هذا بالمغرب الأوسط .

---

(١) ابن خلدون ، جـ ٦ ص ٣٠٠

ولما توفى حماد فى سنة ٤١٩ هـ ، خلفه ابنه القائد ، وكان القائد بن حماد سديد الرأى ، حسن السيرة ، فاستقام له أمر المغرب الأوسط ، وسار القائد على نهج أبيه حماد فى الخروج على طاعة الفاطميين . وتوفى القائد فى سنة ٤٤٦ هـ ، فخلفه ابنه محسن ، ولكن محسن لم ينعم بالإمارة أكثر من تسعة شهور ثم قتل يد عمه بلكين بن محمد بن حماد ، وكان بلكين سفاكا للدماء ، فقتل وزير ابن أخيه محسن ، ثم قتل والى بسكرة لما أحس بخروجه عليه ، ثم قتل تاميرت بنت عمه علناس بن حماد . وقد حارب بلكين المرابطين ، واستولى على فاس سنة ٤٥٤ هـ ، ثم عاد إلى القلعة ، ولكنه قتل على يد الناصر بن علناس انتقاما منه لقتله أخته تاميرت [1] . وخلفه الناصر بن علناس الذى تنسب إليه مدينة الناصرية ، وهى بجاية ، وأقام الناصر بها قصرا والمخارج بجاية يعرف بقصر اللؤلؤة [2] ، وانتقل إليها فى سنة ٤٦٦ هـ واتسع ملك الناصر بن علناس اتساعا كبيرا ، فبايعه أهل القيروان سنة ٤٦٠ . ولما توفى فى سنة ٤٨١ خلفه ابنه المنصور الذى عرف بولعه بالبناء ، فأسس جامع بجاية ، وجدد قصورها ، وتأنق فى الخطاط المبانى ، وتشييد القصور ، وإجراء المياه فى الرياض والبساتين ، فبنى فى القلعة قصر الملك ، وقصر المنار ، وقصر الكوكب ، وقصر السلام وغيرها [3] . وقد حارب المرابطين ، وحاصر تلمسان ، ثم تركها صلحا . وفى أيامه قدم عز الدولة بن صمادح إلى بجاية ، بعد أن دخل المرابطون المرية ، فأقطعه تدلس بالجزائر .

ولما توفى المنصور ، سنة ٤٩٨ هـ ، خلفه ابنه باديس ، الذى لم يطل به

---

(١) الزيم السابق ، ص ٣٠٢ ـ ابن الخطيب ص ٨٨

(٢) نفس الزيم ص ٣٠٧ ـ ابن الخطيب ص ٩٦

(٣) ابن خلدون ، ج ٦ ص ٣٠٨

العهد في الإمارة ، إذ توفي في نفس السنة التي تولى فيهـــا . وخلفه أخوه العزيز ، وفي عهد العزيز هاجم العرب الهلالية قلعة بني حماد ، فاكتسحوا عمرانهـا ، وعظم عيثهم بنواحيها ، ثم تولى بعده ابنه يحيى سنة ٥١٥ هـ ، وقد قضى يحيى حياته بين العيد والملين والمضحكين ، وفي عهده انقرضت دولة بني حماد ، إذ تمكنت جيوش عبد المؤمن بن علي من دخول بجاية في سنة ٥٤٧ ، واستولوا كذلك على قلعة بني حماد .

# الباب الرابع

## المغرب الاسلامى فى ظل دولتى المرابطين والموحدين

# الفصل العاشر

## قيام دولة المرابطين فى المغرب

(١) تأسيس دولة المرابطين

ا ـ أصل المرابطين

ب ـ رباط عبد الله بن ياسين

جـ ـ انطلاق المرابطين إلى المغرب الأقصى

د ـ ظهور يوسف بن تاشفين

(٢) تأسيس مراكش وقيام دولة المرابطين

(٣) المرابطون فى الأندلس

ا ـ أحوال الأندلس عند قيام دولة المرابطين

ب ـ موقعة الزلاقة

جـ ـ تغلب يوسف بن تاشفين على الأندلس

د ـ جهاد المرابطين فى الأندلس منذ دخولها فى فلك دولتهم فى المغرب

(٤) أسباب ضعف دولة المرابطين وانهيارها

(٥) منشآت المرابطين فى المغرب

ا ـ دور المرابطين السياسى والحضرى فى المغرب

ب ـ دراسة لأهم مساجد المرابطين فى المغرب

جـ ـ جامع القرويين بفاس

د ـ آثار القلاع والأسوار

# الفصل العاشر

## قيام دولة المرابطين فى المغرب

### ( ١ )

### تأسيس دولة المرابطين

١ ـ اصل المرابطين :

أخذ المغرب الإسلامى يعتمد على نفسه منذ أن أعلن المعز بن باديس الانفصال السياسى والمذهبى عن الدولة الفاطمية . وبينما كانت إفريقية فى صراع متواصل مع عرب بنى هلال وبنى سليم من جهة ، والنورمان الغازين لسواحلها من جهة أخرى ، كانت هناك قوة جديدة أخذت تتبلور فى أقصى جنوب المغرب الأقصى ، فيما وراء جبال درن ، وما لبثت أن تولدت منها دولة المرابطين الكبرى التى ضمت النصف الغربى من بلاد المغرب ، وأنقذت الإسلام الذى كانت تتهدده المسيحية باسبانيا ، ودام عهدها نحو قرن من الزمان ، من منتصف القرن الخامس إلى منتصف القرن السادس الهجرى .

فى الوقت الذى قدمت فيه جحافل القبائل العربية من مصر تدمر فى طريقها عمران طرابلس وإفريقية ، وتقضى على معالم الحضارة فى هذه البلاد ، خرجت قبيلة لمتونة الصنهاجية من جنوب الصحراء ، واستقرت فى المغرب الأقصى حيث أسست دولة كبرى هى دولة المرابطين .

وأصل المرابطين من صنهاجة الجنوب القاطنة فى الصحراء . وقد أرغمت الظروف قبائلها : لمتونة وجدالة ومسوفة على التحالف فيما بينها ، وكانت لمتونة تتولى رئاسة سائر هذه القبائل ، ويعتقد الدكتور حسن محمود أن هذا

الحلف كان يرمى إلى مداقعة ملك غانة فى الجنوب ، والسيطرة على مسالك تجارة السودان إلى المغرب بالاستيلاء على مدينة أودغشت (١) الواقعة إلى شمال الشرق من تمبكتو شمال نهر النيجر . وآلت رئاسة قبائل صنهاجة فى أوائل القرن الخامس الهجرى إلى محمد بن تيفات اللمطى ، وكان من أهل الفضل والدين والجهاد، واستشهد فى واقعة بين قومه وبين أهل السودان (٢). ولما توفى انتقلت الرئاسة إلى قبيلة جدالة التى كانت أقدر على محاربة السودان لأن ديارها كانت أقرب إلى ديار السودان . فتولى أمر صنهاجة يحيى بن ابراهيم الجدالى ، وكان يحيى هذا منقطعا إلى علوم الدين التى حرم منها هو وقومه فى هذه البقاع الصحراوية ، فأراد أن يسعى إلى طلب العلم والوقوف على أصول الدين الاسلامى فى مدارس القيروان وفاس ، والاستزادة من العلوم الدينية ، فخرج من بلاده فى سنة ٤٢٧ هـ بعد أن استخلف عليها والده يحيى (٣) ، للحج أولا ، ثم لارتياد المراكز الثقافية فى المغرب بحثا عن فقيه يتولى توجيه قومه توجيها دينيا سليما . فلما عاد من الحج سنة ٤٢٨ هـ ، نزل بالقيروان ، وكانت القيروان فى هذه الفترة قد نبذت المذهب الشيعى، وعادت إلى السنة ، واسترجعت مكانتها القديمة كقاعدة للمالكية فى المغرب ، وأتيح ليحيى فى القيروان سماع عالم من أعظم أئمة المالكية وعلوم الدين ، هو الفقيه أبو عمران موسى بن ابراهيم الفجوى القاسى (٤) ، ويبدو أن يحيى بن

---

(١) حسن أحمد محمود ، قيام دولة المرابطين ، القاهرة ١٩٥٢ ، ص ١٠١ ـ ١٠٣

(٢) ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، القسم الثالث ص ٢٢٦ . وورد اسمه فى روض القرطاس محمد بن تيفاوت المعروف بتارشنا ، بينما ذكره ابن خلدون باسم أبى ميمانة بن تيفاوت المعروف بتاشرت اللمتونى ( ابن خلدون جـ ٦ ص ٣٢٣ )

(٣) ابن أبى زرع ، روض القرطاس ص ٢٦

(٤) ابن خلدون جـ ٦ ص ٣٢٤ ـ ابن الخطيب ، الدر السابق ، ص ٢٢٦

ابراهيم تأثر بتعاليم أبي عمران ، واجتذبه سحر بلاغته وفصاحته وتفقهه في الدين ، فطلب منه أن يبعث معه إلى قبيلته من يثق فيه من طلبته لهدايتهم وتبصيرهم ، فوجد منه قبولا واستجابة ، فوجه أبو عمران الدعوة لهذه المهمة الكبرى إلى طلبته ، ولكنهم زهدوا في قبول هذه المهمة لبعد مواطن لمتونة عن بلادهم . وكان لأبي عمران فقيه بربري من طلبته يكرس حياته لهذه الرسالة السامية ، هو وجاج بن زلو اللمطي [1] ، ويسميه ابن خلدون محمد وكنيته ابن زلو اللمطي [2] ، وكان مقيما برباط أقامه ببلدة تيس من بلاد السوس [3] ، وما إن تلقى وجاج رسالة أستاذه أبي عمران حتى انتدب ليحيى بن إبراهيم طالبا صنهاجي الأصل من جزولة ، من أهل الدين والفقه والتقوى ، يعرف باسم عبد الله بن ياسين الجزولي ، ولم يتردد ابن ياسين في قبول هذه المهمة إذ اعتبرها من صميم رسالته في الجهاد ونشر تعاليم الإسلام الصحيحة بين سكان هذه النواحي الذين حرموا من نعمة المعرفة والعلم .

ومضى يحيى بن إبراهيم ، أمير جدالة ، يصحبه عبد الله بن ياسين إلى مضارب لمتونة ، فأجيب به شيوخها ، واحتفلوا بقدومه ، وأقبلوا عليه للسماع والتحصيل ، وشرع عبد الله بن ياسين في تثقيفهم وإرشادهم إلى الأصول الصحيحة للدين والفقه ، ولم تقف تعاليمه إلى هذا الحد ، بل عمد إلى تقويم أخلاقهم ، وتطبيق حدود الشريعة ، وتغيير المنكر ، ومقاومة شهوات النفس ،

---

(١) الحلل الموشية ، ص ٩

(٢) ابن خلدون جـ ٦ ص ٢٢٤

(٣) الحلل الموشية ص ٦ ـ ابن الخطيب ، ص ٢٢٢ ، ويذكر ابن خلدون أنه كان مقيما بسجلماسة

وعندئذ زهد الناس بهذه الأحكام والحدود . وبرموا بدعوته الإصلاحية الأخلاقية التي تدعو إلى إزالة المنكرات واجتناب المحذورات (١) ، لما ألفوه من الإقبال على أعمال الغلب والنهب . ومع تبرمهم وتضررهم من هذه التعاليم ، فقد احتملوا وجوده وهبة من زعيمهم يحيى بن إبراهيم ، فلما توفي يحيى لم يستطع خليفته يحيى بن عمر أن يمنع صنهاجة من الاعتزال عن ابن ياسين ، وترك الأخذ عنه ، فعزم ابن ياسين على الرحيل .

ب ـ رباط عبد الله بن ياسين :

خرج عبد الله بن ياسين قاصدا بلاد السودان حيث يمكنه أن يؤدي رسالته بين أقوام أقل ضراوة من الملثمين الصنهاجة (٢) . وأبى رئيس صنهاجة إلا أن يرافقه ، ورحل معهما أبو بكر بن عمر ، شقيق يحيى بن عمر . فنبذوا عن الناس في ربوة يحيط بها الماء من جهاتها ، فدخلوا في غياضها منفردين برسم الانقطاع للعبادة (٣) . وذكر ابن الخطيب أنه صحبهم سبعة وعشرون من رجالة (٤) . ومن المرجح أن هذه الجزيرة التي قصدها ابن ياسين وأتباعه تقع في السنغال الأدنى (٥) . وهناك أسس عبد الله بن ياسين رباطا ، والرباط من المرابطة ، أي ملازمة الثغور للجهاد حيث ترابط خيل المجاهدين من قوله تعالى : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون

---

(١) ابن الخطيب ، ص ٢٢٢

(٢) Marçais, la Berberie musulmane, p. 239

(٣) ابن الخطيب ، ص ٢٢٢ ـ ابن خلدون ج ٦ ص ٢٢٤

(٤) نفس المرجع ص ٢٢٢

(٥) Marçais, la Berberie, p. 239

به عدو الله وعدوكم » . فالرباط في الأصل هو المكان الذي تجتمع فيه الخيل استعدادا لمقاتلة العدو ، وترتبط الكلمة بواجبات الجهاد ، وحينئذ يقصد بالرباط ارتباط الخيل إزاء العدو في الثغور ، ومنها جاء تصريف مرابط ، أي الملازم لثغر العدو أخذا من قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون » . والرباط هو بناء يجتمع فيه من تفرغ للعبادة من الزهاد والعالمين استعدادا للجهاد في سبيل الله ضد أعداء الدين ، فهو بناء يجمع بين الصفتين الدينية والحربية ، ويسمى من يسكنه مرابطا (١) . وقد كان بناء الأربطة من أهم الأعمال التي يقوم بها الأمراء والخلفاء ، فالاسكندرية كانت تعتبر ثغرا من الثغور الإسلامية التي يجاهد فيها المسلمون ، ولذلك قسم عمرو بن العاص أجناده قسمين : قسم أبقاه معه في الفسطاط ، وقسم وزعه إلى قسمين ، نصف لرباط الاسكندرية وحدها ، والنصف الثاني لسائر السواحل . وكان عمر بن الخطاب يبعث كل سنة غازية من أهل المدينة ترابط في الاسكندرية (٢) . كذلك اهتم عثمان بن عفان برابطة الاسكندرية . وقد وصف ابن رسته رباطات الاسكندرية فقال : « بالاسكندرية رباطات مع الساحل بضربها البحر حيطانها تسمى المحارس » (٣) . كذلك كانت سواحل الشام مزودة بالمحارس والأربطة المشحونة بالمقاتلة ، وكان معاوية يوجه إلى هذه الأربطة جماعات كثيرة من

---

(١) Marçais, Ribat, dans l'Encyclopédie de l'Islam

(٢) السيوطي (جلال الدين) : حسن المحاضرة في اخبار مصر والقاهرة ، م ١ ص ٢٩ ، طبعة مصر ١٣٢٧ هـ .

(٣) ابن رسته ، (أبو علي أحمد بن عمر) : كتاب الأعلاق النفيسة ، المجلد السابع من المكتبة الجغرافية العربية ، ليدن ١٨٩٢ ص ١١٨

الجند بشحنها بهم للدفاع عنها إذا ما أغار عليها الروم من جهة البحر (١) . ولقد اهتم المسلمون ببناء الا ربطة على سواحل المغرب، اهتماما كبيرا ، وقد أشرنا إلى ذلك عند حديثنا عن منشآت الأغالبة .

تسامع بعبد الله بن ياسين كثير من العـــالمين والراغبين في تحصيل العلوم الدينية ، فتسابقوا إليه ، وأخـذوا عنه ، ولم يمض زمن طويل حتى كان رباط ابن ياسين يضم نحو ألف رجل . وقد أخلص لهؤلاء الرجال وأطاعوه طاعة عمياء ، وعرفوا بالمرابطين . نسبة إلى رباط ابن ياسين ، الذي تلقوا فيه تكوينهم الروحي والحربي ، وحولهم من رعاة جمال إلى طبقة من المجاهدين (٢) ، فهم أهل الرباط الذين آثروا على أنفسهم منذ انضمامهم إلى ابن ياسين التفاني في سبيل النهي عن المنكر ، وقيل أنهم سموا بالمرابطين لشدة صبرهم وحسن بلائهم (٣) . وعرفوا أيضـــا بالملثمين ، لاتخاذهم لثاما داكن اللون يغطي الجزء الأدنى من وجوههم على نحو ما يفعله الطوارق اليوم ، كما عرفوا باللمتونيين ، نسبة إلى قبيلة لمتونة التي كانت تتولى الرئاسة على سائر قبائل صنهاجة الصحراوية فيما وراء الرمال الصحراوية جنوبي جبال درن .

وكان ابن ياسين يفرض على من يخالف تعاليمه عقوبات رادعة، ولذلك فإن تعاليم المرابطين تشبه إلى حد كبير تعاليم الخوارج الاباضية . وقد استطاع

---

(١) السيد عبد العزيز سالم ، طرابلس الشام : تاريخها وآثارها في العصر الاسلامي ، مجلة كلية الآداب جامعة الاسكندرية عدد ١٦ ، ١٩٦٢ ـ ١٩٦٣ ص ٤٩

(٢) Margais, la Berberie, p. 238

(٣) الحلل الموشية ، ص ١٠

عبد الله بن ياسين ، فى أمد وجيز ، أن يؤلف جيشا عارما جعل على قيادته صاحبه يحيى بن عمر ، وكان يحيى هذا مخلصا لدعوة ابن ياسين ، متفانيا فى الطاعة له ، وهكذا كون ابن ياسين جيشا قويا ، وعندئذ شرع فى نشر تعاليمه بين قبائل صنهاجة .

ج — انطلاق المرابطين الى المغرب الاقصى :

لما اكتمل عدد أتباع ابن ياسين ألفا ، جمعهم وقال : إن ألفا لن تغلب من قلة ، وقد تعين علينا القيام بالحق والدعاء إليه ، وحمل الكافة عليه ، فاخرجوا بنا لذلك » (١) . وكان ابن ياسين بأمر أتباعه بجهاد من خالفهم من قبائل صنهاجة على أن يبدؤا الإعذار والإنذار سبعة أيام ، فلما يئس من إجابتهم ، شرع فى الغزو ، وبدأ بحد اللثام فيهم واقعة قتل فيها منهم نحو ستة آلاف رجل وأسلم باقيهم إسلاما حسنا (٢) . وسرعان ما خضعت لتوفة ومسوفة وجدالة ولمطة وغيرها من قبائل صنهاجة المغاربة فى الشمال حتى نهر درعة ، وأذعنت صنهاجة لطاعته ، واستقاموا على الاسلام الصحيح ، فسموا بالمرابطين .

وبلغ عبد الله بن ياسين عن طريق الفقيه وجاج اللمطى ، ما نال المسلمين من العسف والجور على أيدى بنى وانودين لمغراويين ، أمراء سجلماسة ، وقد حرضهم وجاج على تغيير أمورهم (٣) . فخرج المرابطون من الصحراء فى سنة ٤٤٠ فى أعداد ضخمة ، واتجهوا إلى درعة ، فاصطدموا بجيش مسعود ابن وانودين أمير مغراوة ، وصاحب سجلماسة ودرعة ، فانهزم هزيمة نكراء

---

(١) ابن خلدون ، ج ٦ ص ٢٢٥

(٢) ابن المنجب ، ص ٢٢٨

(٣) ابن خلدون ، ج ٦ ص ٢٢٥

وقتل في المعركة ، ودخل المرابطون مدينة سجلماسة ، واصلحوا من أحوالها وغيروا المنكرات ، وأسقطوا المغارم والمكوس ، وبقوا عـــلى ما لهم على الصدقات .

ثم تدفق المرابطون في موجات كاسحة إلى الواحات المغربية الواقعة بين نهر درعـــة الأوسط وتافيلات ، إلا أن زناته ، لم تحتمل غزو الصناهجة ، فثارت تافيلات ، وخرجت سجلماسة على المرابطين ، فأعلن عبد الله بن ياسين الجهاد وسار إلى قتال زناته ، ولكن قاتله يحيى بن عمر قتل في إحدى المعارك سنة ٤٤٧ هـ ، فخلفه على القيادة أخوه أبو بكر بن عمر ، ثم تدعمت جيوش المرابطين بانضمام جزولة ولمطة ، وقاتل المرابطون الشيعة الرافضة في تارودانت ، وتمكنوا من اقتحامها واقتساح عامة ، وبذلك استولوا على السوس بأسره سنة ٤٤٨ هـ . وبعث أبو بكر ابن عمه يوسف بن تاشفين إلى واحات درعة فنجح في استردادها فيما بين عامي ٤٤٨ هـ ، ٤٤٩ هـ ، وتوغل المرابطون في هذا العام في الموز ، واجتازوا أطلس الغرب ، واحتلوا بلاد جدميوة ، وامتدت فتوحهم حتى وادي نفيفات من بلاد ريجراجة .

ثم ولى المرابطون وجوههم شطر الغرب الجنوبي الشرقي ، فدخلوا مدينة أغمات ومايليها سنة ٤٤٩ هـ ، وفر أميرها الفتوح بن يوسف بن علي المغراوي إلى تادلا ، وتدفقت جيوشهم على بلاد المصامدة بجبال درن ، فجاسوا خلالها ، ثم غزوا تادلا ، واشتبكوا مع بني يفرن أصحابها في سنة ٤٥٠ هـ وقتل في هذه المعارك الفتوح بن يوسف صاحب أغمات .

ثم دعا المرابطون إلى جهاد برغواطة بامسنا وأنفا والريف الغربي ، واستشهد عبد الله بن ياسين في إحدى المعارك بالقرب من وادي كريفلة سنة

٤٥٠هـ . وذكر ابن الخطيب أن ابن ياسين أصيب في هذه المعركة بجرح مميت، فلما أحس بدنو أجله جمع أشياخ صنهاجة وقال : « يامعشر المرابطين ، أنا ميت في يومي هذا ، وأنتم في بلاد أعدائكم ، فإياكم أن تختلفوا وتفشلوا وتذهب ريحكم ، كونوا ألفة على الحق ، وإخوانا في الله ، وإياكم والمخالفة والتحاسد على الدنيا ، وإني ذاهب عنكم ، فانظروا من ترضونه لأمركم ، يقود جيوشكم ، ويغزو أعداءكم ، ويقسم فيكم زكاتكم ، وأعشاركم »[1] . ولما توفي ابن ياسين تولى زعامة المرابطين الروحية بعده فقيه اسمه سليمان بن عدو ، ولكنه توفي بعد وفاته في عام ٤٥٠هـ ، ولم يخلفه رئيس آخر ، وإنما توارث سلطته فقهاء المالكية الذين واصلوا تعاليم ابن ياسين ، وكانوا يوجهون الأمراء ويحركونهم ، وخاصة في عهد الأمير علي بن يوسف .

ويبدو أن المرابطين أخذوا يخففون من غلوهم في حركة الإصلاح التي قاموا بها ، وتحولت هذه الحركة الدينية تدريجيا إلى حركة سياسية ، كان الغرض منها السيطرة على المغرب .

ثم نازل أبو بكر بن عمر مدينة لواتة وافتتحها سنة ٤٥٢هـ ، وقتل من كان بها من البرغواطيين ، غير أن هذه الفتوحات لم يكتب لها الاستمرار ، فقد حدث في هذه السنة شقاق بين لمتونة ومسوفة ببلاد الصحراء ، وحيث أصل أهاليهم ، ومنابت أعراقهم ، ومنبع عددهم »[2] ، فخشي أبو بكر أن تتفرق كلمتهم وتتشتت جموعهم ، وتتصدع صفوفهم ، ورأى ضرورة السفر إلى الصحراء ليصلح بين القبيلتين ، ويرأب الصدع ، وعهد إلى ابن عمه يوسف بن تاشفين بقيادة جيوش المرابطين في المغرب ، وفوض إليه قتال زناتة ، ثم مضى إلى الصحراء .

---

(١) ابن الخطيب ، ص ٢٣٠

(٢) ابن خلدون ، ج ٦ ص ٢٢٢

د — ظهور يوسف بن تاشفين :

اتفق في هذا الوقت أن قام بلكين بن محمد بن حماد بغزو المغرب الأقصى، وافتتح فاس سنة ٤٥٤ هـ (١) ، ثم أخذ بعض رهائن من أهلها ، وعاد بهم إلى قلعته ، وكان الفتوح بن دوناس بن حامة قد تنازل عن فاس إلى ابن عمه معنصر بن المعتز بن زيري بن عطية ، نابعته قبائل مغراوة بفاس وأحوازها في رمضان سنة ٤٥٥ . ولما قفل الأمير أبو بكر بن عمر إلى الصحراء ، أقام يوسف بن تاشفين بأطراف المغرب ، في سنة ٤٥٤ ، وعهد إليه تأسيس عاصمة للمرابطين بدلا من أغمات ، لتكون مركزا لقواته في جنوب المغرب ، واختار موقعها على ضفاف نهر تلسيفت ، بين مدينتي أغمات وتقيس ، حتى يجنبها مراقبة المصامدة . ثم تحرك يوسف في سنة ٤٥٥ هـ ليستأنف فتوحاته بعد أن استعرض قواته ، « فكانوا أربعين ألفا ، عقدم على أربعة من القواد وهم محمد بن تميم الجدالي ، وعمر بن سليمان الدموني ، ومزدالي الطلكاني ، وسير بن أبي بكر اللمتوني » (٢) ، ثم زحف إلى أحواز فاس ، وأبدى أميرها معنصر شجاعة عظيمة في مقاومة المرابطين ، فصابرهم وانتصر عليهم في إحدى المواقع ، ولكن يوسف تمكن من دخول فاس صلحا في سنة ٤٥٥ هـ بعد أن فر عنها معنصر ، وخلف يوسف عليها عامله ، ثم شنى غارة غارة ، وفتح كثيرا من حصونها وقلاعها ، فاغتنم معنصر فرصة قيامه بمحاصرة قلاع بلاد غازاز (٣) ، ودخل مدينة فاس ، وقتل عامل

---

(١) ابن الخطيب ، ص ٨٨

(٢) ابن الخطيب ، ص ٢٣٤

(٣) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٢٩

يوسف عليها ومن كان بها من المرابطين ، ولما بلغ يوسف ذلك سير المهدي ابن يوسف الجزنائي أمير مكناسة ، وكان قد بايع يوسف بن تاشفين بالإمارة ، إلى فاس ، فهاجمه محاصر وقتله سنة ٤٥٦ هـ ، وكان يوسف وقتئذ مشغولا بمحاصرة قلعة مهدي من بلاد فازاز ، فوجه بعض قواته لمحاصرة فاس ، أما هو فقد مضى بفتح الحصون والمعاقل ، فنازل بلاد بني مراسن ونزلاوة وبورغة سنة ٤٥٨ هـ ، ثم مضى إلى بلاد غمارة سنة ٤٦٠ هـ ، وكانت قواته المحاصرة لفاس قد قطعت عنها المرافق حتى اشتد الأمر على أهلها ، وقتل معصر أثناء إحدى الاشتباكات سنة ٤٦٠ هـ ، فخلفه ابنه تميم . ولما فرغ يوسف من أمر غمارة سنة ٤٦٢ هـ ، زحف إلى فاس ، وحاصرها أياما ثم افتتحها الفتح الثاني سنة ٤٦٢ (١) ، ودخلها بالسيف ، وقتل من أهلها سبعة آلاف نسمة من جملة سكانها وعددهم ٤٣ ألفا (٢) ، وقيل أنه قتل ثلاثة آلاف من أهلها (٣) .

وفي هذه الأثناء كان أبو بكر بن عمر قد وطد الأمن في الصحراء ، وأزال الخلاف القائم بين قومه ، ثم عاد إلى المغرب الأقصى لاستئناف فتوحاته ، ولكنه وجد يوسف قد استبد عليه . ويذكر ابن الخطيب أن يوسف لما قابل أبا بكر بن عمر ، « تلقاه راكبا لم ينزل له وعامله معاملة مختصرة ،

---

(١) نص الرجم ، ص ٣٨٠ . وذكر صاحب الحلل الموشية انه فتحها في سنة ٤٦٢ هـ (الحلل ص ١٦) ، بينما يذكر ابن ابي زرع أنه فتحها في سنة ٤٦٢ (الروض القرطاس ، ص ٩١ )

(٢) ابن الخطيب ، ص ٢٣٦

(٣) القلقشندي ، ج ٥ ، ص ١٨٨ — السلاوي ، الاستقصا ، ج ٢ ، ص ٢٢٠

واستظهر من جيوشه بما هاله عدده، وقال له: ما تصنع بهذه الجيوش يا يوسف؟ فقال: أستعين بها على من خالفني. ونظر إلى بعير موقورة خلفه، فقال: وما هذه الإبل؟ فقال: جئتك بها بكل ما عندي من مال وكساء وطعام لتستعين به على الصحراء. فعرف قصده في استمساكه بالأمر، وتورع عن مياجه، وقصد معه على الأرض، وقال له: يا يوسف، اتق الله في المسلمين، ولا تضيع شيئا من أمورهم، فإنك مسؤول عنهم، والله خليفتي عليك وعليهم» (١). ثم مضى إلى الصحراء في سنة ٦٦٠هـ (٢) حيث استشهد في إحدى معاركه ببلاد السودان (٣).

ولما دخل يوسف مدينة فاس حصنها وأتقنها، وأمر بهدم الأسوار التي كانت تفصل بين المدينتين، وردها مصرا واحدا، وأدار عليها الأسوار، وأمر ببناء المساجد في أحوازها وأزقتها وشوارعها، فإذا اكتشف زقاقا لا يقوم فيه مسجد عاقب أهله. وبنى بفاس الحمامات، والفنادق، والأرحاء، وأصلح أسواقها (٤).

---

(١) ابن الخطيب، ص ٢٣٣

(٢) الحلل الموشية، ص ١١

(٣) ابن الخطيب، ص ٢٣٣

(٤) روض القرطاس، ص ٩١ — ابن خلدون، ج ٦ ص ٣٨٠

## (٢)

### تأسيس مراكش وقيام دولة المرابطين

يذكر صاحب الحلل الموشية أن الأمير أبا بكر بن عمر اللمتوني شرع في بناء مراكش في سنة ٤٥٢ هـ، وكمل موضعها خلاء لا أنيس به إلا الغزلان والنعام، ولا يبت إلا السدر والحنظل، ويذكر أيضا أن الناس أقاموا دورهم فيها دون أن يحيطوا المدينة بسور. ويضيف صاحب الحلل إلى ما سبق أن يوسف بن تاشفين أقام بها في سنة ٤٦٣ هـ الحصن المعروف بحصن قصر الحجر برحبة مراكش، وجعله بأعلى السور وحصنه (١).

ويكاد يجمع المؤرخون على أن يوسف بن تاشفين اختط مدينة مراكش في سنة ٤٥٤ هـ (٢)، ولكن ابن عذاري يشير إلى أن أبا بكر بن عمر اللمتوني هو الذي شرع في بنائها في سنة ٤٦١ هـ (٣). ويذكر صاحب الاستبصار أن يوسف بن تاشفين أسسها في سنة ٤٥٩ هـ (٤)؛ في حين يذكر ياقوت أن يوسف بن تاشفين خططها في حدود سنة ٤٧٠ هـ (٥). ومن هذه التواريخ المتعددة نستبعد تاريخ سنة ٤٥٦ الذي حدده صاحب الحلل للشروع في بناء مراكش، لأنه تاريخ يسبق مبايعة المرابطين لأبي بكر بن عمر بالإمارة عليهم

---

(١) الحلل الموشية، ص ٦ - ١٢

(٢) ابن الخطيب، ص ٢٣٤ - ابن خلدون، ج ٦ ص ٢٢٨ - وروض القرطاس ص ٨٩

(٣) ابن عذاري، ص ٣٠٤ - وانظر أيضا له: أحمد مختار العبادي، ودراسة حول كتاب الحلل الموشية، تطوان، ١٩٦٠

(٤) الاستبصار ص ٢٠٨

(٥) ياقوت، معجم البلدان، مادة مراكش، مجلد ٥، ص ٩٦

بعمر ٤٥ عاما . وتاريخ سنة ٤٦٩ هـ الذي حدده ابن عذارى للشروع في بناء مراكش تاريخ غير معقول لأن يوسف بن تاشفين لم يشرع في فتح فاس وقلاع فازاز إلا بعد أن أسس قاعدة له في الجنوب للسيطرة على جبل درن الذي يسكنه المصامدة [1] . كما نستبعد أيضا تاريخ سنة ٤٧٠ هـ الذي حدده ياقوت لتخطيط المدينة فهو متأخر كثيرا . ويبقى لنا تاريخان هما سنة ٤٥٤ و٤٥٦ . أما سنة ٤٥٩ فهو التاريخ الذي حدده صاحب الاستبصار لتأسيس المدينة ، ويتفرد به دون غيره ، وأما سنة ٤٥٤ هـ فهي سنة أجمع عليها عدد من المؤرخين للشروع في تأسيس مراكش . ونعتقد أن مراكش أسست على يدي يوسف بن تاشفين في سنة ٤٥٤ أي في الفترة التي غادر فيها الأمير أبو بكر بن عمر أرض المغرب إلى الصحراء ، ولا شك في أن يوسف بن تاشفين هو الذي تولى بناءها ، لأن أبا بكر كان مشغولا في هـذا التاريخ بإزالة الخلافات القائمة بين قبائل صنهاجة ، ولما عاد بعد أن فضها تماما تخلى ليوسف عن الإمارة ، ونعتقد أن بناء المدينة استغرق خمس سنوات ، وأنه تم في حدود سنة ٤٥٩ التي ذكرها صاحب الاستبصار .

ويذكر ابن أبي زرع أنه اشترى موضع مدينة مراكش من جماعة من المصامدة ، فسكن الموضع بخيام من الشعر ، وأسس مسجدا للصلاة ، وقصبة صغيرة لخزن أمواله وسلاحه لعلها القصر المعروف بقصر الحجر [2] .

وعندما شرع في بناء المسجد كان يحتزم ويعمل في الطين والبناء بنفسه مع الخدم والغلمة تواضعا منه وتورعا ، ولم يؤسس يوسف بن تاشفين حول

---

(١) الاستبصار ، ص ٢٠٩ — ابن خلدون ج ٦ ص ٣٢٨

(٢) الحلل الموشية ، ص ٤١

المدينة سورا ، ويحدد ابن أبي زرع الموضع الذي كانت تشغله مراكش في عهد يوسف من مدينة مراكش التي كانت على أيامه بالموضع المعروف في عصره بسور الحجر ، إلى الشمال من جامع الكتبيين (١) .

وكانت مراكش في أرض صحراوية منخفضة ، فحفر لها يوسف الآبار ، وجاب إليها المياه (٢) ، ولم يكن يحيط بمراكش من الجبال سوى جبل صغير كانت تقطع منه الأحجار التي بنى علي بن يوسف بها قصره ، أما عامة بناء مراكش فكان من الطوب واللبن (٣) .

وسور مدينة مراكش من بناء الأمير علي بن يوسف ، بناه في ثمانية أشهر في سنة ٥٧٦ هـ (٤) ، وقيل في سنة ٥١٤ هـ (٥) ، وكان لهذا السور عدة أبواب منها أبواب أغمات وكاله والدباغين وبيلتان والصالحة والشريعة والفخارين . وظلت مدينة مراكش معسكرا حربيا ، وقاعدة عسكرية لقوات المرابطين إلى أن حاصرتها قوات الموحدين بقيادة عبد المؤمن بن علي في المحرم سنة ٥٤٩ هـ ، فنزل بجبل يغرها بسببه صاحب الجمل بجبل الجلبين (٦) ، وصحة الاسم جبل ايكلز (٧) وفقا لما ذكره البيذق أو جبل الجلز على حد

---

(١) روض القرطاس ، ص ٨٩

(٢) نفس المرجع ص ٨٩

(٣) نفس المرجع

(٤) نفس المرجع

(٥) الاستبصار ص ٢٠٩ — ابن خلدون ج ٦ ص ٢٧٨

(٦) الحلل الموشية ، ص ١٠٢ — Lévi - Provençal, Extraits, p. 40

(٧) أبو بكر الصنهاجي الملقب بالبيذق ، كتاب أخبار المهدي بن تومرت وابتداء دولة الموحدين ، نشره ليفي بروفنسال ، باريس ١٩٢٨ ، ص ١٠٢

ما ذكره صاحب الحلل الموشية في موضع آخر (١). وهناك ضرب عبد المؤمن القبة الحمراء، ويذكر صاحب الحلل أن عبد المؤمن أقام على هذا الجبل مدينة استند إليها، وبنى فيها مسجداً وصومعة طويلة يشرف منها على مراكش (٢)، ثم زحف الموحدون بجموعهم إلى مراكش، ووضع عبد المؤمن الكمائن عند مدينته، فتخرج جيش المرابطين لملاقاة الموحدين فتظاهر هؤلاء بالهزيمة، ثم خرجت الكمائن على فرسان المرابطين وسحقتهم سحقاً، وقتل منهم ما لا يحصى عدده، وأتبع الموحدون فل المرابطين بالسيف إلى الأبواب، وأحكموا عليهم الحصار. غير أن البيذق الذي حضر دخول الموحدين مراكش يذكر أن القتال بين المرابطين والموحدين استمر أربعة أيام، كان يخرج فيها من المرابطين الأمير اسحق بن يبتان (٣)، ومحمد بن حماد، ومحمد بن يانكلا، وفي اليوم الخامس تمكن الموحدون من هزيمتهم، وأتبعوهم بالسيوف حتى باب الشريعة وهناك قتلوا منهم عدداً هائلاً (٤).

وطال الحصار على أهل مراكش، واشتد الجهد بهم، ولكثرة خيلهم ورجلهم نفد طعامهم، وفنيت مخازنهم، حتى أكلوا دوابهم، ومات منهم بالجوع ما يزيد على مائة وعشرين ألفاً (٥). ويذكر ابن خلدون أن الحصار استمر سبعة أشهر، فلما طال على أهل المدينة، وجهدهم الجوع،

---

(١) الحلل الموشية، ص ١٠٢

(٢) نفس المرجع

(٣) هو الأمير اسحق بن علي بن يوسف، يلقب بالأمارة وهو صبي، بعد أن خلع شيوخ المرابطين ابن أخيه ابراهيم بن تاشفين (ابن خلدون، ج ٦ ص ٢٨٩)

(٤) البيذق، ص ١٠٣

(٥) الحلل الموشية ص ١٠٢، وواضح أن صاحب الحلل قد بالغ في أعداد قتلى

برزوا إلى مدافعة الموحدين ، فانهزموا وتبعهم الموحدون بالقتل ، وفي ١٨ شوال سنة ٥٤١ هـ ، اتصل الروم ، الذين كانوا يؤلفون فرقة من جيش المرابطين ، بعبد المؤمن ، واستأمنوه ، فأمنهم ، واتفقوا معه على أن يدخلوه مراكش من الباب المعروف بباب أغمات (١) ، فأمر عبد المؤمن بعمل السلالم للأسوار ، فلما تمت وزعها على القبائل المحاصرة للمدينة ، وبفضل هذه السلالم تمكن جنود الموحدين من تسلم الأسوار ، فدخلت هنتاتة وأهل تينملل من جهة باب دكالة ، ودخلت صنهاجة وعبيد المخازن من جهة باب الدباغين ، ودخلت هسكورة مع القبائل من جهة باب يغمان ، فافتحت مراكش ، ودخلها الموحدون بالسيف ، ودار القتال في المدينة ، وامتنع الأمير اسحق بن علي وجملة قادته بداخل القصبة المعروفة بقصر الحجر وكان قصرا حصينا - ودار القتال حول القصر حتى الزوال ، ولم يتمكن الموحدون من دخوله إلا بعد أن هلكت فاطمة بنت عمر بن يغمراسن ، وكانت تقاتل في زي الرجال ، واستسلم الأمير وجملة من الأمراء ، فقتلهم الموحدون إلى جبل الجاز حيث قتلهم أبو الحسن بن واكلك (٢) .

وبقيت مراكش بعد أن دخلها الموحدون لا يدخلها داخل ولا يخرج منها خارج ثلاثة أيام ، فقد أبى الموحدون دخولها لأن المهدي كان يقول لهم لا تدخلوها حتى تطهروها ، فسأل الموحدون فقهاءهم عن ذلك ، فأخبروهم بأن محاريب مساجدها تميل إلى الشرق ، وهن في ذلك تنحرف عن القبلة الصحيحة ، والتشريق والتحريف غير جائز في الإسلام ، ولابد من تطهير هذه المساجد بهدمها وبناء مساجد أخرى ، فهدمت جوامع مراكش لذلك السبب ،

---

(١) المرجع السابق

(٢) البيذق ، ص ١٠٣ ـ المنن الوشية ص ١٠٢ ـ ابن خلدون ، ٦ ص ٤٧٩

ومن بينها المسجد الجامع الذى بناه على بن يوسف فى أدنى المدينة ، بدار الحجر ، فهدم بعضه (١) وأقيم الجامع المعروف بالكتبية. وتزل عبد المؤمن مراكش ، واتخذها عاصمة لدولته ، وأقام فيها الدور ، واتخذ القصور (٢) ، وجلب إليها المياه من جهة أغمات اسقاية البساتين التى اتخذها فيها (٣) ، « وأخذ فى البناء والعمارة وترتيب القصور » (٤). وقد اهتم خلفاء عبد المؤمن بمدينة مراكش اهتماما خاصا ، فأقاموا بها المنشآت العظيمة ، وأمهروها بمختلف أنواع المبانى ، ونخص من هؤلاء بالذكر المنصور الموحدى الذى كان مولعا بفن البناء ، فبنى بمراكش بعد انتصاره فى الأرك بمدة قصيرة من أعظم ما أقيم فى العالم الاسلامى سمى بدار الفرج (٥) ، وكان يقع إلى الشرق من المسجد الجامع المعروف بالكتبية ، وكان قد تفنن لبنائه ساحة فسيحة من أجمل مواضع مراكش ، وأمر البنائين باتقان بنائه ، فزينوه بالنقوش البديعة والزخارف الرائعة ، وأمر الخليفة بأن يغرس فيه من جميع أشجار الفاكهة ، وأجرى فيه مياها كانت تصل إلى جميع غرفه (٦) ، كما أقام به أربع برك فى

---

(١) الزيدق ص ١٠٥

(٢) المراكشى « المعجب فى تلخيص أخبار المغرب » ص ٢٠٢

(٣) ياقوت ، معجم البلدان « مادة مراكش » مجلد ٥ ، ص ٩٤

(٤) المراكشى ، ص ٢٢٢

(٥) الاستبصار ، ص ٢١٠

(٦) أدرك البناة والمهندسون المسلمون فضل الماء والبحيرات الصناعية من أجله فى بيت الراحة وبيت الوضوء والحمام ، ولذلك اتجهوا الى مزج الطبيعة بالعمارة ، وذكر المقريزى أن بناة بيمارستان قلاوون بالقاهرة عطفوا الى أهمية البرك والمسابيات فى علاج المرضى ، فتولى الأمير علم الدين سنجر الشجاعى أمر عمارته ، فأقام بيمارستانا يأتلف من قرية ايوانات يتوسطها دوران واسعان فاحدهما فسيح يجرى اليها الماء من المتنزهات ، =

وسط صحنه إحداها من الرخام الأبيض ، وأمر له من الفرش النفيسة من أنواع الصوف ، والكتان ، والحرير ، والأديم موشيه بما يزيد على الوصف ، ويأتي فوق النعت ، وأجرى له ثلاثين دينارا في كل يوم برسم الطعام وما ينفق عليه خاصة ، خارجا عما يجلب إليه من الأدوية ، وأقام فيه من الصيادلة لعمل الأشربة والأدهان والأكحال ، وأعد فيه للمرضى ثياب ليل ونهار النوع من جهاز الصيف والشتاء ، فإذا نقه المريض ، فإن كان فقيرا ، أمر له عند خروجه بمال يعيش به ريثما يستقل ، وإن كان غنيا دفع إليه ما له ، وتركه وسببه ، ولم يقصره على الفقراء دون الأغنياء ، بل كل من مرض بمراكش من غريب حمل إليه وعولج إلى أن يستريح أو يموت ، وكان في كل جمعة بعد صلاته يركب ويدخله ، ويعود المرضى ويسأل عن أهل بيت ، أهل بيت » (١) .

كذلك اهتم المنصور ببناء قصبة مراكش ، وجامعها إزاءها ، وصومعته ، كما اهتم بإتمام بناء منار جامع الكتبيين المشهور ، وذلك بعد انحصاره في الأرك (٢) . ولقد ازدهرت مراكش في عصر الموحدين ازدهارا لم تشهده من قبل في عصر المرابطين ، فاتسع عمرانها ، وزادت مرافقها ، وعمرت بمختلف أنواع الأبنية والمنشآت التي تهتم بخلفاء الموحدين بإقامتها ، وقد

---

= كما أجرى الماء في جميع قنوات البساتين ( انظر الزيزي « المغاطا » ج ٢ ص ٢٢١ — ٢٢٣ ، طبعة بيروت ١٩٥٩ ) وانظر أيضا أثر مزج المنار الليبي بالمنارة في محاضرتي : القيم الجمالية في فن العمارة الإسلامية ، بيروت ١٩٦٢ ص ٢١ )

(١) المراكشي ، ص ٢٨٢

(٢) روض القرطاس ، ص ١٠٩

وصفها ابن سعيد المغربي في هذا العصر بقوله : « وهي مما سكنت بها وعرفتها ظاهرا وباطنا ، ولا أرى عبارة تفي بما تحوي عليه ، ويمكن أن كل قصر من قصورها مستقل بالديار والبساتين والحمام والاصطبلات والمياه وغير ذلك ، حتى إن الرئيس منهم يغلق بابه على جميع حوله وأقاربه وما يحتاج إليه ، ولا يخرج من بابه إلى خارج داره كحاجة يحتاجها ، ولا يشتري شيئا من السوق لأكل ، ولا يقرئ أولاده في مكتب وظاهرها مدينة اختطها المنصور يعقوب [1] وخواصه بمراكش ، وبها قصر الخلافة الذي بناه ، به دور عظيمة ، وبها بستان يعرف بالبحيرة طوله ١٢ ميلا ، به بركة عظيمة لم يعمل مثلها ، وبمراكش جامع جليل يعرف بالكتبيين طوله مائة وعشرة أذرع ، وعلى بابه ساعات مرتفعة في الهواء محسن فراغا كان يرمى فيها عند انقضاء كل ساعة صنجة زنتها مائة درهم ، تحرك لأولها أجراس تسمع على بعد تسمى عندهم بالبجانة » [2] .

ويصفها صاحب الاستبصار في أواخر القرن السادس الهجري بقوله : « ومدينة مراكش اليوم من أعظم مدن الدنيا بهجة وجمالا بما زاد فيها الخليفة الإمام ، وخليفته أمير المؤمنين أبو يعقوب ، وخليفتها أبو يوسف ، رضي الله عنهم ، فإن الخليفة الإمام بنى فيها جامعا عظيما ، ثم زاد فيه مثله أو أكثر في قبلته ، كان قصرا [3] ، ورفع بينهما المنار العظيم الذي لم يشيد في الإسلام مثله ، وأكمله ابنه وخليفته أبو يعقوب رضه . وجلب الخليفة الإمام

---

(١) يقصد القصبة التي بناها المنصور

(٢) القلقشندي ، ج ٥ ص ١٦٢

(٣) يقصد بذلك أن الجامع أتيم من أعلى عصر المرابطين

المياه من أودية درن ، وغرس بحيرة عظيمة بغربي المدينة قبـــل تفيس ، دورها ستة أميال ، وبنى فيها وخارجها صهريجين عظيمين ، كنا في تلك المدة نعوم فيهما ، فلا يكاد للقوى منا يقطع الصهريج إلا عن شقة ، وكنا نتفاخر بذلك . وأحدث الخليفة بعده ابنه أبو يعقوب ، رضه ، بحائر مثلها في الفرس بل أجل ، وجلب لها المياه ، وأخـــذها في صهاريج أعظم من المتقدمة ، وزاد في قبلة المدينة جنانا أنشأه الآن ابنه الإمام الخليفة أبو يوسف ، رضه ، وزاد عليه مدينة أخرى تقارب الأولى في دورها ، وكانت بحائر عظيمة ، فبناها قصورا وجامعا وأسواقا وفنادق ، وجلب التجار إلى قيسارية عظيمة لم يبن في مدن الأرض أعظم منها ، وأمر بعمارتها أول سنة ٥٨٥ هـ . ومدينة مراكش أكثر بلاد المغرب جنـــات وبساتين وأعناب وفواكه وجميع الثمرات ، وكانت قبل ذلك يطير الطائر حولها فيسقط من العطش والرمضاء ، وأكثر شجرها الزيتون ، ففي مراكش اليوم من الزيتون والزيت ، ما يستغني به عن غيرها من البلاد ، وتمير بلادا كثيرة . وكان زيتها قبل اليوم دهن المرجان ، لأنه بتلك البلاد كثير جدا ، وزيتون مراكش أكثر من زيتون مكناسة ، وزيتها أرخص وربما أطيب » (١).

وظلت مراكش عاصمة للموحـــدين حتى أيام الواثق بالله أبي العـــلاء إدريس المعروف بأبي دبوس ، فقد تحالف أبو دبوس مع بني مرين ليتولى الخلافة ، نظير تخليه لهم عن مدينة مراكش . وكان المرتضى غافلا عن شأن أبي دبوس ، وكانت الأسوار خالية من حراسها ، وحاميتها ، فاقتحم أبو دبوس هذه الفرصة ، وتسور مراكش من باب أغمات ، ودخلها على حين

---

(١) الاستبصار ص ٢٠٩ ، ٢١٠

فجأة، وقصد القصبة، فدخلها من باب الطبول (١)، فر المرتضى من مراكش إلى آزمور حيث مات قتيلا في سنة ٦٦٥ هـ، ولكن أبا دبوس نكث بعهده لبني مرين، فاضطر الأمير أبو يوسف يعقوب المريني إلى مهاجمة مراكش في سنة ٦٦٨ هـ، وانتهى الأمر بمقتل أبي دبوس إمام أسوار مراكش التي دخلها جيش بني مرين في ٧ من المحرم سنة ٦٦٨ هـ (٢).

ولقد تأثر عمران مراكش بالفتن المتواصلة التي اشتملت نيرانها في أواخر أيام الموحدين، واستولى الهدم والخراب على معظم ديارهم بمراكش عند سقوط دولتهم. ويذكر الوزير أبو الحسن بن سعيد العنسي أنه وجد على بعض قصورها مكتوبا بالفحم:

ولقد مررت على رسوم ديارهم
فبكيتها والربع قاع منصف
وذكرت مجرى الحور في عرصاتهم
فعلمت أن الدهر فيهم منصف

فأخذ قطعة من البياض المتبقي من الجدار، وكتب تحت البيتين السابقين:

لهفي عليهم بعدهم بعتابهم
بالله قل لي في الورى هل يخلف
من ذا يجيب منادبا لوسيلة
أم من يجير من الزمان وينصف (٣)

---

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ٥١٨.
(٢) أبو الوليد اسماعيل بن الأحمر، روضة النسرين في دولة بني مرين، الرباط ١٩٦٢، ص ٩٩
(٣) الحلل الموشية، ص ١٢٨

ولقد ضعف شأن مراكش فى عصر بنى مرين ، لاتخاذهم مدينة فاس حاضرة لهم ، فتأثر عمرانها بذلك ، وانخفضت مكانتها السياسية. وقد وصف ابن الخطيب أسوارها الحصينة ، وزيتونها وفواكهها فى عصر بنى مرين بقوله : « اقتعدت البسيط المديد ، واستظهرت بتشييد الأسوار وأبراج الحديد ، وبكى الجبل من خشيتها بعيون العيون ، فسالت المذانب كعقاح للقيون ، وقيدت طرف الناظر المفتون أدواح الشجر بها وغابات الزيتون .. زيتها الزمن يعصر ، وخيرها يمد ولا يقصر ، وفواكهها لا تحصى ولا تحصر ، فإذا تناصف الحر والبرد ، وتبسم الزهر وخجل الورد ، وكما غدرتها الغائرة الحلق السرد ، قلت انجز المتقين من الجنة الوعد ، وساعد السعد ، وماقلت إلا بالذى علمت سعد » . ثم يصف خرابها وتدهورها فى عصر بنى مرين فيقول : « وخرابها موحش هائل ، وبعد الأقطار من كثيرا من الأوطار بها حائل ، وعدوها يتشهب فى القتن أقرانها ، وجرذان المقابر تأكل أمواتها ، وكانت أول المنازل بالاحياء ، لو أنها اليوم ممدودة فى الأحياء » (١) .

ثم استعادت مراكش مكانتها فى عصر الأشراف السعديين كعاصمة للبلاد ، وخاصة فى عصر السلطان أحمد بن محمد السعدى الملقب بالمنصور الذهبى ، الذى أمهرها بأروع الآثار التى أعادت ذكرى منصور الموحدين ، واستحضر لعمارة قصوره عمالا وصناعا من سائر البلاد ، وجلب الرخام من إيطاليا ، وشرع السلطان فى بناء قصره المعروف بالبديع داخل قصبة

---

(١) مشاهدات لسان الدين بن الخطيب ، ص ١٠٨

سعديين سنة ٩٦٠ هـ ، وكان قصرا مربع الشكل ثمانى جهة منه قبة ، وكان يزدان بالرخام المجزع ، والرمر الأبيض الناصع والأسود (١) ، وكل رخامة طلى رأسها بالذهب الذائب ، ووجه بالنضار الرائق ، وفرشت أرضه بالرخام العجيب النحت ، الفائق البشرة ، وجعل فى أصناف ذلك الزلاج (٢) ، المتنوع التلوين حتى كأنه خمائل الزهر ، أو برد عدنى ، وأما سقوفه ، فجسم فيها الذهب ، وطليت الجدارات به ، مع بديع النقش ورائق الرقم بخالص الجبس ... وفيه الأشعار المرقومة فى الأستار ، والأبيات المنقوشة فى الخشب والزليج والجبس مايسر الناظر ويروق المتأمل ويبهر العقول » (٣).

واتخذ المنصور لنفسه فى مراكش بلاطا أقرب ما يكون إلى البلاطات الشرقية فى الترف والعظمة ، إذ كان يجلس فى قصر البديع ، وقد مد فيه ، ومهد من فرش الحرير ، وصفة الخمارق ، وتدلت الأستار والكلل والحجال المنوعة بالذهب على كل قبة وحنية (٤).

* * *

كان تاسيس مراكش تدعيما لمركز المرابطين فى المغرب ، ثم كان استيلاؤهم على مدينة فاس فى سنة ٤٦٢ هـ سببا فى اختلاطهم بالحضارة الأندلسية الغربية ، ونجح يوسف بن تاشفين ، فى إخضاع قبيلتى مكناسة

---

(١) ارجع الى المثال المنصور المفصول كتاب « نزهة الحادى باخبار ملوك القرن الحادى » تأليف محمد الصغير ، نشره « دوداس جهلندى » ، باريس ١٨٨٨ .

(٢) جمع كلمة زليج ، ويعرف بالاسبانية اليوم باسم azulejos ، وهو نوع من الفسيفساء يغطى بقاعات قصور أهل الأندلس ويشبه الفص ( الفسيفساء ) ، وهو نوع الزلاج الذى يغطون به سقوف الرخام الملون ( المقرى ، نفح الطيب ج ١ ص ١٨٧ ، ١٨٨ ) .

(٣) محمد الصغير كتاب نزهة الحادى بأخبار ملوك القرن الحادى .

(٤) عبد العزيز سالم ، المغرب الإسلامى ، ج ٢ ص ١٨١

ولواتة ، واستولى على أكثر بلاد المغرب الغربى ، ثم وجه ابن تاشفين جيوشه بعد ذلك إلى ناحية الشمال الشرقى ، ففى سنة ٤٦٣ هـ زحف إلى وادى ملوية ، فافتتح بلادها ، وعلى حصون وطاط من نواحيها ، وأخضع قبيلة غمارة مرة أخرى ، وافتتح حصن علودان من حصونها (١) . وفى سنة ٤٦٧ هـ ، وجه همه إلى إخضاع غياثة وبنى يكمود بأحواز تازى ، وافتتح تازى . وقسم يوسف بن تاشفين المغرب بين أبنائه وذويه وشيوخ قومه وأمرائهم . ثم تطلع بعد ذلك إلى معبرى الاندلس طنجة وسبتة . وكان يحكمها سكوت الوطواطى وعشيرته من أولياء الدولة الحمودية بسبتة . فاشتبك المرابطون بقيادة صالح بن عمران مع سكوت فى ظاهر طنجة ، فانهزم سكوت وقتل فى المعركة ، وتحصن ابنه ضياء الدولة بسبتة (٢) . ويبدو أن المعتمد بن عباد ملك إشبيلية أرسل سفارة برئاسة أبى بكر بن القصيرة إلى يوسف ليحثه على التوسع الحادث ، وأبدى يوسف استعداده لذلك ، إذا تهيأ له الاستيلاء على معبرى الاندلس ، طنجة وسبتة (٣) .

---

(١) ابن خلدون ، ج ٧ ص ٣٨٠

(٢) سكوت الوطواطى كان من سبى بوطواطة فى زمن على بن حمود ، ثم ألفى اليه يحيى ابن على بقايد سبته ، وأدرك معه فى عصاتها مولى آخر من مواليه اسمه رزق الكوبكانى بأبى الطواف . وفى عهد ادريس بن يحيى ، تمكن سكوت من الفتك بمولاه على شريكه فى سبتة ، وأصبح منذ ذلك الحين أميرا مستقلا بسبتة ، ولقب بالنصور المتوفى سنة ٤٨٣ هـ . وظل سكوت قائما بسبتة وطنجة وأصيلا الى أن سير اليه يوسف بن تاشفين ، فأنفذ صالح بن عمران فنزل بوطنجة بجرف يعرف بالعنه سنة ٤٧١ هـ . واصطدم المرابطون بابنه ضياء الدولة فى طنجة ، فهزم المرابطون ، ودخلوا طنجة ، وقتل سكوت ( انظر :

Joaquín Vallvé Bermejo, Suqut al-Burgawati, rey de Caula. al-Andalus, vol. XXVIII fasc. 1, Madrid, 1963. pp. 171-209)

(٣) Ibid. p. 180

وفي سنة ٤٧٢ هـ سار القائد المرابطي مزدلي التلكاتي على رأس جيش كثيف لمحاربة مغراوة ملوك تلمسان في المغرب الأوسط، وفي العام التالي قام يوسف بفتح المغرب الشرقي وساحل الريف، فاستولى على مليلة، وغرب تكرور، واستولى على وجدة وبلاد بني ستاسن، واستولى بعد ذلك على تلمسان وقتل أميرها العباس بن محمد، وأقام مكانه محمد بن تيمصو، وبذلك فقدت زناتة عاصمتها الأخيرة. وأقام يوسف مدينة جديدة هي ناكرارت بجوار أغادير القديمة، وتوغلت جيوشه في المغرب الأوسط واستولت على تلمسان ووهران وجيجل والشريس (١)، ووصلت حتى الجزائر، وتوقفت عند مدخل بلاد قبيلي من من أراضي صنهاجة الشرقية، ولم يدخل المرابطون في صراع مع إخوانهم الصنهاجيين في الجزائر وتونس، وهكذا انقسم المغرب الإسلامي إلى قسمين: شرقي يحكمه بنو زيري وبنو حماد الصنهاجيين وغربي يحكمه المرابطون.

عاد يوسف إلى مراكش في سنة ٤٧٥ هـ، ويبدو أنه وصلته في ذلك الوقت كتب من أهل الأندلس يسألونه أن ينقذ الأندلس مما ألم بها من مصائب على أيدي الفشتاليين، وكان لابد له أن يحاط بالتدخل في الأندلس، فوجه ابنه المعز في عساكر المرابطين إلى سبتة معبر الأندلس، فنازلها برا وبحرا كما يذكر ابن خلدون أن أساطيل ابن عباد حاصرتها بحرا، وتمكن المعز بن يوسف من الاستيلاء عليها عنوة في ربيع الآخر سنة ٤٧٦هـ وقبض على ضياء الدولة وقتله بسيفه. وتفصيل ذلك كما ورد في الذخيرة لابن بسام أن المعتمد بن عباد سير إلى سبتة سفينة ضخمة كأنها قصر بناء على الماء،

---

(١) ابن خلدون جـ ٦ ص ٢٨١.

فهاجمت ميناء سبتة ، ثم قدم أسطول الرابطين فى صفر سنة ٤٧٦ هـ فحاصرة سبتة من البحر ، و وافته المعز بن باديس بقية جنده من أسطول طالما أوسع البلاد شرا ، وملأ قلوب أهلها ذعرا ، فكان لأول ذلك اليوم ظاهر على أسطول الرابطين حتى أخذ منه قطعة جليلة القدار ، ظاهرة الحلاة والأنصار ... وارتاعت حملة الرابطين لأخذ تلك القطعة حتى هموا بالاحجام ، وتوقفوا بعض القيام ، وغضب أمير المسلمين وناصر الدين رحمه الله إحدى غضباته فكانت إياها ، ونفرت المنايا على سبتة ، وتقدمت تلك السفينة فأطلت على أسوارها ، ورفعت صوتها ببوارها ، وأفضت بدولة صاحب سبتة إلى سوء قرارها » (١) . وحاول المعز بن باديس الفرار فى البحر ، ولكن الرابطين طاردوه ، فدخل دارا تعرف بدار تنوير بمدينة سبتة ، وهنالك قبض عليه .

---

(١) نص ابن بسام فى كتاب الذخيرة ، نجم السفير وخواتمها فى مقالته هذه في مقال السابق ص ٢٠٢

## (٣)

## المرابطون في الأندلس

### ١ ـ احوال الاندلس عند قيام دولة المرابطين :

بعد أن وحد يوسف بن تاشفين بلاد المغرب ، وأقام دولة قوية تضم أقاليم القسم الغربي من المغرب ، يحاول أن يحاذي بالخلافة ، واكتفى بلقب أمير المسلمين ، وناصر الدين سنة ٤٦٨ هـ ، ودعا الخليفة العباسي ببغداد. ويذكر صاحب الحلل أن ابن تاشفين لما طالبه بعض أصحابه باتخاذ لقب أمير المؤمنين قال : حاشا الله أن نتسمى بهذا الاسم ، إنما تسمى به خلفاء بني العباس ، لكونهم من تلك السلالة الكريمة ، ولأنهم ملوك الحرمين مكة والمدينة . وأنا رأيتهم ، والقائم بدعوتهم »(١) . هذا اللقب خلعه يوسف ابن تاشفين على نفسه دون الرجوع إلى الخليفة العباسي ، فلما انتصر يوسف في موقعة الزلاقة ، وأسقط ملوك الطوائف ، كتب إلى الخليفة القادر بالله يطلب منه الخلع والأعلام والتقليد ، فلم يعترض الخليفة على ذلك ، ولكنه لم يخاطبه بلقب أمير المسلمين ، وقد نشر الأستاذ الدكتور حسين مؤنس نص رسالة من الخليفة عبد الله العباس المستظهر بالله العباسي إلى علي بن يوسف ، لم يخاطبه فيها بلقب أمير المسلمين (٢) . وقد استخدم المرابطون لذلك السواد شعارا لهم في ملابسهم وأعلامهم (٣) .

---

(١) الحلل الموشية ، ص ١١

(٢) حسين مؤنس ، سبع وثائق جديدة عن دولة المرابطين وايامهم في الاندلس ، صحيفة المعهد المصري للدراسات الإسلامية بمدريد ، المجلد الثاني ، ١٩٥٤ ، ص ٦٦ ـ ٦٨

(٣) أحمد مختار العبادي ، نظام الخلافة في المغرب الإسلامي في العصور الوسطى ، فصل من كتاب الخلافة الإسلامية في المغرب العربي ، ص ١٥٦

وبينما كان يوسف بن تاشفين يعمل لتأسيس دولة كبيرة في المغرب كانت الأحداث تتطور تطورا سريعا في الأندلس ، فقد أدى انقسام الأندلس بعد سقوط الخلافة الأموية بقرطبة إلى دويلات الطوائف إلى ظهور العنصرية البغيضة بين المسلمين عربهم وبربرهم وصقالبتهم ، واستعان بعضهم على بعض بنصارى الشمال الذين وجدوا في ذلك سبيلا مناسبا على الإسلام ، وفرصة مواتية للقضاء عليهم ، فاستغل فرناندو الأول ، وتسميه المصادر العربية فرذلند ، ملك قشتالة وليون هذه الفرصة (١٠٣٥-١٠٦٥م) واستولى على عدد من مدن الأندلس مثل باز ، وقلمرية ، وأرغم ملوك الطوائف على شراء حياده للاحتفاظ بعروشهم ، فلانوا بالمزيات يدفعونها إليه ، إبقاء لشره ، ودرءاً لتهديداته ، ورغبة في خطب وده ومرضاته ، كما كانت وطأة ابنه الفونسو السادس أشد على المسلمين من وطأة أبيه فرذلند ، فقد رأى أن يسدد الضربة الأولى على طليطلة ، قلب الأندلس ، فأخذ يعد العدة ، للاستيلاء عليها ، ويأهب لتحقيق هذا الهدف منذ سنة ٤٧١ ، وتمكن أخيرا من تحقيق أمنيته في سنة ٤٧٨ هـ ( ١٠٨٥م ) ، وازداد بذلك قوة على قوته ، و « أخذ يجوس خلال الديار ، ويستفتح المعاقل والحصون » . [1] وأحدث سقوط طليطلة في أيدي القشتاليين دويا هائلا في المغرب والأندلس على السواء ، وقرعت نواقيس الخطر تحذر ملوك الإسلام في الأندلس بسوء المصير ، فأحسوا بضعفهم ، وتنبهوا بعد فوات الأوان إلى تهاونهم الرهيب ، بل إن سقوط طليطلة ، كان نذيرا بالنهاية المحتومة لدولة الإسلام في الأندلس . وقد أدرك الشاعر عبد الله بن

---

(١) المقري : نفح الطيب ، جـ ٦ ص ٨٨

فرج البحصي الشهور بابن الفسال هذه المقيلة ، فانشد يقول :

يا أهـــل أندلس حثوا مطيـــكم
فمـــا المقام بهـــا إلا من الغلط
الثوب يسلل من أطرافه وأرى
ثوب الجزيرة منسولا من الوسط
ونحن بين عـدو لا يفارقنـــا
كيف الحياة مع الحيات في سفط (١)»

استفحل خطر الفونسو السادس على دويلات الطوائف ، وذاق حلاوة الانتصار على المسلمين في مليطلة ، فعزم على فتح مدن الأندلس كلها ، وعرض عليه رعيته أن يلبس التاج ويعيد عادة أسلافه القوط ، فأرجأهم في ذلك حتى يستولي على دار ملك المسلمين بقرطبة (٢) ، إذ كان يعتبر مليطلة نقطة دائرة الأندلس (٣) . ثم عمـــد إلى استذلال ملوك الطوائف بفرض الإتاوات والجزيات عليهم ، ثم إنه بدأ بالمعتمد بن عباد كبير ملوك الطوائف ، فكتب إليه يطلب منه تسليم بعض حصونه وأعماله إلى رسله وعماله ، فكتب إليه بين ما كتبه : « من الأنبطور ذي المللين ، الملك المفضل الأدفنش ابن شانجة إلى المعتمد بالله سدد الله رأيه وبصره ، مقاصد الرشاد ، سلام عليك من مشيد شرفه العلا ، وثبت في الثرى ، فاهتز اهتزاز الرمح عامله ، والسيف يساعد عامله ، وقد أبصرتم مازال بمليطلة وأقطارها ، وماصار بأهلها حين

---

(١) المرجع السابق ج ٦ ص ٨١

(٢) ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، القسم الخاص بالأندلس ، ص ٢٤١

(٣) الحلل الوشية ، ص ٢٢

ناصرها عن صار في هذه السنين ... »[1] . فلما رأى ابن عباد ما رآه من إدبار أموره ، وما يجتمع على دولة الإسلام في الأندلس من الأخطار ، شاور حاشيته ، ورجوه دولته في الاستنجاد بيوسف بن تاشفين ، على القشتاليين ، فأشاروا بمداراة ألفونسو ، ومصانعته ، وعقد السلم معه على ما يشتهيه من شروط ، إذ كانوا يخافون من يوسف بن تاشفين أن يسلبهم ملكهم ، ويشتت شملهم ، وحذروه ، من عقبة الاستنجاد بيوسف بن تاشفين ، وقالوا له : « الملك عقيم ، والسيفان لا يجتمعان في غمد واحد »[2] . ثم اختلى للتعبد بابنه وولي عهده الرشيد أبي الحسن عبيد الله ، فقال له : « أنا في هذه الأندلس غريب بين بحر مظلم وعدو مجرم ، وليس لنا ولي ولا ناصر إلا الله تعالى ، وإن إخواننا وجيراننا ملوك الأندلس ، ليس فيهم نفع ولا يرجى منهم نصرة ، ولا حيلة إن نزل بنا مصاب أو نالنا عدو ثقيل ، وهو اللعين أذفنش ، وقد أخذ طليطلة من ابن ذي النون بعد سبع سنين ، وعادت دار كفر ، وها هو قد رفع رأسه إلينا ، وإن نزل علينا بطليطلة ما يرفع عنا حتى يأخذ إشبيلية ، ونرى من الرأي أن نبعث إلى هذه الصحراء وملك العدوة ، نستدعيه للجواز ليدفع عنا هذا الكلب اللعين ، إذ لا قدرة لنا على ذلك بأنفسنا ، فقد تلف سلاحنا ، ودثرت بل تبددت أجنادنا ، وأبغضتنا العامة والخاصة » . ولكن ابنه الرشيد لم يقره على هذا الرأي ، فقال لأبيه : « يا أبت ، تدخل علينا في أندلسنا من يسلبنا ملكنا ، ويبدد شملنا » ، فقال : « أي ابني ، والله لا يسمع عني أبدا أني أعنت الأندلس دار كفر ولا تركتها للنصارى »

---

(١) المرجع السابق ص ٢٣

(٢) المعجب ، ص ٨٠

فتقوم على الذمة فى مناير الإسلام مثل ماقامت على غيرى، وحرز المال ، والله ، عندى خير من حرز الخزائن » . فقال له : « يأبى افعل ماأمرك الله » ، فقال « إن الله لم يلهمنى هذا إلا وفيه خير وصلاح لنا ولكافة المسلمين » (١) . فكتب من فوره إلى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين فى غرة جمادى الأولى سنة ٤٧٨ هـ (٢) ، يستصرخه على ألفونسو، ويدعوه إلى الجواز إلى الأندلس للجهاد وإحياء شريعة الإسلام . فاستشار ابن تاشفين كاتبه عبد الرحمن بن أسباط فى هذا الشأن ، وكان أندلسيا من أهل الرية ، فأشار عليه بأن يشترط على ابن عباد أن يخلى له عن الجزيرة الخضراء ليجعلها قاعدة لا تزال قواته ، فلما علم ابن عباد بذلك جاز إلى المغرب فى أسطول الأندلس فى سنة ٤٧٨ هـ ، بعد أن استخلف على إشبيلية ولده الرشيد ، وكتب لابن تاشفين عقدا يقضى بتسليم الجزيرة الخضراء إلى المرابطين فى ربيع الأول سنة ٤٧٩ هـ (٣) . ويذكر عبد الواحد المراكشى أن يوسف بن تاشفين عبر لابن عباد عن رغبته فى الجهاد بقوله : « أنا أول منتدب لنصرة هذا الدين ، ولا يتولى هذا الأمر أحد إلا أنا بنفسى » (٤) ، وعاد ابن عباد على أثر ذلك إلى إشبيلية ، أما يوسف فقد أخذ يستعد بجيوشه ، ثم رحل إلى سبتة ، للإشراف على نقل قواته إلى الأندلس فى شهر جمادى الأولى من

---

(١) الحلل الموشية ، ص ٢٨ — ابن الخطيب ، أعمال الأعلام، القسم الخاص بالأندلس ، ص ٢٤٠

(٢) ابن الخطيب ، المرجع السابق — ويذكر صاحب الحلل سنة ٤٧٩ تاريخا لمكاتبة ابن عباد لابن تاشفين

(٣) ابن خلدون ، ج ٦ ص ٣٨٢ — ابن الخطيب ، المرجع السابق ص ٢٤٦

(٤) المراكشى ، ص ١٢٦

الستة ، فاجتمع له نحو من آلاف فارس عبروا البحر إلى الجزيرة الخضراء .
ويذكر أن الفونسو لما بلغه اتصال ملوك الأندلس بيوسف واعتزامهم به عليه ، واضطرام يوسف الجاز إلى الأندلس لنصرة إخوانه في الدين ، وتجرد المعتمد بن عباد عليه في دفع الجزية ، أراد أن يحث يوسف على سرعة القدوم إلى الأندلس أملا في إلحاق المزعجة به ، والتفرغ بعد ذلك للقضاء على ملوك الطوائف ، فأغار على البلاد حتى وصل إلى ساحل البحر عند الجزيرة ، وكتب إلى الأمير يوسف مانصه : « من أمير النصرانية أدفونش بن فرذلند إلى يوسف بن تاشفين : أما بعد فإنك اليوم أمير المسلمين ببلاد المغرب وسلطانهم ، وأهل الأندلس قد ضعفوا عن مقاومتي ومقابلتي ، وقد أذلهم بأخذ الجزية منهم وبالقتل والأسر والذل والقهر ، وأنا لا أقنع إلا بأخذ البلاد ، وقد وجب عليك نصرهم لأنهم أهل ملتك فإما أن تجوز إلي ، وإما أن ترسل إلي المراكب أجوز إليك ، فإن غلبتني كان ملك الأندلس والمغرب إليك ، وإن غلبتك انقطع طمع الأندلس من نصرتك إياهم ، فإن نفوسهم متعلقة بنصرتك لهم » . فلما وصل هذا المكتاب إلى يوسف أمر أن يكتب له على ظهر كتابه : « من أمير المسلمين يوسف إلى أدفونش ، أما بعد فإن الجواب ماتراه بعينك لا ماتسمعه بأذنك ، والسلام على من اتبع الهدى » . وأردف الكاتب بيت أبي الطيب :

ولا الكتب إلا المشرفية عندنا
ولا رسل إلا الخيس الصوارم (١)

والقارئ لهذه الرسالة يشك في صحتها ولكن الأساتذة ليفي بروفنسال

---

(١) الحلل الموشية ص ٢٦ — ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، القسم الثالث ، ص ٢٤٠

وغرسية جومث ، وأدليفر آسين ، نشروا رسالة كتبها يوسف بن تاشفين إلى الناصر تميم بن المعز بن باديس يذكر له فيها هزيمته الألفونسو بالزلاقة ، تضمنت هذه الحقيقة . يقول ابن تاشفين : « وكان قد تقدم إلينا بالعدوة من قبل الأذفونش أمير النصارى رسالة يخاطبنا فيها بالجواز إلينا ، إذا عجزنا عنه ، وفرقنا منه ، تعطوه المراكب وتسلموا إليه الثغور والقواعد ليرد عليها ، ويقاتلنا في مأمننا ، فلم نلتفت إليه ، ولا عرجنا عليه » (١) .

ب ـ موقعة الزلاقة:

أجاز المرابطون البحر إلى الجزيرة الخضراء ، وتلقاهم المعتمد أحسن لقاء ، واستقبل المعتمد أمير هم يوسف بن تاشفين في وجوه أهل دولته ، وقدم إليه الهدايا والتحف ، ولما دعاه للنزول إلى إشبيلية للراحة من الرحلة ، لم يجد ابن تاشفين قبولا ، ولم يرحب بهذه الدعوة ، وقال : « إنما جئت ناويا جهاد العدو فحيثما كان العدو توجهت وجهه » (٢) . ثم أخذت قوات المرابطين تتقدم نحو إشبيلية ، وكان يقودها من قوادهم الكبار سليمان بن داود ابن عائشة ، وانضمت إليها قوات المعتمد ، وبعض قوات يحيها ابن صمادح صاحب المرية (٣) . وساهم في هذا الجيش الإسلامي المؤتلف عبد الله بن

---

(١) Lévi-Provençal, Garcia Gomez, Oliver Asin: Novedades sobre la batalla llamada al-Zallaqa, al-Andalus, vol. XV, 1950, P. 112

(٢) المراكشي ، ص ١٣٢

(٣) اختار ابن صمادح ليوسف من عدم استطاعته التخلص بنفسه بسبب العدو الماثل له بعض ليبعث من حمل ورقه ، كما اختار بكر السن من الخصف ( أنظر كتاب التبيان ، أو مذكرات الأمير عبد الله الزيري ، نشره ليفي بروفنسال ، القاهرة ، ١٩٥٥ ص ١٠٤ ) . وبعض الأساتذة اسبوسيو اربيس سواهدا أنه آخر البناء اعتبارا للبيعة لحركة الثورة (ارجع =

بلكين صاحب غرناطة وأخوه تميم صاحب مالقة ، وابن ذي النون . وبلغ الفونسو السادس ، وهو مقيم على حصار سرقسطة تحرك القوات المغربية الأندلسية نحو إشبيلية ، فاضطر إلى رفع الحصار عن سرقسطة وبدأ يحشد القوى النصرانية ويستنجد بأمم المسيحية ، فوفدت إليه سريات من الفرسان من ولايات فرنسا الجنوبية من لانجدوك ، وجسكونية ، وبرجندية ، وبروفانس ، وقد عقدت آمالا كبيرة في الظفر بعشم كبير . وتحالف الفونسو مع سانشو راميرث ملك أرغون وصاحب بنبلونة ، والكونت برنجار برشلونة ، وكان سانشو مشغولا بحاصرة طرطوشة ، بينما كان برنجار يأهب لغزو بلنسية ، فانضما إلى الفونسو السادس بجميع قواتهما ، أما الفونسو فقد حشد قوات هائلة من جليقية ، وليون ، وبسكونية ، وأشتوريش ، وقشتالة [1] . وكانت قوات المرابطين قد وصلت إلى إشبيلية ، وأقامت بها ثلاثة أيام ، ثم ارتحلت إلى بطليوس ، فلقيهم المتوكل بن الأفطس بالقرب من بطليوس ، واحتفل لهم بالضيف والعلف والقرى الواسع [2] . ومسكرت قوات المسلمين شمال بطليوس ، بين بطليوس وقورية ، أي بين ضفتي وادي آنه ووادي تاجه . وتحركت قوات الفونسو متجهة نحو بطليوس [3] حتى وصلت على بعد ثلاثة أميال من معسكرات المسلمين ،

---

(Ambrosio Huici Miranda, La invasion de los Almoravides y la batalla de Zalaca, Hesperis, t. XI, 1953, p. 40.) انظر:

(١) ابن عذاري ، تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين ، ترجمة الأستاذ محمد عبد الله عنان ، القاهرة ١٩٥٨ ، ص ٨٠

(٢) المقال الوشية ص ٣٠

(٣) ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، القسم الثالث ، ص ٢٢٢

وضربت خيامها فى حصن الزلاقـــة ( باللاتينية Sacralias ) حيث قامت المعركة الكبرى الحاسمة بين جيوش الإسلام والمسيحية . وكانت معسكرات أهل الأندلس قد ضربت بازاء حلات النصارى، بينما عسكرت قوات يوسف ابن تاشفين وراءهم على أميال منهم (١) . وفى ليلة ١٢ رجب سنة ٤٧٩ هـ ، باغت قوات الفونسو معسكرات أهل الأندلس ، فانهزمت عند أول لقاء، ودارت عليهم الدائرة ، وأبى ابن عباد بالرغم من ذلك بلاء حسنا ، ثم أرسل كاتبه ابن القصيرة إلى يوسف بن تاشفين ، فركب يوسف من فوره على رأس قواته ، وقصد محلة الفونسو ، فاقتحمها وأضرمها نارا ، وضرب طبوله ، فاهتزت لهـــا الأرض ، وتجاوبت الآفاق ، فارتاعت قلوبهم ، وتخلخلت أفئدتهم ، ورأوا النار تشعل فى محلتهم ، وأتاهم الصريخ بهلاك أموالهم وأخيتهم، فسقط فى أيديهم فألوا أعنتهم ورجعوا قاصدين محلتهم، فالتحمت الفئتان ، واختلط الفريقان ، واشتدت المكرة ، وعظمت الهيجاء ، والحرب تدور على الحين ، وتطحن رؤوس رجاله ، ومشاهير أبطاله، وتقذف بخيلهم عن يمينه وشماله ، وتداعى الأجناد والحشم والعبيد للنزال والترجيل على ظهور الخيل ، ودخول المعترك ، فأمن الله المسلمين ، وقذف الرعب فى قلـــوب المشركين ، وتخطـرا بين عسكر ابن عباد وعسكر يوسف بن تاشفين » (٢) .

أرسل يوسف فرقة العبيد للمساهمة فى القتال ، فدخلوا ساحة المعركة بالمزاريق ، ، وانقضوا على قوات الفونسو ، فـــدارت الدائرة عليه وعلى

---

(١) المرجع السابق ص ٢١٢

(٢) الحلل الموشية ، ص ٤٣

أصحابه ، وجرح الفونسو جرحا بالغا ، إذ لحق به عبد أسود طعنه في فخذه بخنجر ، ففر الفونسو في جنح الظلام ، ولاذ هو وفلول جيشه بربوة ، ثم تسللوا هاربين إلى طليطلة . وعلى أثر انتصار المسلمين ، قفل يوسف ابن تاشفين إلى المغرب ، إذ ورد عليه الخبر بموت ابنه أبي بكر (١) ، فترك لسير بن أبي بكر مهمة مواصلة الجهاد . ويعتقد الدكتور حسن حمود ، أن سنة ٤٨٠ هـ هي السنة التي توفي فيها أبو بكر بن عمر رئيس المرابطين ، بدليل أن العملات المرابطية ظلت تضرب باسم أبي بكر بن عمر من ٤٥٠ إلى ٤٧٩ هـ . فليس ببعيد أن يكون الأمر قد اختلط على المؤرخين ، فقالوا إنما رحل لوفاة ابنه بدلا من ابن عمه (٢) . وهكذا عمت قوات المرابطين بقيادة يوسف بن تاشفين الدار التي لحق ملوك الأندلس ، من منة الفونسو السادس لهم .

ولقد كان لانتصار المسلمين في الزلاقة عدة نتائج هي :

١ ـ حرر سرقسطة وجاطبة من الرقوع في أيدي القشتاليين ، وكانوا يحاصرونها عندما زلت قوات المرابطين بالأندلس .

٢ ـ أحدث تغييرا مفاجئـــا في مجرى حركة الاسترداد التي خططها الفونسو السادس ، فقد أرسل الفونسو بعد هزيمته في الزلاقة طالبا العون من أمراء الأقاليم الجنوبية بفرنسا ، مهددا لهم حالة في عدم مساعدتهم له

---

(١) المرجع السابق ص ٤٧

(٢) حسن حمود ، قيام دولة المرابطين ، ص ٢٨٢ . ارجع الى تفصيلات هذه المعركة في كتاب A. Huici Miranda, op. cit ـ الدكتور حسن حمود ، قيام دولة المرابطين ، ص ٢٢٣ ـ ٢٢٨ .

بمحالفة المسلمين ، فأخذ الفرنسيون يتنافسون فى تنظيم حملة كبيرة. ولكن الفونسو عدل عن خطته فى الاستعانة بالفرنسيين خشية أن يفسد ذلك من علاقته مع ملوك الطوائف بعد أن عاد يوسف بن تاشفين إلى مراكش ، فأرسل الفونسو يستغنى عن خدمات من لم يعبر منهم جبال البرانس بعد ، غير أن الوافدين منهم دخلوا فى خدمة سانشو راميرث ملك أرغون ، وهاجموا تطيلة فى شتاء سنة ٤٨٠ هـ ، وفشلوا فى هذا الهجوم ثم تراجعوا .

٣ ـ عالج الفونسو السادس قائده السيد الكمبيطور بعد أن احتاج إلى سيفه ، واستقبله فى طليطلة فى هذا العام (١) .

٤ ـ رفع من شأن المرابطين أمام الرأى العام الإسلامى ، وصورهم فى صورة المجاهدين عن الاسلام ، المدافعين عن أراضيه ، الذابين عن ثغوره .

٥ ـ أسقط من قدر ملوك الطوائف فى نظر رعيتهم ، ومهد السبيل إلى إسقاط دويلات الطوائف ، وضم الأندلس إلى دولة المرابطين فى المغرب .

ج ـ تغلب يوسف بن تاشفين على الاندلس :

جاء انهيار المسلمين فى الزلاقة بعد سلسلة من الهزائم المتتالية على أيدى القشتاليين ، لذلك بالغ المسلمون فى تقديره ، وقارنوه بأيام الإسلام المشرقة ، ويصور صاحب الحلل الموشية عن ذلك بقوله : « وكان يوما لم يسمع بمثله من اليرموك و القادسية ، فيا له من فتح ما كان أعظمه ، ويوم كبير ما كان

---

(١) ارجع الى رسالة الدكتوراه الآتية Afif Turk, El Reino de Zaragoza en el siglo XI de Jesucristo, tesis para el grado de Doctor, Madrid, 1966 pp. 221 - 225.

أكرمه . فيوم الزلاقة ثبتت قدم الدين بعد زلاتها ، وعادت طلعة الحق إلى إشراقها ، تنسّت عنق الجزيرة بعض التنفس ، واعتزّ بهـــا وقوس الأندلس ... »[1] .

ولكن موقعة الزلاقة لم تكن سوى صدمة أصابت القشتاليين لزمن قصير ، ثم أخذوا يفيقون منها ، فان هزيمتهم لم تكن من ضعف وتخاذل ، وإنما ترجع إلى غرور الفونسو بنفسه ، واعتزازه بقـوته وسوء تصرفه . فلم يكد يمضي عام واحد على هزيمته حتى كان قد تمكن من استعادة قواته فنقل ميدان نشاطه هذه المرة إلى شرق الأندلس ، إذ أن غربها كانت تقوم فيه مملكتان قويتان هما مملكتا إشبيلية وبطليوس ، تسعدهما فرقة من المرابطين قوامها ثلاثة آلاف مقاتل ، تركهـا يوسف بن تاشفين تحت تصرف المعتمد بن عباد . أما الشرق فعلى العكس من ذلك كان عزقا من الناحية السياسية[2] ، بالإضافة إلى أن جيوش المرابطين لم تكن قد وصلت إليه بعد[3] ، فبادر الفونسو السادس بمصالحة السيد الكنبيطور ( صاحب

---

(١) الحلل السندسية ، ص ٤٧ .

(٢) كانت تقوم فيه دويلات صغيرة ضعيفة ، هي الأرتة ، والسهلة ، والبونت ، وبلنسية ، ودانية ، ومرسية ، والمرية . وكانت تتوسطه قلعة منيعة لا تزال لها آثارها هي قلعة ليط التي كانت تشرف عالية يتراوح عددها ما بين ١٢ و١٣ ألف مقاتل ، وكانت العصابات القشتالية تغير من هذا الحصن على المناطق المجاورة ، وتثير الدمار فيها . ( ارجع الى :

Ramirez (Mariano Gaspar) : Murcia musulmana, Zaragoza, 1960 p. 128.

Menendez Pidal ( R. ) : El Cid Campeador, Coleccion (٣) Austral, Buenos Aires, 1950, p. 136 - Menendez-Pidal, Espana del Cid, Madrid, 1947, t. I, p. 360

القصص ) فى طليطلة فى ربيع سنة ٤٨٠ هـ ( ١٠٨٧ م ) ، فنفاه بعد ١٦ سنة قضاها السيد فى خدمة ملوك سرقسطة : المقتدر أحمد بن سليمان بن هود ( ٤٣٨ - ٤٧٤ هـ ) ، وابنه المؤتمن يوسف بن أحمد ( ٤٧٤ - ٤٧٨ ) ، ثم ابنه أحمد المستعين الثانى (٤٧٨ - ٥٠٣ هـ) ضد القطلانيين حينا والأرغونيين حينا ، والقشتاليين حينا آخر [١] . ثم منحه إقطاعات واسعة ، منها حصنا غرماج الأموى ودوغيماس [٢] . وفى العام التالى اتجه الكنبيطور إلى سرقسطة عند أصحابه بنى هود ، ومن هناك بدأ يعمل على تنفيذ الخطة التى رسمها مع سيد الفونسو لضم شرق الأندلس ، وبالذات مدينة بلنسية [٣] ، بينما قام غرسية خيمنث قائد حصن لبيط [٤] بشن غاراته المدمرة على إمارات المرية ومرسية ولورقة ، فنشر الخراب فى هذه المناطق ، وحول أراضيها إلى مجارى قاحلة ، ونتج عن هذه الغارات المتواصلة أن أصبحت إمارتى مرسية ولورقة مهددتان بخطر قشتالى محتوم [٥] ، وانعقد أمل الأندلس الأمن والسلام ، وساء الموقف فى الأندلس من جديد . ولم يكن قد مضى على انحسار المسلمين فى الزلاقة عامان . ففجع المسلمون بالنكوى ، وامتعرضوا المرابطين للمرة الثانية ، فوفدت على يوسف بن تاشفين

---

(١) Alfil Turk, op. cit. pp. 171 - 185

(٢) Menendez - Pidal, El Cid, p. 330

(٣) كان القادر بن ذى النون ملك طليطلة قد تنازل لألفونسو عن طليطلة على أن يملكه بلنسية عوضا عنها ، وقد أوفى له الفونسو بهذا الوعد ، وساعده فى دخول بلنسية فدخلها صلحا فى سنة ٤٧٨ ( ابن عذارى ، م ٣ طبعة ليفى بروفنسال ، ص ٢٠٤ ) .

(٤) Codera, Decadencia y Desaparicion de los Almoravides en Espana, Zaragoza 1899, p. 8 - Romero, op. cit. p. 130

(٥) Ibid. p. 134

بحاضرته مراكش جملة من أهل بلنسية ومرسية ولورقة ، فشكوا له ما حل بأهل بلنسية من قوات فلكنيطور ، كما شكوا له ما حل بأهل مرسية وأعمال لورقة بوساطة من غارات حامية لييط القشتالية (١) . ثم تقدم إليه المعتمد ابن عباد ، فحذاه ابن تاشفين أحسن قبول في موضع بوادي سبو . وكان مجيئه لترضين الأمين ، استرجاع حصونه بمرسية بعد أن تغلب عليها ابن رشيق ، والثائر ، وفض حد الغارات القشتاليين المتواصلة على أملاكه في شرق الأندلس ، « وعظم له شأن لييط ، وأنه في قلب البلد ، وأن لا راحة للمسلمين إلا بفقده » (٢) . ولم يجد يوسف بن تاشفين بدا من استجابة رغبات أهل الأندلس ، في مقاتلة القشتاليين ، غير الزاق للمرة الثانية ، وتوافت إليه جيوش الأندلس ، ممثلة لكل دويلات الطوائف . ولكن حصار المسلمين للحصن ، رغم طول أمده ، انتهى بالفشل ، لشدة مقاومة الحامية القشتالية ، ولحصانة الحصن ومناعته ، واستعصاء نقبه ، ولاختلاف كلمة المسلمين . فقد شكا المعتمد بن عباد ابن رشيق صاحب مرسية ، الثائر عليه ، إلى يوسف بن تاشفين ، وذكر اعتداءه عليه ، كما اختلف ابن صاحب مع ابن عباد . وأخذ ملوك الطوائف يوافقون أنفسهم أمام ابن تاشفين ، ويحكمونه في منازعاتهم ، حتى ضاق بذلك ، وكان الحصار قد طال ، وتأهب الفرنسو لزحف بجيشه لنجدة حامية لييط ، كل هذه الأسباب حملت يوسف على رفع الحصار ، والعودة إلى حاضرته مراكش عن طريق المرية (٣) . ثم بلغ ابن تاشفين وهو بحاضرته في المغرب أن الأمير عبد الله

---

(١) الحلل الموشية ، ص ٤٧ ، ٤٨

(٢) مذكرات عبد الله الزيري ، ص ١٠٨

(٣) Codera, op. cit. p. 8

الزيري صاحب غرناطة اتفق مع البرغواطي Alvar Bravo ، وكيل الفونسو السادس في جهات غرناطة والمرية ، وتعاقد معه على نصرته بنحو ٣٠ ألف دينار . وكان ابن رشيق قد ثبت تعاونه مع النصارى أثناء قيام المسلمين بحصار حصن لبيط [1] . لذلك عزم ابن تاشفين عزما صادقا على استئصال شأفة ملوك الطوائف ، والإطاحة بعروشهم ، بحجة أنه لا ينبغي لهم قتال الروم ، وبتركوا وراءهم الأعداء من يوامي عليهم معهم [2] . فجاز إلى الأندلس للمرة الثالثة في سنة ٤٨٣ هـ ، وهو ينوي هذه المرة القضاء على دويلات الطوائف ، وتوحيد كلمة الأندلس ، وتأليف جبهة أندلسية مغربية متحدة لمواجهة خطر النصارى المتزايد . وبدأ يوسف بنكبة الأمير عبد الله الزيري صاحب غرناطة ، فعزله عن ملكه ، وناء إلى مكناسة [3] . ثم أردفه بأخيه تميم صاحب مالقة . وفي سنة ٤٨٤ هـ أرسل أربعة جيوش مرابطية إلى الأندلس لمنازلة ملوك الطوائف وحصارهم في بلادهم ، فعهد إلى ابن عمه الأمير سير بن أبي بكر بمحاصرة إشبيلية ودخولها ، والقبض على المعتمد بن عباد وحمله أسيرا إلى المغرب ، كما عهد إليه أيضا بالاستيلاء على بطليوس وإسقاط دولة المتوكل على الله عمر بن المظفر بن الأفطس ، وقد نفذ سير أمر يوسف ، فدخل المرابطون إشبيلية ، وسيق المعتمد أسيرا إلى أغمات حيث توفي في سنة ٤٨٨ هـ . أما المتوكل ، فقد كان مصيره أسوأ من ذلك ، إذ قتل هو وأبناؤه في أواخر سنة ٤٨٦ هـ .

---

(١) كان بلورم وبيلهم غرناطا قد بجل عليه بقدم (مذكرات الأمير عبد الله الزيري)

(٢) نفس المرجع ص ١٢٠

(٣) الحلل الموشية ص ٥٦

كذلك عهد يوسف بن تاشفين إلى أبي عبد الله بن الحاج بفتح قرطبة ، وإلى أبي زكريا بن واسنو بفتح المرية ، وإلى حرور الحبشي بفتح رندة ، وإلى داود بن عائشة بفتح السهلة واليونت ومرسية . وقد علل يوسف بن تاشفين إسقاطه للملوك الطوائف بقوله : « إنمـــا كان غرضنا في ملك هذه الجزيرة أن نستنقذها من أيدي الروم ، لما رأينا استيلاءهم على أكثرها ، وغلبة ملوكهم ، وإلجائهم للغزو ، وتواكلهم ، وتخاذلهم ، وإيثارهم الراحة ، وإلمامة أحدهم كأس يشربها ، وقينة تسمعه ، وهو يقطع به أيامه ، ولئن عشت لأعيدن جميع البـــلاد التي ملكها الروم في طول هذه الفتنة إلى المسلمين ، ولأملأنها عليهم — يعني الروم — خيلا ورجالا لا عهد لهم بالفسحة ، ولا علم عندهم برخاء العيش ، إلمام أحدهم فرس يروضه ويستفرهه ، أو سلاح يستجيده ، أو صريخ يلبي دعوته ... » (١) .

ولم يستثن من ملوك الطوائف سوى المستعين بالله أحمد بن هود صاحب سرقسطة ، فقد كان لا ينازعه ما في يده ، « ولا تطرق ظلمه ، قبولا منه للغزو ، وإقرارا فيما بينه وبين العدو ، لما تجده مضايقته من تصيير ما يليه إلى الروم ، فكان يلاطفه ، ووجه إليه ابن هود والده عبد الملك ( في صحبة وزيره أبي الاصبغ وأبي عامر ) ، فقام بحقه ، وصرفه مكرما ، وأصحبه كتابه » (٢) . وكان ابن هود ، قد كتب إليه قائلا : « نحن بينكم وبين العدو سد ، لا يصل إليه ضرر ، ومطاعين قطوف ، وقد قنعنا بما لديكم » (٣) .

---

(١) المراكشي ، ص ١٩٣

(٢) ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، القسم الخاص بالأندلس ، ص ١٢٣

(٣) الحلل الموشية ص ٤٠ ، ٤١

فرد عليه يوسف بن تاشفين رسالة ذكر ابن الخطيب نصها الكامل (١) .

ويعتقد الأستاذ الدكتور عفيف ترك أن المعتمد كان يهدف من وراء هذه السفارة اجتذاب المرابطين إلى مظاهرة الإسلام فى الأندلس ، بعد أن ساء الوضع كثيرا عقب مقتل القادر بن ذى النون فى بلنسية فى ١٣ رمضان سنة ٤٨٨ هـ وما تلا ذلك من أحداث خطيرة ، حلت السيد الدكتور عفيف ترك أن يكون المعتمد بالله ويوسف بن تاشفين ، قد اتفقا على تطهير منطقة بلنسية من الفشتاليين ، وتحريرها من احتلالهم ، ويذكر أنه قد يكون من بين بنود المعاهدة أن يساعد يوسف المعتمد بالله على استرجاع أراضى طرطوشة ولاردة من المنذر الجيبى ، وضمها إلى مملكة سرقسطة لتكوين جبهة قوية مع المرابطين الوقوف أمام نوايا قشتالة وأرغون التوسعية . ومن المرجح أن تكون هذه السفارة المودية قد وصلت إلى مراكش عندما انهى ابن عائشة المرابطى من التغلب على مرسية وبانية فى الوقت الذى كان السيد فيه يضيق الخناق حول بلنسية فى أواخر سنة ١٠٩٣ ( ٤٨٦ — ٤٨٧ هـ ) ؛ (١) .

ولقد قامت العلاقات الودية بين ملك سرقسطة وبين يوسف بن تاشفين ، فى سنة ٤٩٦ هـ قدم ابن تاشفين إلى قرطبة ، فأرسل إليه المعتمد بالله ابنه عبد الملك الملقب بعماد الدولة بهدية جليلة من جملتها ١٤ رمحا من آنية

---

(١) ابن الخطيب ، المرجع السابق ، ص ١٢٣ ، ١٢٤ .

(٢) Afif Turk, op. cit. p. 232-235

الفتنة مطرزة باسم المقتدر بن هود (١) ، وظلت هذه العلاقات الودية قائمة في حياة المستعين ، إلى أن استولى المرابطون على سرقسطة في عهد عبدالملك عماد الدولة في ٩٠ من ذي القعدة سنة ٤٨٠ هـ .

٥ ـ جهاد المرابطين في الاندلس منذ دخولها في ملك دولتهم في المغرب :

كانت رسالة المرابطين منذ بداية تدخلهم في شؤون الأندلس تهدف إلى إنقاذ الإسلام في الأندلس ، ولقد بذلوا حقا في هذا السبيل جهودا جبارة ، وقضوا السنين عاما تلو دامت فيها دولتهم بالأندلس في جهاد ومثاغرة ضد النشتاليين والأرغونيين . فقد تمكن القائد ابراهيم بن اسحق اللمتوني من هزيمة قوات النصارى بقيادة البرهانش في المدور جنوبي الأندلس ، ونجح داود بن عائشة في استرجاع حصن ليط . وكان الكنبيطور قد استولى على بلنسية في سنة ٤٨٨ هـ (٢) ، كما كان بدرو بن سانشو وامبرث المعروف في المصادر العربية بابن ردمير ، ملك أرغون قد استولى على وشقة من بلاد المستعين بالله أحمد بن هود سنة ٤٩٠ هـ . ولكن القائد المرابطي محمد بن عزدلي نجح في استرداد بلنسية سنة ٤٩٥ هـ بعد وفاة الكنبيطور (٣) . وتبع ذلك استيلاء المرابطين على مريطر والمنارة والسهلة وغيرها من الحصون الموزعة في شرق الأندلس ووسطها ، وانتصروا على قوات الفونسو السادس في قنسوجرة ، وقونكة ، وطليطلة في سنة ٤٩٤ هـ . وفي عهد الأمير علي بن يوسف ، تمكن المرابطون بقيادة تميم بن يوسف من هزيمة

---

(١) ابن الخطيب ، المرجع السابق ص ١٢٤

(٢) ابن عذارى ، البيان المغرب ج ٤ ، ص ٣٥٦

(٣) نفس المرجع ، ص ٣٠٦ ـ الذخيرة ، ج ٦ ص ١٦٨

قوات الفونسو السادس عند أقليش Uclés في ١٧ شوال سنة ٤٧٩ هـ ، وقد هذه الواقعة قتل الأمير سانشو بن الفونسو السادس من زايدة المسلمة ، كنة للمعتمد بن عباد [1] ، كما قتل عدد كبير من مقاتلة النصارى ، وكانهم ، يبلغ نحو ٢٣ ألفا ، من بينهم سبعة نواس ، ولذلك عرفت الموقعة بموقعة القواس السبعة « Batalla de los Siete Condes » (٢) . وقد استولى المرابطون على أثر ذلك على مدينتي قونكة ووبذة . وفي سنة ٤٨٠ هـ جاز علي بن يوسف إلى الأندلس ، وخرب منطقة طليطلة ، واستولى على بعض الحصون نخص بالذكر منها حصن عربيط Madrid ووادي الحجارة . وفي ذي القعدة سنة ٤٨٠ هـ غزا الأمير سير بن أبي بكر الغرب ، وتغلب على شنترين وبطليوس وشنترة وبرتقال وبابرة وأشبونة . أما بالنسبة لملكتي أرغون وقطالونية ، فقد لقي المرابطون منها أشد العنت بسبب غزوات الفونسو المحارب ملك أرغون . ففي رجب سنة ٤٨٣ هـ ، هزم ملك أرغون المستعين بالله بن هود ، وقتله في واقعة بلتيره ، واستولى على تطيلة ، ثم استردها منهم المرابطون . وفي سنة ٤٨٤ هـ هزم الفونسو المحارب قوات المرابطين أمام سرقسطة ، فاضطروا إلى الانسحاب منها . وفي سنة ٤٨٢ هـ دخلها الفونسو المحارب ، واتخذها عاصمة له ، وتم بعد ذلك طرد كونة

---

(١) Lévi - Provençal, Islam d'Occident, Paris 1948, pp. 137-151

والترجمة العربية : الإسلام في المغرب والأندلس ، القاهرة ١٩٥٦ ، ص ١٥٦ — ١٦٤ ، وانظر أيضا : الزحريني ، أنس الطبر في بيان أسكام من غلب على وطنه النصارى ولم يهاجر ، تحقيق الدكتور حسين مؤنس ، مجلة المعهد المصري بمدريد ، ١٩٥٧ ، ص ١٨٩ ، ١٩٠

(٢) Codera, op. cit p. 9

وقلعة أيوب . وفى سنة ٥١٤ هـ كانت هزيمة المرابطين فى كتندة من سير دروقة ، وتبع ذلك سقوط طرسونة ، وألمونة ، ومدينة سالم ، ودورقة فى أيدى الأرغونيين . وفى عام ٥١٩ هـ ، كانت غزوة الفونسو المحارب الكبرى التى اخترق فيها بلاد المسلمين غربا وعدمرا ما قابله من قرى وحصون ومراكز عمرانية ، حتى وصل بالقرب من غرناطة ، وانضم إليه المعاهدون من نصارى الأندلس ، وفى هذه الغزوة يقول صاحب الحلل الموشية : « وفى هذه السنة خرج الطاغية ابن ردمير إلى بلاد المسلمين ، بلاد الأندلس ، فحركت له ريح الظهور ، وذلك أن النصارى المعاهدين بكورة البيرة خاطبوه بطلب الاقتدار ، وتوالت عليه كتبهم ، وتواترت رسلهم ملحة فى الاستدعاء ، معلمة بدخول غرناطة . . . فخرج إلى سرقسطة ، ومنها إلى بلنسية . وانضم إليه عدد من النصارى المعاهدين الذين يرشدون طريق سيره ، واجتاز إلى جزيرة شقر ، ثم إلى دانيـــة ، فشاطبة ، فرسية ، ثم برشانة ، ثم بسطة ، ووادى آش . . . ومازال فى سيره حتى بيانة واستجة ، وحزم المسلمين فى البيانة ، ثم جاز على وادى هزبيل ، وعاد من حيث أتى بعد أن قضى عاما كاملا وثلاثة شهور »[1] . وفى سنة ٥٢٨ هـ تطلع الفونسو

---

(١) الحلل الموشية ، ص ٦٦ ـ ٦٩ . وقد أورد ابن الخطيب نص حملة الفونسو على شىء من التفصيل ، استنادا على ما رواه ابو بكر الرشاطى الغرناطى صاحب كتاب « الأنوار الجلية فى أخبار الدولة المرابطية » (أورده ابن الابار فى الحلة السيراء ، ص ١١٤ ـ ١٢٠) وقد أحس المسلمون بالخطر الذى تعرض له الأندلس بعد هذه الغـــزوة المدمرة ، فأتى الناصر أبو الوليد بن رشد يستنجد بالمرابطين فى بلاد المغرب ، وهناك وثيقة مرابطية كتبها أبو عبد الله ابن أبى الخصال محمد بن على بن يوسف بهذه الشأن ( انظر على سكو ، وثائق تاريخية من عصر المرابطين ، مجلة معهد الدراسات الإسلامية فى مدريد ، ١٩٥٩ ، المجلد السابع ص ١٦٢ )

المغارب إلى الاستيلاء على لاردة وإفرافة ، ولكنه انهزم هزيمة نكراء في إفرافة على أيدي المرابطين ، وقتل ابن غانية وابن مردنيش بخيانة يحيى بن علي [1] ، وفيها قتل أكثر رجاله . وتتفق الروايات على أن الفونسو المغارب لقي حتفه في هذه المرقمة (٢) .

---

(١) المقري ص ٢٤

(٢) ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، القسم الخاص بالأندلس ، ص ٢٥٩ — يوسف أشباخ ، تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين ، ص ١٦٥

## (٤)

### أسباب ضعف دولة المرابطين وانهيارها

لما توفي يوسف بن تاشفين في سنة ... ٥٠٠هـ خلفه ابنه علي بن يوسف، وتلقب بلقب أبيه «أمير المسلمين»، فجرى على سنن أبيه في إيثار الجهاد، وإعانة الثغور، وحماية البلاد، وكان حسن السيرة، جيد الطوية، نزيه النفس، بعيدا من الظلم. وقد بلغ في ذلك مبلغا كبيرا قربه من الزهاد المتبتلين من الملوك المتغلبين (١). وكان على مذهب إليه أهل الفقه والدين، فلا يقطع بأمر من أمور دولته دون مشاورة الفقهاء، فأصبح الفقهاء في أيامه سطوة وصولة لم يبلغوها من قبل. ويذكر المراكشي أنه لم يكن بمغرب من أمير المسلمين ويحذو حذوه إلا من علم علم الفروع، أعني فروع مذهب مالك، فتفقت في ذلك الزمان كتب المذهب، وعمل بمقتضاها، ونفذ ما سواها، وكثر ذلك حتى نسي النظر في كتاب الله، وحديث رسول الله صلعم، فلم يكن أحد من مشاهير أهل ذلك الزمان يعتنى بهما كل الاعتناء، ودان أهل ذلك الزمان بتكفير كل من ظهر منه الخوض في شيء من علوم الكلام، وقرر الفقهاء عند أمير المسلمين تقبيح علم الكلام، وكراهة السلف له، وهجرهم من ظهر عليه شيء منه، وأنه بدعة في الدين، وربما أدى أكثره إلى اختلال في العقائد في أشباه لهذه الأمور، حتى استحكم في نفسه بعض علم الكلام وأهله، فكان يكتب منه في كل وقت إلى البلاد بالتشديد في نبذ الخوض في شيء منه، وتوعد من وجد عنده شيء من كتبه، ولما دخلت كتب أبي حامد الغزالي - رحمه الله - المغرب، أمر أمير المسلمين بإحراقها، وتقدم

---

(١) المراكشي ص ١٧١

بالوعيد الشديد من سفك الدم ، واستئصال المال إلى من وجد عنده شيء منها ، واشتد الأمر في ذلك »(١).

كانت دولة المرابطين إذ ذاك في أوجها ، فقد ترك يوسف بن تاشفين لابنه امبراطورية كبرى تمتد من نهاية شرقا إلى السوس الأقصى غربا ، ومن السودان جنوبا إلى سرقسطة والثغر الأعلى في الأندلس شمالا ، ويبدو أن المرابطين أخذوا ينغمسون في الترف والرفاهية والرقة على مرور الأيام ، وسادت الثقافة الأندلسية في مراكش ، وأقبل رجال الأدب والعلم من الأندلس إلى بلاط الأمير في مراكش ، ومن أمثال هؤلاء أبو القاسم بن الجد ، وأبو بكر محمد بن محمد المعروف بابن القبطرنة ، وأبو عبد الله بن أبي الخصال ، وأبو محمد عبد المجيد بن عبدون وغيرهم (٢) . غير أن هذا الإقبال على الترف ومظاهر الدنيا خفف من جفوة المرابطين وخشونتهم التي كان يمتاز بها يوسف بن تاشفين عند مقارنتهم بالأندلسيين (٣). ومهما يكن من أمر هؤلاء في ثمرة هذه الحياة الجديدة المبادئ الأولى التي قامت عليها حركة المرابطين ، وبالتدريج فقد المتونة الصفات التي جعلت منهم رجال حرب مظفرين ، فظهور حال جيش المرابطين في الأندلس . ولكننا لا يجب أن نبالغ في حكمنا على المرابطين ، فتلك هذا الضعف الذي اعترى دولة المرابطين إلى تراخي جنودهم في الدفاع عن الثغور الإسلامية ، ففي ذلك ظلم كبير ، وتجني عليها ، والحقيقة أن هذا الضعف جاء أيضا ، وبصفة

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٢٢ ، ١٢٣

(٢) ليفي بروفنسال ، الإسلام في المغرب والأندلس ، ص ٢٤٢

(٣) المراكشي ، ص ١٦٣

خاصة بسبب الضربات العنيفة التي كان يسددها نصارى إسبانيا إلى الأندلس، وتكتل ممالك قطالونية وأرغون وقشتالة والبرتغال ضدهم، كما لا ينبغي أن نغفل عاملا آخر في غاية الأهمية، وهو قيام المهدي بن تومرت بالثورة على المرابطين في بلاد المغرب، مما اضطرهم إلى صرف قسم كبير من جهودهم للقضاء عليها. والواقع أن المعارك المتواصلة التي خاضها المرابطون في شبه الجزيرة، وبالذات في شرق الأندلس والثغر الأعلى، هي التي استنزفت قوى المرابطين، وقضت على كل مواردهم، فلما طالبوا أهل الأندلس بعونهم لم تتكرر هؤلاء لهم، بخلوا عنهم، وطردوا في نهاية الأمر ولاتهم عليهم، ودعوا الموحدين إلى دخول الأندلس. وقد يعد نذر الضعف الذي طرأ على دولة المرابطين في أواخر أيام يوسف بن تاشفين نفسه، ويكفي دليلا على ذلك ما رواه المقري من أن يوسف كتب إلى أهل المرية يطالبهم بالعونة، فرد عليه قاضيها أبو عبد الله بن الفراء بكتاب رفض فيه أن يمده بالمال، وطلب منه أن يدخل الجامع بمراكش، فيقسم أمام الملأ بأنه ليس عنده درهم ولا في بيت مال المسلمين: أسوة بما فعله الرسول صلعم والخليفة عمر بن الخطاب، ثم وعده في النهاية بالنظر في معاونته إذا أثبت ذلك[1]. وقد اضطر المرابطون إلى فرض ضريبة على أهل المرية وغيرها من مدن الأندلس الشامة، تعرف بالتعديل أو القصايب، يخصص دخلها لإقامة أسوار جديدة وترميم ما وهي من الأسوار القديمة (٢)، وذلك عندما

---

(١) المقري، ج ٤ ص ٢٠٢.

(٢) الأدريسي، ص ٢٠٠ — الحميري، ص ٢٢٣ من الترجمة، مخطوطة؛

Torres Balbas, el Arte de al - Andalus bajo los Almoravides, al-Andalus, vol. XVII, 1952, p. 413 - Torres Balbas,

تعرضت الأندلس لغزوة الفونسو الأول المحارب سنة ٥١٩ ، التي أحرق فيها كل بلاد الأندلس حتى غرناطة وشواطىء البحر المتوسط .

ولقد صرف علي بن يوسف الجزء الأعظم من جهوده في متابعة شؤون الأندلس ، ومراعاة أحوالها ، فقدم بنفسه إليها أربع مرات ليعقد بنفسه أحوالها ، ويسد خللها ، وشغل المرابطون في الأندلس بمقاتلة النصارى ، والحد من نشاطهم في التوسع على حساب دولة المسلمين في الأندلس ، وجندوا في سبيل ذلك كل طاقاتهم ، وسخروا جميع إمكاناتهم ، إلا أن العدو المتربص كان يشن هجومه في كل مكان في الأندلس ، فتعددت جبهات القتال ، وتوزعت قوى المسلمين في هذه الجبهات . وبالرغم من كل هذه الجهود العظيمة التي بذلها المرابطون للجهاد ونصرة الإسلام في الأندلس ، فقد تكسرت هذه الجهود أمام تقاعس أهل الأندلس عن مساعدتهم ، وتخاذلهم وتراخيهم في المساهمة في مدافعة النصارى ، بل كنا نراهم أكثر من ذلك يتحالفون مع النصارى ضد المرابطين [1] ، ويثورون عليهم للتخلص

---

= Almeria Islamica. al - Andalus, vol, XXII, 1957, p. 444.

ومما يدل على فراغ خزانة المرابطين ، واعتذار أهل الأندلس بأمر الدفاع عن مدنهم أن سور اشبيلية في عهد المرابطين كان يحتاج الى الترميم بعد سيل أتى على جانب منه ، ولم يكن باشبيلية يومئذ مال متوفر ، فعرض القاضي أبو بكر بن عربي على الناس جمعا يقام في عيد الاضحى ، فاحضروها كارهين ، ثم اجتمعت العامة للبناء ، وقامت عليه وتهيئت داره ، فاضطر الى اقامة السور من مال الخاص ( المنزي ، ج ٢ ص ٢٣٤ ، ٢٣٥ )

(١) من أمثلة ذلك انحياز عبد الملك بن أحمد المستجير الى جانب ملك قشتالة ، وتسميه في شباط سرقسطة نهائيا من المسلمين ، سنة ٥١٢ هـ ، وتعلق ابنه أحمد القائم بنصر ووطة بأذيال ابن رذمير (الفونسو المحارب ملك أرغون) وتنازله عن ووطة (ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، القسم الخاص بالأندلس ، ص ١٢٥ ، ١٢٦ )

من تجبيتهم لهم [1] . أما تعليل المراكشي لحالة الضعف التي أصابت دولة المرابطين بالاختلال الذي طرأ عليهم في آخر دولة علي بن يوسف ، نتيجة تخاذلهم ، وتواكلهم ، وطاعتهم للنساء ، وقلة ظاهرة ، وتحامل صريح ، وتجاهل لحقيقة الأوضاع السياسية في الأندلس ، يبرره تحيز المراكشي للمعاصرة الموحدين ، وميله إلى قضيتهم .

ولما توفي علي بن يوسف في سنة ٥٣٧ هـ ، وخلفه ابنه تاشفين ، توالت عليه الهزائم في المغرب على أيدي عبد المؤمن بن علي خليفة الموحدين ، واستغل أهل الأندلس هذه الفرصة ، وأعلنوا ثوراتهم في الأندلس ، فتمزقت البلاد من جديد بعد وفاة سنة ٥٣٧ هـ إلى دويلات للطوائف ، واستعان هؤلاء الثوار على المرابطين بجيوش قشتالية وبرتغالية ، ومن بين هؤلاء الثوار ابن وزير ، وأبو محمد سفراي ، ويوسف البطروجي ، وليد بن عبد الله بشتغير ، وأبو القمر بن عزون بشريش ، وابن عياض بشرق الأندلس ، وعلي بن عيسى بن ميمون بقادس ، ومحمد بن علي الحجام ببطليوس ، ومحمد بن المنذر بشلب ، وابن عنان بباجة ، والقاضي ابن حمدين بقرطبة ، والقاضي أبو الحكم بن حسون بغرناطة ، والقاضي أبو مروان عبد الملك بن عبد العزيز بمالقة ، ثم خلفه عبد الرحمن بن عياض ، فمحمد بن سعد المزدغي المعروف بابن مردنيش الذي قام إليه مرسية . ومن الثوار أيضا القاضي أبو أمية أحمد بن عاصم بأوريولة ، والقاضي يوسف بن عبد الرحمن بن جزي بجيان ،

---

(١) ثم تأمل قرطبة على الأمير علي بن يوسف في سنة ٥٣٠ هـ ( المعجب المؤتمر ، ص ٢٣ ) . وفي أواخر عصر دولة المرابطين قامت ثورات شتى في أنحاء الأندلس ضد المرابطين منها ثورة الصوفية أو المريدين في غرب الأندلس وقادها ابن قسي بمرتلة .

وأحد بن ملحان بوادي آش. أما المرية فقد ثار أهلها كذلك على المرابطين، ودخلت في فلك دولة الموحدين، فتولى على جيوش الموحدين فيها عبد الله ابن سليمان الذي قتله البحريون (١). وكان أول ولاة الموحدين عليها من قبل عبد المؤمن بن علي، والي يقال له يوسف بن مخلوف، فثار عليه أهل المرية وقتلوه، وعرضوا رئاستهم على قائد البحر محمد بن ميمون، فلم يقبل، فتقدموا على أنفسهم أبا يحيى ابن الرميمي ٢ فضبطها إلى أن استولى عليها الفونسو السابع ريموند الملقب عند مؤرخي العرب بالسليطين ملك قشتالة(٣)، في ٢٠ جمادي الأولى سنة ٦٤٤ هـ، ودخلها عنوة (٤).

ونعود إلى الحديث عن أسباب ضعف دولة المرابطين فنذكر منها أيضا أن فقهاء المرابطين لم يولوا دراسة الحديث من الاهتمام ما تستحقه، فلم يكونوا يتصرفون عنه ولا يرجعون إلى الأصول لكي يستنبطوا منها الأحكام، ويتخذوها مادة للدراسة، وإنما اكتفوا بتلك الأحاديث المجموعة في كتب الفروع، وجعلوها مرجعهم الوحيد من غير تحفظ، كما أشرنا إلى ذلك. ويعلق الأستاذ ليفي بروفنسال على ذلك بقوله: «وكان من أثر حجر الفقهاء لدراسة الحديث وما يتصل به من مصادر أن ألغى علم أصول الفقه

---

(١) البيان، ص ١٢٦

(٢) المراكشي، ص ٢١٠ ـ المقري، ج ٦ ص ٢٠٦

(٣) مجموع رسائل موحدية من كتاب الدولة المؤمنية، نشرها ليفي بروفنسال، الرباط ١٩٤١، ص ٢٥ ـ المقري ج ٦ ص ٢٠٢

(٤) استولى عليها قبل قشتالة وتدة وقطلانية وبيزة وجنوة مشتركة (Codera, op. cit. no 186) يوسف أشباخ، تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، ص ٢٢٩)

الذي تساقط بمقتضاه أحكام قد تكون جديدة ، وأدى الاعتماد على الفروع التي تضمنها كتب المذهب إلى تجريد الدراسة من روح الكشف الجذابة ، وانساق القوم وراء التقليد ، وانصرفوا عن النظر والاجتهاد ، وكان موقف الدراسات الكلامية في موضعه من الجمود المشتهى عند ظهور دعوة ابن تومرت ، ومن هنا يلبث هذا الناقد الغربي حين عاد من الشرق أن صدمته العقيدة السائدة في المغرب ، وراح يناهضها بأقصى قوة ، إلا أن ذلك لم يكن قط المأخذ الوحيد الذي أخذه المهدي المقبل على المرابطين ، بل كان هناك ما هو أشد خطرا في رأيه ، ألا وهو التجسيم ، وكان منشأ هذا الخطأ في نظره ، أن فقهاء المغرب في عهد المرابطين خلافا لزملائهم في المشرق ، وقد بلغوا حينئذ من التطور غايته فيما يتعلق بمباحث علم الكلام ، ظلوا يلتزمون في الآيات القرآنية التي فيها ذكر لصفات الله النص الحرفي لها مما يفضي إلى تجسيم الذات الإلهية ، وإلى إثبات صفات جسمانية له تعالى ، كانت هناك بطبيعة الحال عقبة كأداء بين هذه النظرية القائمة على التفسير الساذج لما تعبر عنه النصوص الأصلية وبين النظرية القائلة بالتنزيه المطلق على نحو ما تعلمه ابن تومرت من أساتذته المشارقة ، واعتنقها في حماس كبير »(١) .

كذلك أثارت قراءة كتاب إحياء علوم الدين للغزالي في بلاد المغرب موجة من التعصب عند فقهاء المرابطين ، لأن قراءة الناس لهذا الكتاب كانت تؤدي على تقويم المسائل ، إذ كان الغزالي قد فضح فيه نزعات الفقهاء في دراساتهم الفقهية ، وحرصهم على الدنيا ، وطمعهم في الحصول على المناصب الرفيعة ، وحسدهم للعلماء والزهاد ، ولم يكن العلم في نظره حرفة كالحرف

---

(١) ليفي بروفنسال ، الإسلام في المغرب والأندلس ، ص ٢٥٠

الأخرى ، أو مهنة دنيوية تعود على صاحبها بالربح العاجـــل ، وإنما هو « عبادة القلب ، وصلاة السر ، وقربة الباطن إلى الله تعالى » (١) ، فاتخذ الفقهاء في المغرب قرارا أملوه على السلطان علي بن يوسف سنة ٥٠٣ هـ ، ويقضي بإحراق كتب الغزالي في أنحاء دولة المرابطين . وكان من الطبيعي أن يثور أهل المغرب على هذا التصرف ، ولكن الفرقة المسيحية التي استعان بها علي بن يوسف في المغرب ، وكان يقودها القائد الفطلاني روبرتير كانت تحول دون قيام الأهالي بالثورة . ولذلك نبعت الثورة من مصدر آخر هو ثورة المهدي بن تومرت (٢) .

---

(١) أبو حامد الغزالي ، احياء علوم الدين ، ج ١ ص ٤٨ ، طبعة مصر سنة ١٣٠٢ هـ

(٢) السيد عبد العزيز سالم ، المغرب الاسلامي ، ص ١٣٨

## ( ٥ )

## منشآت المرابطين في المغرب

### ١ ـ دور المرابطين السياسي والحضاري في المغرب :

لما تم ليوسف بن تاشفين فتح بلاد المغرب سنة ٤٧٦ هـ ، استطاع الصنهاجيون أن يفرضوا نفوذهم في القسم الغربي من بلاد المغرب ، وبهزموا أعدائهم الزناتيين الذين إستمكن الفاطميون ، أو أمراء بني زيري من التغلب عليهم ، وبذلك ربط المرابطون بين بلاد المغرب ، وألفوا دولة كبرى بربرية الأصل لا يحكمها مشارقة ، كما كان الحال في العهود السابقة [1] . ويرجع إليهم الفضل في تكوين الوحدة السياسية للمغرب الأقصى ، فلم يكن المغرب الأقصى حتى ظهور المرابطين دولة قائمة بذاتها ، قال يوسف بن تاشفين يرجع الفضل في ضم الأراضي المغربية للمرة الأولى في وحدة وثيقة تحت لواء أسرة واحدة ، وستظل هذه الوحدة قائمة حتى العصر الحاضر .

أما من ناحية البناء الاجتماعي والاقتصادي ، فقد كان للمرابطين الفضل في قيام تجمعات عمرانية هامة مثل مكناس وتلمسان ومراكش [2] على الرغم من قضائهم على التكتل البرغواطي أساس قيام الدولة المغربية ، وتدميرهم للقرى والمباشر أثناء صراعهم مع قبائل زناتة وبرغواطة .

ومن الناحية الدينية عمل المرابطون على نشر المذهب المالكي في البلاد ، فانتهى الأمر بالمغرب إلى ارتباطه بوحدة مذهبية وثيقة تقوم أساسا على

---

(١) Marquis, le Berbérie, p. 211

(٢) Terrasse, Histoire du Maroc, t. 1, p. 257

المذهب المالكي . كذلك يرجع إلى المرابطين الفضل في رفع راية الجهاد ضد النصارى في إسبانيا ، فأنقذوا بذلك الإسلام في إسبانيا من الاندثار مثل مسيحي وشيك .

أما من الناحية الفنية ، فالمرابطون هم الذين دفعوا الحضارة الأندلسية إلى الأمام وفتحوا أبواب للغرب ليتلقى فيضا من التأثيرات الأندلسية التي بدأت تتدفق في عصرهم على البلاد المغربية ، بعد أن كانت هذه الأبواب موصدة في العصور السابقة أمام هذه التأثيرات ، فلم تكن تنفذ منها إليها إلا ما كان يتسلل عن طريق منافذ فتحها الأمويون في سبتة وفاس . ولأول مرة ارتبط المغرب والأندلس في وحدة فنية وثيقة ، وأصبحت الأندلس في المجال الفني أستاذا للمغرب ، فساد الفن الأندلسي في المغرب ، وظهرت تقاليده واضحة وضوحا تاما فيما تخلف من آثار المرابطين في المغرب [1] . وإذا كان يوسف بن تاشفين قد أبدى اعتماضه عند زيارته لإشبيلية من مظاهر الترف الأندلسي ، فانه لم يلبث أن شجع شعراء الأندلس وأدباءها وأهل العلم منها إلى الوفود إليه ، بعد أن أسقط ملوك الطوائف ، فاحتشدهم في بلاطه ، وفي ذلك يقول المراكشي : « فانقطع إلى أمير المسلمين من الجزيرة من أمل كل علم فحوله حتى أشبهت حضرته حضرة بني العباس في صدر دولتهم ، واجتمع له ولابنه من أعيان الكتاب وفرسان البلاغة ما لم يتفق اجتماعه في عصر من الأعصار » [2] . ومن هؤلاء أبو بكر

---

(١) Terrasse, l'art Hispano mauresque, Paris 1932, p. 223- Marçais, l'Architecture musulmane d'Occident, pp. 183 - 187

(٢) المراكشي ص ١٦٣ - ١٦٤

المعروف بابن القصيرة ، كاتب المعتمد ، وكان من أهل البلاغة ، ثم الوزير أبو محمد عبد المجيد بن عبدون ، وأبو القاسم بن الجد المعروف بالأحدب ، وأبو بكر محمد بن محمد المعروف بابن القبطرنة ، وأبو عبد الله بن أبي الخصال ، وأخوه أبو مروان وغيرهم (١) . وعلى هذا النحو تبدل بلاط يوسف بن تاشفين دفعة واحدة من بلاط يتسم بالخشونة والبساطة إلى بلاط متأنق متحضر (٢) ، وأخذ أمراء المرابطين منذ أيام يوسف بن تاشفين يستقدمون من الأندلس كثيرا من رجال الفن والبناء ، ويشركونهم في الأعمال الفنية بالمغرب ، فقد ذكر الأدريسي أن علي بن يوسف عندما عزم على بناء قنطرة على وادي تنسيفت ، استقدم من الأندلس الخبراء في بناء القناطر (٣) . ويذكر الأستاذ تراس أن حصن تاسغيموت الذي أقيم في سنة ١١٢٥ م في عهد الأمير علي بن يوسف تم بناؤه تحت إشراف مهندس أندلسي هاجر إلى مراكش ، اسمه الفلكي (٤) ، وإن كان البيذق يذكر أن الذي بناه هو ميمون بن ياسين (٥) . ويذكر الجزنائي أن علي بن يوسف أمر قاضيه أبي محمد عبد الحق بن عبد الله بن مسيشة الغرناطي بعمل منبر جامع القرويين بفاس (٦) . كذلك تدل الآثار المعمارية الباقية في تلمسان

---

(١) نفس المرجع ص ١٢٣ ، ١٢٤

(٢) ليفي بروفنسال ، الاسلام في المغرب والأندلس ، ص ٢٤٧

(٣) الأدريسي ، ص ٦٩

(٤) Terrasse, l'art hispano mauresque, pp. 226, 227

(٥) البيذق ، ص ١٢٨

(٦) الجزنائي ، ص ٤٢

والجزائر ومراكش على أن فنانين ومهندسين أندلسيين ساهموا مساهمة فعالة في بنائها وتزيينها بالزخارف على النحو الذي سنراه فيما بعد .

ب ـ دراسة لأهم مساجد المرابطين في المغرب :

اهتم المرابطون ببناء المساجد اهتماما خاصا ، والدليل على ذلك أن يوسف ابن تاشفين عندما دخل مدينة فاس في سنة ٤٦٢هـ « حصنها وأتقنها ، وأمر بهدم الأسوار التي كانت بها فاصلة بين المدينتين ، عدوة القرويين وعدوة الأندلس وردهما مصرا واحدا ، وأمر ببنيان المساجد في أحوازها وأزقتها وشوارعها وأي زقاق لم يجد فيه مسجدا عاقب أهله وجبرهم على بناء مسجد فيه . . . » (١) . ولما هدم الأسوار الفاصلة بين مدينتي فاس ووحدهما ، أصبح جامع القرويين الجامع الرئيسي بفاس ، ولذلك حظي هذا الجامع في عهد ابنه علي بن يوسف بزيادة كبيرة فيه ، بينما ترك جامع الأندلس على حاله حتى أضيف إليه في عصر محمد الناصر الموحدي سنة ٦٠٠هـ . كذلك أسس يوسف بن تاشفين عددا من المساجد في جزائر بني مزغنة وفي تدرومة وفي تاكرارت بتلمسان ، كما أسس جامع مراكش ، وكان يعمل في الطين والبناء بيده مع القرمة والفعلة . وقد أعاد ابنه علي بن يوسف بناء هذا الجامع بجوار قصر الحجر فشيده بناء فاخرا .

وجامع تلمسان بناء مستطيل يبلغ طوله من الشمال إلى الجنوب ٥٥ مترا ، وعرضه من الشرق إلى الغرب ٥٠ مترا . وتاريخ بناء هذا الجامع مسجل في كتابة نسخية تدور بقاعدة قبة المحراب ، وتشير إلى الفراغ من بنائه في

---

(١) روض القرطاس ، ص ٩١

سنة ٥٣٠هـ ، أما اسم منشيء هذا الجامع ، وهو الأمير علي بن يوسف ، الذي كان حفيدًا في الجص ، فقد شوهه الموحدون عند دخولهم المدينة .

ويتألف المسجد من بيت للصلاة مستطيل الشكل ، وصحن مربع تكتنفه من الغرب جنبة تتألف من أربع بلاطات ، الاثنتان الطرفتان منها غير كاملة ، إذ تحدد شكلها بالبناء القائم لصق الجامع من الجهة الغربية . أما الجنبة الشرقية فتتألف من ثلاث بلاطات تعتبر امتداداً لبلاطات بيت الصلاة .

ويشتمل بيت الصلاة على ١٣ بلاطة عمودية على جدار القبلة ، وتستند عقود الجامع على خمسة صفوف من الدعائم تمتد بمحاذاة جدار القبلة ، كل منها يشتمل على ١٢ دعامة . هذه الصفوف من الدعائم تقسم سطح بيت الصلاة إلى ٦ أساكيب تمتد من الشرق إلى الغرب ، وتنقسم أيضاً إلى مجموعتين من الأساكيب كل منها بضم ثلاثة . وتفصل بين المجموعتين دعائم معضلة الشكل تقوم عليها بائكة من العقود المتعددة الفصوص ، تقطع المسجد عرضاً بمحاذاة جدار القبلة . أما العقود الأخرى المتجهة عمودياً على جدار القبلة فمن النوع المتوخ الذي يشبه حدوة الفرس . وسقف المسجد خشبي مسطح ، يعلوه سطح منشوري الشكل أو مسنم على النحو المتبع في جامع قرطبة . والبلاطة الوسطى تزيد في الاتساع عن البلاطات الأخرى ، ويقطع سطحها قبتان ، يعلوهما جوسقان من الخارج ، واحدة منها تقع بأعلى الأسطوان الأوسط من القسم الشمالي من البلاطة الوسطى ، أي في نفس الوضع تقريباً الذي تقوم عليه القبة المقرمة الكبرى المماثلة بقبة فلاقيوسا بجامع قرطبة . أما القبة الثانية فتتقدم المحراب ، وهي قبة من النوع القائم على المثلوع المتقاطعة ، تذكرنا بقباب المسجد الجامع بقرطبة وقباب مسجد باب مردوم بطليطلة ، وتختلف عنها في أنها تقوم على جرفات ركنية مقرنصة ، وليست من القاعدة

للرجة القبة ١٢ عقدا كبيرا بارزا تتقاطع فيما بينها تاركة فى الوسط قبيبة مربعة ، وتزدان الفراغات الناشئة من تقاطع العقود بحوريقات مفرغة فى الجص ، ويحجل تقاطع العقود من الخارج أيضا . وكان يحيط بأسطوان المحراب ، أى بأدنى قاعدة هذه القبة مقصورة من الخشب ، حفظت أجزاء منها فى متحف تلمسان ، ويرجع تاريخ إنشائها إلى سنة ٧٣٣ هـ .

وبناء جامع تلمسان مر بثلاث مراحل : المرحلة الأولى عند بنائه على أيام يوسف بن تاشفين فى سنة ٤٧٥ هـ ( ١٠٨٢ م ) ، والثانية فى سنة ٧٣٠ هـ عندما زينه على بن يوسف بالزخارف الرائعة التى يزدان بها خاصة فى وجه المحراب وجدرانه والبلاطة الوسطى . ويعتقد الأستاذ مارسيه أن يغمراسن ابن زيان ، من سلاطين بنى عبد الواد ، هو الذى أضاف إلى الجامع القسم الشمال من مسطح بيت الصلاة عما فى ذلك القبة الثانية والصحن والمئذنة [1] . ويعتقد أن بيت الصلاة كان قائما فى عهد عسلى بن يوسف بقبتيه اللتين ترتفعان فى أعلى بلاطة المحراب ، وأن مهندس هذا الجامع تأثر فى بنائه ببناء جامع قرطبة من هذه الناحية ، وفى هذه الحالة تصبح أعمال بنى عبد الواد مجرد ترميمات لبناء كان قائما بالفعل منذ أيام عسلى بن يوسف . أما المسجد الجامع بالجزائر ، فقد أقيم أيضا فى عهد يوسف بن تاشفين ، ويعتقد الأستاذ مارسيه أنه أسس فى سنة ٤٩٠ هـ ، وهو التاريخ المسجل على منبر الجامع [2] ، وإن كنا نعتقد أن هذا المسجد أقيم قبل هذا التاريخ فيما بين عامى ٤٧٣ هـ ، ٤٧٥ هـ . وبيت الصلاة فى هذا المسجد يشتمل على ١١ بلاطة

---

(١) Marçais, l'Architecture musulmane, p. 197

(٢) Marçais, l'Architecture mus. p. 191

عمودية على جدار القبلة ، تخترقها خمسة أساكيب عرضية . ونلاحظ أن كل من بلاطة المحراب وأسكوبه تزيد فى الاتساع على البلاطات والأساكيب الأخرى . ويحيط بالصحن ثلاث جنبات : الشرقية والغربية تشتمل كل منها على ثلاثة أروقة تمتد بامتداد بلاطات بيت الصلاة ، أما الشمالية فلا تضم إلا رواقا واحداً . وعقود المسجد العمودية على جسدار القبلة من النوع المفروخ المكسر ، أما التوازية لجسدار القبلى فمفصصة ، وترتكز هذه العقود كما هو الحال فى جامع تلمسان على دعائم ، بعضها مستطيل الشكل والبعض الآخر منها مصلب الشكل (١) .

ومن أروع آثار المرابطين ، قبة البرودين بمراكش ، وترجع إلى عصر على بن يوسف ، وتقع فى وسط المدينة ، وكانت تؤلف جزءا من ملحقات جامع على بن يوسف ، وهى من أروع القباب المرابطية الباقية ، وتقوم فى أركان المثمن الذى يقوم عليه عنق القبة جوفات تكسوها زخارف جصية رائعة ، من التوريقات الدقيقة التى تمثل أوراق الأكنثس فى تكوينات رائعة ، وتتوسط الجوفات قوافع مروحية فى غاية الروعة والجمال (٢) .

ج — جامع القرويين بفاس :

وأعظم آثار المرابطين على الإطلاق الجامع المعروف بالقرويين بفاس ،

---

(١) Ibid.

(٢) Boris Maslow, la Qoubba Barudiyyin à Marrakech, al- Andalus, vol. XXII 1948 - Marçais, l' architecture musulmane d'Occident, p. 203

الذى يعتبر من أهم المساجد الجامعة فى بلاد المغرب ، وأكثرها شهرة ، باعتباره جامعة إسلامية قديمة يمكن مقارنتها بجامعة الأزهر فى القاهرة . وقد كان لهذا الجامع أثر بالغ فى مساجد فاس كلها ، إذ كان نظامه الفريد يؤلف طابعا انتشر فى كثير من مساجد فاس ومكناس ومراكش حتى وقتنا الحاضر (١) . وقد وصل إلينا تاريخ بناء جامع القرويين بفاس مفصلا بفضل روايات أوردها ابن أبي زرع فى روض القرطاس والجزنائى فى زهرة الآس . ولقد مر بناء جامع القرويين بثلاثة أدوار : الأول عند تأسيسه سنة ٢٤٥ هـ ( ٨٥٩ م ) (٢) ، والثانى عند الزيادة فيه سنة ٣٤٥ هـ ( ٩٥٦ ) . والثالث عندما زيدت مساحته فى عصر المرابطين فى سنة ٥٣٥ هـ ( ١١٣٥ م ) . ومن الثابت أن الزيادات التى أضيفت إلى الجامع القديم تمت من سائر الجهات .

ويذكر ابن أبي زرع أن الخطبة لم تزل فى جامع الشرفاء الذى بناه إدريس بعدوة القرويين ، وبجامع الأشياخ من عدوة الأندلس طول أيام

---

(١) Lambert, les mosquées de type andalou en Espagne et en Afrique du Nord, al - Andalus, vol. XIV, 1949

(٢) عثر الأستاذ عبد الهادى التازى فى الأرض التى كان يقوم عليها المسجد الأول على لوحة تأسيس الجامع تتضمن النص التالى : [ هذا ما أمر ببنائه الإمام أمير الله داود بن إدريس أيده الله ونصره ] ، ويستنتج الأستاذ التازى أن هذا المسجد أقيم فى سنة ٢٦٢ فى أيام الإمام داود بن إدريس . ( أنظر مقاله : نظرة جديدة فى بناء جامع القرويين ، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد ، ١٩٥٣ ، ومقاله : الحروف المنحوتة بالقرويين فى خدمة الآثار ، المؤتمر الثالث للآثار فى البلاد العربية بالقاهرة ١٩٦٩ ص ١١٦ ) . ولا نرى هذا النص لا يشير إلى بناء معين ، والأرجح أنه يشير إلى بنيه ملحقة بالجامع وليس من الضرورى أن يكون خاصا ببناء الجامع

الادارسة » ، فلما اتسعت مدينة فاس ، ووفد إليها العرب والبربر من أنحاء المغرب والأندلس ، ضاق كل من الجامعين بالمصلين ، واستلزم الأمر بناء جامعين جديدين ، وكان في عهد هؤلاء الوافدين رجل عربي من القيروان اسمه محمد بن عبد الله الفهري ، ثري وترك أموالا كثيرة ورثتها ابنتاه ، فاطمة المدعوة بأم البنين ، ومريم . وأبدت الابنتان رغبة صادقة في صرف قسم من هذا الإرث الكبير في عمل البر والخير ، ويبدو أنهما سمعتا بضيق جامعي القرويين ، عن الاتساع لجمهور المصلين ، وقيام مشكلة بناء جامعين جديدين ، فشرعت فاطمة في بناء جامع القرويين في مستهل رمضان سنة ٢٤٥ هـ ، وكان في موضعه حقل يمتلكه رجل من « وارغ » فاشترته منه فاطمة وتطوعت بالانفاق على البناء من إرثها . وتذكر الرواية أن جميع مواد بناء الجامع استخرجت من أرض المسجد نفسه ، وفي ذلك يقول الجزائي : « فحفر في أرضه ، وأخذ منها التراب والكذان لبنائه ، وحفر بهـــا بئر لأخذ الماء لبنائه ، ونصبت قبلته على نحو قبلة جامع القرنفاء الذي أسسه الإمام إدريس » (١) . وكان هذا الجامع الأول يتألف من قسمين : بيت الصلاة والصحن ، وكان بيت الصلاة يشتمل على أربع بلاطات عرضية تمتد من الشرق إلى الغرب ، تتوسطها بلاطة وسطى أكثر ارتفاعا من البلاطات العرضية الأخرى . كان طول بيت الصلاة من الشرق إلى الغرب ثلاثة وعشرين شبرا أي ما يعادل ٣٠ مترا ، وجعلت فاطمة محرابا في موضع المحراب الكبرى الموجودة في المسجد في الوقت الحاضر ، وأقامت صومعة غير مرتفعة في

---

(١) ابن أبي زرع ، روض القرطاس ، ص ٧١ ؛ اليزناسي ، ص ٣٠ ؛ ابن القاضي ، جذوة الاقتباس من ذيل بروفنسال Extrait ، ص ٢٢

موضع القبة التي تعلو المقرة الحالية . ويذكر الأستاذ جورج مارسيه أن هذه المعلومات التي زودنا بها المؤرخان السابقان على جانب كبير من الأهمية لأنها أتاحت لنا تحديد المكان الذي كان يشغله بيت الصلاة القديم من جامع القرويين في صورته الحاضرة . ويؤكد الأستاذ مارسيه ، ويؤيده في ذلك الأستاذ لامبير أن طول بيت الصلاة القديم كان يمتد من بداية البلاط الرابع من الصحن حتى نهاية البلاط السابع من المسجد الحالي ، وكان عرضه يشتمل على العقود الاثنى عشرة الوسطى المحصورة بين البلاطات المذكورة ويحدد هذا العرض صفان من العقود تقطع بيت الصلاة من الصحن حتى جدار القبلة . أما الصحن القديم فكان يشغل الأروقة الثلاثة الأولى ابتداء من المقرة ، في حين كانت المئذنة تقوم على الواجهة الشمالية للمسجد في محور المحراب ، شأنها في ذلك شأن مئذنتي جامع القيروان وجامع قرطبة ، ومئذنة العروس بجامع دمشق (١) .

وظل المسجد على هذه الصورة القديمة حتى دالت دولة الادارسة ، فلما تولى بنو زناتة حكم البلاد ، واستقام أمرهم بالمغرب ، بنوا الأسوار حول أرباض العدوتين ، وزادوا في جامع القرويين زيادة كبرى ، حدودها ظاهرة حتى اليوم ، تشمل بلاطات وصومعة . وذلك حين كثر الناس بفاس وانتابوها من كل صوب ، وأصبح جامع الشرفاء القديم ضيقا لا يتسع لكل من كان يؤمه من المصلين ويمكننا تحديد هذه الزيادة بالنسبة للمسجد الحالي على النحو التالي ، مد الأمير أحمد بن أبي بكر البلاطات العرضية مسافة خمسة

---

(١) Marçais, l'architecture, p. 198 - Lambert, las mosquées do type arabique

عقود شرقا وأربعة عقود غربا ، ثم أضاف لبيت الصلاة ثلاث بلاطات غربية جديدة شمالا ، فشغلت هذه البلاطات الجديدة الصحن القديم (١) . وبطبيعة الحال قام لبيت الصلاة بهذا اتساعه صحنا جديدا . أما المئذنة التي أقامها فتقوم فوق منتصف الرواق المطل على الصحن من الجهة الغربية ، وقاعدة هذه المئذنة مربعة ، طول كل ضلع منها نحو خمسة أمتار ، وارتفاعها أربعة أمثال طول قاعدتها ، أي ما يقرب من عشرين مترا ، وفقا لنظام المتبع في مآذن الأندلس في العصر الأموي ، ويصعد إليها من جهة الجنوب على النحو المتبع في مئذنة جامع القيروان ، وقد علق ابن أبي زرع على ذلك بقوله : « وكذلك يجب أن تكون من جهة البناء والنظر الهندسي » . ولقد شرع الأمير أحمد في بنائها وتشييدها عام ٣٤٤ هـ ، وفرغ منه في ربيع الآخر سنة ٣٤٥ هـ ، وبنيت من الحجر المنجور المحكم ، وركبت على رأسها تفاحات صغيرة مموهة بالذهب ، تشبه بسيف الإمام إدريس بن إدريس الذي أقام عذرة القرويين تبركا به (٢) .

ونلاحظ أن هذه المئذنة تشبه إلى حد كبير مآذن قرطبة وإشبيلية في عصر الأمير عبد الرحمن الأوسط ، وإن كانت تغلب عليها البساطة . وفي داخلها درج حلزوني يدور حول دعيمة مربعة ، وبجدرانها من الخارج فتحات ضيقة تشبه منافذ السهام ، كان الغرض منها تزويد الدرج بالضوء ، وبأعلى المئذنة نافذة على هيئة عقدين توءمين متجاورين ، يستندان على عمود مشترك ، ويحيط بهما إطار مستطيل على النحو الذي نراه في مآذن الأندلس

---

(١) الجزنائي ، ص ٣٦ — جذوة الاقتباس ، ص ٢٤

(٢) نفس المرجع ، ص ٣٢

كلها ، وفى أعلى نهاية جدار المئذنة شرفات حربية . أما سطح المئذنة فمغطى قبة ، يتوجها عمود بارز ركبت به التفاحات المذكورة (١) . ولم تحتفظ هذه المئذنة بمظهرها القديم فى عصر بنى أمية ، إذ كسيت بطبقة من الجص فى سنة ٦٨٨ هـ ( ١٢٨٩ م ) ، فقد أمر السلطان أبو يعقوب يوسف بن عبد الحق المرينى قاضيه أبا عبد الله بن أبى الصبر باصلاحها وتبييضها من أموال أعشار الروم ، فشرع فى تبييضها ، وكسا المئذنة بالجص والجبار ، وسمر المسامير الكبيرة بين أحجارها ليلبث الجص والجبار ، ثم صقلها بعد ذلك حتى أصبحت كالمرآة المصقولة ، بعد أن كانت الطيور تتخذ من بعض فتحات بها أوكارا(٢) . ولم يطرأ على المسجد تغيير يذكر حتى كانت أيام الخليفة الأموى هشام المؤيد وحاجبه المنصور بن أبى عامر ، فبنى بالمسجد قبة هى التى تعلو المقصورة الحالية أى فى الموضع الذى كانت تشغله المئذنة القديمة ، ونصب على رأسها أعمدة من حديد ركبت فيها تماثيل وطلاسم . ولقد أجريت بالمسجد أعمال كثيرة فى عهد المظفر عبد الملك بن المنصور ، فبنى الميضأة والسقاية المستطيلة على يسار الخارج من باب الخفساة وهو باب مفتوح فى منتصف الجدار الشمالى للمسجد ، وجلب إليها المياه من وادى حسن من جهة باب الحديد ، كذلك أقام عبد الملك بن المنصور منبرا من الأبنوس وشجر العناب ، وكان مكتوبا عليه « بسم الله الرحمن الرحيم ، وصلى الله

---

(١) فيما يختص بالمآذن المغربية ارجع الى المقال الآتى :

Torres Balbas, la primitiva mezquita mayor de Sevilla, al-Andalus, vol. XI, 1946, pp. 425 - 436

وارجع الى بحثى : تاريخ المدن وآثارهم فى الأندلس ، ص ٤٠١

(٢) المرزاوى : ص ٢٨

على سيدنا محمد وآله وسلم ، هذا ما أمر به الخليفة المنصور ، سيف الإسلام ، عبد الله هشام المؤيد بالله ، أطال الله بقاءه ، على يد حاجبه عبد الملك المظفر ابن المنصور بن أبي عامر ، وفقهم الله تعالى ، وذلك في شعبان وثمانين وثلاثمائة » (١) . ودام هذا المنبر حتى أمر علي بن يوسف بعمل منبر جديد من خشب الصندل والأبنوس والنارنج والعناب وعظم العاج .

* * *

ازدهرت فاس في عصر المرابطين ، وكثر العمران بعدوة القرويين حتى ازدحمت المدينة ، واكتظت بسكانها ، وضاق بهم جامع القرويين بالمصلين حتى كان الناس يصلون في الأسواق والشوارع والطرق المحيطة بالجامع أيام الجمع ، وكانوا يلاقون متاعب كثيرة لتعرضهم لحرارة الشمس أيام الصيف ، فاجتمع الفقهاء والأشياخ ، وخاطبوا قاضي القضاة في هذا الأمر ، فاستأذن القاضي أمير المسلمين علي بن يوسف في إجراء زيادة بالمسجد ، فأذن له بالشروع فيها في سنة ٥٢٨ هـ (١١٣٣م) ، وتمت في سنة ٥٣٨ هـ(٢) . وابتدأ القاضي بنزع ملكية الدور الملاصقة للجامع من جهة قبلته وهدمها ، وأقام مكانها ثلاث بلاطات عرضية ، أضيفت إلى البلاطات التسعة القديمة ، وزود الجامع بمحراب جديد ومنبر أشرنا إليه فيما سبق . وأعاد بناء الباب الغربي الكبير المعروف بباب الفخارين ، فسمي بباب الشماعين . وكان يشرف على البناء بنفسه . وأقام على الباب قبة داخلها نقش ، ذكر ابن أبي زرع نصه كالآتي : [ صنعت هذا الباب والقبة وكلف بالبناء والتركيب في شهر ذي

---

(١) الزرع السابق ، ص ٤٢

(٢) والكتابة النافرة بأعلى الإفريز الرخامي الذي يعلو المحراب وفي الجهتين الشرقية والغربية من القبة المستطيلة التي تتقدم وتعلو بهو باب الشماعين ، تؤكد أن الفراغ من الزيادة تم في سنة ٥٣٠ هـ (راجع المعروف بالمآثر بالقرويين ص ٤٨ )

سجة سنة ثمان وعشرين وخمسمائة] (١). وبنيت الزيادة بحجر الكذان، وتأنق في بنائها غاية التأنق، وكسيت أبواب المسجد جميعها بالنحاس الأصفر، وأقيمت على كل منها قبة. وأقيمت على المحراب قبة من الجص المقرنص، جاءت النهاية في الروعة والجمال، فقد زينت هي والمحراب بنقوش الذهب واللازورد وأصناف الأصبغة، فبهرت الناس بحسنها ولألائها (٢)، وركبت في شباك القبة (النوافذ المشبكة بزخارف الجص) أشكال رائعة من الزجاج الملون (٣).

ويذكر الأستاذ تراس أن هذه الأعمال الإنشائية تمت على أيدي فنانين استقدمهم الأمير من الأندلس (٤). ففي زخارف هذا المسجد تشاهد مجموعات من المراوح النخيلية المعرقة والمقسمة التي تشبه أوراق الأكنثس، تعمر القسم الأعلى من البلاطة الوسطى، وجوقة المحراب من أعلاها، وأركان القباب، وتذكرنا هذه الزخارف النباتية بنظائرها في قصر الجعفرية بسرقسطة، وقصر القصبة بمالقة، وبعض الآثار الزخرفية بقصبة المرية وجامعها، من عصر الطوائف. ونشاهد في زخارف جامع القرويين كذلك عقودا متقاطعة، وعقودا مفصصة ومتجاوزة، وعقودا من النوع الذي تتناوب فيه الأقواس نصف الدائرية مع أقواس صغيرة مدببة، تمثل حلقة الاتصال بين العقود التي نشاهدها في الجعفرية بسرقسطة، والعقود الشائعة في عصر الموحدين. وزخارف جامع القرويين تجلو علينا عنصرا جديدا ظهر لأول

---

(١) ابن أبي زرع، ص ٣٢

(٢) ابن أبي زرع، ص ٣٢ — ٣٣

(٣) البرناسي، ص ٨٨

(٤) Terrasse, la renviersence de l'Acanthe dans l'art hispano-mauresque, sous les Almoravides, al-Andalus, vol. XXVI, fasc. 2, 1961, p. 430

مرة فى فن الزخرفة الإسلامية وهو نظـــام الزخرفة الحيـــوانية الشكل « Serpentiformes » عند منابت العقود ، وهو نظـــام زخرفى شاع فى عصر الموحدين ، ونشاهد هذا النظام الزخرفى فى أبواب مسجد الجنائز الملحق بجامع القرويين ، وقد طبق على منابت العقود النوأمية المنفوخة ، ولكن هذه العقود دائرية من أعلى بينما نراها منكسرة فى مساجد الموحدين (١).

كذلك ظهرت لأول مرة فى الزيادة التى أضيفت فى جامع القرويين فى المرابطين ، قباب مقرنصة ، تتمثل فى مسجد الجنائز ، وفى البلاطة الوسطى المؤدية إلى المحراب ( ست قباب مقرنصة ) . وقبة مسجد الجنائز تقوم على قاعدة مربعة من المقرنصات ، وحفت بقبيبات صغيرة مفصصة (٢) . أما قباب البلاطة الوسطى فكلها مقرنصة وتكسوها زخارف نباتية فى غاية الروعة والجمال ، وكانت هذه الزخارف مغطاة بطبقة من الجص ، أزيلت عنها تدريجيا ، فظهرت هـــذه الزخارف للناظرين آية فى دقة الأداء وجمال التكوين (٣) .

وبهذه الزيادة المرابطية اكتملت عمارة المسجد ، واشتمل على حدوده التى نراها اليوم ، وتمثل صور المسجد من الداخل بلاطة وسطى فسيحة ، تعلوها القباب المقرنصة الست التى أشرنا إليها ، ومن الخارج بقطع صغوف

---

(١) Terrasse, art almoravide et art almohade, al-Andalus, 1961, p. 440

(٢) Terrasse, l'art hispano- mauresque, p. 235

(٣) Terrasse, l'art de l'empire almoravide; ses sources et son évolution, dans : Studia Islamica, t. III, 1955, p. 92

الأسقف المشورية الشكل المعدة بغطاء جدار القبلة ، جوسق مشوري الشكل ، عمودي على جدار القبلة ، يزيد ارتفاعه على ارتفاع هذه الأسقف[1].

أما المنبر فقد أقيم على يدي القاضي أبي محمد عبد الحق بن عبد الله بن معيشة الغرناطي ، ولم يتم في حياته فأتمه القاضي أبو مروان عبد الملك بن بيضاء القيسي ، وقد صنع من عود الصندل والآبنوس والعاج والعناب ، وطعم بالعاج ، وتولى صناعته وتركيبه الشيخ أبو يحيى العاد[2] . ويعتبر هذا المنبر من أجل مآثر الإسلام ويشتمل على تسع درجات ويزدان جانباه بالشابكات رائعة متعددة الفلوج قوامها أشكال نجمية ذات ثمانية رؤوس ، ويشبه في ذلك منبر جامع الكتبية بمراكش الذي صنع بقرطبة . ويحدد الشابكات المذكورة أشرطة من العاج ، وتزدان المثلثات النجمية بتوريقات نخيلية مصورة ومختصة وفقا للأسلوب الأندلسي المغربي . أما ظهر المنبر وعقده الأمامي فرصعان بالعاج والأخشاب الثمينة ذات الألوان الهادئة ، وما زال هذا المنبر محفوظا حتى اليوم بجامع القرويين[3] .

أما صحن الجامع فقد فرشه فقيه أبو عبد الله بن داود ، وصنع بكرا وأشرطة غليظة ركبها في فلاع من شقاق الكتان في سعة الصحن ، فإذا اشتدت حرارة الصيف شدت البكرات فنصبت الفلاع وظلل الصحن كله[4].

ولما دخل الموحدون مدينة فاس في ١٥ ربيع الآخر سنة ٥٤٠ هـ ، خاف

---

(١) Marçais, Architecture musulmane, p. 198

(٢) الجزنائي ، ص ٤٢

(٣) طرز المنبر حول عقده بكتابة نسخية من الصدف ، بينما نقشت على جانبيه كتابات بالخط الكوفي من العاج ( راجع الحروف المنقوشة بالقرويين ، ص ٤١٩ )

(٤) ابن ابي زرع ، ص ٣٥ ، ٣٦ ـ الجزنائي ، ٤٦

فقهاء المدينة وأشياخها أن يأخذ الموحدون عليهم هذا الإسراف فى النقش والزخرفة والتذهيب بالمحراب والقباب ، « فأتى الحامون الجامع تلك الليلة فتصبروا على ذلك النقش والتذهيب الذى فوق المحراب وحوله بالكاغيد ، ثم لبسوا عليه بالجص وغسل عليه بالبياض وذلك » ، فاختفت هذه النقوش وأصبحت بيضاء (١) . ولكن هذه الكسوة الجصية أزيحت فى سنة ١٩٤٩ فظهرت النقوش والزخارف بألوانها الزاهية الرائعة .

د ـ آثار القلاع والأسوار :

ذكر صاحب روض القرطاس أن يوسف بن تاشفين عندما أمر ببناء مراكش أقام قصبة صغيرة لحفظ أمواله وسلاحـــه فى موضع يعرف بسور الحجر عن مدينة مراكش شمالى جامع الكتبيين (٢) . ولقد أسفرت الحفريات الأثرية التى أجريت حديثا فى الموضع الذى كان يقوم عليه جامع الكتبية القديم وما يليه عن كشف أسس هذه القصبة ، وأثبتت الحفريات أنها كانت مقامة من قطع الحجر غير منتظمة القطع ، ولكنها موضوعة فى صفوف منتظمة ، أما الحجـــر المصقول فكان يستخدم فى الأركان . هـــذه الطريقة تذكرنا بنظام بناء قصر البحر الحادى وتحصينات المهدية . ونظام بناء باب قصبة مراكش أيضا ، يحلو لنا تأثيرات إفريقية واضحة المعالم ، فهو باب ممر مباشر ، على نقيض الأبواب الأندلسية فى هذه الفترة ، إذ كانت من النوع المزود بالمرافق الدفاعية . كذلك نجد حضورا على البرجين اللذين يكتنفان المدخل جوفات نصف دائرية تذكرنا أيضا بنظائرها فى فن

---

(١) الترجمانة ، ص ٣٢ ـ الجزنائى ، ص ٨٠

(٢) نفس المرجع ، ص ٨٩

الحجارة الزيرية والحمادية (١) .

وفي عصر علي بن يوسف زودت مراكش بسور من الطابية على النظام الأندلسي ، وقد تم التنقيب عن بابين من أبواب هذا السور القديم هما باب العروس ، وباب في الجهة الغربية لعله باب الخزن ، وقد ثبت أن أحدهما على الأقل كان مبنيا على نظام المرافق (٢) . وقد أثبتت الحفريات الأثرية أيضا في قصر الحجر المجاور لجامع الكتبية ، أن أعمال علي بن يوسف في هذا القصر كانت مستوحاة من الفن الأندلسي سواء من ناحية التخطيط أو من ناحية الزخرفة ، فقد كشف عن بيوت عمران متعامدان على النحو الذي نراه في الأندلس في قصر منتقوط Montegudo بمرسية (٣) . وقد استخدم في البناء الطابية والآجر ، وكسي البناء بطبقة من الجص مدهونة باللون الأحمر والأصفر ، وهي طريقة كانت شائعة في البناء في الأندلس في القرن الرابع الهجري . ولقد أقام علي بن يوسف أمام باب قصبة أبيه فوارة زينهـــا بتشابكات هندسية رائعة ملونة على طبقة جصية ، ولا تختلف هذه الزخارف بأي حال من الأحوال عن زخارف قصبة منتقوط بمرسية (٤) .

وفي تلمسان أكشفت آثار أسوارها القديم الذي بناه يوسف بن تاشفين

---

(١) Maurié et Henri Terrasse, Recherches archéologiques à Marrakech, Paris 1952 - Terrasse, Part de l'empire almoravide : ses sources et son évolution, pp. 27 - 29.

(٢) Terrasse, l'art hispano - mauresque, p. 224 - Marçais, l'architecture musulmane d'Occident, p. 219

(٣) السيد عبد العزيز سالم ، مجلة معارف الشعب ، عدد ٦٦ ، مادة مرسية

(٤) Terrasse, l'art de l'empire almoravide, p. 13

عندما اختط تكرارت غربي أغادير القديمة ، عند باب القرمدين وما يليه ، وإن كان لم يتحقق بعد نسبة هذه الآثار المبنية بالطابية إلى عصر يوسف ابن تاشفين (١) . كذلك يحتفظ سور أغادير القديمة بباب قديم يعرف باسم باب الاقباب وهو باب مفتوح في سور متين يقطع حجرية غير مهذبة القطع ، وعقد الباب من الآجر ، مفتوح متجاوز ، ويقوم على صفوف من الحجارة المعقودة على النظام الروماني ، ويشبه هذا الباب في نظام بنائه الباب الرئيسي بقلعة آمرجو (٢) .

ويذكر البيذق أن المرابطين أقاموا حصونهم « في مواضع دارت بها الجبال من جميع الجهات لكي ينتصروا بها على الموحدين أعزهم الله » (٣) ، ومن هذه القلاع قلعة آمرجو وقلعة بني تاودا ، وقلعة تاسغيموت .

وقلعتا بني تاودا وآمرجو من القلاع المرابطية الأصيلة ، وقد بنيتا خصيصا لمراقبة سكان الجبال في منطقة الريف . أما قلعة بني تاودا فقد بنيت بقطع حجرية غير مهذبة القطع ترتبط فيما بينها بملاط شديد الصلابة ، ونظمت هذه القطع الحجرية في صفوف منتظمة ، وللأسف لم يتبق من هذه القلعة إلا أجزاء يسيرة ، تقتصر على الأسوار ، وفي وسط القلعة آثار بناء لعله كان خاصا بالقصبة .

أما قلعة آمرجو فتقوم على مرتفع من الأرض يشرف على وادي ورغة المتفرع من وادي سبو جنوب قلعة بني تاودا ، وهي من أروع أمثلة العمارة

---

(١) Ibid. p. 28

(٢) Marçais, op. cit. p. 220

(٣) البيذق ، ص ١٢٨

المغربية فى المغرب فى عصر المرابطين . وفى بناء هذه القلعة تداخل التقاليد المحلية مع التأثيرات الأندلسية ، التى تدفقت على المغرب الاسلامى فى عصر على بن يوسف ، والتأثيرات الإسبانية المسيحية التى حملها النصارى المرتزقة فى الجيش المرابطى (١) . وتتجلى هـذه التأثيرات المسيحية فى الأبراج المستديرة الشكل ، وفى السور الأمامى . والقلعة على شكل متعدد الأضلاع يميل إلى الاستطالة ، ويدعم سورها الخارجى ٩٢ برجا نصف دائرية ، تقوم فى زوايا السور ، ويخترق أسوارها ثلاثة أبواب ، وينتصب أمام السور الواقع فى الجانب الشمالى الشرقى من القلعة برجان يمتد بينهما سور أمامى . وفى داخل القلعة ترتفع قصبة صغيرة مستطيلة الشكل ترتكز فى أركانها أبراج نصف دائرية ، ويفتح فى سورها بابان (٢) . والباب الرئيسى للقلعة آمرجو له ممر يحصل مباشرة بمدخليها ولا أثر فيه للتقاليد الاندلسية .

وقلعة تاسغيموت من أهم القلاع التى أسسها المرابطون لمحافظة الموحدين بناها ميمون بن ياسين ، وكانت تقيم بها حامية مرابطية من مائتى فارس ، وخمسمائة من المشاة لحراسة بلاد هزرجة (٣) .

وتقع هذه القلعة على بعد ٣ كيلو مترات جنوب شرقى مراكش ، وعلى

---

(١) Terrasse, La forteresse almoravide d'Amergo, al-andalus vol. VIII, pp. 389-400

(٢) Terrasse, l'art hispano - mauresque, p. 226 - Marçais, l'architecture musulmane d'Occident, p. 319 - Terrasse, la forteresse almoravide d'Amergo.

(٣) البيذق ، ص ١٢٨ . ويذكر الأستاذ تراس نقلا عن الطل الوشية أن الذى تولى بناء قلعة تاسغيموت رجل أندلسى اسمه الفكى . ارجع الى :

بعد نحو عشرة كيلو مترات شرق أغمات ، على سطح هضبة أطرافها ذات أجراف وعرة شديدة الانحدار ، يصعب على الغازين ارتقاؤها . وأسوارها تعد على حافة الهضبة كلها ، متبعة تعرجاتها وتندمج قواعد هذه الاسوار في صخور الهضبة نفسها (١) . وتشرف قلعة تاسغيموت على وادي أغمات أيلان المتفرع من وادي تنسيفت الأعلى ، ومن هنا ندرك أن الغرض من بنائها هو حماية عاصمة المرابطين ، وينفتح الباب الرئيسي للقلعة ، وهو الباب المعروف باسم باب الموحدين في الجهة الشمالية الغربية ، وهناك باب آخر في الجهة الشمالية ، ولكنه باب صغير أقرب إلى أن يكون خوخة أو نقبة . والقلعة من الداخل معسكر فسيح كانت ترابط فيه حامية كبيرة العدد ، ولا أثر بداخله اليوم لبناء ثابت إلا في الجانب الغربي حيث تقوم بقايا بناء واسع ، لعله كان جمعا يقيم فيه رئيس الحامية ، أو مخازن للمهمات والعدد . وقد راعى بناة القلعة ، أن تكون مزودة بكل شيء ، استعدادا لحصار طويل الأمد ، ولذلك زودت بالمياه من نبع في الهضبة ، حيث كانت تجرى إلى خزان ضخم مازال قائما حتى اليوم (٢) . ولقد افتتح الموحدون هذه القلعة في سنة ٥٤١هـ ، وخلعوا أبوابها ، وركبوها على باب القصارين بمدينة تينملل (٣) .

---

= Terrasse, l'art Hispano - mauresque, p. 227 - Terrasse et H. Basset, Sanctuaires et forteresses almohades, Paris, 1932, p. 379.

(١) Terrasse et H. Basset, op.cit. p. 382

(٢) Terrasse et Basset, Sanctuaires et forteresses almohades, p. 380

(٣) البيذق ، ص ٨٤ ، ١٢٨ ، ١٢١

# الفصل الحادي عشر

## المغرب في عصر الموحدين

(١) ظهور الموحدين :

ا ـ المهدي بن تومرت فقيه السوس ، وعبد المؤمن بن علي خراج الموحدين

ب ـ الاشتباكات الأولى مع المرابطين

(٢) فتوحات عبد المؤمن بن علي

ا ـ المرحلة الأولى : إسقاط دولة المرابطين

١ ـ فتح تلمسان ووهران ٢ ـ فتح فاس ٣ ـ فتح مراكش

ب ـ المرحلة الثانية : فتح الأندلس

ج ـ المرحلة الثالثة : فتح المغربين الأدنى والأوسط

(٣) عصر أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن

ا ـ الصعاب التي واجهته في المغرب والأندلس

ب ـ جهاده في الأندلس واستشهاده في شنتمرين

(٤) المنصور بطل الأرك

ا ـ حروبه مع بني غانية

ب ـ جوازه الأول إلى الأندلس واسترجاع المسلمين لشلب

ج ـ انتصار أبي يوسف المنصور في موقعة الأرك

د ـ غزوة طليطلة فى سنة ٥٩٢هـ

هـ ـ الغزوة الثالثة .

(٥) محمد الناصر وهزيمة الموحدين فى العقاب

ا ـ ثورات المغرب فى عصر محمد الناصر

ب ـ هزيمة المسلمين فى العقاب

ج ـ انهيار دولة الموحدين بعد هزيمتهم فى العقاب

(٦) مساجد الموحدين وتحصيناتهم فى المغرب والأندلس

ا ـ الأثر الأندلسى فى الفن المغربى

ب ـ اهتمام الموحدين بالبناء

ج ـ مساجد الموحدين فى المغرب والأندلس

١ ـ جامع الموحدين برباط تازى

٢ ـ جامع تينملل

٣ ـ جامع الكتبية بمراكش

٤ ـ جامع القصبة بمراكش

٥ ـ جامع حسان بالرباط

٦ ـ جامع الأندلس بفاس

٧ ـ جامع القصبة الكبير باشبيلية

د ـ المنشآت الحربية

١ ـ أسوار المدن

٢ ـ الأبواب ذات المرافق

# الفصل الحادي عشر

## المغرب في عصر الموحدين

### ( ١ )

### ظهور الموحدين

**١ ـ المهدي بن تومرت فقيه السوس ومدى تأثير عمل سراج الموحدين :**

هو محمد بن عبد الله بن تومرت (١) ، من أهل السوس ، وهي بلاد يسكنها بربر جفاة متقشفون في حياتهم ، خشنون في مظهرهم ، تغلب على طباعهم السذاجة وقوة الإيمان ، والاعتقاد في القوى الخفية ، وقل منهم من كان يرتفع في علمه إلى مستوى العلم الإسلامي المتفق ، ويلم بالمسائل الكلامية على نحو يتبلور معه ذو العلم بها ، ويستحيل إلى آلة تمرد وتوقد ، وإلى عالم يلتزم في تفسيره للآيات النص الحرفي (٢) .

ولد ابن تومرت في عام ٤٨٥هـ في ضيعة من بلاد السوس تعرف بإجيليز (٣)

---

(١) لم يكن هذا هو اسمه الأصلي ، فقد كان يحمل اسما تقليديا ثم استبدل به اسم محمد بعد عودته من المشرق تيمنا باسم الرسول ، ثم رأى أن يكون اسم أبيه عبد الله ، ولم يكن هذا هو اسم أبيه الحقيقي ، اذ كان يسمى بتومرت بن وجليد ، ولكن الاسناة ليفي بروفنسال يرى أن اسم تومرت هو اسم احدى جدات المهدي غلب على نسبه ( ليفي بروفنسال ، الاسلام في المغرب والاندلس ، ص ٢٦٠ ) . وكان جده لأبيه يسمى وجليد ، وجده لأمه يسمى وابور كن ، وهي أسماء بربرية بحتة ( اليفتن ص ٣٠ )

(٢) ليفي بروفنسال ، المرجع السابق ص ٢٥٧

(٣) يسميها المراكشي الجبل أي وارغن ( المراكشي ص ١٢٨ )

من قرى عرفة الواقعة على سفح جبل إيجليز ، من قوم شرفاء ( إيسر غيغن ) . وكان أبوه أمغار (١) القبيلة ، أى شيخها ، فقضى ابن تومرت طفولته يحفظ القرآن فى مكتب القرية . فلما اشتد عوده ، وأصبح شابا يافعا ، دفعه طموحه إلى الرحيل عن قبيلته ، لا للسعى وراء عمل فى السهول ولا للإقامة فى مراكش حاضرة المرابطين رغم تألقها ، وإنما للدراسة والتحصيل فى المشرق الإسلامى ، مصدر العلوم ، ومنبع الحضارات ، ومهد جميع الأديان . فخرج من قبيلته فى طلب العلم عام ٥٠١ هـ ، وانتهى إلى بغداد ، ولقى فيها أبا بكر الشاشى ، فأخذ عنه شيئا من أصول الدين ، وسمع الحديث على المبارك بن عبد الجبار وغيره من المحدثين . وقيل أنه لقى أبا حامد الغزالى فى الشام (٢) . وذكروا أن الغزالى أحيط علما بما فعله المرابطون بكتبه التى وصلت إلى المغرب من إحراقها وإفسادها ، وكان ابن تومرت موجودا وقتئذ فى مجلس الغزالى ، فعلق الغزالى قائلا : « ليذهبن عن قليل ملكه ( ملك على بن يوسف ) ، وليقتلن ولده ، وما أحسب المتولى لذلك إلا حاضرا مجلسنا » (٣) . وأحس ابن تومرت أنه يعنيه ويومئ إليه بهذه العبارة ، وأن تمزيق دولة المرابطين سيتم على يديه .

قضى ابن تومرت ما يقرب من ١٠ سنة يجوب عواصم المشرق الإسلامى ، فلما عزم على العودة إلى مسقط رأسه ، مر بمصر فى عهد الآمر بأحكام الله الفاطمى ، ويغلب على الظن أنه قضى بها بعض الوقت ، وكانت الإسكندرية

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٢٨

(٢) نفس المرجع ، ص ١٢٨

(٣) نفس المرجع ، ص ١٢٩

وفقط مدينة ازدهرت فيها الحياة العلمية ، فقد استوطنها فى العصر الفاطمى جملة من العلماء كان لهم أثر كبير فى نهضتها العلمية ، ومنهم فقيه الاسكندرية محمد بن مسرور ، والفقيه عبد الرحمن بن عوف بن عمرو السلاف ، والإمام الشيخ أبو بكر الطرطوشى ، والحافظ المقدسى (١) . وكان المهدى يختلف إلى مجلس أبى بكر الطرطوشى الفقيه ، وكان له رفاق فى العلم فى مصر . ويبدو أنه كان ساخطا على مظاهر الترف التى أقبل عليها أهل الاسكندرية ، فأحس ابن تومرت منذ ذلك الحين أن عليه رسالة لابد من أن يقوم بتحقيقها فى حماسة المقتنع التام ، وهى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فأفضت به تعاليمه هناك إلى نفيه من المدينة (٢) .

ركب ابن تومرت سفينة متجهة إلى المغرب ، ويبدو أنه لم يفتر أثناء رحلته البحرية عن وعظ الركاب والمسافرين ، واستنكار أعمالهم ، ويذكر المراكشى أن أهل السفينة ضاقوا بصنيعه ، فألقوه فى البحر ، « فأقام أكثر من نصف يوم يجرى فى ماء السفينة لا يصيبه شىء ، فلما رأوا ذلك من أمره أنزلوا إليه من أخذه من البحر ، وعظم فى صدورهم ، ولم يزالوا مكرمين له إلى أن نزل من بلاد المغرب ببجاية » (٣). ويذكر الأستاذ ليفى بروفنسال

---

(١) حسن عبد الوهاب ، الاسكندرية فى العصر الاسلامى ، مجلة الكتاب ، ١٩٤٦ ، ص ٣٨١ — ٣٨٢ — السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ الاسكندرية وحضارتها فى العصر الاسلامى ، الاسكندرية ١٩٦١ ، ص ١٢٨ ، وتخطيط الاسكندرية وعمرانها فى العصر الاسلامى ، طبعة بيروت ١٩٦٥ ، ص ٢٨ — جمال الدين الشيال ، أعلام الاسكندرية فى العصر الاسلامى ، القاهرة ١٩٦٥ ؛ الطرطوشى ، ص ٥٠ — ١٠٠ ، والحافظ السلفى ، ص ٣٠ — ١٠٩

(٢) المراكشى ، ص ١٢٩ — السيد عبد العزيز سالم ، المهدى بن تومرت ، دائرة معارف الشعب ، عدد ٢٠ ، القاهرة ، ١٩٦٠ ، ص ٤٦

(٣) نفس المرجع ص ١٢٩

نقلا عن المؤرخ ابن القطان أن « عصبته تجلت فى هذه الرحلة ، فقد كسر بجرات الغرفى كانت موجودة على ظهر السفينة التى أقلته ، وصاح فيهم عندما أبصر أن أوقات الصلاة كانت تمضى دون أن يؤم أى شخص بأدائها ، وكان القوم يؤدون أكثرهم حين يسمعونه يدعوهم فى غير رفق إلى الصلاة حتى ، وكان لا بد أن تحدث معجزة ، فهبت عاصفة ، واستطاعت دعوات الناقد وحدها أن تهديه من هياج البحر ، وتمت الرحلة بسلام بفضل هذا الرجل الذى وجد منذ هذه اللحظة من يصغى إليه بانتباه على ظهر السفينة ، مكبرين له ، نادمين على ما بدر منهم نحوه » (١) .

ويغلب على الظن أن ابن تومرت نزل المهدية فى إمارة يحيى بن تميم بن المعز بن باديس ، وبدا له أن يقيم فى المهدية بعض الوقت ، فنزل فى مسجد من مساجدها فى رفقة ثلاثة من أتباعه رافقوه فى رحلته ، هم الحاج يوسف الدكالى ، والحاج عبد الرحمن ، وأبو بكر بن على الصنهاجى المكنى باليزدغى(٢) .

واجتمع إليه جماعة من أهل المدينة ، فقرأ عليهم كتابا فى أصول الدين ، وكان إذا شاهد منكرا حاول تغييره بالقوة ، فتسامع الناس به ، وقصدوه ، واستهوتهم شخصيته .

ثم رحل ابن تومرت إلى القيروان ، فأقام بها بضعة أيام ثم رحل إلى تونس ، وأخذ يعرف الناس هناك بالسنة وأصول الدين ، ثم مضى بعد

---

(١) ليفى بروفنسال ، الاسلام فى المغرب والاندلس ، ص ٢٦٩

(٢) اليزدغى ص ٩ .

ذلك إلى قسنطينة ، فنزل بها عند الفقيه عبد الرحمن الميلى ، ويحيى بن القاسم ، وعبد العزيز بن محمد ، وكان واليها فى ذلك الوقت سيح بن العزيز ، فأقام بها عدة أيام ثم رحل إلى بجاية ، فنزل بها فى مسجد الرحابة ، وكانت بجاية مدينة كبيرة ، اتخذها بنو حماد ، منذ عهد الناصر بن علناس سنة ٤٥٤ هـ ، حاضرة لهم ، فكانت مركزا حضاريا متألقـــا ، فاقت القيروان وتونس ، ونالت من رقة الحياة فى الأندلس وترفها قسطا كبيرا ، وظهر أثر ذلك فى الحياة الاجتماعية . فلما خرج ابن تومرت من المسجد لرؤية المدينة ، شرع فى نهى الناس عن « الاقراق الزوارية ، وعمائم الجاهليـة ، ولبـاس الفتوحيات للرجال ، ويقـول : لا تشبهوا بزى النساء لأنه حرام » (١) . وكان يبيح الطيب للرجال والنساء أسوة بما كان يفعله الرسول ، فى المدونة لا إثم فيها . وكان الفقهاء يأتون لسماعه فى شهر رمضان ، فلما انتهى هـذا الشهر وأقبل العيد ، خرج الرجال والنساء لصلاة العيد فى الفريحة ( أى المصلى ) ، فلما رآهم ابن تومرت تناول عصاه ، وأخذ يضربهم بها يمينا وشمالا حتى بعد جموعهم (٢) . ويذكر المراكشى أن صاحب بجاية أمره بالخروج منها حين خاف عاديته ، فخرج متجها إلى المغرب ، فنزل بضيعة يقال لها ملالة ، وهناك أقام مسجدا ، وأقبل الطلبة إليه من كل مكان . وكان يقضى يومه فى العبادة والتدريس لطلبته ، وينطلق بعد ذلك إلى ربوة قريبة ، فيجلس تحت شجرة من شجر الخروب ، يتأمل ويفكر ، ويذكر الله فى همهمة خافتة لا تنقطع

---

(١) البيان ، ص ٥٢

(٢) نفس المرجع

(٣) المراكشى ، ص ١٨٠

وهو ناظر إلى الطريق . وذات يوم سمعه الطلبة يقول: « الحمد لله الذي أنجز وعده ، ونصر عبده ، وأنفذ أمره » ، وأقبل نحو المسجد ، وركع ركعتين ، ثم قال : الحمد لله على كل حال ، قد بلغ وقت النصر ، وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم ، يهلكم غدا طالب ، طوبى لمن عرفه ، وويل لمن أنكره » (١) . وفي اليوم التالي ظهر عبد المؤمن بن علي الكومي (٢) الذي سيصبح خليفة الموحدين . وكان عبد المؤمن هذا متوجها إلى المشرق لطلب العلم ، في رفقة عمه الذي كان يقوم له مقام الدليل . فلما وصلا إلى بجاية ، نزلا في مسجد الريحانة ، فلما صليا الصبح ، سمعا الناس يقولون : « سيروا بنا نحو الفقيه السوسي » ، ولما سمعهم عبد المؤمن يذكرون صلاح دينه ، ويثنون على علمه وفهمه لكتاب الله والسنة طلب من عمه أن يذهب معه لزيارته وسماعه مع هؤلاء الذاهبين (٣) . وما إن رآه ابن تومرت ، وقرأ

---

(١) البيذق ، ص ٣٠

(٢) هو عبد المؤمن بن علي بن علوان بن يعلى بن علي بن حسن بن أبي نصر بن مقاتل ابن كومي ، ويعتقد المؤرخون ينسبه الى علي بن أبي طالب .

(٣) يذكر البيذق أن عبد المؤمن عندما وصل الى مدينة رأى وهو نائم رؤيا غريبة وهي أنه يحمل على ركتيه صحفة من طعام يأكل الناس فيها كلها . فلما أصبح قص على عمه الرؤيا ، فقال له اكتمها . فلما وصلا الى بني ولهاص ، رأى الطعام بعينها مع اختلاف يسير في أن الصحفة على رأسه ، فأخبر عمه بها ، فصحح بقتالها ، فلما نزلا ببجاية ، وقام عبد المؤمن رأى الرؤيا بعينها إلا أن الناس يأكلون ، فلما أخبر عمه بها صححه بكمال هذه الرؤيا ، قال أمه رأت وهي حامل به كأن النار تخرج منها فتحرق المغرب والمشرق والقبلة والجوف ، فأخبرها المعبر بقولها أنه لا بد وأن تلد من مولود يسيطر على المغرب والمشرق والشمال والجنوب ، وأوصاها بأن تكتم ذلك ولا تخبره . ثم ذكر له عمه نبوءة أشرق ، وهي أن آل عبد المؤمن كانوا يحصدون الزرع ، فجيء أم عبد المؤمن =

على وجهه علامات الذكاء ودلائل النبوغ والعبقرية حتى ميزه عن بقية القوم، وعرف فيه « المختار » . يقول اليزدي: «فرفع المعصوم رضه رأسه ، فوافقه أمامه . فقال : ادخل ياشاب ، فدخل . فأراد أن يقعد في جملة الناس ، فقال له الإمام المعصوم رضه : إدن ياشاب، فلم يزل يدني من الإمام ، والمعصوم يقربه حتى دنا منه ، فقال له المعصوم : ما اسمك يافتى . فقال : عبد المؤمن . فقال له المعصوم . وأبوك على ؟ . فقال : نعم فعجب الناس من ذلك. فقال له ، ياشاب ، من أين إقبالك ؟ قال له : من نظر تلسان من ساحل كومية، فقال له المعصوم. من تاجر؟ أم لا ؟ . فقال له : نعم . فزاد الناس تعجبا . فقال له المعصوم رضه . أين تريد يافتى ؟ فقال : ياسيدي نحو الشرق التمس فيه العلم . فقال له المعصوم رضه : العلم الذي تريد اقتباسه بالشرق وجدته بالغرب » (١) . ثم طلب منه ابن لومرت أن يبيت عنده ، فأجابه عبد المؤمن . ويضيف اليزدي إنه : « لما جن الليل أخذ الإمام المعصوم يد الخليفة رضها ، وسارا ، فلما كان نصف الليل ناداني المعصوم . يا أبا بكر ، ارفع لي الكتاب الذي في الوعاء الأحمر ، فدفعته له ، وقال : اسرج لنا سراجا ، فكان يقرأ على الخليفة من بعده وأنا يومئذ ماسك السراج أمامه، يقول : لا يقوم الأمر الذي فيه حياة الدين إلا بعبد المؤمن بن علي سراج الموحدين . فبكى الخليفة ( يقصد عبد المؤمن ) عند سماع هذا القول ، وقال: يافقيه ، ما كنت

---

= وكانت حاملا به ، فامت، فأميل بدنان من حمل فنزلا عليها، وخاف أن أم عبد المؤمن قد ولدته فرمت بالصاد سبيل القيح ، وتركته نائما ؟ فاذا بالنحل يليل على الطفل وهو أمام ، ثم يفترق عنه فرقتين : واحدة الى الشرق والأخرى الى المغرب (انظر اليزدي، ص٤٠)

(١) اليزدي ، ص٤٠

في شيء من هذا ، إنما أنا رجل أريد ما يطهرني من ذنوبي . فقال له المعصوم ، إنما تطهرك صلاح الدنيا على يديك . ثم دفع له الكتاب ، وقال : طوبى لأقوام كنت أنت مقدمهم ، وويل لقوم غالقوك أولهم وآخرهم . أكثر من ذكر الله يبارك لك في عمرك ويهديك ويعصمك مما تخافه وتحذر »(١).

استقر رأي عبد المؤمن على البقاء مع ابن تومرت ، فقضى أشهرا يقرأ عليه ، وكان أكثر الطلبة فهما ، ثم رحل ابن تومرت وطلبته وأتباعه من ملالة إلى المغرب الأقصى ، فوصلوا إلى تلمسان ، ونزلوا بأغادير في مسجد يظاهرها يعرف بالعباد (٢) . فاستراحوا بها فترة قصيرة ثم واصلوا السير مجدين إلى وجدة (انظر خريطة رقم ١٣) ، ثم رحلوا متهامسين إلى فاس ، فمروا بقرى آجر سيف وأمليل وتلال والمقرمدة وعين الرمى حتى وصلوا إلى فاس . وكان الطلبة يهرعون إليه في كل مكان حل به ، فلما وصل إلى فاس نزل بمسجد ابن الخمار ، ثم انتقلوا منه إلى مسجد ابن المنجوم ، فمسجد بطريانة ، حيث استقروا في بيت صومعته ، واتخذه ابن تومرت للتدريس . وقام ابن تومرت أثناء مقامه بفاس بمهاجمة حوانيت الآلات الموسيقية بزقاق بزقاة من فاس ، وكانت هذه الحوانيت مملوءة بالدفوف والمزامر والزامير والعيدان والربط والأربية والكيثارات ، فحول طلبته كسر هذه الآلات (٣) .

ولما بلغ والي المدينة أمره ، جمع نفرا من فقهاء فاس للمناظرة ، فظهر عليهم وفاقهم ، فأشار الفقهاء إلى الوالي باخراجه من المدينة حتى

---

(١) المرجع السابق ص ٦٥

(٢) الزاكي ، ص ١٨٣

(٣) البيدق ص ٦٥

لا يضع عقول العامة ، فأمره الوالي بالخروج من فاس [1] . فمضى هو وأتباعه إلى مراكش ، عابرين بمغيلة ، ومكناسة ، ثم رحلوا منها إلى تيس فزارة ، ثم وصلوا إلى سلا ، فأقاموا بها أياما ، ورحلوا السير إلى مراكش ، فدخلوها ، ونزلوا بها في مسجد صومعة الطوب . ويبدو أن ابن تومرت تناظر في مراكش مع جماعة من الفقهاء ، فأفحمهم ، فنصحوا علي بن يوسف بحبسه ، فأبى أن يفعل ذلك دون ذنب جنساه ابن تومرت ، واكتفى بإخراجه من مراكش [2] . فخرج ابن تومرت هو وأصحابه من مراكش إلى أغمات أوريكا ، ومنها إلى أغمات وريكة ، ثم مضى بعد ذلك إلى قريته إجيلز من هرغة ، فنزل داره في سنة ٥١٤ هـ (٣) ، وأقام رابطة للعبادة في سنة ٥١٥ هـ (٤) ، والتف إليه القبائل .

وكان ابن تومرت في كل هذه البلاد التي طاف بها ينشر تعاليمه في التوحيد والأمر بالمعروف ، والنهي عند المنكر ، فحارب فكرة التجسيم الشائعة عند أهل المغرب في عصر المرابطين ، وذهب إلى أن صفات الله من ذاته ، وأضاف ابن تومرت إلى هذه الآراء والتعاليم آراء أخرى في الفقه ،

---

(١) المراكشي ، ص ١٨٤

(٢) ذكر ابن الأثير أن ابن تومرت كان في طريقه في مراكش يوما ، إذ رأى أخت الأمير أبي الحسن علي بن يوسف ، موكب من الجواري المغاني عدة كثيرة ومن مشاهير ، وكانت عادة الملثمين ، يستر نساؤهم وجوههن ، ويلثم الرجال ، فلما رأى ابن تومرت ذلك أنكره عليهن ، وأمرهن بستر وجوههن ، وضرب هو وأصحابه دوابهن ، فسقطت أخت علي بن يوسف عن دابتها ، وكان ذلك سببا في خروجه من فاس

(٣) البيذق ، ص ٧٢

(٤) ابن خلدون ، ج ٦ ص ٤٦٩

إذ كان يرى أن الشريعة الإسلامية يجب أن تقوم مباشرة على دراسة القرآن والأحاديث ، واستبعد في ذلك تعاليم الفقهاء القائمة على القياس والإجماع .

ب - الاشتباكات الأولى مع المرابطين :

رحل ابن تومرت وأتباعه بعد ذلك إلى تينملل من السوس ، فبايعوه بها تحت شجرة خروب سنة ٥١٥ هـ (١) ، وكان أول من بايعه عبد المؤمن ابن علي ، ثم سائر أصحابه ، ولقب بالمهدي ، وصرح بدعوى العصمة لنفسه ، وأنه المهدي المعصوم ، فأقبل إليه الأشياع والأتباع من سائر قبائل المغرب الأقصى ، وبايعوه مرة ثانية في سنة ٥١٧ هـ ، ولم تزل طاعتهم له تزداد ، وفتنتهم به تشتد ، وتعظيمهم له يقوى ويتأكد ، حتى بلغوا في ذلك إلى حد « لو أمر أحدهم بقتل أبيه أو أخيه أو ابنه لبادر إلى ذلك من غير إبطاء » (٢) . ومن تينملل قدر لدعوته القائمة على التوحيد أن تنطلق في ربوع المغرب كله . وقد سمي أصحابه بالموحدين لأنهم أول من تحدث في التوحيد وعلم الكلام في المغرب ، وسماهم أيضا بالمؤمنين لأنه ليس على الأرض من يؤمن إيمانهم . وقد قسم ابن تومرت أصحابه إلى طبقات ، فجعل منهم أهل العشرة ، وهم المهاجرون الأوائل الذين أسرعوا إلى إجابته فسماهم الجماعة ، وأولهم عبد المؤمن بن علي ، وأبو حفص عمر بن علي الصنهاجي ، وأبو الربيع سليمان بن خلوف الحضرمي ، وسليمان الحضرمي كاتب رسائل المهدي ، وأبو محمد عبد الله بن حسن الوانشريشي ، وأبو حفص عمر بن يحيى الهنتاتي . ومنهم أهل خمسين وهم الطبقة الثانية ، وقد كانوا

---

(١) وقيل يوم برباط حرغة

(٢) المراكشي ص ١١١

يعتون قبائل مختلفة من الزيز من هرغة ، وهسكورة ، وجدميوة ، وجنفيسة ، وحنتابة ، وهسكورة ، ومنهم المستدركون بعد للتعيين . وقد تمكن ابن تومرت من تأليف جيش السوى من العاصمة ، ثم غزا الموحدون تسع غزوات ، ولم تكن هذه الغزوات سوى اشتباكات خفيفة مع بعض القبائل الموالية للمرابطين ، وقد انتصر الموحدون في معظمها . وفي سنة ٥١٧ هـ عددت الاشتباكات بين المرابطين والموحدين ، ونجح الموحدون بقيادة عبد المؤمن بن زجو في الاستيلاء على قلعة تاسيموت ، وكانت من أعظم قلاع المرابطين ، وحملت أبوابها إلى تينمل[1] . وفي سنة ٥١٨ هـ افتتحت بلاد ماغوسة ، وهنانة على وادي نفيس ، وفي سنة ٥٢١ هـ بث ابن تومرت عبد المؤمن بن علي إلى جزولة ، وهي أول غزوة تقاتل فيها مع تاشفين بن علي بن يوسف ، والشليوح الإرتير Berbères قائد الروم في جيش المرابطين .

وفي سنة ٥٢٤ هـ[2] أخذت هذه الاشتباكات تأخذ طابع الصدام المسلح مع جيش المرابطين ، ففي هذه السنة جهز المهدي ابن تومرت جيشا ضخما من الموحدين ، ووجهه إلى مراكش عاصمة المرابطين ، وقال لهم : « اقصدوا هؤلاء المارقين المبذلين الذين تسموا بالمرابطين ، فادعوهم إلى إماتة المنكر ، وإحياء المعروف ، وإزالة البدع ، والإقرار بالإمام المهدي المعصوم ، فإن أجابوكم ، فهم إخوانكم ، لهم مالكم ، وعليهم ماعليكم ، وإن

---

(١) البيان ص ١٢٦

(٢) نفس المرجع ص ١٢٨ ، ١٣٣ . ويذكر الزاكي أن الدولة سقطت في سنة ٥١٧ هـ ( الزاكي : المعجب ص ١٦٢ )

لم يفعلوا فقاتلوهم ، فقد أباحت لكم السنة قتالهم » ، ثم أمر على الجيش خليفته عبد المؤمن بن علي ، وقال : « أنتم المؤمنون ، وهذا أميركم » فاستحق عبد المؤمن منذ ذلك اليوم لقب أمير المؤمنين (١) .

وخرج جيش الموحدين إلى مراكش في أربعين ألفا ، فوصلوا إلى موضع اسمه البحيرة ، يقع في ظاهر مراكش ، فخرجت إليهم جيوش المرابطين بقيادة الزبير بن علي بن يوسف من باب إيلان ، ونزل المرابطون قريبا من معسكر الموحدين ، فدعاهم عبد المؤمن إلى دعوة ابن تومرت ، وحاول قائد المرابطين أن يعذر عبد المؤمن عاقبة مفارقة الجماعة ، وينهاه عن الفتنة ، فزاده ذلك طمعا في المرابطين ، واشتبك الجيشان في معركة ضارية ، انتهت بهزيمة الموحدين ، وقتل منهم عدد كبير ، من بينهم أبو عبد الله الوانشريشي ، وسليمان الحضرمي ، وأبو عمران موسى الجدميوي ، وأبو يحيى بن بجيت ، وأبو عبد الله محمد بن سليمان ، وكلهم من أهل العشرة (٢) . ونجا عبد المؤمن بن علي في نفر من أصحابه وقد أصيب بجرح عميق في فخذه الأيمن ، فلما وصل الخبر إلى ابن تومرت قال : « أليس قد نجا عبد المؤمن ؟ قالوا نعم . قال : لم يفقد أحد » (٣) .

أحس ابن تومرت بالمرض بعد أربعة أشهر من وقعة المرابطين بالموحدين سنة ٥٢٤هـ ، فدخل داره بجبل ، ولم يخرج منها إلا إلى قبره في المسجد الملاصق لداره ، حيث دفن به سرا في ٢٩ رمضان سنة ٥٢٤هـ ،

---

(١) الراكشي ، ص ١٩٢

(٢) البيذق ، ص ٢٢

(٣) البيذق ، ص ٢٩ ـ الراكشي ، ص ١٩٢

وأخفى أصحابه نبأ وفاته ثلاث سنوات ، قام الموحدون خلالها بشن الغارات على المرابطين ، ثم أعلنت وفاة المهدي رسميـــا فى سنة ٥٢٧ هـ . فبويع لعبد المؤمن فى هذا التاريخ بفضل تلاثة أشياخ من الموحـدين هم : عمر أصناج ، وعبد الرحمن بن زجو ، وأبو ابراهيم اسماعيل الهزرجى ، من أهل الجماعة (١) .

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٢٣

## (٢)

## فتوحات عبد المؤمن بن علي

### ١ — الرحلة الأولى : إلى تلمسان ووهران :

### ١ — فتح تلمسان ووهران :

كانت مهمة عبد المؤمن بعد أن تولى خلافة الموحدين صعبة للغاية ، فقد كان عليه أن يقضي على دولة المرابطين ، ويضم بلاد المغرب الأدنى والأوسط إلى المغرب ، حتى يصبح المغرب كله خاضعا للموحدين ، ولم يكن تحقيق هذا الأمر هينا ، ناجعة ، وقد ذاق من قبل مرارة الهزيمة حين تجرأ على مهاجمة مراكش عاصمة المرابطين ، فلا في الزول إلى السهل ، إلا في المناطق المقابلة للصحراء . وكانت القبائل الهلالية قد أطاعت عبد المؤمن ، وزاد أتباعه ، وانقضت القبائل على المرابطين في سائر بلاد المغرب ، فأرسل علي بن يوسف ابنه تاشفين لقتال الموحدين سنة ٥٥٥ هـ ، فالتقى معه عبد المؤمن في معركة بموضع في بلاد حاحة ، وفيها انحصر عبد المؤمن ، وعاد تاشفين إلى مراكش منهزما ، وجرح من قواده الإيرتيز قائد الروم . وفي سنة ٥٥٥ هـ التقى عبد المؤمن مرة أخرى مع الإيرتيز في أبطرور ، فانتصر عبد المؤمن في هذه المرة أيضا . وفي هذه السنة خرج عبد المؤمن في جيش كثيف غازيا المغرب الأوسط ، فأطاعه تمارة بشمالي المغرب ، وفي أثناء هذه الغزوة ، توفي علي بن يوسف سنة ٥٥٥ هـ ، فخلفه ابنه تاشفين ، وحدث خلاف بين لمتونة ومسوفة من قبائل المرابطين ، فانضمت مسوفة إلى الموحدين [1] . ثم

---

(١) ابن خلدون ، ج ٦ ص ٢٢٠ .

حاصر عبد المؤمن مدينة سبتة ، ولكنها استعصت عليه ، فاضطر إلى تركها ، وواصل زحفه شرقا إلى جبال غياثة وبطرنة ، فافتحها . ثم مضى إلى بلاد ملوية ، وتمكن من افتتاح حصونها ، ومن هناك واصل زحفه شرقا إلى زناتة فأخضعها وأخضع معها قبائل مديونة ، ونازل تلمسان بعد ذلك في سنة ٥٣٣ هـ . فقتل الابرتيز ، ونجح في دخول تلمسان .

تراجع تاشفين بن علي على أثر ذلك إلى وهران ، فحاصره الموحدون بحصنها ، وأشعلوا النيران على باب الحصن ، فحاول تاشفين الخروج بفرسه من الحصن ، فتردى في بعض هاويات الجبل ، ومات في ٢٧ رمضان سنة ٥٣٣ هـ . فبعث عبد المؤمن رأسه إلى تينملل ، ودخل الموحدون وهران ، فقتلوا من كان بها من المرابطين ، وقد أمر عبد المؤمن ببناء سور تاكرارت من تلمسان ، كما بنى مسجدها الجامع [1] .

٢ — فتح فاس :

تطلع عبد المؤمن بعد ذلك إلى فتح فاس ، فعزم على السير إليها ، واستولى في طريقه على أجرسيف ثم الفرمدة . فلما علم يحيى بن أبي بكر بن يوسف ابن تاشفين المعروف بالصحراوي ، قائد فاس ، بقدوم الموحدين خرج لقتالهم ، فانهزم الصحراوي ، وانسحب إلى فاس [2] . وفي اليوم التالي نزل الموحدون بعدوة سبو في موضع يعرف باسم عقبة البقر [3] ، وهناك قسم عبد المؤمن جيشه إلى قسمين : قسم بقيادة قائده أبي بكر بن الحديد

---

(١) ابن أبي زرع ، روض القرطاس ، ص ١١٣

(٢) اليافعي ، ص ٩٩

(٣) موضع شديد الانحدار في الطريق من فاس الى تازى

صنهاجة وعسكورة ، وجه إلى تونس إنجدان ، وهو موضع من فاس . أما الخليفة فقد ارتحل مع بقية العسكر جبل العرض (١) . وأمر الخليفة رجاله بقطع الأشجار ، فقطعت ، ثم حملت إلى الوادي ، فسدوا به ، وأمر عبد المؤمن بتحويل مجرى النهر إلى ناحية الأسوار ، وألحق المياه في المجرى الجديد فجرفت المياه باب السلسلة وعدة بيوت (٢) ، وغرقت أحياء المدينة فأغرقت عددا كبيرا من دورها . واضطر الصحراوي إلى الخروج مع فريق من رعيته لبناء السور المهدم ، فأتم بناءه . ثم أرسل عبد المؤمن فرقة اسطـــلاعية ( تيظاف بالبربرية ) (٣) . سيرها إلى مكناسة ، فخرج عليهم بدر بن وجلوط وقتلهم جميعا ما عدا ثمانية من الفرسان . فلما علم عبد المؤمن بن علي بذلك غضب غضبا شديداً ، وزحف إلى مكناسة بعسكر كثيف أثناء الليل تاركا أبا بكر بن الجبر على حصار فاس . فافتتح جميع أرباض مكناسة ما عـدا تاجرارت .

ولما طال الحصار على أهل فاس ، خرج أبو عبد الجياني والي فاس خفية إلى أبي بكر بن الجبر ، واتفق معه على أن يفتح له فاس . وفرجي الصحراوي في الصباح برؤية الموحدين على السور في ١٤ ذي القعدة سنة ٥٤٠ هـ . فركب الصحراوي فرسه هو وبعض عسكره وجماعة من شيوخ المدينة ، نجوا بأنفسهم من باب المتوح ، واحتموا بقلعة آمرجيو ، ولكن الصحراوي فر إلى الأندلس ، فخرج أبو يحيى بن الجبر إليهم ، وقبض عليهم

---

(١) هو جبل الشوالي الحالي ويقع شرقي فاس

(٢) القرطاس ، ج ١ ص ١٢٣ ـ الحلل الوشية ، ص ١٠١ ، ١٠٢

(٣) البيان ، ص ١٠٠

وسالهم إلى فاس وقتلهم . وهكذا افتتح الموحدون مدينة فاس بعد ستة أشهر من الحصار . ثم قدم عبد المؤمن إلى فاس ، وأقام بها بعض الوقت ، وأمر أثناء ذلك بسور فاس فهدمت فيه ثلمات كثيرة ، وقال : إننا لانحتاج إلى سور ، وإنما الأسوار سيوفنا وعدلنا ، فظلت بلا سور حتى عصر محمد الناصر من خلفاء الموحدين ، الذى أقام لها سورا جديدا فى سنة ٦٠٠هـ (١) ، وأقام قصبة الوادى ، وبنى باب الشريعة (٢) .

ثم ترك عبد المؤمن على مدينة فاس أبا عبد الله محمد بن يحيى الهدميوى وأبا محمد الهيانى (٣) ومضى بكل جيشه إلى مكناسة .

٢ — فتح مراكش :

توجه عبد المؤمن بعسكره لحصار مكناسة ، ولكن قبيلة صنهاجة البربرية أرسلت سنبلة من القمح مع رسالة أخبروه فيها أن يبادر بالظفر بزرع دكالة قبل يدخل مراكش ، فلا يستطيع بعد ذلك أن يدخلها أبدا ، فصمم على السير إلى مراكش ، فهذه بمحاصرة مكناسة إلى قائده يحيى بن يومور ، ومضى هو بمعظم عسكره إلى مراكش عن طريق تادلا وفى تادلا أمده قبيلتا هسكورة وصنهاجة بعسكر ضخم ، هبط بهم عبد المؤمن إلى وادى أم الربيع ، واستولى على أزمور ، ثم ضم صنهاجة أزمور إلى جيشه وانضم إليه أيضا أهل دكالة بجيرانهم ، ودخلوا فى طاعته لأول مرة . فسار بعد ذلك إلى مراكش ، (انظر خريطة رقم ١٣) وعبر نهر تانسيفت حتى وصل إلى

---

(١) روض القرطاس ، ج ١ ص ١٢٣

(٢) البرزالى ، ص ٣٢

(٣) راجع ما سبق أن عينته من مدينة فاس

تاغيط [1] ، ومنها اتجه إلى جبل إيجليز الذي يشرف على مراكش، وضرب عنده القبة الحمراء [2] . وذكر صاحب الحلل أنه نزل بجبل إيجليز ، وبنى عليه مدينة استند إليها ، وبنى فيها مسجدا وصومعة طويلة يشرف منها على مراكش ، وذلك في محرم سنة ٥٤١ هـ [3] . ثم خرج جيش المرابطين في مراكش بقيادة اسحق بن علي بن تاشفين الذي نصبه المرابطون أميرا عليهم بعد خلع إبراهيم بن علي بن يوسف ، وقائدين من قواده هما محمد بن حمدان ومحمد بن بانكلا لمقاتلة الموحدين وذلك في ٥ من المحرم، فهزمهم الموحدون عند أول لقاء ، وتراجع المرابطون إلى باب للشريعة ، وقتل منهم عدد كبير في المعركة وأثناء تسابقهم إلى دخول مراكش. وفي ١٨ شوال تمكن الموحدون من تسلق الأسوار بالسلالم ، واقتحموا المدينة ودخلوها ، وقتلوا عددا كبيرا من أهلها ، فامتنع الأمير اسحق في قلة من رجاله بالقصبة المعروفة بقصر الحجر ، واستمر الموحدون يقاتلون حتى الزوال ، وعجز المحصورون عن مدافعة الموحدين، فدخل الموحدون بقيادة أبي الحسن بن وجاج المعين، وقبضوا على الأمراء وإخوانه ، وساقهم ابن وجاج إلى جبل إيجليز ، وحاول عبد المؤمن أن يمنع ابن وجاج من قتل اسحق وبعض أبناء الأمراء من الصبيان ، فصاح به أبو الحسن بن وجاج : « دعنا وثأرنا الموحدين ، أوتد علينا عبد المؤمن يريد أن يربي علينا فراخ السبوعة » [4] . فانسحب عبد المؤمن من المجلس غاضبا ، وأتجه الموحدون ماعدا أبو الحسن وقتيخ أبو

---

(١) مدينة صغيرة كانت تقع على مسافة قصيرة الى الشمال من مراكش ، وقد اختفت اليوم

(٢) البيان ج ٤ ص ١٠٢

(٣) الحلل ، ص ١٠٢

(٤) البيان ج ٤ ص ١٠٢ ـ الحلل ، ص ١٠٢

حفص. فبدأ أبو الحسن بقتل اسحق ، فضرب عنقه ، ثم جذب طلحة ليقتله، فسأله طلحة أن يفك وثاقه ، ليعطيه أسلحته ، وبينما انهمك أبو الحسن بفك وثاقه ، أسرع طلحة إلى خنجر في وسطه ، مده إلى قلب أبي الحسن ،فقتله وانتقم طلحة بذلك لنفسه وللأمير اسحق قبل أن يقتله الموحدون (١) . وأصبح عبد المؤمن بعد فتح مراكش سيد المغرب كله .

ب ـ المرحلة الثانية : فتح الأندلس :

كان عبد المؤمن قد تلقى عند خروجه من فاس لمحاصرة مراكش بيعة أهل سبتة له ، فولى عليهم يوسف بن مخلوف الفتياني (٢) . ولكن أهل سبتة انتقضوا على يوسف بن مخلوف ، وقتلوه هو ومن معه من الموحدين، وولوا القاضي عياض ، واليهم السابق، إلى يحيى بن علي بن غانيـــة المسوفي والي الأندلس ، فلقيه بالجزيرة الخضراء ، وطلب منه واليا على سبتة ، فبعث معه يحيى بن أبي بكر المعروف بالصحراوي ، فقـــام بأمر سبتة ، وتحالف مع القبائل الخارجة عن طاعة الموحدين أمثال برغواطة ودكالة ، فاضطر عبد المؤمن إلى محاربة هؤلاء الخارجين عليه ، فاستأصل شأفتهم حتى انقـــادوا لطاعته ، ثم عاد إلى مراكش . وتقدم الصحراوي بطلب العفو عنه ، فعفا عبد المؤمن عنه ، وراجع أهل سبتة طاعتهم ، وكذلك أهل سلا الذين كانوا قد انتفضوا عليه (٣) .

---

(١) البيذق ، ص ١٠٤

(٢) ابن خلدون ج ٦ ، ص ٢٢٩ ،

(٣) كان قد خرج على عبد المؤمن ثائر في جزولة هو أهل سلا يعرف بمسر بن الخياط (البيذق ص ١٠٦ ) ، ويسميه ابن أبي زرع وابن خلدون يحمد بن عبد الله بن حمود =

ثم وجه عبد المؤمن نظره بعد ذلك إلى الأندلس، فقد كان أهلها قد اضطربوا فرصة ضعف تاشفين بن علي، وتوالى الهزائم عليه في المغرب على أيدي الموحدين، واعلنوا الثورات في كل مكان بالأندلس، وزادت هذه الثورات عقبا بعد وفاته في سنة ٥٣٩ هـ. وكان علي بن عيسى بن ميمون من بين هؤلاء الثوار، فاشتغل بقادس ودخل في طاعة الموحدين، وخطب أول خطبة لهم في قادس سنة ٥٤٠ هـ. كذلك قام أحمد بن قسي المسوفي الثائر في مرتلة، فلما استولى أبو محمد سدراي على مرتلة أجاز ابن قسي إلى عبد المؤمن بمراكش في سنة ٥٤٩ هـ، ورغبه في امتلاك الأندلس، فسير عبد المؤمن معه جيشا بقيادة يراز بن محمد المسوفي [1] في شعبان سنة ٥٤١ هـ، ثم أمده بجيش آخر بقيادة موسى بن سعيد، وجيش ثالث بقيادة عمر بن صالح الصنهاجي. فلما عبروا الزقاق، ونزلوا بالأندلس، هاجموا أبا الثمر بن عزرز المتغلب بشريش ورندة، فدخل في طاعة الموحدين، ثم قصدوا لبلة وأخضعوا يوسف بن أحمد البطروجي، ثم مضوا إلى مرتلة، فدخلوها، وانتصحوا بعد ذلك شلب، وقصدوا بلجة وبطليوس، فدخل أبو محمد سدراي

---

= (القرطاس، ص ١٢٤ — ابن خلدون، ج ٦ ص ٤٨٠) فارتد معه أهل طاعة ورجالية ومرسية وحصنورة الوطاء وطلاة وبنو وريا غل، كما ارتد معه عن طاعة الموحدين أهل بسة وطنجة. فسير اليهم عبد المؤمن جيشا بقيادة يحيى بن أبي حفص المسوفي، فانهزم، فسير اليهم المرة الثانية الشيخ أبا حفص عمر بن يحيى وأشياخ الموحدين، فسار أبو حفص الى مرسية وهزمهم، وبدد شملهم، ثم اتجه الى وريا طلة وهزم جيوشه وقتل الثائر عمر بن قليسانة، ثم مضى الى حصنورة فهزمهم، وحارب برشوانة، (انظر البيان ص ١٠٢ — ابن خلدون ج ٦ ص ٤٨٠)

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ٤٨٠، ويذكر ابن الخطيب أن اسمه ابراهيم بن يراز المسوفي

ابن وزير فى طاعتهم ، كما انضوت إشبيلية فى سنة ٥٤١ تحت لوائهم بعد أن افتحموها برا وبحرا ، ثم دخلوا مالقة فى هذه السنة . غير أن يوسف البطروجي لم يلبث أن نكث بطاعته للموحدين ، وحول الدعوة عنهم ، كما ارتد عن طاعتهم ابن قسي فى شلب ، وعلى بن عيسى بن ميمون فى قادس ، ومحمد بن على بن الحجـــام فى بطليوس ، بينما بقى أبو القمر بن عزون على طاعتهم فى شريش ورندة .

اضطرت أحداث الأندلس عبد المؤمن إلى إرسال جيش إليها يقوده يوسف بن سليمان ، فنزل يوسف بإشبيلية التى اتخذها الموحدون حاضرة لهم فى الأندلس ، وتمكن يوسف من بسط نفوذ الموحدين على بطليوس وشنتمرية وقادس وشلب وبلهه ثم دخلت قرطبة وجيان فى طاعة الموحدين سنة ٥٤٣ . ولم تبدأ سنة ٥٤٥ حتى كان رؤساء الأندلس الذين كانوا قد أعلنوا ثورتهم على المرابطين ، واستقلوا بمدنهم ، قد بايعوا عبد المؤمن بن على وأعلنوا الدخول فى طاعته . أما المرية ، فقد كان أهلها قد ثاروا على المرابطين أيضا ، ودخلت فى فلك دولة الموحدين سنة ٥٤١ هـ ، وتولى على جيوش الموحدين فيها عبد الله بن سليمان الذى قتله البحريون رجالة القطائع [1] ، ثم وليها من قبل الموحدين يوسف ابن مخلوف ، فثار عليه أهل المرية وقتلوه ، وقدموا على أنفسهم أبا يحيى بن الرميمى [2] ، فضبطها إلى أن استولى عليها الفونسو السابع ريموند الملقب فى المصادر العربية بالسليطين ملك قشتالة [3] ، فى ٢٠ جمادى الأولى سنة

---

(١) البيذق ، ص ١٢٦

(٢) المراكشى ص ٢٩٠ ـ المقرى ، جـ ٦ ، ص ٢٠٦

(٣) نشرها رسائل موحدية من كتاب الدولة المؤمنية ، نشرها ليفى بروفنسال ، الرباط ١٩٤١ ، ص ٧٥ ـ المقرى ، نفح الطيب ، جـ ٦ ص ٢٠٧

٥٤٢ هـ ودخلها عنوة (١) . ويبدو أن المرية كانت قد دخلت قبل استيلاء النصارى عليها فى طاعة محمد بن سعد الجذامى الملقب بابن مردنيش ، صاحب شرق الأندلس (٢) . ويرجح إشباخ أنها كانت إمارة مستقلة ، يحكمها القراصنة ، ويذكر أن السبب فى غزو النصارى لها اتخاذ القراصنة من مرساها وكرا لسفنهم يغيرون منه على شواطئ إسبانيا المسيحية وفرنسا وإيطاليا الجنوبية (٣) . وكان محمد بن سعد أسير جلنسية وعرسية وقت غزو الفنشاليين للمرية مشغولا بمحاربة الموحدين والنصارى فى آن واحد ، فلم تتهيأ له فرصة الدفاع عنها ، وأحاط النصارى بالمرية من البر والبحر ثلاثة شهور حتى استسلم أهلها لهم (٤) . وكان الموحدون قد فرضوا طاعتهم على قادس ، وإشبيلية ، وقرطبة ، ومالقة ، والجزيرة ، ولبلة ، وشلب ، وشريش ، ومرتلة ، فحاولوا استرجاع المرية فى سنة ٥٤٤ هـ (٥) ، وحاصروها ، إلا أنهم فشلوا فى اقتحامها وتخليصها من العدو بسبب تحصانة أسوارها وإن كانوا قد نجحوا فى اقتحام الترسى وحرق السفن والأبخان الراسية به ، ووصلوا إلى المسجد الجامع (٦) .

وفى سنة ٥٤٩ هـ ، تغلب الموحدون على غرناطة بعد أن خرج عنها ميمون بن يخلفتن ، وتوطد نفوذهم فى جنوب الأندلس . ثم تلقى

---

(١) دخلها ثوان فنشالية وقطلانية وجنوية وبيزية .

(٢) ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، القسم الخاص بالأندلس ، ص ٢٥٩ ، ٢٦٠

(٣) اشباخ ، ص ٢٢٤

(٤) الذخيرة ، ج ٦ ص ٢٠٦ ـ اشباخ ، ص ٢٢٦

(٥) القرطاس ، ص ١٤٦ ـ الذخيرة ، ج ٦ ص ٢٠٦

(٦) مجموعة رسائل موحدية ، ص ١٠ ـ ١٢

السيد أبو سعيد عثمان بن عبد المؤمن ، والي الجزيرة ومالقة وغرناطة ، أمر أبيه بمحاصرة المرية برا وبحرا ، وتخليصها من النصارى ، فتقدم أبو سعيد إلى المرية للجهاد بصحبة أخيه أبي حفص [1] ، ونصب الموحدون المجانيق على القصبة بعد أن احتلوا المدينة [2] وحاصروها حصاراً محكما . فاستصرخ النصارى ملكهم الفونسو السابع السليطين فأقبل إلى نصرتهم على رأس جيش من ١٢ ألف مقاتل ، وانضم إليه حليفه ابن مردنيش في قوة من ٦ آلاف مقاتل ، اضطر السيد أبو سعيد عثمان إلى استمداد الخليفة ، فوجه إليه القائد الكاتب أبا جعفر بن عطية ، ومعه الأمير أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن ، والي إشبيلية ، فازدادت قوة الموحدين بقدومه ، وخجل ابن مردنيش من نفسه ، إذ رأى « العار على نفسه في قتالهم مع كونهم يقاتلون النصارى ، فارتحل » [3] . وولى عسكر الفونسو الأدبار تاركين حامية قصبة المرية لمصيرها التعس ، ومات الفونسو في طريقه إلى بياسة سنة ٥٥٢ هـ ، وخلا الجو للموحدين ، فشددوا الحصار على القصبة ، واستولوا عليها في سنة ٥٥٢ هـ . وهكذا استرد الموحدون المرية ، وقد تهدمت أبنيتها ، وتغيرت محاسنها [4] .

وفي سنة ٥٥٥ هـ أمر عبد المؤمن ولده أبا سعيد عثمان ببناء جبل الفتح

---

(١) الذخيرة ، جـ ٦ ص ٢٠٧

(٢) ابن الخطيب ، الاحاطة في أخبار غرناطة ، جـ ١ ، تحقيق الأستاذ محمد عبد الله عنان ، ص ٢٧٩

(٣) الذخيرة ، جـ ٦ ص ٢٠٩

(٤) الادريسي ، ص ١٩٨

وتحصينه ، ثم بناؤه على يدى الحاج بيش المهندس[1]. وعلى أثر ذلك جاز عبد المؤمن من طنجة إلى الأندلس ، فنزل بجبل الفتح ، وأقام شهرين أشرف خلالها على أحوال الأندلس ، ووفد إليه قوادها وأشياخها لتحيته ، ثم أمر بغزو غرب الأندلس ، فسير الشيخ أبا محمد عبد الله بن أبي حفص من قرطبة ، ففتح حصن أطرنكش من أحواز بطليوس ، واستولى الموحدون على بطليوس وباجة وباجرة وحصن القصر ، ثم عاد عبد المؤمن بعد ذلك إلى مراكش (٢) .

ج — المرحلة الثالثة : فتح القطرين الأدنى والأوسط :

أخذ الموحدون يتدخلون حربيا فى الأندلس منذ سنة ٥٤٠ هـ ، وتمت لهم السيطرة على الأندلس فى سنة ٥٥٩ هـ ، وبينما كانت قوات عبد المؤمن تعمل على بسط نفوذ الموحدين فى الأندلس ، تفتحت أمامه جبهة ثانية فى القطرين الأدنى والأوسط ، فقد بلغه ماوصل إليه أمر إفريقية من اختلاف الأمراء ، وتطاول العرب من بنى سليم وهلال عليها بالعيث والفساد ، كما بلغه استيلاء النورمانديين على سواحل إفريقية ، فزحف فى سنة ٥٥٦ هـ من مراكش قاصدا عاصمة يحيى بن العزيز بن المنصور بن الناصر بن علناس الحمادى ببجاية ، فدخل مدينة الجزائر على حين غفلة ، فخرج إليه الأمير الحسن بن على بن يحيى بن تميم ، وكان قد انتقل إليها بعد سقوط المهدية فى أيدى النورمان ، فقدمه أهلها على أنفسهم ، فلما علم بقدوم عبد المؤمن بن

---

(١) الحلل الموشية ، ص ١١٨

(٢) روض القرطاس ، ص ١٣٠

على ، خرج للقائه ، فلقاه بعنابة بالقة ، وصحبه فى غزو إفريقية [١] . ثم سار عبد المؤمن نحو بجـــاية ، فأخرج يحيى بن العزيز أخاه مع للقاء جيوش عبد المؤمن ، فانهزم هزيمة نكراء ، ودخل الموحدون بجاية [٢] . ولما رأى يحيى ألا طاقة له بمحاربة عبد المؤمن ، هرب فى البحر إلى صقلية بقصد الانتقال منها إلى بغداد ، وحمل معـــه ماستطاع حمله من الذخائر والأموال ، ثم عدل عن ذلك ، ونزل فى بونة على أخيه الحارث ، ثم رحل منه إلى قسنطينة ، فنزل على أخيه الحسن . أما عبد المؤمن ، فقد سار إلى قلعة بنى حماد معقل الصنهاجيين الأعظم ، وحزم الأمتع ، واقتحمها عنوة ، فخربها ، وأضرم النار فى مساكنها ، وقتل جوشن بن العزيز ، وابن القاسى من الأتيج ؛ ويذكر ابن خلدون أن عدد القتلى بهـــا بلغ ١٨ ألفا [٣] .

ولما استولى عبد المؤمن على الجزائر وعلى بجاية والقلعة وأعمالها ، استعمل عليها ابنه عبد الله ، ورتب من الموحدين من يقوم بالدفاع عنها ، وعاد عائدا إلى مراكش [٤] . وكان يحيى بن العزيز قد نزل عن قسنطينة لعبد المؤمن على أن يؤمنه ، فأمنه ، وأصحبه معه إلى مراكش فى سنة ٥٤٧ هـ وأسكنه بها ، ثم انتقل يحيى إلى سلا سنة ٥٥٨ هـ ، فسكن قصر بنى عشرة إلى أن توفى فى هذه السنة [٥] . أما الحسن بن على فقد صحب عبد المؤمن

---

(١) ابن خلدون ، ج ٦ ص ٣٣٣

(٢) نفس المرجع ص ٣٦٤

(٣) نفس المرجع ، ج ٦ ص ٣٦١

(٤) المراكشى ، ص ٢٠٢

(٥) ابن خلدون ، ج ٦ ص ٣٦١ — ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، القسم الخاص بالأندلس ، ص ١٠٠

فى غزوته الأولى إلى إفريقية ، كما صحبه فى سنة ٥٥٤ فى غزوته الثانية ، فحاصر معه المهدية ، ثم دخلها ، وسكن بها ثمان سنوات إلى أن استدعاه أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن ، فرحل بأهله إلى مراكش ، وتوفى بها سنة ٥٦٣ هـ (١) .

كان عبد المؤمن فى طريقه إلى مراكش عندما بلغه وهو فى منيجة خبر قيام عرب الأثبج ورياح وزغبة فى سطيف بالثورة على ابنه عبد الله وعزمهم على إعادة دولة بنى حماد . فأرسل إلى ابنه مدداً . والتقى عبد الله بن عبد المؤمن بهم فى سطيف ، فانهزم العرب ، وأعلنوا خضوعهم للموحدين ، وقدم إليه وفد من كبرائهم طائعين ، فأكرمهم ، ووصلهم ، وأعادهم إلى إفريقية معززين . وكان لذلك أكبر الأثر فى دخول العرب فى طاعته ، فاتخذ منهم جنداً ، وأقطع رؤساءهم بعض تلك البلاد ، ثم إنه استنفرهم إلى الغزو بالأندلس ، فاستجاب له منهم جمع عظيم . فلما أراد الجواز إلى الأندلس فى سنة ٥٥٥ هـ ، أدخلهم بها ، وجعل بعضهم فى نواحى قرطبة ، وبعضهم فى إقليم إشبيلية ، مما يلى شريش وأعمالها ، وقد استكثر منهم أبو يعقوب يوسف وأبو يوسف يعقوب المنصور ، ويذكر المراكشى أن بالجزيرة فى أيامه من عرب زغبة ورياح وجشم وغيرهم نحو من ٥ آلاف فارس سوى الرجالة (٢) .

وفى هذه الأثناء كان عبد الله بن عبد المؤمن قد خرج فى جيش كبير

---

(١) ابن خلدون ج ٦ ، ص ٣٣٤

(٢) المراكشى ، ص ٢٢٦

من المساعدة والعرب ونزل على مدينة تونس فى سنة ٥٥٢ هـ ، فحاصرها ، وأخذ فى قطع أشجارها وتخريب مياهها ، وكان قد استقل بها عبد الله بن خراسان ، فخرج أهل تونس لمقاتلة الموحدين ، وانضم إليهم عزز بن زياد أمير بنى على من بطون رياح هو وقومه من العرب ، فهزموا الموحدين[1] ، وتوفى عبد الله بن خراسان أثناء ذلك ، فخلفه على بن أحمد بن عبد العزيز ابن خراسان ، وعاد عبد المؤمن بقفول أصحابه إلى بجاية ، فكتب إلى أبيه بذلك (٢) . فخرج أبوه من مراكش فى جيوش لاتحصى فى ١٠ شوال سنة ٥٥٣ هـ بعد أن استخلف على مراكش أبا حفص بن يحيى ، وترك معه ولده السيد أبا الحسن (٣) . ثم زحف إلى مدينة تونس فافتحها عنوة ، ثم واصل زحفه إلى المهدية ، وضرب عليها الحصار . وكانت الإمدادات تأتى حاميتها من صقلية ، ولذلك طال الحصار إلى سبعة أشهر ، ثم افتحها عبد المؤمن بعد أن أمن حاميتها على أن يخرجوا منها إلى صقلية ، ودخلها فى سنة ٥٥٤ هـ (٤) . وكان عبد المؤمن أثناء حصاره للمهدية ، قد بعث ابنه عبد الله لمحاصرة قابس ، فاستولى عليها من بنى كامل من رياح ، المتغلبين عليها ، كما استولى على قفصة من بنى الورد ، وعلى طبرقة من عدائم بن علال ، وجبل زغوان من بنى حماد بن خليفة ، وشقنبارية من بنى عماد بن نصر الله الكلاعى ، والأربس من بنى قتادة العرب (٥) . ويذكر المراكشى أنه افتتح طرابلس

---

(١) ابن خلدون ، ج ٦ ص ٣٣٢

(٢) المراكشى ص ، ٢٢٨

(٣) القرطاس ، ص ١٢٩

(٤) المراكشى ، ص ٢٣٠ ـ الحلل الموشية ص ١١٢

(٥) ابن خلدون ، ج ٦ ص ٤٩١

المغرب أيضا ، واتسع بلاد الجريد كلها (١) . وعاد بعد ذلك إلى مراكش بعد أن تم إخضاع إفريقية كلهـــا وضمها إلى دولته ، وأصبحت دولة الموحدين تمتد من طرابلس شرقا إلى السوس الأقصى غربا ، لأول مرة في تاريخ المغرب منذ أن افتتحها العرب .

ثم عاد عبد المؤمن بعـــد ذلك في طريقه إلى حاضرته مراكش ، فمر ببجاية وتلمسان وتاجرا ، وأقام بمراكش بقية سنة ٥٥٥ هـ ، حتى سنة ٥٥٦ هـ . وبلغه أن ابن هشك وابن مردنيش ومدار الأقرع قد هاجموا إشبيلية مع حشود كبيرة من النصارى ، وأن ابنه أبا يعقوب قد خرج إليهم فهزموه ، وقتل في تلك الوقعة محمد بن عمر الصنهاجي ، ويحيى بن أبي بكر ابن الخير ، وعمر بن ميمون الخرغي من كبار قادة الموحدين ، كما بلغه هزيمة ابنه أبي سعيد عثمان في غرناطة ، فخرج عبد المؤمن إلى سلا ، وأعد جيشا ضخما للجهاد ، وجاز إلى جبل الفتح ، وسارت عساكره إلى غرناطة ، فهرب ابن مردنيش إلى معقله بمرسية ، وابن هشك إلى شقورة ، ودخل الموحدون غرناطة . ثم جاز الخليفة إلى سلا ، حيث مرض الخليفة ، وتوفي في ٢٢ من جمادى الآخرة من سنة ٥٥٨ هـ ، ودفن في تينملل بجوار قبر المهدي (٢) .

---

(١) المعجب ، ص ٢٣٠

(٢) البيان ، ص ١٢١

## (٣)

## عصر أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن

### أ ـ الصعاب التي واجهته في المغرب والأندلس :

لما توفي عبد المؤمن بن علي خلفه محمد أكبر أبنائه ، وبايع الناس له ، فتولى الخلافة « يوما ، ثم عزل عنها لأمور أخذت عليه ، وأجمعت آراء شيوخ الموحدين على مبايعة أبي يعقوب يوسف ، وكان أبو يعقوب هذا قد تأثر برقة الحياة في الأندلس وحضارتها منذ أن كان واليا على إشبيلية من قبل أبيه ، فزالت عنه بخونة البربر ، وكان قد درس على كثير من علماء الأندلس في اللغة والنحو والقرآن ، وكان محبا للجهاد في سبيل الله ، فجاز إلى الأندلس مرتين مرة في سنة ٥٦٦هـ للنظر في ضبط الثغور وإصلاح حال البلاد ، ومحاربة القشتاليين والأرغونيين وبقايا الناصر في ما زالت موالية للمرابطين في الأندلس ، ثم جاز مرة أخرى في سنة ٥٧٩هـ لمحاربة البرتغاليين.

اعترضت أبا يعقوب منذ توليته الخلافة عدة صعاب واجهها في شجاعة وعزم ، واستطاع أن يتغلب عليها ، ففي المغرب قامت فتنتان : الأولى سنة ٥٦٢ هـ ، عندما ثار سير بن منقاد بجبال غمارة على الخليفة ، وتابعته في الفتنة صنهاجة ، فسير إليه الخليفة قائده الشيخ أبا حفص ، ولكنه لم ينجح في إخمادها ، فاضطر إلى الخروج بنفسه ، وهزمهم ، واستأصل شأفتهم ، وقتل الثائر سير . وفي سنة ٥٧٠هـ ثار علي بن الخزر المعروف بالطويل من أعقاب بني الرند ملوك قفصة ، ولقب ابن الرند هذا بالناصر لدين الله (١) ، فسار أبو يعقوب إلى قفصة وحاصرها إلى أن استنزله ، فعاد إلى

---

(١) المراكشي ، ص ٢٥٢

مراكش . وكانت هذه الثورات متقدمة بخطر واحد من المشرق وهو خطر ممالك الغز المصريين ، وعلى رأسهم شرف الدين ابن أخي صلاح الدين ؛ فحالفوا عرب بني هلال ، وأغاروا على الأطراف الشرقية لدولة الموحدين ، وقد تمثل هذا الخطر في عهد أبي يوسف يعقوب المنصور ، إذ تحالف ممالك مصر مع بني غانية الميورقيين ، وأعراب بني هلال ، ضد الموحدين (١) .

أما في الأندلس ، فانه لم يمض عامان على ارتقائه إلى دست الخلافة حتى كان ابن مردنيش قد حشد قواته من المعاهدين للموحدين في الأندلس ، ومن حالفه من القشتاليين والأرغونيين ، وأغار على قرطبة ، فسير إليه أبو يعقوب السيد أبا سعيد من غرناطة وأبا حفص ، في جيوش ضخمة من الموحدين ومن انضم إليهم من قبائل العرب زغبة ورياح والأثبج ، فالتقى الموحدون مع جيش ابن مردنيش في لخص مرسية ، فانهزم ابن مردنيش وأصحابه ، وفر إلى مرسية ونازله الموحدون بها . ثم عاد السيدان أبو حفص وأبو سعيد إلى مراكش في سنة ٥٦٦هـ بعد أن هدأت الأحوال في الأندلس (٢) .

ب — جهاده في الأندلس واستشهاده في شنترين :

ثم بلغ أبا يعقوب قيام فرديناند ملك ليون بغزو منطقة والدي آنه ، بينما أخذ الفونسو هنريكي ملك البرتغال يوسع حدوده الجنوبية والشرقية على حساب أملاك المسلمين في غرب الأندلس ، واستولى على ترجالة وباجة وحصن شوبره وجلنانية الواقعين إزاء بطليوس (٣) ، ثم سار بعد ذلك

---

(١) ابن خلدون ، ج ٦ ص ٣٩٤ ، ٣٩٥ ، ٣٩٨ .

(٢) نفس المرجع ص ٤١٢ .

(٣) ابن خلدون ، ج ٦ ص ٤٩٦ .

لحصار بطليوس . فسير إليه أبو يعقوب الشيخ أبا حفص في عساكر كثيفة من الموحدين ، وسار أبو حفص لاستنقاذ بطليوس من حصار الفونسو هنريكي ( وتسميه المصادر العربية « ابن الريق » ) . فلما وصل إلى إشبيلية بلغه أن أهل بطليوس هزموا البرتغاليين ، فعدل عن متابعة السير إلى بطليوس . وفي سنة ٥٦٦ هـ توافت عند أبي يعقوب بمراكش حشود هائلة من العرب قادمة من إفريقية في صحبة السيد أبي زكريا والي بجاية والسيد أبي عمران والي تلمسان ، فاستعرضهم وسائر عساكره ، ثم عزم على الجواز إلى الأندلس للجهاد ، واستخلف على مراكش أخاه أبا عمران ، ثم سير الزقاق إلى الأندلس في صفر سنة ٥٦٦ هـ ، ونزل بعاصمته إشبيلية ، ثم كتب إلى أخيه عثمان والي غرناطة بالسير إلى مرسية قاعدة ابن مردنيش ، والتقى جيش الموحدين بجيش ابن مردنيش في حوقعة الجلاب ، على بعد أربعة أميال من مرسية ، فانهزم ابن مردنيش ، وتحصن بمرسية ، فحاصره الموحدون . وفي أثناء الحصار ، تمكن الموحدون من الاستيلاء على لورقة وبسطة ، وتوفي ابن مردنيش وهو محاصر بمرسيه في رجب سنة ٥٦٧ هـ ، فدخل ابنه هلال في طاعة الموحدين [1] ، وسلم لهم حصون أبيه وهي بلنسية ومرسية ومرببطر وشاطبة ودانية ولقنت وشقر ولورقة وقرطاجنة . ومكث أبو يعقوب في إسبانيا أربعة أعوام ، نظم خلالها عدة حملات ضد البرتغاليين والقشتاليين ، ففي سنة ٥٦٧ خرج من إشبيلية إلى جنوب البرتغال في جيش ضخم ، وحاصر شنترين ، ثم سار إلى القنطرة متبعا طريق بطليوس وقلمرية ، واستولى عليها ، ثم عاد إلى إشبيلية مثقلا بالغنائم . وفي عام ٥٦٨ ، ٥٦٩ ، أغار على

---

(١) الزركشي ، ص ٢٤٦ — ابن خلدون جـ ٦ ، ص ٢٠٠

ناحية قلعة رباح وأثخن فى بـــلاد قشتالة ، ثم عاد إلى إشبيلية . وفى سنة ٥٧٩ هـ ، غادر أبو يعقوب الأندلس ، إلى مراكش بعد أن أقام فى حاضرته الأندلسية كثيرا من المنشآت النافعة كالمسجد الجامع ، والجسر ، والقصبة ، والزلالق السور ، والأرصفة على الوادى الكبير [1] .

غير أن الأحوال فى الأندلس ما لبثت أن ساءت من جديد بعد قفول أبى يعقـــوب يوسف إلى مراكش ، ففى سنة ٥٧٢ هـ ، تمكن القشتاليون بمساعدة الفونسو الثانى ملك أرغون من الاستيلاء على قونكة [2] وأخذت غزوات القشتاليين والبرتغاليين والليونيين والأرغونيين تتوالى على بلاد الأندلس . وكانت مملكة البرتغال أشد هذه الممالك وطأة على بلاد المسلمين ، فعزم أبو يعقوب على الجواز إلى الأندلس للمرة الثانية وذلك فى سنة ٥٧٩ هـ ، ورأى المبادرة بمهاجمة مملكة البرتغال ، فزحف بجيوش إلى بر الأندلس مثل كثرتها من قبل ، وسار إلى شنترين ، وكانت من العواصم الكبرى فى غرب الأندلس ، التى استولى عليها البرتغاليون فى سنة ٥٤٨ هـ ، وحاصرها حصارا شديدا ، ودمر مزارعها ، وخرب مرورجها ، وشن الغارات على نواحيها ، وكان ملك البرتغال قد تأهب لذلك الحصار فـــملأها بالأقوات والسلاح وكان واثقا من حصانتها وشدة مناعتها ، فبالغ أبو يعقوب فى التضييق عليها ، وانتسف معايشها ، وقطع المواد والمدد عنها ، فما زاد ذلك

---

(١) P. Antonio Malchor, Sevilla y Sus monumentos arabes, ed. Escorial, 1930.

وانظر الكتاب : المآثر المشهورة بالأندلس ، القرن ١٤٠٠ ، ١٩٨٠ ـ كتاب الشعب عدد ٩١ ، ص ٩٠

(٢) المرجع ، ص ٢٢١

أهلها إلا مرارة وشدة وجلدا ، وخاف المسلمون هجوم البرد - وكان في آخر فصل الخريف - وخافوا أن يعظم النهـــر ( نهر تاجه قرب معسكره ) فلا يستطيعون عبـــوره ، ويقطع عنهم المدد ، فأشاروا على أمير المؤمنين بالرجوع إلى إشبيلية »[1] . ويبدو أن الخليفة يأس من فتح شنترين بعد أن طال حصاره لها دون جدوى ، فأراد أن يحاصر مدينة أخرى تقربها من مدينة أشبونه ، كما يبدو أن بعض رجاله عجل بتقويض الأخبية تمهيدا للرحيل ، وأحدث ذلك هرجا في معسكر المسلمين ، وعبر أكثر جنود المسلمين نهر تاجة متزاحمين متسابقين ، ولم يبق إلا عدد قليل من المعسكر ظل مرابطا بقرب خباء الخليفة ، فلما رأى البرتغاليون ذلك ، وشاهدوا رحيل معظم جيش أبي يعقوب أغاروا على معسكره ، فقتل عدد كبير من كبار رجال الجيش ، وأصيب الخليفة بسهم مسموم ، وتدارك الناس حين سمعوا صرخات الجنود ، وأقبلوا يحمون الخليفة ، فتراجع البرتغاليون إلى شنترين ، بينما حمل الجنود خليفتهم جريحا على محفة ، فمات بعد ليلتين من هذه المعركة في ٧ رجب سنة ٥٨٠ هـ ، وحملت جثته إلى إشبيلية ، وأرسل منها في تابوت إلى تينملل حيث دفن بجوار أبيه عبد المؤمن[2] .

---

(١) المراكشي ، ص ٢٥٨

(٢) نفس المرجع ، ص ٢٦١

## (٤)

## المنصور بطل الأرك

١ ـ حروبه مع بني غانية :

واليه أبو يوسف يعقوب بن أبي يعقوب يوسف كثيرا من المهام الصعبة في المغرب والأندلس معا ، ففي بداية عهده انتهز بنو غانية فرصة وفاة أبيه ، وخرج أميرهم علي بن اسحق بن غانية من جزيرة ميورقة قاصدا مدينة بجاية في حشود كثيرة من أتباعه، فاستولوا عليها ، وأخرجوا من كان بها من الموحدين .

وبنو غانية من قبيلة مسوفة ، وكانوا يمتون بصلة القرابة إلى بني تاشفين أمراء المرابطين ، وفي عهد المرابطين قام بنو غانية بولاية دانية ، فامتلكوا جزر البليار : ميورقة ومنورقة ويابسة ، واستقل محمد بن غانية بحكم هذه الجزر ، وأقام فيها جاريا على أمر المونة ، داعيا لبني العباس ، وخلفه ابنه أبو ابراهيم اسحق ، وفتح بابه لمن وفد إليه من بقايا عناصر المرابطين في الأندلس ، وأقبل على الغزو ، وتوفي في سنة ٥٧٩ هـ . وقام بالأمر بعده ابنه علي فخرج بأسطول ميورقة إلى المهدية ، وقصد مدينة بجاية حين رأسه جماعة من أعيانها . وقد وجد الميورقيون لهم في إفريقية حلفاء جعتهم بهم الظروف السياسية وقتئذ وهم بنو هلال وسليم والمماليك الغز وعلى رأسهم قراقوش ، وكان علوكا لتقي الدين ابن أخي صلاح الدين ، وكانوا يعملون لمصالحهم الخاصة في المغرب ضد الموحدين ، وبطبيعة الحال انضم هؤلاء المماليك الميورقيين ، وأصبحوا حلفاء لهم خاصة بعد أن دعا علي بن اسحق للخليفة العباسي أبو العباس أحمد الناصر في الخطبة . ثم بعث علي بن اسحق

ابنه مع كاتبه عبد العزيز بن مرشان إلى الخليفة العباسي طالبا الخلع والاعلام السوداء . وكان انضمام ممالك مصر إلى بني غانية ، أعداء الموحدين مسببا في غضب أبي يوسف يعقوب على صلاح الدين سلطان مصر ، ويبدو أن ذلك كان سببا من أسباب رفضه لنجدة صلاح الدين في جهاده ضد الصليبيين [1].

وخرج علي بن اسحق من بجايه بعد أن وطد سلطانه فيها ، وهاجم قلعة بني حماد فاستولى عليها ، وعلى ما يجاورها من قلاع ، ثم تمكن علي بن اسحق من الاستيلاء على كل إفريقية بما في ذلك قفصة وتوزر عدا تونس والمهدية ، كذلك استولى على الجزء الشرقي من المغرب الأوسط ابتداء من الجزائر حتى المسيلة بما في ذلك مليانة والقلعة [2] . وعلم أبو يوسف في سبتة بذلك عقب عودته من الأندلس ، ويذكر ابن خلدون أن السيد أبا زيد ابن عم الخليفة سير لمحاربة ابن غانية ابنه السيد أبا حفص ، كما عقد لمحمد بن أبي اسحق بن جامع على الأساطيل ، بقيادة أبي محمد بن عطوش وأحمد المعقلي .

أما السيد أبو زيد فقد مضى إلى تلمسان ليعقد حصونها ، ثم مضى إلى مليانة يوناذي بالعفو عن الرعية ، فثار أهل مليانة على ابن غانية وأخرجوه ، وكانت الأساطيل الموحدية قد سبقت الجيش إلى الجزائر ، وتمكن المعقلي من الاستيلاء عليها ، وأسر يحيى بن طلحة ويدر بن مالتة ، وتقدم القائد أحمد المعقلي بأسطوله إلى بجاية فدخلها ، وفر يحيى بن غانية إلى أخيه اسحق .

---

(١) سعد زغلول عبد الحميد : العلاقة بين صلاح الدين وأبي يوسف يعقوب المنصور ، بحث بكلية الآداب بجامعة الاسكندرية ، المجلدان ٦ ، ٧ ، ١٩٦٨ ، ص ٨٤ — ١٠٠

(٢) ابن خلدون : جـ ٦ ص ٥٠٢

وهو ما يزال يحاصر قسنطينة، فأقلع عنها، ومضى إلى الصحراء، وطارده الموحدون إلى مقره وقاوس من بلاد الزاب، ثم عادوا بعد ذلك إلى بجاية(١).

أما ابن غانية فقد زحف إلى قفصة، واستولى عليها، وحاصر توزر، ولكنها استعصت عليه، فتركها ومضى إلى طرابلس حيث قابل قراقوش المظفري، واتفق معه على أن يحالف معه ضد الموحدين، واستمال ابن غانية قبائل بني سليم من العرب ومن جاورهم ببرقة، واجتمع إليه من كان منحرفا عن طاعة الموحدين من قبائل بني هلال مثل جشم ورياح والأثبج، كما انضم إليه أيضا فلول لمتونة من أطراف البقاح، فمضى إلى بسلاد الجريد، واقتحم كثيرا من مدنها وحصونها، وأقام الدعوة العباسية فيها، وافتتح قراقوش قابس، وبلغ ابن غانية أن أهل قفصة خلعوا طاعته، فحاصرها، وظاهره قراقوش في استرجاعها، ثم رحل ابن غانية إلى توزر وافتتحها أيضا. ولما بلغت المنصور هذه الأخبار خرج بنفسه من مراكش في سنة ٥٨٢ هـ. وهو عازم على القضاء نهائيا على بني غانية وحلفائهم من العرب والمماليك، واسترجاع نفوذه على إفريقية، فمر في طريقه إلى إفريقية بفاس ورباط تازى وتونس. وأقام بتونس، وسير من هناك جيشا بقيادة السيد أبي يوسف يعقوب بن أبي حفص عمر بن عبد المؤمن، ومعه عمر بن أبي زيد، لمحاربة ابن غانية، فالتقيا أنبيشان في عمرة، فانتصر جيش بني غانية، انتصارا ساحقا، وهزموا الموحدين، وقتل ابن أبي زيد وأبو علي بن يخلف، وفر فلول الموحدين إلى قفصة، فأثخن فيهم جنود بني غانية والمماليك قتلا، ونجا الباقون إلى تونس، فلم المنصور شعثهم، وخرج بنفسه لمحاربة علي بن

---

(١) ابن خلدون جـ ٦ ص ٨٠٥

غانية ، والتقى معه فى حامة دقيوش ، فانهزم ابن غانية ، وانفلت بنفسه مع صاحبه قراقوش ، وتمكن المنصور من استرجاع تابس وتوزر وقفصة ، وهدم أسوار قفصة ، ثم قفل المنصور عائدا إلى المغرب ، فر بالهدية وانتج طريق تاهرت ، ومنها إلى تلمسان . أما ابن غانية فقد نزل فى بلاد الجريد ، وملك فى بعض حروبه مع أهل قزاوة سنة ٥٨٤ هـ . وخلفه أخوه يحيى بن أسحق [١] . فعاد إلى مناوءة الموحدين ، وتمكن من الاستيـــلاء على بسكرة عنوة ، وحاصر قسنطينة وبجاية ، وكثر عيثه فى البلاد .

ب ـ جولته الأولى إلى الأندلس واسترجاع المسلمين لشلب :

كان البرتغاليون بعد انتصارهم على الموحدين فى شنترين قد توغلوا فى غرب الأندلس ، وأخذوا يشنون الغزوات على أراضى المسلمين . فاضطر أبو يوسف يعقوب إلى العبور إلى الأندلس فى ٣ ربيع الأول سنه ٥٨٥هـ ، فسار مباشرة بجيشه إلى شنترين وأشبونة ، لكى ينتقم لهزيمة أبيه وللقتلة ، وعاث فى المروج ، وأحرق القرى ، ونهب الضياع ، وقتل السكان ، وسبى سبيا كثيرا . ثم عاد إلى المغرب [٢] . واستغل ملك البرتغال دون بدرو بن الفونسو هزيمة هذه الفرصة ، وعمل على افتتاح مدينة شلب ، مستعينا فى ذلك بالفرنج ( الصليبيين الذين قدموا من انجلترا وهولندا ورسوا قبالة أشبونة ) [٣] . فنزل الإفرنج على شلب من البحر ، وحاصرها بدرو من البر ، وتمكن من دخولها [٤] .

---

(١) ابن خلدون جـ ٦ ص ٣٩٩ ـ ٣٩٢ ، ٥٠٩ ـ ٥١٠ .
(٢) القرطاس ، ص ١٤٤
(٣) اعياخ ص ٣٣٠
(٤) المراكشي ص ٢٨٠

ثم أغار البرتغاليون بعد ذلك على غرب الأندلس . ويذكر ابن أبي زرع أن مدرو تمكن من الاستيلاء على باجة وباجة سنة ٨٨٩هـ (١).

وصلت أنباء هذه الاعتداءات البرتغالية على أراضي المسلمين إلى مراكش ، فغضب المنصور لذلك وبعث إلى رؤساء الأندلس يوبخهم على تقاعسهم عن مدافعة النصارى ، فقام محمد بن يوسف واليه على قرطبة ، فجهز شلب بخيله ورجاله ، وتمكن من افتتاحها ، كما افتتح قصر أبي دانس وباجة وباجة ، ثم عاد إلى قرطبة في سنة ٨٩٧هـ ، ويذكر ابن خلدون أن المنصور هو الذي افتتح شلب في سنة ٨٩٧هـ (٢).

ج - انتصار ابي يوسف للمنصور في موقعة الارك :

بعد أن عاد أبو يوسف يعقوب من غزوته في الأندلس مرض مرضا شديدا ، ثم أبل من مرضه ، وأشار عليه الأطباء بالاقامة بعض الوقت في فاس ، فسار إليها ، وأقام بها ستة أشهر حتى شفي تماما ، فعاد إلى الرباط حيث أعجبته الاقامة بها ، وفكر في أن يجعلها حاضرة لدولته . ثم واصل سيره حتى وصل إلى مراكش ، حيث وجد رسل ملك قشتالة قد قدموا إليه للمفاوضة في تجديد المعاهدة ، في الوقت الذي كان ملك قشتالة يضمر في نفسه الكيد للمسلمين ، فلم يقبل أبو يوسف شروطهم ، وقطع المفاوضات ، وشيعهم من مراكش وهو عازم على الذهاب لمحاربة ملك قشتالة (٣).

---

(١) القرطاس ص ١٤٤

(٢) الزاكي ص ٢٨٠ - ابن خلدون ج ٦ ص ٢١٦

(٣) Huici Miranda, la Campana de Alarcos, Revista del Instituto Egipcio de Estudios Islamicos de Madrid, vol. II, 1954, p.3

وفى سنة ٥٨٩ هـ أمر بأن يبنى له على نهر الوادى الكبير إزاء إشبيلية حصن يجعله مقرا للمجاهدين فى الأندلس من أهل المغرب ، وهو الحصن المعروف بحصن الفرج ، وهو اليوم قرية تعرف باسم San Juan de Alcalifarache . وفى أثناء ذلك ، وبعد أن نشأت مهمة ابن مقدّد فى أن يقوم المنصور بمساعدة صلاح الدين بأساطيله ، لمنازلة عكا وصور وطرابلس ، توتر الوقف فى إفريقية واضطربت أمور البلاد ، بعد أن دخل قراقوش فى طاعة الموحدين سنة ٥٨٦ هـ ، مخلعا طاعتهم ، واستولى على طرابلس الغرب ، وتحالف مع يحيى بن غانية ، وأصبحت طرابلس وبلاد الجريد من جديد فى أيدى الثوار . وأمام هذه الظروف عزم أبو يوسف على الخروج بنفسه لمحاربة بنى غانية وحلفائهم من العرب والمماليك الترك . وكان القونسو الثامن ملك قشتالة قد بلغه ما عزم عليه أبو يوسف يعقوب من التوجه إلى إفريقية ، وكان أمد الصلح مع ملك قشتالة قد انصرم ، فجمع أجناده وضرب لهم ميثاقا ارتبطوا عليه فى شن الغارات على بلاد المسلمين ، فأغاروا على جميعها بالأندلس شرقا وغربا فى يوم واحد ، وانتشرت الطائفة الواصلة إلى إشبيلية على جميع أقطارها ، وعاثت فى جهاتها ، وقاتلت بعض حصون شرقها ، وكادت تنتهز فيه الفرصة لولا غلب من الموحدين من سبق إليه ، ودافع عنه ، فأقلعوا عنه بعد أن قتل عليه جماعة منهم ، وخيب الله سعيهم فيه ، فوردت الأنباء بذلك على أمير المؤمنين المنصور ، وهو على قدم الحركة إلى إفريقية ، ورسول الطاغية عنده بالعلة المنصورة » [1] .

---

(١) الفريد الدر الكامل ، ولم المجب المقصور فى محاسن المنصور ، كما أورده الأستاذ لوبى ميرانده فى المقال السابق ، ص ٢٠ .

وامام هذه الأخبار التي بلغتـــه لم يسع أبو يوسف إلا ان يعدل عن مشروعه الأول وهو القضاء على بني غانية إلى الجواز إلى الأندلس لمحاربة التشاليين . فعبر الزقاق إلى الأندلس في ٢٠ جمادى الآخرة سنه ٥٩١ هـ ، ونزل بطريف يوما واحدا ، ثم واصل سيره حتى وصل إلى ظاهر إشبيلية، فنزل بقصر البحيرة الواقع خارج باب جيور ، فخرج اللاّ من أهل إشبيلية لتحيته ، فاستقبل سادات المدينة من سائر الطبقات في ٢٧ من جمادي الآخرة، وركب في اليوم التالي إلى حصن الفرج ، فأبدى إعجابه ببنائه ، ثم عاد في نفس اليوم ، فصلى في الجامع الكبير . ثم خرج في ٢٩ من جمادي الآخرة ، وأمر بعرض قواته بكامل عدتهم وأزيائهم ، ومشى مع الكتائب والوزراء ومن حضر من قرابته ، ووقف عليهم في مواضعهم صفا صفا ، وقبيلا قبيلا ، وشكر استبقاءهم واستعدادهم شكرا جزيلا ، وخرجت المرتبات والبركات » [1] ، وأغـــدق عليهم بالأموال ووزع الأسلحة والخيل على الجند ، وأمر باخراج من وسع الشرع في إخراجـــه من السجون [2] ، ثم خرج في ١١ رجب سنة ٥٩١ هـ ، يجتاز الوادي الكبير حتى وصل إلى قرطبة في ١٩ رجب . ولم يزل يواصـــل السير حتى انتهى إلى الموضع المعروف بالأرك ، وهو موضع قريب من مدينة قلعة رباح . وكانت قد خرجت من قلعة رباح وما جاورها سرية من فرسان القلعة بقصد الوقوع على أخبار المسلمين والتجسس عليهم ، فظفرت بهم طائفة من طلائع عسكر الموحدين واستأصلوا هذه السرية بالقتل ، فاستبشر الموحدون بذلك خيرا [3] .

---

(١) ابن عذارى ، نص أورده الأستاذ اوبش بيرا نصا في المقال السابق ، ص ٩٣

(٢) الكريف القرطاسي ، ص ٨٠ .

(٣) الكريف القرطاسي ص ٨٠ ، يذكر ابن عذارى أن سرية من خيل الصارى هزيمة

وما كاد الفونسو يعلم بنزول أبي يوسف إلى الأندلس حتى توجه إلى طليطلة حيث قضى بها أياما حشد خلالها جيشا ضخما لمنازلة الموحدين ، ثم مضى نحو الأرك . وكان الأرك حصنا يقع على حدود مملكة قشتالة ، وتأهب الفونسو لملاقاة الموحدين ، قبل أن يشرعوا في الإغارة على بلاده ، على نحو ما فعله المنصور من قبل في حملته على شنت إشتبن . وكان الفونسو واثقا من النصر حتى أنه دخل المعركة دون أن ينتظر وصول جيش ملك ليون وجيش ملك نبرة [1] . ويذكر الذهبي في بقية التفسير أنه أحضر معه جماعة من التجار اليهود لشراء أسرى المسلمين . ويذكر ابن أبي زرع أن المنصور عندما وصل إلى ميدان المعركة أمر باجتماع المسلمين ، فلما كملت جموع المسلمين قام الوزير أبو يحيى بن أبي حفص بن الشيخ أبي حفص ، وقال : « يقول لكم أمير المؤمنين اغفروا له ، فإن هذا موضع غفران ، وتغافروا فيما بينكم ، وطيبوا نفوسكم ، وأخلصوا لله نياتكم » فبكى الناس ، وأعظموا

---

= على قلعة رباح وما يليها ، ليجمعوا الأسرى ، فخرج إليهم من كان بالحصن فقتلوا عليهم قضاء مبرما ، وتركوهم بتلك البطاحولائم للنسور والسباع ( انظر ابن عذارى يتحال البيان المغربي ج ٣ ص ٢٤ ) . ويرى الأستاذ أوريبي ميراندا أن قلعة رباح كانت في ذلك الوقت داخل أملاك قشتالة ، منذ أن استولى عليها الفونسو السابع سنة ٥٤٢ هـ (١١٤٧م) وأن القشتاليين عمروا عنها بعد انسحابهم من الأرك ، فاستولى عليها المنصور وعمرها بالقلعة ، بقيادة يوسف بن قادس ( انظر التعليق السابق ص ٨ ) . ويؤيد أوريبي ميراندا في ذلك قول المقري « أتت » قلعة رباح أول حصون ألفونش في الأندلس » ( ص ٢٢ ) والواقع أن قلعة رباح المذكورة تقع على بعد نحو ٢٠ كم شمال شرق الأرك ، فليس من المعقول أن يستولي عليها الموحدون قبل الأرك ، واستيلاء الموحدين عليها لم يتم إلا بعد انتصارهم على الفونسو الثامن وجيوشه في الأرك نفسها .

(١) Huici Miranda, op. cit. pp. 426

ما معه من المنصور . ثم قام القاضي أبو عـــلي بن حجاج ، وخطب في المسلمين يحثهم على الجهاد ، ثم أمرهم أبو يحيى بن أبي محمد بن أبي حفص بلباس أسلحتهم ، والاستعداد من الغد للقاء العدو ، فتركوا بالمحلة أثقالهم ، وزحفوا في بطء حتى دنوا من العدو ، وأصبح في مرأى بصرهم ، وأخذوا مراكزهم ، ونظموا صفوفهم ، « أمرايا تتلو أمرايا ، وأمواجا تعقب أمواجا » ، فهاجموا القلب حيث الأعلام ، بقيادة الوزير أبي يحيى بن أبي حفص ، ووراءها قوات الأندلسيين والعرب وزناتة والمطوعة ، وصمد قلب الجيش الموحدي ، وقاوم الوزير مقاومة عنيفة حتى استشهد ، ومال قوم من المطوعة وأخلاط الناس إلى الميسرة ، وعندئذ ترك المنصور ساقة الجيش ومشى منفردا بين الصفوف يشجع رجاله ، ويحثهم على مهاجمة العدو ، فاشتد حماس المسلمين وغيرتهم ، وحملوا على الفشتاليين حملة عنيفة ، وأخذت فرقة الفواعين ترمي العدو بالسهام ، فانهزم الفشتاليون وولوا الأدبار ، وتمكنت فيهم سيوف الموحدين ، فقتل من فرسان نظام سانتياجو ثلاثة أساقفة ونحو ١٧ قسا ، كما قتل عدد كبير من فرسان قلعة رباح ، وقتل رئيس فرسان نظام يابرة ، واسمه جنتالوفيجاس ، ومن معـــه من مطوعة الفرنجيين . ونهب المسلمون معسكر النصارى ، وأفلت الفونسو الثامن بنفسه إلى طليطلة ، ونجمن قل جيشه بحصن الأرك . وكان عـدد هؤلاء النصارى نحو خمسة آلاف مقاتل ، فدخـــل ببطرة بن فرانذس ، الوالي المسلمين ، في الأمر ، وطلب من المنصور أن يفك حصارهم على أن يفك الفشتاليون نظيرهم من أسرى المسلمين ، فوافق المنصور ، وأخذ منه إلى إشبيلية عددا من الأسرى رهائن ، وسرح الباقون (١) .

(١) Rodrigo Ximenius, op. cit. p. 98

تمكن المسلمون بعد انتصارهم في الأرك من استرداد بعض حصون النصارى مثل ماجون وبانتي وكالا كويل وقنطرياح ، وكلها مدن وقلاع تقع في دائرة تبعد عن الأرك بنحو ٥٠ كم. ويذكر المراكشي أن المنصور دخل في قلعة رياح ، وقد جلا عنها أهلها ، فأمر بتحويل كنيستها إلى مسجد (١) . ويعلل الأستاذ ميراندا هزيمة الفشتاليين بأن المنصور نجح في اختيار الوقت المناسب للمعركة ، فقد كان الفونسو الثامن في عداء مستحكم مع ملك ليون وملك نبرة ، ولم تنجح جهود الكاردينال جرجوريوس لحمل هذا العداء ، وكان الفونسو معتادا على شن الغارات على أراضي المسلمين دون أن تقابله مقاومة من جانبهم ، فظن أن من السهل التغلب على جيش الموحدين ، ولم يفكر في مدى قوة جيش الموحدين ولم يعمل حساب حسن قيادة المنصور وشجاعته ، وتشجيعه لجنوده ، وحسن توزيعه لقواته ، الذين كانوا يتقنون طريقة الكر والفر ، ويجيدون الرماية بالسهام (٢) . كذلك يعزى هزيمة الفونسو إلى سوء تقديره لقوى الموحدين ، وعدم استعداده لمواجهة التفوق العددي للموحدين ، ولم يفكر في احتمال انضمام عدوه القديم بدرو فرناندث دي كاسترو ( بيطرة ابن فرانده ) إلى الموحدين (٣) .

عاد المنصور إلى إشبيلية ظافرا ، فدخلها في ٢٧ من شعبان سنة ٥٩١ هـ ، فأكمل بناء الجامع الكبير وصومعته ورفع بأعلاها التفاحتين الذهبيتين على عمود من الحديد في ١٩ ربيع الآخر سنة ٥٩٢ هـ (٤) . وفي هذه السنة انتقل المنصور

---

(١) المراكشي ، ص ٢٨٣

(٢) Eluici Miranda, op. cit. p. 24

(٣) ابن عذارى في المقال السابق ، ص ٥٦

(٤) Antuna Malchor, op. cit. p. 139

إلى حصن الفرج بناج الشرف ، وأكمل غرس البحيرة التي أمر بانشائها أدناه ، وأمر بعمل نواعير على شاطىء النهر بأدنى الحصن (١) . ووفد عليه سفراء مملكة ليون لعقد معاهدة تحالف مع الموحدين ، كذلك أبدى ملك نبرة رغبته في كسب صداقة الموحدين للدفاع عن مملكته الصغيرة من أطماع ملك قشتالة . عندئذ وجد المنصور الفرصة سانحة لإعداد حملة ضد مملكة قشتالة (٢) . وكان ملك ليون قد قطع علاقته مع الفونسو الثامن لنقضه معاهدة توردى هو موس Tordehumos ، وأخذ يطالب الفونسو الثامن بأن يسلم إليه حصون آلبه ولونا وبورتيا وغيرها مما أخذه وفقا لهذه المعاهدة ، ولكن الفونسو أبى أن يسلمه هذه الحصون ، وبدلا من أن يعرض ملك ليون مشكلته على الكاردينال ، قطع علاقته نهائيا مع الفونسو . كذلك وجد دون بدرو فرناندث دي كاسترو ( بطرة بن فرانذس ) في ذلك فرصة طيبة لمواصلة حربه ضد مملكة قشتالة ، فاتفق مع المنصور على شن هجوم عنيف في فصل الربيع على مملكة قشتالة ، ويقضي هذا الاتفاق بأن يتولى المنصور تخريب بلاد قشتالة جنوبي نهر وادي رامة ، بينما يقوم اليونيون مع حلفائهم المسلمين بمهاجمة قشتالة من الشمال .

٥ — غزوة طليطلة ( سنة ٥٩٢ ) :

كان فصل الشتاء قد انتهى ، وأقبل الربيع ، وهو أكثر فصول السنة ملاءمة للجهاد ، فاستنفر أبو يوسف قبائل الموحدين من منازلهم ، وحشد قواته ، واستعرضها ، ثم خرج في منتصف رجب سنة ٥٩٢ هـ ، وزحف

---

(١) عن ابن عذارى في مقال الأستاذ ليفي ، ص ٩٦

(٢) Huici Miranda, op. cit. p. 38

بجيوشه فى إقليم استراما دورة ، ثم قدم أبو يوسف جماعة من الأندلسيين إلى حصن منتانجش Montanchez ، وكان من المعاقل المرتفعة المعروفة بالوعر والامتناع ، فحاصرة الأندلسيون فى هذا اليوم ، وفى اليوم التالى وصلت قوات المنصور بأكملها ، فاستماتت حامية الحصن ، وأمدهم الخليفة ، وأمر القائد أبا عبد الله بن صناديد بتوصيلهم إلى حيث يأمنون فى أقرب المواضع إلى بلادهم ، ولكن ما كاد ابن صناديد يسير بهم مسافة فرسخ حتى غشيهم جماعة من العرب فوضعوا فيهم السيوف ، واستأصلوهم قتلا عن آخرهم ، وسبوا ما كان معهم من النساء والذرية [1] . فغضب أبو يوسف لهول هؤلاء العرب بعهود المسلمين ، فبعث على بعضهم ، وسجنهم ، وجمع النساء والأطفال ، وأوصلهم إلى أول حدود بلادهم . ثم مضى أبو يوسف إلى ترجاله Trujillo فدخلها دون منازلة . ويعلق ابن عذارى على انتصارات الموحدين بقوله : « وهبت ريح الفتح فى تلك الكور المأخوذة والأقطار ، وبلغ الرعب فيهـــا مالا تبلغه سمر الأسل وبيض الشفار ، وألقى عليهم الاستيصال والجلاء بالاضطرار ، وقنعوا من السلامة بالفرار ، واصطكت فى هذه الحصون المذكورة دعوة الإسلام ، ونعوضت فى أسبوع واحد من ملة الكفر بشريعة محمد عليه السلام » [2] . ومضى الموحدون فى زحفهم حتى نزلوا على بلنسية Phesnida التى كان قد أسسها الفونسو الثامن فى سنة ١١٨٩ م ، أى قبل ذلك بسبع سنوات ، واهتم بها وأنزل فيها جماعة من أهل الشمال ، فافتتحها المنصور ، وأسر قائدها مـــع مائة وخمسين من أعيانها

---

(١) نص ابن عذارى ، من مقال أوردى ميراندا ص ٥٠

(٢) نفس المرجع

فوجههم إلى المغرب حيث ساهموا فى بناء جامع سلا الكبير (١) ، وقصد به جامع الرباط ، وواصلت القوات الإسلامية زحفها بطول نهر تاجة حتى وصلت إلى طليرة « أكبر قواعد طليطلة وأثرادا ، وأعظمهـــا منعة وأعلاها » (٢) ، فأمر المنصور بتخريب ما حولها ، ولكنه لم يكن يستطيع أن يقيم عليها حصارا طويلا لنقص ما كان لديه من المؤن والأقوات ، وآلات الحصار والعرادات . وقبل أن يشرع فى الإغارة على طليطلة ، توغل فى الشمال ، فخرب مانقا أولايا ، وإسكالونا ، وحاول الاستيلاء على مكانة ، دون أن يهيأ له ذلك ، وأخيرا وصل إلى ساحة طليطلة ، وقسم الجيوش على جهاتها ، وشن الغارات على سائر منطقتها ، وأقام على حصارها عشرة أيام اشتبك خلالهـــا عدة مرات مع المدافعين عنها ، وانتسف رجاله الزروع والعمران فيما حولها . ثم بادر بالعودة إلى إشبيلية ، بعد أن أحس بعجزه عن افتتاحها .

٥ ـ الغزوة الثالثة ( سنة ٥٩٢ ) :

قضى المنصور بإشبيلية شتاء عام ٥٩٢ هـ ، فلما أقبل ربيع سنة ٥٩٣ ، عزم على الرحيل للغزو ، واستعفر قواته وخرج من إشبيلية إلى طليطلة ، فنزل أولا بطرطلة ، وأقام بها بعض الوقت ، واستكمل استعداداته ثم تحرك متخذا طريق طليرة . وما كاد المنصور يدخل فى أراضى قشتالة حتى بعث إليه الفونسو رسله فى طلب المهادنة والسلام ، فصرفهم المنصور من غير

---

(١) المعجب ص ١٢

(٢) نص ابن عذارى من مقال أوردنا ما ص ٥ .

جواب إلا « انتظر سنان ، وصارم قضاب »[1] . فلما وصل إلى طليطلة بعد أن فشل فى الاستيلاء على مكنزة أثناء مسيره إليها ، عمد إلى إتلاف ماحولها من مزارع وتخريب العمران ، وبلغه وهو محاصرها أن ملك أرغون قد اتفق مع ملك قشتاله على أن يزوده بالجيوش ، وعلم أنها عتيدان بحصن جريط ، فعزم المنصور على محاربتها ، وأحاط بجيشه بجريط ، ولكنه عجز عن افتتاحها فقد أبلى دون دييجو لوبث دى هارو بلاء حسنا فى الدفاع عنها ، فمضى المنصور إلى وادى الحجارة وهو يخرب كل ماقابله من مراكز عمرانية ومزارع (٢) .

ثم رحل المنصور إلى قرطبة ومنها إلى إشبيلية فى أول شوال سنة ٥٩٤ هـ ، ولما رأى ملك قشتالة ماحل ببلاده من أضرار وتخريب ، سعى من جديد لطلب السلم والمهادنة ، فأجابه المنصور إلى ذلك بعد أن اشترط عليه عدة شروط ، وهادنه لمدة عشرة أعوام ، ثم أجاز إلى بر العدوة فى أول جمادى الآخرة سنة ٥٩٤ هـ ، وتوفى بمراكش فى ٢٢ ربيع الأول سنة ٥٩٥ هـ .

---

(١) نفس ابن عذارى من مقال لوجى ميراندا ص ٥٥ .

(٢) نفس المرجع ص ٥٦ .

## ( ٥ )

### محمد الناصر وهزيمة الموحدين فى العقاب

#### ١ ـ ثورات المغرب فى عصر محمد الناصر :

لما توفى المنصور بويع ابنه وولى عهده أبو عبد الله محمد بالخلافة ، وتلقب بالناصر لدين الله . ولقد واجهته فى أول خلافته مشكلات كثيرة ؛ فيحيى بن اسحق بن غانية كان قد استولى على أكثر بلاد إفريقية مستغلا انشغال الموحدين عنه بمحاربة القشتاليين فى الأندلس [١] . وظهر بالمهدية ثائر يدعى محمد بن عبد الكريم الزكراكى ، وتسمى صاحب فترة الأديم ، ودعا لنفسه بالخلافة ، وتلقب بالمتوكل على الله ، ونازع ابن غانية والموحدين الأمر ، فنازل تونس ، وعاث فى قراها سنة ٥٩٦ هـ ، وحارب ابن غانية بقابس ، فامتنع عليه ، ولكن ابن غانية تمكن من هزيمته فى قفصة ، وحاصره فى المهدية ، ثم دخلها فى سنة ٥٩٩ هـ ، وقتله [٢] . ودخل ابن غانية تونس بعد ذلك فى نفس هذا العام ، وأطاعه أهل بونة ، وبنزرت ، وبسكرة ، وشقبنارية ، والأربس ، والقيروان ، وقمسة ، وصفاقس ، وقابس ، وطرابلس .

وكان الناصر أثناء الفتنة القائمة بافريقية فى أول خلافته قد عقد للسيد أبى الحسن بن أبى حفص على بجاية ، ولكن أبا الحسن لم يلبث أن انهزم أمام ابن غانية فى سنة ٥٩٦ بالقرب من قسنطينة ، فسير الخليفة السيد أبا

---

(١) الزاكى ، ص ٢١٣ ، ٢١٤

(٢) ابن خلدون ، ج ٦ ص ٤١٧

زيد بن أبي حفص إلى تونس لسد ثغورها ، وأردفه بالسيد أبي سعيد بن أبي حفص ، فلما استولى ابن غانية على تونس سنة ٥٩٩ هـ ، قبض على أبي زيد ، وبلغ الناصر استيلاء ابن غانية في إفريقية وطرابلس ، فعزم على السير لمحاربته ، فخرج من مراكش في ٦٠١ هـ ، وأرسل الأسطول الموحدي بقيادة أبي يحيى بن أبي زكريا المزرجي إلى تونس ، فدخلها الموحدون ، وقتلوا من كان بها من أتباع ابن غانية . ثم نازل الناصر مدينة المهدية بعد ذلك وحاصرها أربعة أشهر ، وأرسل الناصر أبا محمد بن الشيخ أبي حفص للقاء ابن غانية ، فالتقى الجيشان في تاجرا من نواحي قابس ، ودارت الدائرة على ابن غانية ، وغنم الموحدون من عسكره غنائم هائلة ، وتمكن ابن غانية من النجاة بأهله وولده . وفي نفس الوقت استسلمت المهدية ، وعاد الناصر بعد ذلك إلى تونس في سنة ٦٠٣ [1] .

ولم يسكت ابن غانية على هذه المزائم ، فقد كان يتبع طريقة العرب في الفر والكر ، فعزم على قتال الموحدين بتونس ، وجمع لهذا الغرض حشودا هائلة من العرب المحاورة من رياح وغيرهم من أعراب بني سليم ، فاشتبك معهم أبو محمد بن أبي حفص ، فانهزموا ، واستولى الموحدون على محلاتهم ، فلجأ ابن غانية إلى إقليم طرابلس . وظل ابن غانية يناوئ سلطان الموحدين في إفريقية وطرابلس طوال عصر الناصر ، وكان أبو محمد ابن أبي حفص يهزمه في كل مرة يحاول فيها ابن غانية الاستيلاء على إفريقية . فلما توفي أبو محمد في سنة ٦١٨ هـ ، وخلفه السيد أبو العلاء إدريس ، عاد ابن غانية إلى الظهور ، وزاد عيثه في البلاد ، فخرج عليه السيد أبو العلاء

---

(1) المرجع السابق ص ٥١٨ ، ٥١٩ .

ونزل فى قصر العروسين ، وسير ابنه السيد ابا زيد ، فطارده إلى غدامس وردان والزاب وبسكره ، واصطدم معه بظاهر تونس فى سنة ٦٢٩ هـ ، فانهزم ابن غانية هزيمة نكراء . وبلغ السيد أبا زيد نبأ وفاة أبيه بتونس فى شعبان سنة ٦٣٠ هـ ، فعـــاد إلى تونس ، وخاطب المستنصر الموحدى بمقتل أبيه أبى العلاء إدريس ، وكان المستنصر قد عزل السيد أبا زيد عن ميورقة ، واتفق أن المستنصر توفى أيضا فى سنة ٦٣٠ وخلفه عبد الواحد المخلوع ، فكتب إلى أبى زيد بالبقاء فى عمله بتونس . فلما توفى المخلوع ، وتولى العادل الخلافة من بعده ، كتب إلى أبى زيد بالقدوم ، فقدم إليه فى سنة ٦٣٣ ، وتولى أبو محمد عبد الله بن محمد بن أبى حفص على إفريقية . ومنذ ذلك التاريخ استقل بنو حفص بإفريقية وناقضوا ابن غانية ، وشردوه فى أقطارها إلى أن توفى فى سنة ٦٣٤ هـ فى بلاد الزاب [1] .

وبالإضافة إلى حركة ابن غانية قامت فى المغرب الأقصى بعض الثورات ، ولكنها كانت أقل خطورة من ثورة بنى غانية . فقد ثار فى بداية خلافته ثائر من غمارة يدعى علوان الغمارى ، فخرج الخليفة فى أول جمـــادى الأولى سنة ٦٢٥ هـ قاصدا مدينة فاس ، فأقام بها بعض الوقت ، وسار منها إلى جبال غمارة ، فأخذ المدينة هناك ، وعاد إلى فاس مرة أخرى ، فأقام بها ، وبنى قصبتها وأسوارها التى كان قد خربها عبد المؤمن بن على عند استيلائه عليها ، ثم بناؤها فى سنة ٦٠٠ هـ ، وأنشأ محمد الناصر دار الوضوء والساقية بإزاء جامع الأندلسيين فيها ، وجلب إليها الماء من العين الواقعة خارج باب

---

(١) ابن خلدون ، ج ٦ ص ٤٠٥ — ٤٠٧ ، ٤١٢ — ٤٢٠ .

الحديد ، كذلك قام الناصر ببناء الباب الكبير المدرج المشرف على صحن الجامع . ولم تقف أعمال الناصر إلى هذا الحد ، فقد جدد سور مدينة القرويين من فاس . وظل الخليفة مقيما بفاس حتى سنة ٦٠٨هـ ، وفي أثناء مقامه بها ثار بالسوس رجل يدعى أبا حفصة عبد الرحمن ويعرف بابن الجزارة وذلك في سنة ٦٠٧ هـ . فدعا إلى نفسه وهاجم حامية الموحدين هناك وتمكن من الانتصار عليهم ، فبعث إليه الناصر جيشا يتألف من الموحدين والمالك للعز والعرب ، فانهزم ابن الجزارة وقتل (١) . وفي سنة ٦٠٠ هـ ثار عليه رجل من سلالة الفاطميين في مصر اسمه محمد بن القاسم ، بجبال ورغة فقبض عليه الخليفة وقتله ، وأمر بإحراق جثته ، فأحرقت أمام باب الشريعة من أبواب مدينة فاس ، فسمي هذا الباب باب محروق ، وهو أحد الأبواب التي أمر الناصر بإقامتها في سور فاس (٢) .

ب ـ هزيمة المسلمين في العقاب :

لم ينس الفونسو الثامن هزيمة الموحدين له في الأرك ، فظل يفكر في محو آثار الهزيمة ، وبدأ يحصن قلاع بلاده الواقعة على الحدود الإسلامية ، وعقد مع ملك نبرة وأرغون عهود الصلح والحلف . وفي سنة ٦٠٧ هـ تحمس القشتاليون الهدنة القائمة بينهم وبين الموحدين ، وأغاروا على بلاد المسلمين ، وخربوا أراضي جيان وبياسة وأندوجر ، ووصلوا إلى أحواز مرسية . فلما بلغ الناصر ذلك انزعج ، وأبدى غضبه ، وكتب إلى الشيخ أبي محمد ابن أبي حفص يستشيره في الغزو ، فنصحه بعدم خوض الحرب في هذه الآونة

---

(١) المراكشي ، ص ٣٠٥ ، ٣١٦ .

(٢) الجزنائي ، ص ٣٣ ـ الاستقصا ج ٢ ص ٢١٩

فخافه الناصر ، وفرق الأموال على القواد والأجناد ، وكتب إلى جميع بلاد إفريقية وللغرب وبلاد القبلة يستنفر المسلمين لغزو الكفار ، فأتاه خلق كثير ، وألزم كل قبيلة من قبائل العرب بحصة من الخيل والرجال تخرج للجهاد ، فتقدمت عليه الجيوش من سائر الأقطار ، وتسارع الناس إليه حفافا وثقالا من البوادي والأمصار »[1]. ثم جاز إلى الأندلس في ١٦ من ذي القعدة سنة ٦٠٧ هـ ووصل إلى إشبيلية ، وأقام بها للراحة ، والاستعداد للغزو . وقسم جيوشه إلى خمس فرق : فجعل للعرب فرقة ، ولزناتة وصنهاجة والمصامدة وغمارة وسائر قبائل المغرب فرقة ، وجعل المتطوعة فرقة ، وجعل جند الأندلس فرقة ، والموحدين فرقة . ولما انتهى من تنظيم جيشه تحرك في أوائل سنة ٦٠٨ هـ إلى بلاد قشتالة ، فنزل على قلعتين هما القلع وشلبطرة فحاصرهما ، وضيق عليهما ، واستولى على حصن القلع أولا ، ثم حاصر شلبطرة ، وهو حصن منيع قائم بأعلى جبل ، فنزل عليه الناصر ، ونصب عليه أربعين منجنيقا ، فخرب أرباضه ، ولكنه عجز عن فتحه ، وطال حصاره له ، وأعياه أمره ، فعزم على رفع الحصار إلى حصن آخر ، ولكن وزيره أبا سعيد بن جامع أشار عليه بالبقاء على محاصرته ، فأقام عليه الحصار ثمانية أشهر قضيت فيها أزواد الناس ، وقلت علوفاتهم ، وكلت عزائمهم ، وفسدت نياتهم ، وانقطعت الأمداد عن الحلة ، فغلت بها الأسعار ، ودخل فصل الشتاء ، فاشتد البرد ، وأصاب المسلمين كل ضر »[2].

---

(١) الاستبصار ، ص ٢٢٠

(٢) في الزمج ص ٢٢٣ — René Millet, les Almohades, Paris, 1923, p. 159

ومازال الناصر يواصل محاصرة الحصن حتى استسلمت حاميته، وتغلب عليه، وعاد إلى إشبيلية ظافرا.

وأحس ملك قشتالة بما يدبره الموحدون من خطط لغزو بلاده، وأدرك نيتهم فى مهاجمة طليطلة عاصمة مملكة قشتالة، وتبين له أن انتصار الموحدين قد يؤدى إلى تحطيم قوى النصرانية فى إسبانيا كلها، فاستغاث على حد قول الحميرى «بأهل ملته، وحثهم على حماية دينهم، فاستجابوا، واقبلوا عليه من كل مكان»[1]. والواقع أن انتصار الموحدين فى موقعة الأرك كان إنذاراً لدول إسبانيا المسيحية، إذ أصبحت طليطلة وتونكة مهددتان بغزو وشيك. وأثار ذلك عوامل الذعر الملح فى نفوس النصارى. فاستغل ذلك أسقف طليطلة رودريجو خيمنث دى رادا هو وأسقف بلنسية تيوتيث دى ميلس. ويعتبر رودريجو خيمنث المذكور من أشهر شخصيات العصر الوسيط فى إسبانيا المسيحية، فلم يكن هذا الأسقف رجل دين وإدارة فحسب، بل كان أديبا ومؤرخا، وهو الذى دعا إلى ضرورة اتحاد الولايات المسيحية، وإلى فتح أبواب حرب صليبية دولية داخل إسبانيا، وبهذا أخذ بعد الدعوة للرد على انتصار الموحدين فى الأرك[2]، فأخذ يسعى جاهدا منذ سنة ٦٠٣ هـ (١٢٠٦ م) للتوفيق بين ملوك إسبانيا المسيحية وتوحيدهم، واجتاز جبال البرت إلى فرنسا وإيطاليا، داعيا فيها إلى محاربة المسلمين، فاجتمع إليه عدد كبير من غلاة المسيحية من فرنسا وإيطاليا. وأثمرت جهوده فى التوفيق بين ملوك إسبانيا المسيحية، فقد زار ألفنسو السابع ملك ليون (١١٨٤-١٢٣٤م) ألفونسو الثامن ملك قشتالة سنة ٦٠٤ هـ (١٢٠٧م)

(١) الحميرى، ص ١٢٢

(٢) Terrasse, Histoire du Maroc, t. 1, p. 340

فى مدينة وادى الحجارة ، واتفق العارفان على عقد هدنة لمدة خمس سنوات، كما تعهد الفونسو الثامن لملك نبرة بالتوسط لدى بدرو الثانى ملك أرغون (١١٩٦ - ١٢١٣ م) للوصول إلى اتفاق بين مملكتى نبرة وأرغون. كذلك عقد الفونسو ملك ليون (١١٨٨ - ١٢٣٠ م) عهد صلح مع الفونسو الثامن فى وادى الحجارة، وأظهر سانشو ملك البرتغال (١١٨٥ - ١٢١٩م) كذلك استعدادا تاما لتقديم كل ما يطلبه منه ملك قشتالة من مساعدات .

ولما استولى الناصر على شلبطرة ، أرسل الفونسو الثامن ملك قشتالة الأسقف بيرارد و من مدينة شقوبية سفيرا من قبله لدى البابا اينوسنت الثالث ، الذى لم يسعه أمام استيلاء الموحدين على شلبطرة ، العقل الأعظم لنظام ستر الحربى ، إلا أن يتوجه إلى سائر أساقفة فرنسا وبروفانس ، داعيا إلى حملة صليبية واسعة النطاق داخل إسبانيا . وبارك البابا عدداً كبيرا من الفرسان الوافدين من إيطاليا وألمانيا والبرتغال وقطالونيا ، ممن دفعهم حماسهم الدينى إلى الاشتراك فى هذه الحملة الصليبية (١) .

وقبل أن ينتهى عام ٦٠٨هـ ، اجتمعت فى طليطلة عامة قشتالة جنود هائلة من الصليبيين . وفى بداية عام ٦٠٩ هـ ، عاد رودريجو خيمنث وفى صحبته جموع كبيرة من الفرنسيين ، وانضم إليهم فرسان قلعة رباح وسانتياجو الاسبانية والعالمية . واجتمع الفوامس وفرسان قشتالة إلى الملك الفونسو الثامن فى أكمل هيئة وسلاح . ومن بين الفرسان القشتاليين فوامس أسرة دى لارا ، وعلى رأسهم الفونس ديجو لوبث دى هارو ، ولوبى

(١) Agustin Bleye, Manual de historia de España, t. I, Madrid, 1947

دياث دى هارو ، وكان برأس قرسان قلعة رباح جوميث رامير بث وتقدم قرسان سانتياجو بدرو آرياس ، وبرأس الاسبتاريين جوتيرو هرمنجلدو ، وتقدم من أساقفة قرشتالة أسقف بردبل وأسقف نافت وأسقف أربونة ، وعدد كبير من رجال الدين الفرنسيين من ليموج ، وسانتونج وبرى ، وبواتسو ، وآنجو ، وبريطاني [1] .

وزحفت جيوش النصارى من طليطلة فى ٢٠ يونيو سنة ١٢١٢م (٦٠٩هـ) بعد أن توزعت إلى ثلاثة جيوش :

الجيش الأول: يقوده فارس قشتالة دون ديجو لوبث دى هارو ، وعدته نحو مائة ألف مقاتل ، ويقود وحداته المختلفة أسقف أربونة وأسقف بردبل وأسقف نافت وغيرهم .

الجيش الثاني : يتألف من الأرغونيين والقطلانيين وقرسان الداوية ، ويقوده الملك بدرو الثاني .

الجيش الثالث : يتألف من القشتاليين والليونيين والبرتغاليين ، وقرسان قلعة رباح ، وقرسان سانتياجو ، والاسبتارية ، ويقوده الفونسو الثامن ملك قشتالة ، ويقود وحداته الأمير الليونى سانشو فرناندث والأمير البرتغالى بدرو ، والأسقف رودريجو خيمنث [2] .

تقدم جيش ديجو لوبث إلى ملجون ، واستولى عليها ، وقتل القشتاليون جميع سكان هذه المدينة ، ثم واصل هذا الجيش زحفه حتى وصل إلى قلعة

---

(١) أشباخ ، ص ٣٥٩ — ٣٦٠

(٢) نفس المرجع ص ٣٦١

رباح ، التي تقع على بعد ميلين من ملجون، وهناك اجتمع هذا الجيش بجيش قشتالة وأرغون ، وضربت هذه الجيوش الحصار على المدينة ، فكتب أبو الحجاج يوسف بن قادس ، عامل قلعة رباح إلى الخليفة يستمده ، ولكن رسائله كانت تقع بين يدى ابن جامع الوزير فيخفيها عن الخليفة . فلما طال الحصار على المدينة ، ورأى ابن قادس استحالة المقاومة مع فناء الأقوات وقلة السلاح ، ويئس من إمداد الناصر له بالعدة والأقوات ، وخاف على سكان المدينة ، صالح الفونسو على تسليم الحصن له على أن يخرج المسلمون آمنين على أنفسهم [1] . ووافق الفونسو على ذلك ، لرغبته فى الاحتفاظ بقلعة رباح سليمة حتى يستطيع استخدامها بعد ذلك ضد جيوش المسلمين . أقام بدرو الثانى بعض الوقت فى قلعة رباح انتظارا لوصول سانشو السابع ملك نبرة ، بينما زحف الفونسو الثامن إلى الأرك : فاستولى على حصنها ، وسقطت كرمويل وبنافنتى وبطروبوبه فى يده ، ثم مر بقلعة شليطرة ، ولم يحاول الاستيلاء عليها لما كان يعرفه من مناعتها .

ولما علم الناصر بخروج جيوش المسيحية مجتمعة واحتلالها على قلعة رباح تألم كثيرا ، وعزم على مقابلتهم ، فاستنفر الناس من أقاصى البلاد فاجتمعت إليه جيوش كثيفة ، ووفد عليه باشبيلية أبو الحجاج يوسف بن قادس ، فأمر بقتله بسبب تسليمه قلعة رباح للنصارى دون أن يسمع حجته فى ذلك وأثار مقتله غضب الكتائب الأندلسية ، فثاروا عليه ، وفسدت نياتهم ، ويذكر الحميرى أن الناصر أخرج جنودهم من الجيش غضبا عليهم [2] . ولكن هذا القول مبالغ فيه ، فقد ورد ذكر الكتائب الأندلسية

---

(١) الفرطاس ص ١٥٢ ـ الاستقصا ، ص ٢٢٢

(٢) المعجب ص ١٢٦

أثناء المعركة ، وتخاذلهم وفرارهم في القتال، وأغلب الظن أنه اكتفى بعزل قوادهم من الجيش وأبقى على الكتائب . ثم خرج من إشبيلية في شهر محرم سنة ٦٠٩ هـ على رأس جيش لم تتحقق أهدافه ، فقد كان العدد الأعظم من رجاله لا يرغب في الغزو بسبب تقتير عليهم ، فقابلوا الندرة بفتور وعدم مبالاة . كذلك أخطأ الناصر خطئا فاحشا بعزل قادة الكتائب الأندلسية ، من جيشه ، وكانوا قد تعودوا على قتال النصارى في الأندلس ، وعرفوا خططهم في القتال . وفي ذلك يقول صاحب الذخيرة السنية : « فإن رجال الأندلس العارفين بقتال الإفرنج استخف بهم الناصر ووزيره ، فشق بعضهم ، فسدت الثغرات ، فكان ذلك من تحت الإفرنج »[1] . وصل الناصر إلى قرطبة ثم سار بعد ذلك إلى مدينة جيان ، وواصل سيره في اتجاه بياسة وأبدة ، ونزل في الفحص المعروف بفحص البلوط الواقع بين جيان وقلعة رباح .

أما قوات الموحدين ، فقد زحفت جنوبا ، فاخترقت جبال سيرا موريا في ١٢ صفر سنة ٦٠٩ هـ ( ١٤ يوليو سنة ١٢١٢ م ) وانسابت في أحد الوديان الواقعة بين الجبال نفسها وهضبة لبناريس، بالقرب من بلدة تولوسا، ويطلق النصارى على هذه الوديان اسم ناقاس ، ولذلك عرفت الموقعة عندهم باسم لاس ناقاس دي تولوسا Las Navas de Tolosa ، ويسمى مؤرخو العرب هذا الموضع بالعقاب نسبة إلى حصن أموي قائم بالقرب من الفحص الذي دارت فيه الموقعة .

---

(١) الذخيرة السنية في أخبار الدولة المرينية ، تحقيق محمد بن أبي شنب ، الجزائر ١٩٣٠

وأول خلفاء الموحدين الفعلى المستنصر بالله أبو يعقوب بن محمد الناصر الذى بويع بالخلافة وعمره ١٦ سنة ، وتوفى فى سنة ٦٢٠ هـ ، وفى عهده انبعثت الثورات والفتن ، وكثر الخارجون عليه فى أنحاء البلاد . ولما توفى اضطرب الأمر ، واجتمع الناس على تقديم عبد الواحد بن يوسف ابن عبد المؤمن ، وفى عهده تفرق أمر الموحدين ، وازدادت مطامعهم فى الخلافة ، فاستقل أبو محمد عبد الله بن يعقوب المنصور بالأندلس ، ولقب بالعادل وأيده بعض أعيان الموحدين ، فخلعوا عبد الواحد ، وقتلوه بعد أشهر من ولايته . كذلك لم يطل عهد العادل بن المنصور ، إذ انتهى الأمر بمقتله سنة ٦٢٤ هـ وخلفه أخوه أبو العلاء إدريس بن المنصور ، فبويع بالخلافة فى إشبيلية ، مقر ولايته ، أيام أبيه المنصور وأيام أخيه العادل ، ولقب أبو العلاء بالمأمون ، وبايعه أهل الأندلس . وفى الوقت الذى بايعه فيه أهل الأندلس بويع أبو زكريا يحيى بن الناصر بالخلافة فى مراكش ، ولقب بالمعتصم ، وقام صراع عنيف بين خليفة الموحدين فى الأندلس وخليفتهم فى المغرب ، ولم ينته هذا الصراع إلا بوفاة أبى العلاء إدريس فى سنة ٦٣٠ هـ . وكان أبو العلاء قد استعان بفرقة من النصارى المرتزقة ، أدخلهم فى جيشه ، فأدخلهم مراكش ، وبنى لهم فيها كنيسة [1] . وبينما كان المأمون مشغولا بمحاربة المعتصم ، قام عليه أخوه أبو موسى فى سبتة ، ولقب بالمؤيد ، ومنذ ذلك الحين أصبح المغرب مسرحا للقتال بين خلفاء الموحدين ، وقامت الثورات فى كل مكان .

---

(1) ابن الخطيب ، ص ٢٣١ .

لمراسه وتلقى الضربات ، وكان فرسه بادنا ، فلم يطق الحركة ، فنزل له أحد فرسان العرب عن فرسه ، وكان الناصر قد أمر أبا بكر بن عبدالله بن أبي حفص بالوقوف تحت الراية ، وظن النصارى أن الناصر تحت هذه الراية ، فحملوا عليها ، ووضعوا السيف فيمن واجبها ، فقتل أبو بكر بن عبد الله الحفصي ، وقتل كل من دافع عن الراية ، وانهزم المسلمون هزيمة نكراء ، واستولى العدو على جميع الخلة وأكثر مضاربها (١) . وما زالت بعض أعلام الموحدين وخيمهم في العقاب محفوظة حتى اليوم بدير لاس إربلجاس في مدينة برغش ، ومن بينها سجادة خيمة الخليفة محمد الناصر أو لعلها علما من الأعلام الموحدية ، وهي قطعة من النسيج المصنوع من الديباج الملون بخيوط الذهب ، وألوانها حمراء وزرقاء وبيضاء وخضراء وصفراء . وتتألف زخارفها من جامة مركزية ، بداخلها زخرفة هندسية من تشابكات تحيط بها طرز مربعة ، ويحيط بالسجادة شريطان من الكتابة النسخية ، وبأدناها شريط من دوائر متصلة (٢) .

قضى النصارى المنتصرون يومين تامين في الراحة بعد المعركة ، وفي اليوم الثالث ، انقضوا على المدن الأندلسية المجاورة لحصن العقاب ، فاستولوا على بانيوس ، وكاستروفرات وتولوسا ، ثم استولوا على بيسانة ، وأحرقوا المسلمين الذين لاذوا بمسجدهم ، ثم حاصروا أبدة واستولوا عليها ، واستولوا كذلك على بسطة . ثم عاد الفونسو الثامن إلى طليطلة بعد أن اكتفى بما

---

(١) المعجب ص ١٢٨

(٢) Gomez Moreno, el Panteon Real de las Huelgas de Burgos, Madrid, 1946 pp. 81 et sqq. - Torres Balbas, Ars Hispaniae, t IV, 1949 السيد عبد العزيز سالم ، الفنون والصناعات بالأندلس ، دائرة معارف القصب ، ج ٣ ص ١٩٢ ، القاهرة ١٩٥٩

أحرزه من انتصارات بحيث استقبله شعبه هناك بمواكب من الموسيقى والأناشيد . أما الناصر : فقد عاد إلى إشبيلية متظاهرا بعدم الاكتراث لهذه الهزيمة ، ثم عبر الزقاق إلى مراكش ، وهو حزين لهذه الهزيمة ، واحتجب الخليفة بعد ذلك في قصره بمراكش بقية سنة ٦٠٩ هـ . وتوفي في ٩ شعبان من سنة ٦١٠ هـ أي بعد سبعة أشهر من هزيمته في العقاب .

ج – انهيار دولة الموحدين بعد هزيمتهم في الارك :

يعد المؤرخون العرب مراكش سريعا على معركة العقاب ، ويذكرون أنها الواقعة المشؤومة التي لم يقم المسلمون بعدها واقعة تحمد ، ولم تستقل الأندلس بعدها العزة (١) ، لأن النصارى استولوا بعدها على أكثر مدن الأندلس . ويسجل تاريخ وفاة محمد الناصر بداية انهيار دولة الموحدين التي امتدت على الرغم من ذلك حتى سنة ٦٦٨ هـ ، وهي السنة التي قتل فيها أبو دبوس أعظم أسوار مراكش التي دخلها بنو مرين ، ولقد أعان على انهيار دولة الموحدين عدة عوامل منها : ١ – الضعف الحربي والعباسي والنفسي الذي منيت به بعد هزيمتهم في موقعة العقاب .

٢ – فرض الإدارة وتفكك وحدة قبائل الموحدين ٣ – الاضطراب الذي أحدثه العرب الهلالية ، وتنابك الغز في البلاد ، وغاراتهم المستمرة في نواحي دولة الموحدين ٤ – التوسع المسيحي في إسبانيا الإسلامية منذ النصف الثاني من القرن السادس الهجري ، واستنفاد قوى الموحدين في إيقاف هذا ٥ – حركة بني غانية في المغرب وهي حركة بعثرت قوى الموحدين واستهلكتها . ٦ – ضعف الخلفاء الذين تولوا بعد محمد الناصر ، وازدياد نفوذ رجال الإدارة والولاة ، والصراع بين أمراء بيت عبد المؤمن من أجل الظفر بالخلافة .

(١) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، القسم الخاص بالأندلس ، ص ٢٧٠

التبك الجيشان فى ١٥ صفر ، فى قتال عنيف سرعان ما انجلى عن سيطرة النصارى على المعركة ، ويصف السلاوى هذه الواقعة فيذكر أن الناصر « ضرب قبة الحمراء المعدة للقتال على رأس ربوة وجلس أمامها على دركته وفرسه قائم بإزائه ، ودارت العبيد بالقبة من كل ناحية ، ومعهم السلاح التام ، ووقفت السناقات والبنود والطبول أمام العبيد مع الوزير ابن جامع ، وأقبلت جموع الفرنج على مصافها كأنها الجراد المنتشر ، فاقتحمت إليهم المطوعة ، وحملوا عليهم أحمسون ، وكانوا مائة وستين ألفا ، فتمايزوا فى صفوفهم ، وانطبقت عليهم الفرنج ، فاقتتلوا قتالا شديدا ، فاستشهد المطوعة عن آخرهم ، هذا وعساكر الموحدين والعرب والأندلس ينظرون إليهم ، لم يحرك إليهم منهم أحد ، ولما فرغ الفرنج من المطوعة حملوا بأجمعهم على عساكر الموحدين منهم وللعرب حملة منكرة ، فلما اقتشب القتال بين الفريقين ، فرت فرسان الأندلس وجيوشها لما كانوا قد حقدوه على ابن جامع فى قتل ابن قادس أولا ، وتهديدهم وطرده لهم ثانيا ، فجروا الهزيمة على المسلمين ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ، وتبعهم قبائل البربر والموحدون والعرب ، وركبتهم الفرنج بالسيف ، وكشفوهم عن الناصر حتى انتهوا إلى الدائرة التى دارت عليه من العبيد والحشم ، فألفوها كالبنيان المرصوص ، لم يقدروا منها على شىء ، ودفع الفرنج بخيلهم المدرعة على رماح العبيد وهى مشرعة إليهم فدخلوا فيها ، والناصر قاعد على دركته أمام خبائه يقول : صدق الرحمن ، وكذب الشيطان . حتى كانت الفرنج تصل إليه ، وحتى قتل حوله من عبيد الدائرة نحو عشرة آلاف » (١) .

ولم يبق أمام الناصر سوى الفرار ، فركب فرسه وحوله ثلة من العبيد

---

(١) الاستقصا ، ج ٢ ص ٢٢١

كذلك شهدت الأندلس في هذه الآونة فترة مشحونة بالاضطرابات العنيفة، وأخذ رؤساء الأندلس - بعد أن انتاش أمر الموحدين - يثورون بنواحي الأندلس، وقامت الفتنة الثالثة في تاريخ الأندلس، واشتعلت نار الثورة واحتدمت في سائر مدنه، وكان المحرك الأول لهذه الثورات محمد بن يوسف ابن هود الجذامي الثائر بمرسية [1]. وقد تمكن ابن هود من التغلب على شرق الأندلس كله، وفرض سلطانه على مرسية وقرطبة وإشبيلية وغرناطة ومالقة والمرية والجزيرة الخضراء ومارده، وأيقن أهل الأندلس أن إمارته ستكون مخرجا لهم من حالة الفوضى والاضطراب التي شملت بلادهم في ذلك الحين، ولكن جهود هذا الأمير اصطدمت بحركات مضادة من جانب أبي العلاء إدريس من جهة، والقشتاليين والأرغونيين من جهة ثانية، وبعض خصومه من رؤساء الأندلس من جهة ثالثة، ونخص بالذكر منهم محمد بن يوسف بن نصر صاحب حصن أرجونة الذي تمكن من الاستيلاء على جيان وشريش في سنة ٦٣٠ هـ، وعلى إشبيلية في سنة ٦٣٢ هـ، وعلى غرناطة ووادي آش وبسطة في سنة ٦٣٥ هـ. وانتهز القشتاليون والأرغونيون فرصة قيام الحرب الأهلية بين المسلمين في الأندلس، واستولوا على بعض المدن الأندلسية الهامة، وكان القشتاليون قد اغتصبوا القسم الأعلى من الأندلس حتى أندوجر منذ بداية الفتنة حتى سنة ٦٣٣ هـ؛ بينما أتم البرتغاليون فتح إقليم استرامادورة. فلما انتهت ممالكنا قشتالة وليون تحت تاج واحد في ظل الملك فرناندو

---

(١) محمد بن هود من سلالة بني هود الجذاميين أصحاب سرقسطة في عصر الطوائف، ويسميه الإسبان في مؤلفاتهم التاريخية باسم Zaragoza أي سيف الدولة وهو لقب اللقب به.

الثالث الملقب بالقديس، أتيح له الاستيلاء على بياسة وأبدة في سنة ٦٣٣ هـ وعلى قرطبة حاضرة الخلافة الأموية في الأندلس في سنة ٦٣٦ هـ (١)، وعلى إشبيلية، حاضرة الموحدين، في سنة ٦٤٦ هـ. وتمكن أخيرا من ضم قادس وولبة وجميع المدن الواقعة بالقرب من مصب الوادي الكبير. أما في شرق الأندلس، فقد كان خطر خايمي الأول ملك أرغون أعظم من خطر فرناندو، إذ تمكن من الاستيلاء على ميورقة والجزر الشرقية فيما بين عامي ٦٢٧، ٦٣٥ هـ، واستماتت له بلنسية في سنة ٦٣٦ هـ، ونجح في سنة ٦٤٥ في الاستيلاء على جزيرة شقر ومدينة شاطبة. أما مرسية فقد تمكن فرناندو الثالث من الاستيلاء عليها في سنة ٦٤٩ هـ (٢).

وظلت الفوضى ضاربة أطنابها في المغرب والأندلس في عهد خلفاء الموحدين الضعاف حتى كانت أيام المرتضى أبي حفص بن اسحاق الذي تولى بعد وفاة المعتضد بن المأمون سنة ٦٤٦، في موقعة نشبت بينه وبين يحيى بن زيان أمير تلمسان، غير أن عهد المرتضى لم يطل كثيرا، إذ خرج عليه أمير من أمراء الموحدين هو أبو العلاء إدريس الثاني المعروف بأبي دبوس.

واقترضت دولة الموحدين بمصرع أبي دبوس على أسوار مراكش، ودرست آثارها، واستولى الخراب والدمار على معظم ديار مراكش.

---

(١) كان سقوط قرطبة في أيدي القشتاليين ضربة شديدة أصابت الإسلام في الأندلس، وكان عاملا رئيسيا في انهيار سلطان الموحدين نهائيا في الأندلس.

(٢) Terrasse, Histoire du Maroc, t. I, pp. 340 et sq.

## (٦)

## مساجد الموحدين وتحصيناتهم فى المغرب

و ـ الأثر الأندلسى فى الفن الموحدى :

أسرة الموحدين من الأسرات الإسلامية التى اهتم خلفاؤها بالبناء والتعمير ، وليس فى بلاد المغرب كلها آثار تعادل فى الكثرة وفى العظمة والجمال آثار الموحدين ، والموحدون أصحاب مدرسة فى فن العمارة وفى الزخرفة من أهم تعاليمها التبسيط بقدر الإمكان من التكوينات الزخرفية ، وتجريد التوريقات من عناصرها الحية ، وطبعها بطابع من الورع الذى يعكس اتجاههم الإصلاحى . ولقد تأثرت فنون الموحدين فى العمارة والزخرفة ، تأثرا عميقا بالحضارة الأندلسية ، وتمكنت الأندلس من غزو المغرب فنيا وعلميا فى نفس الوقت الذى غزا المغرب فى عصر الموحدين بلاد الأندلس عسكريا . وعصر الموحدين هو العصر الذى توثقت فيه العلاقات الفنية بين المغرب والأندلس ، وانتقلت التأثيرات الأندلسية إلى المغرب ، وظهرت فى جميع الأبنية التى أقامها خلفاء الموحدين فى المغرب مثل جامع الكتبية بمراكش ، وجامع القصبة بنفس المدينة ، وجامع حسان برباط الفتح وقصبة رباط الفتح . ويذكر ابن سعيد المغربى ، « أن حضرة مراكش هى بغداد المغرب ، وهى أعظم مانى بر العدوة ، وأكثر معالمها ومبانيها الجليلة وبساتينها إنما ظهرت فى مدة بنى عبد المؤمن ، وكانوا يجلبون لها صناع الأندلس من جزيرتهم ، وذلك مشهور معلوم إلى الآن ، ومدينة تونس بإفريقية قد انتقلت إليها السعادة التى كانت فى مراكش بسلطان إفريقية الآن أبى زكريا يحيى بن أبى محمد بن أبى حفص ، فصار فيها من المبانى والبساتين والكروم مانشاهد

« بلاد الأندلس وعرفاء صناعه من الأندلس وتآليفه التي هي عليها ، وإن كان أعرف خلق الله باختراع محاسن هذا الشأن ، فأما أكثرها من أوضاع الأندلسيين ، وله من خاطره نتيجات وزيادة ، تظهر حسن موقعها ، ووجوه صنائع دولته لا تكاد تجدهم إلا من الأندلس »[1]

ولقد ازداد الأثر الأندلسي في قرن المغرب في عصر الموحدين ومن تعيم في المغرب من بني مرين وبني زيان وبني حفص بسقوط معظم قواعد الأندلس مثل قرطبة وبلنسية وجيان وغيرها ، وفي ذلك يقول ابن غالب الأندلسي : « ولما نفذ قضاء الله تعالى على أهل الأندلس بخروج أكثرهم عنها في هذه الفتنة الأخيرة ، تفرقوا ببلاد المغرب الأقصى من بر العدوة مع بلاد إفريقية ، فأما أهل البادية فالوا في البوادي إلى ما اعتادوه ، ودخلوا أهلها ، وشاركوهم فيها ، فاستبطوا المياه ، وغرسوا الأشجار ، وأحدثوا الأرحى الطاحنة بالماء وغير ذلك ، وعلموهم أشياء لم يكونوا يعلمونها ولا رأوها ، فشرفت بلادهم ، وصلحت أمورهم ، وكثرت مستغلاتهم ، وغمتهم الخيرات ، فهم أشبه الناس باليونانيين ... وأما أهل الحواضر فالوا إلى الحواضر واستوطنوها ، فأما أهل الأدب فكان منهم الوزراء والكتاب والعمال وجباة الأموال والمستعملون في أمور المملكة ، ولا يستعمل بلدي عاميد أندلسي ، وأما أهل الصنائع ، فانهم فاقوا أهل البلاد ، وقطعوا معاشهم ، وأحسنوا أعمالهم ، وصيروهم أتباعا لهم ، ومتصرفين بين أيديهم ، ومن دخلوا في شغل عملوه في أقرب مدة ، وأفرغوا فيه من أنواع الحذق

---

(١) المقري ، ج ١ ص ١٤٩ .

والمجيد مايميلون به النفوس إليهم، ويعمر الذكر لهم»[1]. هذه القطفات توضح لنا كيف انتقلت التأثيرات الأندلسية إلى المغرب الأقصى في عصر الموحدين وما تلاه من عصور.

وإذا تتبعنا الأثر الأندلسي في فنون المغرب وجدنا أنه يرجع إلى أيام عبد المؤمن بن علي الذي أحاط نفسه بعدد من أدباء الأندلس، واستخدم بعضهم كتابا له، من أمثالهم: أبو جعفر أحمد بن عطية، وأبو محمد عياش ابن عبد الملك القرطبي، ومن قضاته عبد الله بن عبد الرحمن الغافقي، ومن شعرائه الأعمى المرواني المشاعر، وابن سيد المكنب بالقصر، وأبو عبد الله محمد بن غالب البلنسي الغالبي. أما أبو يعقوب يوسف فكان على حد قول المراكشي «أعرف الناس كيف تكلمت العرب وأحفظهم لأيامها ومآثرها وجميع أخبارها في الجاهلية والإسلام، صرف عنايته إلى ذلك أيام كونه بإشبيلية واليا عليها في حياة أبيه، والتقى بها رجالا من أهل علم اللغة والنحو والقرآن، منهم الأستاذ النحوي المتقن أبو إسحق ابراهيم بن عبد الملك المعروف عندهم بابن ملكون، فأخذ عنهم جميع ذلك وبرع في كثير منه... وكان أحسن الناس إلقاظا بالقرآن، وأسرعهم نفوذ خاطر في غامض مسائل النحو، وأحفظهم للغة العربية، وكان شديد الملوكية، بعيد الهمة، سخيا جوادا، استغنى الناس في أيامه بوكثرت في أيديهم الأموال، هذا مع إيثار العلم شديد وتطلع إليه مفرط... وكان له مشاركة في علم الأدب، واتساع في حفظ اللغة، وتبحر في علم النحو حسبما تقدم. ثم طمح به شرف نفسه، وعلو همته إلى تعلم الفلسفة، فجمع كثيرا من أجزائها وبدأ من ذلك بعلم

---

(١) المرجع السابق، جـ ٤ ص ١٤٧، ١٤٨

الطب ، فاستظهر من الكتاب المعروف بالملكي أكثره مما يتعلق بالعلم خاصة دون العمل ، ثم تخطى ذلك الى ما هو أشرف منه من أنواع الفلسفة فتوأمر بجمع كتبها، فاجتمع له منها قريب مما اجتمع للحكم المستنصر بالله الأموي»[1] وكان ممن صحبه من العلماء الأندلسيين أبو بكر محمد بن عبد الملك بن طفيل القيسي الوادي آشي الفيلسوف ، وأبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد القرطبي ، وأبو بكر محمد بن أبي مروان عبد الملك بن زهر ، طبيب إشبيلية .

وكما تأثر خلفاء الموحدين بعلماء الأندلس وأدبائهم فقد تأثروا أيضا برجال الفن الأندلسيين ومهندسيهم ، ونخص بالذكر منهم مهندسين اشتركا في تشييد معظم آثار بني عبد المؤمن ، وهما أحمد بن باسة عريف البناءين في الأندلس ، والحاج يعيش الألفي[2]. الأول تولى بناء جامع إشبيلية ، والثاني اشترك في بناء حصن جبل طارق (٣) .

ب — اهتمام الموحدين بالبناء :

اهتم من خلفاء الموحدين بالبناء الأربعة العظام : عبد المؤمن بن علي ، وأبو يعقوب يوسف ، والمنصور ، والناصر . أما عبد المؤمن فقد اهتم بالعمارة والتشييد اهتماما خاصا ، فهو الذي أمر ببناء سور تاكرارت أو

---

(١) المراكشي ، ص ٢٣٨

(٢) P. Antonio Melchor, Sevilla y sus monumentos arabes, pp. 131 - 133

(٣) المثل المرشية ، ص ١٠٨

Torres Balbas, Arquitectos andaluces de las epocas almoravide y almohade, Al-Andalus, 1946, fasc. I, pp. 214 - 224

تاجسرارت من تلمسان فى سنة ٥٤٠ هـ ، وبناء مسجدها الجامع (١) ، وهو الذى أمر ببناء حصون جبل الفتح فى سنة ٥٥٥هـ (٢) وأقام به القصور (٣)، وهو الذى قام ببناء جامع تيمنلل ووسع المدينة عند زيارته لقبر المهدى فى سنة ٥١٨هـ (٤) ، وبناء القصور فى مراكش (٥) ، وبناء المساجد وإصلاحها فى جميع بلاده سنة ٥٥٥ هـ (٦) . وعبد المؤمن هو الذى أسس جامع الكتبيين بمراكش بقصر الحجر المرابطى بعد أن هدم جامع على بن يوسف .

أما ابنه أبو يعقوب يوسف فكان مولعا بالعمارة ، محبا لها ، فاليه يرجع الفضل فى الشروع فى بنيان مدينة رباط الفتح ، وعاقه الموت عن إتمامها فأتمها ابنه المنصور (٧) ، واليه يرجع الفضل فى إنشاء الجسر الواصل بين إشبيلية وربضها القبلى طريانة ، وقصور البحيرة الواقعة خارج باب جهور باشبيلية ، والقصـــور القائمة خارج باب الكحل من أبواب هذه المدينة ، وقنوات المياه المحمولة على القناطر والمنابا من قلعة جابر إلى باب قرمونة من أبواب إشبيلية . وأتم مناظرة أبو يعقوب من أعمال البناء قصبة إشبيلية وجامعها الأكبر . وقد استحضر لذلك الغرض عرفاء أهل الأندلس وعرفاء مراكش وفاس وشرع فى بنائه فى سنة ٥٦٧ هـ ، وتم فى ٥٧١ هـ ، ونقلت إليه

---

(١) القرطاس ، ص ١٢٣

(٢) المرجع السابق ، ص ١٣٠ ـ الحلل ، ص ١١٨

(٣) المراكشى ، ص ٢١٣

(٤) القرطاس ، ص ١٢٦

(٥) المراكشى ، ٢٢٢

(٦) القرطاس ، ص ١٣٢

(٧) المراكشى ، ص ٢٢٦

المطبة من جامع ابن عديس في سنة ٥٧٧ هـ (١). أما المنصور فهو أكثر خلفاء الموحدين ولعا بالعمارة والبناء ، وقد ضرب الرقم القياسي في بناء المساجد والقصور والتحصينات، فهو الذي أسس حسن الفتح من إشبيلية بأبوابه المشرفة على نهر الوادي الكبير (٢) ، وهو الذي أسس بمراكش البيمارستان الكبير ، وأجرى المياه إلى قاعاته (٣) ، وهو الذي أتم بناء جامع إشبيلية وأقام له المصومعة والتفافيح المركبة على العمود الحديدي بأعلاها في سنة ٥٩٣ هـ ، وهو الذي أتم بناء منار جامع الكتبية بمراكش وقصبة مراكش وجامعها ، ومدينة رباط الفتح من أرض سلا ، وجامع حسان (٤).

وإلى الناصر ينسب الزيادة بجامع الأندلس بفاس (٥) ، وأسوار مدينة فاس التي كان قد هدمها جده عبد المؤمن في سنة ٥٤٠ هـ (٦).

ثم اتجه خلفاء الموحدين فيما بعد في الأندلس بوجه خاص إلى تشييد القلاع والحصون أمام الدفع السريع للاسترداد الاسباني ، قال أبو العلاء إدريس ينسب برج الذهب بإشبيلية الذي أمر بتشييده في سنة ١٢٢٠ م، كما ينسب إليه أيضا السور الأمامي المعروف بالحزام البراني أمام أسوار إشبيلية (٧).

---

(١) Antuna Melchor, op. cit. p. 130 - 148

(٢) المراكشي ، ص ٢٩٢ — ابن عذارى بمقتطف أوبش ميرانده ، ص ٤٢ — القرطاس ، ص ١٠١

(٣) المراكشي ، ص ٢٨٧

(٤) القرطاس ، ص ١٠١ ، ١٠٢

(٥) القرطاس ، ص ٤٦ — الذخيرة السنية ، ص ٤٠

(٦) القرطاس ، ص ١٢٣

(٧) السيد عبد العزيز سالم ، المعارة الحربية بالأندلس ، دائرة معارف الشعب ، عدد ٦٤ ، ص ١٠٦ ، ١٠٨

جـ ـ أهم مساجد الموحدين وتحصيناتهم في المغرب والأندلس :

١ ـ جامع الموحدين برباط تازى :

أصبحت تازى منذ قيام دولة الموحدين أهم مركز حربي في القسم الشرقي من المغرب الأقصى ، فقد اتخذها عبد المؤمن بعد أن افتتحها في سنة ٥٤٠ هـ (١) قاعدة للحملات التي كان يوجهها إلى المغرب الأوسط الذي كان يحتله المرابطون وبلاد الريف . ولقد ظلت تازى لمدة طويلة محل مدينة تيدلا التي أصبحت متطرفة بعد أن اتسعت أملاك الموحدين في المغرب ، ولم تعد تشغل إلا الموضع الثاني من الأهمية (٢) . ولقد عمل عبد المؤمن على تحصين تازى ، ففي سنة ٥٤٩ هـ أمر ببنـــاء رباط تازى فبنيت وحصن سورها (٣) . وكانت رباط تازى على حد قول صاحب الاستبصار «مدينة كبيرة في سفح جبل مشرفة على بساطه ، تشقها جداول المياه العذبة ، وعليها سور عظيم وقد بني بالحجر والجص يبقى مع الدهر ، وهي في فسحة من ٦ أميال مابين جبال ، ينصب إليها من تلك الجبال مياه كثيرة ، وأنهار تسقي جميع بساتينها في أعلاها وأسفلها ، ولها نظر كبير ، كثير الزرع وجميع الفواكه والخيرات » ، ويذكر صاحب الاستبصار أن هذه المدينة أسست في سنة ٤٦٨ هـ على الطريق المار من بلاد المغرب إلى بلاد المشرق ، وكانت تسمى مكناسة تازى نسبة إلى قبيلة مكناسة (٤) .

---

(١) البيذق ، الإختصار ، ج ١ ص ١٠٦

(٢) Terrasse, la grande mosquée de Taza, paris, 1943, p. 17

(٣) البيذق ، المرجع السابق ، ص ١١٠

(٤) الاستبصار ، ص ١٢٦ ، ١٢٧

وإلى عبد المؤمن يرجع الفضل فى تأسيس جامع تازى الذى يؤلف جزءا من الجامع الحالى ، وكان جامع الموحدين بتازى يشتمل على ٩ بلاطات عمودية على جدار القبلة ، وكان البلاط الأوسط أكثرها اتساعا ، وكان يفرق هذه البلاطات خمسة أساكيب ، الأسكوب الأول المحاذى للقبلة أكثر اتساعا من الأساكيب الأخرى ، وكانت تعلوه ثلاث قباب ، واحدة أمام المحراب ، واثنتان فى نهاية طرفى هذا الأسكوب ، وكانت لصحن الجامع مجنبتان كل منهما تشتمل على بلاطين هما امتداد لبلاطات بيت الصلاة الشرقية والغربية ، وكانت المئذنة تقع فى الركن الشمالى الشرقى من المسجد . ويشبه تخطيط هذا المسجد تخطيط المسجد الجامع بتينملل كل الشبه ، ويمكننا أن نميز تخطيط المسجد الذى أسسه الموحدون فى تازى من مجموع بناء الجامع الحالى من أعلى سطحه ، فان الأسطح المنشورية التى تعلو بيت الصلاة تقف بعد الأسكوب الرابع ، وعلى هذا فان الزيادة المرينية بالجامع تشبه فى وضعها بالنسبة للمسجد الأول زيادة الحكم المستنصر فى جامع قرطبة من حيث استقلالها عن سائر البناء(١). كذلك تتميز الزيادة المرينية بداخل بيت الصلاة عن البناء الموحدى الأول ، فان أساكيب هذه الزيادة أكثر اتساعا من الأساكيب الأخرى ، كما أن عقود هذه الزيادة المرينية من النوع المفوخ المجاوز ، فى حين أن عقود جامع عبد المؤمن من النوع المفوخ المنكسر الذى يشبه عقود جامع الكتبية بمراكش .

٢ — جامع تينملل :

يعتبر تينملل قاعدة الدعوة الموحدية ، فبها انطلقت فتوحات الموحدين

---

(١) Terrasse, la Grande mosquée de Taza, p. 24

في المغرب ، وفيها دفن المهدي وخلفاؤه عبد المؤمن وأبو يعقوب يوسف وأبو يوسف يعقوب المنصور . ولم تكن تحتمل في أيام المهدي تزيد عن كونها قرية كبيرة ، فلما أصبحت مركز دعوة الموحدين، لم تعد تتسع لحشودهم الكثيرة ، فاضطر المهدي إلى توسيعها وزيادة عمرانها ، وحوطها بالأسوار ، وأسس بها مسجدا جامعا ، في نفس الموضع الذي يقوم عليه الجامع الحالي[1]. والجامع الحالي من بناء عبد المؤمن ، أقامه تقريبا في نفس الوقت الذي أقام فيه جامع الكتبية ، وذلك عند زيارته لقبر المهدي في سنة ٥٤٨ هـ . وفي هذا الجامع الجديد يتجلى مدى التقدم الفني الذي أحرزته الدولة الفتية في أمد وجيز .

ويقع الجامع في الطرف الغربي من المدينة، ويغطي مساحة مستطيلة الشكل، طولها ٤٨ مترا وعرضها ٤٣٫٦٠ مترا . والجامع يتسم بالانسجام والتناسق في تخطيطه ، وفي زخارفه ، فالمحراب يقسم بيت الصلاة إلى قسمين متعادلين في البناء والزخرفة بصورة تظهر لأول مرة في العمارة المغربية [2] . وصحن الجامع صغير بالنسبة لمسطح بيت الصلاة ، ويحف به جنبتان شرقية وغربية، كل منها تشتمل على رواقين . ويفتح بجدار المحراب على جانبيه فتحتان ، ويضم بيت الصلاة تسع بلاطات عمودية على جدار القبلة، البلاطتان المتطرفتان منها أكثر اتساعا من البلاطات الأخرى ، وتشتمل كل من هذه البلاطات على خمسة صفوف من الدعائم تقسم هذه البلاطات أربعة إلى أساكيب، ويسبق

---

(1) H. Terrasse et R. Bazet, Sanctuaires et forteresses almohades, p. 48

(2) Ibid. p. 48

المحراب أسكوب فسيح يماثل فى اتساعه بلاطة المحراب الوسطى، ويقوم على نفس تقاطع بلاطة المحراب بأسكوبه قبة ، ويعلو الأسطوانين المطرفين على أسكوب المحراب قبوان أخرنان . ولاشك أن وضع هذه القباب يختلف عن وضع قباب مساجد المرابطين ، التى لم تعرف نظام القبتين اللتين تكتنفان قبة المحراب ، وكل ما كانت تعرفه هو قبة المحراب ، وأحيانا قباب تتوزع على البلاطة الوسطى .

هذه القباب الثلاثة مكسوة كلها بالمقرنصات ، ويعتقد الأستاذ مارسيه أن نظام وضع هذه القباب الثلاثة على أسكوب المحراب متأثر بنظام قباب جامع الحاكم بأمر الله بالقاهرة التى يتضمن حلا مماثلا [1] .

وللمسجد سبعة أبواب : اثنان يفتحان فى كل من الجدار الشرقى والجدار الغربى ليبت الصلاة ، وواحد فى كل من جداري الجنبتين الشرقية والغربية، والباب السابع صغير يفتح فى الواجهة الشمالية للمسجد إزاء المحراب . وتميز أبواب جامع تينملل بأن مداخلها كلها ، باستثناء الباب الشمالى، تقع بين كتلتين بارزتين من البناء ، وقد يكون هذا النظام متأثرا بنظام أبواب المساجد الفاطمية فى المهدية والقاهرة ، إذ لانشاهد له أمثلة فى عمائر المرابطين ولافى عمائر الأمويين فى الأندلس . ويكتنف المحراب إلى اليمين واليسار بابان ضيقان : أحدهما باب الإمام ، والآخر باب المنبر ، ويماثل هذان البابان نظائرهما فى مسجدى الكتبية بمراكش والقرويين بفاس [2] ، وأصل هذا النظام ابتدع فى جامع قرطبة .

---

(١) Marçais, l'architecture musulmane, p. 302

(٢) Basset & Terrasse, Sanctuaires et forteresses, p. 48

ومئذنة تيسلل ، من حيث الموقع ، ومن حيث الشكل ، تختلف عن مآذن الموحدين الأخرى ، ولكنها أقرب من حيث زخارف القاعدة إلى مئذنة جامع الكتبية . والمئذنة مستطيلة الشكل (٩½ × ٩½ مترا مربعا)، وتلتصق بالخراب عن الخارج وترتفع بأعلاه ، بحيث تبدو من الخارج بارزة عن جداره . ويذكر الأستاذ تراس أن بسلا مئذنة صغيرة، يبدو أنها ترجع إلى عصر الموحدين، مستطيلة الشكل ، وترتفع على سطح المسجد بأعلى الخراب (١) .

ودعائم بيت الصلاة متنوعة الشكل ، فإن الكتل المربعة تردان في جوانبها الشمالية والجنوبية بأنصاف أعمدة صغيرة محفورة في الحجر ، وسيسود هذا النوع من الدعائم في سائر مساجد الموحدين . وعقود الجامع متنوعة للغاية، فإن عقود البابين الصغيرين اللذين بجانبان بجوفة المحراب ، وكذلك عقود النوافذ نصف دائرية منكسرة من أعلى انكساراً طفيفاً ، أما العقود الفاصلة بين البلاطات ، وعقود الجنبات المفتوحة على الصحن ، فمن هذا النوع ، وإن كان انكسارها أكثر حدة ، بحيث تبدو أقرب إلى أن تكون مفوفة حدوية. أما العقود التي تؤلف قاعدة القباب الثلاثة فعقود مفصصة تتداخل في فصوصها مقربصات من النوع الذي تتداخل فيه المخاريط المستقيمة والمنحنيات .

أما محراب الجامع فيعتبر من أجمل المحاريب المغربية في عصر الموحدين ، وفيه تتمثل القيم الجمالية في الزخرفة الإسلامية من فسيفساء والانسجام في سائر تكوينات الزخرفة(٢). وعقد جوفة المحراب عقد منكسر انكسارا

---

(١) Ibid. p. 51

(٢) Terrasse, et Jean Hainaut, les arts décoratifs au Maroc, Paris, 1925, p. 66

طليقا ، ويحيط به عقد زخرفي مفصص ، وظيفته الإيهام بضخامة المحراب ، ويشغل بإيقاع المحراب قوقعتان تمتد منها دوائر تشبه رؤوس المسامير . ويحيط بطرة المحراب إفريز واسع مستطيل الشكل يدور حولها ، تملؤه زخارف هندسية تتناوب فيها مربعات ومستطيلات ذات رؤوس نجمية . ويكتنف هذا الإفريز الزخرفي إطاران آخران صغيران زخارفهما أقل ثراء من زخارف الإفريز المذكور . وتظل الزخارف في جدار المحراب كلما ارتفعنا حتى تصل إلى قاعدة القبة ، ثم تبدأ من جديد تتفتح كالزهرة ، حيث تقوم في الأركان مقرنصات رائعة تمتد على جوانب القاعدة ، وعلى جانبي كل من المقرنصات الركنية بقاعدة القبة شمسيات عبارة عن شبكات من الفوريات مفرغة في الجص في غاية الروعة والجمال ، تمثل فيها مراوح نخيلية بسيطة ومزدوجة ، تشبه نظائرها في باب أجنار بمراكش ، وتعود هذه الزخارف بأثرها إلى الزخارف الأندلسية [1] . أما قباب المجامع المقرنصة ، وللأسف لم يبق منها في حالة جيدة سوى قبة المحراب والقبة الشرقية [2] .

٣ ـ جامع الكتبية بمراكش :

لما دخل عبد المؤمن بن علي مراكش بقيت ثلاثة أيام لا يدخلها داخل ولا يخرج منها خارج ، وأبى الموحدون دخولها لأن المهدي كان يقول لهم : لا تدخلوها حتى تطهروها ، فسأل الموحدون الفقهاء عن ذلك فقالوا لهم : تبنوا أنتم مسجدا آخر ، فكان ذلك به [3] . فأمر عبد المؤمن ببناء

---

(1) Terrasse, Sanctuaires, p. 66, 67

(2) لدراسة هذا المسجد ارجع الى : Terrasse, op. cit. pp. 41-65

(3) الحلل الموشية ، ص ١٠٨

جامع آخر فى قصر الحجر ، وهدم الجامع الذى كان قد بناه على بن يوسف بأدنى المدينة . فلما أكمل بناءه ، جعل فيه ساباطا يتردد عن طريقه بين القصر والجامع ، ونقل إليه منبرا عظيما كان قد أمر بصنعه فى الأندلس من العود والصندل الأحمر والأصفر ، وصفائحه من الذهب والفضة ، وأقام للمسجد مقصورة من الخشب لها ست أضلاع تسع أكثر من ألف رجل ، وكان الذى تولى صنع المقصورة والمنبر ، الحاج يعيش المالقى (١) .

ويذكر صاحب الاستبصار أن عبد المؤمن « بنى فيها جامعا عظيما ، ثم زاد فيه مثله أو أكثر فى قبلته ، كان قصرا ، ورفع بينهما المنار العظيم الذى لم يشيد فى الإسلام مثله ، وأكمله ابنه وخليفته أبو يعقوب » (٢). ونفهم من هـــذا النص أن عبد المؤمن أقام مسجدين جامعين للكتبية بمراكش ، أحدهما بعد الآخر ، ويغلب على الظن أن الجامع الأول كانت قبلته منحرفة عن الاتجاه الصحيح نحو مكة ، فكانت تميل كثيرا إلى الشرق . فاضطر عبد المؤمن إلى بناء جامع آخر صحيح القبلة إلى الجنوب من الجامع الأول ، وبطبيعة الحال أمر بهدم الجامع الأول فيما بعد ، عندما أتم بناء الجامع الثانى ، ومازال آثار الجامع الأول ظاهرة ، وزخارف محراب هذا الجامع الأول تشبه كل الشبه زخارف محراب جامع تينملل ، مما يقطع بأن هـــذه الآثار ليست آثار جامع على بن يوسف ، الذى أمر عبد المؤمن بهدمه عند دخول الموحدين مراكش .

أما عن تاريخ بناء جامع الكتبية الأول فأغلب الظن أن بناءه تم قبـل

---

(١) المرجع السابق

(٢) الاستبصار ، ص ٢٠٩

بناء جامع تينملل ، عقب دخول الموحدين مدينة مراكش فى سنة ٥٤٩ هـ ، فهو بذلك يلى فى القدم جامع رباط تازى الذى أسس فى سنة ٥٢٩ هـ . أما الجامع الثانى فهو معاصر تقريبا لجامع تينملل ، يؤكد ذلك ماذكره المقرى نقلا عن ابن رشيد الذى يقول : « فهدى به بنائه ، وتأسيس قبلته فى العشر الأول من شهر ربيع الآخر سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة ، وكمل منتصف شعبان المكرم من العام المذكور على أكمل الوجوه ، وأغرب الصنائع ، وأفسح المساحة ، وأبعد البناء والنجارة » (١) . كذلك يذكر السلاوى فى هذا التاريخ نفسه (٢) .

أما الصومعة ، فقد شرع فى بنائها فى عهد عبد المؤمن بن على ، وأتم المنصور بناء القسم الأعلى منها ، وهى بذلك الأنموذج الذى احتذاه بناة صومعتى إشبيلية والرباط (٣) .

وجامع الكتبية الحالى ضخم المساحة ، وهو مستطيل الشكل ، جانبه الشمالى المشترك مع الجدار القبلى لجامع الكتبية الأول منحرف إلى الشمال الشرقى . وتصميم الجامع هو تطور منطقى ومتناسق لتصميم جامعى تازى وتينملل ، فعلى جانبى بلاط المحراب نجد عدداً من البلاطات يعادل ضعف عدد بلاطات هذين الجامعين ، مع اختلاف يسير هو أن البلاطات الأربعة الأخيرة من كل جانب منها أقل فى الاتساع من البلاطات الأربعة الموزعة

---

(١) المقرى ، ج ٢ ص ١١٠

(٢) السلاوى ، الاستقصا ، ج ٢ ص ١٢٨

(٣) Terrasse et Basset, Sanctuaires, P. 106

على يمين ويسار بلاط المحراب مباشرة (١) . ويعلو أسكوب المحراب عن قباب : واحدة أمام المحراب ، واثنتان على كل من الأسطوان الرابع التالى على يمين أسطوان المحراب ويساره ، على النحو الذى رأيناه فى جامع نازى وتينملل ، ثم قبتان بطوان الأسطوانين المتطرفين فى نهاية أسكوب المحراب شرقا وغربا . ويفصل بلاطات الجامع التسعة عن الزيادة الجانبية دعائم معلبة الشكل ، تحدد تخطيطا لبيت الصلاة يماثل تخطيط بيت الصلاة فى الجامعين المذكورين .

وكما تضاعف عدد البلاطات المجاورة لبلاط المحراب ، تضاعف عدد الأساكيب كذلك ، وزاد بذلك اتساع بيت الصلاة . والملاحظ أن الدعائم التى تحمل القباب التسعة بأعلى البلاطة الوسطى والقباب الخمسة بأعلى أسكوب المحراب ، والدعائم التى تفصل الصحن وأروقة الجنبين الشرقية والغربية عما يلى الصحن من بيت الصلاة ، كلها معلبة الشكل ، باستثناء الدعائم المتصفة بجدار القبلة فقطاعها مستطيل الشكل . أما الدعائم التى تنتهى بها صفوف البلاطات فأنصاف معلبة ، على حين أن الدعائم التى ترتكز عليها عقود الجنبات الدائرة بالصحن تتميز بأنها مستة لها زاويتان قائمتان على جانبى وجهها البارز المطل على الصحن ، شأنها فى ذلك شأن الدعائم المحيطة بصحون جامع تينملل والكتبية وإشبيلية (٢) . ومع أن معظم عناصر الجامع المعمارية من جدران وقباب مشيدة بقطع الحجارة غير المهذبة ، فان أبواب الجامع فى الجهة الشرقية مبنية بالآجر ، أما الأبواب الغربية فتختلط فيها قطع الحجارة

---

(١) Ibid p. 85

(٢) Ibid p. 85

بالآجر. وثبت كذلك أن قباب البلاطة الوسطى كلها من الآجر ، بينما شيدت القباب القائمة على أسكوب المحراب بقطع الحجارة. والجدار الشرقي للجامع مشيد بقطع حجرية مصفوفة تصفيفا رائعا ، وينتهي البناء من أعلى بصفوف من الآجر. أما دعائم بيت الصلاة والصحن والعقود فشيدة بالآجر[1].

ومئذنة الجامع تلتصق في الركن الشمالي الشرقي من الجامع ، بين الجامع القديم والجامع الحالي، وتعتبر هذه المئذنة بحق من روائع فن العمارة الإسلامية على الرغم من بنائها بقطع الحجارة غير المهذبة ، وزخارف المئذنة تختلف من وجه إلى آخر ، وتحكم الفتحات والنوافذ التي زودت بها أوجه المئذنة في توزيع الزخرفة[2]. ونلاحظ أن هذه الفتحات قد أمدت سلالما تدور حول السلم الداخلي للمئذنة. وتتنوع العقود التي تزدان بها هذه الفتحات تنوعا يشهد بعبقرية الفنانين الذين تولوا بناءها وزخرفتها ، فمن عقود منفرجة إلى عقود مفصصة إلى عقود مقرنصة، إلى عقود متقاطع فيما بينها مؤلفة في بيت المؤذن شبكة من العينات تشبه نظائرها في مآذن مساجد القصبة والرباط وإشبيلية. ويبلغ ارتفاع المئذنة ٦٧ر٢٠ مترا حتى أعلى الثعابين الثلاثة المتوجة قبتها (ذكر ابن سعيد أن ارتفاعها بلغ ١٤٠ ذراعا )[3] ، وطول كل جانب منها ١٢ر٩ مترا. ولقد قام الأستاذان تراس وباسيه بدراسة هذه المئذنة دراسة وافية شاملة[4].

---

(١) Terrasse, Sanctuaires, pp. 87 - 90

(٢) Marçais, l'architecture musulmane, p. 244

(٣) الغرر ... ٢ ص٦٩

(٤) Terrasse, op. cit. pp. 107 - 113

## ٤ - جامع القصبة بمراكش :

قبل أن يعبر المنصور الجواز إلى الأندلس في غزوته المعروفة بالأرك، كان قد أمر ببناء قصبة مراكش والجامع الواقع بإزائها وصومعته . فلما عاد من غزوته منتصرا منصورا في سنة ٥٩٤هـ وجد كل ما أمر به من البناء قد تم(١).

وتصميم جامع القصبة بمراكش غريب الشكل ، فصحنه عظيم الاتساع بالنسبة لبيت الصلاة الذي يضم ١١ بلاطة عمودية على جدار القبلة ، تخترقها ثلاثة أساكيب ، ويقوم على أسكوب المحراب ثلاث قباب ، واحدة أمام المحراب والأخريان على الأسطوانتين المطرفتين منه ، ويدور حول الصحن رواق في سعة بلاطة ، ويختلف هذا المسجد عن غيره من مساجد الموحدين في أنه يمتد بصحنه إلى اليمين واليسار صحنان آخران يفصلهما بلاط مواز لجدار القبلة ، فيصبح حول الصحن الكبير أربعة صحون صغيرة ، تتوسطها فسقيات مستديرة منفصلة (٢) . ومحراب الجامع يقوم على عضادتين ، ترتكز كل منها على عمودين ، وجوفة المحراب تعلوها قبوة مفرصة ، تجدد الأشراف السعديون بناءها . ومئذنة الجامع ليست في كبر صومعة الكتبية ، وتزدان الصومعة ابتداء من ارتفاع السطح بشبكة زخرفية من الفصوص الفسيفسائية ، مؤلفة شبكة رائعة من زهرة الزنبق ، وينتهي الجزء الأعلى من الصومعة بإفريز عظيم من الزليج ، ويعلو المئذنة بيت المؤذن تسقفه قبة مفصصة (٣).

---

(١) القرطاس ، ص ١٠١ ، ١٠٢ . ويذكر صاحب الاستبصار أن المنصور هو الذي أمر ببناء هذه القصبة بكل مرافقها في أول عام ٥٨٨هـ ( الاستبصار ، ص ٢١٠ )

(٢) Terrasse, op. cit. p. 278

(٣) Terrasse et Basset, Sanctuaires, pp. 294 - 310

## ٥ ـ جامع حسان بالرباط:

ذكر المراكشي أن المنصور شرع في بنيان مسجد عظيم بالرباط « كبير المساحة ، واسع الفناء جدا ، لا أعلم في مساجد المغرب أكبر منه ، وجعل له منارة في نهاية العلو ، على هيئة منار الاسكندرية ، يصعد فيه بغير درج ، تصعد الدواب بالطين والآجر والجص وجميع ما يحتاج إليه إلى أعلاها ، ولم يتم هذا المسجد إلى اليوم لأن العمل ارتفع عنه بموت أبي يوسف»[1]. وكانت دولة الموحدين بعد انتصارهم في الأرك قد بلغت ذروة قوتها وعظمتها ، وكان من الطبيعي أن يغتر بطل الأرك بانتصاره ، ويكتب عنه بلغة العمران والبناء ، وجامع حسان بالرباط ، بمساحته الهائلة (١٨٠ × ١٤٠م) يعبر لنا عن هذا الاتجاه نحو العظمة ، والإسراف في التضخيم.

وتخطيط جامع حسان غريب عن تخطيط المساجد الإسلامية الجامعة بوجه عام ، فبيت الصلاة فيه يتألف من قسمين : قسم أمامي يشتمل على ٢٦ بلاطة عمودية على جدار القبلة ، البلاطة الوسطى والبلاطتان المكتنفتان منها أكثر اتساعا من البلاطات الأخرى ، ويخترق هذه البلاطات عرضا سبعة أساكيب موازية لجدار القبلة . ثم يمتد التخطيط بعد ذلك تعقيدا شديدا ، فان البلاطات الإحدى عشر الوسطى تمتد جنوبا على ١١ أسكوبا ، ويكتنف هذه البلاطات شرقا وغربا صحنان مستطيلا الشكل ، وإلى الشرق وإلى الغرب من هذين الصحنين بلاطتان تمتدان بطول البلاطات الأخرى. أما القسم الثاني فيشتمل على ثلاثة أساكيب ممتدة بعرض المسجد كله بمحاذاة جدار القبلة . ونلاحظ أن الأعمدة في الأساكيب الثلاثة والبلاطتين

---

(١) المراكشي ، ص ٢٤٦

المنطرفين في بيت العملاة ، تزيد في الارتفاع من أعمدة البلاطات الأخرى في بقية أجزاء المسجد ، وليس في إمكاننا تعليل هذه الظاهرة بسبب حالة التقهقر التي يتسم بها الجامع في الوقت الحاضر [1] . ومئذنة الجامع لا تصل إلينا كاملة ، فارتفاعها الحالي يصل إلى ٤٤ مترا ، وهي مشيدة بالحجر المصقول ، ويدور حول مركز المئذنة من الداخل طريق منحدر ، عرضه متران ، على نحو ما هو متبع في مئذنة جامع إشبيلية ، وجامع الكتبية بمراكش ، ويشتمل مركز المئذنة من الداخل على غرف موزعة على طوابق ستة كما هو الحال في جامع الكتبية بمراكش ، ويعلو هذه الغرف قبوات مختلفة الأشكال ، منها القبوة المقرنصة والقبوة المضلعة والقبوة نصف الكروية .

٦ ـ جامع الأندلس بفاس :

هذا الجامع شرع في بنائه سنة ٢٤٥ هـ من أموال مريم بنت محمد الفهري ، في نفس العام الذي بني فيه جامع القرويين ، وقد سمي بجامع الأندلس ، لا لأنه أقيم في عدوة الأندلسيين ، ولا لأنه المسجد الجامع في هذه العدوة ، وإنما لأن جماعة من أهل الأندلس ، كانوا يعيشون حوله ، ساهموا في بنائه [2] . وقد ظل جامع الأندلس كما هو منذ بنائه إلى أن رفعت الخطبة من جامع الأشياخ ، وانتقلت إليه في عام ٣٢٤ هـ بأمر حامد بن حمدان والي فاس من قبل عبيد الله المهدي ، وقد أفاد هذا الجامع من النزاع السياسي بين الفاطميين بالمهدية ، وبين الأمويين في سبتة ، ويتجلى هذا النزاع في الخبر الذي وصل إلينا من هذا العصر وعليه نقشان كتابيان يسجلان

---

(١) Marçais, l'architecture, p. 208

(٢) الجزنائي ، ص ٨١

تاريخين مختلفين ، ولكنهما متقاربان . وفي جمادى الأولى سنة ٤٣٥هـ ، زيد هذا الجامع مثل قرينه جامع القرويين بمئذنة عربية الشكل هي التي تشاهدها اليوم ، ولكن هذه المئذنة تبدو أقل ثراء من مئـــذنة القرويين ولقد زاد أبو العباس أحمـــد بن أبي بكر الزناتي والي فاس بجامع الأندلس زيادة كبيرة ، فأصبح يتألف من ست بلاطات تتجه من الشرق إلى الغرب ، وكانت عقود هذه البلاطات تقوم على أعمدة من حجر الكذان [1] ، وقد استبدلت بهذه الأعمدة الحجرية دعائم من الآجر في الزيادة الأخيرة التي قام بها الخليفة محمد الناصر الموحدي في سنة ٦٠٠هـ .

ويذكر الجزنائي أن المسجد ظل على حالته هذا أعمال أحمد بن أبي بكر الزناتي فيه ، إلى أيام الخليفة محمد الناصر ، رابع خلفاء الموحدين [2] ، ثم يضيف إليه علي بن يوسف أي إضافة لسببين : الأول أنه كان يود أن يخلق المنافسة التقليدية بين هذين الجامعين ، بانتصاره لجامع القرويين ، خاصة وأن عدوة القرويين كانت قد تفوقت عمرانيا على عدوة الأندلس . والسبب الثاني كما يذكره الأستاذ تراس ، هو أن تعادل ميزان هذين الجامعين كان مضادا لسياسة الرابطين الدينية ، التي كانت تدعو إلى عدم تعدد الصلاة الجامعة في مصر واحد يوم الجمعة ، وهذا يفسر قيام يوسف بن تاشفين بهدم الأسوار الفاصلة بين العدوتين ، وردها إلى مصر واحد [3] . وهكذا يمضي عصر المرابطين دون أن يحظى جامع الأندلس باهتمام أولي الأمر منهم ،

---

(١) البكري ، ص ١١٦

(٢) الجزنائي ، ص ٨٩

(٣) Terrasse, la Mosquée des Andalous à Fes, t. I, Paris 1942

ويفتح عبد المؤمن بن علي مدينة فاس في سنة ٥٤٠ هـ ، فيأمر بهدم أجزاء من سورها(١)، ويختار مدينة مراكش حاضرة لدولته، ويمر النصف الأول من عصر الموحدين دون أن يعنى أحد من خلفاء الموحدين بهذا الجامع. فالمتولي عبد الناصر الخلافة بعد أبيه المنصور ، زار مدينة فاس، وأقام فيها بعض الوقت وتولى في أثناء إقامته إعادة بناء أسوار المدينة الخالية ، كما أعاد بناء جامع الأندلس كله ، ولم يترك من الجامع القديم سوى القبة الأموية والمنبر ، وحتى هذا المنبر نفسه لم يسلم من أعمال الترميم، فقد كسا الناصر كتفيه بجانبين جديدين ، ويقول ابن أبي زرع ، في بيان أعمال هذا الخليفة : « وأما جامع عدوة الأندلس ، فلم يزل على ما بني عليه أولا ، ولم يزد فيه أحد زيادة إلى سنة سبعمائة ، فأمر أمير المؤمنين أبو عبد الله الناصر ببنائه وإصلاحه وتجديد ما تهدم منه ، وأمر بفتح الباب الكبير المقوس المدرج الذي بصحنه ، ويجعل بأسفله بلاطة من رخام أحمر ، وأمر بعمل السقاية والميضآت »(٢) .

ويحدثنا الجزنائي في شيء من التفصيل عن الباب المقوس الكبير ، وعن البلاطة التي أقامها الناصر بجوار هذا الباب ، وعن الباب الذي يؤدي إلى المقصورة القبلية ، وعن القبة الفريضة التي تعلوه ، وعن المصرية (٣) التي أقامها بأعلى هذا الباب لأئمة المسجد ، وعن دار الوضوء التي بناها على الجانب الآخر من الطريق المقابل للباب الكبير (٤) ، ولكنه لم يحدثنا عن تفاصيل ما أجراه

---

(١) القرطاس ، ص ١٢٣

(٢) نفس المرجع ، ص ٤٦

(٣) المصرية لفظة معناها في الشارع بأعلى البناء ، وهذه المصرية المشار إليها اختربت في عصر متأخر

(٤) الجزنائي ، ص ٨١ ، ٨٢

الناصر فى بيت الصلاة من تغيير . ويعتقد الأستاذ فراس أن بيت صلاة هذا الجامع قد بنى من جديد على يدى هذا الخليفة . ومواد البناء التى استعملت فى بنائه فقيرة للغاية، فأغلب جدران الجامع مبنية من الطابية ، أما الدعائم والعقود وعضادات الأبواب فكلها من الآجر ، وقد رمم هذا الجامع بعد ذلك وأضيفت إليه إضافات ثانوية فى عصر بنى مرين.

وتخطيط جامع الأندلس يوهم بأنه من بناء المرابطين ، إذ أن من يرى بلاطاته بعقودها ودعائمها لايخطر بباله قط أنها من بناء الموحدين ، فالتصميم غير متناسق ، والبناء غير منتظم الشكل ، وبلاطات الجامع غير عمودية على جدار القبلة كمساجد الموحدين ، وأسقفه غير متناسقة ، ولا تقوم على بلاطه الوسطى قباب مقربصة كمساجد الموحدين . ولاشئ يربط جامع الاندلسيين بهذه المساجد إلا نسبة الصحن بالنسبة لمسطح بيت الصلاة ، فانها تخضع إلى حد ما للقاعدة التى تسير عليها مساجد الموحدين بمراكش وتينملل .

ويتألف بيت الصلاة من سبعة بلاطات عرضية تمتد من الشرق إلى الغرب بمحاذاة جدار القبلة على خمسة عشر عقدا ، فى كل بلاط . ويخترق هذه البلاطات جميعا بلاطة وسطى ، مثلها ارتفاعا ، ولكنها تزيد عنها اتساعا ، بعكس نظيرتها فى جامع القرويين . وعلى الرغم من انعدام روح التناسق فى تخطيط الجامع ، فانه لا يخلو من أصالة معمارية تتجلى بأوضح صورة فى الباب الشمالى للجامع ، وهو الباب الذى تعهده الخليفة الناصر الموحدى، ويشف بناء هذا الباب عن براعة هندسية ، وحذق فى الزخرفة ، فهو يفوق فى ارتفاعه أسقف الجامع ، ويطل على منظر خارجى فى غاية الروعة والجمال . وقد نجح مهندس هذا الباب فى الجمع بين العبرة والنظر الطبيعى ، وهى نفس

الطريقة التي اتبعها مهندسو قصر الحمراء بغرناطة فيما بعد ، ونجحوا في تطبيقها في قصور بني نصر كلها . ويبدو هذا الباب من عدوة القرويين كقوس نصر فخم ، تتعادل بحانبه متذنة الجامع مع ارتفاعها عنه (١) .

وعقود بيت الصلاة كلها متجاوزة منكسرة ماعدا عقود بلاطة المحراب ، فمتجاوزة على هيئة حدوة الفرس ، وتتكىء هذه العقود على مناكب بسيطة تقوم دعائم أكثر ارتفاعا من العقود ، ويحيط بالعقود طرر مستطيلة بارزة . أما العقود المتجاوزة بالبلاط الأوسط ، فأكثر تجاوزا من عقود جامع قرطبة ، وتتكىء على دعائم قطاعها يشبه زهرة ذات أربع ورقات تصف دائرية ، وهو طراز من الدعائم كان شائعا في العمائر المسيحية باسبانيا . ومحراب الجامع شبه منحرف ، تتوسطه خصة مقعصة من الرخام الأبيض ، تحيط بها دعامات مربعة ، مزينة بالفسيفساء ، وتدور حول هذه القبة قناة رفيعة . وعقود جنبات الصحن غير متساوية الارتفاع والاتساع ، وبوسط الجهة الشمالية عقد خشبي منقوش ، يحمل ظلة ( رفرف ) خشبية قائمة على كوابيل خشبية ، ويسود المجموع طابع أندلسي خالص (٢) .

٧ — جامع القصبة الكبير بأشبيلية :

لم يبق من مساجد الموحدين الباقية في الأندلس سوى آثار المسجد الجامع بقصبة إشبيلية ، وهو الجامع الذي أمر ببنائه الخليفة أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن في سنة ٥٦٢ هـ ، وشرع في بنائه في رمضان من هذه

---

(١) Terrasse, la mosquée des Andalous à Fès

(٢) انظر : السيد عبد العزيز سالم : بيوت الله ومساجد ، ج ٢ ص ١٨٦ — ١٩٢

السنة ، فهدمت الدار فى داخل القصبة لذلك الغرض، وحضر شيخ الحرفاء أحمد بن باسة وأصحابه الحرفاء البناؤون من أهل إشبيلية وجميع حرفاء أهل الأندلس ، مع من قدم من حرفاء البنائين بمراكش وفاس والمهدوة (١). وهـــذا يوضح لنا كيف أن بناء الجامع وزخارفه قد جمعا بين بساطة الفن الموحدى وبين الثراء الزخرفى الذى اتسم به الفن الأندلسى ، فأسس الجامع من الماء بالآجر والجير والجص والأحجار ، وامتدت أسس الدعائم فى جوف الأرض . واستمر بناء الجامع حتى كمل بالتسقيف، وأصبح يضارب فى الاتساع جامع قرطبة . وكان جامع إشبيلية مثل جامع الكتبية بمراكش يضم ١٧ بلاطة تمتد من الشمال إلى الجنوب ، وتتسع هـذه البلاطات الأربعة عشر أسكوبا ، كل بلاطة يصل عرضها إلى ٤٫٦٠ مترا . أما البلاطة الوسطى المؤدية إلى المحراب فيبلغ عرضها ٧٫٢٠ مترا . كذلك كان أسكوب المحراب فى مثل اتساع البلاطة الوسطى (٢) . ومن المرجح أن عقود جامع إشبيلية كانت تستند على دعائم أو أرجل من الآجر على نفس صورة دعائم الصحن. أما العقود فكانت متجاوزة منكسرة انكسارا طفيفا، وكانت مخارجها تنطلق من مناكب الدعائم كما يتجلى ذلك فى عقود الصحن. وكانت أسقف بلاطات بيت الصلاة هياكل هرمية تقوم على سماوات مسطحة بين جوائز السقف. ويغلب على الظن أن قبابا ثلاثة كانت تقوم فوق الأساطين الثلاثة الناشئة من تقاطع البلاطات الثلاثة الواسعة بأسكوب المحراب، وكانت هذه القباب مضلعة كما فى جامع

---

(١) Antonio Muñoz, Sevilla y sus monumentos arabes, p. 104

(٢) Khayyat Abdel Aziz Saleh, l'Architecture à Séville sous les Almohades, Thèse du Doctorat ès-Lettres, présentée à l'Université de Paris en 1967 (sous presse)

الكتبية بمراكش استنادا على الفقرة المقربية القائمة اليوم بالمدخل الشرقي للصحن ، واستنتاجا من قـــول ابن صاحب الصلاة : « واعتبل المرفاء ، واستفرغوا ، وتحذقوا في بناء القبة التي على محرابه أعظم الاعتبال في العمل بصنعة الجبس »[1] ، أو كانت على النحو الذي نشاهده في مقصورة سان فرناندو بجامع قرطبة ، كما يرجح الأستاذ توريس بلباس[2] ، واستنادا على قول ابن صاحب الصلاة : « وعقد الأقواس منه بالأقباء »[3]. وكان يحف بالضراب إلى اليمين باب معقود يؤدي إلى قبو كان يحتفظ فيه المبخر ، وإلى اليسار باب آخـــر معقود للسابلة الموصل إلى القصر[4] . وكان يدعم الجدران الخارجية ركائز ضخمة للدفع ، مماثل ما نشاهده منها اليوم في الجدار الشمالي للجامع . وكانت تتفتح في جدران الجامع الخارجية ثلاثة أبواب تؤدي إلى جهـات الصحن : واحد في امتداد محور بيت الصلاة يحرس اليوم باب الغفران Puerta del Perdon ، وبابان آخران في الجهتين الشرقية والغربية ، تبقى منها اليوم الباب الشرقي فقط ، وهو باب يليه أسطوان تعلوه قبوة مقربصة من قبل طراز قبيوات جامع الكتبية بمراكش[5] ، ويطل على الصحن بوائك من عقود أجرية منفوخة منكسرة ، ويحيط بها عقود أخرى

---

(١) Anuna Melchor, op. cit. p. 133

(٢) Torres Balbas, Ars Hispaniae, t. IV, p. 198 - Torres Balbas, la Mezquita de Cordoba y las ruinas de Madinat al-Zahra Madrid, 1953, p. 108

(٣) Anuna, Melchor, p. 130

(٤) Ibid. p. 135

(٥) عبد العزيز سالم ، المساجد والقصور بالأندلس ، القاهرة ١٩٦٥

بارزة ، من أوجل العقود إلى رؤوسها الأمر الذى يكسب دعائمها شكلا مضلعا .

وما حفظ من زخارف جامع إشبيلية قليل ، ومع ذلك فهو بالغ الأهمية إذ يكشف عن اتجاه الزخرفة الأندلسية المغربية فى عصر الموحدين ، ويقتصر على بعض الزخارف المحفورة فى الجص بباطن العقد الداخلى لباب الغفران ، والعقد الكبير المطل على الصحن فى امتداد هذا الباب . وزخارف عقد هذا المدخل عبارة عن أشرطة بارزة ترتسم فيها مستطيلات ومربعات قائمة على رؤوسها ، وهى طريقة بيزنطية الأصل لها نظائرها بجامع قرطبة ومدينة الزهراء . أما الشريط الأوسط من زخارف هذا العقد فيتألف من مراوح النخيل المألوف التى تخلو من السيقان ، تطوقها خطوط محزوزة ، وأطرافها تنحنى فى تموجات ، وتتلاحم فى تناسق وإيقاع . وترتسم فى بعضها خطوط لولبية محزوزة ، وقد حفرت التوريقات على طبقتين ، مما يضفى عليها نوعا من التباين الشديد بين الظلمة والضوء ، ولقد سمى الأستاذ مارسيه هذا اللون من الزخرفة باسم الزخرفة الكثيفة « Decor compact » (١) ، وتشبه إلى حد كبير زخرفة محراب جامع توزر بافريقية ، وهو مسجد ينحدر فى سلك الفن الأندلسى ، ويعاصر المسجد الجامع بإشبيلية ، إذ بنى فى سنة ٦٠ه هـ .

أما صومعة الجامع المعروفة اليوم باسم لاخيرالدا La Giralda ، فقد تم بناؤها بعد انتصار الموحدين فى موقعة الأرك ، وارتفعت فى رشاقة مشرفة على فحص إشبيلية وما يحيط بها من المنطقة المعروفة باسم الشرف . وقد

---

(١) Marçais, l'architecture musulmane, p. 253

كانت تتألف من طابقين الأول وهو الجزء الأعظم منها يحتوي بالإفريز الأفقي الذي تعلوه فجوات الزوافير ، والثاني برج صغير الحجم يعلو البرج الأول في اتجاه نواته الداخلية . وكانت تعلو هذا الطابق بدوره قبيبة مقرمدة بزخرفة سعود بارز ، وكانت فيه تفاصيل أربعة تتدرج في الصغر كلما ارتفعت ، فتتناسق تماما مع القبيبة ، وتفصح عن إيقاع وتناسق ، تؤكده رشاقة المئذنة وحيويتها ، وتدعم اتجاهها التصاعدي الذي يزداد قوة بالتقسيمات الثلاثية الرأسية لزخرفة المسينات . وتتألف هذه المسينات من ثلاث شبكات تقوم كل منها على أزلة عقود . وقاعدة المصومعة مربعة الشكل ، طول كل جانب منها ١٣٫٦٥ مترا ، يداخله نواة مربعة الشكل ، يبلغ طول الجانب منها ٦٫٢٥ مترا ، يدور حولها طريق منحدر صاعد مؤلف من ٣٥ مقطع ، وتعلوه قبوات متقاطعة صغيرة متصلة ، خمسة منها في كل مقطع ، وتشغل النواة الداخلية البرج مع غرف ، مربعة الشكل . وزخارف الجير الذا تعبر عن فن يختلف عن فنون المغرب المعاصرة له ، فقد أثرتها عناصر أندلسية وفدت عليها من قرطبة ومن قسطة والمرية ومالقة (١) .

ب ـ المنشآت المدنية :

١ ـ أسوار المدن :

كانت الأسوار الأولى التي أسس الموحدون في بعض مدن المغرب مثل رباط تازى وتينملل ما تزال تخضع من حيث طريقة البناء والأسلوب للنظام الذي كان سائدا في عصر المرابطين ، فالسور الغربي من تازى يتألف من

(١) ارجع الى ملاق : الجيرالدا باشبيلية ، المجلة ، العدد الثامن ١٩٥٢

صفوف مبنية من قطع حجرية ضخمة غير مهذبة القطع ، تتخللها قطع من الحجارة مسطحة ، هذا النظام يشبه نظام البناء في قلعة آمريور . ونلاحظ أن عرض السور في العادة يبلغ ٢٫٨٠ مترا ، وعرض عشاء الأعلى ٠٫٩٠ مترا ، وترتكز عليه أبراج مستطيلة الشكل تبرز عنه بنحو ثلاثة أمتار ويصل طولها إلى خمسة أمتار تقريبا هـــذا السور بوجه عام محدود ممين . ويتعصب في الزاوية الجنوبية الغربية برج أسطواني الشكل مرتفع ، تضيق جدرانه قليلا كلما ارتفع (١) . ويغير نظام البناء في الواجهة الجنوبية من السور ، فيصبح من الطابية ، ويمتد بمحاذاة هـذا السور من أدناه خندق مطور في الصخر . ويعتقد الأستاذ تراس أن هذا السور متأخر عن البناء الحجري ، ويرجح أنه من عصر بني مرين ، ويرى أن الجزء الباقي من أسوار الموحدين لايعدو الواجهة الغربية من باب الربع حتى البرج . أما الأسوار الأصلية في السور الغربي الموحدي ، وفي السور الشرقي فترجع إلى عصر بني مرين (٢) .

أما سور مدينة تينمل ، فالمعروف أنه من إنشاء المهدي ابن تومرت ، ولكن عبد المؤمن أعاد بناءه وجدده ووسع المدينة في سنة ٥٤٨هـ (٣) . ولم تكن المدينة تحتاج إلى نظـــام دفاعي معقد إذ أن أطرافها كانت مزودة بتحصينات طبيعية رهيبة ، فهي تقوم على الضفة اليسرى من وادي نفيس ، عند مدخل السهل الأعلى ، وفي موضع يضيق فيه هذا السهل للغاية ، ثم إنها

---

(١) Marçais, l'architecture musulmane, p. 331, 333

(٢) Terrasse, la grande Mosquée de Taza, p. 17, Note 2, p. 69, Note 1

(٣) القرطاس ، ص ١٢٦

تمتد من التلال على الجبل، ومن الجنوب على الوادى الذى تنتصب فى ضفته الغربية أبراج متوعرة شديدة الانحدار، ولذلك فانها لم تزود فى هذه الناحية بأسوار . ولم يبق من أسوار تشمل اليوم سوى آثار قليلة ، ومن هذه الآثار استطعنا أن نلم بمحيط أسوارها ، فقد كانت هذه الأسوار مستقيمة، وكانت ترتكز عليها أبراج بين كل ثلاثين أو خمسة وثلاثين مترا. هذا السور مبنى حتى ارتفاع قامة من قطع الحجارة غير المهذبة ، أما بقية السور من أعلى فمن الطابية [١] . وينفتح فى سور تشمل باب واحد مرتفع ، ينحنى فى شكل الرفق ، والباب مثل باب قلعة آمرجو هذه من الآجر منقوع ، ويكتنفه من الجانبين بدنتان بارزتان من الحجارة .

* * *

ثم أخذ بناء الأسوار فى عصر الموحدين يتجه نحو البناء بالطابية ، وهى طريقة عرفتها الأندلس منذ القرن الرابع الهجرى ، وكانت هذه الطريقة معروفة فى المغرب أيضا قبل عصر الموحدين ، ولكن إذا كانت بعض المناطق الجنوبية من المغرب قد اعتادت منذ عهد بعيد البناء بالتراب، فان استخدام الطابية القوية التى تدخل فيها الجير والنورة كان يعتبر من طرق البناء التى نقلت إلى المغرب من بلاد الأندلس [٢] . ولكن البناء بالطابية لم يتم دون مقدمات ، فان رباط تيط الذى بناه مولاى عبدالله من أسرة إسماعيل الأمغار للمجاهدين ، ويقع على ساحل المحيط الأطلسى ، على بعد نحو ١٢ كم ، جنوب مخر فى الصويرة (موجادور) قد زود بأسوار تجمع بين طريقتى البناء

---

(١) Terrasse, sanctuaires almohades, p. 38

(٢) Terrasse, l'art hispano-mauresque p. 208

(٣) يبدو أنه أقيم فى منتصف القرن السادس الهجرى ، التصدى للغزوات الصليبية =

المذكورتين . فالأسوار من الطابية تقوم على قواعد من الحجر ، بينما أقيمت الأبراج جميعا من الحجر . ويمتاز رباط نيط بوجود أسوار أمامية وبرج براني مثمن الشكل قائم على البحر ، يتصل بالسور الرئيسي للرباط عن طريق ستارة من البناء ، والبرج مع كونه مثمن الشكل ، إلا أنه يقوم على قاعدة نصف كروية (١) . ويفتح في السور ثلاثة أبواب ، جدرانها مكسوة بلوحات من الحجر المصقول: منها بابان يتقدمهما سور أمامي ، والباب الثالث يقع في مدخله طريقة المرفق .

أما في مراكش فأسوار المدينة كلها من الطابية ، وفي الرباط يسود البناء بالطابية باستثناء واجهة الأبواب التي أقيمت من الحجر . وفي فاس أقيمت الأسوار الموحدية في عصر محمد الناصر من الطابية . ونلاحظ أن الطابية التي كان يستخدمها الموحدون في الأسوار تتميز بصلابتها الشديدة .

٢ ـ الأبواب ذات المرافق :

تعتبر أبواب المدن من التحصينات الهامة في عصر الموحدين ، فقد كانت الأبواب القديمة تتبع النظام البيزنطي وقوامه عقدان متقابلان أحدهما يفتح إلى داخل المدينة ، والآخر يفتح إلى خارجها ، ولكن المرابطون ابتدعوا نوعا آخر من الأبواب ، وهي الأبواب ذات المرافق ، ونعني بذلك أن الممر الواصل بين فتحتي الباب يتخذ زاوية قائمة في شكل المرفق ، ويمتاز

---

= على الساحل الغربي . وكانت تربط قبل ذلك مركزا للجهاد ضد برغواطة المرابطة حتى أيام عبد المؤمن ( أنظر البيذق ، ص ١١٩ ) ولكن بناء هذا الرباط أقاموه لحراسة البحر خوفا من نزول النصارى بهذا الجزء من الساحل .

(١) Terrasse, Sanctuaires et forteresses almohades, p. 349

Marçais, l'architecture, p. 222

هذا النظام بأنه يضع العراقيل والعقبات وراء الحماة المرابطين المهاجمين، وقد عمد الموحدون من هذا النظام، إذ أنشأوا أبوابا ذات مرفقين وأخرى ذات ثلاثة مرافق، ولم يستغنوا أجزاء من المرات الواقعة بين مداخل الأبواب وخارجها حتى يساعد ذلك المدافعين على قذف المهاجمين بالنبال أو الحجارة الإغريقية[1].

ومن بين أبواب الموحدين ذات القيمة الدفاعية الكبرى سوره من حيث التصميم أو الزخرفة باب الرواح بمدينة رباط الفتح التي اختطها أبو يعقوب يوسف على الخط الأطلسي، وأكملها المنصور، ولا يفصلها عن ملا القصبة سوى وادي الرمان (٢)، وهو الوادي المعروف الآن ببورجرج. هذا الباب مبني من قطع حجرية متوسطة الحجم، منتظمة الشكل، ويؤلف الباب نظاما دفاعيا شديد الإتقان، إذ يكتنفه برجان مربعان يحميان مدخله، ويقصران الدخول إلى المدينة على ممر ذي مرفقين. وعندما يجاز الممر، هذا المدخل قادما من خارج المدينة، يصل إلى الأسطوان الأول، وهو دهليز مربع الشكل تعلوه قبة مضلعة قائمة على جرفات مقببة بأنصاف قبوات متعارضة، ويتصل بهذا الدهليز المربع دهليز ثان مربع الشكل أيضا، تعلوه قبة نصف كروية، ويؤدي هذا الدهليز بدوره عن طريق ممر إلى دهليز ثالث، مكشوف من أعلى، يتعرض عنده المهاجمون لقذائف المدافعين بأعلى سطح الباب، ويتصل هذا الدهليز الثالث بدهليز رابع، تعلوه قبة نصف

---

(١) السيد عبد العزيز سالم، وسائل الدفاع الإسلامي في العصور الوسطى، مجلة البيتي عدد ٨٨، ١٩٥٨ ـ المساجد والقصور بالأندلس، ص ٤٣.

(٢) الزاكي، ص ٣٥٩.

كروية ، يتدرج منها الداخل الى المدينة (١) . وكان يتعين لإقامة هذه الأبواب دات الطرقين المزدوجة زيادة سمك الرابط (٢) .

وكان يقوم فيما بين مصب وادى بورجرج والبحر رباط قديم كانت مهمته محاربة البرغواطة ، ثم تحول عند بناء مدينة الرباط إلى قصبة سميت بقصبة الودايا نسبة إلى عرب وداية بطن من بنى المقل الهلاليين ، وكان السلطان مولاى أبو النصر اسماعيل العلوى ( ١٠٨٢ - ١١٣٦هـ/ ١٦٧٢ - ١٧٢٧ م ) قد استخدم من الودايا العرب فرقة فى جيشه (٣) ، وهذه القصبة تعد من أروع أمثلة القلاع الحربية فى المغرب الإسلامى . وأهم ما تبقى منها باب يعرف باسم باب قلعة الودايا ، وهو باب من الحجر المصقول . ومدخل الباب يكتنفه بدنتان صغيرتان ، وعقد المدخل منفوخ منكسر ، يوجه عقد زخرفى مفصص ، قد تجاوز نصف الدائرة تجاوزا قليلا ، وتتناوب فيه فصوص صغيرة مدببة المؤوس ، وأخرى نصفه دائرية ، وتزينه شبكة زخرفية من معينات متصلة ، وتزدان بيقطه بورييقات رائعة تتوسطها فى كل بيقة محارة زخرفية فى غاية الجمال . وعندما يجتاز المرء مدخل هذا الباب ، يصل إلى ممر طويل من ثلاث غرف مربعة الشكل ، متصلة فيما بينها ، يعلو الغرفة الأولى منها قبة على مجوقات مقوسة ، والثانية تعلوها قبة على مجوقات مثلثة ، والثالثة تعلوها قبة نصف أسطوانية ، وعلى الجانب الأيمن من كل من الغرفتين الثانية والثالثة ، يفتح باب معقود بعقد متجاوز منكسر ،

---

(١) Marçais, l'architecture p. 388

(٢) Terrasse, l'art hispano-mauresque, p. 296

(٣) السيد عبد العزيز سالم ، المغرب الاسلامى ج ٢ ص ١٨٨ ، ١٨٩

ويؤدي كل من هذين البابين إلى داخل قلعة الوداية (١).

وبقصبة مراكش باب يسمى باب أجناو ، ومظهر هذا الباب من الخارج رائع للغاية ، وهو يشبه إلى حد ما في زخارفه باب الوداية المذكور ، ولكنه فاق بدقته .

---

(١) Marçais, l'architecture musulmane d'Occident, p. 223-224

# خاتمة

## ورثة الموحدين فى المغرب

ا - بنو مرين فى المغرب الأقصى

ب - بنو عبد الواد فى المغرب الأوسط

ج - بنو حفص فى المغرب الأدنى

# خاتمة

## ورثة الموحدين فى المغرب

شهد المغرب الإسلامى فى القرن السابع الهجرى انقساما سياسيا جديدا إلى ثلاثة دول مربرية مستقلة، ويذكرنا هذا الانقسام بنظيره فى القرن الثانى الهجرى، ويرجع سبب قيام هذه الدولة إلى انهيار دولة الموحدين، فقد استغل بنو حفص المصامدة، وولاة إفريقية فى عصر الموحدين فرصة احتضار هذه الدولة، وأعلنوا استقلالهم عنها فى أيام أبى زكريا الحفصى، واعترف بسلطته أهل طنجة وسبتة وبعض مدن الأندلس، بينما انقسم بنو مرين وبنو عبد الواد الزناتيين بقية بلاد المغرب فيما بينهم، فاختص بنو مرين بالمغرب الأقصى، بينما استقل بنو عبد الواد بالمغرب الأوسط. وتم انفصال المغربين الأدنى والأوسط عن دولة الموحدين دون جهد كبير بذلوه فى هذا السبيل، بينما دفع بنو مرين ثمن ارتقائهم إلى السلطان غاليا، فكان عليهم أن يخوضوا مع خلفاء الموحدين فى عصر الاضمحلال حروبا ومعارك طاحنة استغرقت ما يزيد على نصف قرن من الزمان، وانتهت بدخول بنى مرين فى النهاية مدينة مراكش.

### ١ - بنو مرين فى المغرب الأقصى :

قامت دولة بنى مرين منذ أن تمكن السلطان أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق من دخول مدينة مراكش عاصمة الموحدين فى سنة ٦٦٨ هـ. ويتصل نسب أبى يوسف يعقوب هذا عرين بن وردتاجين بن ماخرخ الزناتى، وكان مركزهم بأرض الزاب من جبل بقال له ابكجان وقد سميت

دولتهم بالدولة المرينية حينا نسبة إلى مرين هذا، وبالدولة الوطاسية حينا آخر نسبة إلى وطاس بن فجوس بن جرماط بن مرين . وكان أمير بني مرين في عهد يعقوب المنصور هو أبو خالد عبيو بن أبي بكر بن حامة بن محمد ابن ورزير بن فجوس بن جرماط بن مرين ، وقد ساهم بنو مرين في غزوة الأرك عندما استنفرهم أبو يوسف يعقوب إلى الجهاد فشهدوا هذه الغزوة وأبلوا فيها بلاء حسنا ، وأصيب عبيو بن أبي بكر إصابة قاتلة أدت إلى وفاته في صحراء الزاب في سنة ٥٩٢ هـ ( ١١٩٥ م ) ، فخلفه على رئاسة بني مرين ابنه عبد الحق ، وفي عهده دخل بنو مرين بلاد المغرب الأقصى ، وأقاموا ببلاد الريف في سنة ٦١٠ هـ عندما لمسوا ضعف خليفة الموحدين يوسف المنتصر ، وسوء تدبيره واختلال حال الدولة ، وتهاون أمراء الموحدين في الدفاع عن الثغور ، فأخذوا يغيرون على النواحي ، ويهاجمون بوادي المغرب ، ويعيثون في البلاد فسادا ، وشكا الناس إلى المنتصر الموحدي ، فعزم على محاربتهم ، وأعد لذلك الغرض جيشا يتألف من عشرين ألف فارس يقودهم أبو علي بن واتودين وأبو ابراهيم بن يوسف بن عبد المؤمن والي مدينة فاس . والتقى هذا الجيش بجيش بني مرين بوادي نكور في سنة ٦١٣ هـ ( ١٢١٦ م ) ، فدارت الدائرة على الموحدين ، وامتلأت أيدي بني مرين بالأسلاب والغنائم . وزحف الأمير عبد الحق بمجموع قبائل بني مرين إلى رباط تازى ، وانحصر على جيوش الموحدين فيها ، فضاقت نفوس بني عسكر بن محمد من عشيرتهم لانتصارات بني مرين المتوالية ، وأكلت الغيرة صدورهم ، فخالفوا الأمير عبد الحق وظاهروا الموحدين وأتباعهم من عرب رياح أشد قبائل المغرب قوة ، وتحالفوا

منهم فهد عبد الحق فى جموع بنى مرين ، والتقى الفريقان بالقرب من وادى سبو على بعد أميال من تافرطاست سنة ٦١٤ هـ ( ١٢١٧ م ) ، وفى هذه الوقعة قتل الأمير عبد الحق وابنه الأكبر إدريس . فغضب بنو مرين لذلك ، وأقسموا على الثأر له ، وما زالوا يقاتلون بنى رياح حتى انتصروا عليهم ، واستولوا على ما كان فى معسكرهم من السلاح والخيل . ثم خلف عبد الحق ابنه أبو سعيد عثمان . واستغل عثمان ضعف الموحدين وأخذ يدعو قبائل المغرب إلى الدخول فى طاعته ، فبايعه من قبائلهم هوارة وزكارة وتسول ومكناسة وبلوية وغشتالة وسدراتة وبهلولة ومديونة ، فقرض عليهم الخراج ، ووزع عليهم العمال ، وألزم أهل فاس ومكناسة وتازى وقصر كتامة بضريبة معلومة يؤدونها إليه فى كل سنة انفاقا لغارات والتجيل أبو سعيد عثمان فى سنة ٦٣٨ هـ ( ١٢٤٠ م ) وخلفه أخوه أبو معرف محمد ، فالتقى أثره فى مقاتلة الموحدين والتغلب على بلاد المغرب وجباية طعامه ، واشتبك مع الموحدين فى عدة مواقع ، وانتصر على جيش الرشيد بن المأمون بقيادة أبى محمد بن وانودين بالقرب من مكناسة . فلما تولى السعيد بن المأمون خلافة الموحدين سنة ٦٤٠ صرف جهوده لمحاربة بنى مرين ، وأعد لذلك جيشا ضخما يتألف من المصامدة والعرب والروم ، والتقى مع جيش أبى معرف فى أحواز فاس سنة ٦٤٢ ، فانهزم بنو مرين وقتل أميرهم أبو معرف ، ولاذوا بجبال غياثة من نواحى تازى .

وفى إمارة أبى بكر بن عبد الحق تمكن بنو مرين من التغلب على مكناسة فى سنة ٦٤٣ ، وافتتحوا أعمال وطاط وحصون ملوية سنة ٦٤٦ هـ (١٢٤٨ م) واقتحموا مدينة فاس من الموحدين ودخلوها فى ٢٦ ربيع الآخر سنة ٦٤٦ ، ولم

تلك مدينة رباط تازى أن سقطت فى أيديهم . ولكن أهل فاس انتهزوا فرصة غيابه عن المدينة وانتفضوا عليه ، وقتلوا عامله عليها ، وبايعوا المرتضى الموحدى ، فقدم اليهم أبو بكر ، وحاصر المدينة فى سنة ٦٤٨ هـ . فلما يئس أهل فاس من نجدة المرتضى لهم ، استأمنوا أبا بكر على أنفسهم ، فدخل فاسا وقتل الخارجين عليه ، فاطمأنت له البلاد ، وأذعن الناس له بالطاعة . ثم تابع فتوحاته بعد ذلك فاستولى على سلا ورباط الفتح سنة ٦٤٩ ، وأقام عليها ابن أخيه يعقوب بن عبد الله بن عبد الحق ، ثم افتتح سجلماسة ودرعة سنة ٦٥٠ هـ . وأقام بفاس ، واتخذها حاضرة لدولته .

ولما توفى أبو بكر فى سنة ٦٥٦ هـ ( ١٢٥٨ م ) خلفه عمه أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق ، وفى عهده حاول النصارى الإسبان الاستيلاء على سلا فردهم عنها ، وفى سورها الغربى . وتمكن أخيرا من افتتاح مراكش سنة ٦٦٨ هـ ( ١٢٦٩ م ) . ويعتبر استيلاء بنى مرين على مراكش بداية لتاريخهم كدولة ، وقد ركز بنو مرين نشاطهم بعد ذلك فى مجالين كتب لهم فيهما النصر : مجال الأندلس حيث خفوا لمساعدة بنى نصر أصحاب غرناطة ضد القشتاليين ، ومجال المغربين الأوسط والأدنى حيث حدثت بينهم وبين بنى عبد الواد ، والحفصيين حروب كثيرة .

ولعب بنو مرين دورا هاما فى مساعدة بنى نصر ، فخرج السلطان يعقوب بن عبد الحق سنة ٦٦٨ هـ من فاس وجاز إلى الأندلس ، واكتسح بجيوشه الفحوص والزروع ، ووزع كتائبه فى البسائط والوديان تلسف الزروع وتخرب العمران ، وعاد إلى فاس فى سنة ٦٧٤ هـ . وفى هذا العام شرع يعقوب فى بناء المدينة البيضاء لصق فاس وجعلها مقرا لسلطانه وجاز

إلى الأندلس للمرة الثانية سنة ٦٧٦ هـ وحاصر إشبيلية ، وبث سراياه في كل نواحي الشرق ، ودخل حصن قطيانة وجليانة والقليعة عنوة ، وغزا شريش ، واكتسح حصن روطة وحاصر قرطبة ، وغرب حصن بركونة وآرجونة وهاجم مدينة جيان . ثم جاز للمرة الثالثة سنة ٦٨١ هـ (١٢٨٢م) وللمرة الرابعة في سنة ٦٨٤ . وفي هذه الغزوة الأخيرة مرض مرضا شديدا وتوفي بقصره في الجزيرة الخضراء في أول محرم سنة ٦٨٥ ، ودفن بجامع شالة من رباط الفتح . وبويع ابنه أبو يعقوب يوسف بن يعقوب .

جرى أبو يعقوب يوسف على سنن أبيه في العدل وفي الجهاد ، وأجاز إلى الأندلس عدة مرات ، وغزا تلمسان . ثم خلفه ابنه أبو ثابت عامر (٧٠٦ - ٧٠٨ هـ) وإليه ينسب بناء مدينة تطاوين .

وفي سلطنة أبي سعيد عثمان بن يعقوب استطاع بنو مرين الاستيلاء على المغرب الأوسط ، إذ سار على رأس جيش إلى تلمسان سنة ٧٣٤ هـ وانتزعها من موسى بن عثمان بن يغمراسن سلطان بني عبد الواد بها ، كما أجاز إلى الأندلس حين استنصره سلطان غرناطة . وتوفي أبو سعيد عثمان سنة ٧٣١ هـ (١٣٣٠ م) ، وخلفه ابنه أبو الحسن علي بن عثمان الذي امتلك تلمسان سنة ٧٣٧ من ابن أبي تاشفين سلطان بني عبد الواد ، كما استولى على تونس وهزم أميرها أبا يحيى الحفصي في جمادى الآخرة سنة ٧١٨ هـ (١٣١٧) ، واتصل ملكه ما بين برقة إلى السوس الأقصى واغمط الأطلسي واستمرت سيادة بني مرين على المغربين الأوسط والأدنى قائمة في عهد ابنه أبي عنان بن أبي الحسن ، الذي استولى على بجاية وقسنطينة عقب تنازل الأمير محمد بن أبي زكريا الحفصي عنها .

ثم ضعفت دولة بني مرين ، وتولى الحكم سلاطين ضعاف ، فقـــدت الدولة المرينية المغرب الأدنى ، ثم فقدت بعد ذلك المغرب الأوسط ، وعادت إلى حدودها الأولى ، وكان استيلاء البرتغاليين على مدينة سبتة سنة ٨١٨هـ (١٤١٥) نذيرا بانهيار دولة بني مرين . وهكذا انقلب الوضع بالنسبة للمسلمين ، وتحولت الحرب المقدسة من أرض الأندلس إلى أرض المغرب ، وتمكن البرتغاليون من الاستيلاء على جزء كبير من ساحل المغرب ، واحتلوا أصيلا سنة ٨٧٦هـ ، وصافي وآزمور وطنجة سنة ٨٦٩ هـ . وهكذا اختفت دولة بني مرين ، وانقصرت أملاكها على فاس ، بينما خرجت مراكش وتافيلات ودرعة والسوس والريف عن طاعتهم ، ولم تلبث دولة بني مرين أن سقطت على أيدي الأشراف السعديين ، بسقوط مدينة فاس ســـنة ٩٥٦ هـ .

ب ـ بنو عبد الواد في المغرب الاوسط :

كان بنو عبـد الواد في الأصل من أمراء القبائل الرحل التي تجوب في صحراء المغرب الأوسط ، ثم أتاحت لها الظروف الاستقرار وتكوين دولة استمرت ما يقرب من ثلاثة مئة تقريبا . فلقد رحلت هذه القبائل إلى سواحل المغرب الأوسط ، وهي منطقة تأثر كثيرا بغزوات بني هلال ، وفرض بنو عبد الواد أنفسهم قرضا على أهالي هذه البلاد ، وما لبثوا أن أصبحوا سادة هذه البلاد وحكامها ، واتخذوا تلمسان حاضرة لهم .

وقد لعب يغمراسن بن زيان دورا هاما في تأسيس هذه الدولة ، إذ تم له ذلك بموافقة الموحدين أنفسهم ، فلقد كان بنو عبـد الواد وأمراؤهم من

القبائل الأخرى يتركون الصحراء ، ويستقرون في سهول وهران ، ويضعون رجالهم في خدمة عامل الموحدين بتلمسان وبمرور الزمن سيلعب بنو زيان مساهمة فعالة في الدفاع عن منطقة وهران ، ونالوا نظير ذلك بعض الامتيازات، إذ عين خليفة الموحدين منهم يغمراسن بن زيان عاملا على تلمسان وبلاد زناته سنة ٦٢٤ هـ ( ١٢٢٧ م ) واستقل هذا العامل بالبلاد عقب سقوط دولة الموحدين . والواقع أن استقلال بني عبدالواد ، بالمغرب الأوسط لم يكن كاملا من جميع الوجوه ، فلقد كان الخطر يحدق ببلادهم شرقا وغربا ، وكان لموقع المغرب الأوسط أثره في التأثير بمصيرهم ، فلقد كان العرب يسيطرون على وديان الساحل الشمالي للجزائر ، ويفرضون الإتاوات على سكانه ، ولم تكن حكومة الجزائر بالقوة التي تمكنها من إخضاعهم ، وبينما كانت هذه الصعوبات الداخلية تكاد تشل نشاطها ، كان خطر جيرانها من الشرق والغرب يهدد استقلالها، فمن الشرق كان بنو حفص بتونس يزعمون أنهم ورثة الموحدين ، وأن لهم الحق في بسط نفوذهم على المغرب الأوسط ، وبالفعل اضطر زعيم بني عبد الواد إلى الاعتراف بسيادتهم ، وأصبحت البلاد الجزائرية تحت وصاية بني حفص، ومن المغرب أخذ بنو مرين يترقبون الفرصة المواتية للتدخل في المغرب الأوسط ، وضمه إلى حوزتهم ، ولقد مت جيوش بني مرين إليه من فاس في عهد أبي سعيد عثمان ، وحاولت انتزاع تلمسان من صاحبها موسى بن عثمان بن يغمراسن ، ولكنه لم يفلح أمام أسوار تلمسان الحصينة . وفي سنة ٧٣٧ هـ ( ١٣٣٦ م ) سار أبو الحسن علي بن عثمان إلى تلمسان وشدد عليها الحصار، وأقام معسكرا قائما أمام تلمسان يكون قاعدة عامة لعملياته الحربية ،

واتسع نطاق هذا المعسكر فيما بعد فأصبح مدينة كبيرة سميت بالمنصورة واستمرت جيوش بني مرين تحاصر تلمسان حتى سقطت في سنة ٧٣٨ هـ (١٣٣٧ م) في أيدي بني مرين، وتمكن أبو الحسن المريني من قتل الأمير ابن أبي تاشفين.

وظلت تلمسان مدة ١٩ عاما مركزا لحكومة مرينية، ثم خرجت سنة ٧٥٠ هـ من سلطان بني مرين، واستعادها بنو عبد الواد. ولم يلبث أن قام أبو حمان بن أبي الحسن المريني بالاستيلاء عليها في سنة ٧٥٣ هـ. ولم يدم ملك بني مرين بتلمسان، إذ شق أهلها عصا الطاعة على سلطان بني مرين، فخلعها السلطان أبو سالم إبراهيم بن أبي الحسن بالأمان سنة ٧٦٩ هـ (١٣٥٩ م)، وأقر أميرها أبا زيان من أحفاد بني عبد الواد وعاد إلى فاس. ثم تولى أبو حمو علي بن أبي زيان امارة تلمسان، وأخذ يحكم المغرب الأوسط أمراء من تلمسان خاضعين لحكومة فاس، واردهرت مدينة تلمسان في عهدهم رغم هذه المواصف والأنواء، وكانت تحظى بموقع ممتاز، وكان لياهها الجارية فضل كبير في إحاطتها بالجنان والبساتين، فاستعادت بذلك مجدها القديم، وكانت مركزا تجاريا هاما يقصده تجار المسلمين والمسيحيين على السواء، كما كانت مركزا للقوافل التي تمر بها إلى نافيلت والسودان. وابتنى فيها بنو عبد الواد وبنو مرين القصور والمدارس. ثم بدأ عهد من الاضطراب والفوضى منذ أواخر القرن التاسع الهجري، فقد تغلب السلطان أبو فارس عبد العزيز بن أحمد الحفصي على السلطان الزياني بالمملكة تلمسان، واستمر غزو بني حفص لتلمسان في عهد السلطان أبي عمرو عثمان بن محمد الحفصي. ففي سنة ٨٧٠ هـ (١٤٦٥ م) تجمع عثمان بن محمد في جيش

أسوار تلمسان ، ومع ذلك فقد ظلت حكومة بني عبد الواد مملكة ، إلى أن ظهر الإسبان على المسرح السياسي . وكانت حركة الاسترداد الإسباني للأندلس وتطلع على أشدها ، فدفعت غارات القراصنة المسلمين على سواحل إسبانيا الشرقية الإسبان إلى الاستيلاء على بعض المدن الساحلية بالمغرب الأوسط ، فسقطت بجاية في أيديهم سنة ٩١٠ هـ ( ١٥٠٤ م ) ، ثم استولوا على وهران سنة ٩١٤هـ ، ثم سعوا بعد ذلك إلى الاستيلاء على مدينة الجزائر . وعاشت هذه المدينة تحت تهديد المدافع الإسبانية التي كانت تصيبها من قلعة بنيون المشيدة في جزيرة مجاورة للساحل الجزائري ، وفكر أهل الجزائر إلى الاستنجاد بعروج أحد القراصنة الأتراك المشهورين ، وأخيه خير الدين بربروسة . ولم يمض وقت طويل حتى خضعت الجزائر لبربروسة الذي كان السبب في دخول الأتراك العثمانيين بلاد المغرب .

ج - بنو حفص في المغرب الأدنى :

ينسب بنو حفص إلى الشيخ أبي حفص عمر بن يحيى الهنتاتي من هنتاته أعظم قبائل مصمودة . وكان الشيخ أبي حفص مكانة سامية في دولة الموحدين لسابقتهم في الجهاد ، وكان لأولاد أبي حفص من بعده هذه المكانة ، فقد تداولوا الرئاسة ، وتقلبوا في مناصب الإمارة في المغرب والأندلس .

ويعتبر أبو زكريا يحيى الحفصي المؤسس الحقيقي لدولة الحفصيين بتونس ، فقد استقل بإمارة إفريقية في سنة ٦٢٥ هـ بعد أن عزل أخاه أبا محمد عبد الله ابن أبي محمد بن أبي حفص ، وكان سبب استقلاله بإفريقية استيلاء ما قام به المأمون الموحدي من قتل الموحدين بمراكش ، وخاصة هنتاتة وتينملل ومن

يتوم آخرا المأمون أبو محمد عبد الله المخلوع وإبراهيم، ومن طعن لعصمة المهدى ، وتغيير لرسوم الدعوة الموحدية .

وقد حكمت دولة بني حفص زهاء ثلاثة قرون ونصف على الرغم من الأحداث الخطيرة التي اجتازتها . وقد بايع أهل شرق الأندلس واشبيلية والمرية الأمير أبي زكريا ، عندما وكدت ريح الموحدين فيها ، وإليه وجه الأديب أبو عبدالله بن الأبار قصيدته السينية التي يستصرخه فيها للمسلمين ومنها الأبيات الآتية :

أدرك بخيلك خيل الله أندلسا
إن السبيل إلى منجاتها درسا
وهب لها من عزيز النصر ما التمست
فلم يزل منك عز النصر ملتمسا
وحاش مما تعانيه حشاشتها
فطالما ذاقت البلوى صباح مسا
بالجزيرة أضحى أهلها جزرا
للنائبات وأمسى جدها تعسا
في كل شارقة للسام بائقة
يعود مأتمها عند المدى عرسا
وكل غاربة إحجاف ثائبة
تنى الأمان حذاراً والسرور أسا
تقاسم الروم لا نالت مقاسمهم
إلا عقائلها المحجوبة الأنسا

وفى بلنسية منها وقرطبة
ما يذهب النفس أو ما يزف النفسا

مدائن حلها الإشراك مبتسما
جذلان وارتحل الإيمان عنهما

وصيرتها الموادى عاثيات بها
يستوحش الطرف منها ضعف ما أنسا

ما للمساجد عادت للعدى بيعا
وللشداء يرى أثناءها جرسا

لهفا عليها إلى استرجاع فائتها
مدارسا للمثانى أصبحت درسا

فأجاب الأمير أبو زكريا داعيتهم، وبعث إليهم أسطوله مشحونا بالأقوات والأسلحة. وقد تأثرت حضارة بنى حفص فى إفريقية فى عهده بالحضارة الأندلسية، وفتح أبو زكريا أبواب مدنه للمهاجرين من أهل الأندلس، وقد بلغ تأثير الأندلس فى الدولة الحفصية ذروته فى عهد أبى عبد الله المستنصر خليفة أبى زكريا يحيى، وكان من أعظم بناة هذه الأسرة، وكان بلاطه يزخر بأهل الأندلس الذين هاجروا إلى جواره، وفى عهده أقيم قصر الطابية فيما بين عامى (٦٤٧ - ٦٧٥ هـ)، وكانت بساتين هذا القصر تليح نظام جنة السباع بقصر الحمراء. وإلى المستنصر الحفصى تنسب جنة أبى فهر وتبعد كيلو مترا واحدا جنوبى تونس، وإليه ينسب أيضا بناء مسجد باب الغرب بالمنستير، وكل أبنيته تأثرت بالأسلوب الأندلسى. وفى عصر المستنصر توطدت العلاقات التجارية بين تونس وبرشلونة وصقلية

وجنوة وبيزا وصقلية والبندقية ، وأنشئت الفنادق الأجنبية بتونس . وفي أواخر عهده تفاقمت الفتن على البلاد بسبب طمع بعض الأمراء السيطرة على السلطة ، وقد أضعفت هذه الفتن من مركز السلطان ، وتولى بعد وفاته في سنة ٧٧٥ للأمير أبو عصيدة . وبوفاته خرج الحكم في تونس من فرع أبي زكريا ، فقد حكم آخر ثالث المستنصر هو أبو حفص ، ثم ابن عم له هو أبو يحيى بن اللحياني ، وأخيرا استقر السلطان في أعقاب ابن من أبناء أبي زكريا هو أبو اسحق ابراهيم . وازداد ضعف بني حفص باقتسامهم وخروج بجاية عن طاعتهم . واستغل بنو مرين فرصة ضعف الحفصيين ، واستولوا على تونس في عصر السلطان أبي عنان المريني ، ومع ذلك فقد حاول أبو اسحق ابراهيم إعادة وحدة البلاد بعد أن خرج جنوبها عن سلطانه ، وظهرت دويلات مستقلة في تلك النواحي مثل بني يملول في توزر ، وبني الملف في غدامس ، وبني مكي في قابس ، وبني ثابت في طرابلس .

وفي عهد أبي العباس استعادت الدولة الحفصية بعض مكانتها ، وتصدى الأمير لجماعة من النصارى هاجموا المهدية في سنة ١٣٩٠ م وهزمهم ، وقام ابنه أبو فارس بالإغارة بحرا على مالطة وجربة ، واستطاع أن يستولي على تلمسان . ولقد عرفت دولة بني حفص في عهده بازدهارها وقوتها ، وتمكن أبو فارس من ضم الإمارات التي كانت قد استقلت في حياة أبيه أبي العباس ، ففي سنة ١٣٩٨ ضم مدينة طرابلس إلى دولته ، وفي سنة ١٤٠٠ م ( ٨٠٣ هـ ) استولى على توزر وقفصة ، وفي سنة ١٤٠٢ استولى على بسكرة ، ونجح في سنة ١٤١٠ في الاستيلاء على مدينة الجزائر . وفي عهد أبي فارس قدمت

السفارات من سائر أنحاء العالم إلى تونس تهنئه وتخطب مودته، ومن هذه السفارات : سفارة سلطان غرناطة ، وسفارة سلطان فاس ، وسفارة سلطان مصر . وتوفي أبو فارس في سنة ١٤٣٩ م وخلفه ابنه الأصغر المستنصر، وكان شابا عليلا تغلبت عليه الأمراض فمات بعد ١٤ شهرا من توليه الإمارة وفي عهد أخيه أبي عمرو عثمان اشتعلت نيران الفتن في البلاد بسبب طمع أعمامه في السلطان ، ونجح أبو عمرو في القضاء على هذه الثورات سنة ١٤٤٦ م بعد أن هزم عمه أبا الحسن .

وازدهرت البلاد التونسية في عهد ازدهارا تشهد به المعاهدات التجارية التي عقدها من ملك فرنسا لويس الحادي عشر ، كما عقد معه سلاطين مصر والأندلس معاهدات مماثلة ، لكن هذا الازدهار لم يطل أمده بعد وفاة أبي عمرو عثمان ، فما لبثت وحدة الدولة الحفصية أن تمزقت بعد وفاته بسبب انقضاض القبائل عليها ، ومهاجمة الإسبان للسواحل التونسية انتقاما من القراصنة الأتراك الذين اتخذوا هذه السواحل أوكارا لهم .

# مراجع الكتاب

أولا ـ المصادر العربية

ثانيا ـ المراجع العربية الحديثة والأوربية المعربة

ثالثا ـ المراجع الأوربية

# أولا : المصادر العربية


١ ـ ابن الأبار ( أبو عبد الله محمد ) : كتاب الحلة السيراء ، جزءان ، تحقيق الدكتور حسين مؤنس ، القاهرة ١٩٦٣

٢ ـ ابن أبي دينار القيرواني : المؤنس في تاريخ إفريقية وتونس ، تونس ، ١٣٨٦ هـ

٣ ـ ابن أبي زرع ( علي بن محمد الفاسي ) : الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس ، نشره تورنبرج Tornberg ، أبسال ١٨٤٣

٤ ـ ابن الأثير ( علي بن أحمد بن أبي الكرم ) : كتاب الكامل في التاريخ ، بولاق ، ١٢٩٠ هـ والقاهرة ، ١٣٠٢ هـ

٥ ـ ... : أسد الغابة في معرفة الصحابة ، القاهرة ، ١٢٨٠ ـ ١٢٨٦

٦ ـ ابن الأحمر ( أبو الوليد إسماعيل ) : روضة النسرين في دولة بني مرين تحقيق الأستاذ عبد الوهاب بن منصور ، الرباط ، ١٩٦٢

٧ ـ ابن الخطيب ( لسان الدين محمد ) : اللمحة البدرية في الدولة النصرية ، القاهرة ١٣١٧ هـ

٨ ـ ... : الإحاطة في أخبار غرناطة ، الجزء الأول ، تحقيق الأستاذ محمد عبد الله عنان ، القاهرة ١٩٥٥

٩ ـ ... : كتاب أعمال الأعلام ، فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام ، نشره ليفي بروفنسال ، بيروت ١٩٥٦

١٠ ـ ... : كتاب أعمال الأعلام ، فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام ، القسم الثالث ، تحقيق الدكتور أحمد مختار

العبادي ، والأستاذ محمد ابراهيم الكتاني ، الدار البيضاء ، ١٩٦٤

١١ ـ ابن الخطيب : مشاهدات لسان الدين بن الخطيب في بلاد المغرب والأندلس ، مجموعة من رسائله ، نشرها وحققها الدكتور مختار العبادي ، الاسكندرية ، ١٩٥٨

١٢ ـ ابن الصغير المالكي : سيرة الأئمة الرستميين ، باريس ، ١٩٠٨

١٣ ـ ابن الفقيه الهمذاني ( أبو بكر أحمد بن ابراهيم ) . مختصر تاريخ البلدان ، ليدن ، ١٨٨٥

١٤ ـ ابن القلانسي (أبو يعلى حمزة) : ذيل تاريخ دمشق ، بيروت ، ١٩٠٨

١٥ ابن القوطية القرطبي ( أبو بكر محمد ) : تاريخ افتتاح الأندلس، نشره دون خليان ريبرا ، مدريد، ١٩٢٦

١٦ ـ ابن بسام ( أبو الحسن علي الشنتريني ) : كتاب الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، القسم الأول ، الجزء الرابع ، القاهرة ، ١٩٤٥

١٧ ـ ابن بلقين ( الأمير عبد الله الزيري ) : مذكرات الأمير عبد الله الزيري ، المسماة بكتاب التبيين ، نشره وحققه الأستاذ ليفي بروفنسال ، القاهرة ، ١٩٥٥

١٨ ـ ابن تغري بردي(أبو المحاسن يوسف) : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، نشر دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ١٩٥٦

١٩ ـ ابن حبيب ( عبد الملك ) : أخبار فتح الأندلس نشرها الدكتور محمود علي مكي في مقاله :

Egipto y los orígenes de la historiografía arabigo-Española.
صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد، المجلد الخامس ، ١٩٥٧

٢٠ — ابن حزم ( أبو محمد علي بن أحمد ) : جمهرة أنساب العرب ، تحقيق الاستاذ ليفي بروفنسال ، القاهرة ، ١٩٤٨

٢١ — ابن حوقل النصيبي : صورة الأرض ، طبعة بيروت ، ١٩٦٢

٢٢ — ابن خلدون ( عبد الرحمن بن محمد ) : التعريف بابن خلدون ، ورحلته غربا وشرقا ، تحقيق محمد بن تاويت الطنجي ، القاهرة ، ١٩٥١

٢٣ — ... : كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر ، طبعة أجزاء ، طبعة بولاق ، ١٢٨٤ هـ ( ١٨٧٠م ) وطبعة بيروت ، منشورات دار الكتاب اللبناني ، ١٩٥٨

٢٤ — ابن خلكان ( أبو العباس أحمد بن ابراهيم ) : وفيات الأعيان ، وأنباء أبناء الزمان ، نشره الأستاذ محمد محيي الدين عبد الحميد ، القاهرة ، ١٩٤٨

٢٥ — ابن رسته ( أبو علي أحمد بن عمر ) : كتاب الأعلاق النفيسة ، نشره دي غويه ، ليدن ، ١٨٨١ — ١٨٨٢

٢٦ — ابن صاحب الصلاة ، مدونة عن أعمال خليفتي الموحدين أبي يعقوب يوسف ، وأبي يوسف يعقوب المنصور ، نشرها الأب أنطونية

منشور بعنوان : Sevilla y sus monumentos arabes

الاسكوريال ، ١٩٣٠

٢٧ — ابن طباطبا ( محمد بن علي ) : كتاب الفخري في الآداب السلطانية ، طبعة بيروت ، ١٩٦٠

٢٨ — ابن عبد الحكم ( عبد الرحمن بن عبد الله ) : فتوح مصر والمغرب ،

تحقيق الأستاذ عبد المنعم عامر ، القاهرة ١٩٦١ ، وطبعة Albert Calvet بعنوان Conquête de l'Afrique du Nord et l'Espagne ، الجزائر ، ١٩٤٧

٢٩ ـ ابن عذارى ( أبو العباس أحمد ) : البيان المغرب في أخبار المغرب ، تحقيق ليفي بروفنسال ـ كولان ، جزآن ، ليدن ١٩٤٨ ـ ١٩٥١ وطبعة دار صادر ، جزآن ، بيروت ، ١٩٥٠

٣٠ ـ ... : البيان المغرب في أخبار المغرب ، الجزء الثالث ، باريس ١٩٣٠

٣١ ـ ابن قتيبة الدينوري ( أبو محمد عبد الله بن مسلم ) : كتاب الإمامة والسياسة ج ٢ ، القاهرة ١٩٠٧ ، والنص الخاص بفتح الاندلس من كتاب الإمامة والسياسة الوارد في كتاب « تاريخ افتتاح الاندلس » لابن القوطية ، نشر خليان ريبيرا ، مدريد ، ١٩٢٦

٣٢ ـ أبو العرب تميم : طبقات علماء إفريقية ، طبعة ابن شنب ، الجزائر ، ١٩١٥

٣٣ ـ أبو الفداء ( اسماعيل بن علي ) : المختصر في أخبار البشر ، بيروت ١٩٥٧

٣٤ ـ الادريسي ( الشريف أبو عبد الله محمد ) : صفة المغرب والاندلس مأخوذة من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق نشره دي غوبه ودوزي ، ليدن ١٨٦٦ ، ونسخة بعنوان صفة المغرب وأرض السودان ومصر والاندلس ، ليدن ١٨٩٤

٣٥ ـ الاصطخري ( أبو اسحق ابراهيم بن محمد ) : المسالك والممالك ، تحقيق الاستاذ محمد جابر عبد العال الحيني ، القاهرة ١٩٦١

٣٦ – البكرى ( أبو عبيد الله عبد الله بن عبد العزيز ) : المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب ، نشره دى سلان de Slane بعنوان :
Description de l'Afrique Septentrionale ، الجزائر ، ١٩١١

٣٧ – ... : معجم ما استعجم ، مادة تاهرت

٣٨ – البلاذرى ( أحمد بن يحيى بن جابر ) : كتاب فتوح البلدان ، تحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد ، ٣ أجزاء ، القاهرة ، ١٩٥٦

٣٩ – البيذق ( أبو بكر الصنهاجى ) : كتاب أخبار المهدى بن تومرت ، تحقيق الاستاذ ليفى بروفنسال ، باريس ، ١٩٢٨

٤٠ – الجزنائى (أبو الحسن على) : كتاب زهرة الآس فى بناء مدينة فاس ، نشره للفريد بيل ، الجزائر ، ١٩٢٢

٤١ – الحميدى ( أبو عبد الله محمد بن فتوح ) : جذوة المقتبس فى ذكر رجال الأندلس ، حققه محمد بن تاويت الطنجى ، القاهرة ، ١٩٦٦م

٤٢ – الحميرى ( ابن عبد المنعم ) : صفة جزيرة الأندلس ، من كتاب الروض المعطار فى خبر الأقطار ، ليفى بروفنسال ، القاهرة ، ١٩٣٧

٤٣ – الدباغ (عبد الرحمن الأنصارى) : معالم الإيمان فى معرفة أهل القيروان ، تونس ، ١٩٠١

٤٤ – السلاوى ( أبو العباس أحمد بن خالد الناصرى ) : الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى ، الدار البيضاء ، ١٩٥٠

٤٥ – السيوطى ( جلال الدين ) : حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة ، جزءان ، مصر ، ١٣٢٧ هـ

٤٦ ـ الصفير ( محمد ) : كتاب نزهة الحادى بأخبار ملوك القرن الحادى ، نشره Houdas ، باريس ، ١٨٨٨

٤٧ ـ الطبرى ( محمد بن جرير ) : تاريخ الأمم والملوك ، القاهرة ١٩٣٩

٤٨ ـ الطرابلسى ( أبو عبد الله محمد بن خليل ) : تاريخ طرابلس الغرب المسمى التذكار فيمن ملك طرابلس وما كان بها من الأخبار ، نشره الأستاذ الطاهر أحمد الزاوى ، القاهرة ، ١٣٤٩ هـ

٤٩ ـ عبيد الله بن صالح : نص جديد عن فتح العرب للمغرب ، نشره الأستاذ ليفى بروفنسال ، وعلق عليه الدكتور حسين مؤنس ، فى صحيفة المعهد المصرى للدراسات الإسلامية بمدريد ، ١٩٥٩

٥٠ ـ الغزالى ( أبو حامد ) : إحياء علوم الدين ، ج ٤ ، طبعة مصر ، ١٣٠٢ هـ

٥١ ـ القلقشندى ( أبو العباس أحمد ) : صبح الأعشى فى صناعة الإنشاء ، ج ٥ ، طبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ١٩١٣ ـ ١٩١٩

٥٢ ـ المالكى ( أبو بكر عبد الله بن أبى عبد الله ) : كتاب رياض النفوس ، تحقيق الدكتور حسين مؤنس ، القاهرة ، ١٩٥١

٥٣ ـ مجهول : أخبار مجموعة فى فتح الأندلس ، نشره دون لافونتى القنطرة Lafuente Alcantara ، مدريد ، ١٨٦٧

٥٤ ـ مجهول : كتاب الحلل الموشية فى ذكر الأخبار المراكشية ، طبعة تونس ، ١٣٢٩ هـ

٥٥ ـ مجهول : كتاب الذخيرة السنية فى تاريخ الدولة الزيانية ، تحقيق محمد ابن أبى شنب ، الجزائر ، ١٩٢٠

٥٦ ـ مجهول : كتاب الاستبصار فى عجائب الأمصار المكتب مراكش من كتاب للقرن السادس الهجرى ، نشره وعلق عليه الدكتور سعد زغلول عبد الحميد ، الاسكندرية ، ١٩٥٨

٥٧ ـ مجهول : فتح الأندلس، نشره دون خوان كين جنثالث،الجزائر ١٨٨٩

٥٨ ـ مجهول : مدونة تاريخية عن عصر عبد الرحمن الناصر ،تحقيق الأستاذان ليفى بروفنسال وغرسية جومث ، مدريد ، ١٩٤٠

٥٩ ـ المقدسى ( شمس الدين أبي عبد الله ) : أحسن التقاسيم لمعرفة الأقاليم، ليدن ، ١٩٠٦

٦٠ ـ المراكشى ( محيي الدين عبد الواحد بن على ) : كتاب المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ، تحقيق الأستاذان محمد سعيد العريان ، ومحمد العربى العلمى ، القاهرة ١٩٤٩

٦١ ـ المسعودى ( أبو الحسن على ) : كتاب مروج الذهب ومعادن الجوهر ، تحقيق الأستاذ محيي الدين عبد الحميد ، القاهرة ، ١٩٥٨

٦٢ ـ المقرى ( أحمد بن محمد ) : نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب ، تحقيق الأستاذ محمد محيي الدين عبد الحميد ، القاهرة ، ١٩٤٩

٦٣ ـ المقريزى (تقى الدين أحمد بن على) : الخطط المقريزية ، المسماة بالمواعظ والاعتبار بذكر الخطـــط والآثار ، بيروت ، منشورات مكتبة العرفان .

٦٤ ـ ... : اتعاظ الحنفا بذكر الأئمة الفاطميين الخلفا ، نشره الدكتور جمال الدين الشيال ، القاهرة ، ١٩٤٨

٦٥ – المقريزي : إغاثة الأمة بكشف الغمة ، نشره الدكتور محمد مصطفى زيادة ، والدكتور جمال الدين الشيال ، القاهرة ، ١٩٤٠

٦٦ – النويري ( أحمد بن عبد الوهاب ) : نهاية الأرب في فنون الأدب ، القاهرة ، مطبعة دار الكتب المصرية ، ١٩٢٣

٦٧ – الواقدي : فتوح الشام ، ج ١ ، طبعة القاهرة ، ١٣٦٨ هـ

٦٨ – ... : فتوح إفريقية ، ج ١ ، طبعة تونس ، ١٣١٥ هـ

٦٩ – الونشريشي : أسنى المتاجر في بيان أحكام من غلب على وطنه النصارى وإياجر ، تحقيق الدكتور حسين مؤنس ، صحيفة المعهد المصري بمدريد ، ١٩٥٧

٧٠ – ياقوت ( شهاب الدين أبي عبد الله الحموي ) : معجم البلدان ، ٥ مجلدات بيروت ، ١٩٥٥ – ١٩٥٨

٧١ – اليعقوبي ( أحمد أبي يعقوب بن جعفر ) : كتاب البلدان ، ليدن ١٨٩١

## ثانيا : المراجع العربية الحديثة والأوربية المعربة

٧٢ – أدهم ( الأستاذ علي ) : المنصور بن أبي عامر ، مقال بدائرة معارف الشعب ، عدد ٩٧ ، القاهرة ١٩٥٩

٧٣ – أرسلان ( الأمير شكيب ) : تاريخ غزوات العرب ، مصر ، ١٣٤٢ هـ

٧٤ – أشباخ ( يوسف ) : تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين ، ترجمة الأستاذ محمد عبد الله عنان ، القاهرة ، ١٩٥٨

٧٥ ـ الباروني ( الشيخ أبو الربيع سليمان بن عبـــد الله ) : مختصر تاريخ الإباضية ، تونس ، ١٩٠٨

٧٦ ـ ... : كتاب الأزهار الرياضية في أئمة وملوك الإباضية ، بدون تاريخ

٧٧ ـ بالنثيا ( آنخل جنثالث ) : تاريخ الفكر الأندلسي ، ترجمة الدكتور حسين مؤنس ، القاهرة ، ١٩٥٥

٧٨ ـ التازي ( الأستاذ عبد الهادي ) : نظرة جديدة في بناء جامعة القرويين ، صحيفة المعهد المصري للدراسات الإسلامية ، مدريد ، ١٩٥٨

٧٩ ـ ... : الحروف المنقوشة بالقرويين في خدمة الآثار ، المؤتمر الثالث للآثار في البلاد العربية ، القاهرة ، ١٩٦٦

٨٠ ـ حسن (دكتور حسن ابراهيم) وشرف ( الأستاذ طـــه ) : عبيد الله المهدي ، إمام الشيعة الإسماعيلية ، القاهرة ، ١٩٤٧

٨١ ـ حسن (دكتور حسن ابراهيم) : تاريخ الدولة الفاطمية ، القاهرة ، ١٩٥٨ ؛

٨٢ ـ دوزي (الأستاذ محمد علي) : تاريخ المغرب الكبير ، ج ٢ ، القاهرة ، ١٩٦٣

٨٣ ـ الرشيد ( الأستاذ اسماعيل بن محمد ) : جلاء الظلام الدامس في موجز تاريخ المغرب إلى عصر محمد الخامس ، مطبعة فضالة ، ١٩٥٧

٨٤ ـ الزاوي ( الأستاذ الطاهر أحمد ) : تاريخ الفتح العـــربي في ليبيا ، القاهرة ، ١٩٦٣

٨٥ ـ زامباور : معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي ، ج ١ ، القاهرة ، ١٩٥١

٨٦ ـ زيادة ( دكتور نقولا ) : الجغرافية والرحلات عند العرب ، بيروت ، ١٩٦٢

٨٧ ـ سالم ( دكتور السيد عبد العزيز ) : طارق بن زياد ، مقال بدائرة معارف الشعب عدد ٦٧ ، القاهرة ١٩٥٩ ، ـ عرسية ، مقال بدائرة معارف الشعب عدد ٦٤ ـ الهدى بن تومرت ، مقال بدائرة معارف الشعب رقم ١٩٦٠ ـ الفنون والصناعات بالأندلس ، مقال بدائرة معارف الشعب ، عدد ٦٤

٨٨ ـ ... : المسجد الجامع بالقيروان ، وجامع الزيتونة بتونس : مقالان بكتاب بيوت الله مساجد ومعاهد ، القاهرة ١٩٦٤ ، كتاب الشعب عدد ٧٨

٨٩ ـ ... : المساجد والقصور بالأندلس ، سلسلة إقرأ ، عدد ١٩٠ ، القاهرة ، ١٩٥٨

٩٠ ـ ... : أثر الفن الخلافي بقرطبة في العمارة المسيحية بإسبانيا وفرنسا ، المجلة ، العدد ١٤ ، ١٩٥٨

٩١ ـ ... : مسجد الدجين بطليطلة ، مقال بمجلة كلية الآداب ، جامعة الاسكندرية ، ١٩٥٨

٩٢ ـ ... : روائع الآثار الإسلامية بجمهورية الجزائر العربية ، المجلة ، العدد ٢٩ ، ١٩٥٩

٩٣ ـ ... : المغرب الإسلامي ، كتاب الشعب عدد ١٣٨ ، ١٣٩ ، القاهرة ١٩٦١

٩٤ ـ ... : المدن المصرية ، نظرة عامة عن أصلها وتطورها منذ الفتح العربي حتى الفتح العثماني ، القاهرة ، ١٩٥٩

٩٥ ـ ... : تاريخ الاسكندرية وحضارتها في العصر الإسلامي ، الاسكندرية ١٩٦١

٩٦ ـ سالم ( دكتور السيد عبد العزيز ): تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ، بيروت ، ١٩٦٢

٩٧ ـ ... : طرابلس الشام : تاريخها وآثارها في العصر الإسلامي ، مجلة كلية الآداب ، جامعة الإسكندرية ، ١٩٦٣

٩٨ ـ ... : القيم الجمالية في فن العمارة الإسلامية ، من محاضرات الموسم الثقافي بجامعة بيروت العربية ، ١٩٦٢ ـ ١٩٦٣

٩٩ ـ ... : تخطيط مدينة الإسكندرية وعمرانها في العصر الإسلامي ، مكتبة المدن الإسلامية ، العدد الأول ، بيروت ، ١٩٦٤

١٠٠ ـ ... : إحدى روائع الفن العالمي بالمغرب الأقصى باشبيلية ، المجلة ، العدد التاسع ، ١٩٥٧

١٠١ ـ ... : وسائل الدفاع الإسلامي في العصور الوسطى ، مجلة الجيش ، عدد ٨٢ ، ٨٣

١٠٢ ـ ... : الآثار الإسلامية في دير سانت كاترين بطور سينا ، مجلة العلوم ، العدد الأول ، يناير ١٩٦٥ ، ص ١ ـ ٩

١٠٣ ـ سرور ( الدكتور جمال الدين ) : مصر في عصر الدولة الفاطمية ، القاهرة ، ١٩٦٠

١٠٤ ـ ... : النفوذ الفاطمي في بلاد الشام والعراق في القرنين الرابع والخامس بعد الهجرة ، القاهرة ، ١٩٥٩

١٠٥ ـ الشرقاوي ( دكتور محمد عبد المنعم ) ، الصياد ( دكتور محمد محمود ) : ملامح المغرب العربي ، الإسكندرية ، ١٩٥٩

١٠٦ ـ الشيال ( دكتور جمال الدين ) : مصر في العصر الفاطمي ، بحث في موسوعة تاريخ الحضارة المصرية ، المجلد الثاني ، الجزء السادس ، القاهرة ١٩٦٣

١٠٧ ـ الطنجي ( الأستاذ محمد بن تاويت ) : دولة الرستميين ، صحيفة المعهد المصري بمدريد ، المجلد الخامس ، ١٩٥٧

١٠٨ ـ العبادي ( دكتور أحمد مختار ) : سياسة الفاطميين نحو المغرب والأندلس ، صحيفة المعهد المصري للدراسات الإسلامية بمدريد ، مدريد ١٩٥٧

١٠٩ ـ ... : العمالقة في إسبانيا وعلاقتهم بحركة الشعوبية ، مدريد ، ١٩٥٣

١١٠ ـ ... : نظام الخلافة في المغرب الإسلامي في العصور الوسطى ، فصل من كتاب فلاسفة الإسلام في المغرب العربي .

١١١ ـ ... : مؤلفات لسان الدين بن الخطيب في المغرب ، مقال في مجلة Hesperis, 3e, 4e trimestres, 1958

١١٢ ـ ... : دراسة حول كتاب الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية وأهميته في تاريخ المرابطين والموحدين ، مجلة تطوان ، العدد الخامس ، ١٩٦٠

١١٣ ـ العبادي ( الأستاذ عبد الحميد ) الجمل في تاريخ الأندلس ، سلسلة المكتبة التاريخية ، العدد الأول ، القاهرة ، ١٩٥٨

١١٤ ـ عبد الحميد ( دكتور سعد زغلول ) : العلاقة بين صلاح الدين وأبي يوسف يعقوب المنصور ، مجلة كلية الآداب ، جامعة الإسكندرية المجلدان السادس والسابع ، ١٩٥٨

١١٥ ـ ... : فترة ساعة من تاريخ المغرب ، مجلة كلية الآداب والتربية بالجامعة الليبية ، المجلد الأول ، بنغازي ، ١٩٥٨

١١٦ ـ عبد الحميد ( الدكتور سعد زغلول ) : فتح العرب للمغرب بين الحقيقة التاريخية والاسطورة الشعبية ، مقال فى مجلة كلية الآداب ، جامعة الاسكندرية ، العدد ١٦ ، ١٩٦٢ ـ ١٩٦٣

١١٧ ـ عبد الوهاب ( الأستاذ حسن حسنى ) : خلاصة تاريخ تونس ، القاهرة ، ١٩٦٠

١١٨ ـ عبد الوهاب ( الاستاذ حسن ) : الإسكندرية فى العصر الإسلامى ، مجلة الكتاب ، ١٩٤٩

١١٩ ـ فشل ( ولتر ج. ) : نشأة ابن خلدون فى مصر المملوكية ، مقال فى كتاب دراسات إسلامية ، ترجمة الأستاذ أنيس فريحة وآخرين ، بيروت ، ١٩٦٠

١٢٠ ـ فكرى ( دكتور أحمد ) : المسجد الجامع بالقيروان ، القاهرة ، ١٩٣٦

١٢١ ـ ... : مساجد القاهرة ومدارسها ( المدخل ) الاسكندرية ، ١٩٦١

١٢٢ ـ الكعاك ( الأستاذ عثمان ) : مراكز الثقافة فى المغرب ، مطبوعات معهد الدراسات العربية العالية ، القاهرة ، ١٩٥٨

١٢٣ ـ لويس ( أرشيبالد ) : القوى البحرية والتجارية فى حوض البحر المتوسط ، ترجمة الأستاذ أحمد محمد عيسى ، القاهرة ، ١٩٦٠

١٢٤ ليفى بروفنسال : مجموعة رسائل موحدية ، من كتاب الدولة المؤمنية ، الرباط ، ١٩٤٦

١٢٥ ـ ... : نص جديد عن فتح العرب للمغرب ، مقال بصحيفة المعهد المصرى للدراسات الإسلامية فى مدريد ، المجلد الثانى ، ١٩٥٤

١٢٦ ـ ليفي بروفنسال : الإسلام في المغرب والأندلس، ترجمة الدكتور السيد عبد العزيز سالم والأستاذ محمد صلاح الدين حلمي ، القاهرة ١٩٥٨

١٢٧ ـ ماجد ( دكتور عبد المنعم ) : التاريخ السياسي للدولة العربية ، ج٢، القاهرة ، ١٩٦٠

١٢٨ ـ محمود ( دكتور حسن أحمد ) قيام دولة المرابطين ، صفحة مشرقة من تاريخ المغرب في العصور الوسطى ، القاهرة ١٩٥٧

١٢٩ ـ المرزوقي ( الأستاذ محمد ) : تونس ، القاهرة ١٩٦٢

١٣٠ ـ المنوني ( الأستاذ محمد محي الدين ) : تاريخ إفريقية الشمالية ، الرباط ، ١٩٥٠

١٣١ ـ مكي ( دكتور محمود علي ) : التشيع في الأندلس ، صحيفة المعهد المصري للدراسات الإسلامية بمدريد ، المجلد الثالث ، ١٩٥٤

١٣٢ ـ ... : وثائق تاريخية جديدة عن عصر المرابطين ، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد ، المجلد السابع ، العدد ١ ، ٢ ، ١٩٥٩

١٣٣ ـ مؤنس ( دكتور حسين ) فتح العرب للمغرب ، القاهرة ١٩٤٧

١٣٤ ـ ... : سبع وثائق جديدة عن دولة المرابطين وأيامهم في الأندلس ، صحيفة المعهد المصري للدراسات الاسلامية بمدريد ، المجلد الثاني ، ١٩٥٤

١٣٥ ـ ... : فجر الأندلس ، القاهرة ، ١٩٥٩

١٣٦ ـ النجار (الأستاذ عبد الوهاب) : الخلفاء الراشدون ، القاهرة ، ١٩٦٠

# ثالثا - المراجع الأوربية الحديثة


1. Bermejo ( Joaquin Vallvé ) : Suqut al-Bargawati, rey de Ceuta, al-Andalus, vol. XXVIII, 1963.

2. Blaye ( Agundo ) : Manual de la historia de Espana, t. I, Madrid, 1947.

3. Bolgues ( Francisco Pons ) : Ensayo bio-bibliografico sobre los historiadores y geografos arabigo espanoles, Madrid 1898.

4. Codera ( Francisco ) : Limites probables de la conquista arabe en la cordillera pirenaica, en Estudios criticos de la historia arabe espanola, VIII, Madrid, 1910.

5. Codera ( Francisco ) : Decadencia y desaparicion de los Almoravides en Espana, Zaragoza, 1899.

6. Creswell ( K.A.C. ) : A short account of early Muslim architecture, Pelican Books, 1958.

7. Diehl (charles) : Histoire du moyen âge, t. III, Paris, 1932.

8. Dozy ( R. ) : Histoire des Musulmans d'Espagne, ed. Levi-Provençal, Leyde, 1932.

9. Fikry ( Ahmed ) : La mosquée Az-Zaytouna à Tunis : recherches archéologiques, dans Egyptian Society of historical studies, II, le Caire, 1952.

10. Julien ( André ) : Histoire de l'Afrique du Nord ( Jusqu' à la conquête arabe ), Paris, 1951.

11. Julien ( André ) : Histoire de l'Afrique du Nord ( depuis la conquête arabe ), Paris, 1952.

12. Lambert ( Elie ) : l'Architecture musulmane du Xe siècle à cordoue et a Tolède, dans Gazette des Beaux arts, t. XII, 1925.

13. --- : Les coupoles des grandes mosquées de Tunisie et d'Espagne, au IX e et Xe Siècles, Hesperis, t. XXII, fasc. 2, 1936.

14. --- : Les Origines de la croisée d'ogives, Offices des Instituts d'Archeologie et d'histoire d'art, No 8-9, 1938 - 1939.

15. --- : Les mosquées de type andalou en Espagne et en Afrique du Nord, al-Andalus, vol. XIV, 1949.

16. --- : La grande mosquée de Cordoue et l'art byzantin, Actes du VI e Congrès International, Paris 1951.

17. --- : L'art de l'Islam Occidental, Annales de l'Université de Paris, 1953.

18. Lévi-Provençal (E.) : La politica africana de Abd al - Rahman III, al-Andalus, vol XI, fasc. 2, 1946.

19. --- : Islam d'Occident, Paris, 1948.

20. --- : Extraits du historiens arabes du Maroc, Paris, 1948.

21. --- & Garcia Gomez et Olivar Asin : Nouvelles sobre la batalla llamada al-Zallaqa, al Andalus, 1950, vol. XV, fasc. I.

22. --- : Histoire de l'Espagne Musulmane, 3 vols., Leiden-Paris, 1950.

23. Lévi Provençal & García Gomez : Una Crónica anónima de Abd al Rahmán III al-Nasir, Madrid, 1950.

24. Makki (Mahmud) : Egipto y los orígenes de la historiografía arabe española, revista del Instituto de Estudios Islámicos en Madrid, vol. V, 1957.

25. Marçais (Georges) : Article Ribat, dans l'Encyclopédie de l'Islam.

26. ... : Coupoles et Plafonds de la grande mosquée de Kairouan, Tunis, 1926.

27. ... : Les faïences à reflets métalliques de la grande mosquée de Kairouan, Paris, 1925.

28. ... : La Berbérie musulmane et l'Orient au Moyen âge, Paris, 1946

29. ... : L'architecture musulmane d'Occident, Paris, 1954.

30. Manlow (Boris) : La Qoubba Baroudiyyin a Marrakech, al-Andalus, vol. XII, 1948.

31. Millet (René) : Les Almohades Paris, 1923.

32. Miranda (Ambrosio Huici) : Invasion de los Almoravides y la batalla de Zallaka, Hesperis, 1-2 trimestre, t. XI, 1953.

33. ... : Al Hulal al-Mawsiyya, crónica arabe de las dinastías almoravide, almohade y benimerin, Tetuan, 1953.

34. ... : La Campana de Alarcos, revista del Instituto Egipcio de Madrid, vol. II, 1954.

35. Moreno (Manuel Gomez) : El Panteon Real de las Huelgas de Burgos, Madrid, 1946.

36. Moreno (M.G.) : Ars Hispaniae, t. III, arte español hasta los Almohades, Madrid, 1951.

37. Pellegrin : Histoire de la Tunisie, Tunis, 1942.

38. Pidal (Ramon Menendez) : Espana del Cid, 2vols., Madrid 1947.

39. " : El Cid Campeador, Coleccion Austral, Buenos Aires, 1950.

40. Ramirez (Mariano Gaspar) : Murcia musulmana, Zaragoza, 1905

41. Saavedra (Eduardo) : Estudio sobre la invasion de los arabes en Espana, Madrid, 1892.

42. Salem (Elsayed Abdel Aziz) : L'architecture à Seville sous les Almohades, Thèse de Doctorat es-Lettres, presentée à l'Université de Paris, 1955 (sous presse).

43. Terrasse (Henri) : Les Arts décoratifs au Maroc, Paris, 1925

44. " : L'art hispano-mauresque, des origines au XIIIe Siecle, Paris, 1932.

45. ... & Basset : Sanctuaires et forteresses almohades, Paris, 1932.

46. " : La grande mosquée des Andalous à Fès, Paris, 1942

47. ... : La grande mosquée de Taza, Paris, 1943.

48. ... : Histoire du Maroc des origines à l'établissement du Protectorat français, Casablanca, 1949.

49. " & Meunié : Recherches archéologiques à Marrakech, Paris, 1952.

50. " : La forteresse almoravide d'Amergo, al Andalus, vol. XVIII, fasc.2, 1953.

51. Terrasse : L'art de l'empire almoravide, ses sources et son évolution, dans Studia Islamica, t. III, 1955.

52. ... : art almoravide et art almohade, al-Andalus, vol. XXVI, 1961.

53. ... : La reviviscence de l'Acanthe dans l'art hispano-mauresque sous les almoravides, al-Andalus, vol. XXVI, 1961.

54. Torres Balbas (Leopoldo) : Arquitectura Andaluza de las épocas almorávide y almohade, al-Andalus, 1946.

55. ... : Alcazabas hispanomusulmanas, al Andalus, vol. XI, 1946.

56. ... : La primitiva mezquita mayor de Sevilla, al-Andalus, vol. XI, 1946.

57. ... : Ars Hispaniae, t. IV : arte almohade, Nasiri et Mudejar, Madrid, 1949.

58. ... : La mezquita de Cordoba y las ruinas de Medinat al-Zahra, Madrid, 1952.

59. ... : El arte de al-Andalus bajo los almorávides, al-Andalus, vol. XVII, 1952.

60. ... : Almería Islámica, al-Andalus, vol. XXII, 1957.

61. La Tourneau (Roger) : Fès avant le Protectorat, Casablanca 1949.

62. Turk (Afif) : el Reino de Zaragoza en el siglo XI de Jesu cristo, tesis para el grado de Doctor, presentada en Madrid, 1956.

# الصـــور

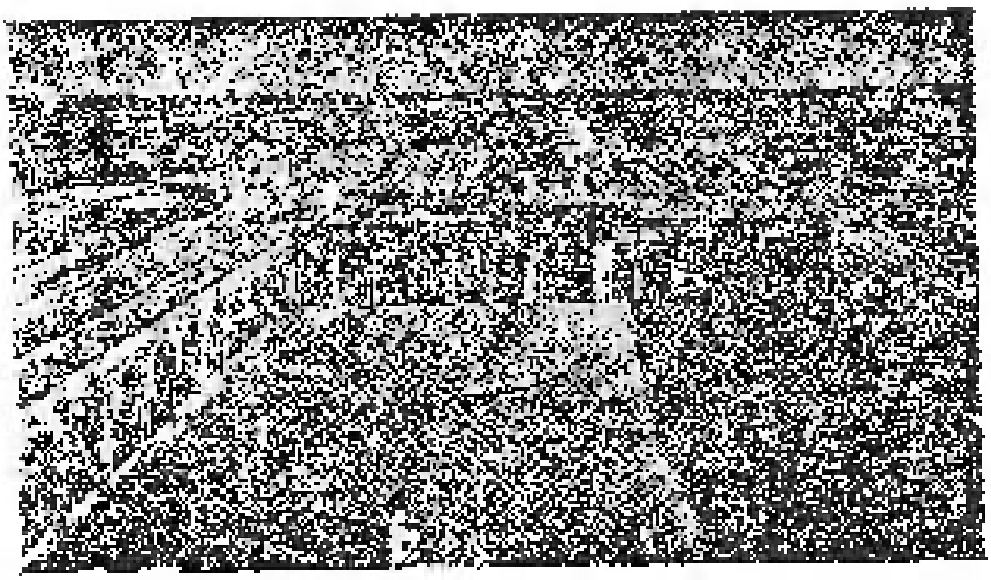

( شكل ١ ) المسجد الجامع بالقيروان : منظر عام من أعلى المئذنة
( عن كروزل )

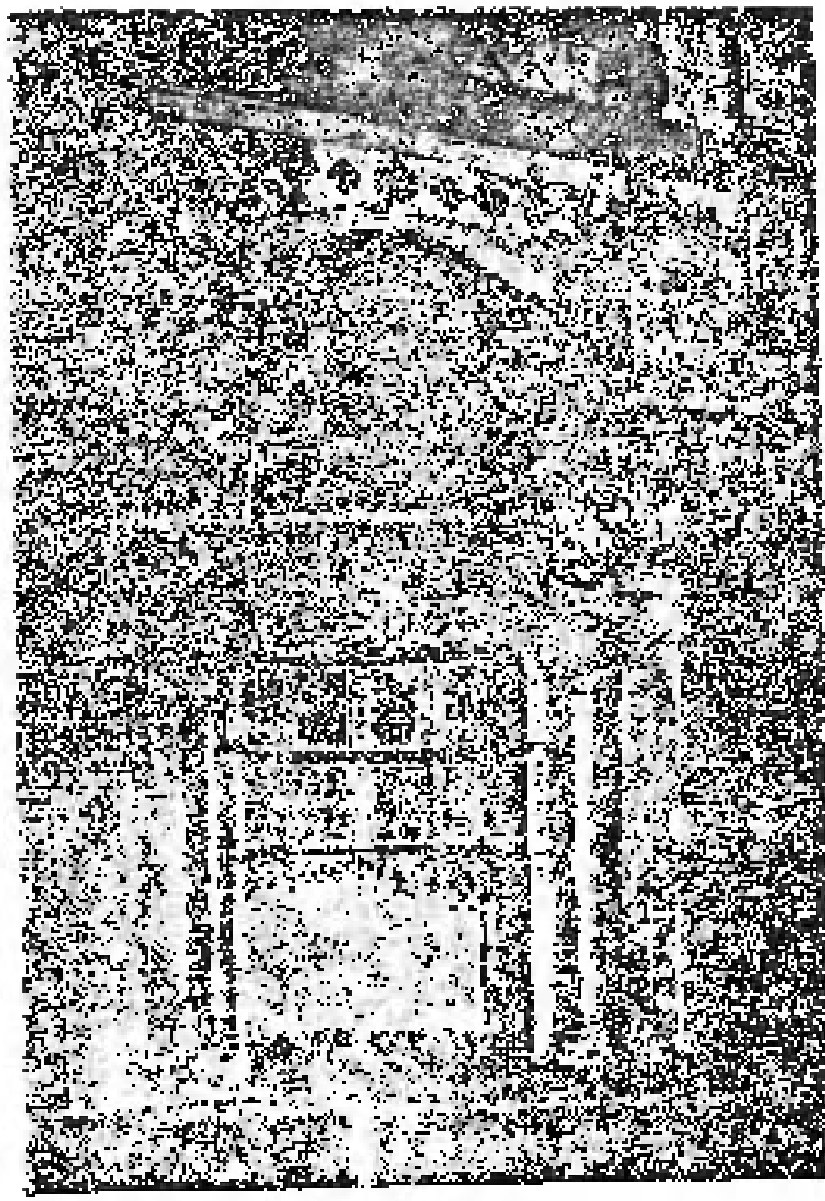

(شكل ٢) المسجد الجامع بالقيروان : جوفة المحراب
(عن كرزول)

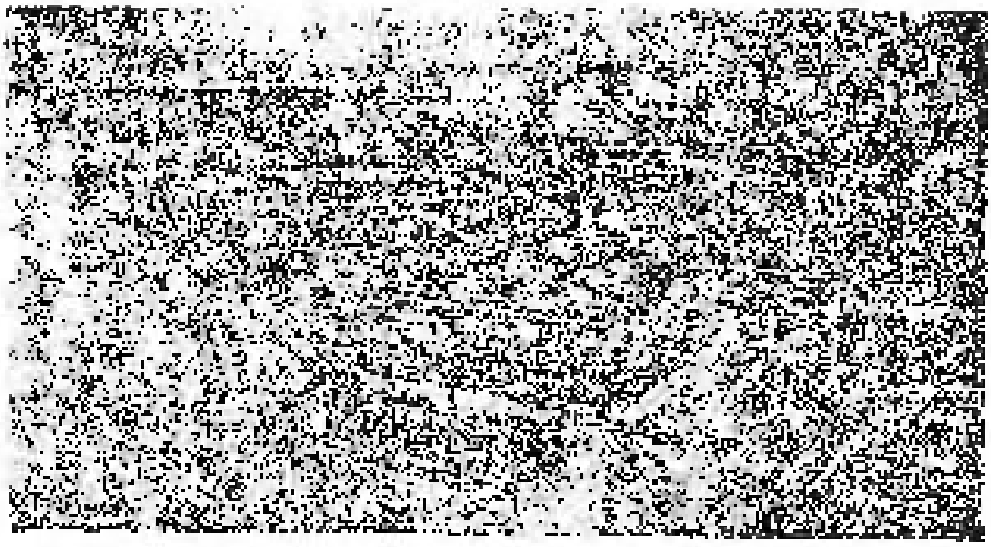

( شكل ٣ ) المسجد الجامع بسوسة : منظر عام
( عن كرزول )

( شكل ٤ ) المسجد الجامع بسوسة : منظر لعقود بيت الصلاة أدنى القبة
( عن كرزول )

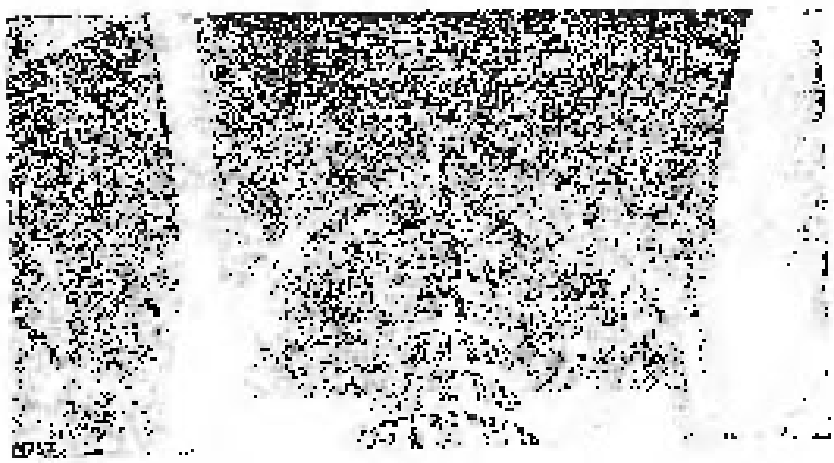

(شكل ٥) المسجد الجامع بسوسة . أحد العقود التي
تقوم عليها القبة ( عن كريزول )

( شكل ٦ ) مسجد الابواب الثلاثة بالقيروان
تفصيل لزخارف واجهة المدخل ( عن كريزول )

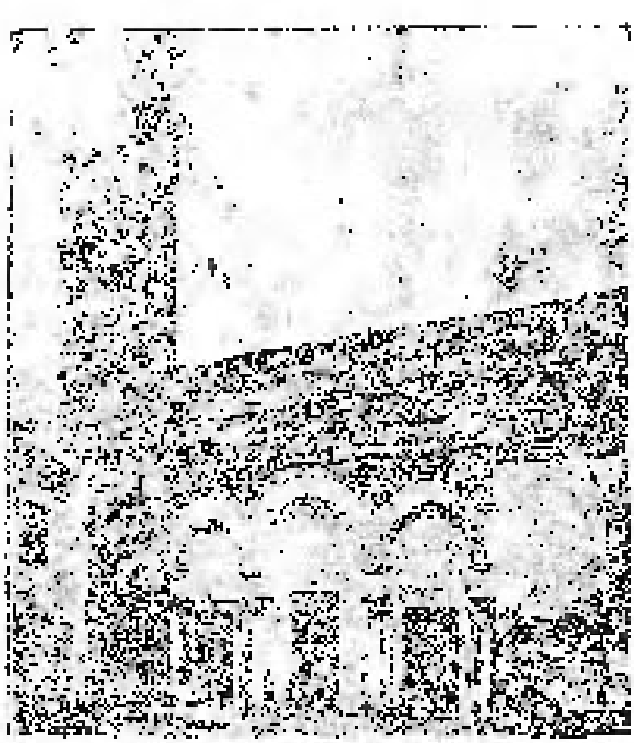

( شكل ٧ ) مسجد الابواب الثلاثة بالقيروان
منظر عام للواجهة ( عن كرزول )

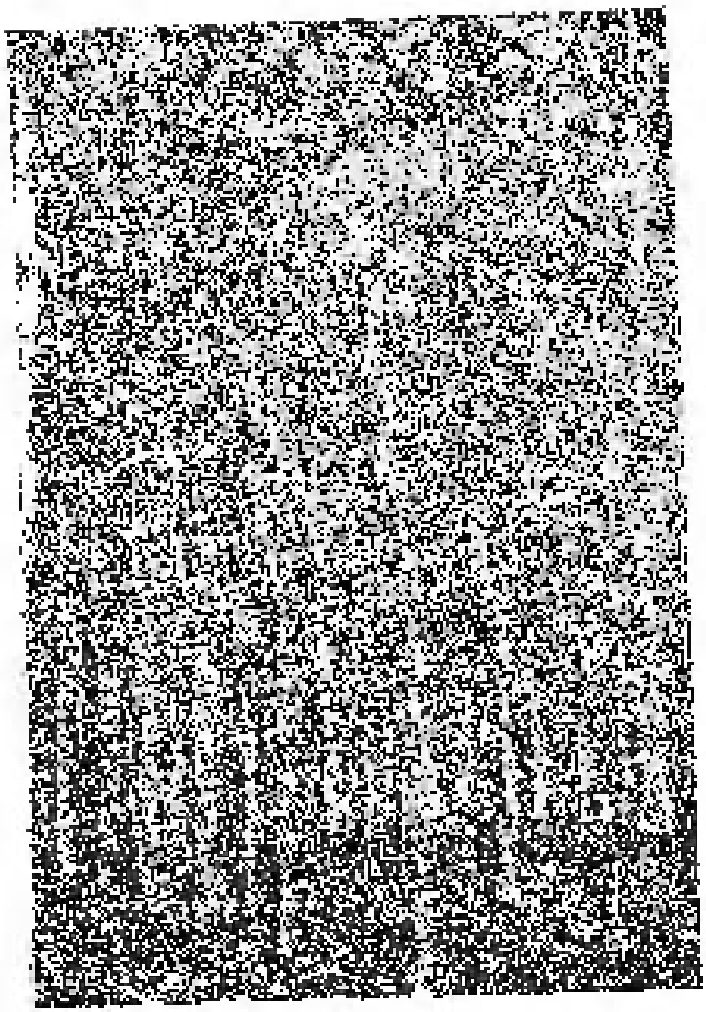

( شكل ٨ ) جامع الزيتونة بتونس :
عقود بيت العمامة ( عن انكرى )

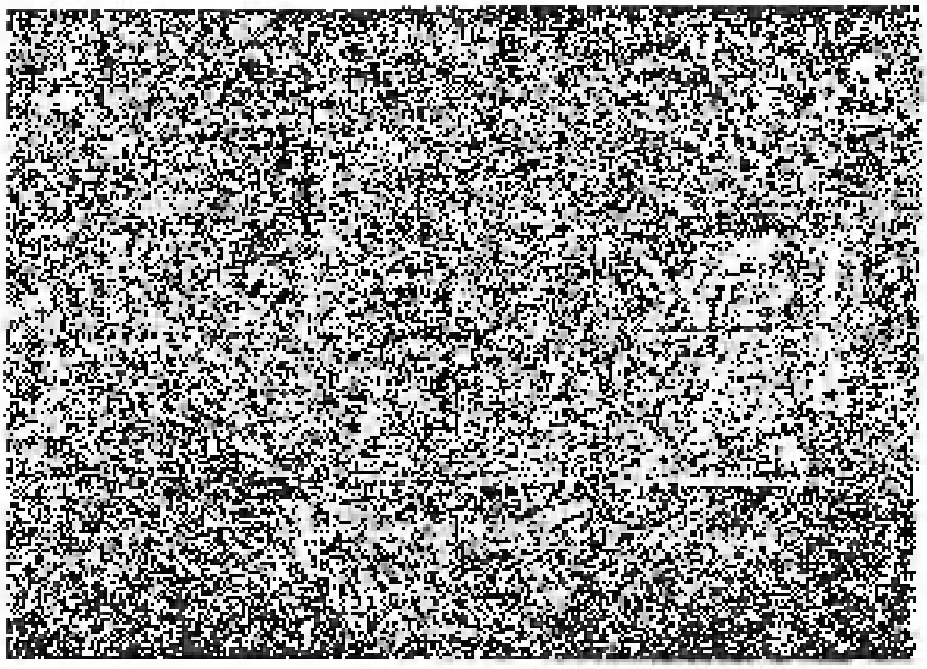

( شكل ٩ ) جامع الزيتونة بتونس : قبة المحراب من الداخل
( عن فكرى )

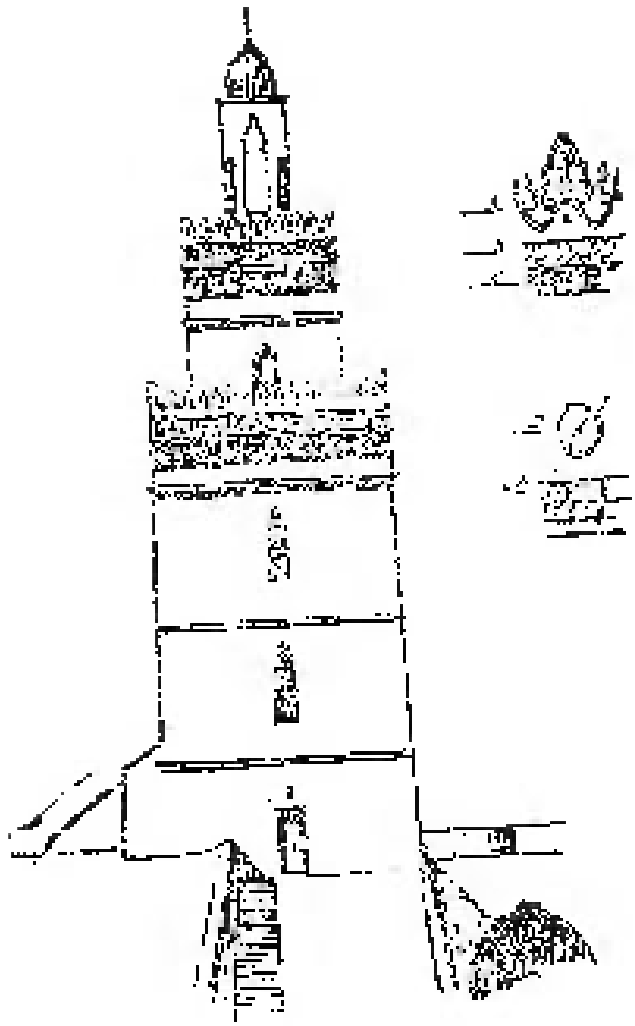

( شكل ١٠ ) المسجد الجامع بمقاطعه
رسم للمئذنة ( عن هارتيه )

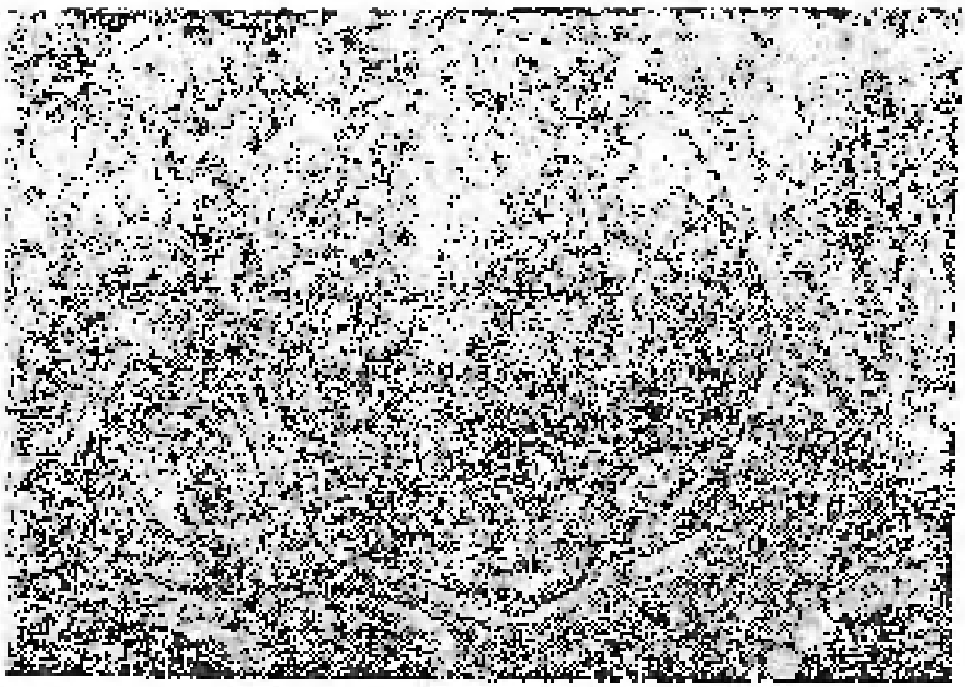

( شكل ١١ ) قبة البرذين بمراكش ( عن مارسيه )

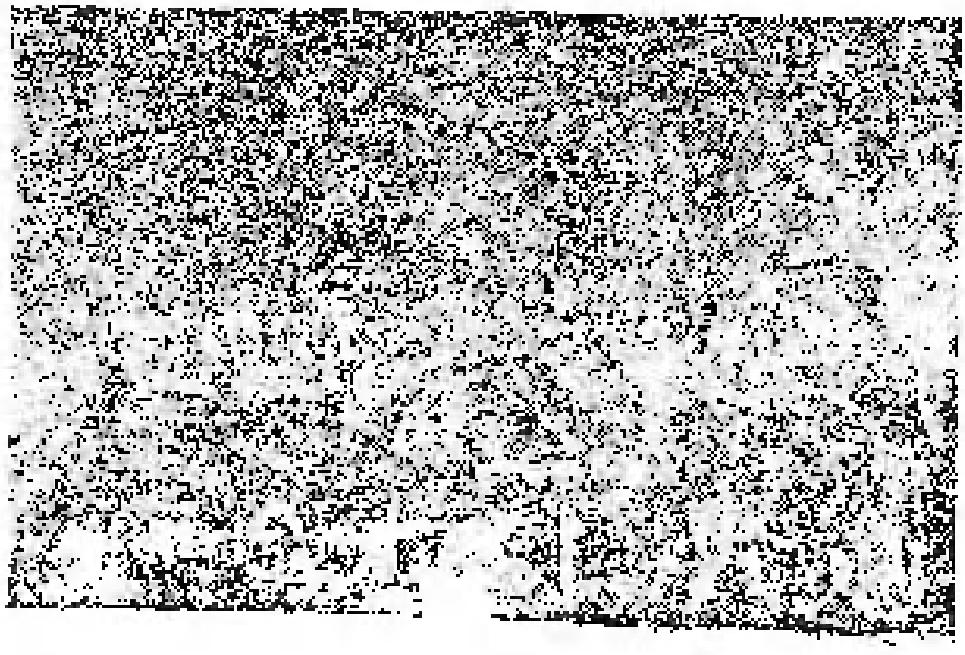

( شكل ١٢ ) قبة البرذين بمراكش ( عن مارسيه )

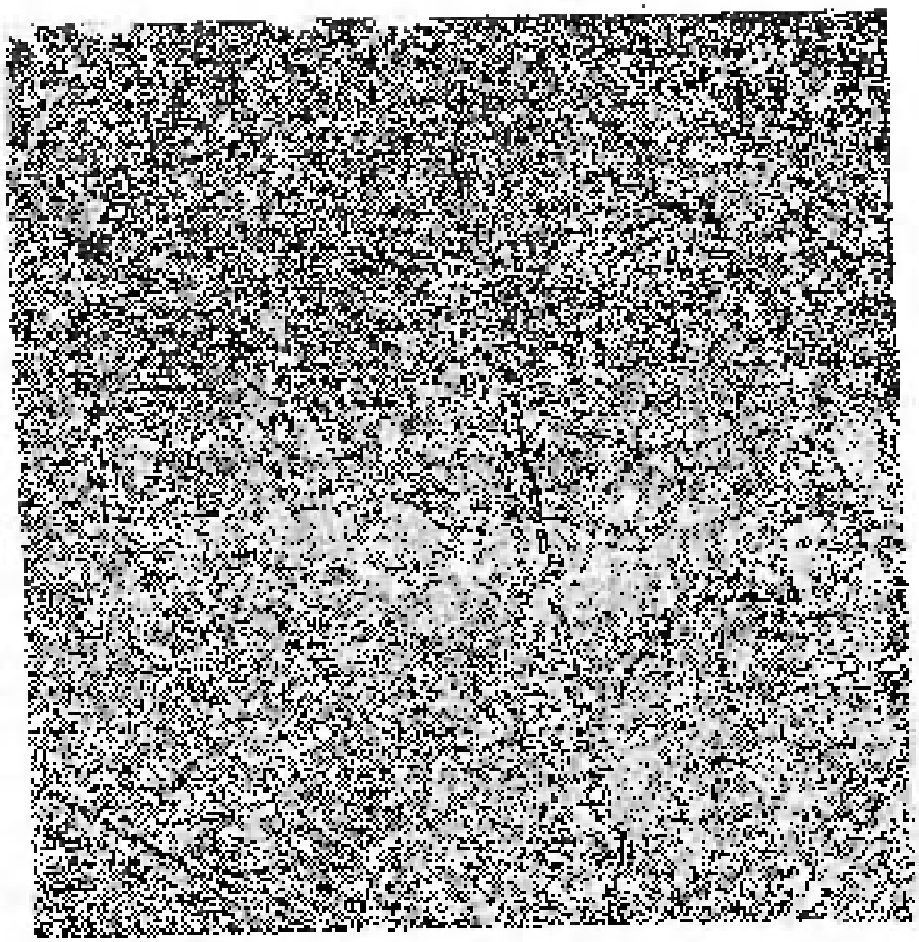

( شكل ١٣ ) جامع القرويين بفاس : قبة المحراب
( عن مارسيه )

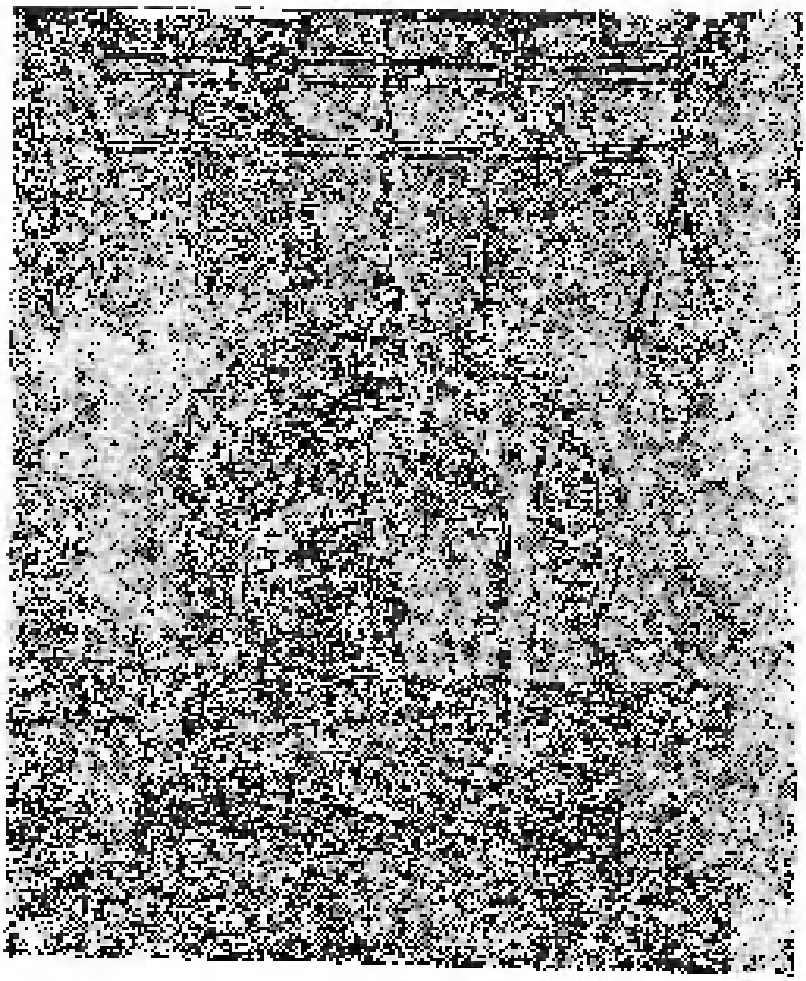

( شكل ١٤ ) جامع القرويين بفاس : البلاطة الوسطى
( عن مارسيه )

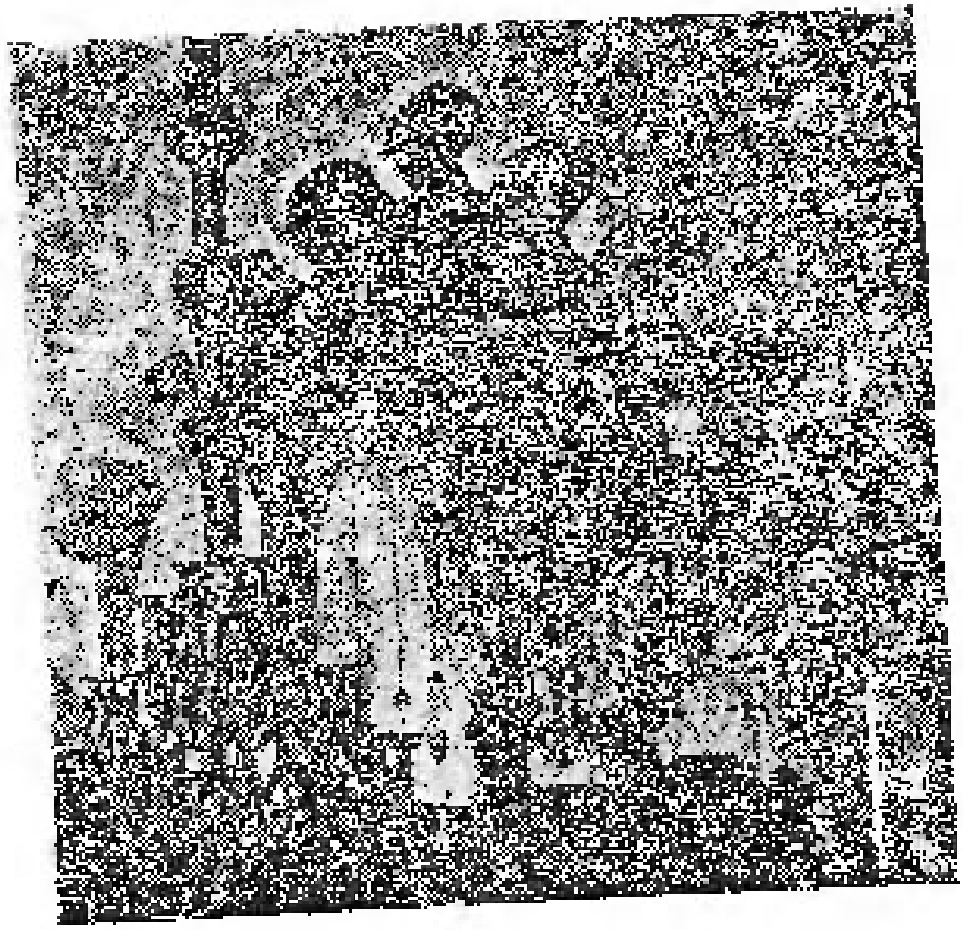

( شكل ١٥ ) المسجد الجامع بجلسان : البلاطة الوسطى
( عن هارسيه )

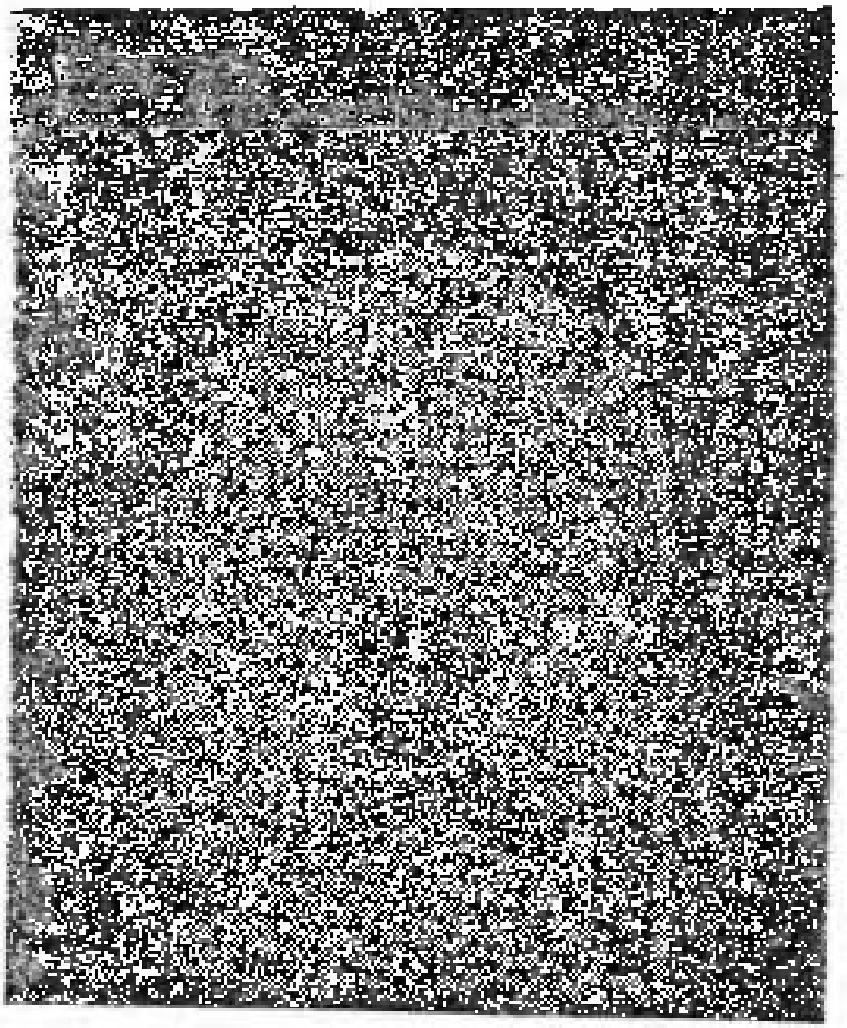

(شكل ١٦) المسجد الجامع بالجزائر : عقود بيت الصلاة
(عن مارسيه)

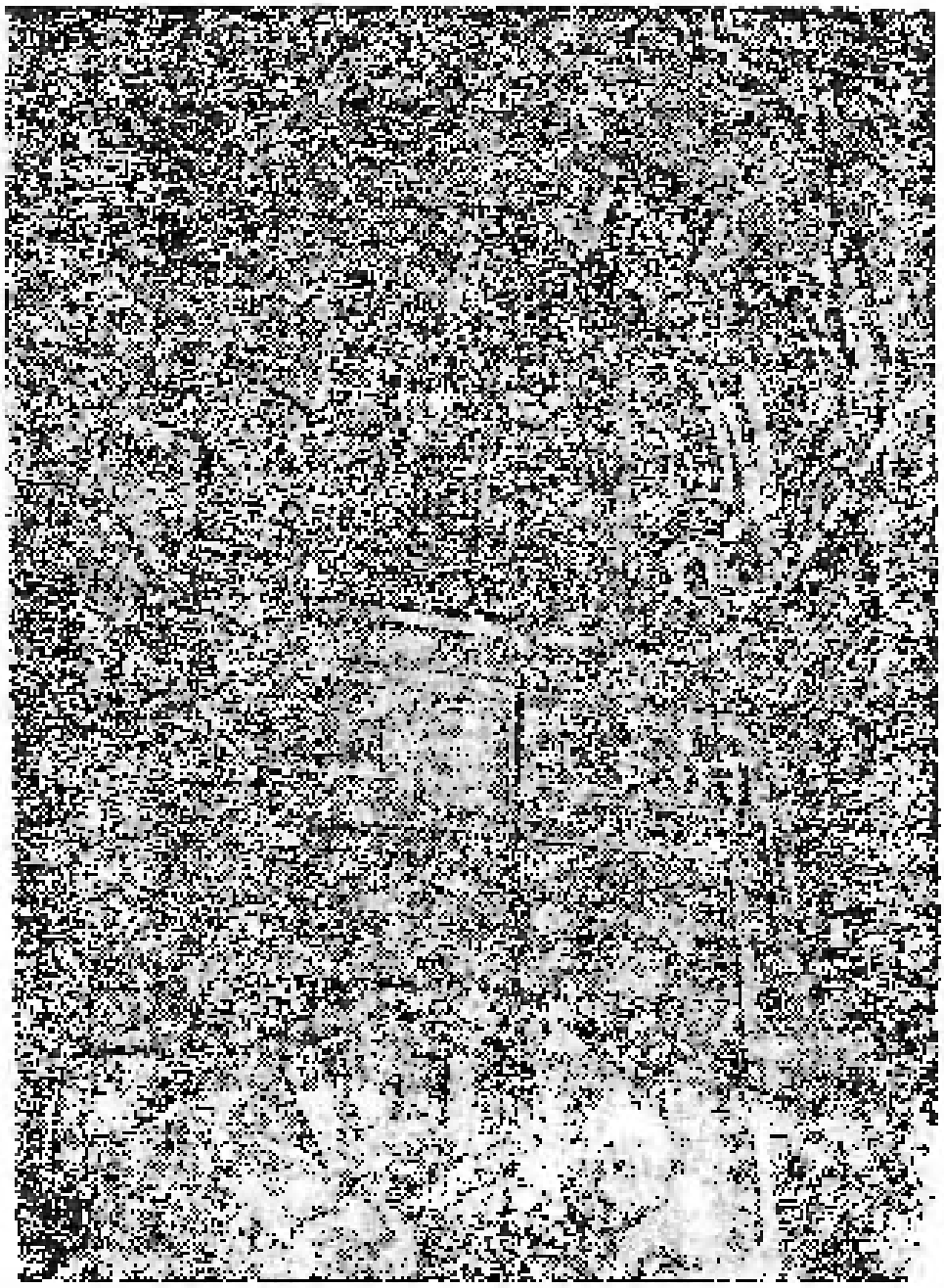

( شكل ١٧ ) المسجد الجامع بطسان : واجهة المحراب وبجانب من القبة
( عن مارسيه )

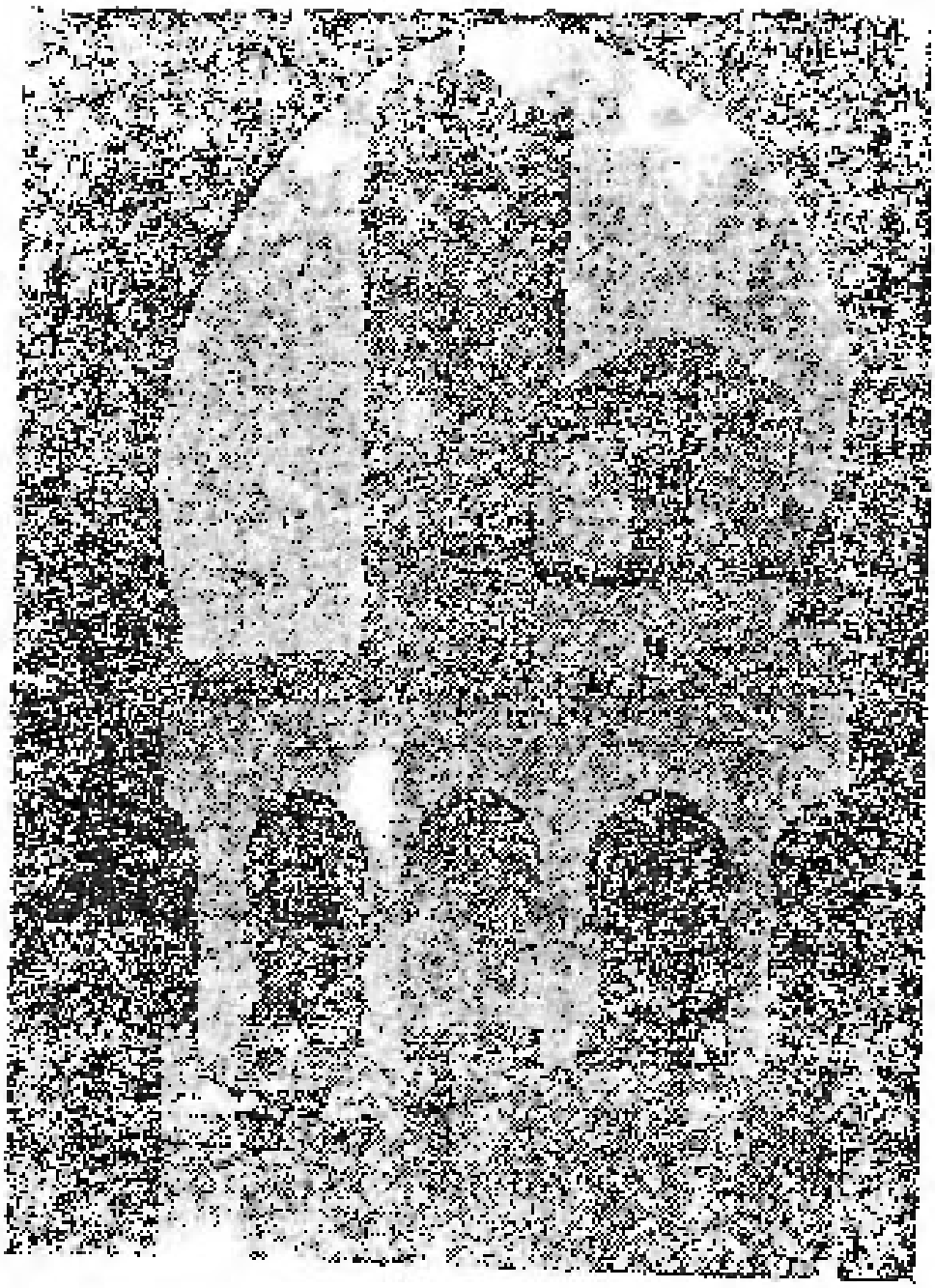

(شكل ١٨) جامع الاندلسيين بفاس ... من الصحن والقبو ... ة
( من مراد )

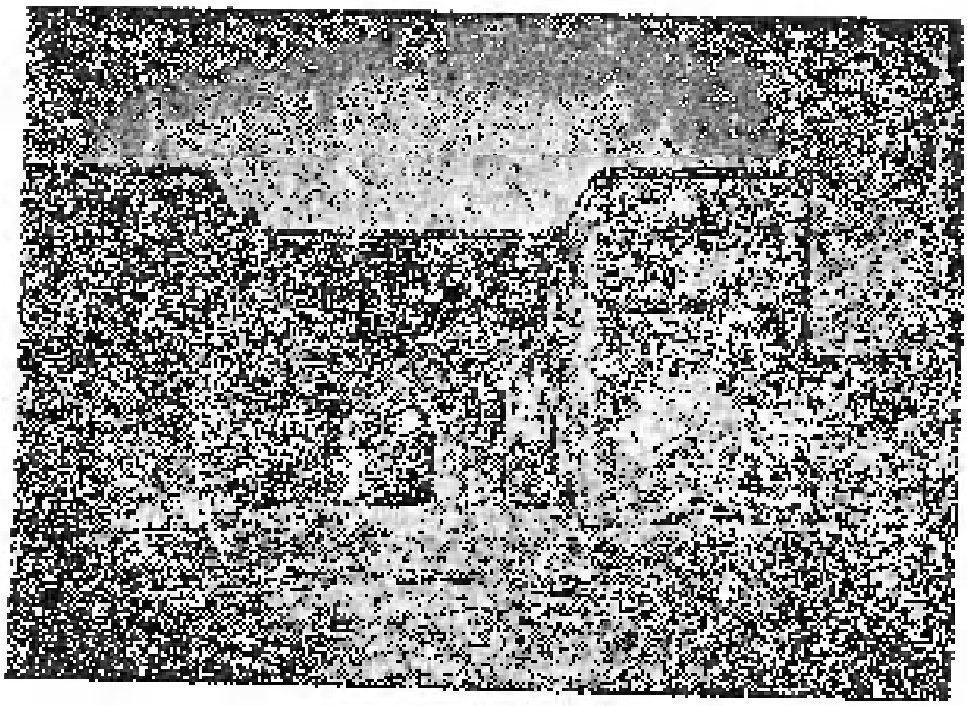

( شكل ١٩ ) باب الرواح بمراكش
( عن مصلحة الآثار )

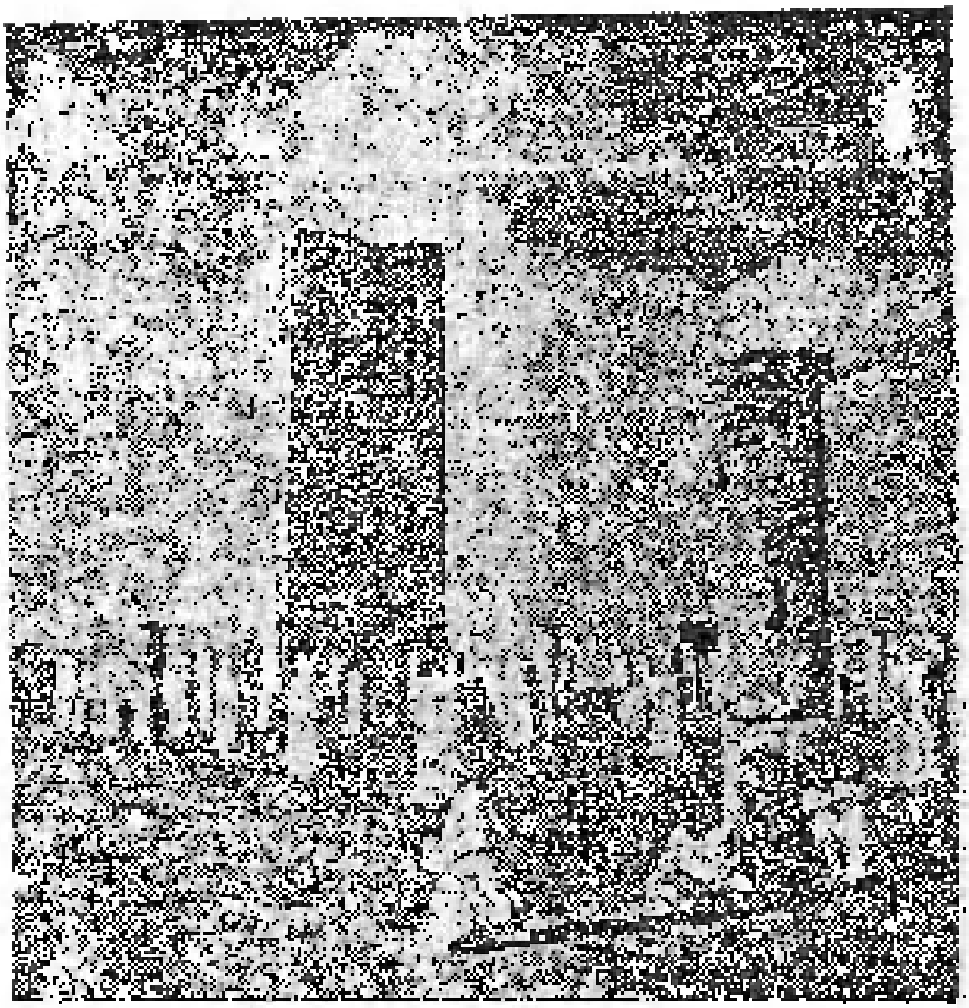

( شكل ٣ ) المسجد الجامع برباط الفتح والصومعة
( عن مكتب السياحة المغربي بالرباط )

( شكل ٥٠ ) المسجد الجامع برباط الفتح أحمد بن الصلاة
( عن مصلحة الآثار )

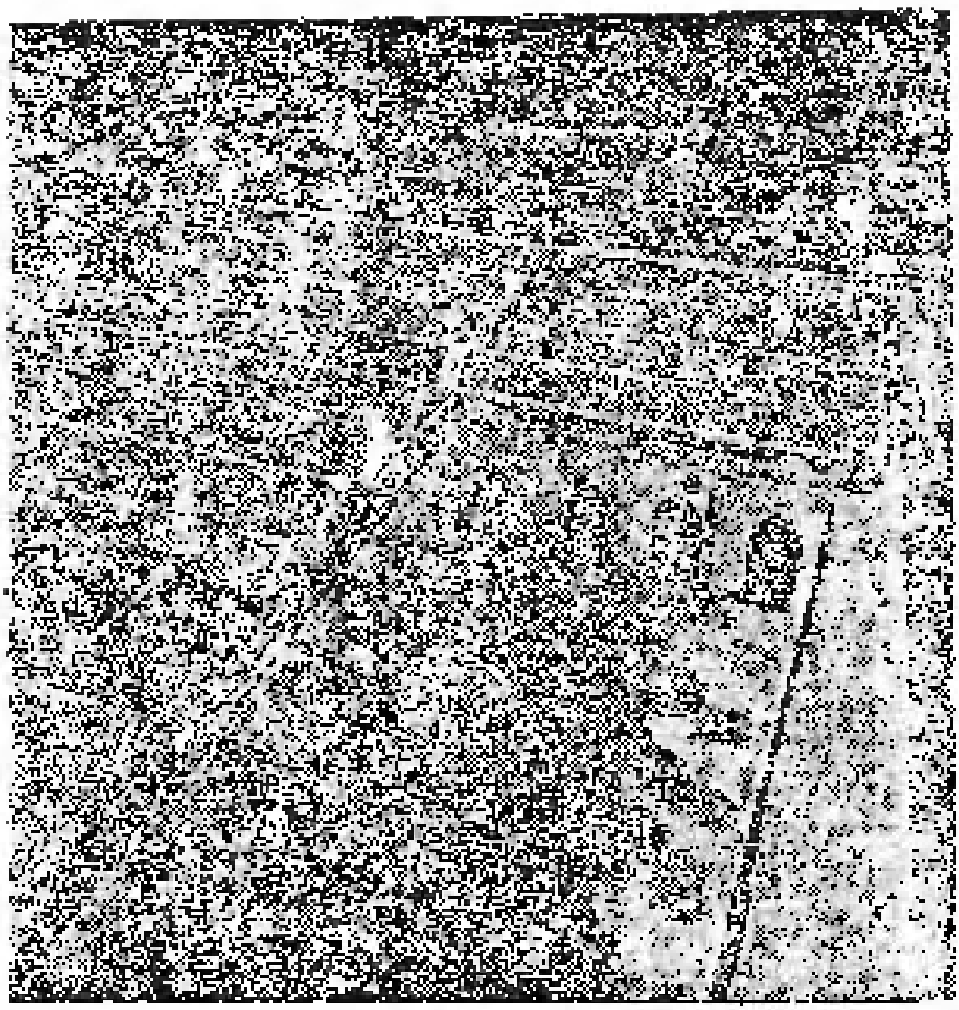

( شكل ٢٠ ) جامع الكتبية بمراكش . الاسقف والصحن
( عن مكتب السياحة للمغرب بالرباط )

( شكل ٢٣ ) جامع الكتبية بمراكش : الصومعة

( للمؤلف )

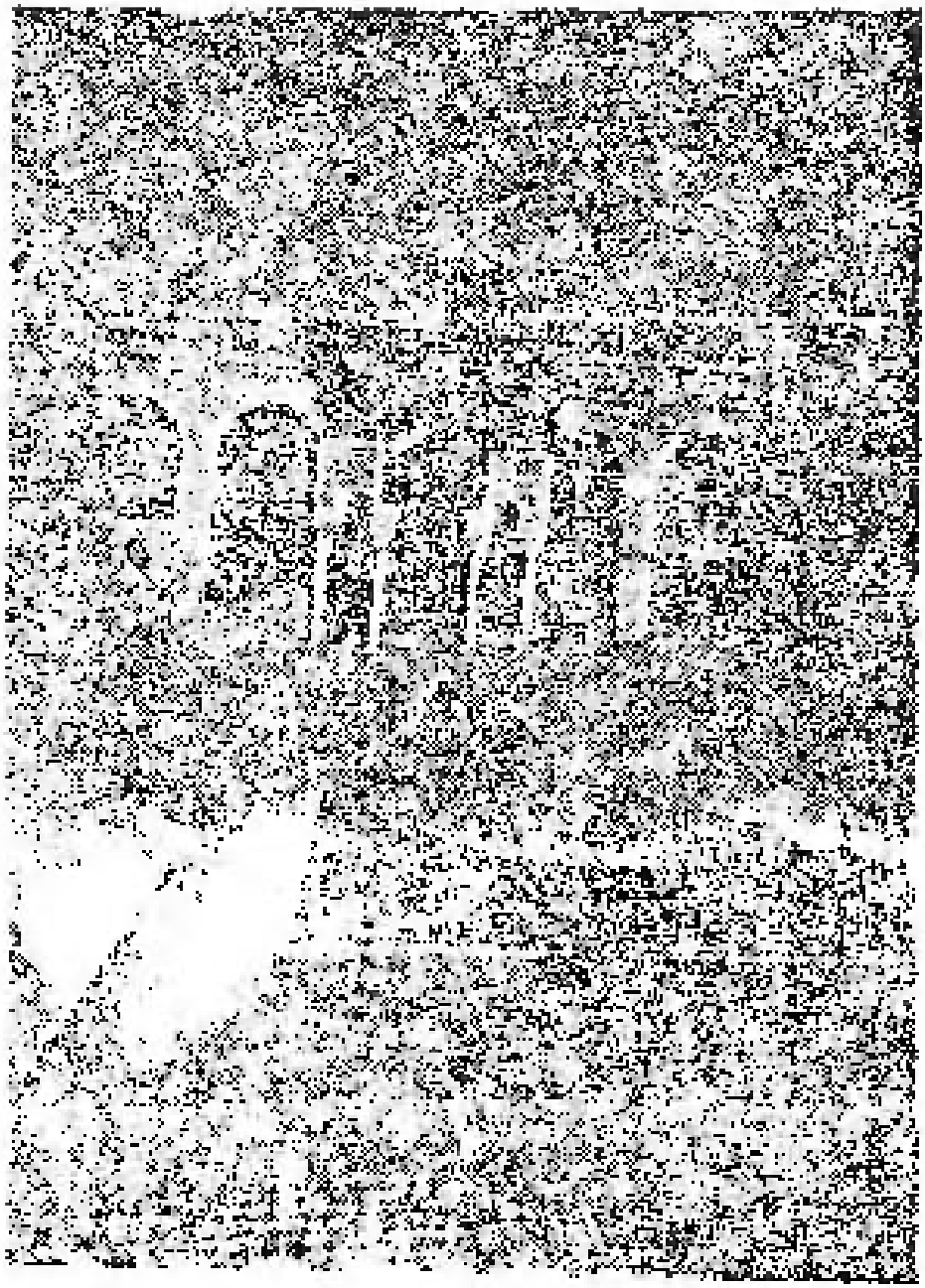

( شكل ٢٩ : جامع قطر ربي في فاس العتيق
( عن مصلحة الآثار )

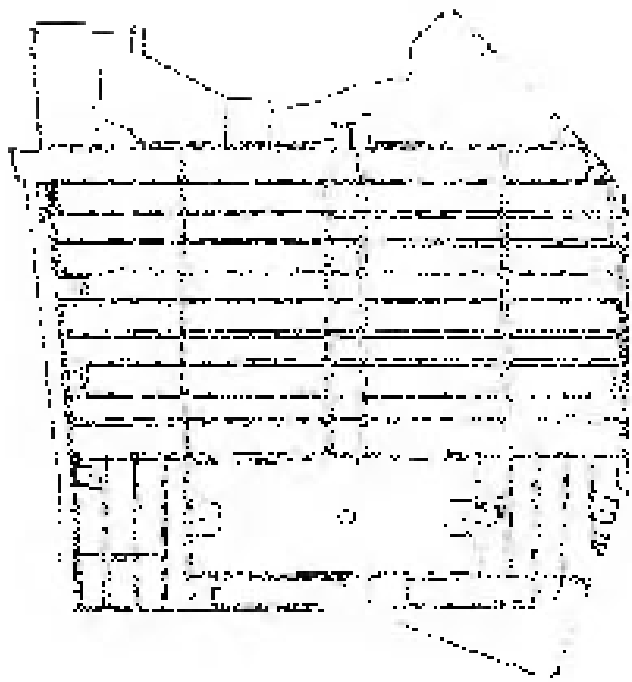

شكل (٢٤) : خطوط تقسيم القرن من عاصر

( عن كرسويل )

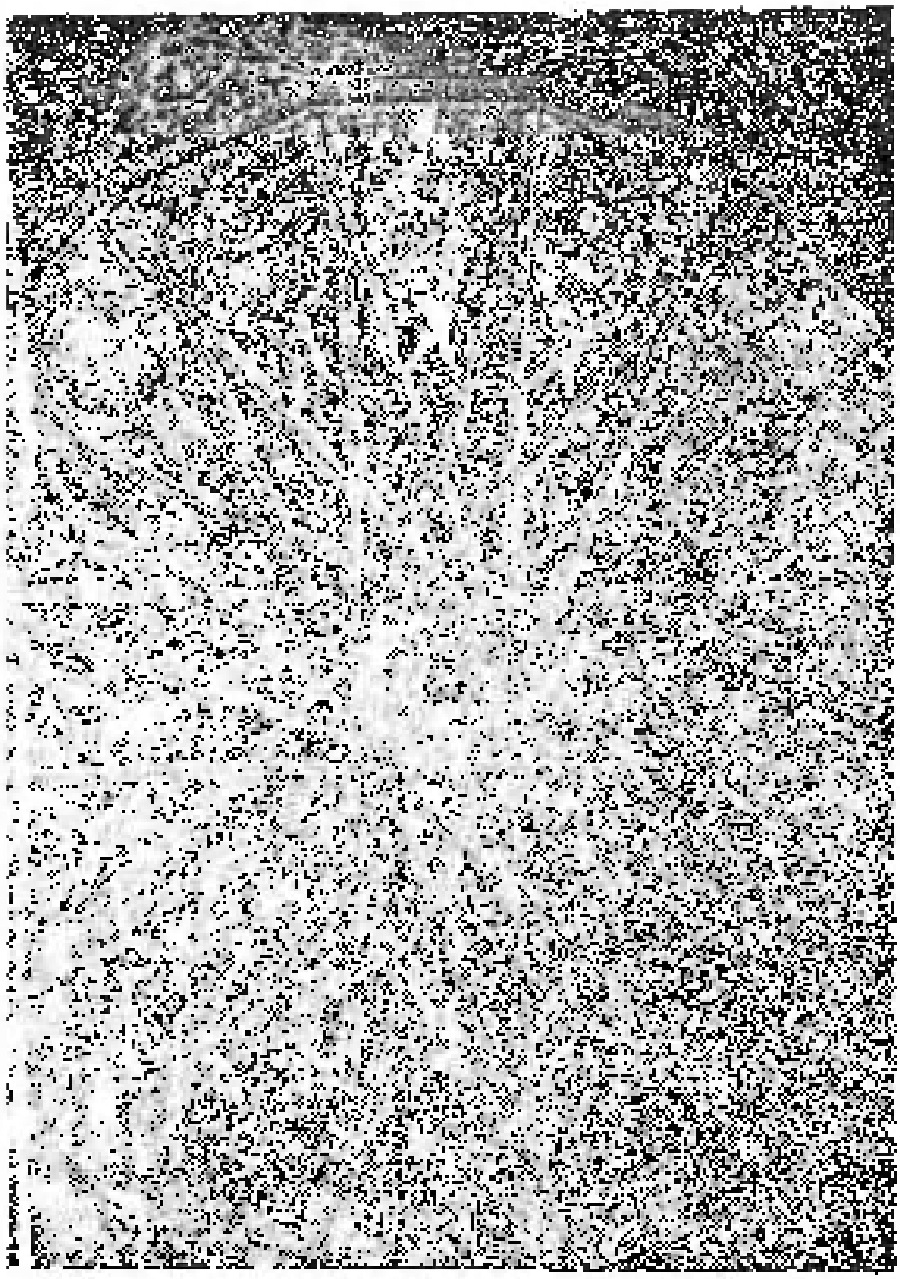

( شكل ٢٩ ) جامع رباط تاريق قرب الفرات

( عن فريدريش ساره )

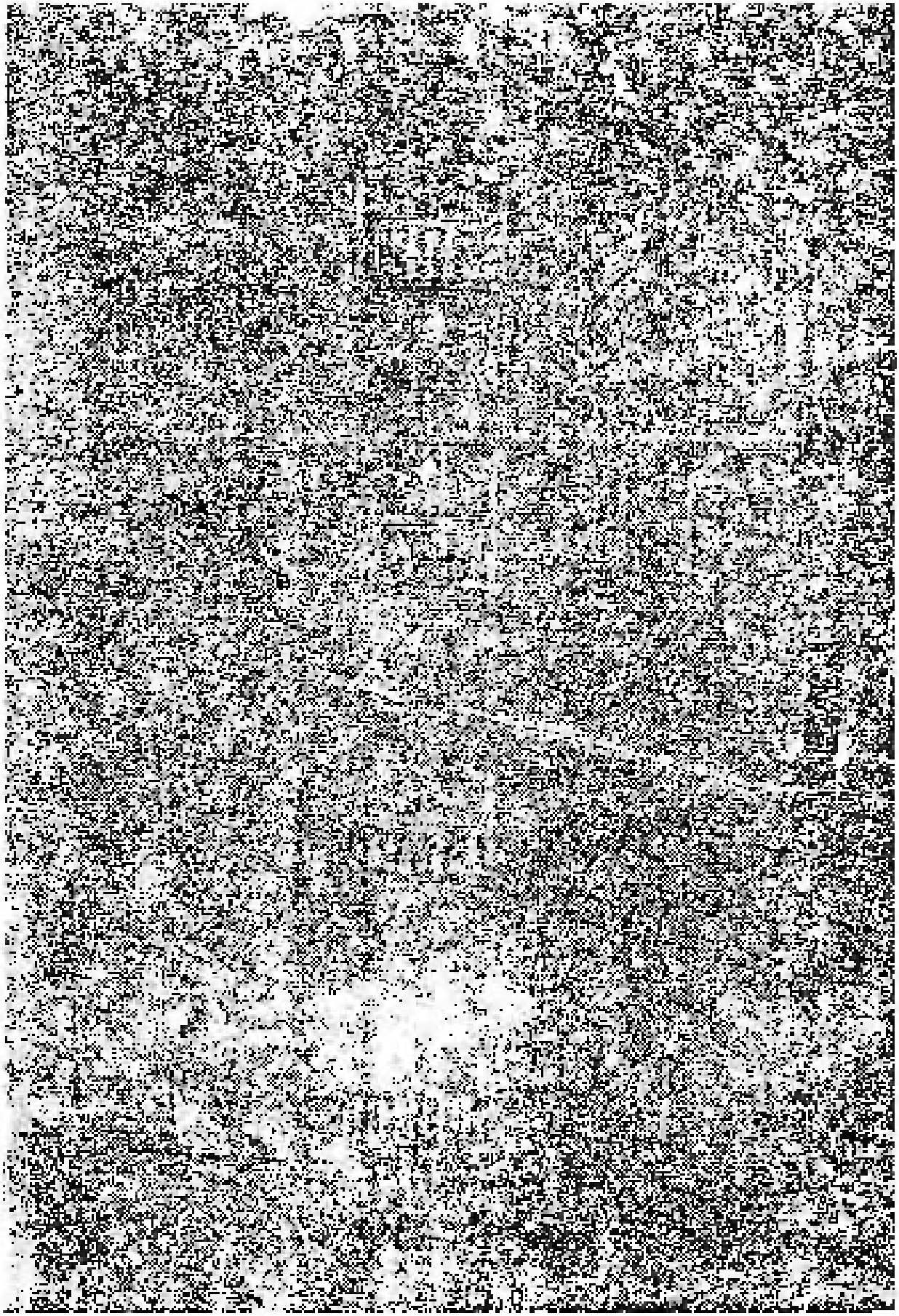

( شكل ٧٠ ) المسجد الجامع بقسنطينة المصور ( للمؤلف )

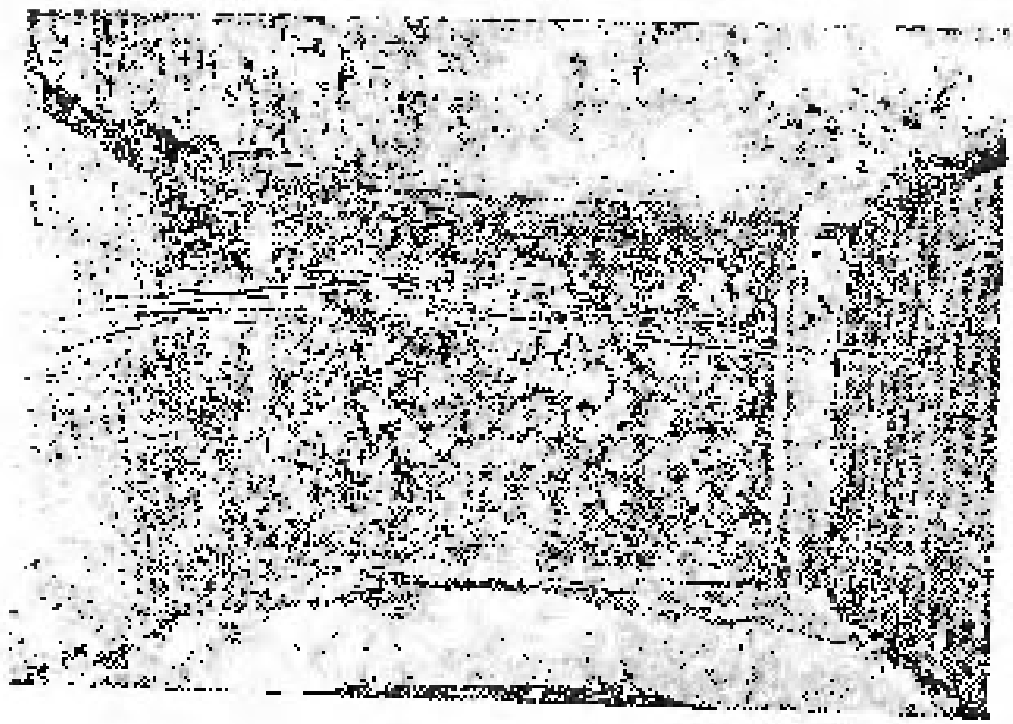

( شكل ٢٨ ) المسجد الجامع بشيلية : البرة داخل أسطوان المدخل الشرقي
( المؤلف )

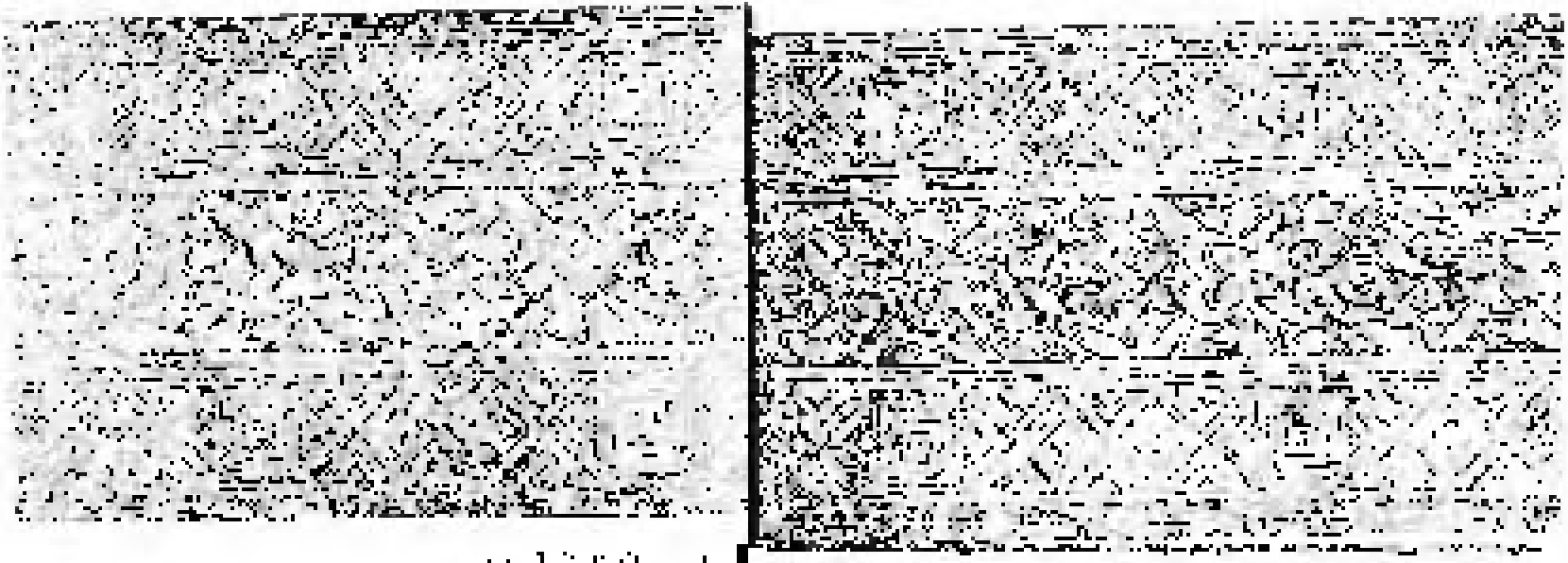

شكل (١٠٠) المعدة الطبيعية لجنين بعمر (٥) أشهر

شكل معدة داخل بطن الجنين
(من يوم الأخير)

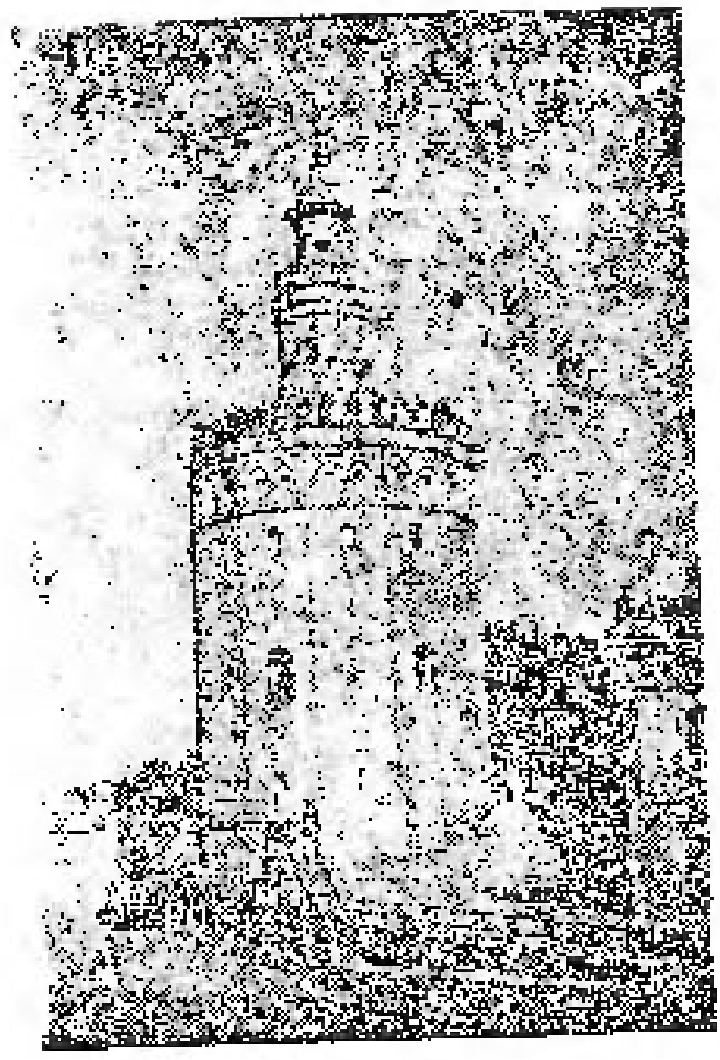

( شكل ٣٠ ) برج الذهب بالشيلية

( المؤلف )

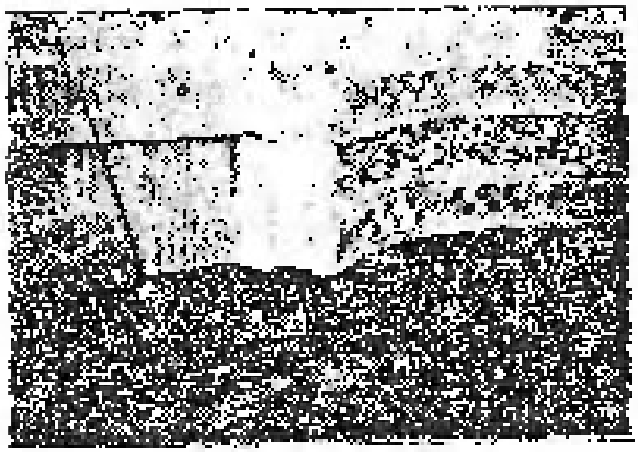

( شكل ٣١ ) للمسجد الجامع باشبيلية :
زخارف تملأ بواطن عقد المدخل الى صحن الجامع (للمؤلف)

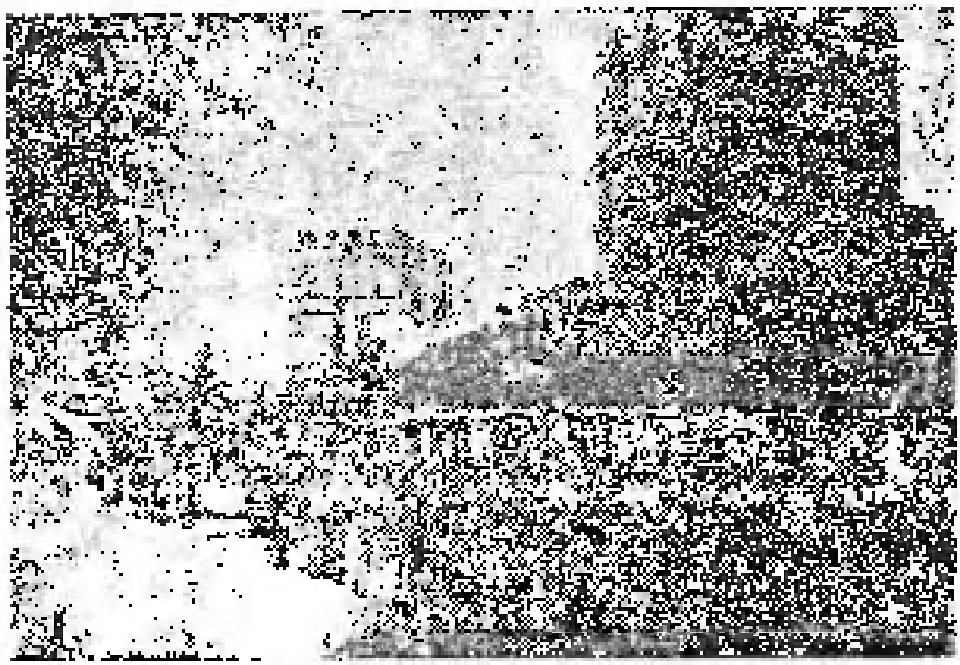

( شكل ٣٢ ) سور مقبرة باشبيلية
( للمؤلف )

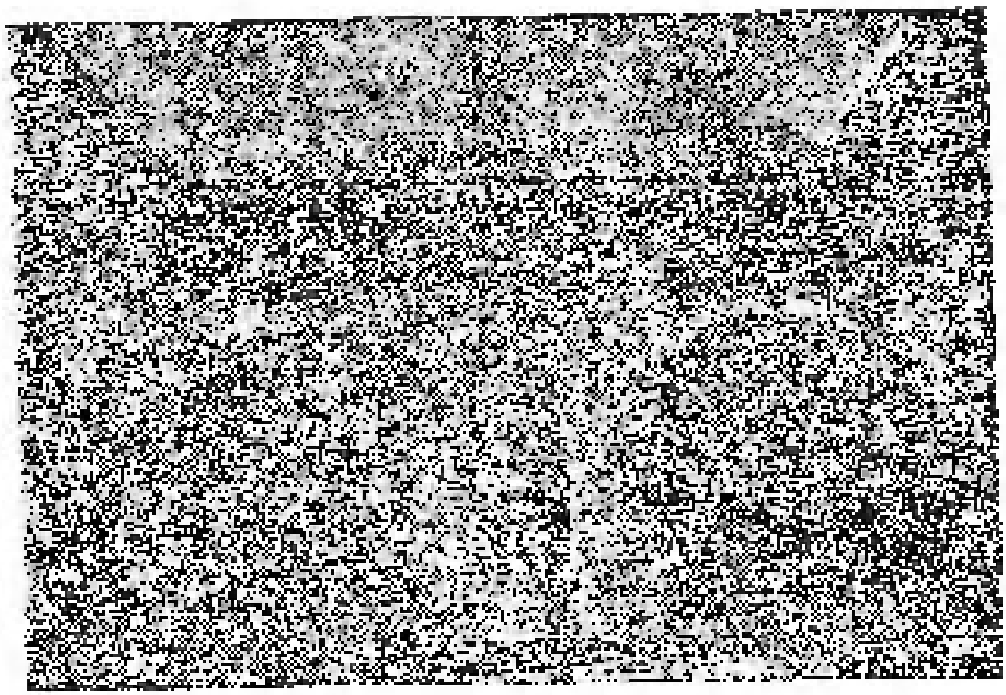

( شكل ٣٣ ) صحن المدرسة بوعنانية بفاس
( المؤلف )

# الخـــرائط

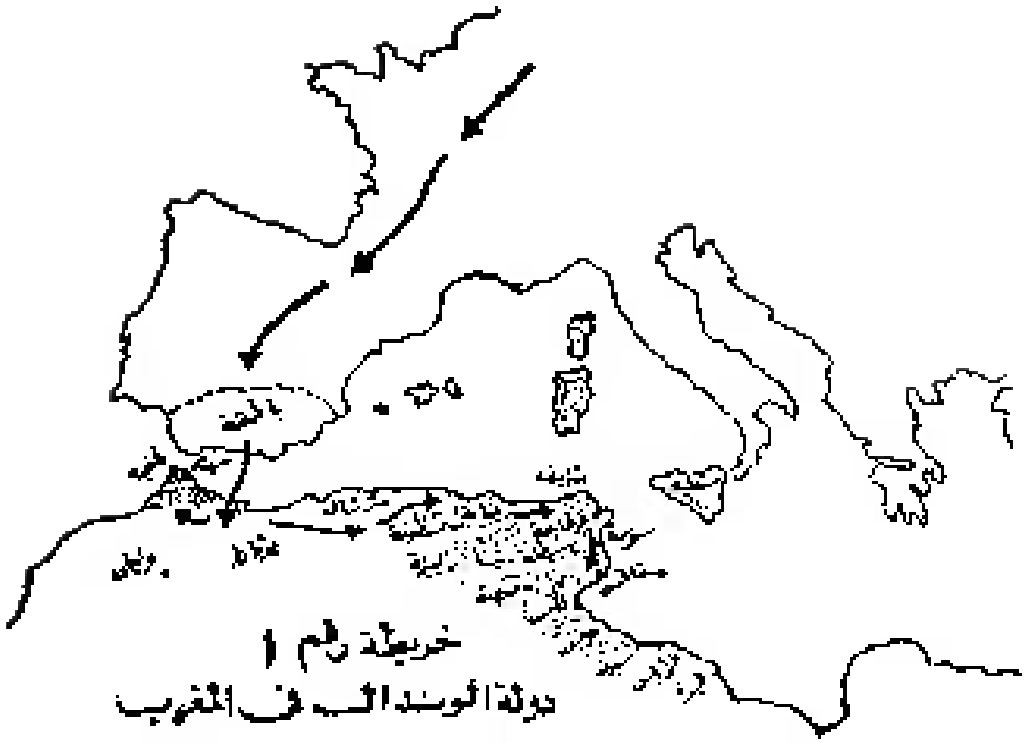

خريطة رقم ١
دولة الوندال في المغرب

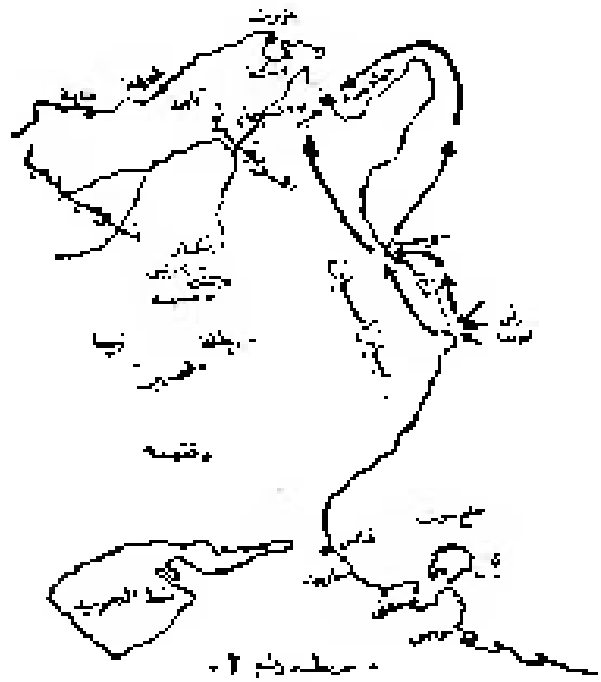

خريطة رقم ٢

حملة بليزاريوس على المغرب سنة ٥٣٣ م

خريطة رقم ٣
حملة عبد الله بن سعد

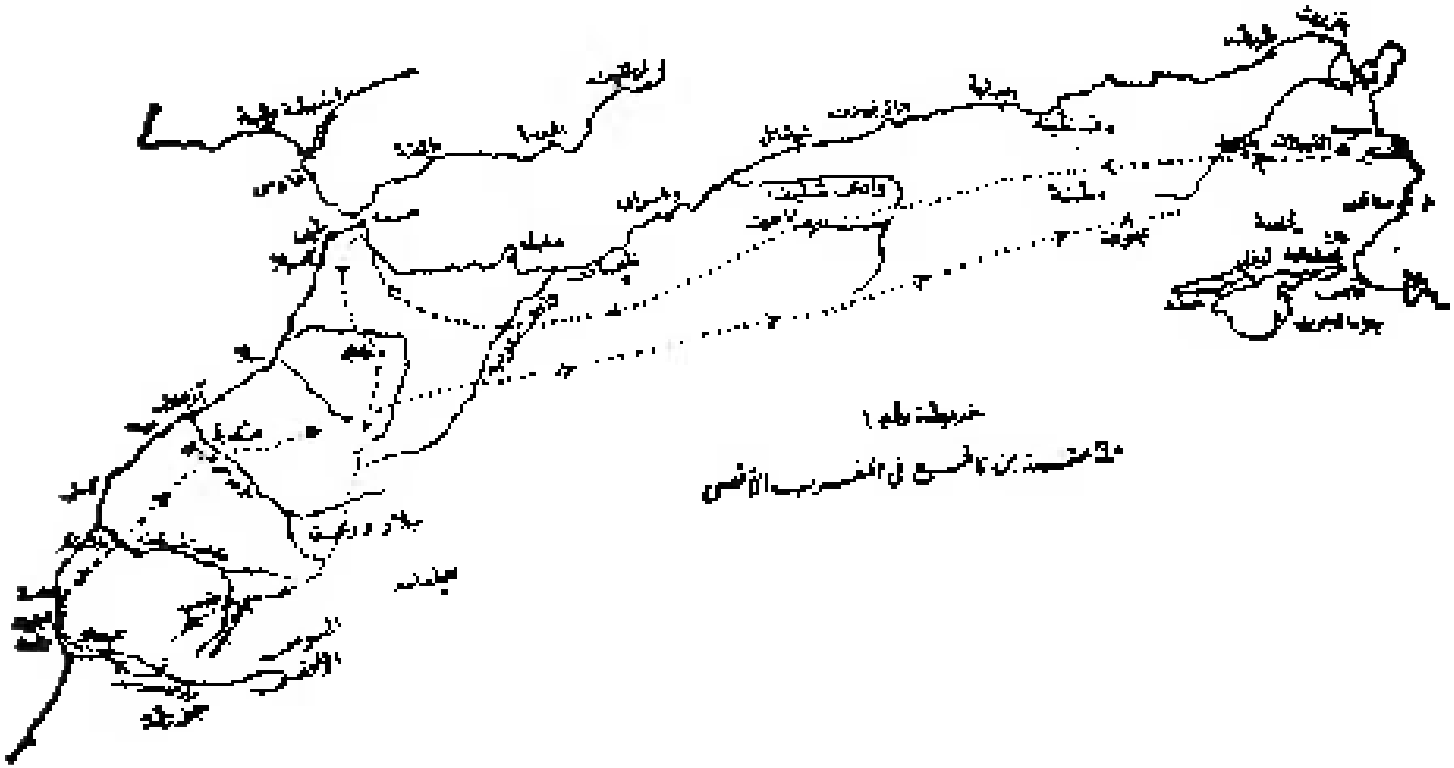

خريطة رقم ١

مدن متجددة في الغرب الأقصى

مواضع وقبائل المغرب في العصر الوسيط

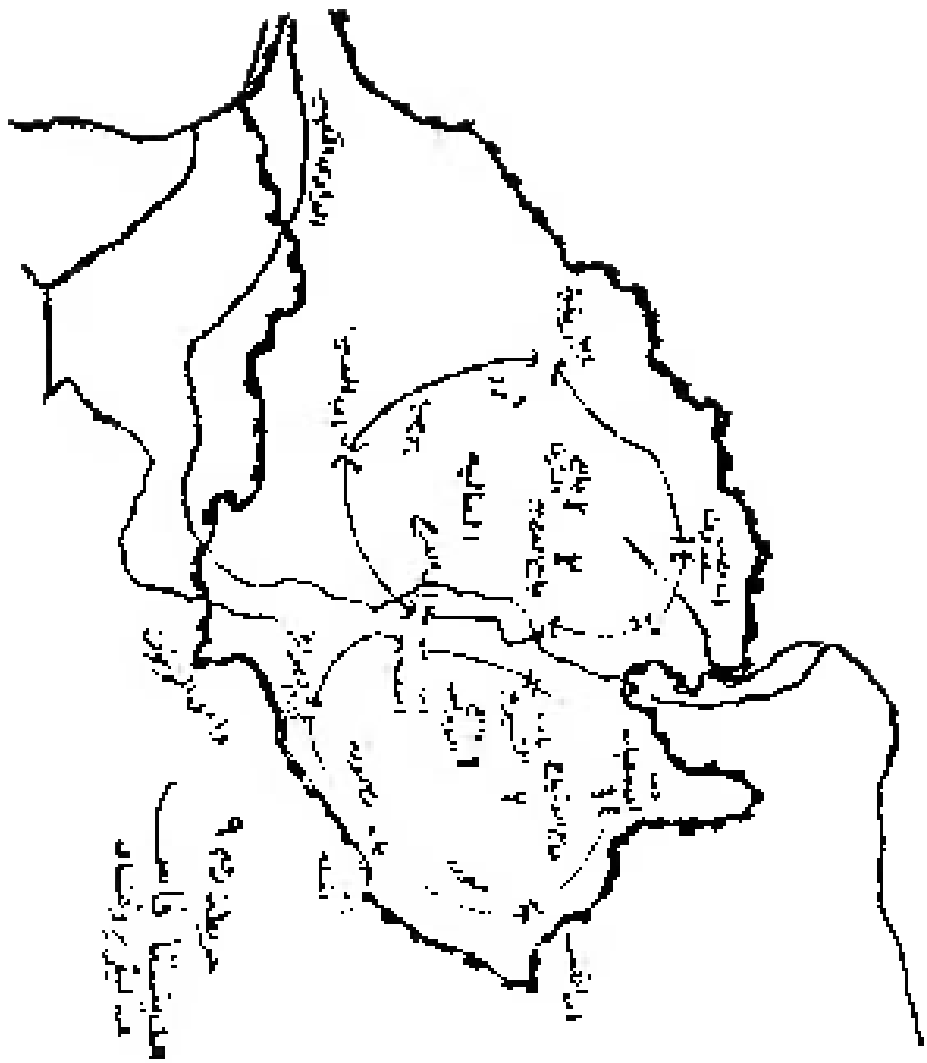

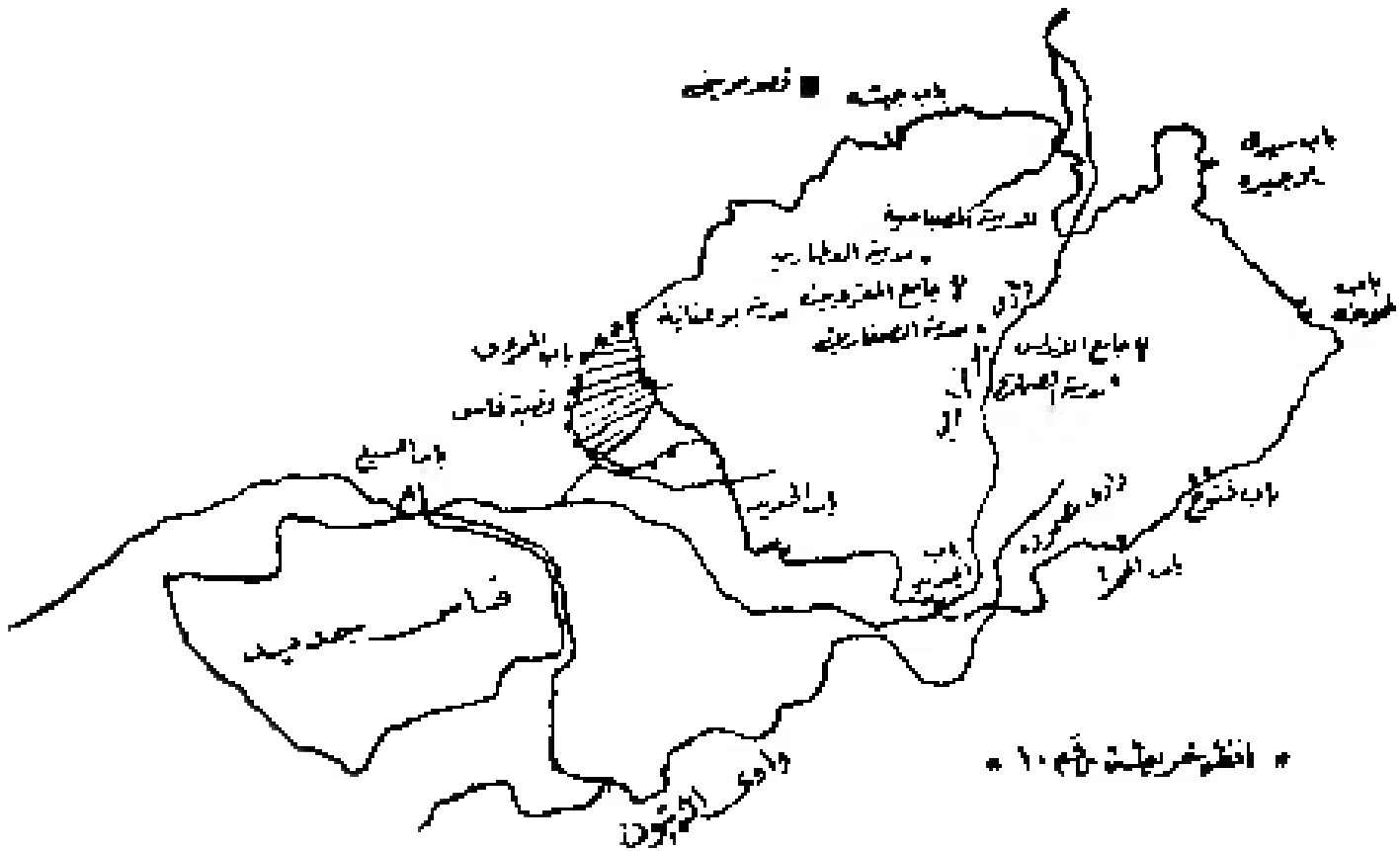


* انظر خريطة رقم ١٠ *

فاس في عصر بني مرين

خريطة رقم ٢٠
الأندلس في القرن الرابع الهجري

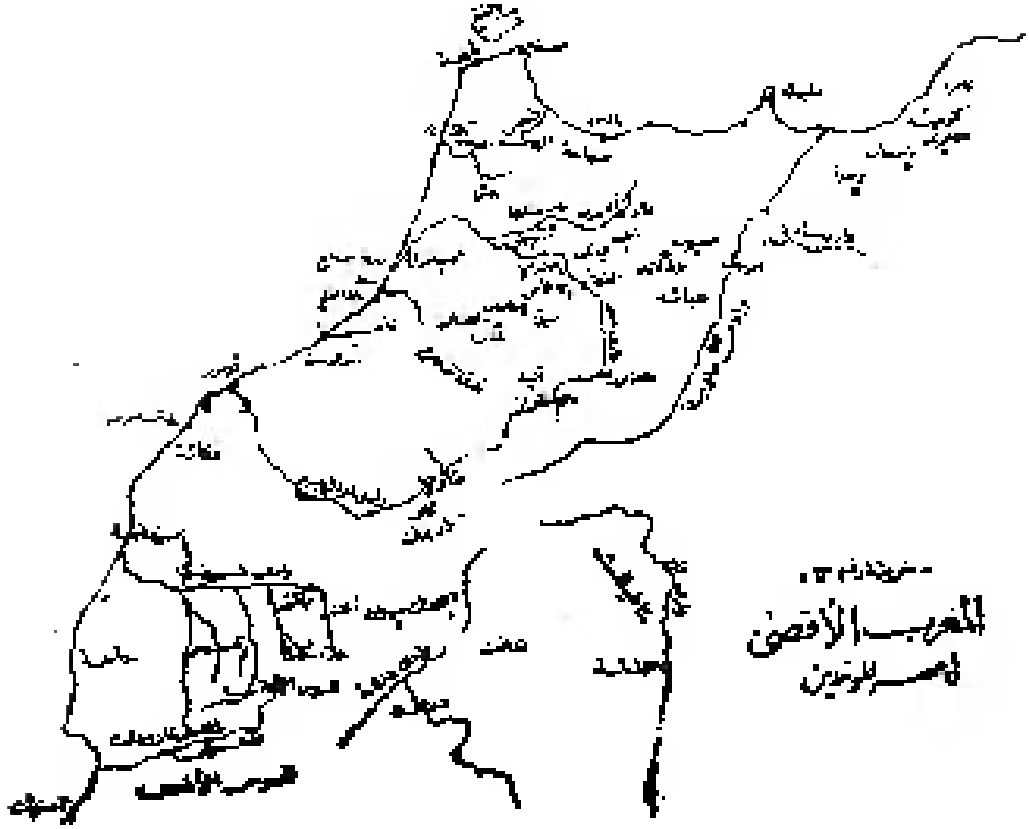

خريطة رقم ٢١
المغرب الأقصى
أيام الموحدين

# فهرس موضوعات الكتاب

# فهرست

صفحة

مقدمة ... ... ... ... ... ... ... ... ا ـ ز

## القسم الأول

### المغرب في العصرين الوندالي والبيزنطي

### الفصل الأول

#### المغرب في ظل الوندال

(١) جنصريك مؤسس دولة الوندال في المغرب ( ٤٢٨ ـ ٤٧٧ ) ١

ا ـ غزو الوندال للاندلس وتطلعهم لغزو المغرب ... ١

ب ـ عبور الوندال الزقاق إلى المغرب ... ... ... ٩

ح ـ غزو الوندال لموريطانيا وإفريقية ... ... ... ١٠

د ـ التفوق الحربي للوندال على الرومان ... ... ١٤

(٢) خلفاء جنصريك ... ... ... ... ... ... ٢١

ا ـ هونريك خليفة جنصريك ( ٤٧٧ ـ ٤٨٤ ) ... ٢١

ب ـ عصر جنتامونذو(٤٨٤ـ٤٩٦)وتراسامونذو(٤٩٦ـ٥٢٣) ٢٣

ج ـ نهاية عصر الوندال في المغرب ... ... ... ٢٧

(٣) نظم الوندال في الحكم ببلاد المغرب ... ... ... ٣١

ا ـ النظام الإداري ... ... ... ... ... ٣١

ب ـ النظام الحربي ... ... ... ... ... ... ٣٣

ج ـ النظام القضائي ... ... ... ... ... ٣٤

صفحة

د ـ النظام الاقطاعي ... ... ... ... ... ٣٤

هـ ـ سياسة الرفق نحو الكاثوليك نحو أهل البلاد ... ... ٣٥

## الفصل الثاني

### بلاد المغرب في العصر البيزنطي

( ١ ) استرجاع جستنيان لبلاد المغرب ... ... ... ... ٣٨

ا ـ موقف جستنيان أمام تحدي جليمر ... ... ... ٣٨

ب ـ تحرك القوات البيزنطية نحو المغرب ... ... ... ٤٢

ج ـ استرجاع البيزنطيين للمغرب ... ... ... ٤٤

( ٢ ) المشاكل التي واجهها البيزنطيون في المغرب ... ... ... ٥١

ا ـ ثورات البربر ... ... ... ... ... ... ٥١

ب ـ النزاع الديني ... ... ... ... ... ... ٥٣

( ٣ ) ولاة بيزنطة في المغرب في عصر جستنيان ... ... ... ٥٧

ا ـ صولومون ( ٥٣١ ـ ٥٣٦ ) ... ... ... ... ٥٧

ب ـ ولاية جرمانوس ( ٥٣٦ ـ ٥٣٩ ) ... ... ... ٦٠

ج ـ ولاية صولومون الثانية ( ٥٣٩ ـ ٥٤٤ ) ... ... ٦١

د ـ ولاية سرجيوس وأبو جعفر ... استحكام الفوضى في البلاد ٦٣

هـ ـ جان تروجليطة وإخماد الثورة ( ٥٤٧ ـ ٥٦٣ ) ... ٦٥

( ٤ ) اضمحلال النفوذ البيزنطي في المغرب بعد جستنيان ... ... ٧٠

ا ـ في عصر الامبراطور جستين الثاني ( ٥٦٥ ـ ٥٨٢ )

وطيبريوس ( ٥٧٨ ـ ٥٨٢ ) ... ... ... ... ٧٠

صفحة

ب ـ فى عصر الامبراطور موريس ( ٥٨٢ ـ ٦٠٢ ) ... ٧١

ج ـ المغرب قبيل الفتح العربى ( فيما بين ٦٠٢ ـ ٦٤٧ ) ... ٧٣

( ٥ ) نظام التنظيم الإدارى والدفاعى فى المغرب ... ... ٧٩

ا ـ النظام الادارى ... ... ... ... ... ٧٩

ب ـ التنظيم الدفاعى ... ... ... ... ... ... ٨٠

مراجع العصر البيزنطى والبيزنطى ... ... ... ... ٨٤

## القسم الثانى

## المغرب فى العصر الاسلامى

### تمهيد

### دراسة لأهم مصادر تاريخ المغرب فى العصر الاسلامى

أولا : الآثار الاسلامية فى المغرب ... ... ... ... ٣

ثانيا : أهم المصادر العربية ... ... ... ... ... ٦

١ ـ مصادر تاريخ الفتح العربى للمغرب ... ... ... ٦

ب ـ أهم المصادر العربية فى تاريخ المغرب فى العصر الاسلامى ١٤

ج ـ بعض المصادر العربية فى وصف مدن المغرب ... ١٥

## الباب الاول

## فتح العرب لبلاد المغرب

## الفصل الأول

### المرحلة الاولى من فتح المغرب

( ١ ) صعوبة البحث فى تاريخ الفتح العربى للمغرب ... ... ٢٥

صفحة

(٢) جغرافية بلاد المغرب الطبيعية والسكانية ... ... ... ٣٩

أ ـ حدود إفريقية والمغرب ... ... ... ٣٩

ب ـ جغرافية بلاد المغرب الطبيعية والسكانية ... ... ٤١

(٣) مرحلة الغارات (٢١ ـ ٤٩ هـ) ... ... ... ... ٥٥

أ ـ المحاولات الأولى في زمن عمرو بن العاص : غزوة برقة ٥٥

ب ـ حملة عبد الله بن سعد : غزوة سبيطلة ... ... ٦٦

ج ـ حملة معاوية بن حديج على إفريقية سنة ٤٥ هـ ... ٨٨

## الفصل الثاني

### مرحلة الفتح المنظم

(١) الفترة الأولى (٥٠ ـ ٦٤ هـ) ... ... ... ... ١٠٥

أ ـ عقبة بن نافع قبل توليته إمارة إفريقية ... ... ١٠٥

ب ـ تأسيس القيروان وأثره في تثبيت قواعد الفتح ... ١١١

ج ـ عزل عقبة بن نافع وتولية أبو المهاجر دينار (٥٥ ـ ٦٢ هـ) ١٢٢

د ـ ولاية عقبة الثانية (٦٢ ـ ٦٤ هـ) ... ... ... ١٣١

(٢) الفترة الثانية (٦٤ ـ ٩٠ هـ) ... ... ... ... ١٣٠

أ ـ انسحاب العرب من القيروان في سنة ٦٤ هـ ... ... ١٤٤

ب ـ حملة زهير بن قيس واسترجاع العرب للقيروان ... ١٤٧

د ـ حملة حسان بن النعمان الأولى وتغريب قرطاجنة ١٥٤

هـ ـ موسى بن نصير واستكمال فتح المغرب ... ... ١٦٥

صفحة

# الباب الثانى

## المغرب الاسلامى فى عصر الدولتين الأموية والعباسية

### الفصل الثالث

### المغرب فى ظل الدولة الأموية

(١) فتح المسلمين للاندلس ... ... ... ... ... ... ١٧٧

ا — مقدمات الفتح ... ... ... ... ... ... ١٧٧

ب — الدور الذى قام به بربر المغرب فى فتح الاندلس ... ١٨٤

ج — عودة موسى بن نصير إلى المشرق ... ... ... ١٩٥

(٢) ولاة المغرب بعد موسى بن نصير ... ... ... ... ٢٠٢

أ — جهود محمد بن يزيد (٩٧-١٠٠ هـ) واسماعيل بن عبيدالله (١٠٠ - ١٠٩ هـ) فى نشر الاسلام ... ... ... ٢٠٢

ب — سياسة الاستبداد مع البربر ونتائجها ... ... ... ٢٠٧

ج — مقدمات ثورة البربر على العرب فى المغرب (موقعة الاشراف سنة ١٢٢ هـ) ... ... ... ... ٢١٥

د — ثورة البربر فى المغرب (موقعة بقدورة على وادى سبو سنة ١٢٤ هـ) ... ... ... ... ... ... ٢٢٠

هـ — ثورة البربر فى الاندلس وقيام الصراع بين البلديين والشاميين ... ... ... ... ... ... ٢٢٩

(٣) المغرب فى السنوات الخمس الاخيرة من عصر الدولة الأموية ... ... ... ... ... ... ٢٣٤

صفحة

ا ـ فشل حنظلة بن صفوان فى مواجهة الفتن فى المغرب
وخروجه إلى المشرق ... ... ... ... ... ٢٢٤

ب ـ ثورات البربر فى المغرب فى ولاية عبد الرحمن بن حبيب
الفهرى ... ... ... ... ... ... ٢٢٧

## الفصل الرابع

### المغرب فى فترة الانتقال بين سقوط الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية

(١) النزاع بين بنى عبد الرحمن بن حبيب ... ... ... ٢٤٥

ا ـ مقتل عبد الرحمن بن حبيب وولاية إلياس ... ... ٢٤٥

ب ـ انقراض بنى حبيب الفهرى فى المغرب ... ... ٢٤٨

(٢) الصراع بين الخوارج الإباضية فى تونس والصفرية فى إفريقية ٢٥٢

ا ـ غلبة الطارجية على المغرب ... ... ... ... ٢٥٢

ب ـ موقف الخلافة العباسية من الخوارج فى المغرب ... ٢٥٥

ج ـ ولاة إفريقية فى العصر العباسى حتى قيام دولة بنى الأغلب ٢٦٠

١ ـ الأغلب بن سالم بن عقال بن خفاجه التميمى
(١٤٨ ـ ١٥٠ هـ) ... ... ... ... ... ٢٦٠

٢ ـ أبو جعفر عمر بن حفص بن عثمان بن قبيصة
المعروف بهزارمرد ... ... ... ... ٢٦٤

٣ ـ يزيد بن حاتم وقضاؤه على ثورة البربر الإباضية ٢٧٠

٤ ـ روح بن حاتم بن قبيصة ... ... ... ٢٧٢

صفحة

٥ — أبو الغرانيق محمد بن أحمد ( ٢٥٠ — ٢٦١ هـ ) ٢١٢

٦ — إبراهيم بن أحمد (٢٦١ — ٢٨٩ هـ) ... ... ٢١٢

٧ — أبو العباس عبد الله بن ابراهيم (٢٨٩ — ٢٩٠ هـ)

٨ — زيادة الله بن عبد الله آخر أمراء بني الأغلب

( ٢٩٠ — ٢٩٦ هـ ) ... ... ... ... ... ٢١٧

( ٣ ) ازدهار الحياة الاقتصادية في المغرب الأدنى في عصر الأغالبة ٢٢١

( ٤ ) سكان إفريقية في عصر الأغالبة ... ... ... ... ٢٢٩

١ — العرب ... ... ... ... ... ... ٢٢٩

٢ — العجم الفرس ... ... ... ... ... ٢٣١

٣ — البربر ... ... ... ... ... ... ٢٣٢

٤ — الروم والافارقة ... ... ... ... ٢٣٢

٥ — القبائل والعبيد ... ... ... ... ٢٣٤

( ٥ ) منشآت الأغالبة في إفريقية ... ... ... ... ٢٣٦

١ — العمارة المدنية ... ... ... ... ... ٢٣٦

٢ — المسجد الجامع بالقيروان ... ... ... ٢٣٦

تاريخ المسجد ... ... ... ... ٢٣٦

تخطيط الجامع ... ... ... ... ٢٤٠

قباب الجامع ... ... ... ... ... ٢٤٤

زخارف الجامع ... ... ... ... ... ٢٤٨

٢ — جامع الزيتونة بتونس ... ... ... ٢٤٩

صفحة

(٣) مدينة فاس حاضرة الأدارسة ... ... ... ... ٤٠١

١ ـ مشكلة تاريخ تأسيس مدينة فاس ... ... ... ٤٠١

الأدلة المادية ... ... ... ... ... ... ٤٠٢

الأدلة التاريخية ... ... ... ... ... ٤٠٨

ب ـ تاريخ مدينة فاس منذ تأسيسها حتى نهاية عصر بني مرين ٤١٥

١ ـ فاس في عصر الأدارسة ... ... ... ٤١٥

٢ ـ فاس في عصر موسى بن أبي العافية ... ... ٤١٨

٣ ـ سيطرة زناته على فاس وموالاتها لخلفاء بني أمية بقرطبة ... ... ... ... ... ... ٤٢٠

٤ ـ فاس في ظل دولتي المرابطين والموحدين ... ٤٣١

٥ ـ فاس عاصمة بني مرين ... ... ... ٤٣٨

## الفصل السابع

### دولتا الرستميين بتاهرت والمدراريين بسجلماسة

(١) أولية الرستميين ... ... ... ... ... ... ٤٤٧

١ ـ انتشار دعوة الاباضية في المغربين الأدنى والأوسط ٤٤٧

ب ـ عبد الرحمن بن رستم وتأسيس تاهرت ... ... ٤٥٢

ج ـ عبد الرحمن بن رستم إمام الرستميين ... ... ... ٤٥٩

د ـ إمامة عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم وبداية ظهور الانقسامات المذهبية عند الاباضية ... ... ٤٧٥

(٢) خلفاء عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم ... ... ... ٤٧٢

صفحة

(٣) مدينة فاس حاضرة الأدارسة ... ... ... ... ٤٠١

١ ـ مشكلة تاريخ تأسيس مدينة فاس ... ... ... ٤٠١

الأدلة المادية ... ... ... ... ... ... ٤٠٢

الأدلة التاريخية ... ... ... ... ... ٤٠٨

ب ـ تاريخ مدينة فاس منذ تأسيسها حتى نهاية عصر بني مرين ٤١٥

١ ـ فاس في عصر الأدارسة ... ... ... ٤١٥

٢ ـ فاس في عصر موسى بن أبي العافية ... ... ٤١٨

٣ ـ سيطرة زناته على فاس وموالاتها لخلفاء بني أمية بقرطبة ... ... ... ... ... ... ٤٢٠

٤ ـ فاس في ظل دولتي المرابطين والموحدين ... ٤٣١

٥ ـ فاس عاصمة بني مرين ... ... ... ٤٣٨

## الفصل السابع

### دولة الرستميين بتاهرت والمدراريين بسجلماسة

(١) أولية الرستميين ... ... ... ... ... ٤٤٧

١ ـ انتشار دعوة الاباضية في المغرب الأدنى والأوسط ٤٤٧

ب ـ عبد الرحمن بن رستم وتأسيس تاهرت ... ... ٤٥٢

ج ـ عبد الرحمن بن رستم إمام الرستميين ... ... ... ٤٥٩

د ـ إمامة عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم وبداية ظهور الانقسامات المذهبية عند الاباضية ... ... ٤٧٥

(٢) خلفاء عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم ... ... ... ٤٧٢

صفحة

ا ـ خلافة الامام أفلح ... ... ... ... ... ٤٧٢

ب ـ خلافة الامام أبي بكر بن أفلح ... ... ... ٤٧٢

ج ـ إمامة أبي اليقظان محمد ... ... ... ... ٤٧٥

د ـ إمامة أبي حاتم يوسف بن محمد ... ... ... ٤٧٧

هـ ـ إمامة اليقظان بن أبي اليقظان ونهاية دولة الرستميين ٤٧٩

(ج) علاقة الدولة الرستمية بجيرانها ... ... ... ... ٤٨١

ا ـ علاقة الدولة الرستمية بولاة إفريقية ... ... ... ٤٨١

ب ـ علاقة الرستميين بالامويين فى الأندلس ... ... ٤٨٢

ج ـ علاقة الرستميين بمصر ... ... ... ... ٤٨٥

(د) علاقة الدولة الرستمية بدولة بنى واسول والمدراريين بسجلماسة ... ... ... ... ... ... ٤٨٦

هـ ـ علاقة الدولة الرستمية بالسودان ... ... ... ٤٨٧

(٤) حضارة الرستميين فى تاهرت ... ... ... ... ٤٨٨

ا ـ الحياة العلمية ... ... ... ... ... ٤٨٨

ب ـ الحياة الاقتصادية ... ... ... ... ... ٤٩٠

ج ـ الحياة الفنية ... ... ... ... ... ... ٤٩٣

(٥) دولة بنى المدرار بسجلماسة ... ... ... ... ٤٩٧

ا ـ نشأة سجلماسة وقيام دولة بنى واسول المدراريين ٤٩٧

ب ـ خلفاء اليسع بن أبي القاسم سكون الملقب بالمدرار ... ٥٠١

صفحة

## الفصل الثامن

### المغرب في ظل الفاطميين

(١) قيام الدولة الفاطمية في المغرب ... ... ... ... ٥٠٧
١ ـ دور أبي عبد الله الشيعي في تأسيس الدولة الفاطمية ٥٠٧
أ ـ مرحلة الاعداد ... ... ... ... ٥٠٨
ب ـ مرحلة الصدام المسلح ... ... ... ... ٥١٢
ب ـ خلافة عبيد الله المهدي ... ... ... ... ٥١٥
١ ـ التخلص من الشيعي وأصحابه ... ... ... ٥١٥
٢ ـ القضاء على ثورة الإباضية بطرابلس سنة ٣٠٠هـ ٥١٧
٤ ـ رد الفعل الأموي ضد مطامع الفاطميين في الأندلس وأثر ذلك في تحولهم نحو مصر ... ٥٢٢
ب ـ فتح برقة ومحاولة فتح مصر ... ... ... ٥٣٢
(٢) ثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد اليفرني الخارجي ... ... ٥٣٥
١ ـ قيام الثورات في بداية عهد القائم ... ... ... ٥٣٥
ب ـ ثورة أبي يزيد مخلد ... ... ... ... ٥٣٦
١ ـ المرحلة الأولى ( ٣٣٢ ـ ٣٣٣ هـ ) ... ... ٥٣٦
٢ ـ المرحلة الثانية ( ٣٣٣ ـ ٣٣٣ هـ ) ... ... ٥٣٨
٣ ـ المرحلة الثالثة ( ٣٣٣ ـ ٣٣٤ هـ ) ... ... ٥٤١
٤ ـ المرحلة الرابعة ( ٣٣٤ ـ ٣٣٦ هـ ) ... ... ٥٤٣
(٣) خلافة المعز لدين الله الفاطمي ... ... ... ... ٥٤٦

صفحة

ا ـ بسط نفوذ الفاطميين على المغرب الأقصى ... ... ٥٤٦

ب ـ استيلاء المعز على مصر وانتقاله إليها ... ... ٥٤٨

## الفصل الخامس

### المغرب الأدنى والأوسط في ظل بني زيري

### وبني حماد الصنهاجيين

( ١ ) أسماء بني زيري منذ قيامهم بأمر المغرب حتى استقلال

الحادثين بالمغرب الأوسط ... ... ... ... ٥٥٥

ا ـ دولة أبي الفتوح يوسف بن زيري ... ... ... ٥٥٥

ب ـ دولة أبي الفتح المنصور بن ملكين ... ... ... ٥٥٨

ج ـ دولة تصح للدولة بادس بن أبي الفتح المنصور ... ٥٦٠

د ـ انقسام دولة الصنهاجيين ... ... ... ... ٥٦٢

( ٢ ) علاقة الصنهاجيين بالخلافة الفاطمية ... ... ... ٥٦٧

ا ـ الدور الأول من انفصال بني زيري عن الخلافة الفاطمية

بمصر ... ... ... ... ... ... ٥٦٧

ب ـ الدور الثاني من انفصال بني زيري عن الخلافة الفاطمية

بمصر ... ... ... ... ... ... ٥٦٨

ج ـ الدور الثالث من انفصال بني زيري عن الخلافة الفاطمية

بمصر ... ... ... ... ... ... ٥٧١

صفحة

د ـ الدور الأخير من انفصال بنى زيرى عن الخلافة الفاطمية بمصر ... ... ... ... ... ...

( ٣ ) انتقام المستنصر بالله الفاطمى : غزو عرب الهلالية وبنى سليم لبلاد المغرب ... ... ... ... ... ... ٥٨٠

ا ـ دخول قبائل بنى هلال وبنى سليم فى أرض المغرب ٥٨٠

ب ـ هزيمة جيوش المعز على أيدى العرب ... ... ٥٨٢

ج ـ نتائج غزو الهلالية للمغرب ... ... ... ... ٥٨٥

( ٤ ) استيلاء النورمانديين على المهدية ... ... ... ... ٥٨٨

ا ـ غارات الزيريين على سواحل إيطاليا وصقلية وآثارها ٥٨٨

ب ـ سقوط المهدية فى أيدى النورمانديين ... ... ٥٩١

( ٥ ) انقراض دولة بنى حماد ... ... ... ... ... ٥٩٧

# الباب الرابع

## المغرب الاسلامى فى ظل دولتى المرابطين والموحدين

### الفصل العاشر

### قيام دولة المرابطين فى المغرب

( ١ ) تأسيس دولة المرابطين ... ... ... ... ... ٦٠٤

ا ـ أصل المرابطين ... ... ... ... ... ٦٠٤

ب ـ رباط عبد الله بن ياسين ... ... ... ... ٦٠٧

صفحة

ج- في المرابطين إلى المغرب الأقصى ... ... ١٦٠
د- ظهور يوسف بن تاشفين ... ... ... ١٦٢

(٢) تأسيس مراكش وقيام دولة المرابطين ... ... ١٦٦

(٣) المرابطون في الأندلس ... ... ... ... ١٢١

ا- أحوال الأندلس عند قيام دولة المرابطين ... ١٢١
ب- موقعة الزلاقة ... ... ... ... ١٢٧
د- جهاد المرابطين في الأندلس منذ دخولها في ملك
دولتهم في المغرب ... ... ... ... ١٣٨

(٤) أسباب ضعف دولة المرابطين وانهيارها ... ... ١٥٩

(٥) منشآت المرابطين في المغرب ... ... ... ١٦٠

ا- دور المرابطين السياسي والحضاري في المغرب ... ١٦٠
ب- دراسة لأهم مساجد المرابطين في المغرب ... ١٦٣
ج- جامع القرويين بفاس ... ... ... ... ١٦٩
د- آثار القلاع والأسوار ... ... ... ... ١٧٧

## الفصل الحادي عشر

### المغرب في عصر الموحدين

(١) ظهور الموحدين ... ... ... ... ... ١٨٣

ا- المهدي بن تومرت فقيه السوس وعبد المؤمن بن علي
مراج الموحدين ... ... ... ... ١٨٣

صفحة

ب ـ الاشتباكات الأولى مع المرابطين ... ... ... ٢٤٢

( ٢ ) فتوحات عبد المؤمن بن على ... ... ... ... ٢٤٦

ا ـ المرحلة الأولى : إسقاط دولة المرابطين ... ... ٢٤٦

ا ـ فتح تلمسان ووهران ... ... ... ٢٤٦

ب ـ فتح فاس ... ... ... ... ٢٤٧

ج ـ فتح مراكش ... ... ... ... ٢٤٩

ب ـ المرحلة الثانية : فتح الأندلس ... ... ... ٢٥٠

ج ـ المرحلة الثالثة : فتح المغربين الأدنى والأوسط ... ٢٥٦

( ٣ ) عصر أبى يعقوب يوسف بن عبد المؤمن ... ... ٢٦٤

ا ـ الصعاب التى واجهته فى المغرب والأندلس ... ٢٦٤

ب ـ جهاده فى الأندلس واستشهاده فى شنتريين ... ٢٦٢

( ٤ ) المنصور بطل الأرك ... ... ... ... ٢٦٦

ا ـ حروبه مع بنى غانية ... ... ... ٢٦٦

ب ـ جوازه الأول إلى الأندلس واسترجاع المسلمين لشلب ٢٦٩

ج ـ انتصار أبى يوسف المنصور فى موقعة الأرك ... ٢٧٠

د ـ غزوة طليطلة ( سنة ٥٩٢ هـ ) ... ... ... ٢٧٦

هـ ـ الغزوة الثالثة ... ... ... ... ٢٧٨

( ٥ ) عهد الناصر وهزيمة الموحدين فى العقاب ... ... ٢٨٠

ا ـ ثورات المغرب فى عصر محمد الناصر ... ... ٢٨٠

صفحة

ب ـ هزيمة المسلمين في العقاب ... ... ... ... ٧٢٢

ج ـ انهيار دولة الموحدين بعد هزيمتهم في الأرك ... ٧٤٠

(٦) مساجد الموحدين وتحصيناتهم في المغرب ... ... ... ٧٤٦

١ ـ الأثر الأندلسي في الفن الموحدي ... ... ... ٧٤٦

ب ـ اهتمام الموحدين بالبناء ... ... ... ... ٧٤٩

ج ـ أهم مساجد الموحدين وتحصيناتهم في المغرب والأندلس ٧٥٢

١ ـ جامع الموحدين برباط تازى ... ... ٧٥٢

٢ ـ جامع تينمل ... ... ... ... ... ٧٥٢

٣ ـ جامع الكتبية بمراكش ... ... ... ٧٥٧

٤ ـ جامع القصبة بمراكش ... ... ... ٧٦٢

٥ ـ جامع حسان بالرباط ... ... ... ... ٧٦٣

٦ ـ جامع الأندلس بفاس ... ... ... ٧٦٤

٧ ـ جامع القصبة الكبير باشبيلية ... ... ... ٧٦٨

المئذنات المغربية ... ... ... ... ... ٧٧٢

أسوار المدن ... ... ... ... ... ٧٧٢

الأبواب ذات المرافق ... ... ... ٧٧٥

## خاتمة

## ورثة الموحدين في المغرب

١ ـ بنو مرين في المغرب الأقصى ... ... ... ... ٧٨١

صفحة

ب ـ بنو عبد الواد فى المغرب الأوسط ... ... ... ٧٨١

ج ـ بنو حفص فى المغرب الأدنى ... ... ... ... ٧٧٩

## مراجع الكتاب

أولا ـ المصادر العربية ... ... ... ... ... ... ٢٦٧

ثانيا ـ المراجع العربية الحديثة والاوربية المعربة ... ... ... ٨٠٤

ثالثا ـ المراجع الاوربية الحديثة ... ... ... ... ... ٨١١

## فهرس الصور

( ١ ) المسجد الجامع بالقيروان : منظر عام من أعلى المئذنة ... ٨١٩

( ٢ ) المسجد الجامع بالقيروان : جوفة المحراب ... ... ... ٨٢٠

( ٣ ) المسجد الجامع بسوسة : منظر عام ... ... ... ... ٨٢١

( ٤ ) » » » : منظر لعقود بيت الصلاة أدنى القبة ٨٢١

( ٥ ) » » » : أحد العقود التى تقوم عليها القبة ٨٢٢

( ٦ ) مسجد الأبواب الثلاثة بالقيروان : تفصيل لزخارف واجهة المدخل ... ... ٨٢٢

( ٧ ) » » » » : منظر عام للواجهة ... ٨٢٣

( ٨ ) جامع الزيتونة بتونس : عقود بيت الصلاة ... ... ... ٨٢٤

( ٩ ) » » » : قبة المحراب من الداخل ... ... ٨٢٥

(١٠) المسجد الجامع بسفاقس : رسم للمئذنة ... ... ... ٨٢٦

(١١) قبة الزرودية بمراكش : ... ... ... ... ... ٨٢٧

(١٢) » » » : ... ... ... ... ... ٨٢٧

(١٣) جامع القرويين بفاس : قبة المحراب .. ... ... ... ٨٢٨
(١٤) » » » : البلاطة الوسطى ... ... ... ٨٢٩
(١٥) المسجد الجامع بتلمسان : البلاطة الوسطى ... ... ... ٨٣٠
(١٦) المسجد الجامع بالجزائر : عقود بيت الصلاة ... ... ٨٣١
(١٧) المسجد الجامع بتلمسان : واجهة المحراب وجانب من القبة ٨٣٢
(١٨) جامع الأندلسيين بفاس : جهة الصحن والصومعة ... ٨٣٣
(١٩) باب الرواح بمراكش ... ... ... ... ... ٨٣٤
(٢٠) المسجد الجامع برباط الفتح والصومعة ... ... ... ٨٣٥
(٢١) المسجد الجامع برباط الفتح : أعمدة بيت الصلاة .. ... ٨٣٦
(٢٢) جامع الكتبية بمراكش : الأسقف والصحن ... ... ٨٣٧
(٢٣) » » » » : الصومعة ... ... ... ٨٣٨
(٢٤) جامع القرويين بفاس : الصحن ... ... ... ٨٣٩
(٢٥) تخطيط جامع القرويين بفاس ... ... ... ... ٨٤٠
(٢٦) جامع رباط تازى : قبة المحراب ... ... ... ... ٨٤١
(٢٧) المسجد الجامع باشبيلية : الصومعة ... ... ... ... ٨٤٢
(٢٨) » » » : قبوة بأعلى أسطوان المدخل الشرقى ٨٤٣
(٢٩) » » » : جانب من الزخارف التى تحف بعقد
المدخل إلى الصحن ... ... ... ... ... ٨٤٤
(٣٠) برج الذهب باشبيلية ... ... ... ... ... ٨٤٦
(٣١) المسجد الجامع باشبيلية : زخارف تملأ بواطن عقد المدخل ٨٤٨
(٣٢) سور مقارنة باشبيلية ... ... ... ... ... ٨٤٩
(٣٣) صحن المدرسة البوعنانية بفاس ... ... ... ... ٨٥٨

# فهرس الخرائط


| | صفحة |
|---|---|
| ( ١ ) دولة الوندال فى المغرب ... ... ... ... ... | ٨٥١ |
| ( ٢ ) حملة بيزاريوس على المغرب سنة ٥٣٣ ... ... ... | ٨٥١ |
| ( ٣ ) بلاد المغرب ... ... ... ... ... ... | ٨٥٢ |
| ( ٤ ) حملة عبد الله بن سعد ... ... ... ... ... | ٨٥٣ |
| ( ٥ ) حل عقبة بن نافع على إفريقية فى سنة ٤٤٩ ... ... ... | ٨٥٤ |
| ( ٦ ) حملة عقبة بن نافع على المغرب الأقصى ... ... ... | ٨٥٥ |
| ( ٧ ) مواضع قبائل البربر فى المغرب الأقصى ... ... ... | ٨٥٦ |
| ( ٨ ) مدينة فاس عن جابارد ... ... ... ... ... | ٨٥٧ |
| ( ٩ ) مدينة فاس عن ليون بروفنسال ... ... ... ... | ٨٥٨ |
| (١٠) فاس فى عصر بنى مرين ... ... ... ... ... | ٨٥٩ |
| (١١) المغرب فى القرن الرابع الهجرى ... ... ... ... | ٨٦٠ |
| (١٢) المغرب الأقصى فى القرن الرابع الهجرى ... ... ... | ٨٦١ |
| (١٣) المغرب الأقصى فى عصر الموحدين ... ... ... ... | ٨٦١ |


( تم بعون الله )

غلاف
مطبعة الاقتصاد
ELEKTOT PRESS
١٠ ش الوردى كرم الدكة - ت : ٥٩١٦٥٩٧